

لوسيندا رايلي

مكتبة

الشقيقات السبع 4

السقيقة

اللؤلؤة



ترجمة:

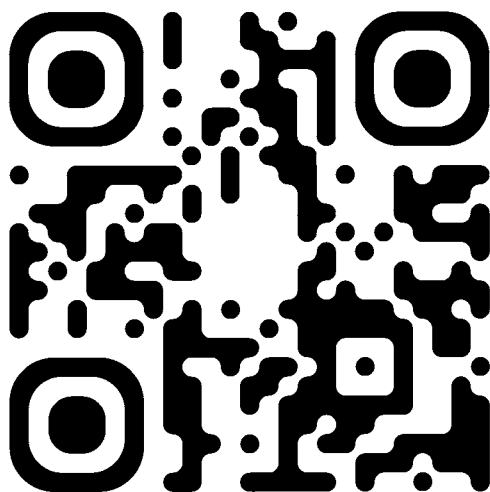
أسامة أسعد

رواية



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الشقيقات السبع ٤



سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

السُّقِيقَة

اللؤلؤة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

© جميع الحقوق بالعربية محفوظة
لشركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

الطبعة الأولى 2025

ISBN: 978-6144-58-630-3

تدقيق لغوي: وفيق زيتون

صورة الكاتبة على الغلاف: © Boris Breuer

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الإخراج الفني: بسمة تقي

Original Title: The Pearl Sister

Copyright © Lucinda Riley, 2017

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

مكتبة

t.me/soramnqraa

17 9 2025

الجنّاح، شارع زاهية سلمان، مبنى مجموعة تحسين الخياط

ص.ب.: 8375 - 11 بيروت، لبنان

هاتف: +961 1 830608 فاكس: +961 1 830609

الموقع الإلكتروني: www.all-prints.com

البريد الإلكتروني: publishing@all-prints.com

مواقع التواصل الاجتماعي: allprintslb

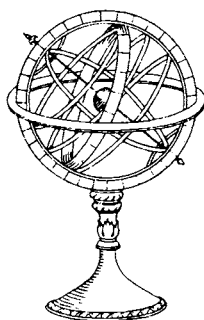
لوسيندا رايلي

مكتبة

السقيقات السبع

السقيقة اللؤلؤة

قصة سيّسي



ترجمة:

أسامة أسعد



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

أدب - رواية

إهداء
إلى الأب وابنته،
ريتشارد وفيليسيتي جييميت

ليس هناك رحلة مستحيلة.
كلّ ما تحتاج إليه هو خطوة إلى الأمام.



الشخصيات

أتلانتيس

پا سولت - والد الشقيقات بالتبني (متوفى)

مارينا (ما) - مربية الشقيقات

كلوديا - مدبرة المنزل في أتلانتيس

غيورغ هوفمان - محامي پا سولت

كريستيان - الرئاس

الشقيقات دابليز

مايا

آلي (ألسيوني)

ستار (أستروپ)

سيسي (سيلينو)

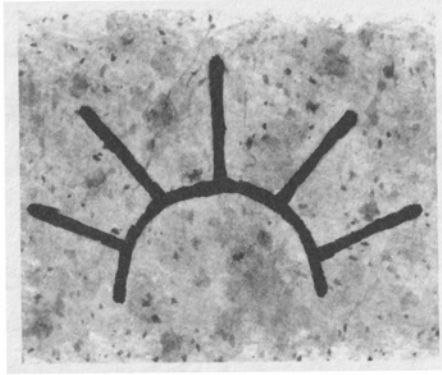
تيغي (تايجيت)

إلكترا

ميروپ (مفقودة)

السلوة

كانون الأول 2007



رمز يستعمله السكان الأصليون
للتعبير عن أثر بشري

أذكر بالضبط أين كنتُ، وماذا كنتُ أفعل عندما عرفت أن والدي قد مات. كنتُ غارقة في أفكارِي، أهدق من نافذة الطائرة إلى سواد الليل الدامس. في الأسفل، ومن حين إلى آخر، كانت تتلألأ عناقيد من الضوء، وكل ضوء ضئيل منها كان منزلاً يضم حياةً، أسرةً، ثلَّةً من الأصدقاء...

أشياء كثيرة كنتُ أشعر أنني حرمت منها ولم تعد لي بعد الآن.

كنت كما لو أنني أرى العالم مقلوباً رأساً على عقب، إذ بدت الأضواء تحت الطائرة نسجاً شاحبةً للنجوم من فوقِي. أعادت هذه الرؤية إلى ذاكرتي ما قاله لي ذات مرة أحد أساتذتي في كلية الفنون الجميلة. قال: «أنت ترسمين كما لو أنك غير قادرة على رؤية ما هو أمامك». كان محقاً؛ لم أكنُ أستطيع. كانت الصور تظهر في ذهني وليس في الواقع. في كثير من الأحيان، لم تكنُ تتخذ أشكالاً حيوانية، أو معدنية، أو حتى بشرية، لكنها كانت قوية، وكنتُ أشعر أنها تفرض نفسها عليّ، ولا أقوى على التفلّت من سطوتها. كتلك الكومة الكبيرة من النفايات التي جمعتها من مكبات الخردة في جميع أنحاء لندن، وكدستها في شقتي.

أنفقت أسابيع عدّة وأنا أحاول أن أعرف بالضبط كيفية جمع كل تلك القطع، بعضها مع بعض، في توليفة فنية مثالية. كان ذلك أشبه بالعمل على مكعب روبيك عملاق، على الرغم من أن المكونات الخام كانت تتألف من صفيحة وقود كريهة الرائحة، وفزاعة غاي فوكس قديمة، وإطار، ومحول معدنيّ صدئ. كنت لا أنفك أرتّب تلك الأجزاء في مكانها، سعيدةً بالنتيجة، إلى أن أضيف تلك القطعة الحيوية الأخيرة، التي - أينما كنت أضعها - تبدو دائماً وكأنها تفسد العمل بأكمله وتشوّهه.

أسندت جبيني الحار إلى زجاج النافذة البارد، الذي كان كل ما يفصلني،
ويفصل ركاب الطائرة الآخرين، عن الاختناق وموت محقق.

يا لهشاشتنا وضعفنا أمام الخطر...

عاتبْتُ نفسي التي أخذ الذعر يدب فيها مُحذَرَةً نفسي: «لا، يا سيسي، يمكنكِ
القيام بذلك من دونها، يمكنكِ حقًا».

ولكي أطرد خوفي المتأصل من الطيران، أجبرت نفسي على العودة بأفكاري
إلى يا سولت، إذ كان استحضار اللحظة التي بلغني فيها خبر وفاته مريحًا بشكل
غريب. إذا حدث الأسوأ، وهوت الطائرة من السماء، وقتلتنا جميعًا، فعلى الأقل،
قد يكون يا هناك على الجانب الآخر، ينتظرنِي. ففي النهاية، كان هو قد قام بهذه
الرحلة، بمفرده، مثلنا جميعًا.

كنت أرتدي سروالي الجينز عندما جاءني مكالمة من شقيقتي الصغرى تيغي
تخبرني فيها ب وفاة يا سولت. الآن، عندما أستعيد تلك اللحظة، أوقن تمامًا أنني لم
أستوعب ما قالته حقًا. كل ما كنت أفكر فيه هو كيف أخبر ستار، التي كانت تعشق
والدنا. كنت أعرف أنها قد تنهار كليًا.

أنتِ أيضًا كنتِ تعشقينه يا سيسي...

أجل، كنتُ أعشقه. لكن أولويتي كانت حماية شقيقتي الأضعف. كانت في
الواقع أكبر مني بثلاثة أشهر، لكنها كانت تعاني من صعوبة في التعبير، لذلك كنتُ
دائمًا أتحدّث عوضًا عنها. أقفلت قلبي ورفعت سحب سروالي ودخلت إلى غرفة
الجلوس لأخبرها.

لم تقل شيئًا، بكث بين ذراعيّ فحسب. فعلتُ كل ما في وسعي كي لا أذرف
دمعة واحدة. من أجلها، من أجل ستار. كان عليّ أن أكون قوية، وكانت بحاجة إليّ...
في ذلك الحين...

«سيدتي، هل تحتاجين إلى شيء ما؟».

حطّت عليّ سحابة عطر مسكّي وغمرتني. رفعت عينيّ ورأيتُ المضيئة
تنحني فوقِي.

«أوه، لا شكرًا».

«لقد ضغطتِ على جرس النداء».

همستُ بذلك بشكل مبالغ فيه وهي تشير إلى باقي الركاب الذين كانوا جميعهم نيامًا. في الواقع، كانت الساعة الرابعة صباحًا بتوقيت لندن.

رفعتُ مرفقي المذنب عن الزرّ الذي نَبَها وهمستُ بدوري: «آسفة».

كان ذلك نموذجيًا. أومأتُ لي بطريقة جعلتني أتذكر إيماءة إحدى معلماتي، عندما ضبطتني أفتح عينيّ أثناء تلاوة صلاة الصباح في المدرسة. ثم، ومع حفيف حريري، اختفت المضيئة عائدة إلى عرينها. بذلتُ قصارى جهدي لأجد وضعية مريحة، وأغمضت عينيّ، متمنيّة الانضمام إلى الأربعمئة، أو نحو ذلك، من ركاب الطائرة الذين أفلحوا في الهرب من رعب الاندفاع في الهواء على متن أنبوب من الألومنيوم. كالمعتاد، شعرتُ بالإقصاء، وعدم انتمائي إلى الحشد.

بالطبع، كنت أستطيع أن أحجز في درجة رجال الأعمال. كنت ما أزال أملك بعض المال الذي بقي من إرثي، لكنّه لم يكن بالقدر الكافي الذي يجعلني أرغب في تبديده على بضعة سنتيمترات إضافية، فقد أنفقت معظمه على شراء شقّة فخمة تطلّ على نهر التايمز لي ولستار. ظننت أن بيتًا حقيقيًا، هو ما كانت ترغب فيه وتتمناه، وأنه سيجعلها سعيدة، لكن ذلك لم يتحقق...

مثلما حدث قبل عام، وجدت نفسي في الدرجة الاقتصادية، في طريقي إلى تايلاند. لكنّ ستار لم تكن تجلس بجانبي هذه المرة، ولم أكن أذهب إلى الجانب الآخر من العالم رغبةً في السفر. كنت أهرب...



«هل ترغبين في تناول الإفطار يا سيدتي؟».

ناعسةً شبه دائخة، فتحت عينيّ وحذقت إلى المضيئة نفسها، تلك التي زارتني في منتصف الليل. كانت جميع أضواء المقصورة مضاءة وبعض ستائر النوافذ مفتوحة على الفجر الطالع بلونه الوردي.

«لا شكرًا، قهوة فقط. لو سمحت».

أومأت برأسها وانسحبت، وتساءلت لماذا كنت أشعر بالذنب عندما أطلب أي شيء، مع أنني كنت أدفع ثمن هذه التجربة.
«إلى أين وجهتك؟».

التفتُ إلى جاري، الذي لم أكن قد رأيته إلا جانبياً، مجرد أنف ونصف فم وخصلة شعرٍ شقراء تتدلى من تحت غطاء رأس أسود. الآن، كان أمامي بالكامل، ويحدّق إلى وجهي. ربما لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة، ولا تزال آثار حب الشباب بادية على ذقنه وجهته. بجانبه، شعرت فجأة وكأنني في سن التقاعد.
«بانكوك، ثم إلى أستراليا».

علّق قائلاً: «رائع!»، وهو يلتهم محتوى طبقه المثالي للسجون: بيض مخفوق غير صالح للأكل، شرائح مقلية أكثر مما يلزم من لحم الخنزير المقدّد، وشيء وردي طويل يتنكر على شكل نقانق. ثم أضاف: «سأذهب إلى أستراليا ذات يوم، لكنني سأزور تايلاند أولاً. لقد قيل لي إن حفلات اكتمال القمر شيء رائع».
«وهي كذلك».

«هل سبق لك أن حضرت إحداها؟».

أجبت: «مرّات عدّة».

وعلى الفور، أيقظ سؤاله جملة من الذكريات في ذهني.

«أي حفلة تقترحين؟ سمعت أن كوفا نغان هي الأفضل».

«لقد مرّ وقت طويل منذ المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى هناك. لكنني سمعت أنها أصبحت شعبية جدًّا، وتستقطب ما يزيد على ألفي شخص تقريباً. لكنّ مكاني المفضّل هو شاطئ رايلاي في كرابي. الجو بارد هناك، وهذا يتوقّف على تبث عنه بالطبع».

قال وهو يمزج النقانق: «سأنضمّ إلى رفاقي في بانكوك. لن يكتمل القمر قبل أسبوعين، ولدينا الوقت الكافي لنقرّر أين سنذهب. هل تذهبين إلى أستراليا لرؤية الأصدقاء؟».

«نعم». كذبتُ.

«هل ستوقفين في بانكوك لبعض الوقت؟».

«الليلة فقط». شعرت بانفعاله وحماسته عندما بدأت الطائرة بالهبوط في مطار سوفارنابوومي، وراحت المضيضة تتلو التعليمات المعتادة علينا نحن الأسرى. يا لها من مزحة، حقًا، هكذا قلت في نفسي وأنا أغمض عيني وأحاول تهدئة قلبي المضطرب. إذا تحطمت الطائرة، سنموت جميعًا على الفور، سواء كانت الألواح المثبتة على ظهور المقاعد في وضع مستقيم أم لا. أفترض أنه كان عليهم أن يقولوا هذه الأشياء لتهدئتنا والتخفيف من قلقنا.

هبطت الطائرة بمنتهى الرفق، ولم أعرف أننا أصبحنا على الأرض إلا عندما أعلنوا ذلك في مكبر الصوت. فتحت عيني وغمرني شعور بالانتصار. لقد أكملت رحلة طويلة بمفردي وما زلت على قيد الحياة لأرويتها. ستكون ستار فخورة بي... إذا كنت ما أزال أهمُّها.

بعد أن مررت بدائرة الهجرة، أخذت متاعي عن السير الدوّار واتّجهت نحو المخرج.

عندما لحق بي جاري المراهق قال: «اقضي وقتًا ممتعًا في أستراليا. يقول صديقي إن الحياة البرية مذهلة هناك، ثمة عناكب بحجم أطباق العشاء! أراك بخير!».

اختفى في موجة الحشد البشرية. تبعته إلى الخارج بوتيرة أبطأ كثيرًا واصطدمت بجدار مألوف من الحرارة والرطوبة. ركبت حافلة المطار المكوكية إلى الفندق الذي حجزت فيه لقضاء ليلتي، وسجّلت وصولي، ثم أخذت المصعد إلى غرفتي المعقّمة. رفعت حقيبتي عن كتفي، وجلست على ملاءات السرير البيض وقلت في نفسي: لو كنت أملك فندقًا، لزوّدت ضيوفي بملاءات داكنة لا تظهر عليها بقع أجساد الآخرين كما تظهر على الملاءات البيض، مهما أحاول غسلها وتنظيفها.

ثمة أشياء كثيرة كانت تحيّرنني في هذا العالم؛ القواعد التي وضعها شخص ما في مكان ما، منذ وقت طويل. خلعت حذائي الرياضي واستلقيت على الأرض، معتقدة أنني أستطيع أن أكون في أيّ مكان في العالم، وكرهت ذلك. كان المكيف

يطنّ فوقِي فأغمضت عينيّ وحاولت النوم، لكنني لم أستطع، فكلّ ما كنت أفكر فيه هو أنني إذا متُّ في هذه اللحظة، فما من بشريٍّ سيعلم بذلك.

عندئذٍ أدركت ما هي الوحدة حقًّا. شعرت بخواء هائل، وكأنني أأكل من الداخل. طردتُ الدموع من عينيّ، لكنها استمرت في التدفق مُرغمةً أجفاني على الانفتاح تحت ضغط ما بدا وكأنه سدٌّ على وشك التصدُّع والانهييار.

إبكي يا سيسي، لا ضير في ذلك...

سمعت صوت ما المريح في رأسي، وتذكّرت أنها قالت لي ذلك عندما سقطتُ عن الشجرة في أتلانتس والتوى كاحلي. حتّى في ذلك الحين، لم أكن أريد أن أبدو طفلةً متباكيةً، فعضضتُ على شفتي السفلية حتّى أدميتها.

يائسةً تمتمّ لنفسي: «لو كانت ما هنا لشعرتُ بالحزن»، ثمّ التقطتُ هاتفي وفكرتُ في تشغيله وإخبارها برسالة نصية عن مكان وجودي. لكنني لم أكن قادرة على رؤية رسالة من ستار، أو الأسوأ من ذلك، عدم رؤية أيّ رسالة منها. كنت أعلم أن ذلك سيكسرني. لذا رميت الهاتف على السرير وحاولت أن أغمض عينيّ ثانيةً. لكنّ صورة پا، ظهرت واضحة جليّة خلف أجفاني واستقرّت.

«من المهم يا سيسي أن تكونا أنتِ وستار صداقاتكما الخاصة، بالإضافة إلى وجود إحداكما من أجل الأخرى...».

قال ذلك قبل أن نذهب إلى جامعة ساسكس معًا، وأغضبني قوله لأنني لم أكن بحاجة إلى أيّ شخص آخر غيرها، كذلك كانت ستار. أو على الأقل، كنت أعتقد ذلك. تنهّدت وقلّتُ في نفسي: «أوه، قل لي يا پا، هل الحال أفضل هناك، في الأعلى؟».

في الأسابيع القليلة الماضية، عندما أوضحت ستار أنها لم تعد مهتمةً بالبقاء معي، وجدت نفسي أتحدّث كثيرًا مع پا. لم يبدو أن موته كان حقيقيًّا؛ ما زلت أشعر به قريبًا مني، بطريقة أو بأخرى. على الرغم من أنني، ظاهريًّا، كنتُ نقيض تيغي، شقيقتي الأصغر مباشرة، بكل ما تملك من معتقدات روحية غريبة. كان هناك هذا الجزء الغريب منّي، ذاك الذي يعرف أشياء غريبة، ويشعر بها أيضًا... في

أحشائي وفي أحلامي. في كثير من الأحيان، كنت أشعر بأنّ أوقات أحلامي كانت أكثر واقعية وحيوية من أوقات يقظتي. عندما كانت الأمور على ما يرام، كان ذلك أشبه بمشاهدة مسلسل على شاشة التلفزيون، إلى حدّ ما. لكنّ بعض ليالي كانت مسكونةً بالكوابيس أيضًا، كذلك التي كانت تعجّ بعناكب عملاقة...

ارتجفتُ إذ تذكّرتُ الكلمات التي قالها جاري المراهق في الطائرة عندما افترقنا... لا يمكنها أن تكون بحجم أطباق العشاء في أستراليا، أليس كذلك؟

«يا إلهي!». قفزت من السرير لكي أضع حدًا لأفكاري، وغسلت وجهي في الحمام. نظرت إلى انعكاس صورتني، بعينيّ الحمراوين اللتين انتفتختا من كثرة البكاء، وشعري الأملس المشبع بالدهون بعد الرحلة الطويلة، فقلت في نفسي إنني أبدو مثل خنزير برّي صغير.

لا يهمّ عدد المرّات التي تغزّلتُ فيها ما بشكل عينيّ ولونهما النادر، أو التي قالتُ فيها ستار كم كانت تحب مداعبة بشرتي، التي كانت - على حد تعبيرها - بمثل نعومة زبدة الكاكاو وطراوتها. كنتُ أعلم أنهما كانتا تجمالانني، لأنني لم أكن عمية مثلما كنت قبيحة، وكنتُ أكره أن يشفق عليّ الآخرون بسبب مظهري. ولما كان لديّ خمس شقيقات جميلات، فقد بذلتُ قصارى جهدي لئلا أتنافس معهنّ. لطالما قالت لي إلكترا - عارضة الأزياء - إنني لا أعنى بمظهري، ولو فعلتُ، ستكون مضیعة للوقت والطاقة، لأنني لن أكون جميلة أبدًا.

مع ذلك، كنتُ أستطيع خلق الجمال، والآن، وقد بلغتُ الحضيض، تذكّرتُ شيئًا آخر قاله لي يا ذات مرة عندما كنت أصغر سنًا.

مهما يحدث لك في الحياة، يا حبيبتي، فإن الشيء الوحيد الذي لا يقدر أحد على انتزاعه منك، هو موهبتك.

في ذلك الحين، اعتقدتُ أنها مجرد عبارة بديهية لا تقدّم ولا تؤخّر، تُقال لرفع المعنويات والتعويض عن حقيقة أنني كنتُ في الأساس فاشلة في الدراسة وفي علاقاتي مع الناس. في الواقع، كان يا مخطئًا، إذ حتّى لو لم يتمكّن الآخرون من انتزاع موهبتك منك، فقد يدمرون ثقتك بنفسك، بتعليقاتهم السلبية وملاحظاتهم،

ويزرعون الشك في عقلك، ولا تعودين تعرفين من أنت أو كيف تجعلين أي شخص يُعجب بك، أو تُعجبين بنفسك. هذا هو بالضبط ما حدث لي في مدرسة الفنون. وهذا هو السبب الذي دفعني إلى التخلي عن الدراسة.

قلت في نفسي موسيعة: «على الأقل، اكتشف ما لم أكن موهوبة فيه»، وهو ما كان، برأي أساتذتي، مجمل المواد التي اخترتها في الأشهر الثلاثة الماضية. على الرغم من الضربات التي تلقيتها، والنقد اللاذع لي وللوحاتي، فقد كنت أعرف أنني إذا فقدت الثقة في موهبتي، فلن يبقى لي شيء.

عدت إلى غرفة النوم واستلقيت مجدداً. تمنيت أن تنقضي ساعات الوحدة الفظيعة هذه بأسرع ما يمكن، وأدركت أخيراً لماذا كنت أرى عددًا كبيراً من كبار السن يجلسون على المقاعد كلما كنت أعبّر متنزه باترسي في طريقي إلى الكلية. حتى لو كان الجو متجمداً في الخارج، كانوا بحاجة إلى التأكد من وجود بشر آخرين على هذا الكوكب، وأنهم ليسوا وحيدين تماماً.

لا بدّ من أنني قد غفوت، لأن كابوس العنكبوت عاد من جديد. استيقظت وأنا أصرخ، وأضع يدي تلقائياً على فمي لئلا يسمعني أحد قد يكون في الممر ويظن أنني أتعرض للقتل. أدركت أنني لم أعد أستطيع البقاء وحيدة في هذه الغرفة الخالية من الروح، فانتعلت حذائي والتقطت كاميرتي واستقللت المصعد إلى مكتب الاستقبال.

في الخارج، كان هناك طابور من سيارات الأجرة التي تنتظر. صعدت إلى إحداها وطلبت من السائق أن يقلني إلى القصر الكبير. لطالما أمتعني، وأزعجني بالقدر نفسه، كثرة المستخدمين في بانكوك، وفي تايلاند بشكل عام. فإذا دخلت أي متجر، ولو لشراء علبة من الفول السوداني، تجدني دائماً شخصاً يرشدك، وآخر لتسديد ثمن مشترياتك وثالث لتعبيتها، فالعمالة رخيصة جداً هنا، وتكاد تكون الأجور تافهة. ندمت على تفكيري في ذلك، ثم ذكرت نفسي بأن هذا هو سبب حبي للسفر: فهو يضع الأمور في نصابها الصحيح.

أوصلني السائق إلى القصر الكبير، وتبعث جحافل السياح الذين كانت أكتاف

كثير منهم قد لوحتها الشمس، ما يدل على أنهم وصلوا مؤخرًا من مناخات أكثر برودة. خلعت حذائي خارج المعبد، ووضعت مع الصنادل والأحذية الرياضية التي تركها الزوّار الآخرون عند الدرجات، ودخلتُ. يُقال إن تمثال بوذا الزمردي يعود تاريخه إلى ما يزيد على خمسمئة عام، وكان أشهر تمثال في تايلاند. ومع ذلك، كان صغيرًا مقارنة بكثير من تماثيل بوذا الأخرى التي رأيته. ذكرني سطوع الجاد (اليشم) وتشكيل الجسد بسحلية خضراء زاهية. كانت أطرافه ملساء، وبصراحة، لم تكن متناسبة. لم يكن ذلك مهمًا، فقد كان «هو» تحفة جميلة.

تربعت على إحدى الحصائر، مستمتعةً ببرودة هذه المساحة الواسعة الهادئة مع بشر آخرين، ربّما كانوا في حالة من التأمل أيضًا. لم تكن الأديان تعينني، لكن إذا اضطررتُ إلى اعتناق دين ما، فقد أختار البوذية، لأنها في الجوهر تمجّد قوة الطبيعة، التي كنت أراها معجزة دائمة تحدث أمام عيني.

في كثير من الأحيان، كانت ستار تقول إنه كان ينبغي لي أن أنضمّ إلى حزب الخضر عندما تسمعي أتحّدث لفترة طويلة بعد مشاهدة برنامج تلفزيوني عن البيئة، ولكن ما الفائدة من ذلك؟ لم يكن صوتي مهمًا، وكنت أغبي من أن أؤخذ على محمل الجد. كلّ ما كنت أعرفه هو أننا غالبًا ما كنا نتجاهل النباتات، والحيوانات، والمحيطات التي تشكل نظامنا البيئي وتضمن بقاءنا. تمتمّت لبوذا: «إذا كنتُ أعبد أيّ شيء، فهو ذلك».

ربما يفهم، هو الذي كان مصنوعًا من تراب. من فلزّة معدنية تحوّلت على مدى آلاف السنين حجرًا كريمًا بالغ الجمال.

وما دمْتُ في معبد، فقد فكّرتُ في أن أتوجّه بكلمة إلى پا سولت. ربما كانت الكنائس والمعابد أشبه بمقاسم الهاتف أو مقاهي الإنترنت، تتيح لنا التواصل مباشرةً مع السماء...

«مرحبًا يا پا، أنا حزينة لرحيلك. أفقدك أكثر مما كنت أعتقد. وأشعر بالندم لأنني لم أستمع إلى نصائحك وكلماتك الحكيمة. ليتني فعلتُ. انظر كيف انتهى بي الأمر. أمل أن تكون بخير هناك. آسفة مرّة أخرى».

نهضتُ، وشعرتُ بغصةٍ تسدّ حلقي وتخنقني. مشيتُ حتّى الباب، وعندما أصبحتُ على وشك الخروج، استدرتُ. همستُ له: «ساعدني يا پا، أرجوك!». بعد أن اشتريتُ زجاجة مياه من أحد الباعة، جلّستُ حتّى نهر تشاو فرايا ووقفتُ أشاهد حركة المرور الكثيفة المتدفقة على طول النهر. كانت القاطرات والزوارق السريعة ومراكب الشحن الواسعة المغطاة بالقماش الأسود، تواصل عملها اليومي. قرّرتُ القيام بنزهة على متن العبّارة، وكانت الرحلة رخيصة وأفضل من الجلوس في غرفة الفندق البائسة القريبة من المطار.

من المركب، رأيتُ ناطحات سحاب زجاجية، تستقر بينها بأناقة معابد مذهّبة، وعلى طول ضفتي النهر، كانت الأرصفة المتداعية تربط المنازل الخشبية بتيار النشاط على الماء. أخرجتُ كاميرتي «النيكون» المخلصة التي أهداها لي يا في عيد ميلادي السادس عشر، لكي أتمكّن، من تخليد ما يلهمني، على حد تعبيره، ورحتُ ألتقط الصور. كانّ ستار تلح عليّ دائماً أن أنتقل إلى التصوير الرقمي، لكنني لم أتفق والتكنولوجيا، وتمسّكتُ بما كنت أعرفه.

بعد نزولي من القارب بعد فندق أورينتال مباشرة، وبينما كنتُ أسير في الشارع المجاور، تذكّرتُ المرّة التي دعوتُ فيها ستار إلى تناول الشاي في Au-thor's Lounge وهي صالة شهيرة راقية. كان الجميع يرتدون ملابس أنيقة، ونحن بلباس الجينز وقمصان التي شيرت، لم نكن حقاً في مكاننا. أنفقت ستار ساعات في المكتبة وهي تتأمّل الصور التي وقّعها المؤلّفون الذين أقاموا في الفندق على مر السنين. وكنتُ أتساءل ما إذا كانت ستكتب روايتها يوماً ما، لأنها كانت موهوبة، وتمتلك أسلوباً جميلاً في الكتابة ووصف الأشياء على الورق، حتّى لو لم يعد ذلك يهمّني. لقد أصبح لديها عائلة جديدة، ورأيتُ بريقاً في عينيها عندما جئتُ إلى المنزل قبل بضعة أسابيع وكان في شقتنا رجل تسميه «ماوس»، يحدّق إليها مثل جرو عاشق.

جلستُ في أحد مقاهي الشارع وطلبتُ طبقاً من المعكرونة وكأساً من البيرة. لم أكن أتحمل الكحول، لكن بالنظر إلى الحالة التي كنتُ فيها، لم يكن ذلك ليجعلني

أسوأ. وبينما كنتُ أتناول الطعام، قلتُ في نفسي إن ما يؤلمني أكثر من أي شيء، لم يكن حقيقة أن ستار لديها صديق جديد وعمل جديد، بل لأنها انفصلتُ عني ببطء وبشكل مؤلم. هل ظننتُ أنني قد أشعر بالغيرة، لأنني أريدها كلَّها لنفسِي؟ لم يكن ذلك صحيحًا. لقد أحببتها أكثر من أي شيء، ولم أكنُ لأتمنى إلا أن أراها سعيدة. كانت جميلة وذكية، ولم أكنُ غبية إلى الحدِّ الذي يجعلني أتخيَّل أنه لن يدخل حياتها رجل ذات يوم.

ثمَّة صوت في داخلي كان يقول: لقد كنتِ وقحة معه عندما جاء إلى الشقة، وبخني صوت داخلي. ونعم، لقد أزعجني وجوده هناك، وكالعادة، لم أعرف كيف أخفي ذلك.

أدَّت البيرة دورها وخففتُ من حدَّة ألمي. دفعتُ الحساب، ورحتُ أتسكَّع بلا هدف قبل أن أنعطف إلى زقاق ضيق يضمُّ سوقًا شعبية. مررتُ أمام فنان يرسم بالألوان المائية، فذكرتني جلسته خلف حامل اللوحة، بالأمسيات التي قضيتها على شاطئ رايلاي في كرابي مع علبة ألواني ودفتر الرسم، وأنا أحاول التقاط جمال الشمس الغاربة. أغمضتُ عيني، وتذكرتُ السلام الذي شعرت به عندما كنت هناك مع ستار، قبل عام واحد فقط. وددتُ استعادة تلك اللحظات إلى الحدِّ الذي جعلني أشعر بالألم.

شقتُ طريقي إلى ضفة النهر، انحنيتُ على حاجز الحماية وأنا أفكر. هل سيكون من الحماقة أن أعود إلى المكان الذي شعرتُ فيه بالسعادة قبل الذهاب إلى أستراليا؟ كنتُ أعرف أنا سًا يقيمون على شاطئ رايلي. سيتعرفون إليَّ ويرحبون بي. كانوا في معظمهم هاربين من شيء ما أيضًا، لأن رايلاي كانت ذلك النوع من الأماكن. علاوة على ذلك، فإن السبب الوحيد الذي جعلني أذهب إلى أستراليا هو ما قاله لي غيورغ هوفمان، محامي پا، عندما ذهبت لزيارته: «تكمُن أهميته في أنه بعيد من لندن».

بدلاً من قضاء اثنتي عشرة ساعة في أنبوبٍ طائرٍ لينتهي بي الأمر إلى مكان لا أعرف فيه أحدًا، كان من الممكن أن أشرب بيرة باردة على شاطئ رايلي مساءً

غد. من المؤكد أن بضعة أسابيع أو نحو ذلك لن تضر. في النهاية، كان عيد الميلاد وشيكًا، وقد يكون أقل فظاعةً أن أقضيه في مكان أعرفه وأحبه...

منذ زمن سحيق لم أشعر بمثل هذه الحماسة عند التفكير في القيام بشيء ما. وقبل أن يختفي هذا الشعور، أوقفتُ أول سيارة أجرة رأيتها ووجهتُ السائق إلى المطار. ذهبتُ إلى مكتب حجز التذاكر في الخطوط الجوية التايلاندية وشرحتُ للموظفة أنني بحاجة إلى تأخير رحلتي إلى أستراليا. بعد أن نظرت المرأة مطولاً على جهاز الكمبيوتر، أخبرتني أن التأجيل سيكلف حوالى أربعة آلاف بات، وهو مبلغ لم يكن كبيرًا.

قالت الموظفة: «لديكِ تذكرة قابلة للتغيير، متى ترغبين في إعادة الحجز؟». «ربما بعد عيد الميلاد مباشرة؟».

«لا أماكن شاغرة قبل الثامن من كانون الثاني».

وافقتُ، وشعرتُ بالسعادة لأنني أستطيع الآن إلقاء اللوم على القدر لاضطراري إلى البقاء لفترة أطول. ثم حجزتُ رحلة من بانكوك إلى كرابي، تغادر في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

عندما عدتُ إلى غرفتي في الفندق، استحممتُ، ونظفتُ أسناني، ثم آويت مطمئنة إلى السرير. لو كانت شقيقاتي هنا، لقلن إنني كسولة أحب التسكع، لكنني لم أكن أهتم.

ومثل حيوان جريح، كنت أذهب بعيدًا لأختبئ وألحق جراحى.

أفضل ما في شاطئ رايلي أنه يقع في شبه جزيرة، ولا يمكنك الوصول إليه إلا بقارب. كنت وستار قد زرنا أماكن رائعة كثيرة، ولا شك في أن الجلوس على مقعد خشبي على متن قارب طويل الذيل، يشقّ بصخب عباب بحر من الفيروز، ورؤية تلك الأعمدة الحجرية المذهلة التي ترتفع في سماء زرقاء عميقة، كانا على قائمة أجمل خمس لحظات سحرية عشتها في حياتي.

بينما كنّا نقترّب، رأيت حبلاً مربوطة بالصخرة التي كان يتسلّقها بشر يرتدون سراويل قصيرة ذات ألوان براقة زاهية، فبدوا أشبه بنمل متعدّد الألوان. عندما حملت حقيبة الظهر على كتفي ونزلت من القارب، شعرت بوخز قشعريرة تسري في جلدي من شدة الإثارة. وعلى الرغم من أنني لم أكن طويلة القامة، لكنني كنت قوية ورشيقة، وكان تسلّق الصخور أحد الأشياء التي أجيدها فعلاً. لم تكن مهارة مفيدة لشخص يعيش في وسط لندن ويريد أن يصبح فناناً، ولكن في مكان كهذا، كان ذلك يعني الكثير. فكّرت في العلاقة النسبية بين نقاط الضعف ونقاط القوة لدى المرء بحسب مكان وجوده على الأرض، سواء كانت إيجابية أم سلبية. في المدرسة، كنت غبية، بينما كانت ستار، «خارقة» بالمعنى الحرفي للكلمة. لكنها، هنا في كرابي، تلاشت قابعة في الظل، على الشاطئ، تقرأ كتاباً، بينما استمتعت أنا بجميع الأنشطة الخارجية التي توفّرها طبيعة المكان. في الهواء الطلق والمساحات الواسعة كنتُ كالسمكة في الماء، كما علّقت «ما» ذات مرة، وكنت هنا معروفةً من الجميع، أكثر بكثير من ستار.

كان لون المياه من حولي فريداً من نوعه، فيروزيّاً في ضوء الشمس الساطع، وأخضر زمرديّاً في ظلال الصخور الضخمة. وبينما كنت أخوض في المياه الضحلة

قبل أن أصل إلى اليابسة، رأيت الشاطئ ينتشر أمامي هلالاً لطيفاً من الرمال البيض، تحيط به أعمدة ضخمة من الحجر الكلسي، وأشجار النخيل تتناثر بين الأكواخ الخشبية التي تضم الفنادق والمنتجعات والحانات التي كانت تنبعث من إحداها موسيقى الريغي الهادئة.

مشيت على الرمال البيض الحارقة شاقّة طريقي بصعوبة إلى فندق رايلي بيتش، حيث أقمنا العام الماضي، واتّكأت على بار الشرفة الخشبية الذي كان في الوقت نفسه مكتب استقبال.

قلت لامرأة تايلاندية شابة لم أكن أعرفها: «مرحباً، هل لديك غرفة شاغرة للأسابيع القليلة المقبلة؟».

تفحصتني المرأة وأخرجت مجلّداً كبيراً يضم الحجوزات، ثم راحت تتبّع بإصبعها أسفل كلّ صفحة. أخيراً هزّت رأسها. قالت: «نحن على أبواب عيد الميلاد. لا غرف شاغرة بعد الحادي والعشرين».

اقترحْتُ: «لأسبوعين المقبلين إذا؟».

شعرتُ بيد تربّت ظهري فجأة. «هذه أنت يا سي؟ أليس كذلك؟».

التفتُ ورأيتُ جاك، وهو أسترالي طويل القامة مفتول العضلات، يملك الفندق ويدير مدرسة لتسلّق الصخور على الشاطئ عند الزاوية.

ابتسمتُ له وقلْتُ: «أجل، مرحباً. لقد وصلت لتوّي، سأبقى لأسبوعين على الأقل، ثمّ بعد ذلك، سأطرد. من الواضح أن الفندق محجوز بالكامل».

«لا تقلقي يا عزيزتي، سنجد لك مكاناً. شقيقتكِ هنا معكِ؟».

«لا. بمفردي هذه المرّة».

«إلى متى ستقيمين هنا؟».

«إلى ما بعد رأس السنة».

«حسنًا، أخبريني إذا كنتِ ترغبين في مساعدتي بالإشراف على متسلّقي الصخرة. سيسعدني ذلك. لدينا عمل كثير في هذا الوقت من السنة».

قلتُ: «لِمَ لا؟».

سَلَّمَتَنِي موظفة الاستقبال التايلاندية استمارة التسجيل وقالت: «املئها لو سمحتِ؟».

قال لها جاك: «لا تقلقي بشأن ذلك يا نام. كانت سي هنا مع شقيقتها في العام الماضي، ولدينا كل المعلومات. تعالي. سأرشدكِ إلى غرفتكِ».

«شكرًا».

حمل جاك حقيبتي، ورأيت موظفة الاستقبال تنظر إليّ والشرر يتطاير من عينيها.

سألني وهو يقودني على طول ممر خشبي، حيث تقع سلسلة من الغرف خلف صفٍّ من الأبواب المتداعية: «ما هي وجهتكِ المقبلة؟».

أجبت بينما كنا نقف أمام الغرفة رقم 22، في نهاية الممشى: «أستراليا».

تلقيتُ صفعه قوية، فقد كانت الغرفة بجوار مولد الكهرباء، مع إطلالة على حاويتين كبيرتين.

«آه، إلى بلدي. أيّ جزء؟».

«الساحل الشمالي الغربي».

«الطقس حار جدًا في هذا الوقت من العام، كما تعلمين».

قلت بينما كنت أفتح الباب: «الحرارة لا تزعجني».

«حسنًا، إلى اللقاء».

لَوَّح لي جاك وذَهَب.

على الرغم من أن الغرفة كانت صغيرة ورطبة وتفوح برائحة القمامة، أُلقيتُ حقيبتني على الأرض، وشعرتُ ببهجة لم أشعر بمثلها منذ أسابيع، إذ كان من الرائع أن أجد نفسي في مكان أكون معروفةً فيه. لقد أحببتُ أيام عملي الطارئة في مدرسة تسلّق الصخور العام الماضي، حيث كنت أتحقّق من الحبال وأثبتتُ أحزمة

الزبائن. في ذلك الوقت، كنت وستار نعاني من نقص المال، وخفّض لنا جاك أجرة الغرفة في المقابل. تساءلتُ عمّا سيقوله إذا أخبرته أنني لم أعد بحاجة إلى العمل، لأنني أصبحت مليونيرة. ولو على الورق...

سحبْتُ سلكًا مهترئًا لتشغيل مروحة السقف، وفي النهاية، ومع كثير من الققعقة والصرير، بدأت تدور لتعطي نسيماً خفيفاً. نزعْتُ ملابسي، وارتديت البيكيني والسارونغ الذي اشتريته هنا العام الماضي، ثم غادرت غرفتي وتوجّهتُ إلى الشاطئ. جلستُ على الرمل، وأضحكتني حقيقة أنني كنتُ هنا في «الجنة»، إذ كانت كلّ هذه القوارب ذات الذيل الطويل، التي تدخل الخليج وتخرج منه، تحدث ضجيجاً أعلى بمليون مرة من الضجيج على نهر التايمز في لندن. نهضتُ ونزلتُ إلى البحر. وعندما أصبحتُ بعيدةً عن الشاطئ بما فيه الكفاية، استلقيتُ على ظهري في الماء، ونظرتُ إلى السماء وشكرتُ الله، أو بوذا، أو أيّ شخص كان من المفترض أن أشكره، على عودتي إلى كرابي. وللمرة الأولى، منذ أشهر طويلة، شعرتُ كأنني في الوطن.

نمتُ على الشاطئ تلك الليلة، كما كنتُ أفعل غالباً في الماضي، ولم يكن لديّ سوى قفطان وكنزة مع غطاء للرأس ووسادتي الهوائية لمزيد من الراحة. كانت ستار تظن أنني مجنونة، وكلّما خرجت من الغرفة ومعني فراشي تقول: «سوف يلدغك البعوض حتّى الموت». لكنني، ومع تألق القمر والنجوم من فوق، كنت أشعر بأن سقف العالم يحميني أكثر من أيّ شيء من صنع البشر.

أيقظتني دغدغة على وجهي، فرفعتُ رأسي ورأيت قدمين كبيرتين تتجاوزاني متجهتين إلى البحر. وبينما كنت أزيل الرمال التي قذفتها عليّ، رأيت أن الشاطئ كان مقفرًا، وأن الضوء الوليد في الأفق يشير إلى أنها الساعة التي تسبق الفجر. غاضبةً من الاستيقاظ في هذه الساعة المبكرة جدًّا، رأيت الرجل الذي تجاوزني يجلس على حافة الماء ملصقًا ركبتيه ب صدره، ولافًا ذراعيه حولهما. كان ذا لحية سوداء وشعر أسود معقوص على شكل ذيل حصان يتناثر خلف قبعة البيسبول التي يعتمرها. استدرتُ محاولةً العودة إلى النوم لكن جسدي وعقلي لم يطيعا. فجلستُ واتخذتُ وضعية الرجل نفسها، وشاهدت معه شروق الشمس.

كنتُ قد زرتُ كثيرًا من الأماكن الغريبة، لكنني لم أرَ في حياتي غير عدد قليل نسبيًا من شروقات الشمس، لأنني أنام في هذه الساعة من النهار. ذكّرتني ألوان الفجر الساحرة بإحدى لوحات تورنر، لكنها أجمل في الحياة الواقعية.

ما إن استكملت الشمس استعراضها حتّى وقف الرجل ومشى مبتعدًا على طول الشاطئ. سمعت صوتًا خافتًا لقارب طويل الذيل من بعيد، معلنًا بداية النهار. نهضتُ وقررتُ العودة إلى غرفتي للنوم قبل أن يمتلئ الشاطئ بالمغادرين والقادمين. مع ذلك، فكّرتُ، عندما فتحت الباب واستلقيتُ على سريري، أن المشهد كان يستحق أن أبقى مستيقظةً لأراه.



كما كانت الحال دائمًا هنا، مرّ الوقت من دون أن ألاحظ ذلك حقًا. كنتُ قد وافقتُ على عرض جاك بمساعدته في مدرسة تسلّق الصخور. كما كنتُ أمارس الغوص والسباحة بجانب فرس البحر، وأسماك النمر وأسماك القرش ذات الرؤوس السود التي بالكاد كانت تجود عليّ بنظرة أثناء تجوالها عبر الشعاب المرجانية.

كنتُ أقضي أمسياتي في الدردشة على الشاطئ، مع صوت بوب مارلي. فوجئتُ بعدد المقيمين الذين يتذكرونني من العام الماضي، ولم أكنُ أعود إلى غرفتي إلا عندما يحل الظلام ويذهبون هم إلى الحانة ليثملوا. مع ذلك، لم يكن يزعجني ذلك، لأنني كنتُ أنا التي تتركهم، وليس العكس، وكنتُ أستطيع العودة والانضمام إليهم إذا ما رغبتُ في ذلك.

ما أسعدني حقًا هو عندما وجدتُ الشجاعة أخيرًا، وشغلتُ هاتفي بعد يوم من وصولي، لأكتشف أن ستار قد تركت لي رسائل نصيّة كثيرة تقول فيها أشياء مثل: أين أنتِ؟ أنا قلقة جدًّا عليكِ! ومن فضلكِ اتصلي بي! كما تركتُ رسائل كثيرة في البريد الصوتي، تقول في معظمها وتكرّر إنها آسفة. استغرق الأمر مني بعض الوقت لأردّ عليها، ليس لأنني كنتُ أعاني من عسر القراءة فحسب، أو لأن وظيفة التصحيح على هاتفي كانت أسوأ مني، بل لأنني لم أكن أعرف ماذا أقول.

في النهاية، قلتُ إنني بخير، واعتذرتُ عن عدم التواصل، لأنني كنتُ أسافر، وهو ما كان صحيحًا. ردّت من فورها برسالة نصيّة، معبّرة عن مدى ارتياحها لأنني بخير، وسألني أين كنتُ، وقالتُ إنها آسفة مرة أخرى. شيء ما منعني من إخبارها بموقعي. كان سلوكًا طفوليًا، لكنه السر الوحيد الذي كتمته عنها. هي أيضًا، كانت قد أخفت عني أشياء كثيرة في الآونة الأخيرة.



أدركتُ أنني قضيت أسبوعين في رايلي عندما ذكرتني نام، المرأة التايلاندية الشابة التي تعمل في مكتب الاستقبال، والتي تصرّفت كما لو كانت تمتلك المكان، بأنه يتعيّن عليّ أن أغادر اليوم ظهرًا.

«أيتها التافهة»، قلتُها بصوت خفيض بينما كنتُ أبتعد، وأنا أدرك أنني سأضطرّ إلى قضاء الصباح في البحث عن غرفة.

وصلتُ إلى الفندق بعد بضع ساعات قضيتها في البحث عن سرير لقضاء الليل بلا جدوى لأجد نام تحمّلني إليّ مجددًا.

«الخادمة بحاجة إلى تنظيف الغرفة. يصل الزبون الجديد في الساعة الثانية من بعد الظهر».

قلتُ: «حسنًا، سأخلي الغرفة في الحال».

أردتُ أن أخبرها أنه يمكنني بسهولة أن أحجز في فندق Rayavadee ذي الخمس نجوم لو كان لديهم غرفة شاغرة. وضعتُ كلّ شيء في حقّيبتي، ثمّ سلّمتُ مفتاح غرفتي. قلتُ في نفسي إن كلّ ما عليّ فعله هو أن أنام تحت النجوم حتّى ينقضي عيد الميلاد.

في وقت لاحق من ذلك المساء، بعد أن تناولتُ طبقًا من الپاد تاي، رأيتُ جاك يخرج من البار. كان يحيط نام بذراعه، وهو ما يفسّر موقفها العدائيّ مني.

سألني جاك: «هل وجدتِ غرفة؟».

«لا، ليس بعد، لكن لا بأس، سأنام على الشاطئ هذه الليلة».

«اسمعي، يا سي، خذي غرفتي، لا داعي للقلق على الإطلاق. أنا متأكد من إيجاد سرير لبضع ليالٍ في مكان آخر». ثمَّ قَبْلَ كتفِ نام الصغيرة المتعجرفة.
«حسنًا، شكرًا يا جاك».

وافقتُ بسرعة، بعد أن صرفت فترة ما بعد الظهر في حراسة حقيبتني على الشاطئ، كما لو كانت الكأس المقدسة، وأنا أتساءل: كيف أستطيع الاستحمام لإزالة الرمل والملح عن بشرتي. حتَّى أنا كنتُ بحاجة إلى الأساسيات.

بحث في جيبه عن المفتاح وأعطاني إياه، بينما كانت نام تنظر إليَّ باستنكار. تبعْتُ توجيهاته وصعدتُ مجموعة من السلالم الضيقة وفتحتُ الباب. على الرغم من رائحة الجوارب المتعرَّقة ورطوبة المناشف المبلَّلة، كانت غرفة جاك تتمتع بأفضل إطلالة في المبنى. والأفضل من ذلك، شرفها الخشبية.

أقفلتُ الباب، حذرًا من أن يشمل جاك وينسى أنه أعارني غرفته. استحمت، وكانت فوهة الدش أكبر وضغط الماء أقوى من الرشاش المتقطع في غرف الزبائن. ارتديتُ قميصًا وسروالًا نظيفًا وجلست في الشرفة.

بالقرب من حزام أوريون، رأيتُ كوكبة نجوم الشقيقات السبع متجمعة معًا. عندما أراني يا نجمتي للمرة الأولى من خلال منظاره الفلكي، لمس شعوري بخيبة الأمل. كانت أقلَّهن سطوعًا، وبدت قصتي الأسطورية غامضة في أحسن الأحوال، وفي أسوأها عديمة الأهمية. منذ طفولتي المبكرة، أردتُ أن أكون النجم الأكبر والأشدَّ بريقًا، وأن تكون قصتي هي الأفضل على الإطلاق.

قال وهو يأخذ يديَّ الصغيرتين في يده: «أنتِ هنا على هذه الأرض لتكتبي قصتكِ يا سيسي. وأنا أعلم أنكِ سوف تفعلين».

بينما كنتُ أتأمل كوكبة النجوم، فكَّرت في الرسالة التي كتبها لي يا، وأعطاني إياها غيورغ هوفمان، محامي، بعد أيام قليلة من وفاته.

كانت ستار قد رفضت أن تفتح رسالتها، أمَّا أنا فكنتُ متشوقة لقراءة رسالتي. لذلك، جريْتُ إلى الحديقة وتسَلَّقتُ شجرة زان قديمة رائعة، تلك التي سقطت عنها

ذات مرة عندما كنتُ طفلة صغيرة. لطالما شعرتُ بالأمان هناك، وأنا أحتمي من الأنظار بفروعها المورقة. غالبًا ما كنتُ أذهب إلى هناك للتفكير، أو التذمّر، حسب الحالة. بعد أن استرخيتُ على الغصن العريض، مزّقتُ الظرف وفتحتُ الرسالة.

أتلانتس

بحيرة جنيف

سويسرا

حبيبتي سيبي،

أعلم أنه سيكون صعبًا عليك أن تقرأي هذه الرسالة.

أرجوك أن تتحلّي بالصبر حتّى النهاية. أعتقد أيضًا أنك ستقرأين هذه السطور من دون أن تذرفي الدموع، لأنك تبقين عواطفك في داخلك، ولو أنني أدرك تمامًا مدى رفقتك وعمق مشاعرك.

كلّي يقين بأنك ستكونين قويةً من أجل ستار. لم يفصل بين وصولكما إلى أتلانتس سوى ستة أشهر، وكانت الطريقة التي كتبتَ تحمينها بها مشهدًا جميلًا مؤثّرًا يستحق التأمل. أنتِ تحبين بعمق وضراوة، كما كنتُ أنا دائمًا. اسمعي نصيحة رجل عالم بهذه القضايا: حاذري من أن يكون ذلك على حساب مشاعرك، وأن يتسبّب لك بالأذى. لا تخافي من الرحيل عندما يحين الوقت، فالرابطة التي تجمعك بشقيقتك عميقة، غير قابلة للكسر. ثقي بها.

كما رأيت، لقد تركتُ لكنّ يا فتيات كرة حلقية في الركن المفضّل من حديقتي. تحت كلّ اسم من أسمائكنّ توجد مجموعة من الإحداثيات التي ستخبركنّ بالتحديد أين وجدنّكنّ. هناك أيضًا اقتباس ذو صلة ودلالة أتمنى أن تجديه مفيدًا في سعيك. من جهتي، أعتقد أنه يلائمك تمامًا.

بالإضافة إلى ذلك، أحثّك على الذهاب لرؤية صديقي العزيز ومحاميّ غيورغ هوفمان في أقرب وقت ممكن. لا تقلقي، لأنه يحمل لك أخبارًا جيّدة جدًّا، وهو في حدّ ذاته يوفر رابطًا مع ماضيك سيكون كافيًا لوضعك على الطريق

الصحيح إذا كنتِ تريدين معرفة مزيدٍ عن عائلتك الأصلية. إذا فعلتِ ذلك، أنصحك بمعرفة مزيدٍ عن امرأة تُدعى كيتي ميرسر، كانت تعيش في بروم على الساحل الشمالي الغربي لأستراليا. معها تبدأ قصتك.

أدركُ أنكِ كثيرًا ما شعرتِ بأن شقيقاتكِ كنَّ يطغين عليكِ. ومن المهم ألا تفقدي الثقة بنفسكِ. موهبتكِ كفنانة فريدة من نوعها، فأنتِ ترسمين ما يتطلّبه خيالكِ. وبمجرد أن تجدي الثقة اللازمة به، ستطيرين، وأنا على يقين من ذلك.

أخيرًا، أريد أن أقول إنني أحبك، يا مغامرتي القوية العازمة. لا تتوقفي أبدًا، ابحثي عن الإلهام، والسكينة التي أرجو من الله، أن تنعمي بها أخيرًا.

يا سولت

كان يا محققًا في نقطة واحدة: لقد استغرق الأمر مني ما يقرب من الساعة لقراءة الرسالة، وفكّ رموز كلّ كلمة فيها. مع ذلك، فقد أخطأ في شيء آخر، إذ كدتُ أبكي. جلستُ على تلك الشجرة لفترة طويلة، حتّى تخدّرت مؤخرتي، وشعرتُ بوخز في ساقيّ كالإبر، فاضطرتُّ إلى النزول.

بفضل الله، أنا من أنا، هذا هو الاقتباس الذي نقشه على الكرة الحلقية. وبالنظر إلى ذلك - آنذاك والآن - لم يكن لديّ أيّ فكرة عن هويّتي، ولم يلهمني ذلك، بل زاد من اكتأبي.

عندما ذهبْتُ إلى جنيف لرؤية غيورغ هوفمان في مكتبه صباح اليوم التالي، قال لي إنه لا يحقّ لستار أن تدخل معي، لذا كان عليها أن تنتظر في مكتب الاستقبال. ثم أخبرني عن ميراثي وناولني مظلوفًا يحتوي على صورة بالأبيض والأسود لرجل مسنّ يقف مع صبي مراهق بجوار شاحنة صغيرة.

سألت غيورغ: «هل من المفترض أن أعرفهما؟».

«للأسف ليس لديّ أيّ فكرة يا سيلينو. هذا هو الشيء الوحيد الذي جاء مع الأموال. لم يكن هناك أيّ رسالة، سوى عنوان المحامي الذي حوّل الأموال من أستراليا».

كنتُ أتشوّق إلى عرض الصورة على ستار لمعرفة ما إذا كانت لديها أيّ فكرة، لكن من أجل تشجيعها على فتح رسالتها التي تركها يا، قرّرتُ ألا أخبرها بما قاله غيورغ هوفمان ما دامت لم تفتحها. عندما فتحت رسالتها أخيراً وقرأتها، لم تخبرني بما جاء فيها، لذا كانت لا تزال تجهل كلّ شيء عن الصورة، ومن أين جاءت أموال شراء الشقة في لندن.

كنتِ تقولين لي كلّ شيء...

أسندت ذقني إلى يدي وانحنيت فوق الشرفة، تعرّضت لجرعة كبيرة من «البؤس» ثانية، كما تعودنا أن نسميها أنا وستار عندما نشعر بالإحباط. لاحظت بطرف عيني شخصاً وحيداً يقف على حافة الماء بالقرب من الصخور، ويحدّق إلى القمر. كان ذلك الرجل الذي أيقظني على الشاطئ منذ أسبوعين، ولم أره منذ ذلك الحين. ولأن مجتمع رايلي كان صغيراً، فقد افترضتُ أنه غادر. ولكن ها هو وحيداً مرة أخرى في ظلام الليل. ربّما لم يكن يريد أن يُرى...

راقبته لأرى متى يذهب، لكنه لم يتحرّك لفترةٍ طويلة جداً. شعرت بالملل، فدخلت واستلقيت على السرير لأحاول النوم.

أيّا يكن ذلك الرجل، فقد عرفت أنه كان مثلي وحيداً.

في ليلة عيد الميلاد التي صادفت اكتمال القمر، فعلتُ ما تعودنا أن نفعله، أنا وستار، كل عام مع شقيقتنا. نظرت إلى السماء بحثًا عن النجمة السحرية المتلاثلة التي كان يا يقول دائمًا إنها نجمة بيت لحم. كنت قد بحثت ذات مرة على غوغل عن النجمة التي أشار إليها، وبمساعدة آلي، اكتشفت أنها كانت في الواقع نجمة الشمال، پولاريس. في سويسرا، كانت تحلق عاليًا في السماء طوال العام، وهذه الليلة لم أتمكن من العثور عليها. ثم تذكرتُ أن غوغل قال أيضًا إنه من الصعب رؤيتها كلما اتجهنا جنوبًا. نظرتُ إلى السماء وفكرت: كم هو محزن أننا لم نعد أطفالًا بعد الآن، وأننا نستطيع اكتشاف الحقيقة عن طريق الضغط على بعض المفاتيح على جهاز الكمبيوتر.

كنتُ أرغب في أن أؤمن بالسحر في هذه الليلة. ركزتُ نظري على النجمة الأكثر لمعانًا التي تمكنتُ من العثور عليها وفكرتُ في أتلانتس. لم تكن الثقافة البوذية تحتفل بعيد الميلاد، لكن تايلاند ما زالت تحاول جذب ضيوفها الدوليين من خلال تعليق الزينة، ما كان يجعل الجميع في مزاج جيد.

قبل منتصف الليل بقليل، خرجتُ من الحانة الصاخبة واتجهتُ نحو الصخور للحصول على أفضل رؤية للقمر المكتمل. هناك، كان يقف في الظل الرجل الغامض. مرة أخرى في الظلام، ومرة أخرى وحيدًا. شعرت بالغضب حقًا لأنني أردتُ أن تكون هذه اللحظة مميزة، وأن يكون لديّ مساحة لنفسي. استدرتُ وابتعدتُ عنه. وبعد ذلك، عندما أصبحتُ بعيدة بما فيه الكفاية، نظرتُ إلى أعلى وتحديثُ إلى شقيقتي.

عيد ميلاد سعيد يا ستار. آمل أن تكوني بخير. أنا أفتقدك.

ثم همستُ إلى السماء بأمنية صغيرة إلى يا، وإلى ما أيضًا، التي ربّما تفتقد يا مثل أيّ واحدة منّا. بعد ذلك، أرسلتُ قُبلاً إلى جميع شقيقتاتي، حتّى إلكترا، التي لم تكن تستحق قبلة، لأنها كانت أنانية جدّاً ولثيمة ومدلّلة... لكنه كان عيد الميلاد. عدتُ أدراجي، وشعرتُ بأن ساقِي كانتا تترنّحان تحتي، بسبب كأس البيرة الثانية التي قدّمت لي في الحانة.

أثناء مروري بالرجل الغامض، تعثّرتُ قليلاً وتلقّفتني يدان.
تمتمتُ: «شكرًا. كان ثمة... ممم... صخرة مغروزة في الرمل».
«لا عليك».

عندما تركت يداه ذراعي، نظرتُ إليه. من الواضح أنه كان يسبح، إذ كان شعره الأسود الطويل يتدلّى مبللاً حول كتفيه. كان لديه ما أطلقنا عليه أنا وستار لحية صدرية - على الرغم من أنها لم تكن كثيفة - وكان خط الشعر الأسود الذي يمتد من سرتة إلى سرواله القصير يشكّل ظلّاً في ضوء القمر. بدت ساقاه مشعرتين جدّاً. رفعتُ عينيّ إلى وجهه فرأيت عظام وجنتيه تبرز مثل المناشير فوق لحيته الداكنة، ما جعل شفثيه تبدوان ممتلئتين وورديتين. عندما تجرأتُ على النظر إلى عينيه، لفتني لونهما الأزرق.

ذكّرني بالرجل المستذئب. خصوصاً وأنّ هذه الليلة كانت ليلة اكتمال القمر. كان نحيفاً طويل القامة لدرجة جعلتني أشعر وكأنني قزمة ممتلئة الجسم بجانبه. تتمم قائلاً: «عيد ميلاد سعيد».

«عيد ميلاد سعيد».

قال: «لقد رأيتك من قبل، أليس كذلك؟ أنتِ الفتاة التي كانت تنام ذلك الصباح على الشاطئ».

«ممكّن. فأنا أقضي وقتاً طويلاً على الشاطئ». هزرتُ كتفيّ بينما كانت تجتاحني عيناه الزرقاوان الغريبتان.
«أليس لديكِ غرفة؟».

«بلى، لكنني أحب النوم في العراء».

«كلّ تلك النجوم، اتّساع الكون... يضع الأشياء في منظورها الصحيح، أليس كذلك؟». ثمّ تنهّد بعمق.

«نعم هو كذلك. أين تقيم؟».

«بالقرب من هنا». قال المستذئب ذلك وهو يلوّح بيده بشكل مبهم إلى صخرة خلفه، ثمّ أضاف: «وأنتِ؟».

أشرْتُ إلى فندق رايلي بيتش: «أقيم هناك». ثمّ أضفت: «أو بالأحرى، حقيبتى هي التي تقيم هناك. إلى اللقاء إذًا».

استدرت باتجاه الفندق، محاولةً بذل قصارى جهدي للمشي في خط مستقيم، وهو ما كان صعباً على الرمل، وأصبح مستحيلاً مع وجود كأسين من البيرة في أحشائي. عندما وصلت إلى الشرفة، كنت ما أزال أشعر بعينيّ المستذئب تتبعانني، وسمحت لنفسي بالقاء نظرة سريعة إلى الوراء. كان لا يزال يحدّق إليّ. أخذت زجاجتي ماء من الثلاجة وتوجّهت إلى غرفة جاك في الطابق العلوي. وبعد أن فتحت الباب، تسلّلتُ إلى الشرفة أحاول العثور عليه، لكنه كان قد اختفى في الظل. ربّما كان ينتظر أن أغرق في النوم، ليغرس نابيه الطويلين في رقبتى، ويخدر حواسي كي لا أصرخ وهو يمتصّ دمي حتّى آخر قطرة...

سيسي، أيتها الحمقاء، هؤلاء هم مضاصو الدماء، لا المستذئبون، قلت في نفسي وأنا أضحك، ثمّ تجشّأت وشربت زجاجة ماء بأكملها، وأنا أشعر بالانزعاج من نفسي ومن جسدي المثير للشفقة لعدم قدرتي على التعامل مع كأسين صغيرتين من البيرة. ترنّحتُ حتّى السرير، وشعرتُ برأسي يدور. وما إن أغمضتُ عينيّ، حتّى غرقت في نوم عميق.



كان اليوم التالي مشابهاً بشكل مؤلم لعيد ميلاد العام الفائت الذي قضيته هنا مع ستار. صُفّت طاولات الشرفة جنباً إلى جنب. وفي محاكاة لوجبة عيد الميلاد،

أُقيمت حفلة غداء، كما لو كان بالاستطاعة إرجاع عيد الميلاد وأجوائه في حرارة تبلغ أربعًا وثلاثين درجة.

بعد الغداء، شعرت بنفخة في معدتي بسبب الطعام الأوروبي المتعب، فذهبت للسباحة لأستعيد حيويّتي وأتخلص من هذا الشعور. كانت الساعة الثالثة تقريبًا، وهو الوقت الذي تستيقظ فيه إنجلترا، وربما كانت ستار في كينت مع عائلتها الجديدة. خرجت من البحر ونفضت قطرات الماء عني مثلما تفعل الكلاب. كان هناك أزواج كُثُر يتمددون بتكاسل على الشاطئ، وينامون بعد تناول وجبة الغداء. منذ سبعة وعشرين عامًا، كان هذا أول عيد ميلاد نقضيه أنا وستار منفصلتين. وإذا كان الرجل الغامض مستدبًا، فأنا ذئبة وحيدة الآن، وكان عليّ أن أعود ذلك.

في وقت لاحق من ذلك المساء، كنت جالسةً في زاوية الشرفة، أستمع للموسيقى على جهاز الـ iPod. كانت من النوع الصاخب الذي يفرحني عندما أشعر بالإحباط. شعرت بنقرة على كتفي واستدرت لأرى جاك يقف بجانبني.

نزعت سمّاعتي وقلت: «مرحبًا».

«مرحبًا. هل يمكنني أن أقدم لك كأس بيرة؟».

«لا، شكرًا. لقد شربت بما يكفي الليلة الماضية». نظرت إليه وأدركت أنه كان ثملًا إلى درجة لم يتمكن معها من ملاحظة ما تناولته.

«بالتأكيد. انظري يا سي، المشكلة هي أن، حسنًا...».

سحب كرسيًا وجلس بجواري: «لقد تخاصمنا... أنا ونام. لا أستطيع أن أتذكر الخطأ الذي ارتكبته، لكنها طردتني من السرير في الرابعة، هذا الصباح. حتّى أنها لم تحضر اليوم للمساعدة في تحضير غداء عيد الميلاد، لذا، لا أعتقد أنها سترحب بي عند عودتي الليلة. أنت تعرفين النساء».

شعرت برغبة في القول: «نعم، أنا واحدة منهنّ، أتذكر؟» لكنني لم أفعل.

«لذا، فالمشكلة هي أنه ليس لديّ مكان أذهب إليه. هل تمانعين في مشاركة

السرير معي؟».

قلت في نفسي على الفور: «بالتأكيد، وماذا أيضًا؟».

«ما دمت أستطيع ترك حقيبتني في غرفتك، فأنا سعيدة بالنوم على الشاطئ».

«حقًا؟».

«حقًا».

«آسف يا سي، أنا منهك تمامًا بعد كل هذه الاستعدادات لعيد الميلاد، والعمل الإضافي خلال الأيام القليلة الماضية».

«لا بأس. سأخذ بعض الحاجيات وأترك لك الغرفة».

وبينما كنت أبتعد قال: «أنا متأكد من أننا سنتمكن من أن نجد لك غرفة في مكان ما غدًا».

كان خيار النوم على الشاطئ أفضل كثيرًا من النوم في الغرفة نفسها مع رجل يشخر، وبالكاد أعرفه، كما كنت سأتعرض لكوابيس كثيرة.

جمعتُ ما يلزمي من حاجيات للنوم، ثم وضعتُ بقية ممتلكاتي في حقيبة ظهري. كان عليّ أن أجد مكان إقامة اعتبارًا من الغد لقضاء الأسبوعين التاليين قبل مغادرتي إلى أستراليا.

على الشاطئ، رتبتُ مكانًا للنوم تحت شجيرة صغيرة، ثم أخرجتُ هاتفي من جيب سروالي واتصلتُ بأتلانتس.

بعد بضع رنات: «مرحبًا».

«مرحبًا يا ما، أنا سيسي، أردتُ فقط أن أتمنى لك ولكلوديا ميلادًا سعيدًا».

«سيسي! يسعدني أن أسمع أخبارك! قالت ستار إنكِ ذهبتِ بعيدًا. أين أنتِ؟».

كانت ما تكلمنا نحن الشقيقات باللغة الفرنسية، وكان عليّ أن أضبط عقلي قبل أن أتمكن من الردّ عليها.

«أوه، أنت تعرفيني يا ما، أنا بخير، أسترخي على الشاطئ».

«نعم أعرفكِ. لم أكن أعتقد أنك ستصمدين طويلًا في لندن».

«أليس كذلك؟».

«أنت روح حرّة يا حبيبتى. تحيين التجوال».

«نعم، هذا صحيح». في تلك اللحظة، أحببت ما بقدر ما أحببتها دائماً. لم تكن تصدر علينا أحكاماً أو تنتقدنا، بل تدعمنا فقط. سمعتُ في الخلفية صوت سعال رجولي أجش، وانتصبت أذناي. سألت بشكل مثير للريبة: «من معكِ؟».

قالت ما: «كلوديا وكريستيان فقط». بعبارة أخرى، طاقم أتلانتس.

«عظيم. أتعلمين يا ما، لقد حدث لي أمر غريب حقاً، لكنني عندما وصلت إلى مطار لندن قبل ثلاثة أسابيع، رأيت پا، وأنا على يقين من ذلك. كان يسير في الاتجاه الآخر وحاولت الركض والإمساك به، لكنه اختفى. أعلم أن هذا يبدو غريباً، لكنني كنت متأكدة من أنه هو».

سمعت ما تتنهد بعمق وتقول: «*Oh chérie*! لست أول من يقول لي مثل هذا الكلام من شقيقاتك. لقد قالت كل من آلي وستار إنهما مقتنعتان بأنهما سمعتاه أو رأتاه... وربما حدث ذلك لكنّ جميعاً، ولكن ليس في الواقع. أو على الأقل، ليس الواقع كما نعرفه».

ضحكتُ وقلتُ: «هل تعتقدين أننا جميعاً نرى ونسمع شبح پا؟».

قالت ما وقد بدت فجأة حزينة جداً: «أعتقد أننا نود أن نصدّق أننا ما نزال نراه، لذلك ربما تستحضره مخيلتنا. أنا أراه هنا طوال الوقت. وهذا وقت صعب من العام بالنسبة إلينا جميعاً. هل أنتِ بخير يا سيسي؟».

«أنتِ تعرفينني يا ما، لم أكن ضحية المرض يوماً واحداً في حياتي».

«وهل أنتِ سعيدة؟».

«أنا بخير. وأنتِ؟»

«أنا أفقد والدك بالطبع، وأفقدكنّ جميعاً. كلوديا ترسل لك محبتها».

«محبتى لها أيضاً. حسناً يا ما، الوقت متأخر هنا، سأخلد إلى النوم».

«ابقي على اتصال، أليس كذلك يا سيسي؟».

«نعم، بالطبع سأفعل. طابت ليلتك».

دسستُ هاتفي المحمول في جيب سروالي، ثمّ حضنتُ ركبتيّ بذراعيّ وأسندتُ رأسي إليهما متفكرَةً في مدى صعوبة عيد الميلاد هذا بالنسبة إليها. نحن الفتيات، نستطيع المضيّ قدماً نحو المستقبل، أو على الأقلّ يمكننا أن نحاول. كانت الحياة أمامنا، لكنّ ما كرّست حياتها لنا نحن الفتيات، ولها. ثمّ تساءلتُ عمّا إذا كانت تحب والدي بطريقة «رومنسية»، وخلصْتُ إلى أنها لو لم تكن تحبه لما بقيت معنا كلّ تلك السنوات وجعلت منا أسرتها. وها نحن الآن قد تركناها جميعاً. ثم رحّت أتساءل إذا كانت أُمّي الحقيقية قد افتقدتني أو فكّرت فيّ، ولماذا أعطتني لها. ربما تكون قد تخلّت عني وتركتني في دار للأيتام، وتبنّاني هو. لا بدّ من أنني كنت طفلة فظيعة وأشفق عليّ.

كلّ الإجابات عن أسئلتي كانت موجودة في أستراليا، على بعد اثنتي عشرة ساعة أخرى من هنا. يا لها من صدفة غريبة أن يكون هذا هو البلد الوحيد في العالم، الذي رفضت زيارته رفضاً قطعياً، على الرغم من أن ستار كانت ترغب في الذهاب إليه. من المثير للشفقة أن يكون كابوس العنكبوت هو السبب، لكنه كان. بينما كنتُ أهيبُ فراشي على الرمل، قلت في نفسي: «لقد وصفني يا بأنني قوية ومغامرة. كنت أعلم أنني سأحتاج إلى كلّ من هاتين الصفتين لكي أصعد إلى تلك الطائرة بعد أسبوعين.



استيقظتُ مرة أخرى على ذرّات الرمل تدغدغ وجهي. أزلتها، وجلست لأرى المستذئب يمشي متجهًا نحو البحر. تساءلتُ لبرهة عن عدد العذارى اللواتي التهمهنّ في الساعات القليلة الماضية، ورأيت ساقيه الطويلتين تسرعان بيُسْرٍ على الرمل.

جلس على حافة الماء متّخذًا وضعية المَرّة السابقة نفسها، وكنت خلفه مباشرة. نظر كلانا إلى الأفق، بانتظار بدء العرض، كما لو كنا في السينما. سينما

الكون... أعجبتني هذه العبارة، وشعرت بالفخر لأنني فكّرت فيها. قد تستعملها ستار في روايتها ذات يوم.

كان العرض مذهلاً، وزاد من رونقه وجود بعض سُحُب خَفَّت من سطوع الشمس التي تسلّلت مثل صفار بيضة ذهبي والبياض من حوله.

قال المستذئب وهو يمشي عائداً: «مرحباً».

«مرحباً».

«كان شروقاً جميلاً، أليس كذلك؟».

«نعم، إنه شروق بديع».

«لا أنصحك بالنوم هنا الليلة، انتبهي. نحن في انتظار عاصفة».

«نعم، صحيح».

لَوْح بيده وقال: «حسنًا، إلى اللقاء».

بعد بضع دقائق، عدتُ إلى الشرفة، ورأيت جاك يقوم بإعداد وجبة الفطور. كانت نام تفعل ذلك في العادة، لكنها لم تظهر منذ ليلة عيد الميلاد. قلتُ: «صباح الخير».

قال: «صباح الخير.» ثم نظر إليّ نظرة مذنب قبل أن يضيف: «هل نمّت جيّدًا؟».

«لا بأس يا جاك».

أشرتُ إليه بالاقتراب مني، ثم أشرتُ إلى الشخص الذي كان يتعد على الشاطئ: «هل تعرفه؟».

«لا، لكنني رأيته على الشاطئ في وقت متأخر من الليل مرّات عدّة. إنه بمفرده دائمًا. لماذا تسألين؟».

«مجرد فضول. منذ متى وهو هنا؟».

«أحسب أنه هنا منذ بضعة أسابيع على الأقل».

«حسنًا. هل يمكنني أن أصعد إلى الغرفة لأستحم؟».

«بالتأكيد. أراك في وقت لاحق».

بعد أن استحمت، جلستُ على أرضية غرفة جاك ورحتُ أفرز محتويات حقيتي. فصلتُ الملابس النظيفة عن المتسخة - شكّلت الكومة المتسخة الغالبية العظمى - وقرّرتُ تركها في المصبغة العمومية قبل البحث عن غرفة. وإذا حدث الأسوأ ووجدتُ نفسي في الخارج وسط عاصفة هذه الليلة، فعلى الأقل سيكون لديّ ملابس نظيفة وجافة للغد.

على الرغم من أن عيد الميلاد لم يكن له وجود في هذا الجزء من العالم، لكن الجميع كانوا يجولون في الرقاق الضيق الذي تقع على جانبيه أكواخ يسمونها محلات تجارية، كما هي الحال في أوروبا. كما لو أنهم أكلوا كثيرًا، وشربوا كثيرًا وتعبوا بعد أن سئموا لأنهم فتحوا كل هداياهم وتلاشت الإثارة. حتى عاملة المصبغة التي تكون في العادة مبتسمة، بدت متجهمة وهي تفصل الغسيل الملون عن الأبيض، وتنفض ملابسها الداخلية على مرأى من الجميع.

سلمتني التذكرة وقالت: «ستكون جاهزة غدًا».

في الخارج، سمعتُ صوت قصف رعد بعيد، وبدأتُ البحث عن غرفة.

لم أجد مكانًا يقدم لي غرفة قبل ظهر الغد، فعدتُ إلى الفندق وكنتُ أتصّبب عرقًا. جلستُ أشرب ماء جوز الهند وأتساءل ما إذا كان ينبغي لي أن أبقى.

أستطيع أن أذهب إلى كو في في، ولكن لم يكن هناك ما يضمن أنني سأجد أي شيء هناك أيضًا. حسنًا، ليلة تحت المطر لن تقتلني، وإذا ساءت الأمور حقًا، يمكنني دائمًا الاحتماء تحت إحدى شرفات المطعم.

عندما مرّ بي وهو يحمل صينية من البيرة إلى الطاولة المجاورة، سألتني جاك: «هل وجدتِ غرفة؟».

«نعم». كذبتُ، لأنني لم أرغب في وضعه في موقف صعب وإشعاره بالذنب. ثم أضفتُ: «سأصعد إلى الطابق العلوي وأجمع أشياءي بعد الغداء».

سألتني: «تُرى، هل تساعدني بالبقاء خلف البار لبعض الوقت؟ فمع تغيب نام من دون إذن والفندق ممتلئ، لم أتمكن من الذهاب إلى الصخرة. لقد اتصلت

آبي لتوها لتخبرني أن لديهم طابورًا بطول ثعبان، والكل يستشيط غضبًا. يجب أن أذهب».

قلت مازحةً: «لا أمانع، على الرغم من أنني لا أثق بقدرتي على حمل الصواني من دون أن أقلبها».

«ليس لدي خيار آخر غير المخاطرة يا سي، فأنا غارق في المتاعب حتّى عنقي. لن أغيب أكثر من ساعتين، أقسم لك. البيرة مجانية، وكل ما تريدينه من طعام مجاني، كلّ ما ترغبين فيه على حسابي الليلة. تعالي، سأطلعك على كلّ شيء».

قلت: «شكرًا»، ونهضت لأذهب معه خلف البار.

انقضت أربع ساعات، ولم يظهر جاك. كان البار مزدحمًا وكان هناك إقبال على العصائر - لا بدّ من أن ذلك كان يعود إلى حاجة الزبائن لفيتامين C، أو كوكتيل Bloody Marys كعلاج لصداع الثمالة. لم يكن تحضير أيّ من المشروبات بسيطًا كفتح غطاء زجاجة بيرة، وانتهى بي الأمر ملطّخة بعصير المانغو عندما انفجر الخلّاط فوقّي، لأنني لم أحكم ربط الجزء العلوي ربطًا صحيحًا. تلاشى مرح الزبائن وروحهم المعنوية العالية كما تلاشى متعة اكتشاف الهدية مع إزالة ورق التغليف، وانزعجت من الصراخ عليّ لكوني بطيئة. علاوة على ذلك، كنت أسمع صوت الرعد وهو يقترب، ما يعني أنه في وقت لاحق، عندما أضطر إلى التخييم على الشاطئ، ستفتح ميازيب السماء كلها.

عاد جاك أخيرًا، وراح يفرط في الاعتذار عن غيابه الطويل. نظر من حوله، وكان البار شبه فارغ من الزبائن. «على الأقل لم تكوني مشغولة جدًّا. لقد كان الوضع شاقًّا عند الصخرة».

«نعم، صحيح...»، ذلك هو ما قلته في نفسي عندما انتهيت من تناول المعكرونة، ثمّ صعدت إلى الطابق العلوي لآخذ حقيبتني.

عندما وصلت إلى الطابق السفلي قال: «شكرًا سي. أراك في الجوار».

دفعت فاتورة غرفتي وخرجت.

مشيتُ على طول الشاطئ وظهرت بضع ومضات من البرق فوقى مباشرة. حسبْتُ أنه كان لديّ حوالى خمس دقائق قبل هطول المطر، فأسرعتُ واستدرتُ يمينًا لأسلك زقاقًا فيه حانة كنت أعرفها. لاحظت أن معظم متاجر الأكواخ قد أغلقت أبوابها مبكرًا بسبب العاصفة الوشيكة. وكان صاحب الحانة أيضًا يغلق أبوابها عندما اقتربت.

تممتُ في نفسي: «رائع»، بينما كان المالك يوجّه لي إيماءة مقتضبة، وتابعت. خاطبتُ نفسي متأوّهة: «هذا منتهى الجنون والسخافة يا سيسي، ما عليك إلا أن تعودى إلى جاك وتخبريه بأنك ستشاركينه سريره».

مع ذلك، دفعتني ساقاي حتّى وصلت إلى الشاطئ، على الجانب الآخر من شبه الجزيرة. كان يُطلق عليه اسم فرا نانغ، ومن الناحية الجمالية، كان أجمل من شاطئ رايلاي. وبالتالي، كان منطقة سياحية ضخمة للمسافرين النهاريين، لذلك كنت أتجنبها عادةً. كما أن فندق Rayavadee الفخم كان يقع فوقها، حيث ينتشر في محيطه حُرّاس أمن مخيفون. ذات ليلة، ذهبت وستار إلى هناك بعد أن غادر آخر قارب طويل الذيل، واستلقينا على الرمل نتأمل النجوم. وبعد خمس دقائق، أضاءت شعلة وجهينا وطلب منا المغادرة. حاولت أن أقول إن جميع الشواطئ في تايلاند عامّة ولا يحق لحُرّاس أمن الفندق أن يطردونا. لكن ستار أسكتني بينما كانوا يعاملوننا بخشونة ويدفعوننا على الطريق المؤدى إلى الجانب الخاص بالعامّة من شبه الجزيرة.

كان هذا النوع من الأشياء يثير حنقي، لأن الأرض خلقت ليتمتع بجمالها الجميع مجّانًا. ولم تكن حكرًا على الأغنياء دون غيرهم.

عندما أضاء خط من البرق الأزرق البنفسجي السماء، أدركتُ أن هذا الوقت لم يكن الوقت المناسب للخوض في حوار فلسفي مع نفسي. وعندما نظرتُ إلى الشاطئ، راودتني فكرة رائعة. كان كهف الأميرة في أقصى نهايته، فرحتُ أحتّ الخطى. وبعد أن قطعْتُ ثلثي المسافة، بدأت تتساقط عليّ قطرات من الماء كانت من الضخامة بحيث تخالها وابلًا من الحصى.

عندما وصلتُ إلى الكهف، دخلتُ مترنّحة وألقيتُ حقيبتَي على الأرض. نظرتُ إلى أعلى وتذكرتُ أنه لسبب ما كان هناك في الواقع نسختان صغيرتان من الأميرة، تستقران داخل معبد خشبي صغير، وبالكاد تظهران خلف مئات الأكاليل الملونة. على المذبح، كانت هناك شموع مشتعلة، تنير الكهف بوهج أصفر مريح.

ابتسمتُ، وتذكرتُ المرة الأولى التي زرنا فيها الكهف، أنا وستار. ظننا أننا سيكون مثل أي مكان عبادة تايلاندي آخر. توقّعنا تمثالاً ذهبياً وأكاليل في كل مكان، وبدلاً من ذلك، وجدنا أنفسنا أمام مئات الأعضاء التناسلية الذكرية ذات الأشكال والحجوم المختلفة. كانت تبرز من أرضية الكهف الرملية مثل صواعد مثيرة، وكان منها على الصخور أيضاً. الأحمر منها، والخضر، والزرق، والبنية... الصغيرة والكبيرة... من الواضح أن هذه الأميرة بالذات كانت إلهة الخصوبة، فبالنظر إلى حجم الأدوات التي كانت تزدهم في الكهف وفوق رأسي، لم يكن فهم ذلك صعباً.

كان كهف الأميرة يقدّم لي ملاذاً، وكنت محميّة من المطر الذي راح يتساقط مثل ستارة عند فتحة الكهف. وقفت ومشيت بين تلك القرايين، ثم ركعت عند المذبح لأعبر عن شكري. بعد ذلك، حشرت نفسي بجانب المدخل وتفرّجت على العاصفة.

كانت ومضات البرق المذهلة تبدّد للحظة ظلمة السماء وهي تحتدم فوق البحر والأعمدة الكلسية المتعرّجة. وكان المطر يتألق فضياً في ضوء القمر، وهو يتساقط على الشاطئ كما لو كان الله يبكي دلاءً من دموع.

في نهاية المطاف نهضتُ مترنّحة، منهكة بهذا المشهد وطاقة الكون الهائلة. توغلّت وحقيبة ظهري داخل الكهف. مددتُ فراشي، وغرقتُ في النوم خلف عضو ذكريّ ضخم قرمزيّ اللون.

«آي!».

اعتدلتُ في جلستي وقد جفلتُ لشعوري بشيء صلب يحفر في أضلاعي. نظرتُ إلى عيني حارس أمن تايلاندي، محاولةً إبعاد النوم عن جفوني. سحبني عن الأرض، وفي الوقت نفسه، راح يتكلّم بشراسة في جهاز الراديو الذي كان يحمله. نبج في وجهي: «لا تبقي هنا، اخرجي!».

«حسنًا، حسنًا، أنا ذاهبة». انحنيتُ لأضع فراشي في حقيبتني. ثم وصل إلى الكهف حارس أمن آخر، أقصر من الأول، لمساعدة زميله. أخرجاني بخشونة وسارا بي على امتداد الشاطئ وأيديهما محكمة الإطباق على ذراعي كما لو كنتُ مجرمة خطيرة، ولستُ سائحة احتمت من المطر في كهف. كان الرمل ما يزال رطبًا تحت قدمي، الدليل الوحيد على هطول الأمطار المذهل في أثناء الليل.

قلتُ بغضب: «لا حاجة إلى الإمساك بي. أنا ذاهبة، حقًا ذاهبة».

بينما كنا نتجه إلى الطريق في الطرف الآخر من الشاطئ، أطلق أحدهما سيلاً من الكلمات التايلاندية التي بدت عدوانية ولم أتمكن من فهمها. تساءلتُ عما إذا كنتُ سألقى في السجن كما حدث في بانكوك هيلتون، مسلسل نيكول كيدمان التلفزيوني الذي صدمني وأرعبني. إذا حدث الأسوأ، فلن أتمكن حتى من الاتصال ببا، الذي كان ليأتي إلى تايلاند ليحرّرني.

«أنتِ ثانية؟».

أدرتُ رأسي ورأيتُ المستذئب يتربّص بين الشجيرات في الجزء الخلفي من الشاطئ. قلتُ: «نعم». كنتُ أعلم أن وجهي قد احمرّ من الخجل. أَمَرَ وهو يسير نحونا: «پو، دُعها تذهب».

حرّر حارس الأمن الأقصر ذراعي من فوره، ثم تحدّث المستذئب باللغة التايلاندية إلى الحارس الأطول، الذي بدوره حرّر ذراعي الأخرى على مضض. قال باللغة الإنجليزية وهو يرفع أحد حاجبيه: «آسف، إنهم يبالغون في أداء مهمّتهم».

تحدّث إلى الرجلين مرّة أخرى، ثم أشار إلَيّ بعينه أن أتبعه. حيّاه كلا الحارسين، وبدأت عليهما خيبة الأمل عندما شاهداني أسير خلفه باتجاه الشجيرات. سألت: «كيف استطعت أن تفعل ذلك؟ كنتُ أعتقد أنني سأرمى في السجن». «قلتُ إنك صديقة. من الأفضل أن تسرعى».

ثم أمسك بذراعي وسحبني خلف الشجيرات المورقة. بعد بضع ثوان من الارتياح، راحت نبضات قلبي تتسارع من جديد وتساءلت عما إذا كان من الأفضل لي أن أكون في أحد أدغال تايلاند مع حارسي الأمن، أم مع رجل لا أعرفه؟ رأيتُ بوابة فولاذية عالية مخبّأة بين الكتل الخضر وشاهدت المستذئب يضغط بعض الأرقام على لوحة المفاتيح بجانبها. انفتحت بسلاسة وقادني إلى أبعد، حيث مزيد من الأشجار، ثم ظهرت فجأة حديقة واسعة وجميلة. على يميني رأيتُ حمام سباحة كبيراً مرصوفاً باللون الأسود، بدا وكأنه مأخوذ من مجلة تصميم. مشينا عبر أشجار مزينة بأزهار ذهبية إلى شرفة واسعة توزّعت فيها كراسي من الخيزران فرشتها خادمة ترتدي الزي الرسمي بوسائد كبيرة محشوة.

سألني ونحن نعبر الشرفة من دون أن يتوقّف: «ماذا تشربين؟ قهوة أم عصيراً؟».

قلتُ: «القهوة ستكون رائعة».

أعطى بعض التعليمات باللغة التايلاندية إلى الخادمة عندما مررنا بها. اقتربنا من فناء ينتشر حوله عدد من الأجنحة البيض، يعلو كلّاً منها سقف تايلاندي تقليدي على شكل حرف V حسب طراز اللانا. كانت تتوسط الفناء بركة تطفو على سطح مائها زهور حمراء، في وسطها ينتصب بوذا من العقيق الأسود. ذكرني المشهد بأحد تلك المنتجعات الصحية الغريبة التي كانوا يعلنون عنها في المجلات. تبعْتُ

المستذئب الذي صعد بضع درجات خشبية بالقرب من أحد الأجنحة، ووجدتُ نفسي على شرفة ظليلة على السطح توفر إطلالة رائعة على شاطئ فرا نانغ. «رائع، مذهل. لقد زرت هذا الشاطئ مرّات عدة، ولم ألاحظ وجود هذا المكان».

كان ذلك كلّ ما استطعت أن أفكر في قوله. قال، وهو يدعوني إلى الجلوس مشيرًا إلى إحدى الأرائك الضخمة: «جيد». أنزلت حقيبتني عن كتفي وجلست بحذر مخافة أن ألطخ الأغذية الحريرية النظيفة. لم أجلس على شيء يوفر مثل تلك الراحة منذ أن وصلت إلى تايلاند، ولم أكن أرغب في شيء غير الاستلقاء على الوسائد والنوم. سألتُ: «هل تقيم هنا؟».

«نعم، في الوقت الحاضر. لست مالك هذا المكان، إنه لأحد الأصدقاء». عادت الخادمة تحمل صينية قهوة وتشكيلة مختارة من المعجنات المصفوفة في سلّة صغيرة. «تفضّلي». «شكرًا». سكبتُ لنفسي فنجانًا من القهوة، ثم أضفتُ مكعبين من السكر البني.

«هل يمكنني أن أسأل لماذا كان حارسا الأمن يقتادانكِ مخفورةً على الشاطئ؟». «كنتُ أحتمي من العاصفة في كهف الأميرة، ويبدو... أنني نمتُ بينما كنت أنتظر أن تهدأ». منعتني كبريائي من إخباره بالحقيقة. قال: «لقد كانت عاصفةً حقيقية. يروقني أن أرى الطبيعة تتولّى زمام الأمور، وتبيّن لنا جبروتها».

«إذًا، ماذا تفعل هنا؟».

أخذ رشفة من قهوته السوداء وقال: «أوه... لا شيء يستحق الذكر، مجرد استجمام لبعض الوقت». «مكان عظيم للقيام بذلك».

«وَأَنْتِ؟».

«أَسْتَجِمُ أَيْضًا». أَخَذْتُ قِطْعَةً كِرَواسَانٍ بِالزَبْدَةِ. ذَكَرْتَنِي رَائِحَتُهَا بِوُجُوبَاتِ
الْفُطُورِ الَّتِي كَانَتْ تَعْدُهَا كِلُودِيَا فِي أَتْلَانْتِسْ، حَتَّى أَنَّنِي كَدْتُ أَنْسَى أَيْنَ كُنْتُ.
«وَقَبْلَ ذَلِكَ، مَاذَا كُنْتَ تَفْعَلِينَ؟».

«كُنْتُ فِي كَلِيَّةِ الْفُنُونِ، فِي لَنْدُنْ. لَمْ أَنْجَحْ فِيهَا، لِذَلِكَ غَادَرْتُ».
«عَظِيمٌ. أَنَا أَيْضًا أَقِيمُ فِي لَنْدُنْ... أَوْ عَلَى الْأَقْلِ كُنْتُ. عَلَى النَّهْرِ، فِي بَاتَرْسِي».
نَظَرْتُ إِلَيْهِ مَصْدُومَةً، وَتَسَاءَلْتُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ عِبَارَةً عَنْ حُلْمِ سِرْيَالِي، أَمْ
أَنَّنِي فِي الْوَاقِعِ لَا أَزَالُ نَائِمَةً خَلْفَ ذَلِكَ الْقَضِيبِ الْقَرْمَازِيِّ. «أَنَا أَقِيمُ هُنَاكَ أَيْضًا!
فِي بَاتَرْسِي فَيُو، فِي الشَّقِيقِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي بُنِيتْ مُؤَخَّرًا بِالقَرَبِ مِنْ جِسْرِ أَلْبِرْتِ».
«أَعْرِفُ بِالضَّبْطِ أَيْنَ تَقْصِدِينَ. حَسَنًا، مَرْحَبًا أَيْتَهَا الْجَارَةُ».

لِلْمَرَّةِ الْأُولَى ابْتَسَمَ لِي الْمُسْتَذْنِبُ بِصَدَقٍ وَهُوَ يَضْرِبُ كَفَّهُ بِكَفِّي. أَشْرَقَتْ
عَيْنَاهُ الزَّرْقَاوَانُ الْغَرِيبَتَانِ وَلَمْ يَعُدْ يَشْبَهُ الْمُسْتَذْنِبَ، بَلْ طَرَزَانُ رَشِيقٍ جَدًّا.
سَكَبْتُ لِنَفْسِي فَنَجَانًا آخَرَ مِنَ الْقَهْوَةِ وَجَلَسْتُ عَلَى الْأَرِيكَةِ بِحَيْثُ لَمْ تَدُلَّ
مِنْ حَافَتِهَا سِوَى قَدَمِي. تَمَنَيْتُ لَوْ لَمْ أَكُنْ أَنْتَعَلَ حِذَاءً، وَأَنْ أَطْوِي سَاقِي تَحْتِي
وَأَحَاوِلَ أَنْ أَبْدُو أُنِيقَةً كَمَا يَلِيقُ بِالْمَكَانِ.

هَزَّ رَأْسَهُ وَقَالَ: «يَا لَهَا مِنْ صَدْفَةٍ.. أَخْبَرَنِي أَحَدُهُمْ ذَاتَ مَرَّةٍ، أَنَّهُ فِي أَيِّ بَلَدٍ
عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، ثَمَّةُ سِتْ دَرَجَاتٍ فَقَطْ مِنَ الْبَعْدِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ شَخْصٍ نَعْرِفُهُ».
صَوَّبْتُ: «أَنَا لَا أَعْرِفُكَ».

«أَلَا تَعْرِفِينَنِي؟». نَظَرَ إِلَيَّ لِبُضْعِ ثَوَانٍ، وَفَجْأَةً، بَدَتْ تَعَابِيرُ وَجْهِهِ جَدِيَّةً.
«لَا، هَلْ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَعْرِفُكَ؟».

تَمَتَّمَ: «لَا، لَا، كُنْتُ أَتَسَاءَلُ فَقَطْ إِنْ كُنَّا قَدْ التَقِينَا عَلَى جِسْرِ أَلْبِرْتِ أَوْ بِالقَرَبِ
مِنْهُ».

«رَبَّمَا. تَعَوَّدْتُ عُبُورَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي طَرِيقِي إِلَى الْكَلِيَّةِ سِيرًا عَلَى الْأَقْدَامِ».
«كُنْتُ أَعْبِرُهُ عَلَى دَرَاغَتِي».

«إذا لم أكن لأتعرّف إليك وأنت ترتدي الليكرا وتعتمر خوذة».

«صحيح».

أنهى كلانا قهوته في صمت مُحرج.

سألته أخيرًا: «هل ستعود إلى لندن قريبًا؟ بعد رأس السنة الجديدة على سبيل المثال أو قريبًا؟».

أظلم وجه المستذئب وقال: «لا أعرف. يعتمد ذلك على ما يحدث... أحاول أن أعيش يومًا بيوم. وأنت؟»

«أنا أيضًا، على الرغم من أنه يُفترض بي أن أذهب إلى أستراليا».

«لقد زرتُ أستراليا. ولكن انتبهي، زرتها بقصد العمل، وهذا مختلف. إذ كل ما يمكنك رؤيته في هذه الظروف هو الفنادق والمكاتب، والمطاعم باهظة الثمن. هذا ما يُسمى بحسن الضيافة في عالم الشركات، كما تعلمين».

لم أكن أعلم، لكنني أومأت برأسي من دون قناعة حقيقية.

تابع: «لقد فكّرتُ في الذهاب إلى هناك. عندما نريد فقط الابتعاد قدر الإمكان، تفهمين ما أقصده أليس كذلك؟».

«نعم أفهم». قلتُ ذلك بصدق وقناعة هذه المرة.

«لكنّ لهجتك ليست إنجليزية. هل ما أسمعُه هو لهجة فرنسية؟».

«نعم. لقد وُلدت... حسنًا، لا أعرف في الواقع أين وُلدتُ لأنني متبنّاة. لكنني نشأتُ في جنيف».

«هذا مكان آخر زرتُه ولم أرَ إلّا المطار في طريقي إلى رحلة تزّج. هل تحسنين التزّج؟ إنه سؤال غبي إذا كنتِ سويسرية».

«نعم. وأحبّه، لكنني لستُ من عشاق البرد». تخلّلتُ المحادثة صمت آخر شربت فيه فنجانين كبيرين من القهوة قبل أن أستجوبه مجددًا.

«كيف تعلّمت اللغة التايلاندية؟».

«أمي تايلاندية. لقد نشأتُ في بانكوك».

«أوه. ما زالت تعيش هناك؟».

«لا، لقد توفيتُ عندما كنتُ في الثانية عشرة من العمر. كانت... رائعة، وما زلت أفتقدها».

قلت: «أوه، آسفة»، وتابعْتُ الحفر: «وماذا عن والدكِ؟».

أجاب فجأة: «لا أعرفه، لم ألتقهِ مطلقًا. وأنتِ، هل قابلتِ والديكِ الحقيقيين؟».

«لا».

لم أعرف كيف وصلنا بعد عشرين دقيقة فقط إلى التحدُّث بأشياء حميمة كهذه.

رفعت نفسي حتَّى لامست قدمي الأرض وقلت: «اسمعي، يجب أن أذهب. لقد سبَّبت لك ما يكفي من المتاعب».

«إِذَا أين تقيمين الآن؟».

قلت بمرح: «أوه، في فندق على الشاطئ، لكنني كما تعلم، أفضل النوم في العراء».

«أظن أنكِ قلتِ إن حقيبة ظهركِ لديها غرفة. لماذا تحملينها معكِ؟».

شعرتُ من فوري وكأنني طفلة صغيرة قُبض عليها وهي تخفي الحلوى تحت السرير. وما همَّني لو عرفتُ؟ «لقد استعرتُ غرفتي من شخص كان يقيم فيها مع صديقتي، وأراد استعادتها. ولا يوجد غرف شاغرة في أيِّ مكان. ذلك هو السبب الذي جعلني ألجأ إلى الكهف عندما بدأ المطر يهطل».

قال وهو يتفحصني: «حسنًا. لماذا لم تخبريني بذلك منذ البداية؟».

قلتُ، وأنا أنظر إلى قدمي كما يفعل طفل في الخامسة من العمر: «لا أعرف... لسْتُ يائسة أو أيَّ شيء من هذا القبيل. يمكنني أن أتدبّر أمري بنفسي، لم تكن هناك غرفة شاغرة، هذا كلُّ ما في الأمر».

«لا داعي للشعور بالحرَج، فأنا أفهم ذلك تمامًا».

«خشيتُ أن تظنَّ أنني متشرّدة، أو ما شابه ذلك».

«أقسم بأنني لم أفكر في ذلك. بالمناسبة، ما كل هذه الأشياء الصفر في شعرك؟».

«يا إلهي!». مررتُ يدي على شعري فوجدتُ حُصله متشابكة وملتصقة بعضها ببعض. «إنه المانغو. لقد طلب مني صديقي جاك أن أعمل مكانه على البار في فندق رايلي بيتش، بعد ظهر أمس، حيث كان طلبُ كوكيتلات الفاكهة كبيرًا، وانفجر الخلط فوق رأسي».

«أرى ذلك». حاول الحفاظ على وجهه خاليًا من كلّ تعبير لكنه لم يستطع، فتابع: «حسنًا، هل يمكنني على الأقل أن أقدم لك حمامًا وسريرًا لبضع ليال حتى تهدأ الأمور على الشاطئ؟ المياه ساخنة».

في حالتي تلك، أغراني العرض حقًا. تغلّبتُ فكرة الماء الساخن وشكلي المريع ورائحتي المقرّزة على الكبرياء. قلتُ: «نعم، من فضلك».

عاد بي إلى الطابق السفلي وعبرنا الفناء إلى جناح آخر، على يمين المربع. كان المفتاح في القفل، فأداره ثم سلّمني إياه. «كلّ شيء جاهز. إنه كذلك دائمًا. خذي وقتك، لا شيء يدعو إلى العجلة».

«شكرًا».

دلفتُ إلى الداخل، وأغلقتُ الباب خلفي بقوة. قلتُ بصوت عالٍ وأنا أنظر من حولي: «رائع».

لم يكن مخطئًا بشأن «تجهيز» الغرفة. عاينتُ السرير ذا الحجم الملكي والوسائد الناعمة واللحاف الوثير، كلها باللون الأبيض. الأبيض الناصع النقي، لا الملطّخ بآثار أشخاص آخرين. كان في الغرفة جهاز تلفزيون ذو شاشة كبيرة مسطّحة معلّقة خلف مصراعين، يمكنك أن تغلقهما إذا كنت لا تريد أن يذكرك شيء بالعالم الخارجي، ولوحات وتحف فنية تايلاندية ذات ذوق رفيع. وعندما لمسْتُ الجدران أدركت أنها مغطاة بالحرير. ألقيتُ حقيبتني على الأرضية المصنوعة من خشب الساج، وبحثتُ عن جِلّ الاستحمام السائل، ثم دخلتُ إلى ما افترضتُ أنه الحمام، لكن تبين لي أنه خزانة ملابس كبيرة. حاولتُ مع بابٍ آخر، ووجدتُ نفسي في

غرفة تحتوي على دشّ تدليك وحوض استحمام كبير قبالة جدار زجاجي، يطل على حديقة صغيرة مليئة بأشجار البونزاي القزمة والنباتات المزهرة الجميلة التي أجهل أسماءها، بعكس ستار التي لا شك في أنها كانت تعرفها كلها. كانت الحديقة مسوّرة بجدارٍ عالٍ حتّى لا يتمكن أحد من التلصّص عليك وأنت تستحم.

راودني إغراء شديد بملء الحوض والغوص فيه، لكنني شعرتُ أن ذلك سيكون بمنزلة استغلال. لذلك فتحت الدشّ وفركتُ كلّ جزء مني حتّى شعرتُ بوخز في جلدي. لم أكنُ بحاجة إلى أن أزعج نفسي بالبحث عن جِلّ الاستحمام، إذ كانت على الرفّ مجموعة كاملة من مستحضرات العناية بالجسم، من إنتاج أفخر العلامات التجارية الصديقة للبيئة.

بعد خروجي من الحمام، وعلى الرغم من أنني لا أريد أن يعرف أحد ذلك، لأنني كنت ضد تلك المستحضرات التي تخدع النساء لشرائها، رطبّت جسدي إلى أقصى حد بكل ما كان متوافراً. أزلت المنشفة عن رأسي، ونفضت شعري ولاحظت أنه في خلال مدة قصيرة بات يلمس كتفي ويسقط حول وجهي على شكل حلقات. لطالما كانت ستار تقول إن مظهري أجمل بالشعر الطويل. وكانت ما، تطلق عليه اسم تاج المجد، لكنني عندما كنتُ في السادسة عشرة، قصصه قصيراً لأن العناية به كانت أسهل. وللأمانة، كان ذلك فعل تمرّد وفضاظة أيضاً. كما لو كنتُ أريد أن أظهر للعالم أنني لا أهتم بمظهري الخارجي.

سحبّت شعري عن وجهي ورفعته إلى أعلى رأسي. وللمرّة الأولى تمّنيّت لو كان لديّ ربطة شعر لأعقسه على شكل ذيل حصان.

عدتُ إلى الغرفة ونظرتُ بلهفة إلى السرير الهائل. بعد أن تأكّدتُ مرة أخرى من أن الباب ما يزال مغلقاً، ارتديت قميصي وصعدت إليه. عشر دقائق فقط، قلت نفسي وأنا أضع رأسي على الوسائد البيض الناعمة...



استيقظتُ فجأة على صوت ضجيجٍ عالٍ، فجلست. لم يكن لديّ أدنى فكرة عن

مكان وجودي. كان الظلام دامسًا ورحت أبحث عن مفتاح الضوء كالعمياء. سمعتُ صوت ارتطام شيء ما بالأرض، فنهضتُ من السرير مذعورة.

«هل أنتِ بخير؟»

تتبعْتُ مصدر الصوت وتحسَّستُ الباب براحتي. أخيرًا تذكَّرتُ مكان وجودي ومن كان يطرق الباب.

قلتُ: «لا أستطيع العثور على ثقب المفتاح، والمكان هنا مظلم جدًّا».

«استخدمي يديكِ لتتحسَّسي المفتاح. إنه أمامك مباشرة».

هَذَاني الصوت وبحثتُ على مستوى خصري حيث كان هذا، في العادة، هو المكان الذي يوجد فيه قفل الباب. تحسَّستُ أصابعي المفتاح، ثم أمسكتُ به، وبعد محاولات عدَّة تمكنت من تدويره، ولويت المقبض.

صحتُ: «إنه مفتوح، لكنني ما زلت غير قادرة على فتح الباب».

«تنحِّي جانبًا. سأفتحه». فجأة امتلأت الغرفة بالضوء وتمكَّنتُ من التنفُّس ثانية وقد غمرني الارتياح. قال وهو يدخل: «آسف، يجب أن أحضر أحدهم لإصلاح المقبض. لقد أصبح قاسيًا لأنه لم يُستعمل منذ فترة طويلة. هل أنتِ بخير؟»

«نعم، بالتأكيد». جلستُ على السرير، وبدأتُ أتنفَّس بعمق.

تفحَّصني المستذئب لبرهة قبل أن يقول: «أنتِ تخافين الظلام، أليس كذلك؟ لهذا تحبين النوم في الهواء الطلق».

كان على حق، لكنني لم أكن لأعترف بذلك. «لا بالطبع. لقد استيقظتُ لتوي ولم أعرف أين كنتُ».

«حسنًا. آسف لإخافتك، لكن الساعة تقترب من السابعة مساءً. لقد نمت اثنتي عشرة ساعة تقريبًا. لا بدَّ من أنك كنت منهكة».

«كنتُ مرهقةً فعلاً. آسفة».

«لا عليكِ. هل أنتِ جائعة؟».

«لا أعرف بعد».

«إذا كنتِ جائعة، فإن تام تعدّ العشاء، وأنتِ مدعوة للانضمام إليّ على الشرفة الرئيسية».

«تام؟».

«الطاهية. سيكون العشاء جاهزاً خلال نصف ساعة تقريباً. أراك لاحقاً».

غادر الغرفة، ورحت أستم بصوت عالٍ. لقد ضاع يوم كامل! وألغي الحجز في فندقتي الجديد بالتأكيد لأنني لم أحضر في وقت الغداء لتسجيل وصولي. بالإضافة إلى ذلك، سوف أعاني من اضطراب تغيّر التوقيت لأنني نمت لفترة طويلة، وسوف يظن مضيفي المستدثب الغريب أنني من ذوي الاحتياجات الخاصة، أو شيء من هذا القبيل.

لماذا كان يُظهر كلّ هذا اللطف؟ لم أكن غبية إلى الحدّ الذي يجعلني أصدّق أن ليس لديه دافع خفي. في النهاية، كان رجلاً وكنت امرأة... على الأقل أحدهما بالنسبة إلى الآخر. ولكن، إذا كان ذلك هو ما يريده، فهذا يعني أنه معجب بي، وهذه فرضية تفوق حدّ السخافة. إلا إذا كان يائساً.

ارتديت قفطاناً لا يعجبني لأنه كان أشبه بالفستان، لكنه كان كلّ ما أملك، فمعظم ملابسني كانت ما تزال في المصبغة. خرجتُ وأغلقتُ الباب خلفي خلسة، ثم أخفيتُ المفتاح في الوعاء المجاور، لأن عالمي كلّ كان في تلك الحقيقة.

أبهرنني جمال المكان في الليل. كانت الفوانيس تتدلى من السطوح المنخفضة، ناشرة ضوءاً خفيفاً على المياه المحيطة بتمثال بوذا، وعبق الياسمين ينبعث فوّاحاً من المزارع، وفوق ذلك كله، رائحة الطعام الشهية.

«من هنا!». رأيتُ ذراعاً تلوّح لي من الشرفة أمام الجناح الرئيسي. قال وهو يشير إلى الكرسي: «مرحباً».

«مرحباً. أنا آسفة لأنني نمت طوال النهار».

«لا تعتذري عن النوم. ليتني كنت أستطيع».

شاهدته يتنهد بعشق، ولم أعد أستطيع الاستمرار في مناداته بالمستدثب، وهو في غاية اللطف معي - حتّى الآن على أيّ حال - فسألته عن اسمه.

«ألم أقل لك اليوم؟».

قلتُ بثقة: «لا».

«أوه... ناديي إيس Ace. وأنتِ؟».

«سيسي».

«لقب، مثل لقبِي؟».

«نعم».

«ما هو اسمك؟».

«سيلينو».

«ليس اسمًا شائعًا».

«نعم، كان لدى يا - والدي بالتبني - هوس غريب بمجموعة نجوم الشقيقات السبع. شرحتُ ذلك، كما كنتُ أضطرّ دومًا.

«عفوًا يا سيدي، العشاء جاهز». ظهرت الخادمة على الشرفة، وكان يقف خلفها رجل يرتدي زي الطهارة الأبيض.

«بالتأكيد». قادني إيس إلى المائدة. «ماذا يمكنني أن أقدم لك؟ نبيذ؟ بيرة؟».

«لا شيء. بعض الماء فقط».

سكب لكل منا كأسًا. «في صحتك!».

«في صحتك. شكرًا لإنقاذي اليوم».

«لا عليكِ. كما لو كنت لا أشعر بالسوء بما فيه الكفاية للعيش في هذا المكان بمفردي، وأنت تنامين على الشاطئ».

«حتّى ليلة أمس، كان ذلك اختياري، لكنني أعترف بأن هذا السرير رائع».

«كما قلتُ لك، أنتِ مرحّب بك فيه للمدة التي تريدينها. وقبل أن ترفض، أود أن أوضح أنه ليس بدافع اللطف فحسب، بل حبّ بشيء من الصحبة حقًا. أنا هنا وحدي منذ حوالى الشهرين.

«لماذا لا تدعو بعض زملائك من لندن؟».

«هذا ليس خيارًا. حسنًا، تفضلي». قال ذلك بينما كانت الخادمة تضع طبقًا من القريدس الكبير في وسط المائدة.

كان ذلك العشاء واحدًا من أفضل ما تناولته منذ وقت طويل، على الأقل منذ تشرين الثاني الماضي، عندما أعدت لي ستار وجبة شواء في لندن. كانت ماهرة جدًا. لم أتعلم الطبخ، وكنت قد نسييتُ مذاق الطعام الجيد. توالى الأطباق واحدًا تلو الآخر؛ حساء عشبة الليمون العطري، دجاج مقلي ملفوف بأوراق البانندان، وكعكة السمك الحار مع صلصة نام جيم.

«يا إلهي، كان ذلك لذيذًا. أحببتُ هذا المطعم، شكرًا جزيلاً. لقد انتفخ بطني كما لو كنت حاملاً».

أعجبه وصفي لنفسي وابتسم لي. لم نتحدث كثيرًا على العشاء، ربما لأنني كنت مشغولة بحشو بطني.

أخذ إيس رشفة من الماء وقال: «إذًا، هل أقنعك الطعام بالبقاء؟ أقصد، ليس لفترة طويلة، أليس كذلك؟ لقد قلت إنك ستغادرين إلى أستراليا بعد رأس السنة الجديدة».

استسلمتُ أخيرًا وقلت: «نعم، صحيح. إذا كنت متأكدًا من أنني لن أضايقك، سيسعدني أن أبقى، وسوف يكون ذلك رائعًا».

«عظيم. أود أن أطلب منك شيئًا واحدًا فقط. أعلم أن علاقات ودودة تجمعك بجمهور شاطئ رايلاي، لكنني أفضل ألا تقولي إنك تقيمين هنا معي، أو تذكرني مكان المنزل. أنا حقًا أحرص على خصوصيتي».

أخبرتني عيناه بكل ما لم تخبرني به كلماته. «لن أقول كلمة واحدة، هذا وعد».

«حسنًا. والآن، حدّثيني عن موهبتك في الرسم. لا شك في أنك موهوبة حقًا وإلا لما تمكنت من الحصول على مكان في كلية فنون لندنية».

«اممم... تركتها بعد بضعة أسابيع، لأنني أدركتُ أنني لم أكن موهوبة، أو بالأحرى لم تكن لديّ الموهبة التي كانوا يريدونها».

«تقصدين أنهم لم يفهموك؟».

أشحتُ بنظري وقلتُ: «يمكنك أن تقول ذلك. كنت عاجزة عن تطبيق ما يعلمونني إياه تطبيقًا صحيحًا».

«إذًا، هل تقولين إنكِ طليعية أكثر من موني، على سبيل المثال؟».

«يمكنك ذلك، ولكن عليك أن تتذكر أن موني كان رائدًا في عصره. لم يكن ذنب أساتذتي، لكنني لم أتمكن من تعلم ما أرادوا أن يعلموني إياه». صمتُ فجأة، متسائلة لماذا كنتُ أخبره بذلك كله. ربما كان يشعر بالملل. لذا قلتُ: «وَأَنْتِ؟ ماذا تفعل؟».

«أوه، لا شيء يثير الاهتمام. أعمل في مجال التمويل. أشياء مملة، كما تعلمين».

لم أكن أعلم، لكنني أومأتُ برأسي. «إذًا أنت تأخذ إجازة طويلة».

قال وهو يكتب تناوُبه: «نعم، شيء من هذا القبيل. هل يمكنني أن أقدم لك أي شيء آخر؟»
«لا، شكرًا».

«سيأتي المستخدمون ويرفعون الأطباق، لكنني بحاجة إلى النوم الآن. كما تعلمين، أنا مستيقظ منذ الفجر. وبالمناسبة، يعرف حراس الأمن أنكِ تقيمين معي، والرمز الرئيسي للبوابة من جهة الشاطئ هو 7777. طابت ليلتكِ يا سيسي».

«طابت ليلتك».

وهو يغادر، رأيتُ الموظفين يحومون. ربما كانوا يتوقون إلى أسرتهم أيضًا، ويرغبون في إنهاء اليوم. ولما كنتُ تحت حماية إيس، قررتُ القيام بنزهة على شاطئ فرا نانغ. عبرتُ الممر، وضغطتُ على الزرّ الأحمر الذي يفتح البوابة، وخرجتُ إلى الشاطئ القفر.

«ساوادي كراپ¹».

1 مرحبًا باللغة التايلاندية.

نظرتُ إلى يساري فزعةً ورأيتُ پو، حارس الأمن الذي عاملني بخشونة على الشاطئ في الساعة السادسة من هذا الصباح. نهض عن كرسيه، حيث كان يجلس بين أوراق الشجر التي تحيط بالبوابة، وحيّاني بابتسامة زائفة.

رددتُ التحية: «ساوادي كا»، وأنا أضَمّ يديّ على الطريقة التايلاندية التقليدية. كان صوت موسيقا الپوپ التايلاندية ينبعث من جهاز راديو صغير بجوار كرسيه. وبينما كنت أنظر إلى أسنانه الصفراء غير المستوية، رأيته من جانب السياج الآخر. تساءلتُ عن عدد الأطفال الذين يعيّلهم، وفكرتُ كم كانت وظيفته مملةً. إلا أنني شعرتُ بينما كنت أسير بين الأشجار المورقة، بأن جزءًا مني كان يحسده على ذلك. كان يتمتع بالجمال والسلام التام كلّ ليلة. على الشاطئ، شعرتُ بالحرية التي لا يمكن أن يشترها سوى المحظوظين في هذا الجزء من العالم، ثم تخيلتُ أنني ذات يوم سأتنفّس العالم في أفضل حالاته، وأرسمه على القماش ليراها الجميع. شققتُ طريقي إلى حافة البحر وغطستُ أصابع قدمي في ماء بدرجة حرارة مثالية. نظرتُ إلى السماء المرصعة بالنجوم، وتمنيتُ لو كانت لديّ المفردات اللازمة للتعبير عن الأفكار التي تجول في خاطري، إذ غالبًا ما كنتُ أشعر بأشياء لا أستطيع تفسيرها، إلا باللوحات التي أرسمها، أو مؤخرًا، بالتوليفة التي أصبحتُ مهووسة بها.

أردتُ أن أقول فيها أشياء كثيرة ولم أستطع، لكنني أحببت العمل في استوديو الشقة على ضفاف النهر، وكنتُ أشعر بالاكتهاء والرضا مع ستار وهي تعدّ لنا العشاء في المطبخ.

قلتُ لنفسني بحزم: «توقّفي يا سي!». لم أكن أنوي العودة إلى الماضي والنظر إلى الوراء ثانية. لقد ابتعدتُ ستار واختارتُ حياتها، كما اخترتُ أن أعيش حياتي. أو على الأقل، كنتُ أحاول.

تساءلتُ ما إذا كانت ستار قد فكرتُ أنها هي نفسها عبء عليّ. كنتُ أحب شقيقي ولا أريد انتقادها، لكنها ربما نسيّتُ كم كانت تحتاج إليّ في صغرها، عندما كانت ترفض أن تتكلّم. كما أنها كانت سيئة أيضًا في اتخاذ القرارات وقول ما

تشعر به، خصوصًا أننا كنا في وسط مجموعة من الشقيقات اللواتي يتمتعن بإرادة قوية. لم أكن أحاول أن ألقى باللائمة عليها، لكن لكل قصة أكثر من صيغة، وربما تكون قد نسيّت صيغتي.

ما كان غريبًا، مع ذلك، هو أنني، كما يبدو، قد وجدتُ نفسي صديقًا جديدًا، فرحتُ أتساءل: تُرى، ما هي قصته؟ ولماذا كان هنا؟ لماذا لم يكن يخرج إلا عند شروق الشمس؟ أو بعد حلول الظلام؟ ولا يدعو أيًا من أصدقائه، على الرغم من اعترافه لي بأنه يشعر بالوحدة...

مشيتُ على الرمل عائدة إلى القصر المخفي بين الأشجار. وعلى الرغم من أن بو، حارس الأمن، نهض ليُدخل الأرقام على اللوحة، إلا أنني وصلتُ قبله وضغطتُ على «7777» لكي أفهمه بأنني أعرف الرمز.

بعد أن استعدتُ المفتاح من الأوصيص، فتحتُ باب غرفتي لأكتشف أن أحدهم سبقني إليها. كان السرير مرتبًا والملاءات جديدة، والملابس التي نزعناها مطوية بشكل أنيق على كرسي. كما تركتُ جنيّة التنظيف الخفية مجموعة جديدة من المناشف الناعمة. وبعد أن غسلتُ قدمي لأزيل الرمل عنهما، صعدتُ إلى السرير. فكرتُ في أنّ المشكلة هي أنني كنتُ أعيش دائمًا بين عالمين. كنتُ أشعر بالسعادة عندما أستلقي على الشاطئ، ولكن، بالقدر نفسه، كنتُ أشعر بالراحة في غرفةٍ مثل هذه. وعلى الرغم من ادعاءاتي بأنني أستطيع العيش بقليلٍ جدًّا، لم أكن هذه الليلة، أعرف أيّ الخيارين أفضل.

خلال الأيام القليلة التالية، اتّبع كلّ منّا، إيس وأنا، روتينه الخاص في القصر. كان يستيقظ باكراً جداً، بينما كنتُ أستيقظ متأخرة جداً. وفي فترة ما بعد الظهر كنتُ أتجنّب الذهاب إلى شاطئ رايلي لئلا أزعجه. كما أخبرتُ جماعة رايلي بأنني أقيم في فندق على الشاطئ، ولم يتحرّوا عن ذلك. وبالتالي، لم نكن نلتقي إلّا على العشاء. بدا أنه كان ينتظرني، وكان ذلك يناسبني تماماً فقد كان الطعام رائعاً. لم يكن يتحدّث كثيراً، ولَمَّا كنتُ متعوّدة على صمت ستار، بدا الأمر مألوفاً ومريحاً بشكل غريب.

بعد ثلاثة أيام من العيش على بعد أمتار قليلة منه، أدركتُ أنني لست في خطر من أن يعتدي عليّ. كنت أعلم أنني لم أكن ذلك النوع من الفتيات الذي يحلم به الرجال. بالإضافة إلى ذلك، ولكي أكون صادقة، لم يكن الجنس يستهويني. لقد فقدتُ عذريّتي منذ تسع سنوات هنا على شاطئ رايلي. كنت قد تناولتُ كأسين من البيرة، وهو ما كان دائماً خطيراً بالنسبة إليّ، وبقيتُ في البار بعد أن ذهبت ستار إلى السرير. كان الشاب طالباً في السنة الجامعية الأولى - أعتقد أن اسمه كان ويل - وكنا قد ذهبنا في نزهة على الشاطئ، حيث تبادلنا القبل وكان ذلك لطيفاً جداً، وانتهى بنا الأمر إلى ممارسة الجنس، وكان مؤلماً قليلاً. استيقظتُ في صباح اليوم التالي مع صداع بسبب الكحول، واستغربت لماذا نثير كلّ هذه الضجة حول أمر كهذا.

كررتُ التجربة مرتين أو ثلاث، على شواطئ مختلفة مع رجال مختلفين، لأعرف ما إذا كان من الممكن أن تكون النتيجة أفضل، لكنها لم تكن كذلك. كنتُ على يقين من أن ما لا أشعر به لن أفتقده، ولم يكن لديّ الانطباع بأن شيئاً رائعاً قد فاتني.

على الرغم من أنني وستار كنا قريبتين إلى حدٍ كبير، لكن الشيء الوحيد الذي لم تفضِ به إحدانا إلى الأخرى، هو الجنس. لم أكن أعرف إن كانت لا تزال عذراء أم لا. في المدرسة الداخلية، عندما كنا نأوي إلى الفراش، كانت الفتيات يتحدثن بتفاصيل حميمة عن الصُّبية الذين يعجبنَ بهم وإلى أي مدى وصلنَ معهم. مع ذلك، بقينا، أنا وستار، صامتتين بشأن هذا الموضوع، تجاه الفتيات، وإحدانا تجاه الأخرى.

ربما شعرنا بأن أي نوع من العلاقة الجسدية الوثيقة مع رجل ستكون بمنزلة خيانة. حسنًا، كان ذلك هو شعوري على أي حال.

غادرتُ غرفتي من دون أن أكلّف نفسي عناء إقفالها، لأنني كنتُ أعرف أن جنية التنظيف الخفية ستنقضّ عليها في اللحظة التي أخرج فيها. ثم ذهبتُ إلى الشرفة حيث كان إيس ينتظرني.

عندما وصلتُ، نهض قبل أن يعاود الجلوس وحيّاني: «مرحبًا سيّسي». من الواضح أنه تعلّم أصول اللياقة وقدّرت لفتته. سكب لنا بعض الماء وتفحصني. «قميص جديد؟».

«نعم. لقد ساومتُ وخفّضتُ ثمنه إلى مئتين وخمسين بات».

«أليس من السخافة أن يشتري كثير من الأشخاص منتجات مماثلة من أحد متاجر المصمّمين في لندن بمئات أضعاف هذا السعر؟».

«حسنًا، لن أفعل ذلك أبدًا».

«كان لديّ صديقة لم تتردّد في إنفاق آلاف الدولارات على حقيبة يد. لم يكن ذلك سيئًا لو كان شيئًا تقتنيه مدى الحياة. ولكن بعد ذلك، عندما تخرج التصاميم الجديدة، تشتري حقيبة جديدة أخرى، وتذهب القديمة إلى الخزانة، وتوضع إلى جانب سابقتها. انتبهي، لقد رأيتها ذات مرة تقف أمام خزانتها وتتأمل مجموعتها بكثير من الإعجاب».

«ربما كانت تعتبرها أعمالًا فنية. إن كلّ ما يروك، لا يروقني بالضرورة. على أي حال، أنتم الرجال لستم أفضل منّا في التعامل مع سياراتكم».

أعدت الخادمة وليمة الليلة. قال، بينما كانت الخادمة تغادر بصمت كما جاءت: «أنتِ على حق. لقد اقتنيتُ تشكيلة من السيارات الفخمة لمجرد أنني كنت أستطيع ذلك».

«هل أسعدك ذلك؟».

«في ذلك الحين، نعم. كنتُ أحب صوت المحركات. وكلما كان صوتها أعلى، كان ذلك أفضل».

«الصبيان لهم ألعابهم...».

أجاب مبتسمًا: «الفتيات لهن لآلئهن. والآن، تفضلي على العشاء».

تناولنا العشاء بصمت ودي. وعندما شبعْتُ، جلستُ راضيةً مسترخية وقلتُ: «سأفتقد ذلك عندما أكون مجرد رَحالة في أستراليا. هذا المكان قطعة من الجنة. أنت محظوظ حقًا».

«أظن أننا لا نقدر حقًا ما لدينا حتى نفقده، أليس كذلك؟».

«حسنًا، أنتَ لم تفقد ما لديك. وهذا رائع».

أطلق إحدى تهنّئاته العميقة: «لا، ليس بعد. ماذا ستفعلين للاحتفال برأس السنة الجديدة ليلة غد؟»

«لم أفكر بعد. لقد دعاني جاك إلى المطعم للاحتفال بالعام الجديد مع الآخرين. هل ترغب في المجيء؟».

«لا، شكرًا».

سألتُ من باب المجاملة: «وأنت؟ ماذا ستفعل؟»

«لا شيء. إنه تقويم من صنع الإنسان، ولو كنا نعيش في الصين، على سبيل المثال، لاحتفلنا في وقت مختلف من العام».

«هذا صحيح، لكنه طقس في النهاية، أليس كذلك؟ عندما يكون من المفترض أن تحتفل وينتهي بك الأمر إلى الشعور بالإحباط لأنك وحيد، بينما تصلك رسائل نصية من أصدقائك يتحدثون فيها عن حفلات مذهلة». ابتسمت.

اعترف إيس قائلاً: «في العام الماضي كنتُ في حفل رائع. كان ذلك في نادٍ ليلي بمدينة سان تروبيه. وصلنا بالقارب، وراحت المضيفات يفتحن زجاجات الشمبانيا التي تكلف كل واحدة منها مئات اليوروهاات ويسكنها في كل مكان كما لو كانت ماء. في ذلك الوقت وجدتُ ذلك رائعًا، لكنني كنتُ ثملًا، ومن البديهي في هذه الحالة أن تكون الأشياء كلها رائعة، أليس كذلك؟».

«للأمانة، لم يحدث لي أن شربت حتى الثمالة إلا نادرًا. الكحول لا تناسبني، لذلك، أمتنع عنها معظم الوقت».

«أنتِ محظوظة بامتناعكِ عن الكحول. أعتقد أنني، كالأغلبية العظمى من الناس، أشرب لكي أنسى، ولكي أسترخي عندما أشعر بالتوتر».

«نعم، هذا صحيح بالتأكيد».

اعترف إيس قائلاً: «لقد تصرفتُ بغباء في بعض الأمور عندما كنتُ أشرب. لذلك أصبحتُ أتجنب الكحول. لم أتناول مشروبًا منذ شهرين ونصف الشهر، لذا من المحتمل أن أسكر من زجاجة بيرة. في السابق، كنتُ أحتاج على الأقل بضعة زجاجات من الشمبانيا وبضعة أكواب من الفودكا حتى أشعر بالانتشاء».

«رائع. أما أنا، فأحب أن أشرب كأسًا من الشمبانيا في المناسبات الخاصة، مثل أعياد الميلاد».

انحنى قليلًا وحدّق إلى وجهي، وبرقت عيناه الزرقاوان فجأة: «اسمعي. ما رأيكِ في أن نفتح زجاجة شمبانيا غدًا عند منتصف الليل؟ كما قلتِ، إنها للمناسبات الخاصة، وغدًا ليلة رأس السنة. لكننا سنقتصر على كأس واحدة فقط». قطبت حاجبي ورأى ذلك من فوره. «لا تقلقي، لم أكن مدمنًا على الكحول. لقد توقفتُ تمامًا منذ أدركتُ ما كنتُ أفعله. وبالمثل، لا أريد أن أكون الشخص الحزين الذي يرفض أن يشرب كأسًا واحدة. أحب أن أستمتع بكأس من حين إلى آخر، من دون أن تكون حاجة. هل تفهمين؟».

مكتبة

t.me/soramnqraa

«نعم، ولكن...».

«ثقي بي؛ كأس واحدة لكل منّا. اتفقنا؟».

ماذا عساي أقول؟ كان مضيّفي ولم يكن بوسعي أن أرفض طلبه. ولكن يجب أن تكون حقيبتني جاهزة في حال خرجت الأمور عن السيطرة. أجبْتُ: «اتفقنا».



كنتُ أجلس على شاطئ رايلاي بعد ظهر اليوم التالي، حين شعرتُ بالإثارة نفسها التي شعرتُ بها عشية عيد الميلاد بينما كانت الفنادق تستعد لاحتفالات المساء. بعد أن سئمتُ من التحديق إلى رسمي التعيس بالفحم للأعمدة الكلسية، نهضتُ وقصدتُ فندق رايلي بيتش.

«مرحبًا سي، كيف حالك؟»

أجبْتُ جاك، الذي كان يصف الكؤوس على طاولة طويلة: «بخير». بدا أكثر مرحًا مُد رأيتَه آخر مرة قبل بضعة أيام، وكانت نام تقف خلفه، وتضع يدها على كتفه. قالت وهي ترمقني بنظرتها السامة المعتادة: «ينقصنا شوك». «أعتقد أن لديّ بعضًا منها في المطبخ».

«اذهب وأحضرها الآن يا جاك. أريد إعداد طاولتنا».

«في الحال».

سألني جاك: «هل ستأتين الليلة؟».

أجبته وأنا أعلم علم اليقين أنه لن ينتبه لوجودي، ولا لوجود يسوع المسيح نفسه لو حضر: «قد آتي لاحقًا، نعم».

كان جاك يتبع نام إلى المطبخ عندما توقّف والتفت إليّ. «بالمناسبة، يعتقد أحد رفاقي أنه يعرف رجلك الغامض الذي تلتقينه على الشاطئ. لقد ذهب إلى كو في في لقضاء رأس السنة الجديدة، لكنه سيخبرني بمزيد عند عودته».

«عظيم».

«أراك يا سي».

قال ذلك وهو يتّجه نحو المطبخ، تابعًا نام بصينيته مثل حَمَلٍ وديع مطيع.

ذلك الرجل الضخم الجزار القادر على تسلق جرف صخري أسرع من أي شخص قابلته في حياتي... تمنيت فقط ألا أعامل شريكي المستقبلي بهذه الطريقة. لكنني رأيت كثيرًا من الرجال تتحكم فيهم النساء، ربما كان ذلك يروقه.

وأنا، هل تحكمت في ستار؟ هل كان ذلك هو سبب رحيلها؟

كرهت هذه الفكرة، فقررت أن أتجاهلها وأستقبل يومًا كان يبشر ببدايات جديدة. كنت قلقة على إيس أيضًا، لكنني طمأنت نفسي بأن كل ما كان رفيق جاك سيكتشفه عن إيس لن يكون شيئًا يذكر. هنا، في شبه الجزيرة المنسية هذه، إذا أكل شخص ما الآيس كريم بدلًا من قطعة حلوى، سيكون ذلك خبرًا يتحدث به الجميع ولأيام. كانت المجتمعات الصغيرة تعيش على النميمة، وكان شخص متحفظ لا يخالط الآخرين، مثل إيس، يثير الشائعات. لم تكن حقيقة أن مضيفي لم يرو حياته لأي من رواد البار، وهو في حالة سكر، لتجعل منه شخصًا سيئًا. في الواقع، كنت أراه شخصًا مثيرًا للاهتمام، ويتصرف بذكاء قولًا وفعلًا.

عندما عدت إلى الرقاق الذي تصطف على جانبيه الأكشاك التي كانت تؤدي إلى حياتي الأخرى، أدركت أنني بدأت أشعر بغريزة الدفاع عن إيس وحمايته، تمامًا كما كنت أشعر تجاه ستار عندما يسألني الناس إن كانت بخير، لأنها كانت خجولة قليلة الكلام.

عدت إلى غرفتي. استحمت ودهنت جسدي بالكريم - الذي أصبح عادة يومية يجب أن أتخلص منها قبل أن تترسخ إلى الأبد - ثم ارتديت قفطاني القديم، وذهبت إلى الشرفة حيث وجدت أن إيس سبقني إليها وهو يرتدي قميصًا من الكتان الأبيض الناصع.

حياتي سائلًا: «أهلاً، هل كان نهارك جيدًا؟».

«نعم، باستثناء الفن الذي ما يزال متمنعا. لا أستطيع رسم مربع بسيط، فما بالك بأي شيء آخر».

«سوف يعود أشد ألقا يا سيسي. كل ما عليك فعله هو أن تزيلي من رأسك كل تلك الأشياء السلبية التي قالوها. وهذا يستغرق وقتًا».

«نعم، يبدو الأمر كذلك بالتأكيد. وأنتَ، كيف كان يومك؟».

«الرتابة نفسها حقًا. قرأتُ كتابًا، ثم ذهبتُ في نزهة وفكرتُ في ما جاء فيه. أدركتُ أن أيًّا من كتب «المساعدة الذاتية» هذه، لا يمكنه أن يساعد حقًا، لأنه في نهاية المطاف، على المرء أن يساعد نفسه. لا توجد حلول سهلة».

«أنتَ على حق، لا توجد حلول سهلة».

سألني أخيرًا، كاسرًا حاجز الصمت الذي خيم على الطاولة: «هل أنتِ جاهزة لتناول العشاء؟».

«أجل».

ظهر أمامنا جراد بحر هائل الحجم، مصحوبًا بأطباق كثيرة. فقلت بسعادة: رائع. يتصدّر جراد البحر قائمة أطباقي المفضّلة».

قال مازحًا عندما نظفنا أطباقنا وانتقلنا إلى تناول حلوى من الفاكهة الطازجة والمثلجات المحلية: «بالنسبة إلى المسافرين الذي التقيتُ به وهو ينام على الشاطئ، يبدو أن لديك ذوقًا فاخرًا للغاية، كما أن ما قلته يجعلني أفترض أن والدك غني؟».

«كان غنيًا، نعم». أدركت أنني لم أخبر إيس بوفاة والدي، ولكن الآن كانت اللحظة مناسبة أكثر من أي وقت مضى، فقلت: «لقد مات».

«يؤسفني سماع ذلك، يا سيسي. إذًا، فهذا هو أول عيد ميلاد وسنة جديدة من دونه؟».

«نعم».

«ألهذا أنتِ هنا؟».

«نعم ولا... ففي الآونة الأخيرة، فقدتُ شخصًا آخر قريبًا مني أيضًا. شخصًا مثل توأم روحي».

«حبيب؟».

«لا، هي شقيقتي في الواقع. أقصد أنها لا تزال على قيد الحياة، لكنها قرّرت أن تسلك طريقها الخاص».

«حسنًا. أرى أننا في التعاسة، نؤلف زوجًا حقيقيًا، أليس كذلك؟».

«حقًا؟ هل فقدت شخصًا أيضًا؟».

«يمكنك القول إنني فقدت كل شيء تقريبًا في الأشهر القليلة الماضية. لا ألوم إلا نفسي. بعكسك أنت». أخذ جرعة من الماء.

«لم يكن موت پا خطئي، لكنني أعتقد أنني مسؤولة عن ابتعاد شقيقتي. كنت... تملُكية. وربما متسلطة قليلًا. لم أقصد أن أكون كذلك، لكنها كانت خجولة حقًا عندما كانت طفلة ولا تتكلم كثيرًا، لذلك كنت أنكلم بالنيابة عنها وأعتقد أن الأمر لم يتغير».

«إذا فقدت وجدت صوتها؟».

«نعم، إنه شيء من هذا القبيل حطم قلبي. لقد كانت... كل شيء بالنسبة إليّ، إذا كنت تفهم ما أعنيه».

قال: «أوه، نعم، أفهم جيدًا. إنه لمن الصعب جدًا أن تثقي بشخص، ثم يخذلك». «هل حدث لك ذلك؟».

نظر إلى البعيد، ورأيتُ في عينيه ألمًا عميقًا. «نعم».

أدركتُ أنه كان يشجّعني على إخباره بمشكلاتي، لكنّه كلما كان يبدأ بالحديث عن مشكلاته، يصمت فجأة، فسألته بحنو: «هل تريد التحدّث عن ذلك؟»

«لا أستطيع. لأسباب كثيرة، بما في ذلك الأمور القانونية... وحدها ليندا تعرف الحقيقة، ومن الأفضل ألا تعرفها».

مرة أخرى، عاد ذلك الرجل الغامض، وأزعجني ذلك حقًا. خمنتُ أن للأمر صلة بامرأة كانت تسعى إلى الاستحواذ على ملايين، بعد حصولها على الطلاق، وتمنيّت ألا يشعر بالأسف على نفسه.

شعرتُ بأن هذه الأمسية التي بدت ممتعة حتّى الآن راحت تتخذ منحى كئيبيًا، قلت: «أنت تعلم أنني سأكون حاضرة متى رغبتَ في التحدّث».

«شكرًا يا سيّسي، أقدرُ ذلك، وأقدرُ صحبتك. كنتُ أخشى قضاء ليلة رأس السنة

وحدي. فكما قلتِ، إنها واحدة من تلك الليالي التي يصعب على المرء أن يقضيها بمفرده، أليس كذلك؟ على أيّ حال، دعينا نشرب نخب والدك، ونخب الأصدقاء القدامى والجدد».

قرعنا كأسينا. ثمّ نظر إلى ساعته الرولكس، التي بالتأكيد لم تُلتقط من أحد أكشاك بانكوك للماركات المزيفة. قال: «عشر دقائق حتّى منتصف الليل. ما رأيك في أن أسكب لنا كأسين من الشمبانيا التي وعدنا أنفسنا بها، وأن نستقبل العام الجديد على الشاطئ؟».

«بالتأكيد».

ذهب ليحضر الشمبانيا، وفي هذه الأثناء، انتهزتُ الفرصة لأبعث برسالة نصّية إلى ستار وأتمنّى لها عامًا جديدًا سعيدًا. كنتُ أشعر برغبة عارمة في إخبارها عن صديقي الجديد، لكنني فكّرتُ وقلتُ في نفسي إنها قد تلتقط الطرف الخطأ من العصا، فعدلتُ. ثمّ بعثتُ برسالة نصّية مكرّرة إلى ما وشقيقتي الأخريات أينما يكنّ في العالم هذه الليلة.

قال إيس وهو يقف حاملًا كأسًا مشعشعةً في كلّ يد: «جاهزة؟».

«جاهزة».

مشينا إلى البوابة وهبّ پو عن كرسيّه ليفتحها لنا.

سألني إيس ونحن نقف على الشاطئ: «لم يبقَ سوى خمس دقائق... هل اتّخذتِ أيّ قرارات للعام الجديد؟».

«أقرّ بأنني لم أفكر في أيّ شيء! قد تكون العودة إلى الفن، وامتلاك الشجاعة الكافية للذهاب إلى أستراليا، واكتشاف من أين أتيت، أشياء جيّدة.

«تقصدين عائلتك الأصلية؟».

«نعم».

«رائع! لم تخبريني بذلك!».

نظرت إليه في ضوء القمر وقلت: «وأنّ؟ ما هي قراراتك؟».

«أن أقبل بما هو آت لا محالة، أن أقبله برضا». قال ذلك وهو لا ينظر إليّ، بل كان يحدّق إلى السماء. ثم أضاف مبتسمًا: «وأن أكون على يقين من أن كأس الشمپانيا هذه، هي الوحيدة التي أشربها الليلة».

بعد بضع ثوانٍ سمعنا أبواق قوارب الصيد الراسية في الخليج، ثم رأينا الألعاب النارية من شاطئ رايلي القريب، وهي تومض فوق ذرى أعمدة الحجر الجيري. شهقتُ عندما رأينا الفوانيس الصينية تطفو بلطف في السماء على الطرف الآخر من الشاطئ.

قال وهو يقرع كأسه بكأسي: «في صحتك يا سيسي!» رأيتَه يفرغ كأسه بجرعتين كبيرتين قبل أن يضيف: «يا إلهي، كان ذلك رائعًا! أتمنى لك عامًا سعيدًا!». ثم لفني بذراعيه وعانقني بقوة، فتطاير معظم الشمپانيا فوق كتفه وعلى الرمل. «لقد أنقذت حياتي في الأيام القليلة الماضية يا سيسي».

«لا أعتقد أنني فعلتُ ذلك، ولكن شكرًا على أيّ حال».

دفعني بلطف إلى الخلف، وألقى راحتيه على كتفيّ. «بلى، لقد فعلتِ». ثم وضع شفتيه على شفتيّ وقبلني.

كانت قبلة لطيفة، قوية ورقيقة في آن. مثل مستذنب جائع تحت تأثير القاليوم. لم يستجب الجزء العقلاني من دماغي، ذاك الذي يتعرّف عادة على جميع إنذارات الخطر في مثل هذه الحالة. لذا، فقد طالت القبلة واستطالت.

«تعالِي». أخيرًا، أبعد إيس شفتيه عن شفتيّ وسحبني من يدي وعدنا أدراجنا. عندما مررنا بپو، الذي كان يراقبنا، ابتسمتُ وتمنّيتُ له عامًا جديدًا سعيدًا.

وبينما كان إيس يقودني إلى غرفته، ويده لا تزال ممسكة بيدي، شعرتُ أنه قد يكون عامًا سعيدًا حقًا.

كانت ليلة رائعة... حسنًا، ومن دون الخوض في التفاصيل، كان واضحًا أن إيس يعرف جيّدًا ما الذي يفعله. في الواقع، بدا وكأنه خبير إلى حدّ ما، بينما أنا، لم أكن كذلك بالتأكيد. ولكن من المدهش مدى السرعة التي يمكنك بها أن تتعلّم شيئًا ما عندما تريد ذلك.

قال وهو يداعب خدي في الصباح، بينما كنت أسمع تغريد الطيور الخافت:
«سيسي! أنتٍ لذيذة. شكرًا».

قلتُ: «لا بأس، على الرغم من شعوري بأنه كان يصف نكهة الآيس كريم».
«إنها مجرد لحظة عابرة، أليس كذلك؟ أقصد أنه لن يكون بيننا أيّ مستقبل».
أجبتُه بنبرة خفيفة، خشية أن يظنّ أنني أتشبّث به: «بالطبع».

«عظيم، لأنني لا أريد أن أؤذيكَ، أو أؤذي أحدًا، مرة أخرى. طابت ليلتك، نامي
جيدًا». ابتعد عني، واستسلم إلى النوم في الجانب الآخر من السرير، الذي أقرّ بأنه
كان أوسع من سريري، وأكثر راحةً.

بالطبع، إنها مجرد لحظة عابرة، قلتُ لنفسي وأنا أدرك أنها كانت المرة الأولى
التي أشارك فيها رجلًا سريره، حيث أن جميع الأخطاء الأخرى السابقة ارتُكبت في
الهواء الطلق. استلقيت محدّقةً إلى الظلام، سعيدةً لأن مصاريع النوافذ كانت تسمح
بدخول خيوط صغيرة من ضوء العام الجديد، وقلت في نفسي إن هذا هو ما أحتاج
إليه تمامًا: مغامرة مثالية ترفع المعنويات وتخلو من أيّ التزام أو قيود. سأذهب
إلى أستراليا في غضون أيام قليلة، وربما نتواصل أنا وإيس من حين إلى آخر عبر
الرسائل النصية. لم أكن بطلة من العصر الفيكتوري ضحّت بفضيلتها ثم تزوّجتُ.
لقد مُنح أبناء جيلي حرية التصرف بأجسادهم كما يحلو لهم. وهذه الليلة تصرفت
بجسدي كما يحلو لي...

بحذر شديد، تحرّكتُ أصابعي نحوه من تلقاء نفسها، لأجد جلده، وألمسه
وأؤكد من أنه حقيقي يتنفس بجانبِي. ولما تحرك، سحبتها، لكنه استدار نحوِي
وضمّني.

دافئةً وآمنةً بين ذراعيه، وجسده لصق جسدي، غرقْتُ في النوم أخيرًا.



اتّضح أن غرامياتنا ليلة رأس السنة الجديدة لم تكن لحظة عابرة، بل أصبحت روتينًا
لذيذًا في الصباح، وبعد الظهر، وفي المساء. وفي ما عدا ذلك كنا نمرح معًا، كأن

انتزع إيس من السرير عند بزوغ الفجر لمشاهدة القروء، التي كانت تعلن عن وجودها بضربات قوية على السطح أثناء غزوها القصر بحثًا عن بقايا الطعام. وعندما كنتُ أفرغ من التقاط الصور يقوم أحد حراس الأمن بإخافتها بمنجنيق صغير، وأعود أنا إلى النوم. بعد ذلك، وفي ساعة متأخرة من الصباح كان إيس يوقظني على صينية مليئة بالأطعمة اللذيذة. أمّا خلال فترات ما بعد الظهيرة الطويلة الحارة، فكنتُ نتناول قطعًا من الأناناس والمانغو ونتفرّج على مجموعته من أقراص الفيديو الرقمية.

ذات يوم، مع شروق الشمس، ظهر قارب سريع وفخم في المياه الضحلة أمام القصر. ساعدنا يو على الصعود إلى متن القارب، ثم أخرج كاميرا وعرض علينا التقاط صورة لنا، فاعترض إيس من فوره وبشدة. عندما انطلقنا، أخبرني أنه سيأخذني إلى مكان خاص. كنت قد تعودتُ على قيادة قاربنا السريع صعودًا وهبوطًا على مياه بحيرة جنيف، وسرعان ما تولّيتُ زمام الأمور من القبطان. لم أكتفِ بتوجيه القارب دون عناء فوق الأمواج فحسب، بل نفذتُ أيضًا حركة بهلوانية لإخافته. وعندما لاح فوقنا جدار من أعمدة الحجر الجيري في عرض البحر، تركتُ القبطان يتولّى المَهْمَة من جديد. قاد القارب بخبرة إلى خليج مخفيّ، محميّ من جميع الجوانب بجروف صخرية مخيفة. كانت المياه خضراء هادئة، تنمو فيها أشجار المنغروف. كانت الجنّة، وكان يطلق عليها اسم كوه هونغ. كنتُ أول من قفز في الماء، لكن سرعان ما تبعني إيس، ورحنا نسبح في كلّ اتجاه كما لو أننا في حوض سباحة خاص لنا وحدنا، بعيدًا في وسط المحيط.

جلسنا على سطح القارب نشرب القهوة المركّزة ونستمتع بالسلام والهدوء في هذا المكان المذهل. ثم عدنا إلى المنزل حيث ذهبنا إلى السرير ومارسنا الحب. كان يومًا رائعًا وكنت أعلم أنني لن أنساه أبدًا. هذا النوع من الأيام الذي تعيشه مرة واحدة في حياة بأكملها ولا يتكرّر، حتى بالنسبة إلى شخص مثلي.

في الليلة الخامسة التي قضيتها إلى جانب إيس في السرير، بعد أن هجرتُ غرفتي منذ ليلة رأس السنة تساءلتُ ما إذا كنت أعيش «علاقة». كان جزء مني مرعوبًا، لأنني لم أقصد ذلك، ولم يقصده أيس الذي عبّر عن ذلك بوضوح. ومع

ذلك، أراد جزء آخر مني التقاط صورة لنا ونحن نتبادل النظرات الرومنسية على الشاطئ، وإرسالها إلى جميع شقيقاتي حتى يدركن أنني لم أكن شخصية فاشلة على الإطلاق. فهذا الرجل، ومهما تكن الأسباب، قد أحبني. ضحك لنكاتي - التي كنت أعلم أنها سخيفة للغاية - وبدأ أنه يجد جسدي الصغير المضحك «مثيراً».

لكن الأهم من ذلك كله، هو أنه «فهمني» بطريقة لم يفهمها أحد من قبل، سوى ستار، ووصل إلى حياتي عندما كنتُ في أمس الحاجة إليه. كان كلُّ منا غارقاً في هذا العالم، وجرفتنا الأمواج معاً لتلقي بنا على الشاطئ نفسه. لم نكن متأكدين مما سيأتي، وكان من المريح التمسك بشخص ما، ولو لفترة قصيرة.

في اليوم السادس، استيقظتُ من تلقاء نفسي الساعة الواحدة بعد الظهر. كان إيس يأتيني بالفاكهة والكرواسان والقهوة في ساعة متأخرة من الصباح، وكنتُ على وشك النهوض للبحث عنه عندما فتح الباب مع صينية في يديه. كنت لأشعر بالاسترخاء، لولا تلك النظرة على وجهه.

«صباح الخير، يا سيسي. هل نمتَ جيّداً؟».

«نعم، من الرابعة حتى الآن، كما تعلم».

في العادة، كان يأتي ويستلقي بجواري، لكنه اليوم لم يفعل. بدلاً من ذلك، جلس على حافة السرير.

«عليّ القيام ببعض الأشياء بعد ظهر هذا اليوم. هل تستطيعين البقاء وحدكِ أو الذهاب إلى مكان ما؟».

قلت مبتسمة: «بالطبع أستطيع».

«أراك على العشاء الساعة الثامنة».

«بالتأكيد».

نهض، وقبلني على أعلى رأسي ثم غادر ملوِّحاً. كنت مبتدئة في موضوع العلاقة برمته، فلم أستطع معرفة ما إذا كان ذلك طبيعياً. هل كان لديه «أشياء يقوم بها» حقاً ولا شيء آخر؟ هل عاد العالم ليقف على قدميه أخيراً، بعد حلول العام الجديد؟ أم هل ينبغي أن أشعر بالذعر وأحزم حقيبتني؟ في النهاية، ولئلا أبدو كما

لو أنه ليس لديّ مكان أذهب إليه، ولا أستطيع تسليّة نفسي من دونه، عدتُ إلى رايلي وأخذتُ دفتر الرسم معي. عندما صعدتُ إلى شرفة فندق رايلي بيتش، كان الشاطئ أقلّ ازدحامًا ممّا كان عليه في رأس السنة الجديدة. كانت نام تخدم في الحانة، فطلبتُ عصير المانغو، فقط لكي أستمتع بالنظر إليها وهي تعدّه لي. ثمّ جلستُ على الكرسي المرتفع أرمقها بنظرة متعالية لم أكن فخورة بها. سألتني وهي تقشر فاكهة المانغو وتضعها في الخلاط: «هل تحتاجين إلى غرفة؟»

«لا، شكرًا».

«في أيّ فندق تقيمين؟».

«في منتجع سانرايز».

أومأت نام برأسها، لكنني لاحظتُ بريقًا في عينيها.

«لم أرك منذ فترة. لم يرك أحد».

«كنتُ مشغولة».

«يقول جاي إنه رآك في فرا نانغ وأنت تستقلين قاربًا سريعًا مع رجل».

أجبرتُ نفسي على الضحك بينما كان قلبي ينبض بسرعة وقلّتُ مستغربة: «حقًا؟ أتمنّى ذلك».

كان جاي صديقًا لجاك تعرّفتُ إليه في العام الماضي. كان يساعد في بعض الأحيان خلف البار، لكنه كان متفرغًا يذهب إلى أيّ مكان يكسب فيه قوته. سمعتُ من أحدهم أنه كان ذات يوم صحافيًا بارزًا إلى أن نالت منه المخدرات. كنتُ أراه يجلس هنا وهو يدخن الحشيش غير خائف، ولم أكن أتسامح مع تعاطي المخدرات. هنا في تايلاند، سواء كانت المخدرات لفافة حشيش أو جرعة هيروين، كانت نتيجة حيازتها العقوبة القاسية نفسها. كما كان جاي يميل إلى ستار، ويتواصل معها في كلّ مرة تأتي فيها لتناول مشروب خفيف. هي أيضًا كانت تجده مخيفًا، لذا كنتُ على يقين من أنها لن تكون وحدها معه أبدًا.

أصرت نام وهي تمرّر لي عصير المانغو: «قال جاي إنه رآك. هل لديك صديق جديد؟».

قالت ذلك كما لو كان لديّ صديق قديم... فخطر لي أنها ربما كانت تشك في وجود علاقة بيني وبين جاك، لأنني نمتُ في غرفته. يا إلهي، كم يمكن للنساء أن يكنّ مثيرات للشفقة في بعض الأحيان. كان واضحًا للجميع أن جاك كان كالعجينة بين يديها الصغيرتين النحيلتين.

قلت: «لا»، ثم أفرغت كأسِي بأسرع ما يمكن.

«يقول جاي إنه يعرف الرجل الذي كنتِ معه. إنه رجل سيئ. ومشهور».

«إذًا، فإنّ جاي يحتاج إلى نظّارة جديدة، لأنّ التي رآها لم تكن أنا». دفعتُ الحساب ونهضتُ.

«سيأتي جاي بعد قليل وسيقول لك ذلك بنفسه».

هزّزتُ رأسي ونظرتُ إليها مرة أخرى كما لو كنتُ أنظر إلى امرأة مجنونة، ثم غادرتُ وحاولتُ التصرّف بشكل طبيعي. على الشاطئ، وبدل الانعطاف يمينًا باتجاه القصر، استدرتُ يسارًا، حيث يقع الفندق الذي قلتُ لنام إنني أقيم فيه، خشية أن تكون هي أو جاي، أو أي شخص آخر، يراقبني. ألقيتُ حذائي ومنشفتي على الرمل أمام الفندق الذي قلتُ إنني أقيم فيه، ثم نزلتُ إلى الماء لأسبح وأفكر.

ماذا كانت تقصد عندما قالت إن جاي وصف إيس بأنه «رجل سيئ»؟ في قاموس نام، ربما كان ذلك يعني أنه زير نساء، لا أكثر. كنتُ أعلم أن إيس لم يكن يعاني من نقص الصديقات عندما كان يعيش في لندن، فقد كان دائمًا يذكر النساء المختلفات اللاتي قضى معهن أوقاتًا ممتعة. أما بالنسبة لكونه «مشهورًا»، فربما كان كذلك، لكنني لا أعرف، لأنني لم أكن أقرأ الصحف أو المجلات أبدًا، بسبب عسر القراءة الذي أعاني منه.

خرجتُ من الماء واستلقيت على الرمل لأترك بشرتي تجف في الشمس، وتساءلتُ عمّا إذا كان يجب عليّ أن أخبر إيس. كان من الواضح أنه يتجنّب الحديث عن خصوصياته... ماذا لو كان أحد كبار المشاهير؟ يمكنني دائمًا أن أسأل إلكترا -

كان ذلك هو العالم الذي تعيش فيه كل يوم. وإذا كان كذلك، فإن ذلك سيخسرهما مرة وإلى الأبد - فقد تمكنت الشقيقة دابليز القبيحة، من إيقاع نجم في شباكها. كانت رسالة نصية أسألها فيها عنه تستحقّ العناء، ولو لمعرفة رد فعلها فحسب.

لكنني كنتُ أعرف أنني إذا أخبرْتُ إيس بأن أحدهم قد تعرّف عليه، فسوف يزداد قلقًا. علاوة على ذلك، لم يكن جاي يعرف أين يعيش، أو على الأقل كنت أتمنى ألا يعرف.

ربّما يجب أن أخبر إيس... ولكن لم يتبقّ لي سوى بضعة أيام هنا قبل أن أضطر إلى التوجّه إلى أستراليا، ولم أرغب في إفساد وقتنا معًا. قرّرتُ أخيرًا أنه بمجرد عبوري بوابة القصر، سأبقى في مكاني ولن أخرج حتّى يحين وقت مغادرتي إلى المطار. واليوم، كان عليّ فقط أن أتمنى ألا يراقبني أحد ويراني عائدة إلى المنزل.

اخترتُ العودة قُبيل غروب الشمس عندما يصبح شاطئ فرا نانغ خاليًا، فذهبتُ للسباحة مرة أخرى، ثمّ جلستُ على منشفتي بالقرب من پو، الذي، عندما رأيته، حاول من فوره أن يضغط على لوحة المفاتيح للسماح لي بالدخول. تجاهلته واستلقيتُ على بعد أمتار قليلة. أخيرًا، انزلقتُ إلى الداخل عندما كانت كلّ الأعين متّجهة نحو الشمس الغاربة.

بعد عشرين دقيقة بدأ العرض، فتوجّهت مسرعة إلى بوابة القصر مثل حيوان مُطارَد.

لم أكن أعرف ما الذي ينتظرني عندما سلكْتُ الطريق المؤدّي إلى غرفتي، ولكن على الأقل إذا كان إيس قد قرر أن يتركني فجأة، وطلب مني الذهاب، تكون ذروة الازدحام التي شهدتها الفنادق في رأس السنة قد انتهت، وكان هناك كثير من الغرف الشاغرة على امتداد الشاطئ. فتحتُ باب غرفتي، واستقبلتني رائحة الزهور الفوّاحة.

«أنا هنا، تعالي وانضمي إليّ».

دخلتُ غرفة الحمام ورأيت إيس مستلقيًا في حوض الاستحمام البيضوي

الضخم، ومن حوله شموع تبتّ وهجًا معطرًا ناعمًا. وفوق الماء، تطفو مئات من بتلات الزهور البيض والوردية.

«أتأتين؟». ضحكتُ، فسألني: «ما الذي يضحككِ؟».

«تبدو كنسخة سريالية من تلك اللوحة الشهيرة لأوفيليا الغريقة».

قال: «هل تقصدين نسخة مشعرةً وقبيحة؟». ثمّ أضاف بابتسامة واسعة بلغت أذنيه: «في صحتك. كنت أحاول أن أكون رومنسيًا. من المؤكّد أن الخادمة بالغت بكمية الزهور. لا تطلبي من أيّ شخص تايلاندي أن يحضّر حمامك وإلا سينتهي بك الأمر إلى قضاء أيام عدّة في جمع البتلات بنفسك. هيا، تعالي».

دخلتُ الحوض واستلقيتُ مسندةً رأسي إلى صدره، وذراعه تلتفان بقوة حول خصري. كان ذلك رائعًا.

طبع قبلة ناعمة على أذني وهمس: «آسف لانشغالي عنكِ. كان عليّ أن أنهي بعض الأمور على الهاتف».

«لا حاجة للاعتذار».

همس مرة أخرى: «لقد اشتقت إليك. هل سنتناول العشاء معًا هذه الليلة؟». أجبته مبتسمةً: «نحن نفعل ذلك دائمًا».

بعد وقت طويل خرجنا من الحمام، وتناولنا سمكة طازجة بصلصة التمر الهندي. ثمّ ذهبنا في نزهة على الشاطئ، واستلقينا على الرمل نتأمّل النجوم.

سألني إيس: «أرني نجمتك».

حدّدتُ موقع الشقيقات السبع وأشرتُ إليها. قلت: «أنا الثالثة من الأعلى».

«يمكنني أن أرى ست نجوم فقط».

«هناك سبع نجوم، ولكن من الصعب رؤية الأخيرة».

«ما اسمها؟».

«ميروب».

«لم تذكرها من قبل».

«لأنها لم تأتِ. أو على الأقل، جلب يا ست شقيقات فقط إلى المنزل».

«شيء غريب!».

«نعم، الآن أفكر في ذلك. لقد كانت طفولتي بأكملها غريبة».

«هل تعرفين لماذا تبتأكن جميعاً؟».

«لا، لكنك لا تتساءل عندما تكون طفلاً، بل تتقبل الأشياء كما هي. على أيّ

حال، لقد أحببت وجود ستار وشقيقتي من حولي. هل لديك أشقاء أو شقيقات؟».

«أنا طفل وحيد، لذلك لم أضطرّ إلى مشاركة أيّ شيء». ثم ضحك بصخب،

والتفت إليّ: «أنتِ لا تتحدّثين كثيراً عن شقيقاتكِ الأخريات. حدّثيني عنهنّ».

«مايا وآلي هما الأكبر سنّاً. مايا لطيفة وذكية جدّاً، فهي تتقن مليون لغة. وآلي

مذهلة، شجاعة وقوية. لقد مرّت بوقت عصيب في الآونة الأخيرة، لكنها تخطّت

ذلك. أتعلم؟ أنا معجبة بها، وأودّ أن أشبهها».

«إذا فألي هي قدوتك في الأسرة».

«ربّما. وبعد ستار أنا، ثم جاءت تيغي...». فكرت للحظة، متسائلة عن أفضل

طريقة لوصفها. قلت: «بعد ستار، إنها الأقرب إليّ. إنها... ما هي الكلمة المناسبة

لوصف شخص يبدو أنه يفهم الأشياء من دون أن تقولها؟».

«حدسيّ».

«نعم. لديها طريقة إيجابية لا تُصدّق في النظر إلى العالم. إذا رسمته بالطريقة

التي تراه فيها، فسوف يكون لوحة بديعة. ثم جاءت إلكترا، لكننا لم نتمكن من

التفاهم. وأنت؟ حدّثني عن طفولتك».

«مثلك، لم أكن أرى الأمر غريباً في ذلك الحين. لقد أحببت أمي وترعرعت في

تايلاند، وبعد وقت قصير من وفاتها، أرسلت إلى المدرسة في إنجلترا».

«لا بُدّ من أن ذلك كان صعباً. أعني بُعدك عن كلّ ما تعرفه».

«كان... لا بأس».

سألتُ: «ماذا عن والدك؟»

«سبق وأخبرتكَ أنني لا أعرفه».

كانت نبرات صوته مقتضبة، فلم ألحَ على طرح مزيد من الأسئلة، على الرغم من فضولي الحقيقي.

«هل سبق لك أن تساءلتِ عمّا إذا كان يا سولت هو والدك الحقيقي؟».

قلتُ: «لم أتصوّر هذه الفرضية مطلقاً»، على الرغم من أنني فجأة فُكّرْتُ فيها، فأضفتُ: «لأنها تعني أنه سافر حول العالم ليجمع بناته الست غير الشرعيات».

وافقني إيس قائلاً: «سيكون ذلك غريباً، ولكن لا بدّ من وجود سبب، أليس كذلك؟»

«من أين لنا أن نعرف؟ وفي الواقع، من يهتم؟ لقد مات، ولن أعرف أبداً».

«أنتِ على حق. لا فائدة من الخوض في الماضي».

«لكننا جميعاً نفعل ذلك. نحن نفكر في الأخطاء التي ارتكبتها ونتمنى لو كنّا نستطيع تغييرها».

«لم ترتكبي أيّ أخطاء لتغيّريها؟ فوالداك، هما اللذان أخطأ بتخليهما عنك».

التفتُ لأنظر إلى إيس. ربما كان ضوء القمر، لكن عينيه بدتَا برّاقتين، كما لو كانتا تغورقان بالدموع. «هل فعل والدك ذلك؟ هل تخلّى عنك؟».

«لا. إذًا، ستذهبين إلى أستراليا للبحث عن والديك؟».

هرزتُ كتفيّ وقلتُ: «ربّما».

«كيف تعرفين أين ولدتِ؟».

«عندما توفيّ يا في حزيان الماضي، ترك لنا شيئاً يسمّى كرةً حلقيّة، وهي أداة تُستعمل لرصد النجوم، حُفرت عليها إحداثيات المكان الذي وجدنا فيه. وكانت تشير إلى أنني ولدتُ في مكان يُدعى بروم يقع على الساحل الشمالي الغربي لأستراليا».

«عظيم. ماذا بعد؟».

«أوصاني بالذهاب إلى هناك، والبحث عن امرأة تُدعى كيتي ميرسر».

«أهذا كل شيء؟».

«نعم، من طرفه على أي حال، لكنني اكتشفت بعد بضعة أيام أنه قد ترك لي ميرًا».

«لقد أثرت فضولي أكثر فأكثر. هل سبق لك أن حاولت البحث عن كيتي ميرسر هذه، على الإنترنت؟».

«لا». كنت سعيدة لأن الظلام كان يمنعه من رؤية وجنتي اللتين احمرتا من الارتباك والخجل. إذ بدأت أشعر وكأنني أخضع لاستجواب. أضفت: «ليس من العدل حقًا أن تطرح عليّ كل هذه الأسئلة، في حين أنك لا تجيب على أيّ من أسئلتني». ضحك. «أنت رائعة، يا سيسي. أنت تقولين ما تشعرين به». ثم شدني إليه وقبلني.



بعد يومين، استيقظت واكتشفت أنه ليس لديّ أي فكرة عن التاريخ، وأني فقدت الإحساس بالوقت تمامًا. نهضت من السرير وبحثت في حقيبة ظهري لأجد نسخة مطبوعة من تذكرتي العودة إلى بانكوك ثم إلى سيدني.

يا للقرف! سأغادر غدًا. تأوّهت من رعب هذا الاحتمال بعد أن نظرت إلى هاتفي لمعرفة تاريخ اليوم. وعندما دخل إيس ومعه الصينية المعتادة تهاويت على السرير. كان يوجد كتاب بين الكرواسان.

قال وهو يضع الصينية جانبًا: «لقد أحضرت لك شيئًا».

حدّقت إلى الكتاب. على الغلاف الأمامي، كانت توجد صورة بالأبيض والأسود لامرأة جميلة، ترتدي فستانًا قديم الطراز، ذا ياقة عالية جدًا، مثبتة بصفوف من الأزهار الصغيرة المصنوعة من اللؤلؤ. استغرق الأمر مني بضع ثوانٍ لمعرفة الاسم الموجود على الغلاف.

قرأت بصوت عالٍ: «كيتي ميرسر، رائدة صيد اللؤلؤ».

قال إيس وهو يرفع يده إشارةً للنصر، قبل أن يندسّ معي تحت الأغطية ويعطيني فنجاناً من القهوة: «نعم يا سيّسي. لقد بحثت عنها على غوغل. لديها صفحتها الخاصة على ويكيبيديا».

أومأت بغباء: «حقاً؟».

«تبدو مذهلة. ومما قرأته عنها، أدركت أنها حققت أشياء كثيرة في عصر كانت فيه النساء يكافحن للاعتراف بحقوقهن. لذا، فقد طلبت سيرتها الذاتية التي وصلت هذا الصباح بالقارب السريع من مكتبة في فوكيت».

نظرتُ إليه مشدوهةً وقلتُ: «فعلتَ ماذا؟».

«لقد قرأتها بالفعل وهي قصة مثيرة للاهتمام. ستحبينها حقاً». ثم التقط الكتاب ودفعه نحوي.

وضعت القهوة على المنضدة الجانبية ثم غادرتُ السرير. سألتُه وأنا أرتدي قميصي: «لماذا تكبّدت كلّ هذا العناء؟ هذا ليس من شأنك. لو كنتُ أرغب في اكتشاف ذلك كله، لفعلته بنفسِي».

«بحقّ يسوع المسيح! كنتُ أحاول أن أساعدك فحسب! لماذا تغضبين؟».

على الرغم من أن ذلك كان واضحاً لكلينا، لكنني قلت: «لستُ غاضبة. كلّ ما في الأمر أنني لم أقرّر بعد ما إذا كنت أريد معرفة أيّ شيء عن عائلتي الأصلية!»

«حسنًا، ليس عليك أن تقرأي سيرتها الآن، يمكنك الاحتفاظ بها إلى أن تشعري بأنك جاهزة».

حاول إيس أن يسلمني الكتاب مرة أخرى فدفعته بعيداً. قلت وأنا أرتدي سروالي وأفقد توازني، ما حرمني من الهيبة التي كنت بأمس الحاجة إليها: «ربما كان يجدر بك أن تسألني أولاً».

«نعم، ربما كان ينبغي لي أن أفعل».

خرجتُ من الغرفة وصعدتُ إلى الطابق العلوي وجلستُ على الشرفة، لأختلي بنفسِي وأهدئ من غضبي.

بعد عشر دقائق، جاء ليجلس بجواري على الأريكة الحريرية، ويده لا تزال ممسكة بالكتاب. «أخبريني يا سيسي! ما هو الخطأ الذي ارتكبته؟».

عضضتُ على شفتي، وأنا أحدّق إلى الأشخاص الذين يسبحون في المحيط... «اسمع، إنه لمن الرائع حقاً أن تبذل كلّ هذا الجهد للحصول على الكتاب. لم يكن من السهل الحصول عليه بهذه السرعة. أنا فقط... أنا لا أحب القراءة. لم أحب الكتب مطلقاً. لهذا السبب، لم أبحث عن أيّ شيء يخصّ كيتي ميرسر. في الواقع، أنا أعاني من عسر القراءة. أجد صعوبة كبيرة في القراءة».

وضع آيس ذراعه حول كتفي. «لماذا لم تقولي ذلك منذ البداية؟».

تمتمتُ: «لا أعرف. قد يكون الشعور بالإحراج هو السبب».

«حسنًا، لا ينبغي أن تشعرني بالإحراج. أعرف أشخاصًا لامعين جدًّا يعانون من عسر القراءة. اسمعي، سأقرأها لك بصوتٍ عالٍ».

شدّني إليه وارتيمت على كتفه. قال: «حسنًا»، وراح يقلّب الصفحات قبل أن أتمكن من إيقافه.

«الفصل الأول. إدنبره، اسكتلندا، 1906...»

كيتي
إدنبره، اسكتلندا
تشرين الأول 1906

استلقت كيتي ماكبرايد على سريرها وراحت تراقب العنكبوت المنزلية الصغيرة، وهي تنسج شبكتها حول ذبابة زرقاء، سيئة الحظ، سقطت في فخها الذي نصبته عند زاوية السقف. رأت كيتي الذبابة الزرقاء تطن في أرجاء منزلها الليلة الماضية قبل أن تطفئ مصباح الغاز، وهو آخر بقايا خريف دافئ أفسح المكان للشتاء. تأملت العنكبوت طوال الليل وهي منشغلة في تحنيط الذبابة الزرقاء بخيوطها الحريرية. قالت للعنكبوت قبل أن تتنهّد تنهيدة طويلة وتدفع الأغصية عنها: «ها قد حصلتِ بالتأكيد على غذائكِ وغذاء أسرتكِ لشهر كامل».

عبرت الغرفة المتجمّدة إلى المغسلة وهي ترتجف. غسلت نفسها وبصقت أسرع كثيرًا مما كانت لتوافق عليه والدتها. ومن خلال النافذة الصغيرة، رأت ضباب الصباح الباكر يلفّ بكثافته المنازل المتلاصقة على الجانب الآخر من الشارع الضيق. ارتدت سترتها الصوفية وأحكمت إغلاق أزرار فستانها على عنقها الأبيض الطويل، ثم رفعت شعرها البني عن وجهها، وربطته على شكل كعكة أعلى رأسها.

قالت لانعكاس صورتها في المرآة وهي تتّجه إلى درج الملابس الداخلية لتأخذ أحمر الخدود: «أبدو مثل شبح حقيقي».

وضعت قليلًا منه على وجنتيها، ثم فركتهما، وقرصتهما. كانت قد اشترته من متجر جينرز في شارع پرينسز قبل يومين، بعد أن وفّرت كلّ الشلنات التي كسبتها من دروس العزف على البيانو التي كانت تعطيها مرتين أسبوعيًا.

كان والدها يقول إن الغرور خطيئة. أما بالنسبة إليه، فكانت معظم الأشياء خطيئة؛ كان يقضي وقته في كتابة العظات التي يلقيها على رعيته ليبحث فيها أفكاره. البذاءة، والغرور، وشيطان الكحول... وملذات الجسد: خطيئته المفضّلة

على الإطلاق. كثيرًا ما تساءلت كيتي عن كيفية وصولها هي وشقيقاتها الثلاث إلى الكوكب؛ إذ من المؤكد أنه كان عليه أن ينغمس في تلك «الملذات» بنفسه بحيث تكون ولادتهن ممكنة؟ والآن كانت والدتها تنتظر مولودًا آخر، ما يدل، بلا أدنى شك، على أنهما فعلا الشيء معًا منذ وقت قريب...

ارتعدت كيتي عندما عبرت ذهنها صورة مفاجئة لوالديها عاريين. كانت تشك في قدرتها على خلع سترتها وسروالها أمام أي شخص خصوصًا الرجال. ارتجفت، ووضعت أحمر الخدود الثمين في الدرج حتى لا تقع مارتا، إحدى شقيقاتها الأصغر سنًا، ضحية إغراء سرقة. ثم فتحت باب غرفة نومها وهبطت السلالم الخشبية الثلاث لتناول الفطور.

كان والدها رالف، يترأس المائدة، وبناته الثلاث الأصغر سنًا يجلسن بصمت إلى جانبه. نظر إلى أعلى وحيًاها بابتسامة دافئة: «صباح الخير يا كاثرين».

كان الجميع يقولون إنها تشبه والدها في المظهر، شعره البني الكثيف، وعينه الزرقاوين، وعظام وجنتيه العاليتين. لم يكن على بشرته الشاحبة سوى تجعيدة صغيرة، على الرغم من أن كيتي كانت تعرف أنه في منتصف الأربعينات. كانت جميع نساء رعيته معجبات به وكُنَّ يعلّقن على كلّ كلمة يقولها من على المنبر. وفي الوقت نفسه، يحلمن بأن يفعلن معه كلّ الأشياء التي كان ينهى عنها. «صباح الخير يا أبي. هل نمتَ جيدًا؟»

«نعم، لكنّ والدتك المسكينة لم تنم طوال الليل. كانت تعاني من الغثيان، كما هي الحال دائمًا في المراحل الأولى من حملها. لقد طلبتُ من إيلسا أن تأخذ لها صينية».

ولمّا كانت وجبة الفطور تقليدًا صارمًا لدى آل ماكبرايد، فقد أدركت كيتي أن والدتها كانت مريضة جدًّا. قالت وهي تجلس على بعد كرسي واحد من والدها: «مسكينة والدتي، سأصعد لرؤيتها بعد الفطور».

«ربما تتفضّلين يا كاثرين، بزيارة أبناء أبرشية والدتك اليوم، والقيام بأي مهام تحتاج إليها؟».

«بالطبع».

تلا رالف صلاة الشكر، ثم أخذ ملعقته وبدأ بتناول عصيدة الشوفان السمكية، وكانت هذه هي الإشارة لكيتي وشقيقاتها بالبدء أيضًا.

هذا الصباح، وهو يوم خميس، تخلّل الفطور اختبار رالف مهارات بناته في الجمع والطرح. كان الجدول الأسبوعي مقدّسًا: كان يوم الاثنين للإملاء، والثلاثاء لعواصم العالم، والأربعاء مخصصًا لتواريخ اعتلاء ملوك وملكات إنجلترا العرش، بالإضافة إلى سرد السيرة الذاتية لمن يختاره والدهن منهم، أما يوم الجمعة فكان الأسهل لأنه يغطي الملكية الإسكتلندية، ولم يكن هناك كثير من الملكات والملوك الإسكتلنديين، بعد استيلاء إنجلترا على السلطة. كما كان على كلّ طفلة أن تستظهر قصيدة من الذاكرة. وفي يوم الأحد، كان رالف يصوم استعدادًا ليومه الأكثر انشغالًا ويذهب إلى كنيسه قبل أن يستيقظ أيّ شخص آخر في المنزل.

كانت كيكي تحب وجبات الفطور يوم الأحد. وهذا الصباح، رأت شقيقاتها يكافحن من أجل إيجاد مجموع الأرقام ثم يبتلعن العصيدة بسرعة ليعطين الإجابة، إذ كان الأب ليوبخهن إذا تكلمن بأفواه مملوءة.

بعد أن سئمت ماري، الشقيقة الصغرى التي تبلغ الثامنة من العمر، من تلوؤ ميريام، شقيقتها التي تكبرها بثلاث سنوات، صاحت: «سبعة عشر!»

قال رالف بفخر: «أحسن يا حبيبتي!»

وجدت كيكي أنه كان ظلمًا شديدًا بحق ميريام المسكينة، التي كانت تجد صعوبة في الحساب. في المقابل كانت ماري الأكثر ثقة تطغى على ميريام التي لم تكن تساعد شخصيتها الانطوائية، لكن كيكي كانت تفضلها سرًا.

«لذا يا ماري، لأنك سبقت شقيقاتك في الإجابة، يمكنك اختيار الأمثلة التي سأرويها لكّن».

قالت ماري من فورها: «الابن الضال!»

عندما بدأ رالف يتحدث بصوته المنخفض الرنّان، تمنّت كيكي لو كان يعلمهن مزيدًا من أمثال الكتاب المقدّس. في الحقيقة، كانت كثيرة السأم من القصص التي

كان يفضلها. علاوة على ذلك، وعلى الرغم من الجهود التي كانت تبذلها، لم تستطع فهم المغزى من قصة الابن الذي اختفى لسنوات، تاركًا لشقيقه تحمّل عبء والديه. ثم، عندما يعود...

اختتم رالف معلنًا قراره: «... أحضروا العجل السمين واذبحوه. دعونا نولم ونحتفل!».

كانت كيتي تتوق إلى سؤال والدها ما إذا كان ذلك يعني أنه يمكن لأي شخص أن يتصرّف كما يحلو له، ومع ذلك، يعود إلى المنزل ليحظى بترحيب حار، لأن هذا هو ما كان يبدو جليًا في القصة. كانت تعلم أن رالف سيجيبها بأن الآب السماوي يغفر لأي شخص يتوب عن خطايه، أما في الواقع، فلم يبدُ الأمر عادلاً تمامًا بالنسبة إلى الابن الآخر، الذي ظلّ صالحًا وبارًا طوال الوقت، ولم يستحق أن يُذبح له العجلُ السمين. كان رالف يضيف إن الأشخاص الصالحين سيُكافأون في ملكوت السماوات، لكنّ انتظارهم كان طويلًا جدًا مقارنةً بالآخرين الذين ينالونها على الأرض.

«كاثرين! ما زلت تحلمين. سألتكِ: هل من الممكن أن تأخذي شقيقاتك إلى الحضانة وتهتمين بدروسهنّ الصباحية؟ والدتك ليست في حالة صحّة جيّدة ولا تستطيع تدريسهما، لذا، سأتي إلى الحضانة في الساعة الحادية عشرة، وسنحظى بساعة من دراسة الكتاب المقدّس». ابتسم رالف لبناته بلطف، ثم نهض قائلاً: «حتى ذلك الحين، سأكون في مكتبي».



في الساعة الحادية عشرة، عندما ظهر رالف في الحضانة، جرت كيتي إلى غرفة نومها لتجلب الكتب التي كانت تنوي إعادتها إلى المكتبة العامة قبل أن تزور أبناء أبرشية والدتها. عند نزولها الدرج المؤدّي إلى قاعة المدخل، لفّت نفسها على عَجَل بشالها السميك وعباؤها، متشوّقة إلى الهرب من جو المنزل القمعي. وبينما كانت تربط شرائط قلنسوتها تحت ذقنها، دخلت غرفة الجلوس ورأت والدتها تجلس بجانب النار. كان وجهها الجميل رمادي اللون منهكًا.

«أمي الحبيبة، تبدين متعبة جداً».

«أعترف أنني أشعر بالتعب أكثر من المعتاد».

«استريحي يا أمي، وسأراك لاحقاً».

«شكراً لك يا حبيبتي».

ابتسمت أمها ابتسامة باهتة عندما قبلتها كيتي وغادرت غرفة الجلوس. خرجت في هواء الصباح المنعش، وشقّت طريقها عبر شوارع ليث الضيقة وحيّاتها كثير من أبناء الرعية، الذين يعرفها بعضهم منذ أن كانت «في المهد»، كما كانوا يحبّون تذكيرها في كثير من الأحيان. وما كادت تمرّ بالسيدة دوبهاش، التي سألت، كالعادة، عن القس، وامتدحت خطبته الأخيرة، الأحد الماضي، حتّى بدأت كيتي تشعر بالغثيان تماماً.

بعد تأنّ ودّعت كيتي المرأة، واستقلّت الترام الكهربائي متجهةً إلى وسط إدنبره. بعد أن غيّرت الترام في ليث ووك، ترجّلت بالقرب من جسر جورج الرابع وتوجّهت إلى المكتبة المركزية. ألقت نظرة سريعة على الطلاب الذين كانوا يتحدثون ويضحكون، وهم يصعدون الدرجات المؤدية إلى المبنى الضخم المبنى من الطوب الرمادي. كانت أنوار نوافذه الكثيرة تنشر ضوءاً ضئيلاً في سماء الشتاء القاتمة. في الداخل، كان سقف القاعة الرئيسية من الارتفاع بحيث لم تكن حرارة الجو تفوق حرارة الخارج إلا قليلاً، وبينما كانت تضع كتبها على مكتب الإرجاع، لفّت شالها بشدة في حين كانت أمينة المكتبة منهمكة في ملء الاستثمارات.

وقفت كيتي بصبر، وهي تفكر في كتاب محدّد استعارته مؤخراً: كتاب تشارلز داروين، أصل الأنواع، الذي نُشر لأول مرة منذ أكثر من أربعين عاماً. كان ذلك الكتاب كشفًا بالنسبة إليها. في الواقع، كان الحافز الذي دفعها إلى التشكيك في عقيدتها الدينية والتعاليم التي غرسها والدها فيها منذ الطفولة. كانت تعلم أنه سيشعر بالرعب لمجرد التفكير في أنها قرأت مثل هذه الكلمات التجديفية، فما بالك إذا كانت تصدّقها.

في الواقع، لم يتغاضَ القس، إلا على مضض، عن زياراتها المنتظمة للمكتبة، أما

بالنسبة إلى كيتي، وكانت المكتبة ملاذها - المكان الذي قدم لها الجزء الأكبر من تعليمها وموضوعات تتجاوز كثيرًا ما تعلّمتها من دراسة الكتاب المقدّس أو دروس والدتها الأساسية في اللغة الإنجليزية والحساب. كانت قد تعرّفت على داروين عن طريق الصدفة، بعد أن ذكر والدها أن السيدة ماكرومبي، أغنى مُحسنةٍ في كنيسته، تفكر في زيارة أقاربها في أستراليا. أثار ذلك اهتمام كيتي، ولأنها لم تكن تعرف شيئًا تقريبًا عن القارة البعيدة، فقد بحثت في رفوف المكتبة وعثرت على كتاب رحلة البيغل *The Voyage of the Beagle*، الذي سجل مغامرات داروين الشاب خلال رحلة استغرقت خمس سنوات حول العالم، بما في ذلك الشهران اللذان قضاهما في أستراليا. ومن كتاب إلى آخر، وجدت كيتي نفسها مفتونة ومضطربة في الوقت نفسه بالنظريات الثورية التي كان يتبنّاها السيد داروين.

تمنّت أن يكون لديها شخص تناقش معه هذه الأفكار، لكنها تخيلت السكتة الدماغية التي أصابت والدها إذا تجرّأت على ذكر كلمة «التطوّر». إن فكرة أن المخلوقات التي سكنت الأرض لم تكن من خلق الله، بل هي نتيجة آلاف السنين التي أمضتها في التكيف مع بيئتها، ستكون لعنة بالنسبة إليه. ناهيك بفكرة أن الولادة والموت لم تكن من صلاحيات الله، لأن «الانتقاء الطبيعي» يؤكّد أن الأقوى فقط، من أيّ نوع، هو الذي يبقى ويتكاثر. لقد جعلت نظرية التطوّر الصلاة تبدو اعتبارية إلى حدٍّ ما، فبرأي داروين، لا يوجد سيد ما وراء الطبيعة، فهي القوة الأقوى في العالم.

استشارت كيتي الساعة المعلّقة على الحائط، وبعد أن سوّت المعاملات الإدارية مع أمينة المكتبة، لم تتسكّع بين الرفوف كما كانت تفعل في العادة، بل شقّت طريقها إلى الخارج، واستقلّت الترام عائدةً إلى ليث.

في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، أسرع نحو المنزل عبر شوارع شديدة البرودة، تصطف على جانبيها مبانٍ شاهقة متقشّفة، وكلها مشيدة بالحجر الرملي الباهت نفسه الذي يختلط بالسماء الرمادية. استطاعت أن ترى من خلال ضوء مصابيح الغاز المتدرّج أن ضبابًا كثيفًا كان يهبط على المدينة. شعرت بالإرهاق، بعد أن صرفت فترة ما بعد الظهر في زيارة أبناء الرعية المرضى، سواء أولئك المسجّلين

على قائمتها الشخصية أو قائمة والدتها. وما أحنها وزاد من استيائها، أنها عندما وصلت إلى الباب الأمامي لمبنى سكني يقع في شارع الملكة شارلوت، اكتشفت أن السيدة مونكتون قد ماتت ليلة أمس، وهي سيدة عجوز لطيفة، أقسم القس والدها، أن السكر والزنى أوديا بها إلى فقر مدقع. وعلى الرغم من تعليقات والدها، كانت كيتي تصرّ دائماً على زيارتها كل أسبوع، ولو أنها كانت تجد صعوبة في فك رموز ما تقوله المرأة، لخلو فمها من الأسنان ولهجتها الغريبة.

كانت روح الفكاهة الطيبة، التي رافقت انزلاق السيدة مونكتون إلى الفقر المدقع، من دون أن تشتكي من البؤس الذي تعيش فيه، تمثل معياراً لدى كيتي ومرجعيةً. كانت تقول: «نعم، كنتُ في الماضي خادمة سيدة ثرية، كما تعلمين. عشتُ في منزل كبير إلى أن رأت سيدتي أن السيد قد وضعني نصب عينيه»، حتّى أنها قهقهت من ذلك ذات مرة. ففي نهاية المطاف، حتّى لو استمرت في العيش على المسار الضيق نفسه، فقد كان لديها على الأقل سقف فوق رأسها وطعام على مائدتها، في حين لم يكن ذلك هو حال كُثر ممن يعيشون في الجوار.

همست كيتي في هواء الليل الكثيف وهي تعبر شارع هندرسون إلى المنزل الواقع على الجانب الآخر من الطريق: «آمل أن تكوني في الجنة، مكانك الطبيعي». وعندما اقتربت من الباب الأمامي، سدّ طريقها ظلٌ فتوقفت فجأة لتتجنب الاصطدام بصاحبه. كان الظل لامرأة شابة تجمّدت في مكانها وهي تحدّق إليها. انزلق وشاحها الممزّق عن رأسها ليكشف عن وجه هزيل بعينين كبيرتين خاويتين وبشرة شاحبة محاطة بشعر بني خشن. خمنت كيتي أن هذا المخلوق المسكين لا يمكنه أن يكون إلّا في مثل سنّها.

قالت وهي تتنحّى جانباً بشكل محرج لتتيح المرور للفتاة: «عذراً». لكنّ الفتاة لم تتزحزح، بل واصلت التحديق إليها من دون أن يرفّ لها جفن، إلى أن أشاحت كيتي بنظرها وفتحت الباب الأمامي. عندما دخلت المنزل، شعرت بعيني الفتاة تحدّقان إليها من الخلف، فأغلقت الباب على عجل.

خلعت عباءتها وقلنسوتها، وبذلت قصارى جهدها لتجريد نفسها من تينك العينين المعذبتين. ثم فكّرت في روايات جين أوستن التي قرأتها، وفي أوصاف بيوت القساوسة الخلابة التي تقع وسط حدائق جميلة في الريف الإنجليزي، وسكانها المحاطين بجيران مهذبين يعيشون حياة مرفهة. أخيرًا، خلّصت كيتي إلى أن الآنسة أوستن لم تسافر بعيدًا إلى الشمال، ولم ترّ كيف يعيش رجال الدين على مشارف إدنبره.

على غرار باقي المباني على طول الشارع، كان المنزل مبنى فيكتوريًا متينًا يرتفع على أربعة طوابق، صمّم للاستخدام العملي لا الجمالي. لم يكن الفقر سوى على مسافة خففة جناح، في المباني السكنية القريبة من الأرصفة. كان الأب يقول في كثير من الأحيان إنه لا يمكن لأحد أن ينتقده على الإطلاق لأنه لا يعيش بطريقة أرفع من قطيعه. لكن، على الأقل، فكّرت كيتي وهي تدخل غرفة الجلوس لتدفئة يديها بجوار النار، إنهم على عكس الآخرين في الحي، كانوا ينعمون بالدفء وفي مأوى من المطر.

«مساء الخير يا أمي».

حيّت كيتي أديل، التي كانت تجلس على كرسيها بجوار المدفأة، ترقق الجوارب وتضع على بطنها المستدير الوسادة الصغيرة التي تُعرّس فيها الدبابيس وإبر الخياطة.

«مساء الخير يا كيتي. كيف كان يومك؟».

كانت لهجة أديل الناعمة هي نبرة الأرستقراطية الإسكتلندية عيناها، فقد كان والدها لوردًا في دومفريزشاير. كانت كيتي وشقيقاتها يعيشن السفر جنوبًا كلّ صيف لرؤية جدّيهن، وبشكل خاص كانت كيتي تعشق ركوب الخيل والنزهة في الريف الواسع. مع ذلك، لطالما حيّرها عدم مرافقة والدها لهنّ في رحلاتهنّ الصيفية مبررًا ذلك بضرورة البقاء مع قطيعه. لكن كيتي كانت قد بدأت تشك في أن السبب الحقيقي هو عدم موافقة جديها على زواج ابنتهما به. على الرغم من سعة حالها، كانت أسرة ماكبرايد تنحدر من طبقة ما يُسمّى «البرجوازية التجارية»، في حين

كان جدّاهما لوالدتهما ينتميان إلى سلالة عشيرة دوغلاس النبيلة، وكثيرًا ما أعربا عن قلقهما من أن ابنتهما تعيش في ظروف سيئة كزوجة قس.

«السيدة ماكفارلين وأطفالها يرسلون إليك أطيب تمنياتهم، ويبدو أن خراج ساق السيد كوثيرتسون قد شفي. مع ذلك، لديّ بعض الأخبار الحزينة أيضًا يا أمي. لقد ماتت السيدة مونكتون ليلة أمس».

«رحمها الله». رسمت أديل من فورها علامة الصليب على وجهها وأضافت: «ربما كان ذلك راحة مباركة، بالنظر إلى الحياة التي كانت تعيشها...».

«قالت جارتها إنهم أخذوا جثتها إلى المشرحة. لم يكن لديها أقارب ولا تملك فلسًا واحدًا باسمها، لذلك لن تحظى بجنّازة ودفن لائقين. إلا إذا...».

قاطعت أديل ابنتها مطمئنّة: «سأتحدّث إلى والدك، على الرغم من أنني أعلم أن أموال الكنيسة شحيحة في الوقت الحالي».

«من فضلك أن تفعل ذلك يا أمي. مهما يقلّ أبي عن سقوطها في الخطيئة، فقد تابّت توبة خالصة في نهاية حياتها».

ارتجفت أديل قليلًا ووضعت يدها بشكل وقائي على بطنها. قالت: «كانت رفقتها مبهجة. أوه، كم أكره بداية الشتاء. إنه موسم الموت... على الأقل في الجوار. هذا المساء، يشارك والدك في اجتماع لجنة الرعية، وبعد ذلك، يتناول العشاء مع السيدة ماكرومبي. إنه يأمل أن يهديها الله وتتبرع لكنيستنا من جديد. فالسماء تعلم أننا بحاجة إليها. لا يمكن للأبرشية أن تعيش على الخلاص الأبدي وحده».

ولا على وعد بشيء لا نستطيع أن نراه، أو نسمعه، أو حتّى نلمسه...

«نعم يا أمي».

«هلاً تفضّلت بالصعود إلى الطابق العلوي لتفقد شقيقاتك يا حبيبتي؟ أحضريهنّ لي بعد أن يرتدين ثياب النوم. أشعر بالتعب الشديد هذه الليلة، ولا أستطيع صعود الدرج إلى طابق الحضانة».

اجتاحت كيتي موجة من الذعر وسألت: «هل ما زلت مريضة يا أمي؟»

قالت: «سيأتي يوم يا حبيبتي، وستفهمين كم يمكن أن يكون الحمل مرهقًا، خصوصًا في عمري. سنتناول الطعام في الساعة الثامنة، ولا حاجة لارتداء ملابس العشاء، لأن والدك في الخارج».

صعدت كيتي الدرج الذي لا نهاية له، وهي تلعن الآفة المزدوجة المتمثلة في كونها ابنة قس والأكبر بين مجموعة من أربعة أولاد، وسيأتي الخامس قريبًا. دخلت الحضانة ووجدت مارثا ومiriam وماري يتشاجرن بشأن الفوز في لعبة كرات البلي. قالت مارثا، التي كانت في الرابعة عشرة من عمرها وتتمتع بمزاج عنيد بمثل تزمّت معتقدات والدها الدينية: «لقد فزت».

ردّت ماري عابسةً: «أنا التي فزت».

تدخلت ميريام بلطف: «في الواقع، أعتقد أنني أنا التي فزت».

عرفت كيتي أن ميريام كانت الفائزة. «حسنًا، أيًا تكن الفائزة، تريد والدتنا أن تغتسلن، وترتدين قمصان النوم، وتذهبن إلى غرفة الجلوس لتقبلنهما قبل النوم». بدت ماري مصدومة وقالت: «كيف ننزل بقميص النوم؟ ماذا سيقول أبي؟» «أبي يتناول العشاء مع السيدة ماكرومبي خارج المنزل. والآن...».

وصلت إيلسا إلى الحضانة ومعها وعاء مليء بالماء. فتابعت كيتي: «والآن، دعونا نرَ حالة وجوهكن وأعناقكن».

قالت إيلسا متوسلةً: «هل تمانعين في الاهتمام بهنّ يا آنسة كيتي؟ يجب أن أعدّ العشاء في الطابق الأرضي».

«بالطبع لا يا إيلسا». باعتبارها الخادمة الوحيدة لديهم، عرفت كيتي أن الفتاة كانت منهكة تمامًا في هذه الساعة من الليل.

«شكرًا لك يا آنسة كيتي».

أومأت إيلسا برأسها ممتنةً، وخرجت مسرعةً من الحضانة.

بعد أن ارتدت شقيقاتها الثلاث قمصان نوم بيضًا من الموسلين، اصطحبتهن كيتي إلى غرفة الجلوس في الطابق الأرضي. وبينما كانت والدتها تقبلهن قبل النوم،

واحدة تلو الأخرى، أدركت كيتي أن خبرتها المبكرة في رعاية الأطفال ستجعلها في وضع جيد عندما تنجب أطفالاً. ثم، عندما نظرت إلى بطن أمها المنتفخ والتعب الواضح على وجهها، خلّصت إلى أنها لن تنجب أي شيء على الإطلاق.

بعد أن آوت شقيقاتها إلى الفراش، جلست كيتي وأمها في غرفة الطعام لتناول عشاء مكوّن من لحم البقر المشوي، والبطاطس، والملفوف. ناقشتا أعمال الكنيسة وموسم الأعياد المقبل الذي كان بالنسبة لآل ماكبرايد أكثر أوقات العام ازدحاماً. ابتسمت أديل لها وقالت: «أنت فتاة طيبة جداً يا كيتي، وأنا ممتنة جداً لمساعدتك، سواء داخل المنزل أو خارجه... في حالتي الراهنة هذه. وبطبيعة الحال، قريباً سوف يكون لديك زوج وأسرة. ستبلغين الثامنة عشرة الأسبوع المقبل. يا إلهي، لا أستطيع أن أصدق ذلك».

قالت كيتي: «لست في عجلة من أمري يا أمي». وتذكّرت آخر مرة جاء فيها رئيس أبرشية نورث ليث لتناول الشاي مع زوجته وقدمها إلى ابنه أنغوس، من دون أن يخفي رغبته في جمع الأسرتين معاً.

كان الشاب يحمرّ خجلاً في كلّ مرة يتحدث فيها بشفتين غليظتين ورطبتين عن كيفية السير على خطى والده، وكانت متأكّدة من أنه كان لطيفاً بلا شك. ولكن على الرغم من أنها لم تكن تعرف تماماً ما الذي تريده، فمن المؤكّد أنها لم تكن تريد أن تكون زوجة قس، أو زوجة أنغوس.

تابعت أديل: «سأضيع من دونك هنا، ولكن ذات يوم سيكون الأمر كذلك». قررت كيتي اغتنام اللحظة، لأنها نادراً ما كانت هي وأمها وحدهما، فقالت: «أود أن أطلب منك شيئاً».

«ما هو؟».

«كنت أتساءل عما إذا كان والدي قد يسمح لي بالدراسة لأصبح معلّمة. أرغب بشدّة في الحصول على مهنة. وكما تعلمين، فأنا أستمع بتعليم شقيقاتي».

قالت أديل عابسة: «لست متأكّدة من أنّ والدك سيوافق على حصولك على (مهنة)، على حد تعبيرك».

أصرت كيتي: «ألن يرى ذلك على أنه مشيئة الله وصنيعه؟ مساعدة الأشخاص الأقل حظًا على تعلم القراءة والكتابة. علاوة على ذلك، لن أعود عبثًا عليكما إذا كنت أكسب رزقي بنفسى».

قالت أديل بنبرة لطيفة: «حبيبتي كيتي، هذا هو الهدف من الزواج، ودور الزوج هو أن يؤمن لك ما تحتاجين إليه. يجب أن نتذكر أنه على الرغم من أن والدك قدّم نفسه للرب بإخلاص، وأن طريقه قادنا إلى هنا، إلى ليث، إلا أنك سليلة عشيرة دوغلاس. لم تعمل أيّ امرأة في عائلتي من أجل لقمة العيش. بل من أجل الأعمال الخيرية فحسب، كما نفعل الآن».

«لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لأي شخص - سواء كان جدّي أو الرب الأعلى- أن يعتقد أنّ من العار على المرأة أن تعمل. لقد رأيت إعلانًا في صحيفة The Scotsman يدعو الشباب إلى التدرّب كمعلمات و...».

«على أيّ حال، أسألي والدك، لكنني على يقين من أنه سيتمنى عليك أن تستمري في القيام بأعمالك الصالحة في الرعية إلى أن تجدي الزوج المناسب. بدأ ظهري يؤلمني على هذا الكرسي الصلب. فلنذهب إلى غرفة الجلوس حيث الجو أكثر دفئًا وراحة».

شعرت كيتي بالإحباط بسبب عدم دعم والدتها للفكرة التي كانت تحتضنها خلال الأسابيع القليلة الماضية، وفعلت ما طلب منها. جلست بجانب النار بينما كانت والدتها تتولى الحياكة للطفل المقبل وتظاهرت بقراءة كتاب. وبعد عشرين دقيقة، سمعتا الباب الأمامي يفتح معلنًا عودة القس ماكبرايد.

قالت كيتي، وهي ليست في مزاج يتيح لها التحدث مع والدها: «أعتقد أنني سأخلد إلى النوم يا أمي». التقت به في الردهة، وأومأت بانحناءة من رأسها قائلة: «مساء الخير يا أبي. هل استمتعت بعشائك مع السيدة ماكرومبي؟».

«نعم».

«حسنًا، تصبح على خير». وصعدت كيتي الدرج.

«تصبحين على خير يا حبيبتي».

بعد بضع دقائق، صعدت كيتي إلى السرير، ولاحظت أن العنكبوت انتهت من لف شبكتها بالكامل حول الذبابة الزرقاء، التي بات من الصعب رؤيتها. ثم راحت تصلي من أجل ألا يضع والدها ابنته في فخ مماثل على شكل زواج مُرتّب. تأوّهت: «من فضلك يا الله، أي شخص، باستثناء أنغوس».



في صباح اليوم التالي، جلست كيتي إلى مكتب والدها. كانت قد عرضت أن تتولّى بالنيابة عن والدتها المتوَعكة مَهْمَة استكمال حسابات الرعيّة، التي كانت تتضمن جمع مبالغ الصدقات في الكنيسة، والتبرّعات الخيرية الأخرى، ومقارنتها بالنفقات التي بدت ضخمة بشكلٍ مخيف. في أثناء قراءتها أعمدة الأرقام لهذا الأسبوع، سمعت طرقًا قويًّا على الباب الأمامي، فهرعت للرد قبل أن تستيقظ والدتها التي كانت تستريح في الطابق العلوي.

فتحت الباب لتقع على امرأة شابة تعرّفت عليها من فورها. كانت الفتاة التي التقتها خارج المنزل الليلة الماضية.

«صباح الخير. هل يمكنني أن أساعدك؟».

قالت الشابة، وقد بدا الإلحاح واضحًا في صوتها: «أريد أن أرى رالف».

أجابت كيتي: «القس ماكبرايد في الخارج لزيارة أبناء الرعية. أستطيع أن أوصل له رسالة إذا أردت».

«أنت لا تكذّبين عليّ، أليس كذلك؟ أعرف أنه يتهرّب مني. لكن، يجب أن أتحدث معه الآن».

كرّرت كيتي بحزم: «كما قلت لك، هو ليس في المنزل. هل يمكنني أن أنقل له رسالة؟».

«أخبريه أن آني بحاجة إلى التحدّث معه. أخبريه أن الأمر لا يحتمل الانتظار».

وقبل أن تتمكّن كيتي من الرد، استدارت الشابة بسرعة وراحت تجري في

الشارع. أغلقت كيتي الباب الأمامي، وتساءلت عن سبب استخدام المرأة لاسم والدها الأول...

عندما وصل رالف إلى المنزل بعد ساعتين، طرقت باب مكتبه بعد تردّد. «تفضّلي».

«آسفة لإزعاجك يا أبي، لكنّ سيّدة شابّة أتت إلى المنزل هذا الصباح».

«حقّاً؟». نظر رالف إلى أعلى، ثمّ وضع قلمه جانباً، ونزع نظّارته. «وماذا أرادت؟ قليلاً من البنسات، بلا شك. كلهم يفعلون ذلك».

«لا. طلبت مني على وجه التحديد أن أخبرك بأنّ آني بحاجة إلى كلمة. ولا يمكن أن تنتظر، كما يبدو».

مرت لحظة قبل أن يعيد رالف نظّارة القراءة إلى أنفه ويلتقط قلمه مرّة أخرى. بدأ بالكتابة بينما كانت كيتي تحوم أمام المدخل. ثمّ أجاب في النهاية: «أعتقد أنّي أعرف الفتاة. إنها تنتظر خارج الكنيسة كلّ أيام الأحد. لقد أشفقت عليها ذات مرة وألقيت لها بعض القطع المعدنية. سأهتم بأمرها».

«نعم يا أبي. سأخرج الآن للقيام ببعض المهام». انسحبت كيتي من المكتب وأسرعت لاستعادة قلنسوتها وشالها وعباءتها، وقد شعرت بالارتياح في الهروب من التوتر المفاجئ الذي شعرت به لكنها لم تستطع وصفه.

في طريق عودتها إلى المنزل بسلة ثقيلة من البيض، والحليب، والخضّر، ولفائف الهاغيز التي كان والدها يحبها ويتقبّلها باقي أفراد الأسرة على مضض، اشتدت برودة الرياح. أحكمت كيتي شالها حول كتفها وهي تسير في زقاق ضيّق كان طريقاً مختصراً إلى شارع هندرسون. تجمّدت في مكانها عندما رأت أمامها في الظلام الدامس ظلّاً مألوفاً. كان والدها يقف على عتبة باب مع المسكينة آني التي طرقت باب المنزل في وقت سابق من ذلك اليوم. توارت كيتي في الظل، وكانت غريزتها تقول لها ألا تكشف عن نفسها.

كانت ملامح المرأة تتلوّى ألماً أو غضباً وهي تهمس له بصوت أجش. رأت كيتي رالف يمد يده ويقبض على يدي آني بإحكام، قبل أن ينحني ليهمس شيئاً في

أذنها ويطبع قبلة رقيقة على جبينها، ثم استدار وابتعد. وجدت أني نفسها وحيدة في البرد، تشبك يديها على بطنها، الذي لاحظت كيتي انتفاخه، وتحلُّهما. بعد ثانية، اختفت في الداخل وأغلقت الباب بإحكام.

بعد أن انتظرت خمس دقائق كاملة، عادت كيتي إلى المنزل، وكانت ساقاها لا تحملانها. من الناحية الآلية، كانت تقوم بواجباتها المنزلية، لكن إجابات مختلفة كانت تدور في ذهنها بلا توقُّف. ربما لم يكن الأمر كما بدا؛ ربما كان والدها يواسي المرأة المسكينة في محنتها...

مع ذلك، وفي أحلك زاوية من عقلها، كانت كيتي تعرف بالفعل.

خلال الأيام القليلة التالية، تجنَّبت والدها قدر استطاعتها، وأصبح الوضع أسهل مع اقتراب عيد ميلادها الثامن عشر. كان المنزل يعج بالأسرار والإثارة لاحتمال إقامة حفلة، فقد طردتها شقيقاتها خارج الغرفة ليتها مسن معًا كما لو كنَّ يدبرن مؤامرة، وكان والدها يقضيان الوقت معًا في غرفة الجلوس والباب مغلق بإحكام. عشية عيد ميلادها، أوقفها رالف وهي تتجه إلى الطابق العلوي لتأوي إلى الفراش.

«حبيبتي كاثرين، غدًا لن تعودِي طفلة».

«نعم يا أبي». لم تتمكَّن كيتي من مواجهة نظراته.

«أنت نعمة لي ولوالدتك». انحنى رالف وقبلها على خدها. «تصبحين على خير، وبارك الله فيكِ».

أومأت كيتي برأسها شاكرة، وواصلت صعود الدرج.

في السرير، سحبت الأغطية فوق رأسها، وكانت ترتجف من برد أواخر الخريف. تنهَّدت قائلة في نفسها: «يا رب، اغفر لي، لأنني لم أعد متأكدة من أنني أعرف والدي».



كانت إيلسا قد أوقدت النار عندما هبطت كيكي الدرج في صباح اليوم التالي. شعرت بالحاجة إلى بعض الهواء النقي لإزالة ضباب الارتباك والإرهاق الناجمين عن ليلة أخرى مضطربة، فخرجت من المنزل وسارت باتجاه الأرصفة.

توقفت لتجلس على جدار منخفض، تراقب استيقاظ السماء، التي كانت ترسل تدرجات من اللون الأرجواني والوردي عبر اتساعها الإعجازي. ثم رأت شيئاً يبرز من الشارع الذي سلكته لتوها. أدركت كيكي أنها كانت آني التي لا بد من أنها رأتها تعبر الزقاق فتبعتها. التقت نظرتاهما عندما اقتربت المرأة منها.

قالت آني بفضاضة، وقد ارتسمت بقع الإرهاق الداكنة جليّةً تحت عينيها: «لقد جاء لرؤيتي. لم يعد يستطيع الاختباء خلف الله بعد الآن. نعم، إنه يعرف الحقيقة!»

«أنا...». وابتعدت كيكي عنها.

سألت آني: «ما الذي كان من المفترض أن أفعله؟ لقد تصدق عليّ ببعض القطع المعدنية وطلب مني التخلص منه. لا أستطيع، لقد فات الأوان». «لا أعرف، أنا آسفة، أنا...».

«أوه، أنت آسفة! وما فائدة أسفك؟ إنه والدك الذي يجب أن يأسف».

«يجب أن أذهب. أعتذر حقاً». كرّرت كيكي تلك الكلمات وهي ترفع تنورتها، وتهرع مبتعدة في اتجاه المنزل.

صرخت آني التي ظلت خلفها: «إنه الشيطان! هذه هي الحقيقة!».



بطريقة ما، تمكنت كيكي من قضاء باقي اليوم. فتحت هدايا شقيقاتها المصنوعة يدوياً وأطفأت الشموع على الكعكة التي أعدتها إيلسا خصيصاً. كبحت ارتجافها عندما قبلها رالف وحضنها، وهو تصرف طبيعي كانت تستمتع به حتى أيام قليلة مضت. الآن، وبطريقة ما، وجدته مدنساً.

قالت أديل بفخر: «لقد أصبحتِ شابة جميلة يا حبيبتى. أدعو الله أن تكون لك أسرتك الخاصة ذات يوم قريب، وتكوني سيدة منزلك».

أجابت كيتي بهدوء: «شكرًا لك يا أمي».

«كاثرين الحبيبة، يا فتاتي المميّزة. عيد ميلاد سعيد، وليباركك الربّ ويبارك مستقبلك. أعتقد أنه يدّخر لك شيئًا مميّزًا يا عزيزتي».

في وقت لاحق من ذلك المساء، استدعت كيتي إلى مكتب والدها، الذي كان يقع في الجزء الخلفي من المنزل مقابل جدار من الطوب. كان يقول دائمًا إن نقص الرؤية يساعده على التركيز في صياغة خطبه.

أشار رالف إلى الكرسي الخشبي ذي الظهر الصلب الموجود في زاوية الغرفة وقال: «تعالى يا كاثرين، اجلسي. والآن، هل تعلمين أنني تناولت العشاء مع السيدة ماكرومبي مؤخرًا؟»
«نعم يا أبي».

حين كانت كيتي تنظر إلى المحسنة ماكرومبي في مدخل الكنيسة، ترى امرأة في منتصف العمر ترتدي ملابس باهظة الثمن، ممتلئة الجسم، وتبدو في غير مكانها وسط الحشد الفقير. لم تزرهم السيدة ماكرومبي في المنزل. وبدلاً من ذلك، كان والدها يذهب لرؤيتها في منزلها الكبير الواقع قبالة شارع پرينسز. ولذلك، فإن إجمالي محادثتهما المشتركة كانت تقتصر على «صباح الخير» إذا التقت مساراتهما خارج الكنيسة بعد القداس.

قال رالف: «كما تعلمين يا كاثرين، كانت السيدة ماكرومبي دائماً مُحسنة سخيّة لكنيستنا ورعيتنا. سلك ابنها الأكبر طريق الرهبنة لكنه قُتل في حرب البويرز الأولى. أعتقد أنها تعتبرني بديلاً له، وبالطبع، فإنها تقدم التبرّعات للكنيسة تخليداً لذكراه. إنها امرأة صالحة، امرأة مسيحية تريد مساعدة أولئك الأقل منها حظاً، وأنا شاكر لها إلى الأبد لأنها اختارت كنيسة لي لأعمالها الخيرية».

«نعم يا أبي». تساءلت كيتي إلى أين تقود هذه المحادثة وتمنت أن تنتهي

قريبًا. كان عيد ميلادها الثامن عشر، على أي حال، والآن بالكاد تستطيع أن تتنفس الهواء الذي يتنفسه والدها.

«النقطة المهمة هي، كما تعلمين، أن السيدة ماكرومبي لديها أقارب في أستراليا، لم ترهم منذ سنوات عدة، وهم شقيقاتها الصغرى، وصهرها، واثان من أبناء أخيها، يعيشون جميعًا في بلدة تسمى أدليايد على الساحل الجنوبي. لقد قررت أن تذهب لزيارتهم ما دامت بصحة جيدة».

«نعم يا أبي». مكتبة سر من قرأ

«و... هي تبحث عن رفيقة في رحلتها الطويلة. من البديهي أن تنتمي الفتاة إلى أسرة مسيحية صالحة، وأن تكون قادرة أيضًا على مساعدتها في العناية بخزانة ملابسها وما شابه ذلك. لذا... فقد اقترحتك يا كاثرين. سوف تغييب لمدة تسعة أشهر أو نحو ذلك، وبعد أن ناقشت الأمر مع والدتك، أرى أنها فرصة رائعة لك للذهاب ورؤية جزء من العالم، وفي الوقت نفسه، تهدئة روحك المضطربة».

صدمها اقتراحه، ولم يكن لديها أي فكرة عن كيفية الرد عليه. «أنا سعيدة تمامًا هنا يا أبي. أنا...».

«في داخلك روح المغامرة يا كيتي، تمامًا كما كانت في داخلي قبل أن يناديني الرب...». رأت كيتي عينيه تبتعدان عن وجهها وتساfran إلى مكان بعيد في ماضيه. في نهاية المطاف، عادت تركزان عليها ثانية. «أعلم أنك تبحثين عن هدف. دعينا ندع الله أن تجديه في الزواج والأمومة ذات يوم. لكن في الوقت الحالي، ماذا تقولين؟». أجابت بصراحة: «في الحقيقة، لا أعرف ماذا أقول».

«سأريك أستراليا في الأطلس. ربما سمعت أنها بلاد خطيرة ومجهولة، وأنها بالتأكيد مليئة بالسكان الوثنيين، على الرغم من أن السيدة ماكرومبي أكدت لي أن مدينة أدليايد تضم مجتمعًا متحضّرًا على غرار إدنبره. لقد هاجر إليها كثير من أتباع عقيدتنا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر هربًا من الاضطهاد. كما أخبرتني أن فيها كثيرًا من الكنائس اللوثرية الجميلة. إنه مكان يتقي الله، وتحت جناح السيدة ماكرومبي، ليس لدي أدنى تردد في إرسالك إلى هناك».

«هل.. هل ستدفع لي مقابل خدماتي؟».

«بالطبع لا يا كاثرين! فالسيدة ماكرومبي تغطي نفقات سفرك وجميع النفقات الأخرى. هل لديك أي فكرة عن تكلفة هذه الرحلة؟ بالإضافة إلى ذلك، أعتقد أن هذا أقل ما يمكن أن تفعله عائلتنا، بالنظر إلى ما تبرّعت به بسخاء لكنيستنا على مرّ السنين.

لذلك يجب أن أقدم قربانًا حيًا يتنفس...

«إذًا. ما رأيك في ذلك يا عزيزتي؟».

أجابت: «كل ما تراه هو خير لي يا أبي». أخفضت عينيها لئلا يرى الغضب فيهما، ثم أضافت: «ولكن ماذا ستفعل أُمي عندما يأتي الطفل؟ سوف تحتاج إلى مساعدتي بالتأكيد؟».

«لقد ناقشنا ذلك، وأكدت لوالدتك أنه عندما يحين الوقت، سأجد المال اللازم لتوظيف مساعدة إضافية».

طوال الثمانية عشر عامًا التي قضتها في المنزل، لم يكن هناك «مال» لتوظيف مساعدة إضافية.

توسّل إليها رالف: «قولي يا كاثرين. هل أنتِ غير سعيدة بهذا الترتيب؟»

«أنا... لا أعرف. إنه... أمر مفاجئ».

«أفهم ذلك». انحنى رالف ليأخذ يديها بيديه، وينظر إلى عينيها بعينيه الساحرتين.

«بطبيعة الحال، لا بدّ من أن تكوني في حيرة من أمرك. والآن، يجب أن تستمعي لي. عندما التقيت والدتك، كنت قائدًا في كتيبة هايلاندرز رقم 92، وبدا مستقبلنا مرسومًا. أرسلت للقتال في حرب البويرز. رأيت كثيرًا من أصدقائي وأعدائي يُقتلون بنيران بنادق رجال آخرين. وبعد ذلك أصبْتُ بطلق ناري في معركة تل ماجوبا. في المستشفى، حدث لي ما يشبه التجلي. صليت تلك الليلة، ونذرت نفسي أنني إذا نجوت، فسوف أكرّس حياتي لله، وأبذل كلّ نفس لوقف الظلم والقتل الدموي الذي كنت شاهدًا عليه. في صباح اليوم التالي، استيقظت،

ولم يكن الأطباء يتوقعون أن أشهد طلوع الفجر. انخفضت درجة حرارتي، وشفي جرح صدري خلال أيام. عندها عرفت وفهمت ما سيكون عليه طريقي المستقبلي. لقد فهمت والدتك أيضًا؛ إنها ممتلئة بمحبة الله، لكنها عانت بسبب اختياري طريق الكهنوت، وكذلك أنت وشقيقاتك. أتفهمين يا كاثرين؟».

أجابت كيتي بشكل آلي: «نعم يا أبي». على الرغم من أنها لم تفهم.

«هذه الرحلة إلى أستراليا مع السيدة ماكرومبي هي انفتاح على نوع المجتمع الذي تنتمي إليه عائلة والدتك. فمجرد شعوري بالحاجة إلى إنقاذ النفوس لا يعني أنه يجب أن أهمل مستقبل بناتي. أنا متأكد من أنك إذا قمت بعمل جيد في هذه الرحلة، سيكون من دواعي سرور السيدة ماكرومبي أن تقدمك هنا وفي أستراليا إلى دائرة أوسع من السادة الشباب الذين قد يكون بينهم شريك حياتك المناسب، أكثر مما أستطيع أنا أن أقدمه لك بالنظر إلى أوضاعنا المالية. إنها تعرف تضحيتي من أجل الرب وتعرف ما تصبو إليه عائلة والدتك في دومفريزشاير. إنها ترغب في بذل قصارى جهدها من أجلك يا كاثرين، وأنا أيضًا. والآن، هل تفهمين؟».

نظرت كيتي إلى والدها، ثم إلى اليدين الناعمتين اللتين كانتا تمسكان بيديها، وتذكرت لحظة مشابهة لهذه اللحظة جعلتها تسحبهما. وأخيرًا، فهمت جيدًا مكائد عقل والدها وخطته للتخلص منها. «نعم يا أبي، إذا كنت تعتقد أنه الأفضل لي، فسوف أذهب مع السيدة ماكرومبي إلى أستراليا».

«رائع! بالطبع، سوف تحتاجين إلى مقابلة السيدة ماكرومبي لكي ترى كم أنت فتاة جيدة. أليس كذلك يا عزيزتي كاثرين؟

«نعم يا أبي». أدركت كيتي أن عليها مغادرة الغرفة قبل أن يفيض غضبها وتبصق في وجهه. سألت ببرود وهي تنهض واقفة: «هل يمكنني أن أذهب الآن؟». «بالطبع».

«تصبح على خير».

انحنى كيتي، ثم استدارت وكادت تجري وهي تخرج من المكتب وتصعد إلى غرفة نومها في الطابق العلوي. أغلقت الباب خلفها وارتمت على السرير. «منافق!

كذاب! غشاش! وأمي المسكينة - زوجتك - تنتظر طفلاً أيضاً!». ثم بعد أن بصقت الكلمات على وسادتها، بكت طويلاً، بكت من اليأس. وفي النهاية، وقفت وارتدت ثوب نومها ومشطت شعرها أمام المرأة. كان انعكاس صورتها الشاحبة يرتعش في ضوء مصباح الغاز.

أنت تعلم أنني سبرت أغوارك يا أبي. ولهذا ترسلني بعيداً.

«والدك مصدر إلهام لي يا آنسة ماكبرايد، وأنا متيقّنة من أنه كذلك بالنسبة إليك أيضاً».

كذبت كيتي وهي ترتشف شاي إيرل غراي من فنجان صيني رقيق عندما قالت: «بالطبع».

كانتا تجلسان في قاعة الاستقبال التابعة للمنزل الكبير الواقع في ساحة سانت أندرو، أحد أكثر الأمكنة المرغوبة في إدنبره. وكانت الحرارة شديدة في الغرفة التي تعجّ بتحف أكثر أناقة مما رأته كيتي في متجر الأنسة أندرسون للسلع الفاخرة. إلى جانب أحد الجدران، كانت تنتصب خزانة عرض مليئة بتمائيل الملائكة، والمزهريات الصينية والأطباق المزخرفة، ومن السقف، كانت تتدلى ثريا تقطر منها حبات البلّور مُغرّقة كلّ شيء بضوء ناعم يتساقط على الأثاث المصنوع من خشب الماهوغوني المصقول. لم تكن السيدة ماكرومبي امرأة تخفي ثروتها.

«لقد نذر حياته لقطيعه، وحرّم نفسه وأسرته من كلّ المزايا التي كان من الممكن أن يمنحها له حق والدتك».

أجابت كيتي ألياً: «نعم».

ثمّ، عندما نظرت إلى العينين المشرقتين لتلك المرأة التي ستصبح قريباً ربّة عملها، قالت في نفسها إن هذه المرأة المسنّة تبدو أشبه بفتاة صغيرة عاشقة. كما لاحظت سماكة مساحيق التجميل على بشرتها، ففكرت في تكلفة إخفاء التجاعيد الكثيرة التي كانت تتلوى على وجهها. كانت وجنتاها وأنفها القرمزيان يفضحان إدمانها على الويسكي.

«آنسة ماكبرايد! ما بك؟».

أدركت كيتي أن السيدة ماكرومبي ما زالت تتحدث إليها. «المعذرة. كنت أنظر إلى تلك اللوحة الرائعة». قالت ذلك تلقائياً وهي تشير إلى رسم رتيب وبائس ليسوع وهو يحمل الصليب على كتفيه صاعداً إلى الجلجلة.

«لقد رسمها روبرت، ابني الحبيب، رحمه الله. قبل أن يذهب إلى حرب البويرز وينتهي به الأمر بين ذراعي يسوع. كما لو كان يعرف...». ثم ابتسمت بحرارة وقالت: «من الواضح أن لديك حسَّ الفن».

أجابت كيتي: «تمتعني الأشياء الجميلة بالتأكيد». شعرت بالارتياح لأنها تمكّنت من قول ما ينبغي أن يُقال.

«إذاً، فهذا يُحسب لك، بالنظر إلى ندرة وجودها من حولك في طفولتك، بسبب تضحية والدك العزيز، التي، على الأقل، ستكون قد حضّرتك لما قد نجده في أدبلايد. وعلى الرغم من أن أختي أكدت لي أن لديهم كلّ وسائل الراحة الحديثة، التي أستمع بها بنفسني هنا في إدنبره، لكنني لا أستطيع أن أصدّق أن مثل هذا البلد الجديد يمكنه أن ينافس قروناً من الثقافة».

«سأكون مهتمة جداً برؤية أدبلايد».

قالت السيدة ماكرومبي بحزم: «أما أنا فلا تهمني. مع ذلك، أشعر بأن من واجبي زيارة أختي وابنيها مرة واحدة على الأقل قبل أن أموت. إنهم يبدوون غير راغبين في المجيء إلى هنا، لذلك لا بدّ لي من السفر إلى هناك». ندّت عنها تنهيدة حزينة بينما كانت كيتي ترتشف الشاي، وتابعت: «ستستغرق الرحلة شهراً على الأقل على متن سفينة أورينت، وهي سفينة تؤكّد لي أختي إديث أنها توفّر لي كلّ وسائل الراحة. لكن...».

«لكن ماذا يا سيدة ماكرومبي؟».

«إذا رافقتني، فلن تختلطي مع الشباب على متن السفينة. ممنوع الاحتفال، أو حضور أيّ من الحفلات الراقصة في صالات الطبقة الدنيا. ستشاركين المقصورة مع سيّدة شابة أخرى، وسوف تكونين متاحة لي في جميع الأوقات. هل هذا مفهوم؟».

«كليّاً».

«لقد أخبرتني أختي أيضاً بحلول فصل الصيف عندهم على الرغم من أننا هنا في فصل الشتاء. لديّ خياطة تفصل لي عددًا من أثواب الموسلين والقطن، وأقترح عليك أن تتزوّدي بملابس مماثلة. في الواقع، سيكون الطقس حارًا». «نعم، سيدة ماكرومبي».

«أنا على يقين من أنك تعرفين كم أنت جميلة يا عزيزتي. أتمنى ألا تكوني من أولئك الفتيات اللواتي يُغْمى عليهنّ ما إن ينظر رجل إليهنّ».

قالت كيتي وهي تتخيّل بشرتها المنمّشة: «لم أر نفسي على هذا النحو مطلقًا، لكنني أؤكد لك أنني لست كذلك. ففي نهاية المطاف، والذي خادم للكنيسة وقد علّمني العقّة».

«أخبرني والدك بأنك تجيدين الخياطة ورتق الملابس، وتعرفين كيفية تصفيف الشعر».

«أنا أصفّ شعر أُمي وشقيقتي». كذبت كيتي، لأنها اتّخذت القرار بالذهاب إلى أستراليا. وإذا كنت ستقتل لأنك سرقت حَمَلًا، فمن الأفضل أن تسرق خروفاً. رفعت السيدة ماكرومبي نظارتها لتفحص كيتي عن كُثب وسألتها: «هل تصابين بالمرض غالبًا؟»

«أخبرتني والدتي بأنني نجوت من مرضي الخناق والحصبة، ونادرًا ما أصاب بنزلة برد».

«لا أعتقد أن البرد سيكون مصدر قلقنا الأكبر في أستراليا، على الرغم من أنني، بالطبع، سأحمل معي بعضًا من زيت الكافور لصدري. حسنًا، لم يعد هناك الكثير مما يمكن أن نناقشه الآن. سنلتقي مرة أخرى في الثالث عشر من تشرين الثاني». نهضت السيدة ماكرومبي ومدّت يدها: «طاب يومك يا آنسة ماكبرايد. سوف نعبر المحيطات معًا مُفعمتين بروح المغامرة».

«نعم سنفعل. إلى اللقاء يا سيدة ماكرومبي».



صرفت كيتي الأسبوعين التاليين في إعداد الصندوق الصغير الذي اشتراه لها والدها. بدا تتبّعها لخطى داروين، بعد فترة وجيزة من قراءة كتبه، سرياليًا بشكل إيجابي. ربما كان عليها أن تخاف: فقد قرأت في كتبه أن السكان الأصليين في أستراليا كانوا عدائيين تجاه الرجل الأبيض، وقد سرت شائعات بأنهم من أكلة لحوم البشر. مع ذلك، فقد شككت في أن السيدة ماكرومبي قد تغامر بالذهاب إلى مكان يحدث فيه مثل هذا النوع من الأشياء، خصوصًا وأنها تشكّل وجبة لائقة لعائلة بأكملها من السكان الأصليين.

كان المنزل هادئًا وهي تعمل طوال الليل على ماكينة الخياطة، وتصمّم فساتين بسيطة تأمل أن تكون مناسبة للحرارة المرتفعة. منحها هذا النشاط التركيز الذي خفّف من شعورها بالتمزّق في بطنها كلما فكرت في آني ووالدها. كانت تعلم أن لديها مهمّة أخيرة يجب القيام بها قبل أن تغادر.



في صباح يوم رحيلها، استيقظت كيتي قبل الفجر وأسرعت خارجة من المنزل قبل أن يراها أحد. أثناء سيرها في الزقاق المؤدّي إلى الأرصفة، حاولت تهدئة نفسها من خلال الاستمتاع بمناظر ليث وأصواتها للمرّة الأخيرة. كانت ليث المكان الوحيد الذي عرفته طوال أعوامها الثمانية عشر، وقد ينقضي دهر قبل أن تراه ثانية.

وصلت إلى باب آني. أخذت نفسًا عميقًا وطرقت بحذر. أخيرًا، فُتح الباب، وظهرت آني، مرتدية ثوبًا رثًا وممزّرًا. جالت عيناها لفترة وجيزة على وجه كيتي، قبل أن تتنحّى بصمت لتسمح لها بالدخول.

كان أثاث الغرفة الصغيرة ضئيلًا والجو شديد البرودة. وكان الفراش المصنوع من شعر الخيل ملقى على الأرض وملطّخًا، لكنّ الأرضية والطاولة الخشبية الخشنة وسط الغرفة كانتا نظيفتين.

بدأت كيتي متردّدة: «لقد... لقد جنّت لأعرف كيف حالكِ». أومأت آني برأسها وقالت: «نعم، أنا بخير. والجنين أيضًا».

أرغمت كيتي عينيها على النزول لتنظر إلى ذلك النتوء الأنيق الذي يؤوي ما سيصبح قريباً أخاها غير الشقيق أو أختها غير الشقيقة.

قالت آني بصوت أجش: «أقسم لك أنني لست آثمة». نظرت كيتي إلى أعلى لترى الدموع في عينيها. «لقد... لقد كنت مع القس مرتين فقط. كنت أثق في محبة الله، في محبة أبيك، كنت أظن أن... رالف سوف يهديني. أنا...».

توقفت. أبعدت نظرها عن كيتي وذهبت إلى خزانة الملابس في الزاوية، لتحضر شيئاً من الدرج. عادت ومعها نظارة تعرّفت عليها كيتي من فورها. كانت مطابقة لتلك التي يضعها والدها لكتابة خطبه.

«لقد نسيها رالف هنا عندما جاء آخر مرة لرؤيتي. وعدته بأنني سأحتفظ بالسر. كما قطعت عهداً على نفسي أمام الله بأنني سأفعل. أعطه هذه. لا أريد شيئاً منه تحت سقف منزلي بعد الآن.».

أخذت كيتي النظارة والحزن يلفّها. ثم أخرجت من تنورتها كيساً صغيراً بشريط معقود.

«لديّ شيء لك أيضاً». وسلّمت الكيس لآني. فتحته آني، ثم نظرت إلى الداخل وشهقت. «يا آنسة، لا أستطيع أن آخذ هذا منك، لا أستطيع.».

أصرت كيتي: «تستطيعين». خلال الأسبوعين الماضيين، أخفت كيتي العملات المعدنية من تبرّعات الرعية. وفي الليلة الماضية أخذت حزمة من الأوراق النقدية من العلبة التي يحتفظ بها والدها في أحد الأدراج. كان مبلغاً كبيراً يكفي لتوفير القوت المستقبلي لآني والطفل، على الأقل إلى أن تجد عملاً. وعندما يكتشف رالف اختفاء النقود، ستكون كيتي في طريقها إلى الجانب الآخر من العالم.

«شكراً لك».

أخرجت آني من الكيس صليلاً فضياً صغيراً معلقاً بسلسلة ثم راحت تداعبه بأصابعها متفكّرةً.

«لقد أعطاني إياه جدّاي بمناسبة معموديّتي. أريدك أن تحتفظي به من أجل... الطفل».

«يا للطفك وكرمك يا آنسة ماكبرايد! يا للطفك! شكرًا لك». اغرورقت عينا أني بالدموع.

«سأغادر اليوم إلى أستراليا. سأغيب لأشهر عدّة، ولكن عندما أعود، هل يمكنني أن أزورك لأرى كيف تسير الأمور؟».

«بالطبع يا آنسة».

أضافت كيّتي وهي تحمل ظرفًا: «في هذه الأثناء، أود أن أترك لك عنوان المكان الذي سأقيم فيه».

ثم شعرت بالحماسة إذ لم يكن لديها أي فكرة عمّا إذا كانت المرأة تستطيع القراءة أو الكتابة، أو تعرف كيف تودع رسالة بالبريد إلى بلد آخر. لكنّ أني أوّماّت برأسها وأخذت الظرف.

قالت بينما كانت كيّتي تتّجه نحو الباب: «لن ننسى طبيبتك أبدًا. وداعًا يا آنسة، وليحفظك الربّ في رحلتك».

غادرت كيّتي المسكن المتواضع، ثمّ سارت حتّى الأرصفة ووقفت على حافة الجدار الذي ينتصب فوق البحر، تراقب النوارس وهي تحوم فوق صاري سفينة تتّجه نحو الميناء. أخرجت نظّارة القراءة من جيب تنورتها، ثمّ رمتها أبعد ما استطاعت في المياه الرمادية تحتها.

تمتمت: «حتّى الشيطان يتنكّر في هيئة ملاك من نور. كان الله في عون والدي وأمي المسكينة».



ظهرت أديل عند باب غرفة كيّتي وسألت: «هل كلّ شيء جاهز؟»

أجابت وهي تقفل صندوقها: «أجل يا أُمي».

تقدمت منها أديل وضمتها: «سوف أفتقدك بشدة، عزيزتي كيتي».

«سأفتقدك أيضًا يا أمي، خصوصًا وأن الطفل سيولد من دون وجود شقيقته الكبرى بجانبه. من فضلك اعتني بنفسك في غيابي، فلن أكون هنا لأسهر على صحتك».

«لا تقلقي يا كيتي. لدي والدك وإيلسا وشقيقاتك. سأرسل لك برقية بمجرد ولادته أو ولادتها. أرجوك يا كيتي، لا تبكي». مسحت أديل دموعه عن خد ابنتها، وأضافت: «فكري فقط في القمص التي سيتعين عليك إخبارنا بها عند عودتك إلى المنزل. إنها تسعة أشهر فقط، المدة التي تستغرقها ولادة طفل صغير».

قالت كيتي وهي تبكي على كتف والدتها المريح: «سامحيني، سأفتقدك كثيرًا».

بعد وقت قصير، وقفت كيتي عند الباب الأمامي وكان صندوقها على عربة السيدة ماكرومبي، ثم شرعت في احتضان شقيقاتها. وخلافًا للأخريات لم تتوقف ميريام عن البكاء. «عزيزتي كاثرين، كم سأفتقدك».

أخذها رالف بين ذراعيه حيث ظلت متوترة ومتصلبة: «تذكرني أن تتلي صلواتك كل يوم، وليكن الرب معك».

«وداعًا يا أبي». تمكنت من قول ذلك. ثم تحررت منه. وجهت تلويحة أخيرة لأسرتها المحبوبة، وصعدت إلى العربة، وأغلق السائق الباب خلفها.



عندما أطلقت السفينة أورينت أبواقها وبدأت في الخروج إلى عرض البحر، وقفت كيتي على سطح السفينة تراقب المسافرين وهم يصرخون وداعًا لأقاربهم الموجودين أسفلهم. كان الرصيف مكتظًا بالمودعين الذين يلوحون بالعلم البريطاني وبعض الأعلام الأسترالية. لم يكن هناك من يلوح لها بالوداع، لكنها على الأقل، على عكس كثير من الأشخاص المحيطين بها، كانت تعلم أنها ستعود إلى شواطئ إنجلترا.

حين أصبح المودعون أشباحًا لا يمكن تمييزها، وخرجت السفينة من مصب نهر التايمز، خيم الصمت على من حولها حيث أدرك كل من المسافرين جسامته

القرار الذي اتّخذه. وفي أثناء تفرّقه، سمعت أصوات بكاء، وأدركت أنهم يتساءلون عما إذا كانوا سيرون أحبائهم ثانية.

على الرغم من أنها شاهدت سفنًا كبيرة ترسو في ميناء ليث مرّات عدّة، إلا أنها بدت مهمّة شاقّة على هذه الباخرة أن تحملها عبر البحار بأمان إلى الجانب الآخر من العالم، على الرغم من ارتفاع مدخنتيّها المذهل وصواريتها ذات الأشرطة العملاقة.

أثناء نزولها الدرج الضيق إلى ممر الدرجة الثانية حيث مقصورتها، شعرت كيتي بأن هذه التجربة برمتها كانت تحدث لشخص آخر. فتحت الباب وتساءلت كيف يمكنها أن تنام مع قعقة المحركات الضخمة تحتها. استدارت بزاوية خمس وأربعين درجة لتغلق الباب خلفها. كانت الغرفة - إن أمكن تسميتها كذلك، لأن أبعادها تشبه ممراً قصيراً ضيقاً - تضمّ سريرين أشبه بتابوتين وخزانة صغيرة للملابس، وحوض غسيل في الزاوية. لاحظت كيتي أن كلّ قطع الأثاث كانت مثبتة على الأرضية.

«مرحباً، هل أنت شريكتي الجديدة في الغرفة؟». فوق الحافة الخشبية للسرير العلوي، ظهرت عيان عسلّيتان مشرقتان يحيط بهما شعر داكن أجعد.

«نعم».

«اسمي كلارا دوغان. كيف حالك؟».

«بخير، شكرًا لك. أنا كيتي ماكبرايد».

«من إسكتلندا، أليس كذلك؟».

«نعم».

«أنا من منطقة إيسْت إند العتيقة في لندن. إلى أين وجهتك؟».

«أديلايد».

«لم أسمع بها. أنا ذاهبة إلى سيدني. ملابسك أنيقة. أنتِ خادمة سيّدة؟».

«لا. أقصد... أنا مرافقة».

قالت كلارا ممازحةً: «أوه، فرق كبير. حسنًا، هكذا هي طبقة النبلاء، إذ ما لم تحضر سيدتك خادمة أيضًا، فأنت التي ستتولّى كلّ مهامّ الجلب والحمل على متن السفينة. ثمّ من سيتخلّص من القيء عندما يكون البحر هائجًا. لقد أخبرني أخي ألفي أن السفينة كانت تفوح برائحة كريهة لأيام عدّة بعد العاصفة. لقد هاجر قبلي، وهو الآن يبني حياة جيدة لنفسه هناك، كما يقول. أوصاني بتوفير المال لكي لا أضطرّ إلى السفر في الدرجة الدنيا والنوم على السطح. قال إن خمسة أشخاص ماتوا في أثناء رحلته. لقد عملت في المصنع ليل نهار لمدة سنتين لكي أتمكن من دفع ثمن النوم في مقصورة، لكن إذا وصلنا بخير وسلام، فلا آسف على النقود».

«يا إلهي! إذن دعينا نأمل أن تسير رحلتنا بسلاسة».

«يمكنني أن أكون ما أريد عندما أصل إلى هناك. سأكون حرة! أليس هذا رائعًا؟». وأشرقت عينا كلارا بالسعادة.

سُمع طرق مفاجئ على الباب فذهبت كيتي لتفتحه. كان الطارق مضيئًا شابًا. ابتسم لها وسأل: «أنت الآنسة ماكبرايد؟»
«نعم».

- السيدة ماكرومبي تطلب منك أن تذهبي إلى مقصورتها. تحتاج إلى مساعدة في تفريغ حقائبها.
«بالطبع».

بينما كانت كيتي تتبع المضيف خارج المقصورة، استلقت كلارا على ظهرها وابتسمت ابتسامة ساخرة. صاحت وراء كيتي: «حسنًا، على الأقل، فإن بعضنا أحرار».



بعد أن قضت ليلة أولى شاقّة مليئة بالكوابيس المحمومة، والعواصف، وحطام السفن، وأكلة لحوم البشر، وشخير كلارا الصاخب، سرعان ما طغى الروتين على أيام كيتي. كانت تستيقظ في الساعة السابعة لتغسل شعرها وترتبه وترتدي ملابسها. ثمّ تمشي على طول الممر المتدرّج وتصعد إلى قسم الدرجة الأولى على سطح السفينة.

لم تعانِ من دوار البحر. وعلى الرغم من أن كلارا والسيدة ماكرومبي قد لجأتا إلى سريريهما عندما واجهت السفينة ما أسماه الطاقم «انتفاخًا بحريًا لطيفًا»، فوجئت كيتي عندما وجدت نفسها في حالة جيّدة جدًّا. وقد أكسبها ذلك ثناء الطاقم، وخصوصًا جورج، المضيف الشخصي للسيدة ماكرومبي، الذي قالت كلارا إنه كان «مهتمًا» بها.

كانت أماكن الإقامة في الدرجة الأولى، مقارنة بالديكور البسيط للدرجة الثانية، على قدرٍ عالٍ من الفخامة. سجّادات وثيرة من تصميمات ويليام موريس المعقّدة، وأوانٍ نحاسية برّاقة، وجدران مغطّاة بألواح خشبية منحوتة. كانت السيدة ماكرومبي في عالمها الباذخ المعتاد، وكل مساء ترتدي فساتين فاخرة لتناول العشاء. كانت كيتي تنفق معظم فترات الصباح في الاهتمام باحتياجات السيدة ماكرومبي الشخصية، التي تضمّنت قدرًا كبيرًا من الخياطة وإصلاح المشدّات والصدریات الممزّقة، حتّى خلّصت في نهاية الأمر إلى أن السيدة ماكرومبي ترفض الكشف عن مقاسها الحقيقي بدافع الغرور. في وقت الغداء، كانت كيتي تذهب إلى مطعم الدرجة الثانية وتتناول وجبتها مع كلارا. أدهشتها جودة الطعام وبراعة النُذُل وهم يحملون صواني المشروبات والأطباق، متنقّلين على أرضيات مائلة في بعض الأحيان. في فترة ما بعد الظهر، كانت تتنزّه على سطح السفينة، ثمّ تنسحب مع السيدة ماكرومبي إلى صالون الدرجة الأولى لممارسة لعبة البيزيك أو الكريج.

مع تقدّم السفينة جنوبًا عبر البحر الأبيض المتوسط، وتوقّفها لفترة وجيزة في نابولي قبل مواصلة طريقها إلى بورسعيد، ثمّ مرورها عبر قناة السويس، أصبح الطقس أكثر دفئًا. على الرغم من أن السيدة ماكرومبي كانت ترفض مغادرة السفينة عندما ترسو، بحجّة تفادي الإصابة «بالباعون القاتل من أحد السكان الأصليين»، كانت كيتي تتأمل هذه الشواطئ الأجنبية الغريبة، وتصدع فيها روح المغامرة المحمومة.

للمرّة الأولى في حياتها، انتهكت القواعد وبدأت ترتاد حفلات الرقص على الحلبات المثيرة في قاعة الدرجة الثالثة بجوها العابق بسحب الدخان السابحة في

أضواء مصابيح الغاز. كانت كلارا قد جرّتها في المساء الأول، حيث جلست كيّتي بهدوء لا تبرح مكانها وهي تشاهد صديقتها تستمتع بالرقصة تلو الأخرى على أنغام فرقة سلتيك النابضة بالحياة. ولكن سرعان ما اقتنعت بالانضمام، ووجدت نفسها تتنقّل من شاپٍ إلى آخر، وكانوا جميعًا يتصرّفون مثل سادة مثاليين.

كما ازدادت مشاعرها دفئًا تجاه السيدة ماكرومبي، التي أظهرت، بعد تناول كأسين أو ثلاث من الويسكي، حسّها الماكر للفكاهة، عندما تروي نكاتًا جريئة من المؤكد أنها كانت ستسبّب لوالدها بنوبة قلبية. خلال إحدى تلك الأمسيات، باحت السيدة ماكرومبي لكيّتي بقلقها لرؤية أختها الصغرى ثانية.

قالت: «لم أرَ إديث منذ أن كانت في الثامنة عشرة من العمر، ولم تكن أكبر منك كثيرًا، يا عزيزتي، عندما غادرت إلى أستراليا لتتزوّج ستيفان العزيز. إنها أصغر مني بخمسة عشر عامًا تقريبًا، وكانت ولادتها صدمة لوالدي».

ابتسمت السيدة ماكرومبي ابتسامة متكلفة، ثمّ تجشّأت في تكتّم، وأضافت وهي تشير إلى النادل ليملاً كأسها: «إنها لا تشبهني على الإطلاق. وأفترض أنك تعلمين أن والدك كان زير نساء عندما عرفته عائلتي في ذلك الحين».

«حقًا؟ يا إلهي!». أجابت كيّتي متصنّعة المفاجأة، على أمل أن تتوسّع السيدة ماكرومبي في التفاصيل، لكنّ انتباه راعيتها تشتّت وتوقّفت عند هذا الحد.

عندما اقتربوا من ميناء كولومبو في سيلان، وجدت السفينة أورينت نفسها في بحار هائجة. ظلّت كيّتي محافظة على توازنها، وتولّت رعاية السيدة ماكرومبي وكلارا، اللتين تحوّلتا إلى اللون الأخضر وتوجّهتا إلى سريريهما. فكّرت في أن دوار البحر كان أعظم عامل في المساواة الاجتماعية حيث لا تستطيع أيّ ثروة أن تمنعه. كان الركب من جميع الطبقات تحت رحمة الأمواج المتلاطمة، ومضيفو السفينة منشغلين بتوزيع منقوع الزنجبيل، الذي من المفترض أنه كان يهدئ المعدة. لم تتمكّن كيّتي من منع السيدة ماكرومبي من سكب جرعات كبيرة من الويسكي في مشروباتها الطبية، مدّعية أن لا شيء يمكنه أن يوقف ترنّح السفينة الفظيع، لذا من الأفضل أن تترنّح معه.

أثناء عبورهم المحيط الهندي الشاسع، وقارة أستراليا مثل أرض ميعاد أمامهم، عانت كيتي من حرارة أقوى مما كانت تتخيل. كانت تستعير كتابًا وتجلس مع السيدة ماكرومبي على السطح - أفضل مكان للاستمتاع بالنسيم - سعيدة بحصولها على هويتها الخاصة على متن هذه السفينة. لم تعد مجرد ابنة القس ماكبرايد، بل أصبحت امرأة مقتدرة، تتمتع، وفق جورج المضيف، بأفضل قدرة عرفها لدى امرأة على تحمّل دوار البحر، إذ كانت قادرة تمامًا على تدبّر أمورها من دون حماية والديها.

كانت تنظر إلى السماء الصافية، ولحسن الحظ، يتضاءل رعب ما اكتشفته قبل مغادرتها إسكتلندا كلما ابتعدت عنها. عندما أعلنت السيدة ماكرومبي أنهم على مسافة أسبوع واحد فقط من وجهتهم، عانت كيتي من تقلّب في المعدة لا علاقة له بحركة السفينة. كانت هذه أرض داروين، أرض الرجل الذي لم يختبئ وراء الله ليشرح دوافعه أو معتقداته، لكنه احتفل بقوة الطبيعة وإبداعها بكل جمالها، وقسوتها بحيث يرى الجميع أصالتها. كانت الطبيعة صادقة، بلا تعصّب أو نفاق.

لو أنها تمكّنت من إيجاد استعارة دقيقة لما تشعر به حاليًا، لكانت صورة السيدة ماكرومبي، وقد تخلّت عن مشدّاتها الضيقة، وقررت التنفّس من جديد.



كان معظم الركّاب على سطح السفينة في ذلك الصباح، حيث لاح الساحل الأسترالي للمرة الأولى في الأفق. بدا الخوف والإثارة جليّين عندما رفع الجميع أعناقهم ليروا ما سيكون وطنهم وبداية حياة جديدة.

عندما ظهر الشريط الساحلي، ساد صمت غريب على سطح السفينة. بين زرقة البحر والسماء المتلألئة كان يرسم خيط رفيع من الأرض، أحمر اللون.

قالت كلارا وهي تهزّ كتفيها: «مسطحة تمامًا، أليس كذلك؟ لا أرى هضابًا».

قالت كيتي حاملة: «نعم، إنها كذلك». لم تكن قادرة على تصديق أنها كانت ترى بأم عينيها ما كان قد ظهر سابقًا نقطة صغيرة قصيّة في الأطلس.

عندما وصلت السفينة إلى ميناء فريمانتل ورست، اندلعت الهتافات. بدا لكيتي أكبر من ميناء لندن، وأدهشها طول سفن الركاب والبضائع التي كانت تتجمع وتضغط لتوفير مساحة على رصيف الميناء، حيث تنهمك حشود من جميع المعتقدات والألوان في أعمالها.

ألقت كلارا ذراعيها حول كيكي وقالت: «يا إلهي. لقد وصلنا إلى أستراليا!»
رأت كيكي الركاب يهبطون مع أطفالهم على العبارة الخشبية ممسكين بأمعتهم. كان الأصدقاء أو الأقارب يستقبلون عددًا قليلًا من المسافرين الذين ظلّ معظمهم على الرصيف ذاهلين مرتبكين تحت أشعة الشمس الساطعة، إلى أن يأتي أحد المسؤولين ويقودهم. شعرت كيكي بالإعجاب تجاه كل فرد منهم، لشجاعتهم في ترك الحياة التي عاشوها في البلد الذي وُلدوا فيه من أجل حياة جديدة أفضل.
قالت السيدة ماكرومبي أثناء مأدبة غداء مكوّنة من قطع لحم الضأن في غرفة الطعام: «لم أرَ إلا حشدًا من الأجلاف. حسّنًا، في البداية، كانت أستراليا مأهولة بحتالة المجتمع، التي سُحنت من إنجلترا؛ كثير من المُدانين والمجرمين. باستثناء أدبلايد، بطبيعة الحال، التي بُنيت لتشجيع هجرة الطبقة الأرستقراطية. أخبرتني إديث أنها مدينة جيدة تخاف الله».

رفعت قبعتها بعصبية عندما سمعوا عبر النوافذ المفتوحة أصوات أستراليا غير مألوفة، ثم نفخت صدرها وحبّات العرق تتلألأ على جبينها وتابعت: «لا يسعنا إلا أن نأمل أن تكون درجة الحرارة في أدبلايد أبرد مما هي عليه هنا. يا إلهي، لا عجب في أن السكان الأصليين يعيشون شبه عراة. الحرارة لا تُطاق على الإطلاق».
بعد الغداء، ذهبت السيدة ماكرومبي إلى مقصورتها لتأخذ قيلولة، وعادت كيكي تجول على سطح السفينة، منبهرة بالماشية التي بدت هزيلة ذاهلة وهي تُقاد إلى البر وتتعرّض على العبارة الخشبية.

همست لنفسها: «ما أبعدنا عن مروجنا الخضر النضرة».

في صباح اليوم التالي، أبحرت السفينة من جديد، وكانت محطتها التالية أدبلايد. قضت كيكي اليومين السابقين في تعبئة ملابس السيدة ماكرومبي في صندوقها.

في أثناء غداثهما الأخير على متن السفينة قالت كلارا لكيّتي: «ربما يمكنك أن تأتي لزيارتي في سيدني عندما أَسْتَقِر هناك؟ لا تبدو المدن بعيدة بعضها عن بعض على الخريطة».

سألت كيّتي جورج المضيف في وقت لاحق من تلك الليلة عما إذا كان ذلك ممكنًا، فضحك من جهلها وقال: «أعتقد أن المسافة بين أديلايّد وسيدني تبلغ حوالي ألف ومئتي كيلومتر. وبين المدينتين، قبائل من السود المسلّحين بالرماح، ناهيك بالثعابين والعناكب التي يمكنك أن تقتلك بلدغة واحدة. هل نظرت إلى الخريطة يا آنسة ماكبرايد وتساءلت: لماذا لا توجد مدن في المناطق الداخلية من أستراليا؟ لا يستطيع أيّ إنسان أبيض البقاء على قيد الحياة لفترة طويلة في المناطق النائية».

عندما خلّدت كيّتي إلى النوم عشية وصولهم، صلت: «من فضلك يا رب، لا أخاف من الموت بلدغة ثعبان، ولا أكره الكنغر، ولا حتّى الهمجيين، ولكن من فضلك لا تجعلني أطبخ حيّة في وعاء!».



عندما رست أورينت في ميناء أديلايّد، ودّعت كيّتي كلارا التي اغرورقت عيناها بالدموع. «إنه الوداع إذًا. لقد سررت بمعرفتك يا كيّتي. عديني بأن تكتبي لي». وتعانقت الفتاتان بقوة.

«طبعًا سأفعل. كوني بخير يا كلارا، وآمل أن تتحقّق أحلامك كلها».

بينما كانت كيّتي تساعد السيدة ماكرومبي في النزول على العبّارة الخشبية، شعرت بأنها على وشك البكاء. الآن فقط، عند النزول، أدركت كم ستفتقد أصدقاءها الذين عرفتهم على متن السفينة. «فلورانس!».

رأت كيّتي امرأة نحيلة وأنيقة ذات شعر كثيف بلون خشب الماهوغوني وهي تلوّح وتسير نحوهما.

«إديث!».

تبادلت الشقيقتان القُبل من دون مبالغة.

سارت كيّتي خلفهما وقادهنّ سائق يرتدي بذلةً رسمية إلى عربة. نظرت إلى ملابس إديث - فستان مطرز بأزرار تصل إلى رقبتهَا، ناهيك بالكورسيه والسرّوال تحته - وتساءلت كيف تتحمّل الحرارة. كانت كيّتي تتوق إلى الغوص عارية تمامًا في المياه الباردة المتلاطمة على الرصيف.

عندما وصلوا إلى العربة، كان صبي صغير ذو بشرة سوداء لم ترَ كيّتي بمثل سوادها على الإطلاق، يرفع الصناديق على الرف الموجود في الجزء الخلفي منها. التفتت إليها السيدة ماكرومبي فجأة وقالت باعتزاز: «في خضمّ سعادتي برؤيتك، يا أختي العزيزة، نسيْتُ أن أقدمك إلى الآنسة كيّتي ماكبرايد، الابنة الكبرى لأحد أصدقاء عائلتنا الأعزاء، القس ماكبرايد. لقد كانت مساعِدتي ومنقِذتي خلال الرحلة».

ردّت إديث وهي تنظر إلى كيّتي ببرود: «إذًا، يسعدني أن أتعرف إليك. مرحبًا بكِ في أستراليا وآمل أن تستمتعي بإقامتكِ معنا هنا في أديلايد». «شكرًا لكِ سيدة ميرسر».

بينما كانت كيّتي تنتظر صعود الأختين إلى العربة، تولّد لديها انطباع قوي بأن ترحيب إديث كان فارغًا كما بدا لها.

في جوّ من الحرارة الخانقة بدأت الرحلة المغبّرة من الميناء، بأكواخ مغطاة بالصفيح على امتداد الأرصفة، ثمّ تدرّجت إلى صفوف من الأكواخ الخشبية، وأخيراً إلى شارع واسع تصطفّ على جانبيه المنازل الفخمة.

كان أليسيا هول، الذي سُمّي على اسم حماة إديث، قصراً كبيراً أبيض شيد على الطراز الكولونيالي ويقع في شارع فيكتوريا. صُمّم لتحمل حرارة النهار، وكان مزئراً بشرفات باردة ظليلة وأخرى مسيجة بشبكات أنيقة. عند غروب الشمس، راحت جوقة من الحشرات التي لم تتمكّن كيتي من تسميتها بعد، تصدر أصواتاً متنافرة. منذ وصولها قبل ثلاثة أيام، أنفقت السيدة ماكرومبي - أو فلورانس كما تسميها إديث - وقتها، إما في النوم في غرفتها بعد رحلتها الشاقة، وإما في الجلوس مع إديث على الشرفة والحديث عن حياتهما.

في الوقت الحالي، كانت النساء الثلاث يقمن وحدهن في أليسيا هول، فالسيد ستيفان ميرسر، زوج إديث ورب المنزل، كان بعيداً في رحلة عمل لمتابعة مصالحه التجارية العديدة، كما كان ابنا الزوجين غائبين أيضاً. باستثناء وجبات الفطور والغداء والعشاء حيث لم تكن تشركها أيّ من الأختين في المحادثة بأكثر من صباح الخير، وطاب يومك أو طابت ليلتك، ظلّت كيتي تلازم غرفتها الواسعة المطلية بألوان الپاستيل في الطابق العلوي من المنزل.

لم تكن العزلة صعبة حتى الآن. كانت كيتي تكتفي بأخذ كتاب من مكتبة الطابق الأرضي وقراءته على الشرفة التي تطل على غرفة نومها. لكن مع مرور الأيام بالرتابة نفسها واقتراب عيد الميلاد، تحوّلت أفكار كيتي إلى إسكتلندا. وبينما كانت تكتب رسالة إلى عائلتها، كادت تستنشق الهواء الضبابي المتجمّد، وترى بعين

عقلها شجرة عيد الميلاد الضخمة التي تنتصب عاليًا في شارع پرينسز، مزينةً بأضواء صغيرة تتمايل وتتراقص مع هبوب النسيم.

همست، وهي تطوي الورقة، وعيناها مبلّلتان بالدموع: «أفتقدكم جميعًا». بعد الفطور، كانت تتجول في أرجاء الحديقة الواسعة المورقة التي قُسمت إلى مساحات مختلفة محدّدة بمسارات واضحة من العشب المجزوز، بعضها مظلل بأقواس من نبات الويستيريا. أما الشجيرات ذات اللون الزمردى الداكن، فكانت مقلّمة بشكل مثالي، وكذلك الحدود العشبية التي تحتوي على نباتات باذخة لم ترها كيتي من قبل: أزهار وردية وبرتقالية نارية، وأوراق خضر لامعة، وأزهار أرجوانية ذات رائحة عسلية تغوص فيها فراشات زرق كبيرة لتمتص حلاوة رحيقها. كانت حدود الحديقة مُحاطة بأشجار ضخمة ذات لحاء أبيض غير عادي، تفوح مع هبوب النسيم برائحة عشبية منعشة ورائعة. وعدت كيتي نفسها بأنها ستتذكر أن تسأل إديث عنها.

مع ذلك، وعلى الرغم من جمال القصر، إلا أن كيتي بدأت تشعر كما لو أنه كان سجنًا فاخرًا. لم يحدث لها من قبل أن كانت خاملة بلا نشاط إلى هذا الحد؛ كان جيش من الخدم يلبي كلّ احتياجات ساكنيه، ومع بقاء أستراليا بالانتظار خلف أسوار الحديقة، وعدم وجود الكثير لإبقائها مشغولة، بدأ الوقت يثقل كاهلها.

مع اقتراب عيد الميلاد، كانت كيتي عائدة من الحديقة بعد نزهة الصباح عندما رأت رجلًا يدخل من البوابة الخلفية. تسمرت في مكانها، لرؤية الغبار الأحمر الذي غطّى شعره بحيث لم يعد لونه معروفًا، وكانت ملابسه قذرة وحداؤه أيضًا. أوعزت لها غريزتها بالاندفاع إلى الداخل وإخطار الخدم بوجود متسكّع يتربّص في المكان.

انزلقت خلف عمود في الشرفة وراحت تراقبه خلسة من الخلف وهو يتّجه نحو مدخل الخدم.

صاح قائلاً: «طاب يومك».

تساءلت كيتي كيف يمكنه رؤيتها وهي مختبئة جيدًا.

«أستطيع أن أرى ظلك، أيًا تكوني. لماذا تختبئين؟».

كانت تعلم أن الرجل يستطيع القبض عليها بسهولة وهي تركض عبر الشرفة إلى بر الأمان، لكنها ذكّرت نفسها بأنها كانت في موقف أسوأ كثيرًا مع إسكتلنديين مخمورين على الأرصفة. لذلك أخذت نفسًا عميقًا وكشفت عن نفسها. «لم أكن أختبئ. كنت أحتمي من الشمس».

«إنها قوية جدًا في هذا الوقت من العام، لكنها لا شيء مقارنة بالحرارة في الشمال».

«لا أعرف. لقد وصلت لتوي».

«حقًا؟ من أين جئت؟».

«من إسكتلندا. هل لديك حاجة في هذا المنزل؟»

بدا أن السؤال يضحكه فأجاب: «حسنًا، أتمنى ذلك، نعم».

«إذن، عند عودة السيدة ميرسر سأخبرها بزيارتك».

«هل السيدة ميرسر خارج المنزل في الوقت الحاضر؟».

أجابت كيكي وقد أدركت خطأها: «أنا متأكدة من أنها ستعود قريبًا. لكن هناك كثير من الخدم في المنزل».

قال وهو يتجه نحو المدخل الخلفي المؤدي إلى المطبخ: «إذًا، سأذهب وأحدّث معهم عن حاجتي. طاب يومك».

بعد أن أسرع إلى الداخل وصعدت الدرج إلى غرفتها، ثم خرجت إلى شرفتها، رأت حصانًا وعربة يخرجان من البوابة الخلفية بعد بضع دقائق. شعرت بالارتياح لأن الخدم قد طردوه، فانهارت على سريرها، وراحت تُهوي نفسها بعنف.



في مساء ذلك اليوم، وهي تستعد للنزول لتناول العشاء، تعجبت كيكي من حقيقة أن على الجانب الآخر من العالم، على أرض مأهولة بالسكان الأصليين الوثنيين،

يوجد ضوء كهربائي وحوض استحمام تستطيع أن تملأه متى شئت. أخذت حمامًا طويلًا منعشًا، وصففت شعرها، ولعنت النمش، ثم هبطت السلم الأنيق. توقفت فجأة عندما رأت تحتها مشهدًا رائعًا غير متوقع: شجرة عيد ميلاد مزينة بزخارف صغيرة متألئة تشعشع في ضوء الثريا الخفيف فوق رأسها. ذكرتها رائحة الصنوبر المألوفة بليلة عيد الميلاد مع عائلتها، ففاضت عيناها بالدموع.

مطمئنة نفسها بأنها ستعود إلى المنزل في مثل هذا الوقت من العام المقبل، همست وهي تتابع نزولها: «فليبارككم الله جميعًا».

عندما وصلت إلى أسفل الدرج رأت رجلًا يرتدي ملابس رسمية لتناول العشاء، وآخر يعلق حلية على الشجرة.

قال الرجل وهو يخرج من بين الأغصان: «مساء الخير».

«مساء الخير».

وهي تحديق إليه، أدركت كيتي أن نبرة صوته كانت مألوفة.

سألها وهو يتقدم نحوها مقاطعًا ذراعيه ومتأملًا تحفته: «هل تعجبك الشجرة؟»
«إنها جميلة».

«إنها هديتي... للسيدة ميرسر».

«حقًا؟ يا للطف!».

«نعم».

نظرت إليه كيتي ثانية، وكان شعره الداكن يلمع تحت الضوء... «أعتقد أننا التقينا يا آنسة...؟».

«ماكبرايد». استطاعت كيتي إدراك من هو بالضبط ولماذا تعرّفت إليه.

«أنا دروموند ميرسر، ابن السيدة ميرسر». ثم أضاف: «أو على نحو أدق، ابنها الثاني».

«لكن...».

«ماذا؟».

«أنت...».

رأت كيتي في عينيه نظرة مرح وأحست باحمرار وجهها من الحرج. «أنا آسفة جداً. ظننت...».

«أنني كنت متسكِّعًا، أتيت لسرقة المنزل».

«نعم. من فضلك أن تقبل اعتذاري».

«ويجب أن تقبلي اعتذاري لعدم تقديم نفسي. لقد جئتُ برًّا من أليس سپرينغز على ظهر جمل، ولهذا السبب كنتُ أبدو... في حالة يُرثى لها».

«أتيت على ظهر جمل؟».

«نعم، جمل. لدينا الآلاف منها هنا في أستراليا، وعلى عكس ما قد يخبرك به الناس، فهي وسيلة النقل الأضمن عبر تضاريسنا الغادرة».

قالت كيتي وهي تحاول استيعاب ما تسمعه: «أرى ذلك. إذًا، لا عجب في أنك بدوتَ مغطًى بالغبار الأحمر. أقصد، إذا كنتَ تسافر برًّا عبر أستراليا. لقد جئتُ إلى هنا عن طريق البحر، واستغرق الأمر أسابيع عدة و...».

كانت كيتي تعلم أنها «تغرق في الثروة»، كما تعود والدها على القول دائمًا.

«لقد غفرتُ لكِ يا آنسة ماكبرايد. إنه لأمر لا يُصدَّق؛ كيف يمكن لذاك المتشرّد القذر الذي رأيته صباح اليوم أن يبدو الآن نظيفًا، أليس كذلك؟ ما إن وصلتُ حتّى أخذتُ مهرًا وعربة لأذهب وأحضر لأمي شجرتنا من المرفأ. نحن نجلب واحدة كلّ عام من ألمانيا، وأردتُ التأكّد من حصولي على الأجمل. في العام الماضي، سقطت الإبر خلال يوم واحد. حسنًا، والآن، هل يمكننا الذهاب إلى غرفة الجلوس لتناول مشروب ما؟».

شدّت كيتي قامتها ورفعت كتفيها وهي تمسك بيده الممدودة. «يسرّني ذلك».

في تلك الليلة، وأثناء العشاء، مع وجود دروموند على المائدة، شعرت كيتي بأن الجو قد أصبح خفيفًا. مازحها واستفزّها بلا رحمة بسبب خطئها السابق، حيث اضطرت السيدة ماكرومبي إلى مسح دموع الضحك عن خديها. وحدها إديث لم يرقها المزاح. جلست ونظرة استياء جليّة على وجهها.

تساءلت كيتي، لماذا هي باردة جدًا تجاهي؟ لم أرتكب أي خطأ...

سألها دروموند أثناء تناول الحلوى: «إذًا يا آنسة ماكبرايد، هل غامرت بالذهاب للتجوال في مدينتنا الصغيرة الساحرة؟».

أسرت له هامسة: «لا، لكنني بالتأكيد أرغب في ذلك، لأنني لم أشتري بعد هدايا عيد الميلاد لعائلتك».

«حسنًا، عليّ أن أذهب غدًا إلى المدينة لإنجاز بعض الأعمال. يمكنني أن آخذك معي بالعربة إذا كنت ترغبين في ذلك».

«سأكون في غاية الامتنان يا سيد ميرسر. شكرًا لك».

بعد لقائهما الأول التعيس، كان على كيتي أن تعترف بأن دروموند قد أثبت أن رفقته ممتعة. أعجبتها بساطته في التعامل، وعدم اكترائه بالشكليات، ووجدته جذابًا. كما أنه لم يسبق لها أن رأت رجلًا بمثل وسامته، بقامته الفارعة، ومنكبیه العريضين، وعينيه الزرقاوين اللامعتين، وشعره الداكن الكثيف، والمموج. لم يكن ذلك مهمًا، بالطبع، فكرت كيتي وهي تستلقي على السرير. فمن المؤكد أنه لن ينظر إليها كامرأة، فهي ابنة رجل دين فقير ومغطاة بالنمش. علاوة على ذلك، كانت فكرة اقتراب أي رجل منها تجعلها ترتعد. عندما يتصل الأمر بالعلاقة الجسدية الحميمة، كل ما كانت تفكر فيه في الوقت الحاضر هو نفاق والدها.



ساعدها دروموند في الصعود إلى العربة في صباح اليوم التالي، واستقرت كيتي بجانبه.

سأل: «جاهزة؟»

أجابت: «نعم. شكرًا لك».

خرج الحصان من البوابة إلى الطريق الواسع، واستنشقت كيتي رائحة رائعة لم تستطع تحديدها.

سألته: «ما هي هذه الرائحة؟»

«إنها رائحة أشجار الأوكالبتوس التي تعشقها حيوانات الكوالا. أخبرتني جدتي أنهم عندما بنوا أليسيا هول في العام 1860، كان هناك عدد من عائلات الكوالا التي تعيش في هذه الأشجار».

«يا إلهي! لم أرها، لكنني قرأتُ عنها في الكتب».

«يشبه الكوالا إلى حدٍّ كبير دمية دب حي يتنفس. إذا رأيتُ أحدها، سأريك إياه. وإذا سمعتِ خوارًا غريبًا في الليل يبدو أقرب إلى شيء يقع بين الشخير والهدير، فستعرفين أن هناك كوالا يبحث عن أوراق الشجر أو يجول بحثًا عن رفيقة».

بدأت كيتي شيئًا فشيئًا، تتعود لهجة دروموند الغربية، فهي عبارة عن مزيج من النبرة الألمانية والنغمة الإسكتلندية الناعمة في بعض الكلمات، والكل ممزوج بتعابير أسترالية عَرَضِيَّة. كانت الشمس حارقة، فشَدَّت قبعتها إلى أسفل لتحمي وجهها.

«تعانين من حرارة الجو، أليس كذلك؟».

اعترفت قائلة: «قليلاً، نعم. تكفي لحظة واحدة لتحرق الشمس بشرتي».

«لن تلبث أن تصبح أشد ضراوة، ويجب أن أقول إن النمش على وجهك بديع حقًا».

أَلَقَتْ نظرة على دروموند لترى ما إذا كان يسخر منها مرة أخرى، لكن تعبيراته كانت جدية وهو يركّز على توجيه الحصان على الطريق الذي اشتد ازدحامًا. جلست كيتي بهدوء عندما دخلا البلدة، ولاحظت أن الشوارع كانت أوسع كثيرًا من شوارع إدنبره، وأن المباني متينة وجميلة. كان الرجال يجولون بملابس أنيقة، والنساء يحملن المظلات لدرء أشعة الشمس القوية.

سألها دروموند: «إدًا، ما رأيك في أدبلايد حتّى الآن؟».

«لم أرَ ما يكفي لأصدر حكمًا».

«ثمة شيء يقول لي إنك تحتفظين بأفكارك لنفسك يا آنسة ماكبرايد. هل هذا صحيح؟».

«بالفعل. ذلك لأنني، ببساطة، أشك في أنها تهتم الآخرين».

أجاب: «قد تهتم بعضهم. أنت فتاة غامضة، أليس كذلك؟».

مرة أخرى، لم تردّ، لأنها غير متأكّدة إن كانت ملاحظته مجاملة أم إهانة.

قال، كاسراً الصمت مرّة أخرى: «لقد ذهبْتُ إلى ألمانيا ذات مرة، وهي رحلتي الوحيدة إلى أوروبا حتّى الآن. وجدْتُها باردة ومظلمة ومملّة إلى حدٍّ ما. قد تواجه أستراليا بعض المشكلات، ولكن هنا على الأقل، تشرق الشمس، وكل شيء مثير. ألا يخيفك هذا الجانب الخفيف من المغامرة يا آنسة ماكبرايد؟».

أجابت بنبرة محايدة: «لا أظن».

قال: «إذاً سيكون أداؤك جيّداً في أستراليا، لأنها ليست لضعاف القلوب». ثم أضاف وهو يوقف العربّة: «أو على الأقل خارج حدود المدينة».

أشار إلى شارع تصطفّ على جانبيه المحلات التجارية، وواجهاتها مطلية بألوان زاهية، مع لافتات لامعة تعلن عن بضائعها. قال: «هذا شارع الملك ويليام. أكثر الأمكنة تحضّراً. سأتركك هنا، في بيهايث كورنر، وسأمر لآخذك بعد ساعتين، في تمام الساعة الواحدة ظهراً. هل يناسبك ذلك؟».

«يناسبني جدّاً، شكراً لك».

ترجّل دروموند من العربّة ومدّ يده لكيّتي ليساعدها على التّرجل بدورها.

«الآن، اذهبي وافعلي ما تستمتع به جميع السيدات، وإذا كنتِ فتاة عاقلة، فسوف آخذك لرؤية پاپا نويل في شارع راندل». ثم غمز لها وهو يصعد عائداً إلى العربّة: «طاب يومك».

وقفت كيّتي هناك في الشارع المغبّر تراقب العربات؛ عربات تجرها الخيول والمهور التي تحمل رجالاً يعتمرون قبعات عريضة الحواف. نظرت إلى أعلى، ورأت ما أشار إليه دروموند باسم بيهايث كورنر (ركن خلية النحل)؛ مبنى جميل

باللونين الأحمر والأبيض، ذو أقواس وزخارف، وتعلوه نحلة مرسومة بدقة. واثقةً من أنها ستجده مرة أخرى، سارت على طول الشارع، وهي تحدّق إلى واجهات المتاجر. كانت تتصبّب عرقاً عندما صادفت متجرّاً يبيع لوازم الخياطة، فدخلت للاطلاع على المجموعة الكبيرة المدهشة من الأشرطة والأربطة المعروضة. كان الجو أشد سخونة داخل المتجر منه خارجه، وشعرت بالعرق يقطر من مؤخّرة رقبتها. اشترت متراً من الدانتيل لكل من السيدة ماكرومبي والسيدة ميرسر، وبعض الأقمشة القطنية البيضاء للرجال، معتقدة أنها تستطيع تحويلها إلى مناديل، وتطريز زواياها بالأشواك الإسكتلندية.

دفعت الثمن وغادرت المتجر الأشبه بفرن قبل أن تفقد وعيها. مشت مسرعة على طول الطريق، تبحث يائسة عن مأوى من الشمس وكوب من الماء البارد، ثم تابعت السير مترنّحة إلى أن رأت لافتة من بعيد كُتب عليها: فندق قلعة إدنبره.

اندفعت عبر الباب إلى غرفة مزدحمة مليئة بالدخان مع مراوح هائلة تحرك الهواء فوق رأسها. شقّت طريقها نحو البار، وبالكاد لاحظت أن الجميع صمتوا ما إن رأوها، ثم غرقت في كرسي وقالت للنادلة التي بدت صدريّتها منخفضة بشكل يناسب الحرارة الشديدة: «ماء من فضلك». فأومأت الفتاة برأسها وغرقت بعض الماء من البرميل.

أمسكت كيتي بالكوب وشربته دفعة واحدة، ثم طلبت كوباً آخر. بعد أن أفرغته هو الآخر وبدأت حواسها تعود إليها، رفعت رأسها ونظرت إلى أعلى لتجد أربعين زوجاً أو نحو ذلك من الأعين الذكرية تتفحصها.

قالت للنادلة: «شكراً لك». واستعادت وقارها، ثم نهضت وهمت بالسير نحو الباب.

«آنسة ماكبرايد!».

أمسكت بها ذراع عندما وصلت يدها إلى مقبض الباب النحاسي. «يا لها من مصادفة أن أراك هنا».

نظرت إلى عيني دروموند ميرسر المرحتين، وشعرت بالحرارة تصعد مرة أخرى إلى وجنتيها.

أجابت بشكل دفاعي: «كنت عطشانة. الجو حار جدًا في الخارج».

«نعم إنه كذلك. لم يكن ينبغي لي أن أتركك وحدك في الشارع، كونك وافدة جديدة إلى هذه الأجواء».

«أنا بخير الآن، شكرًا لك».

«يسعدني أن تكوني بخير. هل فرغت من التسوق؟».

قالت وهي تهوِّي نفسها: «بقدر ما استطعت. كيف يمكن لأي شخص أن يتسوق في هذا الجو الحار؟ لا أعرف حقًا».

قال صوت من خلفها: «جرعة من الويسكي يا آنسة؟».

«أنا...».

طمأنها دروموند: «لغاية طبية فقط. سأرافقها يا لاتشلان».

أضاف بينما كانا يشقان طريقهما عائدين إلى البار: «بالمناسبة، هذه السيدة الشابة تنحدر من إدنبره».

«إذًا فإن أي مشروب تريده الفتاة سيكون مجانيًا».

تابع الرجل وهو ينزلق خلف البار ويفتح زجاجة: «من الطبيعي أن يشعر المرء بالصدمة عندما يصل إلى هذا البلد للمرة الأولى، أتذكر ذلك الأسبوع الأول، حيث ظننت أنني وصلت إلى الجحيم. كنت أحلم بضباب لياينا الجليدية في إسكتلندا. اشربي نخب وطننا الجميل».

على الرغم من أنها لم تشرب الكحول مطلقًا، لكنها بعد أن شاهدت السيدة ماكرومبي تهدر كميات كبيرة من الويسكي ليلة بعد ليلة على متن السفينة أورينت، أكدت كيتي لنفسها أن كأسًا صغيرة واحدة لن تؤذيها.

«نخب الوطن، نخب لاتشلان».

أجابت كيتي: «نخب الوطن».

وبينما كان الرجلان يتجرعان السائل الذهبي دفعة واحدة، أخذت رشفة صغيرة وابتلعتها. تدفقت إلى أسفل حلقها، وأحرقت أحشاءها الرقيقة. كان الجميع يراقبونها باهتمام، وشعرت بأن الويسكي يستقر بشكل جيد في جوفها، فقلبت الكأس إلى الخلف وأفرغتها. وكما فعل رفاقها الجدد، خبطتها بقوة على البار. «نعم، إنها إسكتلندية حقيقية».

انحنى لها لاتشلان راسمًا قوسًا وهميًا، بينما هتف المتفرجون وصفقوا. صاح المالك: «كأسًا أخرى للجميع».

قال دروموند وهو يقدم لها كأسًا جديدة: «رائع، أنت مبهرة يا آنسة ماكبرايد. قد نستطيع أن نجعل منك أسترالية حقيقية».

قالت كيتي وهي تفرغ كأس الويسكي الثانية في حلقها: «لست جبانة يا سيد ميرسر، ينبغي أن تعرف ذلك الآن». ثم جلست فجأة على كرسيها، وهي تشعر بتحسن كبير مقارنة بما كانت عليه قبل بضع دقائق. أوما دروموند برأسه: «يمكنني أن أرى ذلك».

صاح لاتشلان: «الآن، دعونا نغنِّ معًا Over the Sea to Skye ترحيبًا بالفتاة الجميلة التي تشعر بالحنين إلى الوطن».

صدحت حناجر رؤاد الحانة بالأغنية، ووجدت كيتي، التي أنفقت حياتها في جوقة الكنيسة النسائية البائسة، بعض أصوات الذكور جميلة ورنانة. قبلت كأسًا أخرى من الويسكي وانضمت إلى الجوقة لتغني معها أغنية Loch Lomond المثيرة. بعد ذلك، جلست إلى إحدى الطاولات مع دروموند ولاتشلان.

«إذًا، أين كنتِ تعيشين يا آنسة؟».

«في ليث».

«عظيم!».

خبط لاتشلان على الطاولة وسكب لنفسه مزيدًا من الويسكي، ثم قال: «لقد وُلِدْتُ في الجنوب حيث يقيم عامة الناس بالطبع. لكن، كفى حديثًا عن الوطن القديم، دعونا نرَ بعض تلك الشجاعة الإسكتلندية الشهيرة».

سكب لكيتي كأسًا أخرى ونظر إليها رافعًا حاجبيه. وبلا لحظة تردّد، رفعت الكأس إلى فمها وأفرغتها، وعيناها مثبتتان على عيني دروموند.

بعد ساعة، وبعد أن رققت رقصات إسكتلندية كثيرة مع لاتشلان وسط هتافات المتفرّجين، كانت كيטי على وشك تجرّع كأس أخرى عندما غطاها دروموند بيده وقال: «يكفي الآن يا آنسة ماكبرايد. أعتقد أن الوقت قد حان لأصطحبك إلى المنزل».

«لكن... أصدقائي...».

«أعدك بأنني سأعيدك إلى هنا في يوم آخر، ولكن يجب علينا أن نعود إلى المنزل، وإلا قد تعتقد أُمي بأنني اختطفتك».

قال لاتشلان: «نعم، لو كنت أصغر سنًا ببضع سنوات، لفعلتُ ذلك بنفسِي. أنت جميلتنا يا كيטי، ولا تقلقي، ستنجحين هنا في أستراليا».

عندما حاولت كيטי الوقوف وفشلت، ساعدها دروموند على البقاء في وضع مستقيم. زرع لاتشلان قُبلاً حنونة على خديها وقال: «عيد ميلاد مجيد! وتذكري، إذا واجهتِ أيّ مشكلة، فإن لاتشلان دائماً في خدمتك».

لم تتذكّر كيטי الكثير عن مشيتها نحو الحصان والعربة، على الرغم من أنها تذكّرت الشعور بذراع دروموند حول خصرها. بعد ذلك، لا بُدّ من أنها نامت، لأن الشيء التالي الذي عرفته جيّداً، هو أنه كان يحملها بين ذراعيه عندما دخل أليسيا هول، وصعد الدرج ثم أرقدها بلطف في سريرها.

تمتّت: «أنت رجل طيب للغاية».

ثم أُصيبَت بالفواق (الحازوقة).

استيقظت كيتي وهي تترنّح في الظلام مع ما بدا وكأنه قطيع من الفيلة يتدافع داخل رأسها. جلست ثم جفلت، لأن الفيلة كانت تدقّ دماغها بأقدامها الضخمة، وما في معدتها يصعد إلى حلقها...

انحنّت على جانب السرير وتقيأت على الأرض. تأوّهت ومدّت يدها إلى قارورة الماء بجانب سريرها وشربت بنهم. غرقت في الوسائد، وهي تبذل قصارى جهدها لتصفية ذهنها المشوّش. وعندما صحت، تمنّت لو أنها ظلّت دائخة.

«يا إلهي ماذا فعلت؟»

شعرت بالرعب عندما فكّرت في وجه السيدة ماكرومبي، التي كانت هي نفسها تشرب قليلاً من الويسكي من حين إلى آخر، لكنها بالتأكيد لن توافق على أن تشرب «رفيقة رحلتها» كأساً بعد أخرى في الحانات، وهي تغني وترقص على أنغام أغاني إسكتلندية قديمة...

كان الأمر برمته مروّعاً... أغمضت عينيها وقرّرت أنه من الأفضل أن تعود إلى غيبوبتها.

استيقظت ثانية على وقع أصوات ورائحة القيء المقزّزة التي ملأت الغرفة.

هل كانت ما تزال على متن السفينة؟ هل كانت هناك عاصفة؟ جلست، وشعرت بالارتياح؛ فعلى الأقل، بدا قطيع الفيلة وكأنه انتقل من رأسها إلى مرعى جديد. كانت الغرفة مظلمة تماماً، فمدّت كيتي يدها لتشعل مصباح الغاز بجوار سريرها، ومن فورها رأت بركة القيء على الأرضية تحتها.

همست «ربّاه»، وهي تحاول الوقوف على ساقبيها الهلاميتين. راح رأسها ينبض عندما رفعته، لكنها تمكّنت من الترنّح حتّى المغسلة وأخذت بعض مناديل

الموسلين وحوض الغسيل المطلي بالمينا لتنظف الأرضية. أَلقت المناديل المتسخة في الحوض، وتساءلت عما يجب أن تفعله بها. حين فُتح الباب وسُمع صريره، استدارت لترى دروموند واقفاً على العتبة.

«مساء الخير يا آنسة ماكبرايد. أم يجب أن أدعوكِ كيّتي، فخر إسكتلندا وفندق قلعة إدنبره؟».

«لو سمحت...».

«أنا أمارحكِ يا آنسة ماكبرايد. نحن هنا في أستراليا نعشق المزاح، كما لاحظتِ بلا شك. كيف تشعرين؟».

«أعتقد أنك تستطيع أن ترى ذلك بنفسك». ونظرت إلى وعاء القيء الذي كان يرقد على ركبتيها.

«إذن، لن أقرب أكثر، أولاً، بسبب الرائحة - أقترح عليك أن تتركي أبواب الشرفة مفتوحة عندما تنزلين إلى الطابق الأرضي - وثانياً، لأنه سيكون من غير اللائق العثور عليّ في غرفة نوم سيدة. لقد أخبرت والدتي وخالتي أنه، بسبب لامبالاتي وقلة اهتمامي بك، تعرضت لضربة شمس أثناء التسوّق في المدينة، وبالتالي لا تستطيعين الانضمام إلينا لتناول العشاء».

شعرت بالحرج فخفضت عينيها وقالت: «شكراً لك».

«لا تشكريني يا كيّتي. في الحقيقة، يجب أن أعذر منك. لم يكن ينبغي لي أن أشجّعك على شرب كأس الويسكي الأولى، ناهيك بالثانية والثالثة، في ذلك الحر، لأنني كنت أعلم جيداً أنك لست متعودّة هذا أو ذاك.

همست كيّتي: «لم يسبق لي أن شربت قطرة واحدة من قبل، وأشعر بالخجل الشديد من سلوكي. لو رأيَني والدي ل...».

«لكنه لم يرك، ولن أتفوّه بكلمة واحدة عما حدث في تلك الحانة. صديقي يا كيّتي، عندما يكون المرء بعيداً عن عائلته، من الممتع في بعض الأحيان أن يكون على طبيعته. حسناً، ستأتي آنيس بعد قليل ومعها بعض المرق، وستأخذ هذا الحوض الذي تحمليه كما لو كنتِ طفلة يتيمة في رواية لديكنز».

«لن أشرب قطرة واحدة ما حييت».

«حسنًا، على الرغم من أنني لم أستمتع كما استمتعت اليوم، ومنذ وقت طويل، إلا أنني المسؤول الوحيد عن معاناتك الآن. حاولي أن ترتاحي وتتناولي بعض المرق. غدًا نحتفل بليلة عيد الميلاد، ومن المؤسف أن يفوتك ذلك. طاب مساؤك. أغلق دروموند الباب ووضعت كيتي الحوض النتن على الأرض. كان الرعب والذل يغمرانها.

قالت في نفسها: «ما الذي كان يقوله والدي في مثل هذه المواقف؟».

كان يعلمها دائمًا أنه عند ارتكاب خطأ ما، يجب على المرء أن يرفع رأسه عاليًا ويتعلم الدرس. لذا قرّرت أنها لن تقضي الليلة في سريرها، ولن تسمح لدروموند بأن يعتقد أنها فتاة ضعيفة هشة، بل ستنزل إلى الطابق الأرضي، وستأخذ مكانها على طاولة العشاء.

قالت في نفسها، «سيري»، وهي تأخذ نفَسًا عميقًا وتسير مترنحة حتّى خزانة ملابسها.

عندما طرقت الخادمة أنيس الباب، كانت ترتدي ملابسها وتسرح شعرها الملبّد بالعرق وتعقده بأناقة أعلى رأسها.

سألتها أنيس بلكنة إيرلندية واضحة: «كيف تشعرين يا آنسة ماكبرايد؟». كانت الفتاة أصغر سنًا من كيتي.

«لقد تعافيتُ الآن، شكرًا لك يا أنيس. عندما تعودين إلى الطابق الأرضي، من فضلك، أخبري السيدة ميرسر أنني سأنزل لتناول العشاء».

قالت أنيس وهي تجعد أنفها عندما كانت تستعيد الحوض النتن وتغطيه بقطعة من الموسلين النظيف: «أنت متأكدة يا آنسة؟ عذرًا، لكنك لا تزالين شاحبة، ولن يكون من الحكمة أن تسوء حالتك على الطاولة».

أجابت كيتي: «أنا بخير. شكرًا لك». ثم أضافت وهي تشير إلى الحوض: «وأعتذر عن ذلك».

قالت أنيس وهي تدور عينيها: «أوه، لا تزعجي نفسك، لقد مررتُ بما هو أسوأ كثيرًا قبل أن يجهّزوا المنزل بالمراحيض».

بعد عشر دقائق، كانت كيتي تشق طريقها بحذر شديد إلى أسفل الدرج، على أمل ألا ترتكب خطأً فادحًا، فحتى رائحة الصنوبر المنعشة كانت تشعرها بالغثيان. رأت دروموند يقف طاوياً ذراعيه أمام شجرة عيد الميلاد، معجباً بجمالها.

قالت وهي تصل إلى أسفل الدرج: «طاب مساؤك. أنا بخير، لذا قررتُ أخيراً أن أنضم إليك على العشاء».

«حقاً؟ ومن تكونين؟»

«أنا... أرجوك أن تكفّ عن مضايقتي. أنت تعرف جيداً من أنا».

«أؤكد لك أن أحداً لم يقدّمك إليّ رسمياً، على الرغم من أنه ينبغي لي أن افترض أنكِ الآنسة كيتي ماكبرايد، رفيقة عمتي».

«أنت تعلم أنني رفيقتها يا سيدي، لذا أرجو أن تتوقّف عن ممارسة هذه الألعاب. إذا كانت هذه نكتة جديدة، لمعاقبتي على ما حدث اليوم... فأنا...».

«آنسة ماكبرايد، كم هو رائع أن أراك بعد نوبة الشمس الرهيبة التي تعرّضتِ لها!».

كادت كيتي أن تسقط مغمى عليها، عندما ظهر دروموند من غرفة الجلوس، وفي عينيه بريق من المرح والتحذير. تابع: «من فضلك، اسمحي لي أن أقدم لك أخي أندرو. كما لاحظتِ، نحن توأمان، على الرغم من أن أندرو وُلِدَ قبلي بساعتين».

قالت كيتي شاكرة الرب على وصول دروموند، وإلا كانت بلا شك لتكشف لأندرو كلّ شيء: «يا إلهي! سامحني يا سيدي، لم أكن أعرف».

«من فضلك، لا تقلقي على الإطلاق يا آنسة ماكبرايد. يمكنني أن أؤكد لك أنه خطأ شائع جداً».

مشى أندرو نحوها ومدّ يده: «يسعدني جداً أن أتعرف إليك أخيراً، ويسعدني

أَنْكِ بَصَحَة جَيِّدَة بِمَا يَكْفِي لِلانْضِمَامِ إِلَيْنَا هَذَا الْمَسَاءَ. الْآنَ، دَعِينِي أُرَافِقُكَ إِلَى غُرْفَةِ الطَّعَامِ. يَجِبُ أَنْ نَقْدِمَكَ إِلَى وَالِدِنَا.

أَمْسَكَتْ كَيْتِي بِمَرْفُقٍ أُنْدَرُو بِأَمْتَانِ، وَكَانَتْ سَاقَاهَا لَا تَزَالَانِ لَا تَحْمِلَانَهَا. رَأَتْ دَرُومُونْدَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا بِمَكْرٍ وَيَغْمِزُهَا بِطَرَفِ عَيْنِهِ، لَكِنَّا أَدَارَتْ رَأْسَهَا وَتَجَاهَلَتْ ذَلِكَ.

كَانَتْ الْمَائِدَةُ مَزِينَةً بِزَخَارِفٍ احْتِفَالِيَّةٍ: حَامِلَاتُ مَنَادِيلٍ ذَهَبِيَّةٍ أُنِيقَةٍ، وَأَغْصَانُ صُنُوبٍ تُثَبَّتُ عَلَيْهَا كِرَاتُ حَمَرٍ مَصْقُولَةٌ تَتَلَأَلُ فِي وَهْجِ الشَّمْعِ. رَاقَبْتُ كَيْتِي ذَاهِلَةً عَائِلَةً مِيرَسِرَ وَهِيَ تَتْلُو الصَّلَاةَ بِاللُّغَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ، قَبْلَ أَنْ يَشْعَلَ أُنْدَرُو الشَّمْعَةَ الرَّابِعَةَ فِي الْإِكْلِيلِ الَّذِي كَانَ يَتَرَبَّعُ وَسَطَ الْمَائِدَةِ.

عِنْدَمَا جَلَسَ الْجَمِيعُ، لَاحِظَ أُنْدَرُو نَظْرَةَ الْفُضُولِ فِي عَيْنِي كَيْتِي. «إِنَّا شَمْعُوعٌ مُجِيءُ الْمَسِيحِ. لَقَدْ كَانَ وَالِدَايَ لَطِيفَيْنِ بِمَا يَكْفِي لانتظار عودتي إلى المنزل لكي أشعل الشمعة الرابعة والأخيرة قبل ليلة عيد الميلاد. لقد كانت دائماً لحظتي المفضلة عندما كنت طفلاً. إنه تقليد ألماني لوثري قديم، يا آنسة ماكبرايد».

فِي أَثْنَاءِ الْعِشَاءِ الْمَكُونِ مِنَ اللَّحْمِ الْبَقْرِيِّ، الَّذِي تَسْتَطِيعُ ابْتِلَاعُهُ إِذَا تَنَاوَلْتَ قَضَمَاتٍ صَغِيرَةً جَدًّا، وَمَضَعْتَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا جَيِّدًا، كَانَتْ كَيْتِي تَنْقُلُ نَظَرَاتِهَا بَيْنَ التَّوَامِينِ خَلْسَةً. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَطَابُقِهِمَا فِي الْمَظْهَرِ، بِشَعْرِيهِمَا الدَاكِنَيْنِ وَأَعْيُنِهِمَا الزَّرْقَ، إِلَّا أَنَّ شَخْصِيَّتَيْهِمَا كَانَتَا مُخْتَلِفَتَيْنِ. بَدَأَ أُنْدَرُو أَكْثَرَ جَدِيَّةً وَتَفَكُّرًا، إِذْ كَانَ يَجْلِسُ بِجَانِبِهَا وَيَطْرَحُ عَلَيْهَا أَسْئَلَةً مَهْذَبَةً حَوْلَ حَيَاتِهَا فِي إِدْنَبَرِهِ.

قَالَ: «يَجِبُ أَنْ أَعْتَذِرَ بِالنِّيَابَةِ عَنْ أَخِي. كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ شَمْسَ مَنْتَسَفَ النَّهَارِ قَوِيَّةٌ جَدًّا بِالنِّسْبَةِ لِأَيِّ سَيِّدَةٍ شَابَّةٍ، وَبِالْأَخْصِ إِذَا كَانَ وَصُولُهَا إِلَى هَذِهِ الشَّوْاطِئِ حَدِيثًا».

قَالَ دَرُومُونْدُ: «أَنْتِ تَعْرِفْنِي يَا أَخِي الْعَزِيزَ. أَنَا شَخْصٌ غَيْرُ مَسْئُولٍ تَمَامًا». ثُمَّ أَضَافَ: «قَرِّي عَيْنًا يَا آنَسَةُ مَأكْبَرَايدَ، لَقَدْ أَصْبَحَ أُنْدَرُو مَلَائِكُ الْحَارِسِ».

عَلَى رَأْسِ الطَّوَالَةِ جَلَسَ سَتِيفَانُ مِيرَسِرَ، وَالِدُ التَّوَامِينِ. كَانَ أَزْرَقُ الْعَيْنَيْنِ مِثْلَ

أبنيه، لكنه كان يميل إلى البدانة. أصلع الرأس، تغطي صلعته الكبيرة بقع النمش. روى لها كيف وصلت عائلته إلى شواطئ أستراليا قبل سبعين عامًا.

«ربما تعلمين أن كثيرًا من أسلافنا جاءوا في الأصل إلى أدिलाيد لأنها كانت تسمح لهم بعبادة رب أي دين يختارونه. كانت جدتي ألمانية، انضمت إلى مستوطنة صغيرة اسمها هاندورف في تلال أدिलाيد، وكان جدي قسًا إنجليزيًا. تعارفنا هنا ووقعنا في الحب. أستراليا بلد منفتح ذو تفكير حر، يا آنسة ماكبرايد، ولم أعد أتبع أي عقيدة من صنع الإنسان. نحن كعائلة، نتعبد في الكاتدرائية الأنجليكانية في المدينة. سنذهب مساء غد لحضور قداس منتصف الليل، وأمل أن تكوني قادرة على مرافقتنا».

قالت كيتي: «سيكون ذلك من دواعي سروري»، وقد تأثرت بقلق ستيفان الواضح من أنها ليست كنيسة مشيخية.

حرصت على تناول البودنج - وهي قطعة صغيرة لذيذة تعلوها كريمة حقيقية - وهي تستمع إلى الرجال الثلاثة يتحدثون عن أعمال العائلة التجارية، التي يبدو أن لها علاقة كبيرة بما يُسمى «الصدقة»، وكم طناً منها أعاد الطاقم وعن أشياء أطلقوا عليها اسم «مراكب شراعية». كما تحدّث دروموند عن «تجميع»، واعتقدت أن لذلك صلة بـ «رؤوس» الماشية. لم يكن أفضل «راع» لديه قد عاد، وأعلن دروموند بكل جدية أن «السود قطعوه، ثم وضعوه في وعاء، وتناولوه على العشاء».

في هذا المنزل الأنيق والمريح، وجدت كيتي أن من غير العادي حدوث مثل هذه الأشياء خارج حدود مدينة كانت، مقارنة بشوارع ليث القاسية، لطيفة جدًا وراقية.

قال دروموند مترجمًا أفكارها: «لأبد من أنك تجدين المحادثة صادمة». بدأت كيتي بالقول: «لقد قرأتُ كتابًا لدارو...» وتوقفت خشية ألا يوافقها دروموند... ثم أكملت حديثها من حيث توقفت «لمؤلف قضى وقتًا على هذه الشواطئ وذكر هذه الأشياء». هل يطعن السكان الأصليون الرجال البيض بالرماح حقًا؟.

قال دروموند وقد خفض صوته: «للأسف نعم. في رأيي، لا يحدث ذلك إلا في حالات الاستفزاز الشديد من طرف الغزاة غير المرغوب فيهم. إن قبائل السكان الأصليين يعيشون على أرضهم منذ آلاف السنين، وربما يكونون من أقدم القبائل البدائية في العالم. لقد سلبوا أرضهم وأسلوب حياتهم بالقوة، رغم أنوفهم. لكن قد يكون من الأفضل تأجيل مثل هذا الموضوع إلى وقت آخر».

قالت كيتي وهي تشعر ببعض الدفء تجاه دروموند: «بالطبع»، ثم حوّلت انتباهها إلى أندرو ثانية. «أين تقيم؟».

«على الساحل الشمالي الغربي في مستوطنة تدعى بروم. لقد تولّيت مؤخرًا إدارة أعمال والدي في صيد اللؤلؤ. إنها... جزء مثير للاهتمام من البلاد، يتمتع بتاريخ طويل. حتّى أن فيه آثار أقدم ديناصور محفورة في الصخر، يمكن رؤيتها عند انخفاض المد».

«يا إلهي! كم أحب أن أرى ذلك. هل بروم بعيدة؟ ربما أستطيع السفر إليها بالقطار».

كتم أندرو ابتسامته وقال: «لا للأسف. عن طريق البحر، وسوف يستغرق الأمر أيامًا عدّة على الأقل، أما السفر برًّا على الجِمال فيستغرق وقتًا أطول كثيرًا».

قالت كيتي وقد شعرت بالحرج من سذاجتها الجغرافية: «بالطبع. على الرغم من أنني أعرف أبعاد البلد من الناحية النظرية، فمن الصعب أن أصدّق أن السفر عبرها يمكن أن يستغرق وقتًا طويلًا بالفعل. أتمنى أن تُتاح لي الفرصة للذهاب إلى ما هو أبعد من المدينة هنا، ولو لمجرّد لمس صخرة تعود إلى فجر التاريخ. سمعت أن بعض الصخور يحمل نقوشًا أو رسومًا مثيرة للاهتمام».

«في الواقع، على الرغم من أن أخي يعرف البرّ الداخلي أفضل مني، وخصوصًا، المنطقة المحيطة بأيرز روك، فهي قريبة، نسبيًا من المكان الذي يدير فيه مزرعتنا لتربية الماشية».

قالت كيتي بحماسة: «أودّ حقًا زيارة هذه الصخرة ذات يوم. لقد قرأت كثيرًا عنها».

«أرى أنك مهتمة بالتاريخ القديم والجيولوجيا يا آنسة ماكبرايد».

أجابت: «في الواقع يا سيد ميرسر، أنا أكثر اهتمامًا بالطريقة التي...». وللمرة الثانية قُيِّمت ما ستقول، وتابعت: «... وضعنا الله فيها على الأرض في البداية».

«خاطبيني باسمي، أندرو، لو سمحت. نعم، كل هذا رائع حقًا».

ثم قال بصوت مرتفع موجَّهًا سؤاله إلى السيدة ماكرومبي: «وربما خلال فترة وجودهما هنا. ستستمتع العمة فلورانس والآنسة ماكبرايد برحلة بحرية على الساحل الشمالي الغربي، بعد انتهاء موسم الأمطار في شهر آذار بالطبع».

تدخلت إديث فجأة: «عزيزتي فلورانس، لا تفكري في الأمر. في المرة الأخيرة التي قمت فيها بالرحلة إلى بروم، تعرَّضنا لإعصار وجنحت السفينة بعد ألباني مباشرة. يعيش ابني الأكبر في مدينة همجية مليئة بالسود والصُّفر، ولا يعلم إلا الرب ما هي الجنسيات الأخرى... كلهم لصوص ومتشردون! لقد أقسمت بأنني لن أطأ المكان ثانية ما حييت».

وضع ستيفان ميرسر يده على ساعد زوجته وقال: «مهلاً، مهلاً يا عزيزتي. يجب ألا ننسى أننا مسيحيون، وتحديدًا، في هذا الوقت من العام. من المؤكد أن بروم منطقة غير عادية، يا آنسة ماكبرايد، فهي بوتقة تنصهر فيها جميع المعتقدات والألوان. أنا شخصيًا أجدها رائعة، وعشت هناك لمدة عشر سنوات عندما كنت أوَّسس شركتي المتخصصة في صيد اللؤلؤ».

تدخلت إديث ثانية: «إنها مدينة نائية وفسادة أخلاقياً، يسيطر عليها السعي وراء الثروة، وتعجَّ بالرجال الجشعين الذين لا يردعهم شيء!».

هتف دروموند بصوت عالٍ: «أليس هذا هو ما تمثله أستراليا يا أمي؟». ثم أشار إلى غرفة الطعام الواسعة ومحتويات الطاولة وأضاف: «و... نحن أيضًا؟»

ردَّت إديث قائلة: «على الأقل نحن نتصرَّف بطريقة متحضرة ولدينا قيم مسيحية عالية. اذهبي إلى هناك إذا أحببت يا أختي العزيزة، لكنني لن أرافقك. والآن، ألا يحسن بنا نحن السيدات، أن ننسحب إلى غرفة الجلوس ونترك الرجال يدخلون ويتحدثون عن الجانب البغيض من الحياة في أستراليا؟».

قالت كيتي بعد بضع ثوانٍ وهي تقف مع إديث وفلورانس في قاعة المدخل: «أرجو المَعذرة، لكنني سأذهب إلى الفراش، ما أزال أشعر ببعض الوهن، وأتمنى أن أكون قد تعافيت تمامًا عشية عيد الميلاد».

قالت إديث باقتضاب وبدت مرتاحة قليلًا: «بالطبع. تصبحين على خير يا آنسة ماكبرايد».

قالت السيدة ماكرومبي وهي تتبع أختها إلى غرفة الجلوس: «نامي جيدًا عزيزتي كيتي».

بعد أن أصبحت في الطابق العلوي، خرجت كيتي إلى الشرفة، ونظرت إلى السماء بحثًا عن نجمة بيت لحم التي لطالما راقبتها مع شقيقاتها عشية عيد الميلاد. لم تتمكن من رؤيتها، ربّما بسبب فرق التوقيت الكبير بين أدليايد وبريطانيا.

عادت إلى الداخل، وتركت باب الشرفة مواربًا، حيث كانت غرفة النوم ما تزال تفوح برائحة القيء. كانت حرارة الليل خانقة، فتجاهلت كيتي قميص نومها، وتسوّلت، بكل جرأة، تحت الملاءات بثيابها الداخلية.



في صباح اليوم التالي، أيقظتها شمس ساطعة. جلست وفكرت في أن اليوم هو عشية عيد الميلاد، وكانت على وشك الخروج من السرير عندما سقط شيء ضخم بني اللون من السقف على ملاءة السرير التي تغطي فخذيها. راح ذلك الشيء يزحف بسرعة نحو بطنها، فأطلقت كيتي صرخة مدوّية عندما أدركت أنها عنكبوت عملاقة مُشعّرة. تجمدت في مكانها والعنكبوت تشق طريقها نحو ثدييها، وصرخت ثانية غير آبهة بمن يسمعها.

قال دروموند عندما ظهر في الغرفة: «ما بك بحق الجحيم؟» ونظر إليها، فرأى العنكبوت الشريرة من فوره. وبحركة سريعة من يده، رفعها عنها من إحدى أرجلها وسار بها إلى الشرفة وهي تتلوّى. شاهدته يرمي المخلوق من فوق الدرابزين، ثم يعود إلى الداخل، ويغلق الباب خلفه بقوة.

قال لها محدّرًا بسبابته، التي أمسكت الحيوان المفترس بينها وبين الإبهام: «هذا ما يحدث عندما يُترك الباب مفتوحًا».

ردّت كيتي بصوتٍ عالٍ أشبه بالصرير: «أنت من طلب مني أن أفتحه».

حدّق إليها وقال: «قصّدت لفترة قصيرة، وليس طوال الليل. حسنًا، أهذا هو جزائي؟ لقد استيقظت من النوم عند الفجر، عشية عيد الميلاد، لمساعدة سيّدة في محنة، وبدلًا من الشكر، أتلّقى توبيخًا شديدًا».

«هل كانت... سامّة؟».

«العناكب الصيّادة؟ لا، إنها تلدغ أحيانًا لدغات غريبة، لكنها ودودة في الغالب. إنها مجرّد حشرات ضخمة وقبيحة تقوم بعمل جيد في إبقاء أعداد الحشرات تحت السيطرة. هذا لا شيء مقارنة بما نصادفه في الإقليم الشمالي حيث أقيم. فالحمامات الخارجية تعجّ بها، وبعضها خطير كالأرملة السوداء. لقد حدث أن اضطررت إلى امتصاص السم من اثنين من الرعاة. مخلوقات سيئة، تلك الحشرات».

أدركت كيتي، التي كان قلبها ما يزال ينبض، لكن حواسها عادت إليها أخيرًا، أن دروموند كان سعيدًا جدًّا بإخافتها.

قال، كما لو كان يقرأ أفكارها: «إنها حياة مختلفة هناك. مسألة بقاء، تجعلك أقوى وأصلب».

«أنا متأكدة من ذلك».

«حسنًا، سأتركك تترتاحين، ما زال الوقت فجرًا. إنها الخامسة والنصف».

أومأ لها برأسه وسار نحو الباب. وقبل أن يخرج قال: «وبالمناسبة، يا آنسة ماكبرايد، هل لي أن أسألك إذا كنت تنامين دائمًا بثيابك الداخلية؟ سوف تُصاب والدتي بنوبة قلبية إذا رأتكِ».

وغادر دروموند غرفة النوم مبتسمًا.



بعد ثلاث ساعات، أثناء تناول وجبة الفطور المكوّنة من الخبز الطازج ومربى الفراولة اللذيذ، أخرجت السيدة ماكرومبي طردًا كبيرًا وسلّمته إلى كيتي.

قالت مبتسمة: «لِكِ يا عزيزتي. طلبت مني والدتك الاحتفاظ به حتَّى عيد الميلاد. أعرف مدى شعورك بالحنين إلى الوطن، وآمل أن يخفّف هذا من شوقكِ إلى إسكتلندا».

«أوه...». أخذت كيتي الحزمة الثقيلة بيديها. وشعرت بالدموع تخرز زوايا عينيها، فخفقت برموشها لتبعدها.

«هيا، افتحيه يا صغيرتي! حملته معي طوال الرحلة، وأتشوّق لمعرفة محتواه!». تساءلت كيتي: «ألا ينبغي أن أنتظر حتَّى الغد؟».

أجابتها إديث: «التقليد الألماني هو أن نفتح هدايانا عشية عيد الميلاد. على الرغم من أننا نتبادل الهدايا عند المساء. من فضلكِ يا عزيزتي، افتحيه». مزّقت كيتي الورقة البنية وأخرجت أشياء مختلفة. كانت البهجة تغلي داخلها. علبة من كعكة الغريبة الشهيرة التي تصنعها والدتها، وأشرطة من شقيقاتها بالإضافة إلى رسوم وبطاقات. أما والدها فقد وضع كتاب صلاة مغلفًا بالجلد، أعادته كيتي إلى الصندوق حتَّى من دون أن تقرأ محتواه.

صرفت باقي الصباح في تقديم خدماتها المنزلية، حيث علّمت الطاهية السوداء كيفية لفّ المعجنات وتوزيع اللحم المفروم الذي أحضرته السيدة ماكرومبي معها في شرائح المعجنات الرقيقة. يبدو أن الإوزة كانت على قائمة الطعام، والديك الرومي ينتظر في الغرفة الباردة من أجل وليمة عيد الميلاد في الغد. في ظلّ حرارة ما بعد الظهر الحارقة، تمنّت لأسرتها التي كانت تستيقظ لتوها كثيرًا من الحب، وفكّرت في شقيقاتها اللاتي لا بُدّ من أنهنّ كنّ يتشوقن لأحداث اليومين التاليين. كان جسدها ما يزال مرهقًا من حُمار أمس، فأخذت قيلولة وأيقظها طرق على الباب.

قالت بصوت ناعس: «ادخل».

راقبت أنيس وهي تدخل الغرفة، حاملة طيات من الحرير الفيروزي معلّقة بعناية على ذراعيها.

«هذه من السيدة ماكرومبي، يا آنسة. إنها هدية عيد الميلاد. قالت إنك سترتدينها الليلة على العشاء».

شاهدتها كيّتي وهي تعلّق الثوب على الجزء الخارجي من خزانة ملابسها. كان أجمل فستان رآته في حياتها، لكنها كانت تخشى ألا تتمكن من رفع ذراعيها فيه خوفاً من ظهور بقع العرق تحت إبطيها.

في الساعة الخامسة، اجتمعت العائلة في غرفة الجلوس، حيث قُدّمت كيّتي إلى الأم ميرسر الشهيرة، الجدة أليسيا نفسها. لم تكن على الإطلاق كما توقّعتها كيّتي؛ فبدلاً من نظرة الرفض الدائمة التي ميّزت إديث، كانت الابتسامات المتكرّرة هي التي جعّدت وجه أليسيا الممتلئ في طيات متجانسة، تشعّ داخلها عيناها الزرقاوان بالفرح. شعرت كيّتي بالأسف لعدم قدرة الجدة على إطالة الحديث معها، لأن أليسيا كانت تتحدّث الألمانية بشكل أساسي، على الرغم من أنها عاشت في أدلبيد سنوات عديدة. ترجم أندرو لكيّتي اعتذارات أليسيا بسبب لغتها الإنجليزية المحدودة، لكن لمسة يديها الدافئة كانت كافية لتعبّر بأنها ترحّب بها في المنزل الذي كان في الأصل منزلها.

تعجّبت كيّتي من قدرة التوأمين على التنقّل بثقة كبيرة بين اللغات، حسب الشخص الذي يحدّثهما، سواء بالألمانية أو الإنجليزية. وأثر فيها أيضاً معاملة الجميع لها كباقي أفراد الأسرة وقدموا إليها هداياهم؛ مشط عاجي من إديث وستيفان، وقرطان صغيران من اللؤلؤ من أندرو، ومن دروموند مذكرة مكتوبة بخط اليد مربوطة بشريطة جاء فيها:

عزيزتي الآنسة ماكبرايد،

أقدّم لك هذه المذكرة لأقول لك إن هديتك الحقيقية تنتظرِكَ في الجزء السفلي من خزانة الملابس في غرفة نومك. أعدكِ أنها ليست عنكبوتاً حيّة.

دروموند

رأت تعابيره المرحمة وهي تقرأ كلماته، ثم أخذت الشريطة الزرقاء السماوية وابتسمت: «شكرًا لك يا دروموند. لونها جميل جدًا. سأستخدمها لتصفيف شعري هذا المساء»

بينما كان اهتمام الجميع مركّزًا على تقديم ستيفان هدية عيد الميلاد لزوجته إديث، همس لها: «إنها تناسب لون عينيك».

قَبْل ستيفان زوجته على وجنتيها: «عيد ميلاد سعيد يا عزيزتي. أمل أن تنال إعجابك».

كان داخل العلبة لؤلؤة رائعة حقًا، معلّقة بسلسلة فضية دقيقة، يتلألأ سطحها البراق الأملس في أشعة الشمس الغاربة.

قالت إديث وهي تتيح لأختها ربطها حول عنقها: «يا إلهي، لآلئ دائمة وأبدًا». «لكنها لؤلؤة خاصة يا عزيزتي. الأفضل هذا العام، أليس كذلك يا أندرو؟». «نعم يا أبي. تي بي إليس نفسه، اعترف بذلك يا أمي. إنها أكبر لؤلؤة عُثِر عليها في البحر قبالة بروم هذا العام».

كانت عينا كيتي مذهولتين بالخرزة اللامعة المتراقصة التي ترقد فوق صدر إديث الكبير. تعجّبت من حجم هذه الجوهرة الثمينة واللامبالاة التي استقبلتها بها إديث.

سألها أندرو، الذي كان يجلس بجانبها على أريكة مغطاة بالمخمل: «هل تحبين اللآلئ؟».

أجابت: «أعشقها. كنت لا أتوقّف عن فتح المحار على شاطئ ليث أملًا في العثور على إحداها، لكن ذلك لم يحدث بالطبع».

«لا. ولا يدهشني أن ذلك لم يحدث. فاللؤلؤ يحتاج إلى مناخ محدّد وسلالة محدّدة من المحار، ناهيك بالسنوات الطويلة التي تحتاجها عملية تشكّله».

بعد تبادل الهدايا، ذهب الجميع إلى غرفهم لتغيير ملابسهم قبل العشاء، واغتنمت كيتي الفرصة لترى بالضبط ما قرّر دروموند أن يقدّمه لها في عيد الميلاد. قالت في نفسها: «أعرفه... إنها زجاجة ويسكي أو عنكبوت ميتة».

كانت الحزمة من الصغر بحيث استغرقت كيتي بعض الوقت قبل أن تعثر عليها في خزانة الملابس. كانت علبة عادية، مربوطة بشريط بسيط. فتحتها على عجل، ووجدت حجرًا رماديًا صغيرًا في داخلها.

التقطته وأحسّت ببرودته على راحتها. شعرت بالحيرة متسائلة: لماذا قدّم لها هذا الشيء؟ كان حجرًا مثل أيّ حصة تستطيع أن تجدها على شاطئ ليث، رمادي اللون، ليس فيه أيّ عروق مثيرة للاهتمام، حتّى عندما رفعته إلى الضوء. لكن، عندما قلبته، رأت نقشًا على الجانب الآخر. انبهرت به مرّرت أصابعها على النتوءات النافرة، التي أصبحت حوافها مستديرة لتقاوم الزمن وكثرة التداول، لكنها لم تستطع تمييز شكل أو كلمة.

وضعته في درج المنضدة بجوار سريرها، واستدعت أنيس لمساعدتها في ارتداء فستانها الجديد وربط أزرار عرق اللؤلؤ الصغيرة التي تمتد من أسفل ظهرها إلى أعلى رقبتها. جعلتها الحرارة الشديدة تشعر وكأنها مزمومة ومقيّدة مثل ديك رومي يضرب به المثل في وجبة عيد الميلاد، لكن صورتها في المرأة عوّضت عن ذلك. كان الحرير يتناسب مع عينيها حدّ الكمال، فقد جعلهما تتألّقان بلون فيروزي. وبينما كانت أنيس تثبت شريط دروموند في خُصل شعرها، وضعت كيتي مسحة من أحمر الخدود، ثمّ نهضت ونزلت إلى الطابق الأرضي لتنضمّ إلى الحفلة.

قالت السيدة ماكرومبي وهي تشعر بالفخر مثل أم حنون: «يا إلهي، أنتِ جميلة جدًا الليلة يا أنسة ماكبرايد. لقد عرفْتُ أن هذا اللون سوف يليق بكِ في اللحظة التي رأيته فيها».

أجابت كيتي بحماسة: «شكرًا جزيلاً لكِ يا سيدة ماكرومبي. إنها أجمل هدية عيد ميلاد تلقّيتها في حياتي».

رَن جرس الباب معلنًا قدوم ضيوف ليلة عيد الميلاد، فاتّجهتا إلى غرفة الجلوس للانضمام إليهم.

جاء من خلفها صوت أقرب إلى الهمس: «أجمل هدية، أليس كذلك؟». كان صوت دروموند الذي بدا أنيقًا جدًا ببذلة السهرة الرسمية.

«كنت ببساطة أعتبر عن شكري لها بكل تهذيب. شكرًا لك على الشريط...
والحجر. ولكن يجب أن أعترف بأنه ليس لدي أي فكرة عما هو».

«يا عزيزتي الآنسة ماكبرايد، إنه شيء نادر وثمانين للغاية. يُطلق عليه حجر
تجورونغا، وكان في السابق مُلكًا لأحد أفراد قبيلة أريمنت الأصلية. من المُحتمَل أنه
كان أعلى ما يملكه، فقد قُدِّمَ له عندما بلغ سن الرجولة رمزًا لمسؤولياته».

شهمت كيتي مضيقّة عينها: «يا إلهي، قل إنك لم تسرقه، أليس كذلك؟»

«ما الذي يدعوني إلى سرقة بحق السماء؟ في الواقع، وجدته قبل بضعة
أسابيع عندما كنت أعبر المناطق النائية في طريقي إلى هنا من مزرعة الماشية.
نمتُ في كهف وعثرت عليه هناك».

«آمل أن صاحبه لم يفقده».

«أنا على يقين من أنه مات منذ فترة طويلة، ولن يشتكي. والآن يا آنسة
ماكبرايد، هل يمكنني أن أقدم لك كأسًا من الشيري؟».

مدّ يده إلى صينية المشروبات وأخذ منها كأسين. ورأت كيتي وميض المكر
في عينيه فرفضت.

قال وهو يتلغ شراب الشيري بجرعة واحدة: «يجب أن أعترف، أنت أنيقة جدًا
هذه الليلة». ثم أفرغ الكأس التي رفضتها وأضاف بنبرة هادئة: «عيد ميلاد سعيد يا
كيتي. حتّى الآن، كان التعرّف إليك... مغامرة مطلقة».

«آنسة ماكبرايد...».

استدارت كيتي فوجدت أندرو بجانبها. بالنسبة إليها، كان من المربك حقًا
وجود توأمين متطابقين في الغرفة نفسها؛ شعرت كما لو أنها كانت ترى ضعفًا.

«مساء الخير أندرو، وأشكرك على القرطين البديعين. لقد تزيّنت بهما الليلة».

«يسعدني أنهما يتناسبان جيّدًا مع فستانك الجميل. هل يمكنني أن أقدم لك
كأسًا صغيرة من الشيري احتفالًا بعيد الميلاد؟».

تمتم دروموند بجوارها: «الآنسة ماكبرايد لا تشرب الكحول، ولا حتى قطرة واحدة. أليس كذلك؟».

بينما كان يبتعد، تساءلت كيتي كم من الوقت ستقاوم قبل أن تضطر إلى صفعه، ولو لمحو تلك الابتسامة المتعجرفة عن وجهه. سرعان ما اجتمع الضيوف في غرفة الطعام، حيث كانت تنتظرهم وليمة فاخرة: أوزة مشوية، وبطاطس مشوية، وحتى الهاغيز الذي خزنته السيدة ماكرومبي في الغرفة الباردة بالسفينة أثناء الرحلة. عرفت كيتي، من ملابسهم الجميلة ومجوهرات النساء، أنها تشارك وليمة عيد الميلاد مع صفوة مجتمع أدبلايد. جلس إلى يمينها رجل ألماني لطيف يتحدث الإنجليزية بطلاقة، وحذّثها عن عمله في صناعة البيرة وعن مزارع الكروم التي يمتلكها. يبدو أنها ازدهرت في تلال أدبلايد.

قال: «المناخ هنا مشابه لمناخ جنوب فرنسا، والعنب ينمو بشكل جيد. تذكرني كلماتي؛ في غضون سنوات قليلة، سوف يشتري العالم النبيذ الأسترالي». ثم مدّ يده إلى زجاجة وأراها لها: «هذه من إنتاجنا. هل يمكنني أن أدعوك إلى أن تجربني كأسًا منها؟»

لم تعد تتحمّل نظرة ساخرة أخرى من دروموند الجالس قبالتها. قالت بصوت خافت: «لا، شكرًا لك يا سيدي».

بانتهاء العشاء، تجمع بعض المدعوين حول البيانو وغنوا Stille Nacht بالألمانية، تلتها ترانيم عيد الميلاد البريطانية التقليدية. عندما نفدت ذخيرة المجموعة الموسيقية، توجّهت إديث، التي أظهرت بالفعل موهبة مدهشة في العزف على البيانو، إلى ابنها الأكبر.

«أندرو، أَلن تغني لنا؟». فصَفَّق المجتمعون بأدب لتشجيعه.

قال أندرو: «سامحوني أيها السيدات والسادة، فكما يمكنكم أن تتخيّلوا، لا تسنح لي فرص الغناء في بروم إلا نادرًا. سأغني Ev'ry Valley، من Messiah لهاندل».

قالت إديث: «وسوف أبذل قصارى جهدي لمرافقته».

بعد أن انتهى أندرو من الغناء ودوّت غرفة الجلوس بالتصفيق، قال جارها صانع النبيذ هامسًا: «يا إلهي، يا له من صوت. كان بوسعه أن يحترف الغناء في الأوبرا، لكنّ الحياة، ووالده، كان لهما خطط أخرى». ثمّ أضاف بصوت أخفض من الهمس: «هذه هي أستراليا. غنية بالأغنام والماشية والأثرياء اللاشريعيين، لكنها فقيرة بالثقافة. سوف تتغيّر بلادنا يومًا ما، تذكرني كلماتي».

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة مساءً، فاستقلّ المدعوون عرباتهم وقصدوا وسط أديلايد لحضور قدّاس منتصف الليل.

كان مشهد كاتدرائية القديس بطرس مهيبًا، بلوالبها القوطية المعقّدة التي تصل إلى السماء، وضوء الشموع الدافئ المتدفّق عبر نوافذها ذات الزجاج الملون. رافق دروموند والدته وخالته إلى الكاتدرائية، بينما ساعد أندرو كيتي على التّرجل من العربة.

قالت له: «صوتك جميل».

علّق أندرو بينما كانا يتبعان الحشد على الدرج المؤدّي إلى الكاتدرائية: «شكرًا لك. الجميع يقولون ذلك، لكننا قد لا نقدر قيمة ما يأتينا بسهولة. في المقابل، باستثناء الترفيه عن ضيوف أبي وأمي في أيام الأعياد، فإن هذه الموهبة لا تفيد في شيء».

كان جزء الكنيسة الداخلي مثيرًا للإعجاب أيضًا، بأقواسه الطويلة المقبّبة التي تؤطر المقاعد، ومباخره، ورجال الدين الذين يرتدون أثوابًا موشاة بالذهب، كان رالف ليسخر منها. عندما حانت المناولة المقدّسة، صعدت كيتي إلى المذبح وركعت بين دروموند وأندرو. على الأقل، لم تتجمّد قدمها من البرد القارس، كما يحدث عادة في كنيسة الأب في ليث عشية عيد الميلاد.

عندما خرجوا من الكاتدرائية سألتها أندرو: «أعلم أنك لم تتعودي هذا النوع من القداديس، ولكن هل أعجبك؟»

أجابت كيتي بلباقة: «أنا على يقين من أن الربّ لا يهتم بمكان عبادتك، أو كيف تعبده، ما دمت تمجّد اسمه».

جاء صوت دروموند من الظلام خلفها: «إذا كان هناك إله. أنا شخصيًا، أشك في ذلك».

عندما عادت إلى غرفتها، وبعد أن تأكّدت من أن أبواب الشرفة كانت مغلقة بإحكام، وتفحصت السقف والزوايا بحثًا عن أي علامة تدل على وجود وحوش مُشعِرة ذات ثماني أرجل قد تقرّر الانضمام إليها في السرير، خلّصت كيتي إلى أن هذا اليوم كان يومًا مثيرًا للاهتمام.

بين عيد الميلاد وهو غماناي - أو كما يسميها الناس هنا، ليلة رأس السنة الجديدة - نظّم سكان أليسيا هول نزّهات خارجية للترفيه عن أنفسهم. تناولوا الغداء في متنزّه «إلدر پارك» Elder Park، واستمعوا إلى عزف أوركسترا على المنصة المخصصة للفرق الموسيقية، ثم ذهبوا في اليوم التالي إلى حديقة الحيوان في أديلاييد. بينما كانت تتفرّج مستمتعةً على مختلف النزلاء من ذوي الفراء، مثل حيوانات الأبوسوم ذات الأعين الواسعة، والكوالا الرائعة، وجد دروموند متعة أكبر في سحبها نحو قسم الزواحف والثعابين، حيث بذل قصارى جهده للإشارة إلى تلك التي كانت مسالمة، وتلك التي يمكن أن تقتل.

قال: «الثعابين مسالمة بالمجمل، على الرغم من لدغتها المؤلمة إذا دسّتها عن غير قصد. أما الأفعى البنية الأسترالية التي تصعب رؤيتها على الأرض فهي الأشدّ سمًّا». ثم أشار إلى الزجاج وأضاف: «تلك المخططة التي تلتفّ حول الغُصَين الموجود في الزاوية، تسمى أفعى النمر، وهي على القدر نفسه من السوء إذا لدغت. لكن الثعابين لن تزعجك إلا إذا أزعجتِها».

اقترح دروموند على كيتي أن تتركب فيلاً، الحيوان الذي يُعدّ تاج حديقة حيوان أديلاييد. رُفعت كيتي بطريقة تخلو من اللياقة واستقرّت على ظهر الحيوان الرمادي. كان لديها انطباع بأنها المهراني الهندية التي رأت صورتها في أحد الكتب. هتف دروموند: «انتظري حتّى تجربي ركوب الجمل، أعدك بأن الرحلة ستكون عسيرة».

ما إن وصلت إلى المنزل تلك الليلة، حتّى كتبت من فورها رسالة إلى عائلتها تروي فيها كيف ركبت فيلاً في أماكن غير متوقّعة على الإطلاق. حلّ رأس السنة الجديدة وقيل لكيتي إن إديث تقيم دائماً حفلة مسائية كبيرة.

في أثناء تناول الفطور ذلك الصباح، تنهّد دروموند وقال: «إنها تجبرنا على ذلك كل عام، وتصرّ على أن نرتدي الكيلت (التنورة الإسكتلندية)».

ردّت كيتي: «هذه ظاهرة طبيعية في إدنبره طوال العام».

«وهذه هي المشكلة يا آنسة مكبرايد. أنا أسترالي وُلدت وترعرعتُ هنا، ولم تطأ قدمي إسكتلندا مطلقًا. وفي الواقع، والأهم من ذلك، هو أنني لا أنوي زيارتها. إذا عرف الفتيّة في مزرعة كيلغارا أنني كنت أرتدي تنورة طوال الليل مثل فتاة، فلن ينفذوا لي أمرًا».

علق أندرو قائلاً: «بالتأكيد إن ما تطلبه أُمي ليس بالأمر الجلل، ولا تنسَ أنها وُلدت هناك وتفتقد البلد القديم. أنا على يقين من أن الآنسة ماكبرايد ستستمتع بذلك».

عصّت كيتي شفتها وقالت: «لم أحضر الترتان (ثوب إسكتلندي) الخاص بعشيرتي».

قال دروموند: «أنا متأكد من أن والدتي تستطيع أن تعيرك واحدًا. لديها خزانة ملابس مليئة بالنقوش الجميلة. والآن، أرجو المعذرة، لديّ بعض الأشغال التي ينبغي أن أنجزها في المدينة قبل أن أغادر إلى أوروبا».

سألت كيتي أندرو بعد أن غادر دروموند الغرفة: «هل سيذهب شقيقك إلى أوروبا؟»

أجاب: «نعم، غدًا مع أبي. يريد دروموند شراء بعض رؤوس الماشية، فقد تضاعل عددها هذا العام بسبب الجفاف ورماع السود، ولدى أبي بعض الآلئ الرائعة التي ينوي بيعها من محصوله لهذا العام، ولا يثق في أحد ليقوم بهذه المهمة بالنيابة عنه. علاوة على ذلك، إنه موسم الأمطار في الشمال، وهو ليس مكانًا مريحًا للإقامة. معظم مراكب النقل التي نستخدمها في بروم راسية في الميناء بسبب موسم الأعاصير. سأعود قريبًا لتوجيه دفة السفينة، إذا جاز التعبير. لقد أنفقت السنوات الثلاث الماضية في تعلّم القواعد من أبي، ومن الآن فصاعدًا،

سأتولّى الإدارة بالنيابة عنه قبل أن تطلّقه أُمّي بحجّة الهجر». ثم ابتسم أندرو لكيّتي ابتسامة حزينة.

«أذكر أنها قالت إنها لم تكن تحب العيش في بروم».

«عندما عاشت والدتي هناك قبل عشر سنوات، كان الأمر صعبًا بالنسبة إلى امرأة، لكن، مع نمو صناعة اللؤلؤ، تنمو المدينة أيضًا. وفي مثل هذا المجتمع المختلط، لا نشعر بالملل. بالحديث عن نفسي، أجده مثيرًا، وأعتقد أنه سيعجبك أيضًا، لأن لديك روح المغامرة».

«أنا؟».

«في رأيي، نعم. كما يبدو أنك تقيّمين الناس على حقيقتهم».

أضافت على عجل: «أبي والكتاب المقدس يقولان: لا تحكم على أساس العقيدة أو اللون، بل على أساس روح الشخص فقط».

«نعم يا آنسة ماكبرايد. أليس من المثير للاهتمام، أن أولئك الذين يعتبرون أنفسهم مسيحيين صالحين يمكنهم أن يتصرفوا كما لو كانوا نقيض ذلك؟». ثم دخل في صمت محرج.

نهضت كيّتي واقفة على قدميها وقالت: «الآن، يجب أن أجد والدتك وأعرض عليها مساعدتي في التحضيرات لحفلة الليلة».

«هذا لطف منك، لكنني أشك في أنها سوف تحتاج إلى مساعدتك. فكل ما تفعله، يعمل مثل آلة مزينة جيدًا».

بينما كانت كيّتي ترتدي فستانها الفيروزي الذي بخّره أنيس بمهارة لإزالة بقع العرق، سمعت طرقًا على بابها. دخلت السيدة ماكرومبي وعلى ذراعها قطعة طويلة من القماش الإسكتلندي.

«مساء الخير يا عزيزتي الآنسة ماكبرايد. هذا هو وشاحك لحفلة هذا المساء. سأكون فخورة برؤيتك ترتدين قماش عشيرة ماكرومبي. في هذه الأسابيع القليلة الماضية، أصبحت مثل ابنتي».

تأثرت كيتي بكلماتها: «أنا... شكرًا لك، سيدة ماكرومبي. لقد عاملتني بكثير من اللطف».

«هل لي شرف تثبته عليك؟».

«بالطبع. شكرًا لك».

قالت السيدة ماكرومبي وهي تثبت الوشاح على كتف كيتي اليمنى: «أنت تعلمين. لقد كان من دواعي سروري أن أشاهدك تتفتحين في الأسابيع التي تلت مغادرتنا إدنبره. كنتِ فأرةً صغيرة عندما التقيتك للمرة الأولى. ولكن انظري إلى نفسك الآن! أنت جميلة ومصدر فخر لعائلتك. وسوف تجعلين الرجل الذي يتزوج بك فخورًا». تثبت السيدة ماكرومبي بروشًا رقيقًا على كتف كيتي.

أجابت كيتي وهي تتجه نحو المرأة: «تعتقدين ذلك؟».

«انظري إلى نفسك يا آنسة كاثرين ماكبرايد؛ بترائك الإسكتلندي الفخور، وذكائك، وجمالك. أوه، لقد أمتعني رؤية ابني أختي يتنافسان على جذب انتباهك كل على طريقته».

ضحكت السيدة ماكرومبي ضحكة بنّائية، وعرفت كيتي أنها تناولت كأسًا أو اثنتين من الويسكي. تابعت: «لذلك سألت نفسي، أيهما ستختارين؟ إنهما مختلفان جدًا. يا عزيزتي، هل قرّرت أيّ التوأمين ستزوّجين؟».

لم يخطر في ذهن كيتي أن دروموند يعتبرها شيئًا آخر غير رفيقة مسلية، وأن أندرو يعتبرها شيئًا آخر غير أخت صغرى، فقد أجابت بصراحة: «حقًا، يا سيدة ماكرومبي، أؤكد لك أنك مخطئة. من الواضح تمامًا أن عائلة ميرسر هي إحدى أقوى العائلات في أديلابيد».

أضافت السيدة ماكرومبي: «إن لم تكن أستراليا كلها».

«نعم، وأنا، باعتباري الابنة المسكينة لقس من ليث، لا أستطيع أن أعتبر نفسي جيدة بما يكفي لأيٍّ منهما، أو لعائلتهما...».

جاء صوت رنين جرس الباب لإنقاذها.

أخذتها السيدة ماكرومبي بين ذراعيها الدافئتين: «حسنًا، دعينا ننتظر ونر ما الذي سيحدث، أليس كذلك؟ وإذا لم تُتح لي الفرصة لأتمنى لك سنة 1907 سعيدة هذه الليلة، فسأفعل الآن. ولو أنني بكل بساطة أعلم أنها ستكون سعيدة».

شاهدت كيتي السيدة ماكرومبي وهي تخرج من الغرفة، مثل سفينة حقيقية تبخر ناشرة أشرعتها كلها. وما إن أغلق الباب، حتّى تهاوت على سريرها وهي تشعر بالارتياح والارتباك في آن.



إذا كان ثمة شيء واحد تعرف كيتي أنها تجيده، فهو الرقصة الإسكتلندية. لقد تعلّمت هي وشقيقاتها على يد والدتهن، ويعود ذلك جزئيًا إلى أن أديل كانت تحب الرقص، وبالأساس لأنه لم يكن في ليث الكثير مما يمكن فعله في أمسية شتوية طويلة. بالإضافة إلى ذلك، كان للرقص فضيلة إبقائهنّ دافئات.

يا إلهي، فكرت كيتي، بينما كانت ترقص على أغنية «Duke of Perth»، في أنه من المؤكد أن الرقص كان لا يدفئ فقط بل يُلهب هذه الليلة. حسدت الرجال، الذين كانوا على الأقل، يتمتعون برفاهية السير عراة في تنانيرهم، في حين كانت هي ترتدي ثوبها الحريري المشدود ووشاحها الصوفي الثقيل وتتعرّق مثل خنزير. مع ذلك، لم تهتم، ورقصت رقصة تلو أخرى مع شركاء كُثُر حتّى قبيل منتصف الليل، عندما جلست أخيرًا لتستريح، وأحضر لها أندرو كوبًا كبيرًا من عصير الفاكهة لتروي عطشها.

«يا آنسة ماكبرايد، لقد رأينا جانبًا آخر من شخصيتكِ الليلة. أنتِ راقصة بارعة. قالت: «شكرًا لك»، وهي لا تزال تلهث وتدعو أندرو ألا يقترب منها أكثر من اللازم، لأنها كانت متأكّدة من أن رائحتها كريهة.

بعد دقائق، قادها إلى المدخل مع بقية الضيوف، مراعاة للتقليد الإسكتلندي القديم، المتمثل في الترحيب بأول شخص يعبر العتبة عند منتصف الليل. تجمّعوا حول شجرة عيد الميلاد، التي بدت كثيبة بسبب إبر الصنوبر المتساقطة التي تجمّعت في برك خضر على الأرض، ووقفت كيتي بجوار أندرو.

صاح ستيفان: «عشر ثوانٍ!»، وبدأوا في العد التنازلي إلى أن راح الجميع يهتفون ويتبادلون التحيات والتمنيات للعام الجديد.

وجدت كيتي نفسها فجأة بين أحضان أندرو: «سنة جديدة سعيدة يا آنسة ماكبرايد. أردت أن أسألك...».

رأت كيتي القلق على وجهه. «ماذا؟».

«هل سيكون من المناسب أن أدعوك كيتي من الآن فصاعدًا؟».

«لماذا؟ نعم، بالطبع».

«حسنًا، أتمنى أن تتمكن في العام 1907 من مواصلة... صداقتنا. أنا... كيتي...».

قاطع ستيفان محادثتهما وهو يصفع ابنه على ظهره: «عام سعيد يا بني. ليس لدي أدنى شك في أنك ستجعلني فخورًا في بروم».

أجاب أندرو: «سأبذل قصارى جهدي يا سيدي»..

«وعام سعيد لك أيضًا يا آنسة ماكبرايد. لقد كنتِ زينة عيد ميلاد عائلتنا».

مال إلى الأمام وقبّل كيتي بحرارة، فدغدغ شاربهُ المقوَّس خدها. «وأنا متأكد من أن الجميع هنا يأملون أن تقرري تمديد إقامتك معنا في أستراليا، أليس كذلك يا فتى؟».

غمز ستيفان ابنه بشكل واضح قبل أن ينتقل إلى تقديم التهاني لضيوفه الآخرين بمناسبة العام الجديد.

استأذن أندرو وذهب لبحث عن أمه، بينما خرجت كيتي إلى الشرفة بحثًا عن بعض الهواء البارد. وعلى الفور، رفعتها من الخلف ذراعان قويّتان ودوّرتاها في الهواء، ثمّ أنزلتاها إلى الأرض.

«عام سعيد، آنسة ماكبرايد، كيتي... كات (قطعة بالإنجليزية)... نعم، هذا اللقب يناسبك تمامًا، لأنك قطعة، وخفيفة الوزن، وأذكي، على ما أعتقد، مما ينسبه إليك معظم الناس. باختصار، أنت مقاتلة».

«أنا؟». كان رأس كيتي يدور فثبتت قدميها واستعادت توازنها. نظرت إلى دروموند وقالت: «أنت سكران؟»

«ماذا! يا لها من ملاحظة يا آنسة كيتي كات. ربّما قليلاً، لكن الناس عموماً يقولون إنني سكير حنون. والآن، لديّ شيء أقوله لك.
«وما هو هذا الشيء؟».

«يجب أن تعلمي مثلي أن الخطط جارية على قدم وساق للتأكد من انضمامك إلى عائلتنا على أساس دائم.
«أنا...».

«لا تتظاهري بأنه ليس لديك أيّ فكرة عما أقصده. من الواضح للجميع أن أندرو يحبّك. لقد سمعت والداي يناقشان الأمر. أبي موافق؛ أمي - ولسبب أنثوي فج - أقل من ذلك. لكن، وبالنظر إلى أن كلمة والدي هي السارية في هذا المنزل، فأنا متأكد من أنه لن يمر وقت طويل قبل أن تتلقي طلب زواج».

«أستطيع أن أوّكد لك أن هذه الفكرة لم تخطر في بالي على الإطلاق».
«إذن فأنت، إما مملوءة بتواضع زائف، وإما أنك أغبى مما تصوّرت. بطبيعة الحال، باعتباره الأكبر سنّاً، فإن له الأولوية في طلب يدك. ولكن قبل أن تقرّري، أردت أن أدخل الحلبة وأقول لك إنك، كامرأة، لديك عدد من الصفات التي تعجبني.
و...».

للمرة الأولى منذ أن عرفته كيتي، رأت عدم اليقين في عيني دروموند. وبدلاً من الإسهاب في الكلام، أخذها بين ذراعيه وقبلها بقوة على شفّتها. لم تبتعد كيتي من فورها، سواء بسبب الصدمة أو المتعة المطلقة، وراح جسدها بأكمله يذوب مثل قطعة من الزبدة تُركت تحت شمس أستراليا.

أخيراً تركها تذهب، ثم انحنى ليهمس في أذنها: «تذكّري أن أخي قد يوفّر لك الأمان، ولكن معي، ستعيشين المغامرة. كلّ ما أريده هو أن تقسمي أنك لن تتّخذي قراراً قبل عودتي من أوروبا. والآن، أنا ذاهب إلى حانة قلعة إدنبره للاحتفال مع أصدقائي حتّى الفجر. طابت ليلتك يا آنسة ماكبرايد».

بتلويحة من يده، تركها دروموند على الشرفة وتوجّه إلى الجزء الخلفي من المنزل. عندما سمعت كيتي صوت المهر والعربة وهما يخرجان من البوابة، مرّرت أصابعها على شفّتيها، واستعادت كلّ ثانية من المتعة التي شعرت بها عندما قبلها.



لم ترّ كيتي دروموند في صباح اليوم التالي، فقد ذهب مبكرًا إلى المرفأ للإشراف على تحميل الصناديق في الباخرة. سلّمت كيتي رسائلها إلى ستيفان ميرسر، الذي وعد بأن يرسلها إلى عائلتها عندما يصل إلى أوروبا.

قال غامرًا: «أو في الحقيقة، ربّما أذهب وأسلّمها شخصيًا. وداعًا يا عزيزتي». قبلها على خديها. وبعد ذلك، لوح له أهل البيت بالوداع، وصعد إلى العربة.

تناولت كيتي الفطور بمفردها مع أندرو، بينما كانت السيدة ماكرومبي تتناول فطورها في غرفتها، وذهبت إديث إلى الرصيف لتودّع زوجها وابنها. بالنظر إلى المحادثات المختلفة التي دارت ليلة أمس، شعرت بعدم الارتياح في حضرته؛ بدا مهزومًا ومحبطًا على نحو غير عادي.

قال أخيرًا: «آنسة ماكبرايد».

«من فضلك يا أندرو، لقد اتفقنا على أن تناديني كيتي».

«طبعًا، طبعًا. كيتي، هل تركبين الخيل؟».

«أجل، ولو أنني لم أمتطّ صهوة حصان منذ وقت طويل. لقد تعلّمت الركوب في طفولتي، عندما كنا نذهب لزيارة جدّي في دومفريز شاير. لماذا تسأل؟».

«كنت أفكر في أنه لا شيء أفضل من الفروسية لإزالة الأفكار المشوّشة. لدينا منزل من طابق واحد على تلال أدبلايد مع إسطلب صغير ملحق به. ما رأيك في أن نذهب إلى هناك اليوم؟ الهواء أكثر نقاءً وبرودة، وأعتقد أنك ستحبينه. بالمناسبة، لقد أعطتني أُمّي الإذن بمرافقتك».

بعد ساعتين، وصلا إلى منزل عائلة ميرسر. لم تكن كيتي تتوقّع أكثر من مجرد

كوخ، فاندھشت عندما رأت أن المنزل كان قصرًا من طابق واحد، يقع وسط حدائق مورقة وتحيط به كروم العنب. استدارت دورة كاملة، ورأت الطريقة التي تنحدر بها التلال الخضراء وترتفع من حولها. تذكرت الأراضي الإسكتلندية المنخفضة. «إنه بديع».

«يسعدني أن أعجبك المكان. والآن، اسمحي لي أن أريك الإسطبلات».

بعد نصف ساعة، انطلق الاثنان. وبينما كانا يخبان عبر الوادي إلى السهل، دفعت كيتي جوادها إلى العدو جماعًا، فواكبها أندرو. كانت كيتي تضحك بصوت عالٍ من الفرح بالهواء المنعش الذي كان يلفح بشرتها، وبكل تلك الخضرة المحيطة بها.

عندما عادا إلى المنزل، وجدت غداءً خفيفًا موضوعًا على طاولة في الشرفة. فقالت لاهثة وهي تجلس على الكرسي: «يبدو هذا لذيذًا». وتناولت من دون مزيد من اللغط أو التكلّف قطعة من الخبز الساخن، الخارج لتوّه من الفرن.

قال أندرو: «هناك ليمون طازج لك أيضًا».

«من صنع كلّ هذا؟».

«مدبرة المنزل. إنها تعيش هنا على مدار السنة».

«لكنك أخبرتني في الطريق أنك نادرًا ما تأتي إلى هنا».

«نعم. والدي غني جدًّا، وأنا أنوي أن أكون غنيًّا أيضًا».

قالت كيتي بعد برهة: «أنا متأكّدة من أنك ستكون».

أدرك أندرو أنه ارتكب خطأ، فتابع: «ليست الثروة هدفي الرئيسي، ولكن هنا بشكل خاص في أستراليا، المال ضروري».

«المال ضروري في أيّ مكان، لكنني أعتقد حقًا أنه لا يشتري السعادة».

«أتفق معك يا كيتي. الأسرة و... الحب هما كلّ شيء».

تناولا طعام الغداء بصمت، وكانت كيتي تستمتع بمحيطها، وتحاول عدم التفكير في السبب المُحتمل لهذه النزعة.

كسر أندرو حاجز الصمت في النهاية: «كيّتي... ربما تعرفين لماذا أحضرتكِ إلى هنا؟».

أجابته، وقد بدت مخادعة حتّى العظم: «لتريني المنظر؟».

«نعم، وأيضاً... لا يفاجئك أن تعلمي إلى أيّ مدى... تعلّقت بكِ في الأيام الأخيرة».

«أوه، أنا متأكّدة من أنّك سوف تتعب مني إذا عرفتني لفترة أطول يا أندرو».

«أشك في ذلك يا كيّتي. كعادتك، أنتِ متواضعة فحسب. لقد تحدّثتُ مطوّلاً مع خالتي، التي تعرفكِ منذ نعومة أظفارك، ولم تجد كلمة سيئة تقولها عنك. في عينيها، كما في عينيّ، أنتِ مثالية. وقد أخبرت والدي ووالدتي بنواياي، ووافقا...».

فجأة، نهض وركع أمامها: «كاثرين ماكبرايد، أود أن أطلب منك أن تمنحيني شرف أن تصبحي زوجتي».

قالت كيّتي بعد برهة أرادتها أن تكون دليلاً على جهلها ومفاجأتها بمثل هذا الطلب: «يا إلهي! أنا مصدومة. لم أفكر إطلاقاً...».

«لأن هذه هي طبيعتك يا كيّتي. فتاة... امرأة في الحقيقة، لا تعترف بجمالها الداخلي ولا الخارجي. أنتِ جميلة يا كيّتي، وقد تمنّيت منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها أن تكوني زوجتي».

«حقاً؟».

«نعم. لا أقول إنني من النوع الرومنسي، ولكن...». احمرّ أندرو خجلاً لكنه تابع: «لقد كان بالحقّ حبّاً من النظرة الأولى. ثمّ عرفت أنني لم أخطئ عندما أظهرت تلك الحماسة لآثار أقدام الديناصورات في بروم. معظم الفتيات لا يعرفنّ حتّى ما هو الديناصور، ناهيك بالاهتمام ببصمة متحجرة. إذًا، ماذا تقولين؟».

نظرت كيّتي إلى أندرو، إلى وجهه الوسيم بلا شك، ثمّ رفعت رأسها وتأملت الممتلكات الجميلة التي من المفترض أن يرثها هذا الرجل. عادت أفكارها إلى ليث ووالدها، الذي أعلن أنه كان يحبها، لكنه بعد ذلك، بسبب ما عرفته، نفاهها إلى الجانب الآخر من العالم.

«أنا...».

استحضر عقلها الشيطاني صورة حية لدروموند، وراح يعرض مجموعة مختارة من الذكريات في رأسها. تلك الطريقة التي يستفزها بها، ويعاملها وكأنها دمية صينية أكثر من كونها نظيرًا له، وكيف يضحكها رغماً عنها... والأهم من ذلك كله، كيف شعرت عندما قبلها منذ ساعات قليلة فقط.

وكان السؤال. هل أخرجَ أفضل ما فيها أم أسوأه؟ لكن لا يهم، فقد كانت بالتأكيد شخصاً آخر مختلفاً عندما كانت معه.

أصَرَ أندرو على مواجهة صمتها وكسره: «أرجوك، أنا أفهم شعورك بالصدمة، لأننا لم نلتقِ إلا منذ وقت قصير. لكن يجب أن أعود إلى بروم في شباط أو آذار، وكما ذكرت أُمي، فإن هذا لا يترك سوى وقت قصير للتحضير لأي حفل زفاف. وهذا لا يعني أنني أريد أن أستعجلك في اتخاذ القرار، ولكن...». انطفأ صوت أندرو وفكرت كم كانت روحه طيبة.

«هل يمكنني أن أستمهلك للتفكير في الأمر؟ كنتُ قد خططتُ للعودة إلى بيتي وعائلتي. وما تقترحه يعني... حسناً، البقاء هنا. طوال حياتي كلها، معك.»
«عزيزتي كيتي، أفهم ذلك تمامًا. تأثني بقدر ما تريد. لقد أخبرتني الخالة فلورانس عن قربك من أسرتك وأعرف حجم التضحية التي ستقدمينها إذا تزوجت بي. لأننا بالطبع، سنعيش في بروم، على الأقل، خلال السنوات القليلة المقبلة.
«إنه مكان تكرهه والدتك».

«وهو مكان أعتقد أنك ستحبينه. لقد تغيّرت بروم كثيرًا منذ المرة الأخيرة حيث تفضّلت والدتي وقبلت بزيارتها. إنها مدينة مزدهرة يا كيتي؛ فالسفن تصل إليها يوميًا من جميع أنحاء العالم محمّلةً بالكماليات والأشياء الثمينة التي لن تصدقنيها. لكن نعم، لا يزال مجتمعها في طور التشكّل، حيث لا يوجد كثير من قواعد السلوك الاجتماعي الطبيعية. مع ذلك، أشعر بأنك ستقبّلينها بالقوة نفسها التي سخرت منها والدتي، بسبب طبيعتك التي تميل إلى المساواة والسخاء. والآن، يجب أن أقف قبل أن تنكسر ركبتني».

وقف أندرو، ثم أمسك بيدي كيتي وقال: «كم تحتاجين من الوقت؟»
«بضعة أيام».

قال وهو يقبل يدها بحنو: «بالطبع. من الآن فصاعدًا، سأدعكِ وشأنكِ».



خلال الأيام الثلاثة التالية، فكرت كيتي في الأمر مع نفسها، ومع البغاء الرائع في الحديقة، واستخارت الله بالطبع. لكنها لم تقتنع بأي فكرة حول هذا الموضوع. افتقدت حكمة والدتها، التي كانت لتقدم نصيحتها من منطلق الحب ومصلحة ابنتها.

أمعنت كيتي النظر في أمرها وهي تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وأدركت أن أدليل كانت لتحث ابنتها على اغتنام فرصة الزواج من مثل هذا الرجل الوسيم الذي ينتمي إلى عائلة ثرية، بالنظر إلى حياة التقشف التي عاشوها في ليث.

أما الحقيقة الصارخة، فهي أنه على الرغم من أن كيتي، كانت تعلم أن الزواج هو المرحلة التالية من حياتها ما إن تبلغ الثامنة عشرة من العمر، إلا أنه طالما بدا لها بعيدًا في المستقبل. أما الآن فهو حاضر هنا. والسؤال الذي طرحته على نفسها مرارًا وتكرارًا هو ما إذا كان على المرأة أن تحب زوجها المستقبلي منذ اللحظة الأولى التي تقع فيها عيناها عليه، أو إذا كان ينبغي لها رؤية الأمر من زاوية أكثر واقعية. وبالأخص، عندما تنتمي إلى أسرة فقيرة، ويوفر لها الزواج حياة آمنة كريمة. قد ينمو الحب ويكبر بتقاسم العيش معًا، وقد يصبح أسرة ذات يوم.

كانت كيتي على يقين من أن عائلة ميرسر، لو رأت الظروف الصعبة التي تعيش فيها عائلتها فلربما كانت لتنظر إلى الاتحاد بشكل مختلف تمامًا. مع ذلك، لم تكن هذه إدنبره، بل أستراليا، حيث كان يستطيع كل من يصل إلى ترابها الأحمر المغبر أن يعيد اختراع نفسه، وأن يكون ما يريد ويختار.

أي مستقبل كان ينتظرها في إسكتلندا على أي حال؟ إذا كانت محظوظة، فإن

الزواج من أنغوس، والعيش كزوجة رجل دين، سيكون مختلفًا قليلًا عن سنواتها الثماني عشرة الأولى، وربما كان أصعب.

على الرغم من كلمات دروموند عن «المغامرة»، أدركت كيتي أن الزواج من أي من التوأمين ومرافقته إلى شمال هذه الكتلة الأرضية الشاسعة سيوفر ذلك. لكن... جسدها ذاب عندما قبلها دروموند. وعندما قبل أندرو يدها، لم يكن ذلك مزعجًا، ولكن...

أخيرًا، قرّرت كيتي، المنهكة تمامًا من المراوغة مع نفسها، أن تذهب إلى السيدة ماكرومبي. على الرغم من أنها قد تكون متحيّزة، إلا أنها كانت الأقرب إلى كيتي من باقي أفراد العائلة.

اختارت اللحظة التي خرجت فيها إديث لدفع بعض الفواتير المنزلية. تناولوا الشاي معًا واستمعت السيدة ماكرومبي بينما كانت كيتي تفتح لها قلبها.

«حسنًا، حسنًا. أنت تعلمين أنني توقّعتُ حدوث ذلك، ولكن يا عزيزتي، لا يمكن لأي منا أن تكون من السذاجة بحيث تعتقد أن قرارك لن يكون له تأثير لا رجعة فيه على حياتك كلها».

«نعم».

«هل تفتقدين إدنبره منذ أن أتيت إلى هنا؟».

«لقد اشتقت إلى عائلتي».

«ولكن لا للمكان؟».

«عندما تسطع الشمس وتحرق، أشتاق للبرد، لكنني أحب ما رأيته من أستراليا حتّى الآن. إنها أرض الاحتمالات الواعدة حيث يمكن أن يحدث أي شيء».

عقبت السيدة ماكرومبي: «لأفضل أم للأسوأ. أيتها الشابة، من وجهة نظري، سأكرّر ما قلته في ليلة رأس السنة الجديدة. لا أستطيع إلا أن أقول إنكِ ازدهيت منذ مجيئك إلى هنا. أعتقد أن أستراليا تناسبكِ وأنت تناسبينها».

غامرت كيتي قائلة: «بالتأكيد، لقد شعرت بحرية أكبر، نعم».

«مهما يكن، إذا تزوجت من أندرو، فعليك الاستسلام لعدم رؤية عائلتك ربّما لسنوات عديدة. على الرغم من ذلك، يا عزيزتي، لا شك في أنك ستؤسسين عائلتك الشخصية. إنه تطور طبيعي، سواء كان في إدنبره أو في أستراليا. بطريقة أو بأخرى، عندما تتزوج المرأة تتغيّر حياتها. وأندرو نفسه؟ هل يعجبك؟».

«كثيرًا، في الواقع. إنه عقلاني ولطيف وذكي. ومما قاله لي، فهو يعمل بكدٍ أيضًا».

اعترفت السيدة ماكرومبي قائلةً: «إنه كذلك بالفعل. كيفما يبدو الأمر لشخص غريب، فإن كون المرء ابنًا لأب ثري للغاية له عيوبه. يجب أن يثبت لستيفان ولنفسه أنه قادر على النجاح بالقدر نفسه. على عكس دروموند، الذي بالمصادفة، لا يحمل الشعور نفسه بالمسؤولية». ضحكت السيدة ماكرومبي وأضافت: «هل لي أن أسألك يا كيتي، إن كان دروموند أفصح لك بشيء قبل أن يغادر إلى أوروبا؟»
«نعم. طلب مني أن أنتظره».

«كنت متأكدة من ذلك. يكاد لا يستطيع أن يرفع عينيه عنك منذ اللحظة الأولى التي قابلك فيها. كلّ تلك الإغاضات السخيفة... هي طريقة صبيانية لجذب انتباهك. وماذا قلت له؟».

«أنا... لا شيء. لقد غادر بعد ذلك، ولم أره ثانية قبل أن يسافر إلى أوروبا».
«يا لها من قصة! حسنًا، لا أرغب في أن أؤدي دور المرشد وأعدّد لك مزايا كلّ واحد من ابني شقيقتي، ولكن يا عزيزتي كيتي، ما يمكنني قوله لك هو أنه عندما تقرر سيّدة شابة الالتزام بالزواج، فإن ما تحتاجه من شريكها مختلف تمامًا عما كانت تحلم به عندما كانت فتاة صغيرة. وأعني بذلك الأمن والأمان، بخاصة في بلد مثل هذا؛ رجل قوي وموثوق يمكنها أن تعتمد عليه ويوفّر لها الحماية. رجل تحترمه، ونعم، قبل أن تسألي، الحب ينمو. وليس لديّ أدنى شك في أن أندرو يحبك».

«شكرًا لك يا سيّدة ماكرومبي على نصيحتك الحكيمة. سأفكر في ما قلته. ويجب أن أفعل ذلك بسرعة، لأنني أعلم أن لدينا وقتًا قصيرًا».

«إنه لمن دواعي سروري يا كيتي. وأنا متأكدة من أنك تعلمين أنني لا أرغب في شيء مثلما أرغب في أن أصبح مرتبطة بك رسميًا، ولكن القرار يعود لك وحدك. تذكرني أن أندرو لا يقدم لك حبه فحسب، بل حياة جديدة تمامًا، يمكنك وحدك أن تصنعي منها ما تريدين».



في وقت لاحق من ذلك اليوم، عندما رأت أندرو يصل على حصانه إلى المنزل، هرعت إلى الطابق الأرضي لمقابلته عند الباب وإخباره بقرارها قبل أن تغتبر رأيها. «أندرو، هل يمكنني التحدث معك؟».

استدار نحوها، وعرفت أنه كان يتفحص وجهها ليرى إن كان يستطيع اكتشاف الإجابة في عينيها. «بالطبع. فلنذهب إلى غرفة الجلوس».

لاحظت كيتي التوتر في جسده عندما دخلا الغرفة وجلسا.

«أندرو، سامحني على تخصيص بعض الوقت للتفكير في اقتراحك. كما تعلم، إنه قرار بالغ الأهمية بالنسبة إلي. ومع ذلك، فقد قررت، وسيشرفني أن أصبح زوجتك، بشرط أن يوافق والدي».

صمتت كيتي، مقطوعة النفس، ونظرت إلى أندرو. لم يبدو سعيدًا كما اعتقدت. «أندرو، هل غيرت رأيك؟».

«أنا... لا. إنه... هل أنت متأكدة تمامًا؟».

«أنا متأكدة تمامًا».

«ولم يضغط عليك أحد؟».

«لا!».

الآن، وقد أعطته الجواب، بدا أنه يريد استجوابها عن أسباب موافقتها على طلبه. «أنا... حسنًا، اعتقدت أنك كنت تتحضرين لرفض. وأنه ربما كان هناك شخص آخر. أنا...».

«أقسم أنه لا يوجد أحد».

«عظيم، حسنًا، إذًا...».

رأت كيتي الغيوم وهي تتلاشى شيئًا فشيئًا من عيني أندرو. «يا إلهي! هذا يجعلني أسعد رجل في العالم! يجب أن أكتب على الفور إلى والدك لأطلب مباركته، ولكن... هل يضايقك أن أفعل ذلك بإرسال برقية؟ كما تعلمين، تستغرق الرسائل وقتًا طويلًا قبل أن تصل، وكل دقيقة مهمة. بالطبع، سأرسل برقية إلى أبي أيضًا، أطلب منه فيها أن يسرع في زيارة والديك أثناء وجوده في أوروبا».

كانت الكلمات تنسكب من فم أندرو وهو يذرع غرفة الجلوس مبتهجًا. «آمل في أن يوافق والدك على أن يعهد لي بابنته الحبيبة. إنه يعرف عائلتنا عن طريق خالتي بالطبع».

توقّف أندرو ليأخذ يديها بين يديه، وتابع: «أقسم لك الآن، كاثرين ماكبرايد، أنني سأحبك وأعطيك الأفضل من كل شيء حتى آخر يوم في حياتك».

أومأت كيتي برأسها وأغمضت عينيها، وهو يطبع قبلة رقيقة على شفثيها.



بعد يومين، وصلت برقية رالف التي أراها أندرو لكيتي من فوره:

أندرو، سعيد بمباركة زواجك من ابنتي. محبتي لك ولكاثرين. العائلة كلها ترسل لكم التهاني. رالف.

صاح أندرو مسرورًا: «العقبة الأخيرة! الآن يمكننا أن نعلن ذلك للعالم ونبدأ الاستعدادات لحفل الزفاف. قد لا يكون حفلًا أسطوريًا كما قد ترغبين، نظرًا لضيق الوقت، لكنّ والدتي ستفعل المستحيل بحيث يكون لديك أجمل ثوب، فهي تعرف كل شخص تحتاجين إليه في أديلايد».

«صدّقني يا أندرو، إن مثل هذه الأشياء ليست مهمة بالنسبة إليّ».

«قد يكون الأمر كذلك، لكنّ هذا الزفاف مهمّ بالنسبة إلى أُمي. لذا، سنخبرها هي والخالة فلورانس هذا المساء بالذات.

أومأت كيتي برأسها، ثمّ ابتعدت عنه وصعدت إلى الطابق العلوي، وعيناها تغرورقان بالدموع. عندما دخلت إلى غرفتها، ألقت بنفسها على السرير وبكت، لأن كلّ ما اعتقدته حول رغبة والدها في التخلّص منها إلى الأبد لم يكن صحيحًا، وثبت أنه كان على حق.



في صباح يوم زفافها من أندرو بعد مرور شهر، وقفت كيتي أمام المرأة الطويلة بفستان زفافها. كانت ترتدي ثوبًا أبيض يليق بأميرة بعد أن فعلت إديث المستحيل حقًا ليكون كذلك. كان الثوب المشدود يزيد من جمال خصرها الدقيق، ويظهر حسن عنقها بعد أن رفعت أنييس شعرها البني عنه وعقدته فوق رأسها بشكل جذاب. ومع أدنى حركة كانت تتألق وتومض اللآلئ الصغيرة التي تزين دانتيله الباذخ.

قالت أنييس وهي تعدّل وشاح التول فوق كتفيّ كيتي وقد غمرها التأثر: «كم أنت جميلة يا آنسة كيتي. أكاد أجهش في البكاء».

«صباح الخير كيتي». رأت كيتي انعكاس صورة إديث في المرأة وهي تدخل الغرفة خلفها.

«صباح الخير».

قالت أنييس وهي تمسح أنفها: «أليست جميلة كصورة يا سيدتي؟».

أجابت إديث بقسوة، كما لو كانت هذه الكلمات تؤلمها: «إنها كذلك حقًا. هل لي بكلمة مع كاثرين على انفراد؟».

«بالطبع يا سيدتي». وخرجت أنييس من الغرفة.

قالت إديث وهي تدور حول زوجة ابنها، وتحقق من أن الثوب كان مثاليًا: «جئت لأتمنى لك حظًا سعيدًا يا كاثرين».

«شكرًا لك».

«لقد عرفت والدك ذات مرة عندما كنت أصغر سنًا، التقيته في حفلة في المرتفعات. اعتقدت أنه كان مفتونًا بي بقدر ما كنت مفتونة به. لكن والدك كان زير نساء، وأنا متأكدة من أنك تعلمين ذلك».

راح قلب كيتي ينبض أسرع. لم ترد، لأنها تعلم أن لدى إديث مزيدًا لتقوله.

«بالطبع، كنتُ مخطئة. فقد اتضح أنه لم يكن ساحرًا فحسب، بل انتهازي أيضًا. نذل يستمتع بإغواء النساء، وما إن ينتهي من واحدة، حتى ينتقل إلى التالية. بصريح العبارة، لقد رمانى مثل خرقة بالية بين ليلة وضحاها. لن أخوض في التفاصيل، لكنه لم يكسر قلبي فحسب، بل كاد يدمر سمعتي. أنا... حسنًا، يكفي أن أقول إنه لولا وصول ستيفان من أستراليا وتعارفنا بالمصادفة في لندن - ولم يكن لديه أي علم بأي شيء... عن السمعة السيئة التي اكتسبتها - لدمرت حياتي المستقبلية».

شعرت كيتي بحرارة الإحراج والصدمة على الجلد تحت فستانها، فقالت لنفسها امرأة: «تنفسي بعمق يا كيتي».

«أؤكد لك أن ما أقوله لك صحيح. أتمنى أن تفهمي سبب عدم سعادتي عندما كتبت لي أختي لتخبرني بأنك سترافقيها، وأنه يجب علي أن أستقبلك وأرحب بك في منزلي. لأنه بالطبع تم إخفاء الحقيقة، ولم يكن لدى أختي أي فكرة عما فعله بي رالف القديس. وها أنتِ... ابنته، تقفين أمامي وستتزوجين ابني الأكبر، وعلينا أن نكون أقرباء. لم تفتني المفارقة، وأنا على يقين من أنها لم تفت والدك، ولكن، يا لسخرية القدر!».

نظرت كيتي إلى أمتار الدانتيل الأبيض المتراكمة حول قدميها الخفيتين بأناقة. همست قائلة: «لماذا تخبريني بذلك؟».

«لأنك تنضمين إلى عائلتنا ولا أريد مزيدًا من الأسرار بيننا. ولأحذرك من أنك إذا آذيت ابني بالطريقة التي آذاني بها والدك، فسوف أطردك وأدمرك. هل تفهمين؟».

«أجل، أفهم».

«حسنًا، هذا كلّ ما كان عليّ أن أقوله. لا يسعني إلا أن أتمنّى أن تكون لديك طبيعة والدتك. أخبرتني أختي أنها امرأة لطيفة ورصينة. عندما أنظر إلى الماضي، أدرك أنني كنتُ محظوظة بالهرب، لأنني على يقين من أن والدتك عانت بزواجها من ذلك الرجل، تمامًا كما عانيتُ. هو! قس! يا للمهزلة!».

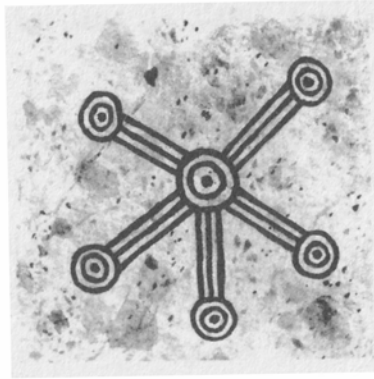
ضحكت إديث ضحكة سخرية، لكنها استعادت رباطة جأشها بعد أن رأت الضيق الواضح الذي تعاني منه كيتي. «الآن يا كيتي، لن نذكر هذا الموضوع مرة أخرى أبدًا».

ثم اقتربت منها وقبلتها بتردد على خديها وقالت: «أنتِ جميلة يا عزيزتي. مرحبًا بك في عائلة ميرسر».

سلسلہ

شاطبہ فرا نافع، کراچی، تایلند

کانون الثاني 2008



رمز وکر نعلہ العسلہ فیرہ ثقافت السکانہ الأصلینہ

فرد إيس ذراعيه على اتساعهما وتثائب، ثم رمى الكتاب على الأريكة. جلستُ أتفكر في القصة التي سمعتها لتوي وتمتمتُ: «تبدو كيتي ميرسر امرأة مذهلة! تنتقل إلى الجانب الآخر من العالم، وتتزوج من رجل بالكاد تعرفه، وفوق ذلك، ترث حماةً فظيعة كما لو كانت خارجة من الجحيم».

«أعتقد أن هذا ما فعلته نساء كثيرات في تلك الأيام، وبالأخص أولئك اللاتي كنَّ يعشن حياة لا يُردن العودة إليها». حدّق إيس إلى الأفق، وأضاف: «مثل كيتي».

«نعم، يبدو والدها أحرق حقيقياً. هل تعتقد أنها اتخذت القرار الصحيح بالزواج من أندرو بدلاً من دروموند؟».

تفحص إيس صورة كيتي على غلاف الكتاب وقال: «من يدري؟ نحن نتخذ كثيراً من القرارات كل يوم...».

انقبضت قسّمات وجهه، فلم أضغط عليه بشأن القرارات التي اتخذها وأدّت إلى تواريه في هذا القصر. قلتُ: «السؤال هو، ما صلتها بي؟ لا أعتقد أننا مرتبطتان، فنحن لا نتشابه على الإطلاق».

لتوضيح هذه النقطة، رفعتُ الكتاب إلى رأسي وحاولتُ أن أتخذ التعبير الصارم الذي كان يرتسم على وجهها. ضحك إيس وداعب خدي بإصبعه. «لست بحاجة إلى أن تشبهها لكي تكونا مرتبطتين. أنا على سبيل المثال، والذي أوروبي، وأراهن أنك من عرق مختلط أيضاً. ألم تتساءلي يوماً؟».

«بالطبع تساءلت. وللأمانة، كنت أتقبل ذلك دائماً. سيحاول الناس أن يخمنوا من أين أتيتُ إذا أخبرتهم أنني متبناة. سيقولون أي شيء؛ أنت من جنوب آسيا، أو من أميركا الجنوبية، أو من أفريقيا... يبدو الأمر كما لو أن كل واحد منهم يريد أن

يصنّفكَ تحت إتيكيت محدّد ويضعكَ في صندوق ثم يغلق عليك. لكنني أردتُ أن أكون أنا فحسب».

أوماً إيس: «نعم، أفهم ذلك أيضًا. هنا في تايلاند يسمّونا لوك كريونغ، (أنصاف أطفال) حرفيًا. لكن، على الرغم من أنني أعرف من أين أتيت، فهذا لا يعني أنني أفهم من أنا أو إلى من أنتمي. أشعر بأنني خارج المكان أينما كنت. وأتساءل إن كنتِ ستشعرين بأنكِ تنتمين إلى أستراليا؟».

«أنا... لا أعرف».

بدأتُ أشعر بالاحمرار والسخونة، وكل الأسئلة التي كان يطرحها جعلت رأسي يدور. نهضتُ وقلتُ بينما كنتُ أغادر الشرفة وأتجه إلى الدرج: «سأسبح لمرةٍ أخيرة مع غروب الشمس. أرغب في التقاط بعض الصور».

«ماذا تقصدين بمرةٍ أخيرة؟».

«سأغادر غدًا. سأذهب لأرتدي البيكيني».

بعد بضع دقائق، عندما وصلتُ إلى البوابة ومعني الكاميرا، خرجتُ لأجد إيس يحوم بجانبها وهو يرتدي سروال السباحة، ويضع على عينيه نظارة شمسية، ويعتمر قبعة بيسبول. قال: «سأتي معك».

«حسنًا».

حاولتُ ألا أظهر استغرابي عندما ضغط على الزر الأحمر وسلّمت كاميرتي إلى پو، بينما كان إيس يسير مسرعًا نحو البحر وأنا أتبعه. سبحنا لمسافة طويلة، أبعد كثيرًا من الآخرين، ثم أخذني بين ذراعيه وقبّلني. «لماذا لم تخبريني بأنك ستغادرين؟».

«للأمانة، لقد فقدت حسّ الوقت. ولم أدرك ذلك إلا عندما نظرت إلى تذكرة الطائرة في حقيبتي هذا الصباح».

«سيكون كلّ شيء غريبًا من دونك يا سيسي».

«أنا على يقين من أنك ستتدبّر أمرك جيدًا. تعال، سأحضر الكاميرا وألتقط بعض الصور لغروب الشمس قبل أن تختفي».

استعدت كاميرتي من پو وعدت إلى الشاطئ لالتقاط صورة غروب الشمس،
بينما كان إيس يتوارى بين أوراق الشجر ويراقبني.

عرض پو بإنجليزية ركيكة: «تريدین صورة؟ أنا ألتقطها».

سألت إيس: «هل تمنع في الانضمام إليّ، مع الغروب والمشهد خلفنا؟
للذكرى فقط».

«أنا...». رأيت وميض خوف في عينيه قبل أن يوافق على مض.

بيّنت لپو الزر الذي يجب أن يضغط عليه. كان شاطئ فرا نانغ والشمس
الغاربة خلفنا، وذراع إيس تلتفّ حولي. أخذ پو لقطات كثيرة إلى أن رفع إيس يده
وأوقفه. ثم هرع پو إلى البوابة وتبعته لأستعيد الكاميرا.

وبإنجليزية ركيكة دائماً، عرض پو خدماته: «سيدتي، أذهب وأظهر لك الصور
وأطبعها؟ ابن عمي، يدير متجرًا في كرابي. إذا ذهبت إلى هناك الآن، صور جاهزة
غداً».

أخرجت الفيلم من الكاميرا وقلْتُ مومئة باثنين من أصابعي: «حسنًا، شكرًا.
نسختان من كل صورة». قلت في نفسي إنها ستكون تذكاريًا جيّدًا أتركه لإيس قبل
أن أغادر.

ابتسم وقال: «لا مشكلة سيدتي. دواعي سروري. ثلاثمئة بات، نسختين؟»
«اتفقنا».

ابتعدت متسائلة عن سبب تعاونه ولطفه، وخلُصت إلى أنه ما يزال يشعر
بالذنب لمعاملته لي بفضاظة عندما كنت في كهف الأميرة. في بعض الأحيان، قد
يريد البشر التعويض عن أخطاء الماضي.

ذاك المساء، وعلى غير العادة، كانت المحادثة على العشاء متكلّفة ومصطنعة.
أبدى إيس هدوءًا غريبًا ولم يضحك من نكاتي، هو الذي كان يضحك حتّى من
أسخفها. ما إن وضعت سكينتي وشوكتي جانبًا، حتّى تثاءب وقال إن علينا أن ننام
باكراً، فوافقت. في السرير، مدّ يده إليّ بصمت، ومارسنا الحب في الظلام.

«طابت ليلتك يا سيسي».

قال ذلك لينام، وقلت لأرقد مستيقظة: «طابت ليلتك».

استمعت إلى تنفّسه وأنا أنتظر تباطؤه الذي كان يدلّ على أنه ينام، لكن أنفاسه لم تتباطأ هذه الليلة. أخيرًا، سمعته يتنهد، وامتدّت يده بتردد إليّ في الظلام.

همس: «هل أنتِ نائمة؟»

«أنت تعلم أنني نادرًا ما أنام».

«تعال، أنا بحاجة إلى أن أضمّك».

جذبني إليه وضمّني بقوة حتّى التصق أنفي ب صدره وكنت بالكاد أستطيع أن أتنفّس.

«لقد كنتُ جدّيًا عندما قلت لك إنني سأفتقدك. قد أذهب إلى أستراليا. سأعطيك رقم هاتفي. عديني بأنك سترسلين لي عنوان إقامتك هناك».

«نعم بالطبع».

«نحن متشابهان، أليس كذلك؟».

«تعتقد ذلك؟».

«نعم، كلانا يقف على مفترق طرق، ولا يعرف إلى أين يذهب».

«أفترض ذلك».

«حسنًا، هذا صحيح بالنسبة إليك على الأقل. أما أنا فلأسف، أعرف بالضبط أين سأذهب في نهاية المطاف...».

«أين؟».

«لا يهم، لكنّ أريد فقط أن أخبرك، أنه لو كانت الأمور مختلفة...». شعرت بشفتيه تداعبان بلطف أعلى رأسي. «لم أقابل في حياتي شخصًا حقيقيًا مثلك، يا سيلينو دابليز. لا تتغيري مطلقًا. هل ستتغيرين؟».

«لا أعتقد أنني قادرة على ذلك».

ضحك وقال: «لا، على الأغلب لا. أريدك فقط أن تعطيني بشيء آخر».

«ما هو؟»

«إذا... سمعت أشياء عني في المستقبل، أرجوك، حاولي ألا تحكمي عليّ. أنت تعلمين أن الأشياء ليست كما تبدو تمامًا. و...». كنت أعلم أنه يجهد ليجد الكلمات المناسبة. «في بعض الأحيان، يتعين عليك القيام بأشياء لحماية من تحبينهم».

«نعم، كما فعلت مع ستار».

«نعم يا عزيزتي، كما فعلت مع ستار». ثم قبلني واستدار.



لم يغمض لي جفن تلك الليلة بطبيعة الحال. كانت جميع أنواع المشاعر - وبعضها جديد - تتزاحم في رأسي. تمنيت أن يكون لديّ صديق أثق به لأطلب نصيحته في ما قاله لي إيس. لكن الحقيقة هي أن إيس أصبح هذا «الشخص»... صديقي. قلبت الكلمة في ذهني. لم يكن لديّ صديق حقيقي غير شقيقتي، وربما لم أكن أعرف كيف تكون الصداقة. هل كنتُ حقًا صديقه أيضًا؟ أم أنه كان يستخدمني للتقليل من شعوره بالوحدة... وهل كنتُ أنا أيضًا، أفعل الشيء نفسه؟ أم أننا أكثر من مجرد صديقين؟

عدلتُ عن الاستلقاء مستيقظة في السرير وذهبت إلى الشاطئ، على الرغم من أن الوقت كان مبكرًا جدًا لتأمل شروق الشمس. راح قلبي يخفق بشدة عندما فكرت في التخلي عن الأمان الذي يوفره هذا الكون الصغير الذي أوجدناه أنا وإيس معًا. هو - وهذه الجنة - سافتهما كثيرًا.

كان يو قد عاد لتوّه إلى موقعه للقيام بنوبة النهار بينما كنت أعبر بوابة القصر للمرة الأخيرة.

«لديّ صورك يا سيدتي».

دسّ يده في حقيبة ظهره المصنوعة من النايلون ليخرج بعض مظاريف الصور

ذات الألوان الزاهية. فتح أربعة منها، وفحص محتوياتها، فتساءلت عما إذا كانت هذه خدمة جانبية، بالإضافة إلى عمله، يقدمها لسكان شاطئ فرا نانغ للحصول على بعض النقود.

أكد قائلاً وهو يعيد الحزمتين الآخرين إلى حقيبة ظهره: «هذه لك». قلت: «شكراً»، مذكّرة نفسي بأن أعطيه إكرامية لائقة قبل أن أغادر، وعدت إلى غرفتي لأحزم أمتعتي.

بعد ساعة، رفعت حقيبتي على ظهري وأغلقت الباب خلفي. خرجت إلى الشرفة بخطى بائسة لأجد إيس يذرعها ذهاباً وإياباً. شعرت بالحزن عندما رأيته مكتئباً ومضطرباً مثلي. «تغادرين؟».

«نعم». أخرجت مطروف الصور من جيبتي الخلفي ووضعتهم على الطاولة. «إنها لك».

قال وهو يسلمني في المقابل قطعة من الورق: «وهذا هو رقم هاتفي». وقفنا هكذا محرجين، يحدّق كلٌّ منا إلى الآخر، وأردت أن تنتهي هذه اللحظة. «شكراً جزيلاً على... كل شيء».

«لا حاجة إلى أن تشكريني يا سيدي، كان ذلك من دواعي سروري». «حسن إذا».

رفعت حقيبتي إلى ظهري ثانية، لكنه فتح ذراعيه. «تعالى». شدني إليه وعانقني بقوة، مسنداً ذقنه إلى أعلى رأسي. «عديني بأن تبقي على اتصال». «نعم بالطبع».

قال وهو يحمل حقيبتي إلى البوابة: «من يدري، قد آتي إلى أستراليا». «سيكون ذلك رائعاً. إلى اللقاء».

«وداعاً يا سيدي».

ضغطت يدي على الزر الأحمر ليسمح لي بالخروج، وأعطيتهم النقود مع إكرامية.

لكنّ ما أثار دهشتي هو أنه رفض. هزّ رأسه ونظر إليّ كما لو كان مذنبًا. «وداعًا يا سيدتي».

مشيتُ باتجاه رايلي، ولم أكن في حالة تسمح لي بتوديع جاك والعصاة. لا يعني ذلك أنني كنت أتوقّع منهم أن يفتقدوني. عندما مررتُ بالحانة، رأيتُ جاي يتسكّع عند البار ويحمل زجاجة بيّرة سينغا، التي كانت شريكًا دائمًا لا يفارق أصابعه. اضطررتُ إلى المرور بجانبه، ولم أكن في مزاج يسمح لي بالتحدث. اعترض طريقي قائلًا: «مرحبًا سيّسي، ترحلين؟».

«نعم».

«ألن تأخذي معك صديقك الجديد؟».

رأيتُ بريقًا في عينيه الغارقتين بالخمّر، وابتسامة أشبه بالسخرية على شفّتيه. «أنت مخطئ يا جاي. ليس لديّ صديق».

«لا، بالطبع ليس لديك صديق».

«يجب أن أذهب، وإلا سأفوّت رحلتي. إلى اللقاء».

صاح: «كيف حال شقيقتكِ؟».

صحت بدوري مواصلةً السير: «جيدة جدًا».

«بلّغها سلامي».

تظاهرتُ بعدم السماع، وواصلتُ السير على الرمل نحو القوارب ذات الذيل الطويل، التي تنقل الركاب إلى مدينة كرابي.



عندما غادرت الطائرة المدرّج في مطار سوفارنابومي متجهةً إلى سيدني، فكرتُ في أن الجانب العلوي من رأسي الذي كان مشغولًا بالتفكير في إيس في الساعات القليلة الماضية لم يتسنّ له أن ينشغل برحلة الطائرة التي تستغرق اثنتي عشرة ساعة، أو بما قد أجده عند وصولي. تمكّنتُ أيضًا من شراء ما أسماه صيدلي المطار

أقراصًا منومة، للمساعدة على تحمّل مشقّات الرحلة. تناولتُ حبتين بمجرد الإعلان عن الصعود إلى الطائرة، لكنني إذا شعرتُ بأي شيء، فهو مزيد من اليقظة، بل أكثر من المعتاد. فتساءلتُ إنْ كانت تلك الحبوب تحتوي على الكافيين بدل جرعة منومة.

لحسن الحظ، كانت الطائرة فارغة نسبيًا وبجواري مقعدان احتياطيان. عندما انطفأت إشارة ربط حزام الأمان، تمددتُ فوقهما وأرحتُ نفسي، ثم رجوتُ عقلي متوسلةً: «من فضلك، أنا مرهقة وخدرة. اصنع لي معروفًا ونم».

من الواضح أنه لم يستمع. بعد تقلّبات مضطربة، جلستُ وتناولت طعام الطائرة الذي قدّمته المضيّفة التايلاندية، حتّى أنني شربتُ كأسًا من البيرة لتهدئة أفكاري. ولم ينجح ذلك أيضًا. عندما خفتُ أضواء المقصورة، استلقيتُ على ظهري وأجبرتُ نفسي على التفكير في ما ينتظرنني.

بعد هبوطنا في سيدني في ساعة مبكرة من الصباح، كان عليّ أن أتوجّه إلى مدينة تدعى داروين تقع في الطرف الشمالي، ومن هناك، أستقل طائرة أخرى إلى مدينة بروم. لكن، ما أزعجني حقًا هو أنني عندما حجزتُ رحلاتي، اضطررتُ إلى الطيران فوق كلا المكانين وصولًا إلى الجزء السفلي من أستراليا، ثم العودة مرة أخرى. ولسوء الحظ لم يكن لديّ خيار آخر، ما يعني ساعات إضافية في الهواء، ناهيك بالوقت اللازم لإجراءات التنقّل في مطار سيدني.

كنتُ قد بحثتُ عن بروم على الإنترنت في المطار، ومن الصور، بدا لي أنها تتمتع بشاطئ رائع حقًا. كانت قد أصبحت منطقة سياحية أكثر من أيّ شيء آخر، لكنها منذ زمن بعيد، وبفضل ما تعلّمته من السيرة الذاتية لكيّتي ميرسر، كانت مركزًا لصناعة اللؤلؤ. تساءلتُ إذا كان هذا هو المكان الذي يعود إليه أصلي؟

إذا كان هناك شيء واحد علمتني إياه الأسابيع القليلة الماضية، فهو أن العبارة التي تقول إن المال لا يشتري السعادة كانت صحيحة تمامًا. فكّرتُ في إيس، الذي كان واضحًا أنه ثريّ جدًّا، لكنه وحيد وبائس. تساءلتُ إن كان يفتقدني. هذه الليلة، كنت أفتقده حقًا... ليس بطريقة رومنسية، كما لو كنت لا أستطيع العيش من دونه،

أو أشتاق إلى لمسة من يده على يدي، أو شيء مثل ذلك. صحيح أن الجنس كان ممتعًا، وأفضل كثيرًا مما عرفته من قبل، لكن أكثر ما استمتعت به هو القرب، تمامًا كما كان الحال مع ستار.

لقد ملأ إيس الفجوة الكبيرة التي تركتها وراءها. كان صديقي المقرب، وكنت أفقد قربه. كنت أعلم أن طرقنا في العالم الحقيقي لن تتقاطع أبدًا خارج القصر. هو فتى ثري من سكان المدينة، تعود الخروج مع الشقراوات اللواتي يشتري حقايب يد من تصميمات فاخرة، ويتعلن أحذية بكعب يبلغ علوه اثني عشر سنتيمترًا.

كانت لحظة من الزمن: شخصان وحيدان يلتقيان على الشاطئ، ويساعد كل منهما الآخر. كان يمضي في طريق، وكنت أمضي في طريق، لكنني كنت أتمنى حقًا أن نبقى أصدقاء.

بدأ تأثير البيرة أو الحبوب المنومة، فنمت حتى أيقظتني المضيفة لتخبرني أننا سنهبط في سيدني خلال خمس وأربعين دقيقة.

بعد ساعتين، صعدت ثانية على متن طائرة أصغر كثيرًا. عندما غادرنا سيدني، نظرت إلى أسفل ورأيت الفراغ. لا شيء، لا شيء حفيًا، باستثناء مساحات حمراء كانت حمراء ولم تكن حمراء حقًا... كانت أقرب إلى لون الفلفل الحلو الذي تستخدمه ستار عندما تطبخ.

تساءلت كيف يمكنني تكرار هذا اللون في لوحة. وبعد برهة، أدركت أن أمامي وقتًا طويلًا للتفكير في ذلك، لأن هذا التراب الأحمر تحتي ما له من نهاية. كان معظمه مسطحًا، والمنظر الطبيعي يذكّرني بحساء الطماطم المتحلل: يتحول لونه إلى اللون البني عند الحواف، وفي بعض الأحيان، يرى خيط رقيق غريب، كما لو أن قشدة سكب فوقه لتشير إلى نهر أو طريق.

مع ذلك، عندما اقتربنا من داروين، وكانت وجهتي النهائية قريبة، شعرت بقبضة مفاجئة تطبق على قلبي وتجعله ينبض أسرع. خالطني شعور غريب بالبهجة والحزن في آن، كما لو كنت أشاهد فيلمًا مؤثرًا لكنه متسام. اعترتني رغبة في كسر

النافذة بقبضتي والقفز، لأحط على تلك الأرض الحمراء القاسية التي لا ترحم. تلك الأرض التي شعرتُ غريزيًا بأنها جزء مني. أو بتعبير أدق، كنتُ جزءًا منها.

بعد أن هبطنا، سرعان ما حلّ محلّ البهجة التي كنت أشعر بها خوف شديد عندما صعدتُ على متن طائرة صغيرة جدًا أشبه بلعبة بلاستيكية. لم يكن أحد من حولي يبدو قلقًا عندما اصطدمنا بتيارات الهواء ثم هبطنا في مكان يُدعى كونونورا، وهي بلدة لم أسمع بها من قبل ولم تكن بروم بالتأكيد. عندما قررتُ النزول، قيل لي إن هذه مجرد محطة توقّف وإن بروم ستكون المحطة التالية، كما لو كنّا في حافلة أو قطار. أقلعت الحافلة الطائرة المخيفة ثانية وتناولتُ حبة منومة أخرى لتهدئة أعصابي. عندما هبطنا أخيرًا على مهبط طائرات لا يبدو أطول كثيرًا من ممر منزل عادي في جنيف، رسمت على وجهي إشارة الصليب.

في بهو المطار الصغير، بحثتُ عن مركز المعلومات ورأيتُ مكتبًا تجلس خلفه فتاة لونها لون بشرتي تقريبًا. حتّى شعرها - لبدة من الخُصل الأبنوسية المجدّعة - كان يشبه شعري.

ابتسمت لي بحرارة: «طاب يومك، هل يمكنني أن أساعدك؟».

«نعم، أبحث عن مكان للإقامة بضع ليالٍ».

قالت وهي تناولني كومة من المنشورات: «إذًا، لقد أتيت إلى المكان الصحيح».

«بمّ تنصحين؟».

أضافت مبتسمة: «المفضّل لديّ هو بيرل هاوس Pearl House في شارع كارنارفون، لكن لا يُفترض بي أن أعطي تفضيلات شخصية. هل أطلب منهم غرفة إذا كان لديهم غرف شاغرة؟»

أجبتُ: «سيكون ذلك رائعًا». شعرت بساقي ترتعشان تحتي. من الواضح أنهما سئمتا من حملي آلاف الكيلومترات عبر العالم. قلتُ: «هل يمكن أن تكون الغرفة في الطابق الأول أو الثاني؟ لا في الطابق الأرضي»
«بالتأكيد».

أثناء إجرائها المكاملة، قلتُ لنفسي إنني كنت سخيّة؛ تستطيع العناكب التسلّق إلى الطوابق العليا، أليس كذلك؟ أو على طول أنابيب الصرف في الحمامات... قالت وهي تضع الهاتف جانبًا: «نعم، لدى السيدة كوزينز غرفة شاغرة، تجددين موقف سيارات الأجرة في الخارج مباشرةً». كتبت التفاصيل وسلّمتها لي. «شكرًا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

سألتنِي: «هل أنتِ فرنسية؟»
«سويسرية، في الواقع».
«تأتين لرؤية أقاربك؟».

«ربّما». قلتها وأنا أهرّ كتفيّ، وأتساءل كيف عرفت.

«حسنًا، اسمي كريسي وهذه بطاقتي. اتصلي بي إذا احتجت إلى المساعدة، وربّما أراك في الجوار».

«نعم، شكرًا». واتجهت نحو المخرج دهشةً من لطفها وقوّة حدسها.

كنتُ أتعرق عندما صعدت إلى سيارة الأجرة وأخبرني السائق أنها كانت مجرد رحلة قصيرة إلى المدينة. توقّفنا أمام مبنى منخفض يقع على طريق عريض يصطف على جانبيه مزيج من المحلات التجارية الصغيرة والمنازل.

كان الفندق بسيطًا، ولكن عندما دخلت غرفتي، أسعدتني نظافتها، وبعد إجراء فحص شامل، تأكّدت من أنها كانت خالية من العناكب.

أردت التحقق من الوقت على هاتفي، لكن البطارية كانت فارغة تمامًا. كلّ ما استطعت إدراكه هو أنها كانت ساعة الغسق، أيّ حوالى السادسة مساءً. كان جسدي يقول إن وقت النوم قد حان، حتّى لو لم يتمكّن هاتفي من قول ذلك. خلعتُ ملابسي، وتسلّلتُ بين الملاءات ونمتُ أخيرًا.



استيقظتُ، واستقبلتني من النافذة العارية شمسٌ ساطعة. استحممتُ وارتديتُ ملابسِي وهرعتُ إلى الطابق الأرضي.

سألتُ السيدة في الاستقبال: «هل يمكنني الحصول على وجبة الفطور؟».

«لقد انتهى وقت الفطور منذ ساعات. إنها الثانية بعد الظهر، يا عزيزتي».

«أوه! هل يمكنني أن أجد شيئاً يُؤكل قريباً من هنا؟».

«هناك رانواي بار Runway Bar على الطريق، يقدم البيتزا وأشياء أخرى. إنه الأفضل في هذا الوقت من النهار. هناك أماكن أخرى تفتح لاحقاً».

«شكراً».

خرجتُ من الفندق قاصدة البار المذكور. حتّى بالنسبة إليّ، كانت الشمس حارقة، كما لو أنها اقتربت من الأرض بضعة آلاف من الكيلومترات أثناء الليل. من الواضح أن كلّ من لديه عقل كان يختبئ، لأن الشارع كان مقفراً. في أسفل الشارع، رأيتُ أربعة تماثيل برونزية بجوار موقف للسيارات، فذهبتُ لإلقاء نظرة. كانت ثلاثة منها تمثل رجالاً يرتدون بذلات رسمية، وكلهم كبار في السن، والرابع - يرتدي بذلة وينتعل حذاءً ثقيلاً ويعتمر خوذة مستديرة تغطي وجهه بالكامل - بدا وكأنه رائد فضاء. كانت هناك لوحات عليها كتابات صغيرة تصف، على الأرجح، ما حققه هؤلاء الرجال من إنجازات جعلتهم مميزين. لكنني بدأتُ أشعر بالوهن تحت الشمس، وأدركتُ أنني بحاجة إلى الطعام. عندما وصلتُ إلى رانواي بار كنتُ أتصبّب عرقاً بسبب الرطوبة العالية.

ذهبتُ إلى البار وطلبت ماءً. ولم أكد أستلم الزجاجاة حتّى أفرغتها. قرّرتُ تناول سندويش بيرغر، وأخذتُ إحدى الخرائط المجانية التي توضّح معالم المدينة السياحية بالتفصيل قبل أن أجد مقعداً على طاولة بلاستيكية باهتة اللون.

سأل الشاب الذي أحضر لي البرغر: «أنت سائحة؟»

«نعم».

«أنتِ شجاعة يا عزيزتي. لا نستقبل كثيراً منكم في هذا الوقت من العام؛ إنه موسم الأمطار، كما ترين. نصيحتي هي ألا تذهبي بعيداً بلا مظلة أو مروحة، على الرغم من أن كليهما عديمة الفائدة في هذا الموسم من السنة».

التهمتُ سندويش البرغر بأربع قضمات تقريبًا، ثم درستُ خريطة المدينة ثانية.

كالعادة، اختلطت الحروف بالكلمات أمام عيني، لكنني واصلتُ البحث، وأخيرًا وجدتُ المكان الذي كنتُ أبحثُ عنه. عدتُ إلى البار لأدفع الحساب وأحصل على مزيد من الماء.

أشرتُ إلى المكان على الخريطة وسألتُ النادل: «كم يبعد هذا؟».

«المتحف؟ من هنا، حوالى عشرين دقيقة سيرًا على الأقدام».

«حسنًا، شكرًا».

استدرتُ لأغادر لكنه أوقفني: «إنه مغلق طوال فترة بعد الظهر، حاولي غدًا».

«سأفعل. شكرًا». بدا كما لو أن كل شيء في بروم يُغلق بعد الظهر.

عندما عدتُ إلى غرفتي، تذكرتُ أن أشحن هاتفي الخامد منذ مساء أمس، فوصلته بالكهرباء بجانب السرير. بينما كنتُ في الحمام، فوجئتُ بسماع صوته يرن مرارًا فهرعتُ لإلقاء نظرة. همهمتُ: «رائع!»

كانت الشاشة تعرض رسائل نصية من ستار وشقيقاتي الأخريات، وعددًا من المكالمات الفائتة أيضًا.

بدأتُ بالرسائل أولاً.

ستار: سي! يا إلهي! اتصلي بي. قبلاتي.

مايا: سيسي، أين أنت؟ ما الذي يحدث؟ اتصلي بي! قبلاتي.

آلي: هذا أنت، أليس كذلك؟ اتصلي بي. قبلاتي.

تيغي: هل أنت بخير؟ أفكر فيكِ. اتصلي بي. قبلاتي.

حتى إلكترا...راسلتنى...

اجتاحتنى موجة من الذعر متسائلة: لماذا اتّصلت بي شقيقاتي فجأة؟ وركّزتُ

على فك رموز رسالة إلكترا.

يا لك من كتوم، أنت!

لم تكن هناك عبارة «اتصلي بي» أو قبلا تي في نهاية رسالتها، ولم أكن أتوقع ذلك.

تمتعت لنفسى: «هناك شيء ما».

وبينما كنت أنزلُ إلى أسفل الشاشة رأيتُ رسالة نصية من رقم لم أكن أعرفه: كنتُ أثقُ بك. أتمنى أن تكوني مسرورة.

قفزت إلى حقيبتى وأخرجت قصاصة الورق التي كتب عليها إيس رقم هاتفه، ورأيت أنه يطابق الرقم الموجود على شاشتي.

تساءلتُ مخاطبةً نفسى، «يا إلهي، ماذا فعلتِ يا سي...»

فكرتُ وأنا أتتبع خطواتي منذ مغادرتي تايلاند، بحثًا عن شيء يمكن أن يفسر معنى رسالته. لقد كنت في الجو معظم الوقت...

لا، لم أفعل شيئًا. لم أقل شيئًا ولا فكرتُ في شيء يسيء لإيس. بل على العكس تمامًا، كنت أفتقده. نهضتُ ورحتُ أذرع الغرفة الصغيرة، ثم عدتُ إلى هاتفي واتصلتُ برقم البريد الصوتي، ليخبرني صوت بلكنة أسترالية قوية أنه ليس الرقم الصحيح، ولكن من دون أن يخبرني ما هو الرقم الصحيح. رميت الهاتف على السرير بحنق.

على الرغم من أن الاتصال كان يكلف ثروة، كان عليّ أن أعرف ما الذي حدث، لذا، فإن أفضل طريقة كانت، هي الاتصال بإيس مباشرة.

تمنيتُ ولو لمرة واحدة أن أكون سكير - بضع كؤوس من الويسكي تليها كأس من التيكिला أو أربع كانت لتهدئ ارتعاش أصابعي - واتصلتُ بإيس. تأهبتُ كما لو كنت على وشك خوض معركة جسدية، وانتظرت.

أخبرني صوت أسترالي مختلف: «هذا الرقم غير متوافر». ظننتُ أنني ربما أخطأتُ في إدخال الرقم، فحاولت عشر مرّات أو خمس عشرة مرة أخرى، لكن الإجابة ظلت نفسها.

تساءلت: اللعنة! ماذا أفعل الآن؟ ثم قلتُ في نفسى: اتصلي بستانر... هي، ستعرف.

تردّدتُ، لأن ذلك يعني كسر حاجز الصمت، وكنتُ أعلم أن سماع صوتها للمرة الأولى منذ أسابيع قد يكسرني أيضًا. مع ذلك، كنتُ أعلم أنه ليس لديّ خيار آخر. كان من المستحيل أن أنام الليلة من دون أن أعرف ما الذي فعلته.

اتصلتُ برقم ستار، ورّنتُ أخيرًا، ثم سمعتُ صوت شقيقتي. بذلتُ قصارى جهدي لأخفي مشاعري عندما أَلقت التحية.

قلتُ مستخدمةً بشكل آليّ اللقب الذي كنتُ أناديها به: «هذه أنا، يا سيا.»

«سي! هل أنتِ بخير؟ أين أنتِ؟»

«في أستراليا... في وسط اللامكان.»

«أستراليا؟ لكنك كنت ترفضين دائمًا الذهاب إلى هناك!»

«أعرف، لكنني هنا. اسمعي، هل تعرفين لماذا تلقيتُ كلّ هذه الرسائل النصية منكُن جميعًا؟»

خيم صمت على الطرف الآخر. وأخيرًا قالت: «نعم. ولكن أنتِ، ألا تعرفين؟»

«لا. لا أعرف حقًا.»

صمتُ آخر، لكنني تعودت على ذلك وانتظرت أن تختار كلماتها، فكانت النتيجة مخيبة للآمال. قالت: «أوه، تعرفين.»

«أعرف ماذا؟ سيا! أنا حقًا لا أعرف. هل يمكنك أن تخبريني؟»

«أنا... نعم. للأمر صلة بالرجل الذي تصوّرت معه.»

«تصوّرتُ معه؟ من؟»

«أناند تشانغروك، التاجر المارق الذي أفلس بنك بيرنرز قبل أن يختفي عن وجه الأرض.»

«من؟ ماذا؟! لا أعرف أحدًا يدعى أناند تشانغروك.»

«رجل طويل القامة ذو شعر داكن ويبدو آسيويًا.»

«أوه. اللعنة... إيس!»

قالت ستار: «إذًا، أنت تعرفينه؟»

«نعم، لكنني لا أعرف ماذا فعل».

«ألم يخبرك؟».

«بالطبع لا! وإلا لما اتصلتُ بك لتخبريني، أليس كذلك؟ ثم ماذا تقصدين بأنه أفلس أحد البنوك؟».

«لا أعرف التفاصيل، لكن الأمر ذو صلة بالتجارة غير المشروعة. على أي حال، عندما اكتُشف أمره، كان قد غادر المملكة المتحدة. ومما قرأته في صحيفة التايمز أمس، فإن أجهزة الاستخبارات في جميع أنحاء العالم تبحث عنه».

«يا يسوع المسيح، سيا! لم يقل كلمة واحدة».

«كيف التقيته بحق السماء؟».

«كان مجرد رجل على شاطئ فرا نانغ! تتذكرين ذلك الشاطئ الجميل ذي الأعمدة الحجرية».

«أتذكر بالطبع». اعتقدتُ أنني سمعتُ ارتعاشة خفيفة في صوتها عندما قالت ذلك.

«ولكن لماذا يبدو أن كل شخص في العالم يعرف أنني أعرفه؟».

«لأن لكما صورة على الشاطئ وذراعاكما متشابكتان في الصفحة الأولى من كل صحف إنجلترا. رأيتهما هذا الصباح في كشك بيع الصحف بجوار المكتبة. أُنبت مشهورة يا سي».

فكرتُ للحظة، واستعدتُ سيلاً كاملاً من الذكريات في ذهني: رفضُ إيس الخروج علناً في أثناء النهار، وإصراره على عدم إخبار أي شخص بمكان إقامتي... والأهم من ذلك كله، بو، حارس الأمن الذي التقط الصورة...

«سي! ما زلتِ معي؟».

أخيراً قلتُ: «نعم»، وأنا أفكر كم كان بو حريصاً على التقاط صور لي ولايس معاً. وبإعطائه الفيلم الليلة الماضية، منحتة الفرصة المثالية. لا عجب في أنه كان حريصاً جداً على أخذه إلى ابن عمه في مدينة كرابي... من الواضح أنه صنع نسخاً

أيضاً، وهو ما يفسّر وجود مظاريف الصور الإضافية التي رأيتها في حقيبة ظهره. ثمّ تذكّرت جاي، الصحفي السابق، وتساءلتُ عما إذا كان الاثنان متعاونين.

سألته ستار: «هل أنت بخير؟»
«لا. حقّاً لا. لقد كان كلّ ذلك خطأً».

تذكّرت أيضاً مظلوف الصور الذي تركته لإيس على الطاولة. كانت لفظة تعبّر عن أفضل جزء من روحي، لكنها الآن بدت الأسوأ.
«أخبريني يا سي، أين أنت بالضبط. يمكنني أن أصعد على متن أيّ طائرة الليلة، وأكون عندك غداً. أو بعد غد».

«لا. كلّ شيء على ما يُرام. سأكون بخير. هل أنت بخير؟»
«نعم، سوى أنني أفتقدك. إذا احتجّت إلى أيّ شيء يمكنني فعله، يكفي أن تخبريني».

«شكراً، يجب أن أذهب الآن. وداعاً يا سي».
قلّت ذلك قبل أن أنهار، ثمّ ضغطتُ على الزر لإنهاء المكالمة وأغلقتُ هاتفي. استلقيتُ على السرير، أهدّقتُ إلى السقف. لم أستطع البكاء. ومرة أخرى، بدا أنني نجحتُ في إفساد صداقة جميلة.

عندما استيقظتُ صباح اليوم التالي، شعرتُ كما لو أنني كنتُ أستيقظ صباح اليوم الذي سمعتُ فيه نبأ وفاة يا سولت. بعد ثوانٍ قليلة بين اليقظة والنوم، ابتلعتني طوفان الواقع. تكوّرتُ على نفسي ودفنتُ وجهي في الوسادة الإسفنجية الرخيصة. لم أكن أريد أن أستيقظ، ولا أرغب في مواجهة الحقيقة. كان الأمر مضحكاً فحَتَّى لو كنتُ أعرف أن إيس مجرم مطلوب، كنت من الحماسة بحيث لم أستفد من ذلك. أما الآخرون فقد كانوا أدهى وأشدَّ ذكاء، وكنت أتحمل اللوم كاملاً.

لا بدّ من أن إيس أصبح الآن يكرهني. وكان له كلّ الحق في ذلك.

كان مجرد تخيل الصورة التي كَوْنها عني الآن كافياً لكي أشعر بالغيثان. وقد أدركتُ ذلك عندما اندفعتُ إلى الحمام وتقيّأت. غسلت فمي وشربت بعض الماء، وقررتُ أن كلّ ما يمكنني فعله هو مواجهة الأدلة. قلت في نفسي: «واجهي مخاوفك». ارتديت ملابسني ونزلت إلى مكتب الاستقبال في الطابق الأرضي.

سألت المرأة التي تقف خلف المكتب: «هل يوجد مقهى إنترنت هنا؟».

«طبعاً، بالتأكيد. انعطفي يميناً وامشي حوالى مئتي متر، تجددين زقاقاً. سوف ترينه، إنه هناك».

«شكراً».

في الخارج، كانت برك ضخمة بلون الفلفل الحلو تغطي الأرصفة غير المستوية، وأدركتُ أنها تجمّعت الليلة الماضية. بينما كنت أسير، شعرت بأنني أطفو، كما لو كنت ثملةً، وكان ذلك على الأرجح بسبب مزيج قاتل من البؤس والخوف مما قد تظهره لي شاشة الكمبيوتر.

دفعت بضعة دولارات للسيدة التي تقف في مقدمة المقهى، فأشارت إلى

كشك، دخلت إليه وجلست، وأنا أشعر بالغثيان مجدّدًا. أدخلت الرمز الذي أعطتني إياه، ثم رحت أحّدق إلى متصفّح الويب وأنا أتساءل عما يجب أن أبحث. كانت ستار قد أخبرتني باسم إيس الحقيقي، لكنني لم أستطع تذكره. وحتى لو استطعت لما تمكّنت من تهجئته.

أدخلت الكلمة المفتاحية: «إفلاس بنك»، لكنه أظهر شيئًا عن وول ستريت في العام 1929.

ثم: «مطلوب رجل بنك مجرم»، فظهر لي فيلم عن جون واين في فيلم عن رعاة البقر.

في النهاية، كتبت: «رجل البنك المختبئ في تايلاند»، ثم ضغطت على «إدخال». وظهرت شاشة كاملة من العناوين الرئيسية بدءًا من صحيفة التايمز، إلى صحيفة نيويورك تايمز، وحتى صحيفة صينية. ضغطت على «الصور» أولًا، حيث كنت بحاجة إلى رؤية ما رآه الجميع.

وكانت هناك: الصورة التي التقطناها نحن الاثنين عند غروب الشمس على شاطئ فرا نانغ. «اللعنة!».

رحتُ أحّدق إلى الصورة عن كثب، ورأيتُ أنني كنتُ أبتسم بالفعل، مع أنني في الغالب لا أبتسم في الصور. كانت ذراعًا إيس تطوّقاني، وكنتُ أبدو سعيدة إلى الحد الذي جعلني بالكاد أتعرفُ إلى نفسي. في الواقع، لستُ بهذا السوء؛ قلتُ في نفسي وأنا أربّتُ، بشكل غريزي، شعري، الذي كان يتجمّع في حلقات ضيقة حول كتفي. أدركت لماذا كانت ستار تحبه؛ على الأقل كنتُ أبدو فتاة في الصورة، وليس صبيًا قبيحًا.

وبخْتُ نفسي: «توقفي»، إذ لم يكن الوقت المناسب للانشغال بمظهري. مع ذلك، عندما كنتُ أنقر على نسخ الصورة اللانهائية - بما في ذلك تلك المنشورة في مجموعة من الصحف الأسترالية - سمحتُ لنفسي بضحكة خافتة. من بين جميع الشقيقات دابلييز، كنت أنا على الصفحة الأولى لعدد كبير من الصحف الوطنية. حتّى إلكترا لم تتمكّن من تحقيق مأثرة كهذه.

عدتُ إلى الواقع، ورحت أتنقل بين المقالات وأحاول فك رموز ما كانوا يقولونه فيها. الخبر السار هو أنني على الأقل كنت «امرأة لم يُذكر اسمها»، لذلك لم أكن أجلب العار لعائلي. لكن إيس...

بعد ساعتين غادرتُ المقهى. على الرغم من أن ساقِي كانتا تسمحان لي بالقفز في العادة، إلا أن كلَّ ما كنت قادرة على فعله الآن هو أن أضع قدمًا أمام الأخرى. توجهتُ إلى ردهة الفندق، وسألتُ موظفة الاستقبال: كيف يمكنني الذهاب إلى الشاطئ. كنتُ بحاجة إلى بعض الهواء وبعض المساحة.

قالت: «سأطلب لك سيارة أجرة».

«ألا أستطيع الذهاب سيرًا على الأقدام؟».

«لا يا عزيزتي، المكان بعيد جدًا في هذه الحرارة».

«حسنًا».

فعلتُ ما قيل لي وجلستُ على أريكة قاسية في الردهة بانتظار وصول سيارة الأجرة. صعدتُ وجلستُ في المقعد الخلفي وانطلقنا. كنت خدرًا. بدا المنظر من النافذة خاليًا من الحياة البشرية، ولم يكن هناك سوى الأرض الحمراء على طول طريق عريض تزهر أشجار ظليلة عالية مغطاة بغيوم من الطيور البيض التي دوّرت رؤوسها مثل رأس واحد عندما مرّت سيارة الأجرة.

قال السائق: «لقد وصلت يا عزيزتي. سبعة دولارات. عرّجي على حانة سانسييت بار Sunset Bar عندما تريدان العودة وسيّصلون بي».

قلت له: «بالتأكيد، شكرًا»، وأعطيته ورقة نقدية من فئة العشرة دولارات من دون أن أنتظر الباقي.

غرزتُ قدمي في الرمل الناعم، وجريت نحو المساحة الزرقاء الكبيرة، مدركة أنه إذا كان ثمة من يحتاج إلى إغراق أحزانه، فهو أنا. عندما وصلتُ إلى حافة الماء، شعرت ببرودته على أصابع قدمي. لم أنتظر حتّى أنزع سروالي وقميصي، وغصت مباشرة. سبحتُ وسبحتُ في مياه بلورية كانت من الشفافية بحيث كنت قادرة على رؤية ظلال الطيور وهي تومض على القاع الرملي. ثم عدتُ إلى الشاطئ

منهكة، واستلقيتُ على ظهري في هذه القطعة المهجورة من الجنة وسط اللامكان. على يميني ويساري، بدا أن الشاطئ يمتد لكilometers. كان نسيم المحيط قد جرف حرارة المدينة الخانقة، ولم يكن هناك شخص واحد في الأفق، فتساءلتُ لماذا لم يخرج السكان المحليون للغوص في هذا المسبح المثالي، الموجود على عتبة بابهم.

همستُ: «إيس...»، وشعرت بالحاجة إلى أن أقول شيئاً ذا معنى للسماء تعبيراً عن ضيقي. لكن الكلمات الصحيحة لم تأتِ، لذا تركتُ المشاعر تنسكب في داخلي. إن ما أشعُرني بالحيرة، بعد أن قرأت جميع المقالات على الإنترنت، هو أن إيس كان «سيئ السمعة».

إيس، الرجل الذي وثقتُ به وصادقته، كان كل ما هو سيئ. لم يكن في العالم شخص واحد يقول كلمة طيبة عنه. مع ذلك، ما لم يكن الممثل الأبرع على هذا الكوكب، لم أستطع أن أصدق أن الرجل الذي كانوا يصفونه، هو الشخص الذي عشتُ معه وضحكتُ معه حتى أيام قليلة مضت.

من الواضح أنه قام بعمليات احتيال كثيرة في سوق الأسهم. كان المبلغ الذي «قامر به» فلكياً، حتى أنني اعتقدت في البداية أن الصحافيين أخطأوا في عدد الأصفار. كانت حقيقة أن أي شخص يخسر هذا القدر من المال أمراً شائئاً. أقصد، أين ذهبت هذه الأموال بالضبط؟ بالتأكيد ليس في الجزء الخلفي من الأريكة، على أي حال.

إن ما جعل الجميع يدينونه هو هروبه عندما اكتُشفت عملية الاحتيال، ولم يره أحد منذ تشرين الثاني، حتى الآن بالطبع.

وبفضلي، انكشف مغبأه. مع ذلك، بعد أن شاهدتُ صورته الفوتوغرافية قبل عام أو نحو ذلك، مرتدياً بذلات فاخرة من تصميم سافيل رو، حليق الذقن، قصير الشعر، بدا من غير المُحتمل أن يتعرّف أي شخص في كرابي إلى ذلك المستدئب النحيل كأخطر المطلوبين في عالم البنوك. بعد التفكير في ذلك كله، أدركتُ، أن جنته التايلاندية كانت المكان المثالي للاختباء: هناك، بين آلاف الشباب الرحالة، كان لديه غطاء مثالي.

كانت صحيفة بانكوك پوست الصادرة هذا اليوم تقول إن السلطات البريطانية تجري محادثات مع السلطات التايلاندية من أجل «تسليمه». مرة أخرى، عدتُ إلى القاموس، واكتشفتُ أن ذلك يعني أنهم كانوا سيجزّونه إلى إنجلترا ليُحاكَم.

شعرتُ بوخزات حادة على وجهي ونظرتُ إلى أعلى لأرى السحب التي تجمعت في كتل رمادية غاضبة فوق رأسي. لجأتُ إلى بار الشاطئ في الوقت المناسب، وجلستُ أحتسي عصير الأناناس وأشاهد عرض الأضواء الطبيعي، فذكرني ذلك بالعاصفة التي رأيته من كهف الأميرة قبل أن يُقبض عليّ، إذا جاز القول. والآن يبدو أن إيس سيُقبض عليه فعلاً عندما يعود إلى إنجلترا.

لو كانت الأمور مختلفة...

هذا هو ما قاله لي إيس، واعتقدتُ أنه كان يقصد وجود امرأة أخرى في حياته. لكنني أسأتُ الفهم، فقد كان ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة. إذا تقاطعت طرقنا ثانية، كنتُ على يقين من أنه سيطعنني بدل أن يعانقني.

إن ما جعل تلك الغصة تعود إلى حلقي هو حقيقة أنه وثق بي. حتّى أنه أعطاني رقم هاتفه، الذي كنتُ أعرف من مشاهدتي لعدد لا يُحصى من الأفلام أنه يتيح تتبّع مالكة والعثور على موقعه. لا بُدّ من أنه أراد حقاً البقاء على اتصال بي ما دام مستعدّاً لتحمل هذه المخاطرة.

كنتُ متأكدة، بما لا يقبل الشك، أن ذلك الشخص الوضع جاي كان جزءاً من اللعبة. من المُحتمل أن يكون قد تعرّف إلى إيس وتبعه إلى القصر، ثم أعطى پو رشوة للحصول على الصور كدليل. لم يكن لديّ أدنى شكّ في أنه باع الصورة ومكان وجود إيس لمن يدفع أكثر، وأنه الآن يحتفل بما قبضه من ثمن يضمن له بيرته السينغا طوال الخمسين عاماً المقبلة.

لم يكن ذلك هو المهم الآن، لأن إيس لن يصدّق أبداً أنني لستُ الشخص الذي وشى به وكشف مخابئه، ولو كنتُ مكانه لحدوثُ حذوه. خصوصاً، أنني تعمّدتُ ألا أخبره بأن جاي تعرّف عليه، ولو عن حسن نية، حتّى لا يقلق. قد تبدو وكأنها مجموعة من الأعذار المثيرة للشفقة. أمّا الآن، فلم أكن أستطيع الاتصال به في أيّ

حال، وأراهن بحياتي إن لم تكن بطاقة الـ SIM التي يستخدمها تسبح الآن مع الأسماك على شاطئ فرا نانغ.

وبُخْتُ نفسي يائسة: «أوه يا سي! لقد أفسدت كل شيء كعادتك. أنتِ عديمة الفائدة حقًا!».

أريد أن أعود إلى الوطن...

قال صوت من خلفي: «طاب يومك، كيف حالك؟».

التفتُ ورأيت موظفة مكتب المعلومات السياحية تقف خلفي. «لا بأس».

سألتنِي: «هل تنتظرين أحدًا؟».

«لا، لا أعرف أحدًا هنا. حتّى الآن».

«في هذه الحالة، هل يزعجك أن أنضمّ إليك؟».

قلت: «بالطبع لا». اعتقدتُ أنه سيكون من الوقاحة قول خلاف ذلك، حتّى لو

لم أكن في مزاج مناسب للحديث.

قُطِبْتُ حاجبيها وسألت: «هل سبحتِ لتوّكِ؟ شعركِ مبلّل».

قلت وأنا ألمس شعري بعصبية متسائلة إن كان يلتصق ببعضه ببعض: «نعم».

«اللعنة! ألم يحذركِ أحد من قناديل البحر؟ إنها وحشية في هذا الوقت من

العام، فنحن هنا لا ننزل إلى البحر حتّى آذار، بعد أن يصبح الساحل خاليًا. لقد

حالفك الحظ إذًا. لدغة واحدة من إيروكاندجي كفيلة بأن تقتلك».

«شكرًا للمعلومة. هل هناك أيّ أشياء أخرى خطيرة ينبغي أن أعرفها؟».

«إذا استثنينا التماسيح في الجداول والثعابين السامة التي تجول في هذا

الوقت من العام، لا. إذًا، هل تمكّنتِ من الاتصال بأصدقائك؟».

«هل تقصدين أقاربي؟ لا، ليس بعد. أقصد، لا أعتقد أن لديّ أقارب أحياء هنا.

أنا أبحث عن تاريخ عائلتي، وبروم هي المكان الذي قيل لي أن أبدأ فيه».

لم أتذكّر اسم الفتاة لكنها رمقتني بعينيها العنبريتين الجميلتين وقالت: «نعم،

هذا مُحتمَل. لديك كلّ السمات المميّزة لتكوني من هنا».

«حقاً؟».

«نعم. شعرك ولون بشرتك وعيناك... أراهن أنني أستطيع أن أخبرك من أين أتت هذه السمات.

- حقاً؟ من أين؟

«أعتقد أن لديك مزيجاً من دماء السكان الأصليين والبيض، وربما جاءت هاتان العينان من جابتاون، مثل عيني.»

ثم أشارت بشكل مشوش إلى الداخل وتابعت: «كانت بروم تتعامل مع اليابانيين منذ بضعة أجيال، وفي الجوار كثير من الأطفال المختلطين مثلنا.»

سألتها: «أنت جزء من السكان الأصليين؟» وكنت أتمنى الآن لو أنني قضيت بعض الوقت لإجراء مزيد من الأبحاث حول أستراليا، لأنني كنت أبدو حمقاء حقاً. على الأقل تذكرت اسمها فجأة. كان كريسي.

«لديّ أجداد من السكان الأصليين. إنهم ياورو؛ قبيلة السكان الأصليين الرئيسية في هذه المنطقة من الغابة. أعتقد أن سي سي هو اسمك المختصر، ما اسمك؟ - سيلينو. أعلم أنه اسم غريب.

«اسم جميل!». حان دور كريسي لتبدو مندهشة.

«حقاً؟».

«نعم، بالطبع هو كذلك! لقد أطلق عليك اسم إحدى الشقيقات السبع؛ الغومانيا. إنهن كالألهة في ثقافتنا.»

أصبْتُ بالكم. لم يعرف أحد من أين جاء اسمي.

قالت: «أنت حقاً لا تعرفين الكثير عن أسلافك، أليس كذلك؟»

«لا. لا شيء.»

ثم شعرت بالوقاحة والغباء لجهلي بثقافتها، فأضفتُ: «لكنني حقاً أرغب في معرفة مزيد.»

«جدتي هي الخبيرة الحقيقية في هذه الأشياء. سيسرّها أن تروي لك قصصها

عن زمن الحلم، تلك الأشياء التي توارثتها الأجيال. اتّصلي بي في أيّ وقت وسأصحبكِ لمقابلتها.

«نعم، سيكون ذلك رائعًا».

ألقيتُ نظرة خاطفة على الشاطئ. بات المطر الآن ذكرى، وحلّت محله شمس ذهبية أرجوانية تغرق مسرعة في الأفق. لفت انتباهي رجل وجمل يجولان على طول الشاطئ أمام الحانة. كذلك كريسي التي حولت نظرها إليهما، ولوحت للرجل بحماس. قالت: «هذا صديقي أولي، يعمل في شركة تنظّم رحلات سياحية على ظهور الجمال».

جاء أولي إلى المقهى ليلقي التحية، تاركًا جملة المطيع ينتظر على الشاطئ. كان داكن البشرة، وسيماً، طويل القامة، وكان عليه أن ينحني ليعانق كريسي. جلست محرّجة بينما راحا يتبادلان الحديث، ليس بالإنجليزية، ولكن بلغة لم أسمع بها من قبل.

«أولي، هذه سيّسي، إنها زيارتها الأولى إلى بروم».

صافحني بيده القاسية وقال: «طاب يومك، هل سبق لك أن ركبّت جملاً؟» «لا».

«هل ترغبين في ذلك الآن؟ كنت آخذ غوبي في نزهة لأعلّمه حسن السلوك. إنه جديد ومتوحش، لذلك لم نربطه مع الآخرين بعد. لكنني متأكد من أنكما تستطيعان إبقاؤه تحت السيطرة. وغمرنا».

قلت وأنا أشعر بالقلق: «حقاً؟ ألا يزعجك ذلك؟»

قال بحرارة: «لا بالتأكيد، كلّ أصدقاء كريسي هم أصدقاؤني».

تبعنا أولي إلى مكان الجمل غوبي الذي أدار رأسه مثل طفل صغير مدلّ عندما أمره أولي بالركوع. وبعد المرة الألف، وافق غوبي أخيراً.

همست لكريسي بينما كنا نتسلّق ظهره: «هل فعلتِ هذا من قبل؟». كانت الرائحة الكريهة المنبعثة منه طاغية.

همست، ودغدغت أنفاسها أذني: «نعم. استعدّي لرحلة عسيرة».

مترنّحًا، نهض غوبي فجأة، وشعرت بإحدى يدي كريسي تقترب من خصري لتثبتني بينما كنا مدفوعتين إلى السماء. كانت الشمس قد بدأت تنحدر نحو المحيط، وألقى جسد الجمل ظلًا طويلًا على الرمال الذهبية. كانت ساقاه هزيلتين، كما لو كانتا من لوحة لسلفادور دالي.

«هل أنت بخير؟».

أجبتُ: «نعم، أنا بخير».

من المؤكد أن الرحلة لم تكن سلسلة، كما بدا أن غوبي كان يبذل قصارى جهده للهرب. وبينما كنا نهتز ونترجّح فوق الرمال، صرخنا نحن الاثنتين بينما راح غوبي يعدو خببًا، وأدركت مدى السرعة التي يمكن أن تعدو بها الجمال.

صاح أولي وهو يجري لمواكبة السرعة: «عُد، أيها المخبول!» لكن غوبي لم يكثرث. في نهاية المطاف، تمكن أولي من إبطاء سرعة الجمل، ووضعت كريسي ذقنها على كتفي، وهي تلهث متنفسًا الصعداء.

بعد ذلك، وبينما كان الجمل يسير بهدوء على الشاطئ قالت: «اللعنة! لقد كانت رحلة رائعة!»

كانت شمس الغروب تضيء السماء بألوان وردية وبنفسجية وحمرة عميقة تنعكس بشكل مثالي على صفحة المحيط، وكانت السحب مثل برك من الزيت، فشعرت كما لو كنت أنزلق داخل لوحة فنية.

أعادنا غوبي إلى حانة سانسييت، حيث ألقى بنا على الرمال بطريقة غير لائقة. لوّحنا وداعًا لأولي، ثم صعدنا درجات الشرفة.

قالت كريسي وهي تتهالك على كرسي: «أعتقد أننا بحاجة إلى شراب بارد بعد كلّ هذه الإثارة. ماذا تشربين؟». طلبنا عصير برتقال وجلسنا لتتعافى من آثار الرحلة.

سألتُ: «كيف ستجدين عائلتكِ إذًا؟ هل لديكِ أيّ أدلة؟»

قلتُ وأنا أعبث بقشيتي: «دليل أو اثنان، ولا أعرف حقًا ماذا أفعل بهما. بصرف النظر عن اسم المرأة التي قادتني إلى هنا، لديّ صورة بالأبيض والأسود لرجلين - أحدهما كبير في السن والآخر أصغر سنًا - ولكن ليس لديّ أيّ فكرة عن هويتهما، أو عن صلتهم بي».

«هل أريتِ الصورة لأي شخص هنا؟ ربما يتعرّف عليهما أحدهم».

«لا. سأذهب إلى المتحف غدًا. أعتقد أنني قد أحصل على بعض الإجابات هناك».

«هل تمانعين في أن ألقي نظرة؟ إذا كانا من هذه الأرجاء، فربما أعرفهما».

«ولمّ لا؟ لكن الصورة بقيت في الفندق».

«لا بأس. سأوصلك، ثم يمكننا أن نلقي نظرة معًا».

خرجنا إلى الشارع، حيث جلب الغسق معه أصوات آلاف الحشرات التي راحت تطن في الهواء، لتكون فرائس تتخاطفها الخفافيش. رأيت ظلًا يعبر الشارع المقفر، واعتقدت في البداية أنه قطعة، لكن عندما تجمّد في مكانه وحدّق إلى وجهي، شاهدت عينين كبيرتين واسعتين وخطمًا مدببًا وردي اللون.

قالت كريسي: «هذا حيوان أوبوسوم يا سي. يوجد منه كثير في الجوار. لقد تعودت جدتي أن تضعه في قدر وتطبخه على العشاء».

قلت: «أوه!» بينما كنت أتبعها عبر موقف السيارات إلى دراجة نارية بالية وصدئة.

سألت: «هل تخافين ركوب الدراجة؟»

أجبتُ مازحة: «بعد ركوب الجمال، يبدو ركوب الدراجة وكأنه الجنة».

«اقفزي على متنها إذًا».

أعطتني خوذة قديمة، فاعتمرتها قبل أن أُلّف يديّ حول خصرها وانطلقنا. كان النسيم يداعب وجهي، وأراحني ذلك في هذه الأمسية الرطبة، حيث ما من نسمة واحدة تحرّك الهواء الثقيل.

أوقفت كريسي دراجتها أمام الفندق، وهرعتُ إلى الداخل لإحضار الصورة. عندما عدتُ إلى مكتب الاستقبال، كانت كريسي تتحدث مع المرأة خلف المنضدة. قلتُ: «ها هي»، ولوّحتُ بها في وجهها.

جلسنا على الأريكة الجلدية اللزجة في الصالة الصغيرة قريبًا من مكتب الاستقبال، وأحنت كريسي رأسها لدراسة الصورة.

قلتُ: «إنها صورة سيئة حقًا، لأن الشمس خلفهما مباشرة وهي باللونين الأبيض والأسود».

تساءلتُ كريسي: «هل تقصدين أنك لا تستطيعين معرفة لون الشخصين الموجودين فيها؟ أود أن أقول إن الرجل الأكبر سنًا أسود، وبشرة الصبي فاتحة». وضعتُ الصورة تحت ضوء المصباح وتابعت: «أعتقد أنها التُقطت في الأربعينيات أو الخمسينيات من القرن الماضي. هناك كتابة على جانب الشاحنة الصغيرة خلفهما. انظري، هل ترينها؟». وأعادت لي الصورة.

«نعم، يبدو أنه كُتب عليها جيرا JIRA».

أشارت كريسي إلى الشخص الأطول الذي يقف أمام السيارة وهتفت: «يا إلهي، أعتقد أنني أعرف هذا الرجل».

خيمت برهة صمت، هي تحدّق إلى وجهي بإثارة، وأنا أحدّق إلى وجهها بنظرة خاوية.

«من؟».

«ألبرت ناماتجيرا، الفنان وأشهر رجل من السكان الأصليين في أستراليا. لقد وُلد وعمل في إرسالية هيرمانسبورغ، على بعد ساعتين من أليس سبرينغز. هل تعتقدين أنه أحد أقاربك؟».

سَرَتُ في رعدة مفاجئة، وقلتُ: «كيف لي أن أعرف؟ هل مات؟».

«نعم، لقد توفي منذ فترة طويلة، في أواخر الخمسينيات. وكان أول رجل من السكان الأصليين الذين يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بها البيض. كان له حق

امتلاك الأرض، والتصويت، وشرب الكحول، حتى أنه التقى بملكة إنجلترا. كان رسامًا رائعًا، ولديّ نسخة عن لوحته جبل هيرمانسبورغ على جدار غرفة نومي».

من الواضح أن كريسي كانت من محبي هذا الرجل.

«إذًا، قبل ذلك الحين، لم يكن يتمتع السكان الأصليون بهذه الحقوق؟».

أوضحت: «لا، ليس قبل أواخر الستينيات. لكن ناماتجيرا حصل على حقوقه مبكرًا بسبب موهبته الفنية. يا له من رجل. حتى لو لم يكن قريبك، فهذا دليل كبير على المكان الذي أتيت منه. كم تبلغين من العمر؟».

«سبعة وعشرون عامًا».

قامت كريسي ببعض العمليات الحسابية الذهنية، ثم قالت مبتهجة: «هذا يعني أنك وُلدت عام 1980، قد يكون جدك! هل تعرفين ماذا يعني ذلك؟ عليك أن تذهبي إلى أليس سبرينغز. سيسي! لا أصدق أنه هو الذي في الصورة!».

أخذتني كريسي بين ذراعيها وضغطت عليّ بقوة.

ابتلعتُ ريقِي وقلتُ: «حسنًا، كنت أخطط للتوجّه إلى أديلايد للتحديث إلى المحامي الذي تكفل بإجراءات الإرث الذي تركه لي والدي. أين تقع أليس سبرينغز؟».

«في وسط البلاد، وهو مكان نسميه الـ «أبدًا، أبدًا». لطالما أردت الذهاب إلى هناك فهو قريب من أولورو». عندما رأت تعابير الاستغراب على وجهي، أدارت عينيها وقالت: «بالنسبة إليك، يُدعى آيرز روك أيتها الحمقاء».

«إذًا ما هو نوع الأشياء التي رسمها هذا الرجل؟».

«لقد أحدث ثورة كاملة في فن السكان الأصليين. رسم هذه المناظر الطبيعية المذهلة بالألوان المائية، وأنشأ مدرسة جديدة للرسم. يتطلب الرسم بالألوان المائية مهارة عالية، لا مجرد بقع طلاء على القماش. لقد أعطى مناظره الطبيعية بريقًا خاصًا، وكان يعرف حقًا كيفية وضع الألوان في طبقات بحيث يتلاعب بالضوء بشكل صحيح».

«رائع. كيف تعرفين كل هذا؟».

قالت كريسي: «لطالما أحببتُ الفن. لقد درستُ الثقافة الأسترالية كجزء من شهادتي في السياحة، وقضيتُ فصلًا دراسيًا في الجامعة لدراسة فناني السكان الأصليين».

لم أكن مستعدة للاعتراف بأنني درست الفن في الكلية أيضًا، لكنني تركت الدراسة.

سألتها بفضول لأعرف مزيدًا: «هل رسم هذا الرجل أشياء أخرى، مثل الصور الشخصية؟».

«الصور الشخصية معقدة في ثقافتنا. إنها من المحرمات الكبرى لأنها تركز جوهر شخص ما؛ قد يحزن ذلك الأرواح، لأنها أدت مهمتها هنا وتريد أن تُترك بسلام. عندما يموت أحدها، لا يجوز حتى أن نلفظ اسمه».

«حقًا؟». وفكرت في عدد المرات التي ذكرنا فيها أنا وستار يا سولت منذ وفاته. «أليس من الجيد أن نتذكر من نحبهم ونفتقدهم؟».

«بالطبع، لكن ذكر أسمائهم يناديهم، وهم سعداء بمساعدتنا من حيث هم». أومأت برأسي محاولةً استيعاب كل شيء، لكنه كان يومًا طويلًا ولم أستطع إخفاء تثاؤبي.

مازحتني قائلة: «أنا مملّة، أليس كذلك؟»

«آسفة، أنا متعبة جدًا من السفر».

«لا تقلقي، سأدعك تنامين». ثم نهضت وقالت: «أوه، اتصلي بي غدًا إذا كنتِ مستعدة لمقابلة جدتي».

«سأفعل. شكرًا يا كريسي».

خرجتُ من الفندق وهي تلوح لي، وصعدتُ الدرج. كنت من الإنهاك بحيث لم أستطع استيعاب ما اكتشفته لتوي، لكن حقيقة أن الرجل الموجود في الصورة كان فنانًا، مثلي تمامًا، جعلتني أشعر بقشعريرة من الإثارة.

في صباح اليوم التالي، وللغربة، استيقظت باكراً جداً. ربما لأنني رأيتُ حلمًا حقيقياً إلى الحد الذي جعلني أبذل قصارى جهدي لكي أعود إلى الواقع.

كنتُ فتاة صغيرة تجلس على ركبة امرأة كبيرة في السن، عارية الصدر لسبب لم أدركه. قادتني من يدي إلى صحراء حمراء، فيها نبتة تحتها عش للحشرات. أشارت إليها وقالت إن وظيفتي هي الاعتناء بها. كنتُ متأكدة تمامًا من أنها تحدّثت عن العسل، لكن الغريب حقًا، هو أنه على الرغم من كراهيتي لأي شيء كثير الأرجل، فقد أمسكتُ إحدى تلك الحشرات كما لو كانت حيوانًا أليفًا. نقرتُ عليها بأصابعي الصغيرة بينما كانت تدبّ على راحة يدي. حتّى أنني شعرتُ بدغدغة أرجلها. مهما تكن، كنتُ أعرف أنها صديقة، وليست عدوة.

تحمّستُ بسبب ما علمته أمس، فالتقطتُ هاتف الفندق وطلبتُ رقم مكتب المحامي في أديلايد. حتّى لو لم أذهب إليه، رأيتُ أنه من الأفضل أن أحصل على بعض الإجابات. بعد رنات عدّة، جاء صوت أنثوي واضح على الخط.

«أنغوس وتاين، كيف يمكنني أن أساعدك؟».

«مرحبًا، هل يمكنني التحدّث إلى السيد أنغوس جونيور، من فضلك؟».

قالت المرأة: «لقد تقاعد منذ بضعة أشهر، بحسب ما أعتقد، لكن تاليثا مايرز أخذت مكانه. هل أحدد لك موعدًا؟».

- أنا في بروم، وأردتُ أن أطرح بعض الأسئلة السريعة. هل ينبغي أن أتصل ثانية عندما تكون متفرّغة أم...».

«انتظري من فضلك».

قال صوت مختلف: «معكِ تاليثا مايرز، كيف يمكنني أن أساعدكِ؟»

«مرحبًا، لقد تلقَّيتُ ميراثًا في العام الماضي، وكان السيد أنغوس قد أرسله إلى محامي والدي في سويسرا. اسمي سيلينو دابلييز».

«عظيم. هل تعرفين التاريخ الدقيق الذي أرسل فيه الميراث إلى محامي والدك؟».

«كان ذلك في حزيران من العام الماضي، عندما توفِّي والدي، لكنني لست متأكدة متى استلمه محاميه بالفعل».

«ما اسم المحامي؟».

«هوفمان وشركاه في جنيف».

«صحيح، ها هو... إذا ما هو المطلوب مني؟».

«أحاول تتبع جذور عائلتي وكنت آمل أن يكون لديك وثيقة تبين ممَّن كان الميراث؟».

«دعيني ألقِ نظرة على الملاحظات الموجودة على الكمبيوتر، ولكن للأسف لن تعلمني بالكثير، فقد كان السيد أنغوس يفضل تدوين كل شيء، كما يفعل كل الأشخاص المسنين... لا، لا شيء. انتظري، سأتحقق فقط ممَّا إذا كان هناك أي شيء مكتوب في السجلات». سمعت قعقعة، ثم صوت تقليب صفحات.

«ها هو. إذا... مما استطعت العثور عليه أنه ينبغي العودة إلى ملاحظات كانون الثاني 1964، الحساب الذي فتحته الراحلة كاثرين ميرسر».

كاثرين، كيتي... كدت أسقط الهاتف من وقع الصدمة. «كيتي ميرسر؟».

«هل تعرفينها؟».

تمتمت: «قليلاً. هل لديك أي فكرة باسم من فتحت الحساب؟».

«أخشى ألا تفيدني هذه الملاحظات، لكن يمكنني النزول إلى صالة الأرشيف لإلقاء نظرة على سجل العام 1964. هل تريدين أن أتصل بك عندما أحصل على المعلومات اللازمة؟».

«سيكون ذلك رائعًا، شكرًا».

أعطيتها رقم هاتفي، ثم أنهيتُ المكالمة، وقلبي يخفق بشدة. هل كانت هناك صلة ما تربطني بكيتي؟

غادرتُ الفندق ومشيتُ عائدةً إلى مقهى الإنترنت، وأنا أرغب في صرف بعض الوقت بالبحث عن ألبرت ناماتجيرا. توقفتُ أمام بائع جرائد عندما رأيتُ وجهًا مألوفًا على الصفحة الأولى من جريدة الأستراليان.

«تشانغروك يسلم نفسه ويعود إلى الوطن»

شهقت عندما نظرت إلى الصورة عن كثب: «تَبًّا!» كان إيس عند سلم الطائرة مقيد اليدين، ويحيط به عدد كبير من الرجال الذين يرتدون الزي العسكري.

اشتريتُ الصحيفة، وأدركتُ أن الأمر سيستغرق وقتًا طويلاً لفك شيفرة ما يقوله المقطع تحت الصورة، والتتمة في الصفحة الرابعة. عدتُ إلى الفندق، لأن البقاء في مقهى الإنترنت لم يكن مجدياً. كان عقلي غير قادر على القيام بمهام متعددة عندما أكون في أفضل حال، فما بالك في هذه الظروف؟ كان التقصّي عن ألبرت ناماتجيرا مستحيلًا.

عندما عدتُ إلى غرفتي في الطابق العلوي، أدركتُ مدى اعتمادي على ستار في ترجمة الصحف ورسائل البريد الإلكتروني والكتب. وعلى الرغم من أنها كتبت لي رسائل نصية متعددة خلال الليل للتأكد من أنني بخير، كنت أعرف أنها ستكون سعيدة بمساعدتي، لكنني هذه المرة، قرّرتُ أن من المهم أن أثبت لنفسي أنني أستطيع تدبّر الأمور بمفردي. لذا، جلست متربّعةً على سريرتي وبذلتُ قصارى جهدي في فك شيفرة ما قالته الصحيفة عن إيس.

أناند تشانغروك، التاجر المارق الذي حطّم بنك بيرنرز الاستثماري في تشرين الثاني الماضي، عاد اليوم من مخبئه في تايلاند وسلم نفسه في مطار هيثرو. رفض تشانغروك الإدلاء بأي تصريح أثناء اقتياده مخفورًا برجال الشرطة. بيع بنك بيرنرز، أحد أقدم البنوك في المملكة المتحدة، مؤخرًا بمبلغ رمزي، قيمته جنيه إسترليني واحد، لبنك الاستثمار الصيني جينكيان.

ومع أنباء اعتقال تشانغروك، حاصرت حشود من المستثمرين الغاضبين مدخل البنك في شارع ستراند في لندن احتجاجًا على ضياع أموالهم. استثمرت رواتب كثير منهم في صناديق يديرها بيرنرز وفقدوا مدخراتهم. رفض ديفيد روتر، الرئيس التنفيذي لشركة بيرنرز، التعليق على قيمة التعويضات التي ستُقدّم للمستثمرين، لكن مجلس الإدارة أعلن أنه يجري تحقيقًا كاملاً حول الأسباب التي أدت إلى تدهور الوضع من دون أن يلاحظ أحد أي شيء.

وفي الوقت نفسه، حُبس تشانغروك في سجن وورمود سكرابس وسيمثل أمام المحكمة يوم الثلاثاء المقبل بتهمةَي الاحتيال وتزوير المستندات. وتقول المصادر إنه من غير المرجح أن يحصل على كفالة.

إدًا، كان إيس مُحْتَجَزًا في زنزانة بأحد سجون لندن. عضضْتُ شفتي بحنق، واعتقدت بأنني لو لم أطلب من پو التقاط تلك الصورة، فربما كان ليلحق بي إلى أستراليا لنجوب المناطق النائية معًا مثل اثنين خارجين عن القانون. ربما كان عليّ أن أزوره في السجن، وأشرح له الحقيقة بنفسِي... لكنه لم يكن يستطيع الهرب، بالنظر إلى مكان وجوده. مع ذلك، سيكون الطريق طويلًا إذا رفض رؤيتي.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، ومن المفترض أن يكون متحف بروم التاريخي مفتوحًا.

انطلقت وفي يدي خريطة بروم السياحية. وبينما كنتُ أسير في الشارع العريض، ألقىْتُ نظرة على واجهات المتاجر ورأيتُ أطباقًا مليئة باللؤلؤ الأبيض، والأسود، والوردي، منظومة على شكل عقود، أو أقراط رقيقة.

على يساري، خلف شريط من أشجار المانغروف الكثيفة، كان المحيط الشاسع يلامس بنعومة السماء في الأفق. وفي نهاية المطاف، وجدتُ المتحف التاريخي. بدا شبيهًا بكثير من مباني بروم: طابق واحد بسقف مموج وشرفة تمتد على طول الواجهة. ما إن دخلتُ حتَّى شعرتُ على الفور بأنني كنتُ الزائرة الوحيدة. كانت امرأة تجلس خلف مكتب أمام جهاز كمبيوتر. رفعت وجهها المنمَّش وابتسمت لي.

رحتُ أجول، وبدأ أن كلَّ شيء كان يرتبط بصناعة اللؤلؤ. كان هناك كثير من نماذج القوارب التقليدية المصغرة، مرفقة بصور بالأبيض والأسود لأشخاص يبحرون عليها. ركزتُ عينيَّ على اللوحات الوصفية المكتوبة بأحرف صغيرة، وتوجَّهْتُ إلى ركن يحتوي على معدات قديمة المظهر. كانت هناك بدلة أخرى مماثلة لتلك التي كان يرتديها رائد الفضاء البرونزي، وكانت الثقوب المستديرة في الخوذة المعدنية تحدد إليَّ مثل عينين خاويتين. نظرتُ إلى البطاقة الموجودة أسفلها، وأدركتُ أخيرًا أنها بدلة غوص تعود إلى زمن سحيق. لم يكن النيوبرين قد اخترع بعد.

في واجهة العرض التالية، كانت اللآلئ تترقد على وسائد مخملية حمراء في صناديق خشبية صغيرة. بدا كثير منها مشوَّهاً، مثل دموع متألَّثة سقطت لتوها على الأرض وتناثرت. لم أكن مولعة بالمجوهرات، لكن ثمة شيء في هذه الأجرام السماوية الحليبية كان يغري بالاقتراب منه ولمسه.

«هل يمكنني أن أساعدكِ؟».

جفلتُ ثانية كما لو كنتُ مذنبه، على الرغم من أنني لم أرتكب أيَّ خطأ.

«كنتُ أتساءل فقط إذا كنتِ قد سمعتِ من قبل عن امرأة تدعى كيتي ميرسر؟».

«كيتي ميرسر؟ بالطبع يا عزيزتي. ما من مواطن في بروم لا يعرفها. إنها واحدة من أشهر الأشخاص الذين عاشوا هنا قاطبة».

قلتُ: «أوه، هذا جيّد إذًا. هل لديك أيّ معلومات عنها؟».

«بالتأكيد يا عزيزتي. هل تحضّرين مشروعًا مدرسيًا أو أيَّ شيء من هذا القبيل؟».

شعرت بالإهانة من سوء تقديرها لسنيّ فأجبت من فوري: «جامعي، في الواقع».

«تعرّفت إلى كثير من الطالبات اللاتي يأتين إلى هنا في إطار أبحاثهن عن كيتي ميرسر. لقد كانت إحدى أعظم النساء الرائدات في أستراليا. فبشكل أو بآخر، كانت تدير هذه المدينة في أوائل القرن العشرين. هناك سيرة ذاتية لها على الرف،

وقد كتبها مؤرّخ محليّ منذ فترة. قرأتها واكتشفتُ عنها أشياء كثيرة لم أكن أعرفها. أدعوك إلى قراءتها».

عندما رأيت السيرة الذاتية التي اشتراها لي إيس قلت: «أعتقد أنني قرأتها». هل هو مصدر المعلومات الوحيد عن كيتي؟ كنتُ أمل أن أجد عنها فيلمًا وثائقيًا تلفزيونيًا أستطيع مشاهدته، لأن إنهاء الكتاب سيستغرق مني سنوات. وقع بصري على طاولة بجانب الرف، تعرض مجموعة صغيرة من الكتب الصوتية، وتعرّفت على غلاف أحدها.

«هل يروي هذا السي دي سيرتها الذاتية؟».

«نعم».

قلتُ وأنا أتنفّس الصعداء: «رائع، شكرًا، سأشتريه».

«تسعة وعشرون دولارًا يا عزيزتي. أنتِ لستِ من هنا، أليس كذلك؟».

«لا، لستُ من هنا».

أعطيتها ثلاث أوراق نقدية من فئة العشرة دولارات.

سألتُ: «هل جئتِ للاستعلام عن تاريخك؟».

«نعم، بالإضافة إلى بحثي الجامعي».

«حسنًا، لأي مساعدة أخرى تحتاجين إليها، ما عليكِ سوى أن تعلميني».

«سأفعل. إلى اللقاء».

«إلى اللقاء يا عزيزتي. يسعدني رؤية إحداكن تصل إلى الجامعة».

كنتُ سعيدة بمغادرة المتحف، إذ لم تُزقني الطريقة التي كانت المرأة تنظر إليّ بها، مزيج من الضيق والتعاطف. حاولت أن أطرّد ذلك من ذهني عندما ذهبتُ إلى أحد متاجر التخفيضات التي رأيتها في الطريق وتمكّنتُ من شراء مشغل سي دي وزوج من السماعات الرخيصة، حيث كنتُ متأكّدة من أن نزلاء الفندق لن يسرّهم سماع سيرة كيتي ميرسر الذاتية لساعات.

تناولتُ بيرغر أخرى من المقهى، وفي أثناء عودتي إلى الفندق، لاحظتُ عددًا

قليلاً من الأولاد ذوي البشرة السوداء يجلسون القرفصاء على العشب. في الواقع، كان أحدهم مستلقياً وبدا نائماً. أوماً لي واحد كان مستيقظاً، وكان آخر يشرب من زجاجة بيرة.

رأيتُ امرأة تقوم بدورة كبيرة لتتجنبهم، وكأنهم سيهاجمونها في وضح النهار. بدوا لي مسالمين، مجرّد مجموعة من الشباب مثل غيرهم، تجدهم في أيّ زاوية شارع من شوارع المدينة، أو البلدة، أو القرية.

عندما وصلتُ إلى غرفتي في الفندق رنّ هاتفي، كانت «ما». شعرت بالذنب لأنني لم أرد على رسائلها، فالتقطتُ هاتفي.
«مرحباً».

خيم صمت طويل، ربّما لأن الاتصال لم يكن واضحاً من سويسرا. «سيسي؟»
«نعم. مرحباً يا ما».

«كيف حالك يا حبيبتي؟»
«جيدة. حسناً، بخير على أيّ حال».
«أخبرتني ستار أنك في أستراليا».
«نعم. هذا صحيح».

«هل غادرتِ تايلاند؟»
«نعم».

صمتُ آخر جاء من ما هذه المرة بلا شك، وليس من سوء التغطية. كنتُ قادرة على سماع طنين دماغها وهي تفكّر وتتساءل ما إذا كانت ستستفسر عن إيس أم لا. أخيراً قالت: «وأنتِ، هل أنتِ بخير؟»

قلتُ متسائلة متى ستقرّر استجابتي: «أنا بخير يا ما».
«أنتِ تعلمين يا حبيبتي أنني حاضرة إذا احتجتِ إليّ في أيّ وقت».
«شكراً».

«إلى متى ستبقين في أستراليا؟».

«للأمانة، لا أعرف».

«حسنًا، يسعدني أن أسمع صوتك».

قلتُ: «وأنا أيضًا».

«إذًا، وداعًا».

من الواضح أنها لم تكن تجرؤ على إثارة الموضوع، وكنت أعلم أن عليّ أن أفعل ذلك بنفسني. «ما!».

«نعم يا حبيبتي؟».

«هل تعتقدين أن يا كان ليغضب بسبب تلك الصورة؟».

«لا. أنا على يقين من أنك لم ترتكبي أيّ خطأ».

«لم أكن... لم أكن أعرف حقًا من هو إيس ولا ما فعله. هل اتّصل بكِ أحد؟ أقصد الصحفيين».

«لا. لكنني لن أقول شيئًا، حتّى لو اتصلوا».

«أعرف أنك لن تفعلي ذلك. شكرًا يا ما. طابت ليلتك».

«طابت ليلتك يا حبيبتي».

أنهيت المكالمة وأنا أفكر كم أحب هذه المرأة.

حتّى لو تُوجت رحلتي إلى أستراليا بمعرفة من كانت والدتي الحقيقية، لم أستطع أن أتخيّل شخصًا ألطف من ما، ولا بمثل دعمها وتفهمها. لقد أحبّتنا نحن الفتيات من كلّ قلبها، وهو ما لم تفعله أُمّي الحقيقية، التي لو لم يكن يا قد انتزعني من بين ذراعيها عنوة، لتخلّت عني. لا بُدّ من وجود تفسير لذلك. ربما كانت مريضة، أو فقيرة، واعتقدت أنني سأعيش حياة أفضل في كنف يا سولت.

لكن... ألا ينبغي أن يكون الرابط بين الأم والطفل أقوى من كلّ هذه الأشياء؟ جلستُ مرة أخرى على السرير، وتساءلتُ إن كنتُ أرغب في متابعة هذه الرحلة الغريبة للعثور على أشخاص تخلّوا عني. فربما لم يكونوا يريدون عودتي. مع ذلك، يبدو أن مايا، وآلي، وستار قد وجدوا حياة جديدة أكثر سعادة لأنهن تتبّعن آثارهنّ...

رَنّ هاتفي ثانية وكانت كريسي. عندما أُجِبْتُ، تساءلْتُ كيف كانت حاضرة دائماً عندما أكون ضحية الشعور بالإحباط.

«مرحبًا يا سيسي؟ هل ذهبتِ إلى المتحف اليوم؟».

«نعم».

«هل اكتشفتِ أيَّ شيء؟».

«قليل جدًا، لكنني لستُ متأكدة من علاقتي به، حتّى الآن».

«هل ترغبين في أن نلتقي لاحقًا؟ لقد حدّثُ جدّتي عنكِ وأبدت رغبتها في التعرف إليك».

«بالتأكيد».

«ما رأيكِ في أن آتي إلى الفندق في الساعة الثالثة، وأصحبكِ لرؤيتها؟».

«يبدو هذا جيّدًا يا كريسي، ما دام لا يسبّب لك أيّ إزعاج».

«إلى اللقاء يا سيسي».

كنت أدسّ هاتفي في جيب سروالي عندما عاد يرَنّ من جديد، وكانت ستار. «مرحبًا».

بدأت لاهثة قليلًا. «هل أنتِ بخير؟».

«نعم بخير. وأنتِ؟».

«نعم. اسمعي يا سي، يجب أن أحذركِ. لقد تلقّيت مكالمة هاتفية من إحدى الصحف اليوم».

«ماذا؟».

«لا أعرف كيف حصلوا على رقمي، لكنهم سألونني إذا كنتُ أعرف مكانكِ. قلتُ إنني لا أعرف بالطبع».

تمتمتُ: «يا إلهي». شعرتُ فجأة بأنني مطاردة مثل إيس. «صدقيني يا سيأ، أنا حقًا، لا أعرف أيَّ شيء».

«أصدّقكِ يا حبيبتي، بالطبع أصدّقكِ. أردتُ فقط أن أخبركِ بأن لديهم اسمكِ الكامل. هل تعرفين كيف حصلوا عليه؟».

«أتذكرين جاي؟ ذاك الرجل الذي أُعجب بك عندما كنا في رايلي. إنه صحافي سابق، وأعتقد أنه هو الذي باع الصورة للصحف. إنه زميل جاك في فندق رايلي بيتش أوتيل ولديهم جميع التفاصيل الخاصّة بنا - أرقام الهواتف، العناوين، وكل شيء - منذ نزلنا في الفندق».

كانت صديقة جاك هي التي أخبرتني أن جاي تعرف إلى إيس. إنها موظفة الاستقبال هناك، ومن المحتمل أن يكون جاي رشاهها لإلقاء نظرة على السجّلات. سمعت ضحكة مكتومة مفاجئة على الطرف الآخر من الخط.

«ما الذي يضحكك؟»

«لا شيء. أقصد، يجب أن يكون هناك جانب مضحك في هذا كلّ، أليس كذلك؟ أنت وحدك القادرة على الظهور على الصفحة الأولى لكل صحف العالم مع أخطر الرجال المطلوبين في عالم البنوك من دون أن تعرفي حتّى من هو!». سمعتها تضحك ثانية، وفجأة عادت ستار القديمة التي أعرفها.

ضحكت: «نعم، أراهن أن إلكترا تموت من الغيرة!».

«ليس لديّ أدنى شك في ذلك. من المحتمل أن تكون على الهاتف مع موظفي العلاقات العامة الذين يعملون لديها. إذا كان صعبًا الحصول على صورة في الصفحة الأولى لصحيفة واحدة، فما بالك إذا كانت في كلّ الصحف. أوه سي...».

واصلت ستار الضحك، وانضمت إليها، لشدة ما كان الوضع برّمته مجنونًا وسخيفًا؛ حتّى أنني شعرت بوخز في خاصرتي من شدة الضحك.

في النهاية، هدأنا، وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن أتمكّن من استعادة القدرة على الكلام: «لقد أعجبنى حقًا. كان رجلًا لطيفًا جدًّا».

«أستطيع أن أرى ذلك في الصورة. كانت عيناك تقولان إنك سعيدة حقًا. بالمناسبة، أحبّ شعرك، وهذا القميص الذي كنت ترتدينه».

«شكرًا، ولكن لا يهّم بعد الآن، لأنه يكرهني. يعتقد أنني أخبرت وسائل الإعلام بمكان وجوده، لأن الصور أخذت بكاميرتي. طلبت من حارس الأمن أن يصنع منها

نسختين، واحدة لي، والأخرى تركتها لإيس قبل أن أغادر. لا بُدَّ من أنه ظنَّ أنني كنت أستفزّه أو أسخر منه...».

«أوه، هذا فظيع يا سي. لا شكَّ في أنكِ محطّمة».

«نعم، أنا كذلك، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟».

«قولي له الحقيقة».

«لن يصدّقني أبدًا. للأمانة يا سيّا، لم يكن على الإطلاق كما تصفه الصحف».

«هل تعتقدين أنه مذنب؟».

«ربما، لكنّ ثمة شيء غريب غير مفهوم».

«حسنًا، إذا كان ذلك يريحك، فإن ماوس مقتنع تمامًا ببراءته، وأنه مجرد كبش

محرقة. لا بُدَّ من أن شخصًا آخر في البنك كان على علم بما يحدث».

قلتُ: «صحيح»، وأنا لا أعرف ما إذا كنت سأشعر بالسعادة أم بالحزن لأن

صديقها «ماوس» كان يؤازرني، بالنظر إلى أنه أدّى دورًا أساسيًا في المشكلات التي

حدثت بيني وبين ستار.

«اسمعي، إذا كان هناك أي شيء يمكننا القيام به لمساعدتك، فأرجوك أن

تتّصلي».

أزعجني استخدامها لكلمة (يمكننا). «سأفعل».

«انتبهي لنفسكِ يا سي. أحبك».

«أحبك أيضًا. وداعًا».

أنهيتُ المكالمة وشعرتُ بتحسّن كبير لأننا ضحكنا كما في الأيام الخوالي،

والآن أشعر بالاكتمال لأن كلمة واحدة ذكّرتني بمدى التغيير. كان لدى ستار صديقها

«ماوس» الذي يحتضنها بذراعيه كلّ ليلة. كانت قد أنهت رحلتها إلى الماضي،

وبدأت حياة مستقبلية جديدة، بينما كنتُ ما أزال بعيدة كلّ البعد عن كليهما.



في الساعة الثالثة، وصلت كريسي إلى مكتب الاستقبال. على الرغم من الحرارة، كانت ترتدي سروال جينز باهت اللون وقميصًا ضيقًا، وتعقد حُصل شعرها المَجْعدة بعصبة حمراء اللون.

«مرحبًا سيسي، هل أنتِ جاهزة للانطلاق؟».

ركبت خلفها على الدراجة وانطلقنا. تعرّفتُ على المطار بينما كنا نسير على طريق موازٍ للمدرج ثم انعطفنا مرّات عدّة حتّى وصلنا إلى طريق ترابي على جانبيه أكواخ ذات سقوف من صفيح. لم تكن مدينة عشوائية، ولكن من الواضح أن سكانها لم يكونوا ميسوري الحال ليجمّلوا منازلهم.

«لقد وصلنا». أوقفت كريسي الدراجة وأبقتها ثابتة لتتيح لي أن أترجل. «أحدركِ من أن جدتي قد تبدو لكِ غريبة، لكنني أوّكد لكِ بأنها ليست مجنونة. هل أنتِ مستعدة؟».

«مستعدة».

قادتني كريسي إلى مكان يُفترض، من الناحية الفنية، أن يكون حديقة أمامية، لكنّه بدا أشبه بغرفة جلوس مفتوحة على السماء. كان يحتوي على أريكة بالية بنية اللون، وكراسٍ خشبية متنوّعة، وكرسي استلقاء عليه وسادة وملاءة، كما لو أن أحدهم قد نام عليه.

صاحت كريسي وهي تنظر إلى خلف الأريكة: «مرحبًا ميمي».

تبعتهَا، ورأيتُ امرأةً ضئيلة الحجم تجلس متربّعة على الأرض. كانت بشرتها بلون الشوكولاتة الداكنة، ومئات التجاعيد تحرّز وجهها. لم أرَ في حياتي كلّها أحدًا أكبر منها سنًّا، ومع ذلك، كانت تعقد حول جبهتها عصبة عصرية مثل حفيدتها تمامًا.

«ميمي، نغاجي مينغان؟ هذه هي سيلينو، الفتاة التي حدّثتكِ عنها».

نظرت المرأة العجوز إلَيّ وأدهشتني عيناها المشرقتان الصافيتان، كما لو أن فتاة صغيرة وُضعت عن طريق الخطأ داخل جلد امرأة عجوز. ذكّراني بحبتي بندق تسبحان في وعاء من الحليب الأبيض.

قالت: «ميجالا جويو».

لم يكن لديّ أدنى فكرة عما قالته لتوّها، وشعرتُ بالحرّج، فبقيتُ واقفةً إلى أن طبّطبت على الأرض ودعتني إلى الجلوس. جلسْتُ بجانبها حائرة، لأن الكراسي كانت فارغة.

سألتُ كريسي: «لماذا تجلس على الأرض؟».

«لأنها تريد أن تشعر بها تحتها».

شعرتُ بعيني المرأة العجوز مثبتتين عليّ كما لو كانت تسبر أعماق روحي. مدّت يدها وداعبت خدي، فأدهشتني نعومة راحتها. ثمّ سحبت إحدى خُصل شعري وابتسمت، فرأيت فجوة كبيرة بين أسنانها الأمامية.

بلغة إنجليزية ركيكة قالت: هل تعرفين قصة غومانيا التي تعود إلى زمن الحلم؟».

«لا».

أوضحت كريسي: «إنها تتحدّث عن الشقيقات السبع يا سيّسي. هكذا نسميها بلغتنا».

«أوه، هكذا إذًا. لقد روى لي والدي كلّ شيء عنها».

«إنهن الـ كانتريمن يا سيلينو».

ترجمت كريسي: «يعني أهلنا».

قالت المرأة العجوز: «لقد بدأ كلّ شيء في زمن الحلم».

«ما الذي بدأ؟».

تدخّلت كريسي: «قصة الشقيقات السبع التي سترويها لك الآن».

إذًا، فقد تولّت كريسي مهمّة الترجمة، واستمعت إلى قصة الشقيقات السبع.

كانت الشقيقات السبع قد نزلن من عليائهن في السماء وهبطن على تلة مرتفعة مفرّغة مثل مغارة. وكان هناك ممَرٌ سرّي يقود إلى داخلها، أيّ أنهن كنّ يستطعن التنقّل بين السماء والأرض من دون أن يراهن أحد. عندما كنّ معنا على

الأرض، كَنَّ يُقْمَنَ في المغارة. ذات يوم، خرجَ في رحلة صيد، ورآهن رجل عجوز، لكنهن كَنَّ منشغلات بصيدهنَّ ولم ينتبهنَّ لوجوده. قَرَّرَ أن يتبعهنَّ، لأنه كان يبحث عن امرأة شابة يتزوج بها. وبينما كَنَّ يرتحن بالقرب من غدير ماء، هاجمهنَّ واختطف شقيقتهن الأصغر سنًا. أُصْبِنَ بالذعر وجريئًا إلى الممرِّ السريِّ ليصعدنَّ إلى السماء، بعد أن تركنَّ شقيقتهنَّ الصغرى تتخبَّط محاولة الهرب من خاطفها. عندما سمعتُ ذلك، رأيتُ أنه كان من الخسة أن يتركنها وراءهنَّ.

على أيِّ حال، تمكَّنت الشقيقة الصغرى من الفرار وجرت عائدة إلى المغارة. مدركة أن شقيقاتها قد طرنَّ بعيدًا وأن الرجل العجوز ما يزال يطاردها، صعدت الممرِّ السريِّ وطارت خلف شقيقاتها. يبدو أن هذا هو سبب عدم إمكانية رؤية الشقيقة الصغرى - التي كنتُ أعتقد أنها تُدعى ميروپ، لكن المرأة العجوز كانت تطلق عليها اسمًا آخر - لأنها ضلَّت طريق عودتها إلى ديارها.

عندما انتهت المرأة العجوز من روايتها، غرقت في صمت عميق، وعيناها ما تزالان مثبتتين عليَّ.

أخيرًا، قلتُ لكريسي: «إنه لمن الغريب حقًا أن نكون ست شقيقات، لأن والدي لم يحضر السابعة إلى المنزل».

أجابت كريسي: «في ثقافتنا، كلُّ شيء هو مرآة لما هو موجود هناك في الأعلى».

«أعتقد أن الرجل العجوز الذي تحدَّثت عنه جدتك هو أوريون، الذي كان پا يذكره في قصصه عن الأساطير اليونانية».

قالت: «ربَّما. هناك مجموعة من الأساطير حول الشقيقات السبع تأتي من تقاليد مختلفة، لكن هذه، هي أسطورتنا».

كيف يمكن أن تكون قصص العالم أجمع متشابهة إلى هذا الحدِّ؟ فكَّرتُ فجأة. أقصد، عندما قيل لهم في الأصل كلُّ تلك الأشياء منذ آلاف السنين، لم يكن الأمر كما لو كان بوسع اليونانيين إرسال بريد إلكتروني إلى سكان أستراليا الأصليين، أو كان بوسع المايا في المكسيك التحدَّث عبر الهاتف إلى اليابانيين. هل يمكن أن

يكون هناك رابط بين السماء والأرض أكبر ممّا كنتُ أعتقد؟ ربما كان هناك شيء غامض، كما كانت لتقول تيغي، وراء تسميتنا نحن الشقيقات على أسماء الشقيقات المعروفة في السماء، وغياب السابعة...

أعادتني المرأة العجوز إلى الواقع عندما سألتني: «من أين أنتِ؟»
«لا أعرف. أنا متبنّاة».

«أنتِ... من هنا».

التقطت ما يشبه عصا طويلة نُقشت عليها علامات وضربتها على الأرض الترابية الصلبة وقالت: «أنتِ كانتريمين».

«الأهل»، ذكّرتني كريسي، ثمّ التفتت إلى جدتها: «عرفتُ في اللحظة التي رأيتها فيها أن جزءًا منها كان من أهلنا».

«الجزء الأهم: القلب. الروح».

دقّت المرأة العجوز على صدرها، وكانت عيناها البندقيّتان ممتلئتين دَفْئًا. مدت يدها وضغطت على يدي بقوة غير متوقّعة وقالت: «تعودين إلى الوطن. تنتمين إلى هنا».

كانت ما تزال تمسك بيدي، عندما شعرت فجأة بالدوار وبرغبة في البكاء. ربما لاحظت كريسي ذلك، فقد نهضت وساعدتني بلطف على الوقوف.

«علينا أن نذهب الآن يا ميمي، لأن سيسي لديها موعد».

أومأت برأسي إلى كريسي بامتنان، وأمسكت بذراعها لكي أتمكن من النهوض.

«نعم لديّ موعد. شكرًا جزيلاً لإخباري بالقصة».

شجّعته المرأة قائلة: «لديّ أكثر من ذلك لأخبرك به، عودي».

وعدتّها بالعودة وأنا أقول في نفسي إن لهجتها كانت أغرب لهجة سمعتها على الإطلاق. كانت تلفظ كلماتها الإنجليزية القليلة بطريقة أسترالية قح، لكنّ ما خفّفها هو الحروف الساكنة التي كانت تضيفها.

«الوداع».

لوحث لي بينما كانت كريسي تقودني عبر الحديقة/غرفة الجلوس، نحو دراجتها.

«هل تريدان الذهاب لتناول مشروب؟ يوجد «سرفو» عند زاوية الشارع».

أجبتها: «نعم، سيكون ذلك رائعًا»، ولم تكن لديّ أدنى فكرة عن معنى «سرفو». لكنني لم أكن راغبة في الركوب فورًا على دراجتها النارية الصدئة.

تبين أن «سرفو» هي محطة وقود تضمّ متجرًا عامًّا صغيرًا. اشترينا زجاجتي كولا وجلسنا على مقعد في الخارج.

«آسفة بشأن جدّتي. إنها حقًا... كثيرة الاطلاع».

«لا تأسفي. كان ذلك مثيرًا للاهتمام. كلّ ما في الأمر هو أنني شعرت بالذنب. عندما سمعتُ كلّ هذه الأشياء عن... بحثتُ عن عبارة (الثقافة التي قد أنتمي إليها). لم أكن أعرف سوى قليل جدًا عنها قبل مجيئي إلى هنا».

«لا داعي للشعور بالذنب. كيف كان لك أن تعرفي يا سي؟ أنت فتاة متبنّاة نُقلت إلى أوروبا مُدّ كانت طفلة صغيرة. علاوة على ذلك، يريد كبار السن التأكد من أن قصصهم سُتروى، بخاصة في ثقافتنا. كلّ هذا يُنقل بالكلام، أتفهمين؟ من جيل إلى جيل. لا شيء مكتوب على الإطلاق».

«هل تقولين إنه لا يوجد... كتاب مقدس، ولا قرآن، يضمّ القصص والقواعد وكل شيء؟».

«لا شيء. في الواقع، سنعتبره اختراقًا وعدوانًا إذا كتب الناس عن ذلك. لقد قيل شفهيًا كلّ شيء، ورُسّم كثيرًا أيضًا، يا سي». نظرت إلى تعابير الذهول على وجهي. «يبدو أنك مستاءة حقًا، ما الأمر؟».

ابتلعتُ ريقِي وقلتُ: «لا شيء... حسنًا، أنا أعاني من عسر القراءة، ولا أستطيع القراءة بشكل صحيح على الرغم من أن والدي قدّم لي أفضل تعليم ممكن. تتراقص الحروف أمام عيني. لكنني في المقابل فنّانة، وأعشق الرسم».

«أنتِ؟». حان دور كريسي لتبدو مذهولة.

«نعم».

«لماذا لم تخبريني من قبل؟ هذا عظيم، وبالأخص، احتمال أن تكون لكِ صلة قرابة بناماتجيرا!».

«هذا لا يعني أنني موهوبة يا كريسي...».

«جميع الفنانين مميّزون. لا تقلقي، أنا أيضاً سمعية بصرية. قد يكون ذلك في جيناتنا».

«ربما، هل يمكنني أن أسألكِ شيئاً يا كريسي؟».

«بالطبع يمكنكِ، كلّ ما تريدين».

«أعلم أنني سأبدو حمقاء كالمعتاد، ولكن هل هناك تحيّز ضد السكان الأصليين في أستراليا؟».

أدارت كريسي وجهها الجميل نحوي وأومأت برأسها ببطء: «صحيح جداً، يا صديقتي، ولكن ليس في يومنا هذا. أقصد، أنكِ إذا سألتِ أيّ شخص أبيض سيقول لكِ إنه غير موجود، لكن الحقيقة هي عكس ذلك. لم يعودوا يقتلوننا بالآلاف ولا يسرقون أراضينا؛ لقد سرقوها منذ بضع مئات من السنين ولم يعيدوا معظمها بعد. في شهر كانون الثاني من كلّ عام، يحتفل البيض بـ (يوم أستراليا)، وهو اليوم الذي وصل فيه أسطول من السفن البريطانية (للمطالبة) ببلدنا. نحن نسميه (يوم الغزو)، لأنه اليوم الذي بدأت فيه الإبادة الجماعية لشعبنا. نحن هنا منذ خمسين ألف سنة، وقد بذلوا قصارى جهدهم لتدميرنا وتدمير أسلوب حياتنا». ثم أضافت وهي تهز كتفها: «على أيّ حال، إنها قصصُ زمنٍ ولّى، لكنني سأروي لكِ مزيداً في وقت آخر».

قلت: «حسناً». لم أرغب في السؤال عن معنى «الإبادة الجماعية»، لكنها بدت فعلاً سيئاً جداً.

سألّنتي بعد برهة من الصمت: «هل يخيفك ذلك؟ كأن تدركي أنكِ واحدة منا، أو أن هذا الجزء منك؟»

«لا. لقد كنت دائماً مختلفة. أنا شخص غريب، لعلمك».

وضعت يدها الدافئة على ذراعي: «حسنًا، دعيني أُعدكِ إلى الفندق».

بعد أن أوصلتني كريسي وطلبت مني الاتصال إذا كنتُ بحاجة إلى أي شيء، ذهبتُ إلى غرفتي وارتميتُ على السرير. وللمرة الأولى، غرقتُ في النوم من فوري. عندما استيقظتُ، فتحت إحدى عيني لأرى على هاتفي أن الساعة قد تجاوزت الثامنة مساءً، أي أنني نمت ثلاث ساعات متواصلة. ربما كان للكم الهائل من المعلومات التي حصلت عليها خلال اليومين الماضيين تأثير الحبوب المنومة نفسه، فقد عرف عقلي أنني لا أستطيع استيعاب ذلك كله دفعة واحدة، فأوقفتني عن العمل، مثلما تُفصل آلة كهربائية عن التيار. أو ربّما، ربّما فقط... كان نوعًا من الارتياح العميق؟ لأنني من خلال استجماع الشجاعة للمجيء إلى هنا، كنت أبدأ في اكتشاف من أنا حقًا.

لقد عدتُ إلى الوطن...

وحتى لو كنتُ أعتقد أنني حقًا عدتُ، فهل كنتُ أرغب في أن أُصنّف بحسب جيناتي، لا بحسب تربيّتي؟ نهضتُ وذهبتُ إلى غرفة الحمام، ثم نظرتُ إلى أنفي المسطح في المرأة، وعرفت أنه أنف المرأة العجوز وأنف صديقتي الجديدة كريسي. من المؤكد أنهما كانتا متجذرتين في ثقافتهما وفخورتين بها، وربما كان ذلك هو ما أحْتاجه: بعض الفخر. ربّما أنني لم أعد أنتمي إلى ستار بعد الآن؛ لقد تعلّمتُ أنه لا يمكن امتلاك أي شخص، ودفعْتُ الثمن. لكن ربّما أستطيع أن أنتمي إلى نفسي، وإلى ثقافة تحدّد هويتي.

في العالم الأوسع، كنت فاشلة. لكن اليوم، في أثناء جلوسي مع كريسي وجدّتها، رأنا أن تراثي هو مصدر قوّة. بمعنى آخر، كان هناك أشخاص يفهمونني، لأنهم يشبهونني... «كانتريميني أنا». أهلي، عائلتي.

عدتُ إلى غرفتي مفعمةً بالنشاط، وقرّرتُ أن أتصل بكريسي لأرى إن كانت تستطيع أن تخبرني بمزيدٍ عن ثقافة السكان الأصليين. عندما التقطتُ هاتفي، رأيتُ أن لديّ اثنتي عشرة رسالة نصية جديدة وكثيرًا من رسائل البريد الصوتي.

الرسالتان الأوليان كانتا من ستار.

كان حديثنا وضحكنا الليلة الماضية رائعين. أنتِ تعرفين أين تجدينني إذا كنتِ في حاجة إليّ. أحبك، قبلاتي.

أنا ثانية، اتّصلتُ بي صحف أخرى! لا تجيبي على هاتفك!!

ثم...

هذه الرسالة للآنسة سيلينو دابليز. طاب يومك. أنا كاتي كومب، أعمل في صحيفة ديلي ميل. أود التحدث معك بشأن العلاقة التي تجمعك بأناند شانغروك. اتصلي بي متى أردتِ لتزوّدني بروايتك للوقائع.

رسالة أخرى...

هذه الرسالة من فرع البي بي سي أي اللندني، وهي موجهة إلى سيلينو دابليز. نوّد التحدّث معك عن أناند شانغروك. شكرًا للاتصال بمات على الرقم أدناه.

ثم أخرى...

طاب يومك. هذا الرقم يعود لسيلينو على ما أعتقد؟ أنا إنجي من نيوز أوف ذا وورلد. أودّ أن أتفاوض معك بشأن مقابلة كاملة. وهكذا، توالى الرسائل، والموضوع نفسه.

كان الصحفيون يلاحقونني. كانوا عاجزين عن الحصول على أي شيء من إيس، لأنه كان خلف القضبان، فما كان منهم إلا أن انقضّوا عليّ. لثانية، فكّرتُ في الاتصال بسجن وورمود سكرابز لأتحدّث مع إيس، وأطلب منه إن كان يريد مني أن أقول باسمه شيئًا ما إلى وسائل الإعلام؟ لكنني قلتُ في نفسي: كفاكِ حماقة يا سي. إنه لا يثق بك حتّى لتجليي له عصير مانغو من البار...

ليندا تعرف الحقيقة، هذا ما قاله لي ذات مرّة.

إدًا، من هي هذه الليندا؟ صديقة؟ أو ربّما زوجة، على الرغم من أن الصحافة لم تذكر وجود أيّ شريك له، إلا أنا، بالطبع. ولمّا كانت إحدى الصحف الرديئة المتخصصة بالفضائح سمّنتي «صديقتة الحالية»، فمن الواضح أنني لم أكن سوى الأخيرة على قائمة مغامراته النسائية الطويلة.

مع ذلك، حضّنتي غريزتي على أن أفعل شيئًا من أجله. ففي النهاية، لم يتردّد في مساعدتي عندما كنت بحاجة إليه. كان السؤال المطروح، هو ماذا؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟ وكيف؟

ثمة شيء واحد كنت أستطيع فعله...

أخرجتُ شريحة السيم من هاتفي، ثم تأكدتُ من أن جميع الأرقام التي أحتاج إليها محفوظة. ذهبتُ إلى غرفة الحمام ورميتُ الشريحة في دورة المياه بعد أن غلفتُها بمنديل ورقي. شعرتُ بالرضا لأن ما من أحد يستطيع أن يتتبّعني بعد الآن. غادرتُ الغرفة، وخرجتُ إلى متجر يقع عند زاوية الشارع، حيث اشتريتُ شريحة جديدة مسبقة الدفع. أرسلتُ إلى «ما» رسالة برقمي الجديد، وبعد ثلاثين ثانية رنّ هاتفي.

قلتُ: «مرحبًا يا سيا».

«كنت أتأكد من أنه قيد الخدمة».

«إنه كذلك، لكنه مسبق الدفع. قالت لي البائعة إنّ عليّ أن أدفع عندما تردني مكالمات خارجية، لذلك أعتقد أن أمامي ثلاثين ثانية قبل أن أستهلك العشرين دولارًا».

«كان التخلّص من الشريحة فكرة جيدة. لقد اتصل بي صحافيون جدد هذا اليوم. قال ماوس إنهم إذا كانوا أذكاء، فقد يتمكنون من تقفّي أثرِك عبر سجلات شركات الطيران أيضًا، لذلك...».

انقطع الاتصال مع ستار فجأة وظهرت على شاشتي رسالة تقول إن رصيدي

قد نفذ.

عدتُ إلى الفندق وأنا أزمجر حائقة: «لقد أصبح الوضع سخيًّا». لم أكن
جيمس بوند، ولا حتّى پوسي غالور، أو مهما يكن اسمها.
حيّتي عاملة الاستقبال قائلة: «مرحبًا آنسة دابليز، هل قرّرتِ كم من الوقت
ستطول إقامتك لدينا.»
«لا».

«حسنًا، أخبريني عندما تقرّرين.»
لاحظت أن عاملة الاستقبال كانت تتفحصني عن كثب. قالت: «لم تقيمي هنا
من قبل، أليس كذلك؟ يبدو لي وجهك مألوفًا.»
أجبتها بنبرة حاولتُ أن تكون محايدة: «لا أبدًا، شكرًا لك». وصعدت إلى
غرفتي.

كانت جوقة الضفادع ما تزال تواصل معزوفتها وراء نافذتي المفتوحة. أضأتُ
المصباح ورأيتُ جهاز السي دي على منضدة السرير، فذكرني بأنه عليّ أن أواصل
الاستماع إلى قصة كيتي، وكنتُ بحاجة إلى إفراغ ذهني من كلّ تلك الأفكار.
استلقيتُ على السرير، بعد أن زوّدتُ الجهاز ببطاريات جديدة، وحشوته بالقرص
الثاني. وضعتُ السماعات على أذنيّ، وضغطتُ على زر التشغيل، ثمّ أغمضتُ عينيّ
لأكتشف تتمة ما حدث لكيتي ميرسر.

كِتَاب
بروم، أستراليا الغربية
تشرين الأول 1907

اضطربت كيّتي عندما قَبِلَ أندرو جبينها.

قال: «أنا ذاهب إلى الرصيف. من المقرر أن يصل المركب الشراعي بعد حوالي ساعة من الآن، وأريد أن أتفقد الحمولة وأتأكد من أن أيًا من هؤلاء الملعونين الأندونيسيين لا يخفي لآلئ، فهم أناس ماكرون مخادعون. حاولي أن ترتاحي اليوم يا عزيزتي».

«سأفعل».

نظرت كيّتي إلى زوجها، الذي كان يرتدي زيّ أسياذ اللؤلؤ الأبيض: بدلة ناصعة البياض ذات ياقة صينية وأزرار من عرق اللؤلؤ، تعلوها خوذة بيضاء من اللباب على الطراز الكولونيالي. كانت تعلم أنه عندما يعود إلى المنزل لتناول طعام الغداء، ستكون البدلة مغطاة بالغبار الأحمر حتمًا، وسيتعيّن عليه تغييرها قبل أن يخرج ثانية. هنا في بروم، كان الغسيل يوميًا، لكنها لم تكن مضطرة إلى التعرّق فوق أوعية الماء الساخن بنفسها، فالخادمة كانت تتكفل بطي البدلات وإرسالها إلى سنغافورة لغسلها وإعادةها مع الباخرة.

كان هذا مثالاً واحدًا من بين كثير من الأمور الغريبة التي سرعان ما اضطرت إلى قبولها في بروم، إذ لم تعد ابنة قسّ، بل زوجة سيّد ثريّ في صناعة اللؤلؤ.

بعد وقت قصير من زواجهما، استقلت مع أندرو السفينة البخارية پارو في فريمانتل، وبعد بضعة أيام عصابة في البحر، ظهر الشريط الساحلي أخيرًا في الأفق. رأّت كيّتي شاطئًا أصفر مسطحًا، ومجموعة من المنازل المتراسة ذات السطوح المصنوعة من الصفيح. رست السفينة على رصيف ميناء هائل للمراكب الصغيرة يبلغ طوله حوالي كيلومترين، تحيط المياه البنية الداكنة بدعاماته الخشبية. كانت

غابات المنغروف الكثيفة تعانق الشاطئ، يمتد خلفها صفٌ من السطوح الحديدية المموجة، وقبالتها في مقدمة الخليج، ترسو سفن صيد اللؤلؤ المشؤومة، رافعة صواريخها في وجه سماء زرقاء شاسعة.

بعد أن غادرا السفينة، ركبا العربة وانطلقا عبر شوارع جيب المدينة الصغيرة، وبدأت المرأة الشابة تشعر بالضيق والقلق. كانت البواخر والمراكب الشراعية، تجلب سيلًا صاخبًا من الناس الذين يملأون الحانات والفنادق على امتداد دامبيير تيراس، الشارع الرئيسي في المدينة، حيث كانت تُسمع موسيقى البيانو والأصوات الغليظة في كل مكان. ذكرها المشهد بوحشية الغرب الأميركي الذي قرأت عنه. كان الجو أشد حرارة مما يمكن للمرء أن يتخيله، وكانت رائحة الأجساد القذرة تلوث هواء مشبعًا بالرطوبة لا تحرّكه نسمة واحدة.

المنزل الذي بناه والد زوجها من دون أي تفكير، سوى توفير سقف مؤقت من الصفيح فوق رأسه ورأس إديث، في أثناء تأسيس شركته المتخصصة بصيد اللؤلؤ، لم يكن مغريًا. لكن أندرو وعد كيتي بمنزل مريح انتهى بناؤه منذ شهرين فقط.

بعد سبعة أشهر من وصولها، بدأت كيتي تتعوّد شيئًا فشيئًا على هذه المدينة الغربية والمعزولة، التي يحيط بها البحر من جهة، والصحراء الحمراء الشاسعة من الجهة الأخرى. كانت المنازل القليلة الواقعة على طول شارع روبنسون المغبر، الذي غالبًا ما تغمره المياه، وحيث يقيم معظم البيض الأثرياء، تقع على بعد دقائق قليلة من مدينة الصفيح المكتظة. لم تكن بروم تتمتع بأي عظمة أنيقة أو جميلة، بمزيجها المتعدّد الثقافات، النابض بالحياة، ومع ذلك، كانت المركز العالمي لصناعة اللؤلؤ. عندما كان فريد، سائسها الشخصي المتحدّر من السكان الأصليين، يقودها إلى المدينة، كانت تجد نفسها في خضمّ حشد بشريّ من أجناس مختلفة يخرجون من السفن اليومية بحثًا عن وسائل الترفيه. كانت الأموال تتدفّق كالماء، وكان هناك كثير من المؤسّسات التجارية الحريصة على تلقّفها، كمخزن ياماساكي ومايز، الذي يضمّ مجموعة مختارة من الكنوز اليابانية الرائعة، بالإضافة إلى التحرير الناعم الذي يمكن تحويله إلى فساتين جميلة تتباهى بها زوجات أسيا صيد اللؤلؤ في مواسم الحفلات.

بمشقة بالغة، استقامت كيتي في سريرها. كان ظهرها يؤلمها من ثقل بطنها المنتفخ، وشكرت الربّ لأنه لم يبقَ سوى أقل من ثلاثة أشهر على ولادة الطفل. والدكتور بليك، الذي رآته كيتي يرتوي بالويسكي عندما التقته في مناسبات اجتماعية مختلفة، كان قد أكّد لها بأنه سيقدّم لها أفضل رعاية ممكنة عندما يحين الوقت. ففي نهاية المطاف، كان أندرو - أو والد الطفل - يمتلك أكبر شركة لصيد اللؤلؤ في بروم، بالإضافة إلى أسطول يتألف من ستة وثلاثين مركبًا «شراعيًا» تحمل مئات الأطنان من الأصداغ إلى الميناء كلّ عام.

عندما وصلت لأول مرة، كانت العبارات التي يستخدمها أندرو في كثير من الأحيان مثل «مركب شراعي»، و«تخزين»، و«تصنيف الأصداغ»، غريبة عليها. ولأنه لم يكن يتحدّث عن أيّ شيء آخر عندما كانا يتناولان العشاء معًا، فقد استوعبت، شيئًا فشيئًا، طريقة العمل وأدواته ومراحله.

كانت شركة «ميرسر بيرلنج كومپاني» Mercer Pearlning Company قد تعرضت لبداية صعبة هذا الموسم، عندما واجه أحد مراكبها الشراعية إعصارًا وغرق مع جميع أفراد طاقمه. وسرعان ما تعلّمت أن الحياة البشرية هنا كانت هشة وقابلة للتغيّر. كانت تدرك أنها لن تقدر أبدًا على التصالح مع قسوة الحياة وضراوتها في بروم، وبالأخص طريقة معاملة السكان الأصليين المحليين، التي أقرّت في داخلها بأنها لن تقبلها مطلقًا.

عندما رأت للمرة الأولى مجموعة من رجال السكان الأصليين مقيّدين بالسلاسل من أعناقهم، ويشرف عليهم حارس يحمل بندقية في أثناء قيامهم بإزالة الأنقاض من منزل دمره إعصار في الآونة الأخيرة، شعرت بالرعب وراحت تبكي، فسحبها أندرو بعيدًا.

قال أندرو محاولًا مواساتها: «أنتِ لا تفهمين بعد كيف تسير الأمور في بروم يا عزيزتي. إنه لمصلحتهم؛ فهذه الطريقة، يمكنهم أن يكونوا منتجين وفاعلين في المجتمع».

كانت كيتي ترتجف من شدة الغضب: «وهم مقيّدون بالأغلال؟ محرومون من حريتهم؟».

«ليست طريقة للإنسانية. إذ ما يزال بإمكانهم التحرك والسير بسهولة. من فضلك يا عزيزتي، اهدأي».

استمعت كيتي إلى أندرو بلا حول ولا قوة، وهو يشرح أن المسؤولين يعتقدون أن «السود» سيعودون إلى الصحراء في اللحظة التي تُتاح لهم فيها الفرصة. لذا، كانوا يقيّدونهم، بعضهم ببعض، ويربطونهم بشجرة طوال الليل.

«إنها معاملة قاسية تخلو من الرحمة يا أندرو. ألا تستطيع أن ترى ذلك؟».

«على الأقل، إذا عملوا، فإننا نعطهم تبغًا أو أكياسًا من الدقيق ليأخذوها إلى عائلاتهم».

قالت: «لكن بلا أجر؟».

«ليس الأجر هو ما يحتاجون إليه يا عزيزتي. هؤلاء يبيعون زوجاتهم وأطفالهم لقاء لا شيء. إنهم كالحيوانات البرية، وللأسف، يجب أن يُعاملوا على هذا الأساس».

بعد أسابيع من الخلاف بينهما حول هذا الموضوع، اتفقا على عدم الاتفاق. كانت مقتنعة أنه بالطف، والتفهم، وبعض الاحترام لحقيقة أن هؤلاء الأشخاص كانوا في أستراليا قبل المستوطنين البيض بزمان سحيق، يمكن التوصل إلى اتفاق أقل قسوة. لكنّ أندرو ظل يكرّر أنّ هذا الأسلوب قد أثّبع من قبل وكانت النتيجة فشلًا ذريعًا.

مع ذلك، ظلّ هذا التفاوت وعدم المساواة يؤرقها. حتّى أنها اضطرت إلى طلب إعفاء خاص من قائد الشرطة لإبقاء فريد في المبنى ليلاً، وإلا لوضع مع الباقين في معسكر خارج المدينة، بعيدًا عن «أسياده» البيض.

كان هذا الوضع، بالإضافة إلى الموت المتربّص بمدينة الصفيح المكتظة وفي عرض البحر، هو الثمن الذي كان على كلّ شخص في بروم أن يدفعه مقابل أجور أعلى من المتوسط. وبالنسبة إلى قلة قليلة من المحظوظين، كانت هناك الجائزة الكبرى: العثور على اللؤلؤة المثالية.

بسذاجة، كانت كيتي تعتقد أن كلّ صدفة تحتوي على لؤلؤة، لكنها كانت مخطئة. فالصناعة كانت تعتمد بشكل أساسي على عرق اللؤلؤ المخبأ في الأصداف

البنية المرقطة القبيحة المدفونة في قاع البحر. كانت هذه المادة البراقة التي تُستخدم في تزيين الأمشاط والعلب والأزرار تُباع بالأطنان في جميع أنحاء العالم. لم يكن يحدث إلا نادراً أن يقدم قبطان إلى سيد صيد اللؤلؤ صدفة وهو يرجّها مزهواً. فإذا سُمع صوت في داخلها، يعني ذلك أنها تحتوي على كنز ثمين. وعندما تتشكّل اللؤلؤة داخل الصدفة، يصبح من المستحيل فتحها؛ وحده سيد اللؤلؤ كان يمتلك المفتاح. كانت كيتي تعرف أن أندرو كان يحلم كلّ ليلة بالعثور على أروع لؤلؤة، لن تجعله ثرياً فحسب، بل مشهوراً أيضاً. لؤلؤة تجعله، بدلاً من والده، أعظم سيد لصيد اللؤلؤ في بروم، وبالتالي في العالم.

يحدث في مناسبات عدّة أن يصل أندرو إلى المنزل ومعه لؤلؤة بحجم كرة كبيرة من البلي، وعيناه تشعان بالإثارة عندما يطلعها على الجوهرة التي يكون شكلها غريباً في كثير من الأحيان. ثم ينطلق إلى متجر تي بي إليس، في شارع كارنافون ليعرف إن كان اكتشافه جيداً. كان تي بي إليس مشهوراً بكونه أمهر من ينظف اللؤلؤ ويصقله في العالم.

مثل الماس، كان لا بُدّ من أن يُنظف اللؤلؤ ويُصقل ليكشف عن جماله الحقيقي. انبهرت كيتي عندما علمت أن اللؤلؤ يتكوّن من طبقات رقيقة عدّة، مثل طبقات البصل. وتكمن مهارة تي بي إليس، في قدرته على إزالة كلّ طبقة غير مكتملة من دون الإضرار بلمعان الطبقة التي تحتها. رآته يضع اللؤلؤة في اتجاه الضوء، كما لو أن عينيه البنيتين الثابنتين تستطيعان الرؤية حتّى قلبها. ثمّ تتحسّس أصابعه الخبيرة النتوءات الصغيرة التي كان يزيلها بمبارده وسكاكينه وهو يحدّق إليها بنظارة الصائغ.

بينما كانت كيتي تراقبه ذات مرة وهو يعمل، قال بنبرة محايدة: «إنه لعاب المحارة. يشعر الحيوان بالتحسّس والضيق بسبب حبة رمل على سبيل المثال، فيروح يغلفها بطبقات من اللعاب ليحمي نفسه. وها هو المعدن الجميل قد خُلِق. ولكن في بعض الأحيان...». هنا قطّب حاجبيه قبل أن يزيل طبقة أخرى وتابع: «في بعض الأحيان، لا تحمي هذه الطبقات سوى بعض الطين». رفع اللؤلؤة لكي تراها

كيّتي وأندرو، وبالفعل، كانت هناك قطرة بنية اللون تتسرّب من ثقب صغير، فنَدّت عن أندرو همهمة حنق بالكاد تمكّن من أن يكتمها، بينما واصل تي بي عمله. أعلن قائلاً: «لؤلؤة منفوعة. يا لها من خسارة!». ثم ارتفعت زاوية فمه بابتسامة ساخرة ارتسمت تحت شاربهِ وأضاف مواصلاً عمله: «قد تصلح لتزيين دبوس قبعة جميل».

تساءلت كيّتي سرّاً عما إذا كان الرجل السريلانكي الهادئ يعلم أنه يتمتع بسلطة أكبر من سلطة أيّ شخص آخر في بروم. لقد كان صانع الأحلام، القادر في متجره المتواضع ذي الواجهة الخشبية، على تقشير طبقات رقيقة من اللؤلؤ ليكشف عن جوهرة مهيبة تغيّر الحياة، أو تحوّل الأمل إلى كومة من غبار على طاولة عمله.

كانت بروم كونّاً صغيراً، فريداً وكثيفاً يشمل كلّ روح تعيش فيه. وكيّتي نفسها أصبحت الآن ترساً آخر في الآلة، حيث كانت تؤدّي دور زوجة سيّد صيد اللؤلؤ الصالحة.

قال أندرو وهو يحتضنها بين ذراعيه بعد خيبة أمل أخرى في متجر تي بي: «ذات يوم يا عزيزتي، سأحضر لكِ أروع لؤلؤة. وسوف تتقلّدينها ليراها الجميع».



دأبت كيّتي بأصابعها اللائئ الرقيقة التي اختارها لها أندرو وجمعها في عقد. وبصرف النظر عن هوسه بالعثور على هذا الكنز الثمين، اللؤلؤة المثالية، لم يكن يرفض لها طلباً لإرضائها؛ كانت قد تعلّمت ألاّ تعبّر عن أحلامها، وإلا فإن أندرو سيبدل قصارى جهده لتحقيقها. على سبيل المثال، كان قد ملأ المنزل بأثاث عتيق جميل اشتراه من القوارب التي ترسو في بروم قادمة من جميع أنحاء آسيا. ذات مرة عبّرت عن حبها للورد، وبعد أسبوع، أخذ يدها وقادها إلى الشرفة ليربها شجيرات الورد التي زُرعت حولها قبل أن تستيقظ.

وفي ليلة زفافهما، كان رقيقاً ومهذباً معها. وعلى الرغم من أن الفعل في حد

ذاته كان أمراً أجبرت كيّتي نفسها عليه بدلاً من الاستمتاع به، إلا أنه بالتأكيد لم يكن شيئاً لا يُطاق. ربما شعر أندرو بسعادة أكبر من سعادتها عندما أعلنت له حملها قبل خمسة أشهر، عندما كان الطفل أكبر قليلاً من حجم لؤلؤة في أحشائها، وروى لها كيف سيتبع «ابنه» خطى والده إلى كلية إيمانويل في أديلابيد، ثم إلى الجامعة. وبعد أسبوع، استلمت كيّتي سريراً من خشب الماهوغوني، منحوتاً بشكل جميل، وعدداً لا يُحصى من الألعاب.

«يا لها من مدينة متناقضة»، قالت في نفسها متنهّدة وهي ترفع نفسها من السرير وتمدّ يدها إلى رداثها الحريري. كان تسعة وتسعون في المئة من سكان بروم يعيشون في ظروف مروّعة، مع ذلك، فإن أيّ شيء يرغب فيه سكانها الأثرياء يمكن شحنه إلى هذه البؤرة الاستيطانية الصغيرة المعزولة في غضون بضعة أسابيع. التقت كيّتي زحافتها المنزلية ونفستها جيّداً، بعد أن علمت أن العناكب والصرابير تحب الاختباء في ثناياها الداخلية المريحة. ألقتها على الأرض وحشرت قدميها المتورمتين في داخلها. كانت قد تعودت على النشاط، فعلى الرغم من تضخم بطنها، رفضت أن تلزم المنزل، لعلمها أنها ستصاب بالجنون من شدة الملل إذا فعلت ذلك.

أثناء تناول الفطور، أعدت قائمة بكل الأشياء التي تحتاج إلى شرائها من المدينة. قبل حملها، كانت تمشي لمدة عشر دقائق إلى متاجر دامبيير تيراس، التي تبيع كلّ شيء، بدءاً من الكافيار الذي يؤتى به من روسيا وانتهاء بلحم البقر اللذيذ المذبوح حديثاً في مسلخ هايلاندز ستار. كانوا يأكلون جيّداً وبوفرة ونوعية أفضل مما كان متاحاً في ليث. وكان طارق، طبّاخهم الماليزي، قد عرفها على الكاري، الذي لدهشتها، وجدته لذيذاً.

بعد أن اعتمرت قبعتها الشمسية، التقت سلتها ومظلتها، ثم اتجهت إلى الاسطبلات، حيث كان فريد ينام على القش. صفقت بيديها فاستيقظ من فوره وهبّ واقفاً على قدميه في ثوانٍ. ابتسم لها، وكانت إحدى أسنانه الأمامية مفقودة، وهو أمر شائع عند الذكور من السكان الأصليين وله علاقة بطقس ما.

قالت: «المدينة»، لأن فهم فريد للغة الإنجليزية كان بسيطاً في أحسن الأحوال. كان يتكلم لغة قبيلة ياورو التي تعيش في بروم.

أولاً برأسه وراقبته كيتي وهو يربط المهر بالعربة، وشعرت بالارتياح لأنه كان موجوداً، إذ كان عرضة للاختفاء، على حد تعبيره: «أذهبُ للتجوال يا سيدتي». ومثل السن المفقودة، اكتشفت كيتي أن معظم السكان الأصليين يفعلون ذلك، حيث يختفون لأسابيع في المناطق النائية الخطرة خارج المدينة. في البداية شعرت بالرعب عندما علمت أن فريد ينام على بساط من القش في الاسطبلات.

«يا عزيزتي، لا يحب السود العيش في الداخل ولا يريدون. حتى لو بنينا له كوخاً، فسوف ينام خارجه. القمر والنجوم هما سقف السكان الأصليين».

مع ذلك، شعرت كيتي بعدم الارتياح لهذا الترتيب، وأثناء تجديد منزلهما، أصرت على أن يبنيا أندرو مسكناً مع مرافق للغسيل والاستحمام، وسرير، ومطبخ صغير، يستطيع فريد أن يستخدمه كما يشاء. وحتى الآن، لم يختار فريد الاستفادة من هذه التسهيلات. كانت تتأكد من أن زيه نظيف ومغسول حديثاً، لكنها كانت تستطيع شم رائحته على بعد خطوات.

قبلت كيتي مساعدة فريد في الصعود إلى العربة وجلست بجانبه، مستمتعة بالنسيم الخفيف على وجهها بينما راح المهر يشق طريقه إلى المدينة. كانت تتمنى أن تتمكن من التحدث مع فريد وفهمه وفهم شعبه، لكن على الرغم من أنها حاولت مساعدته في تحسين لغته الإنجليزية، ظل فريد غير مهتم.

عندما وصلا إلى دامبيير تيراس، رفعت كيتي يدها وقالت: «توقف!»

ساعدها فريد على الترحّل، وسأله: «هل أبقى هنا؟».

«نعم». ابتسمت له وسارت باتجاه الجزار.

بعد أن أكملت تسوّقها لعشاء ذلك المساء، وتوقفت للدردشة مع السيدة نورمان، زوجة سيد آخر في صيد اللؤلؤ، خرجت إلى ضوء الشمس الساطع. شعرت بالوهن بسبب الحرارة الشديدة، فتوجّهت إلى زقاق ضيق يوفر ظلاً نسبياً وهوّت نفسها. كانت على وشك العودة إلى الحصان والعربة عندما سمعت أنيناً خفيفاً في الجانب الآخر من الزقاق:

اقتربت من كومة قمامة مُهمَّلة، وهي تعتقد أنها ربما كانت تخفي حيوانًا جريحًا، وأزاحت صندوقًا كريحه الرائحة. رأت كائنًا بشريًا متكورًا على نفسه، ودلَّها شكله ولون بشرته على أنه أنثى من السكان الأصليين.

«مرحبًا».

لم ترد، فانحنت كيَّتي ومدت يدها لتلمس الجلد الأبنوسي. جفلت الكرة البشرية وانكشفت عن امرأة شابة تحدَّق إليها والرعب يملأ عينيها.

«أنا لم أرتكب أيَّ خطأ يا سيدتي...». وعادت الفتاة تنكمش على نفسها في كومة القمامة التنتة.

لاحظت كيَّتي انتفاخ بطنها. «أعرف. لستُ هنا لأؤذيك. هل تتكلَّمين الإنجليزية؟».

«نعم قليلًا».

«ماذا حدث لك؟ أستطيع أن أرى أننا في الحالة نفسها... وأشارت كيَّتي إلى نتوء بطنها».

«أنا وأنتِ لدينا طفل، ولكن من الأفضل أن أموت... وهو أيضًا. الحياة هنا ليست جيدة لنا يا سيدتي».

بمشقة بالغة، جثت كيَّتي بجانبها: «لا تخافي. أريد أن أساعدكِ». خاطرت بمدَّ يدها ثانية لتلمس الفتاة. فلم تجفل هذه المرأة: «من أين أنتِ؟»

أجابت: «من منزل كبير»، ثم ربَّت بطنها وأضافت: «لقد رأى سيدي. لم يعد لي منزل بعد الآن».

«حسنًا، ابقِي هنا. لديَّ مهر وعربة، وسوف آخذكِ إلى منزلي لمساعدتك. هل تفهمين؟».

«اتركيني يا سيدتي. أنا أجلب المتاعب».

«لا. سأخذكِ إلى منزلي. لديَّ مكان يمكنكِ البقاء فيه. لستِ في خطر».

كررت الفتاة والدموع تنهمر من عينيها المغمضتين: «من الأفضل أن أموت».

نهضت كيَّتي متسائلة عما يمكنها فعله لإقناع الفتاة بقبول المساعدة. فكَّت

عقد اللؤلؤ الذي تتقلّده، ثم انحنت ووضعت بين يدي الفتاة، معتقدة أنها إذا كانت «شريرة»، فستختفي قبل أن تعود.

قالت: «احتفظي بهذا بينما أذهب وأحضر العربة. أنا أثق بك، ويجب أن تثقي بي».

هرعت لتجد فريد وتطلب منه تحريك العربة إلى مدخل الرقاق الضيق، ثم أشارت إليه أن ينزل ويتبعها. شعرت بالارتياح عندما رأت أن الفتاة كانت ما تزال في مكانها، تجلس منتصبّة وتحكم قبضتها على عقد اللؤلؤ.

«والآن يا فريد، هل يمكنك مساعدة هذه الفتاة في الصعود إلى العربة؟» كانت تكلمه وتومئ بيديها مقلّدة الكلمات.

حدّق فريد إلى سيدته مذهولاً. ثم رآته يتبادل النظر مع الفتاة.

«افعل ما أقوله لك يا فريد، من فضلك!».

بدأ يتحدثان بلغة الياورو، حيث أخذ فريد على عاتقه استجواب الفتاة التي كانت تجلس في القمامة وتحمل عقد السيدة. في بعض الأحيان كانت المحادثة حامية، لكن في النهاية أوماً فريد برأسه.

«إنها بخير يا سيدتي الرئيسة».

«إذاً أسرع وساعدها في الصعود إلى العربة».

مدّ لها يده، لكن الفتاة رفضتها. وببطء وفخر، وقفت على قدميها بنفسها.

قالت وهي تمر بجوار كيتي ورأسها مرفوع عاليًا: «أنا أمشي».

سأل فريد: «أين أضعها؟».

«من الأفضل أن تستلقي على ظهرها، وأن نضع الغطاء المشمّع فوقها».

بعد أن فرغت كيتي من إرقادها في العربة، ساعدها فريد على الصعود إلى المقدمة.

«والآن، خذنا إلى المنزل يا فريد».

عندما وصلوا، أحضرت كيتي ملاءات نظيفة إلى الكوخ الذي لم يستخدمه فريد وساعدت الفتاة - التي كانت منهكة تمامًا وبالكاد تستطيع الوقوف - على الاستلقاء.

جلبت بعضاً من نقوع البندق، وغسلت ورماً حول عين الفتاة، كما لاحظت مزيداً من الكدمات على خدها وذقنها.

تركت كييتي إبريقاً من الماء بجانب السرير، وابتسمت لها. «نامي الآن. أنتِ هنا في مأمن».

«لن يأتي أحد ليضربني؟».

«لا. لن يضربك أحد».

أشارت كييتي إلى المفتاح الحديدي الكبير الموجود في القفل وقالت: «سأخرج. أغلقي الباب. أتفهمين؟».

«نعم أفهم».

قالت وهي تفتح الباب: «سأحضر لك بعض الحساء لاحقاً».

«لماذا أنتِ لطيفة معي يا سيدتي؟».

«لأنك كائن بشري. نامي الآن».



في ذلك المساء، بعد أن أعطت كاميرا - هذا هو الاسم الذي قالته الفتاة - بعض المرق، فتحت كييتي زجاجة جيدة من النبيذ الأحمر لمرافقة عشاء أندرو. وبعد أن شرب كأسين كبيرتين، تطرقت إلى موضوع الفتاة الصغيرة المقيمة حالياً في كوخهما.

«أخبرتني أنها كانت خادمة في منزل بشارع هربرت. وعندما اتضحت حالتها طردوها. كما تعرّضت للضرب المبرح».

سأل أندرو: «هل تعرفين من هو سيدها؟».

«لا، رفضت الإعلان عن اسمه».

قال وهو يأخذ جرعة أخرى من النبيذ: «لا يفاجئني رفضها. إنها تعلم جيداً أنه يمكننا أن نذهب إليه ونعرف القصة الحقيقية».

قالت كيتي من دون تفكير: «أندرو، أعتقد أنها تروي لنا القصة الحقيقية، فلا أحد يريد خادمة حاملاً. من المرجح أنها تعرّضت للاغتصاب».

كانت مثل هذه الحوادث شائعة في بروم، حيث كان البحارة المخمورون متعطّشين لـ «المخلل الأسود»، كما كان يُطلق على نساء السكان الأصليين. «كيف لك أن تعرفي ما الذي حدث؟».

«لا، لا أستطيع. لكن الفتاة أخبرتني أنها تلقت تعليمها في إرسالية خليج بيغل المسيحية، وأنها تتكلّم الإنجليزية بشكل جيد نسبياً. إنها بالتأكيد ليست عاهرة». جلس أندرو على كرسيه ونظر إليها غير مصدّق. «تريدين أن نوّوي فتاة حاملاً من السكان الأصليين ونطعمها؟ يا إلهي! عندما نتغيّب، يمكنها أن تتسلّل إلى المنزل وتسرق كلّ ما نملكه!».

«لا أعتقد أنها تفعل ذلك، ولو فعلت، فإن لدينا مالاّ كثيراً. أندرو، بحق الله، الفتاة حامل! إنها تتوقّع حياة جديدة. هل كان من المفترض، كامرأة مسيحية، أن أتركها هناك في الحضيض؟».

«لا، بالطبع لا، ولكن يجب أن تفهمي أن...».

«أنا هنا منذ سبعة أشهر، ولا يوجد شيء في هذه المدينة لا أفهمه. من فضلك، أندرو، يجب أن تثق بي. لا أعتقد أن الفتاة ستسرقنا، وإذا فعلت ذلك، فأنا أتحمل المسؤولية كاملة. من المؤكّد أنها ستلد قبلي. هل نحمل ضميرنا وزر موت روحين؟».

«ويمكنني أن أوكد لك أنها ما إن تلد حتّى تهرب».

«أندرو، من فضلك».

وضعت كيتي أصابعها على جبينها وأردفت: «أنا أتفهم تحفظك، ولكنني أعلم أيضاً مدى سهولة عدم الاكتراث لمحنة الآخرين وإظهار القسوة في مكان كهذا. تخيل لو كنت أنا في مكانها...».

أوما برأسه في النهاية وقال: «حسنًا، لقد جعلتكِ حالتكِ عرضةً للتعاطف مع

من كانوا في مثل حالتكِ، وأقل حظاً منك». ثم أضاف: «يمكنها على الأقل أن تقضي الليل هنا».

«شكراً لك! شكراً لك يا عزيزي». نهضت كيتي وعانقته.

«لكن لا تقولي إنني لم أحذركِ. ستختفي غداً، ومعها كل ما يمكنها حمله».

قال ذلك بحيث تكون له الكلمة الأخيرة.



في صباح اليوم التالي، طرقت كيتي باب الكوخ ووجدت كاميرا تذرع الغرفة مثل كلب دنغو في قفص.

«صباح الخير، لقد أحضرتُ لكِ الفطور».

أشارت كاميرا إلى الباب: «هل ستبقيني هنا؟».

«لا، لقد أخبرتكِ أن المفتاح موجود في القفل. أنتِ حرة، غادري متى شئت».

نظرت إليها الفتاة وهي تدرس تعابير وجهها. «هل يمكنني أن أذهب الآن؟».

«نعم، إذا كنتِ ترغبين في ذلك».

فتحت كيتي الباب على اتساعه وأشارت بيدها إلى الطريق.

بصمت، خرجت من الباب. رأتها كيتي تتردد عند العتبة، وهي تنظر يميناً ويساراً. نظرت إلى فريد، الذي كان يمضغ التبغ وهو يعتني بالمهر. ابتعدت عن الكوخ واجتازت الأرض الحمراء، في حالة تأهب لهجوم مفاجئ. وعندما لم يأت أحد، واصلت السير نحو الطريق، وغادرت كيتي الكوخ عائدة إلى المنزل.

عندما نظرت من نافذة غرفة الجلوس، رأت خيال كاميرا الصغيرة وهو يبتعد. ندّت عنها تهيدة عندما أدركت أن أندرو ربّما كان على حق. فجأة، ركل الطفل في داخلها، فعادت إلى غرفة الجلوس. في ذلك اليوم، كانت الحرارة خانقة.

مرّت ساعة وكانت على وشك أن تفقد الأمل، عندما رأت كاميرا تسير نحو المنزل، ثم تتردد للحظة قبل أن تعود إلى الطريق. بعد انتظار دام عشر دقائق

أخرى، ذهبت كيتي إلى الكوخ، وأخذت معها كأسًا من عصير الليمون البارد الذي أعده طارق لتوّه، وأضاف إليه الثلج المبشور الذي أخذه من اللوح الذي جرى تسليمه حديثًا.

كان باب الكوخ مواربًا، لكنها طرقت قبل أن تدخل.

فتحت كاميرا الباب ولاحظت كيتي أن كلّ ما كان موجودًا على صينية الفطور قد استهلك.

«لقد أحضرتُ لك هذا. إنه مليء بالفوائد للطفل.»

«شكرًا لك يا سيدتي.»

تناولت كاميرا عصير الليمون من كيتي وارتشفت مترددة كما لو كان مسمومًا. ثم شربته دفعة واحدة.

«لن تبقيني سجيّة؟»

قالت كيتي بحيوية: «بالطبع لا. أريد أن أساعدكِ.»

«لماذا تريدين مساعدتي يا سيدتي؟ لا يريد البيض ذلك.»

بحثت كيتي عن أبسط إجابة ممكنة وأشارت إلى بطنها: «لأننا في الحالة نفسها. كم من الوقت قضيتِ في الإرسالية؟»

قالت: «عشر سنوات. قال الأستاذ إنني تلميذة جيّدة»، ثم أضافت باعتزاز: «أتكلّم الألمانية أيضًا.»

«حقًا؟ زوجي يتكلّمها أيضًا، لا أنا.»

«ماذا تريدين مني يا سيدتي؟»

كادت كيتي أن تجيب: «لا شيء»، قبل أن تدرك أن كاميرا لم تكن قادرة على استيعاب مفهوم اللطف من طرف شخص أبيض.

«حسنًا، كبداية، إذا بقيتِ هنا، قد تستطيعين مساعدة فريد على تحسين لغته الإنجليزية.»

كشّرت كاميرا وقالت: «رائحته كريهة. لا يستحم.»

«قد تستطيعين تعليمه النظافة أيضاً».

«تريدين مني أن أكون معلّمة يا سيدتي الرئيسة؟».

«نعم»، ثم ارتجلت قائلة، أنا بحاجة إلى ممرّضة لمساعدتي عندما يأتي الطفل.

«أنا جيّدة مع الأطفال. كنت أتكفل برعايتهم في الإرسالية».

«اتفقنا إذًا. تقيمين هنا في الكوخ، ونحن نقدم لك المأكل لقاء مساعدتك».

تفحّصت كاميرا كيتي بنظرة جدية.

«لن تغلقي الباب بالمفتاح؟».

«لا. ها هو المفتاح، خذيه. اتفقنا؟».

أخيرًا، أضأت ابتسامة طفيفة وجه كاميرا. «اتفقنا».



سأل أندرو عندما عاد لتناول طعام الغداء: «إذًا، هل هربت صغيرتك السوداء بكل ما أمكنها أن تسرقه عندما أدركت ظهورك؟»

«لا، خرجت تتمشّي ثم عادت. هل تصدّق أنها تتكلّم الألمانية، وكذلك الإنجليزية؟ كما تلقت تربية مسيحية وتعليمًا دينيًا».

«أعتقد أن ذلك كلّه مجرد قشرة خارجية سطحية. إذًا، ماذا ستفعلين بها؟».

«قالت إنها كانت تعتني بالأطفال الذين تستقبلهم الإرسالية. لقد اقترحتُ عليها أن تساعدني في رعاية الطفل وأن تعلّم فريد بعض أساسيات اللغة الإنجليزية، في المقابل، يمكنها أن تبقى في الكوخ».

«ولكن كيتي، يا عزيزتي، الفتاة حامل! من المحتمل أن يكون والد الطفل رجلًا أبيض. وأنت تعرفين القواعد المتعلقة بالخلاسين».

نقرت كيتي بسكينها وشوكتها على طبقها وقالت: «أندرو، لا يمكن أن تكون كاميرا أكبر مني سنًا! ماذا تريد مني أن أفعل بها؟ أرميها إلى القمامة حيث وجدتُها؟ وأما القواعد... فإنها جائرة وهمجية. انتزاع الأطفال من أمهاتهم...».

«إنها لحمايتهم يا عزيزتي. تبذل الحكومة قصارى جهدها للتأكد من أن هؤلاء الأطفال لن يموتوا في الحضيض. إنهم يريدون جمعهم وتعليمهم القِيم المسيحية». كانت كيتي ترتعش الآن: «لا أستطيع أن أتخيل كيف سأشعر إذا انتزع منا طفلنا، ولماذا عندما نكون قادرين على مساعدة واحدة منهم على الأقل، نرفض القيام بذلك؟ وهذا ليس إلّا واجبنا كمسيحيين. اعذرني، لكنني متعبة...».

نهضت كيتي ثمّ توجهت إلى غرفة النوم حيث استلقت على سريرها وقلبها ينبض بشدة.

كانت تعرف كلّ شيء عن القواعد الخاصّة بالأطفال الخلاسين؛ لقد رأت أّلام المحمية المحلية وهم يقومون بجولات في بroom، بحثًا عن أيّ رضيع أو طفل ذي بشرة فاتحة تكشف اللعبة وتؤكد أن الأب أبيض. كما سمعت أنين الأمهات بينما كان أطفالهن يُحمّلون على العربة لينقلوا إلى دار أيتام الإرسالية، حيث يجردونهم من تراثهم الأصلي، ويستبدلون به إلهاً، يبدو في الظاهر، أفضل من أن ينشأ طفل في ظلّ حب أمه.

بعد بضع دقائق، طُرق الباب ودخل أندرو. جلس بجانبها على السرير وأخذ يدها بين يديه.

«كيف تشعرين؟».

«متعبة قليلاً. الجو خانق اليوم».

أخذ أندرو قطعة من الشاش، غمسها في إبريق الماء ووضعها على جبينها.

«لقد اقترب موعد الولادة أيضًا يا عزيزتي. إذا كان يسعدك أن تساعدني أمّا في ظروف مماثلة، فمن أنا حتّى أنكره عليك؟ يمكنها البقاء، على الأقل حتّى تنجب الطفل. ثمّ بعد ذلك... لكل حادث حديث».

عرفت كيتي أنه كان يقصد «سنرى ما هو لون الطفل ونقرّر»، لكن الوقت لم يكن مناسبًا للمشاكسة.

«شكرًا لك يا عزيزي. أنت لطيف جدًّا».

«لا، أنتِ اللطيفة. لقد عشتُ في بروم لفترة طويلة. وربما أصبحتُ معتادًا على رؤية البؤس والمعاناة من حولنا. قد يكون من الضروري النظر إلى الأشياء بعينين جديديتين بحيث نرى فداحة المأساة. على أيِّ حال، لديّ مكانة وسمعة يجب أن أحافظ عليهما. أنا وأنتِ لا يمكننا أن نخالف القانون. هل تفهمين يا كيتي؟».

«أجل».

«إدًا، متى أتعرف على صغيرتك السوداء؟».

صرتُ كيتي على أسنانها وهي تسمع كلماته. «اسمها كاميرا. سأصنع لها فستانين أو ثلاثة. ليس لديها سوى الملابس التي ترتديها، وهي قدرة».

«لو كنتُ مكانك لحرقتها. وحده الله يعلم أين تسكّعت بهذه الملابس، ولكن لا شك في أننا سنكتشف ذلك قريبًا. إذا كانت تعمل خادمة، فسنعرف أصحاب عملها السابقين».

قبلها أندرو بلطف على جبهتها ونهض: «والآن، يجب أن أذهب إلى المدينة. لديّ موعد مع تي بي، فقد جلبتُ إديث كمية جيدة من اللآلئ، وأريده أن يصقل بعضها. قد تكون إحداها مميزة جدًّا». ولمعت عينا أندرو متعة وجشعًا.

أليس لدينا ما يكفي؟ فكّرتُ كيتي وهي تتنهد بينما كان أندرو يغادر الغرفة. لقد عرفتُ الإله الحقيقي في هذه المدينة، وكان اسمه المال.

في شهر كانون الثاني، عندما أشار ميزان الضغط الجوي، المعلق على جدار غرفة الجلوس، إلى انخفاض درجة الحرارة وبداية موسم الأمطار، كانت كيتي تصلي إلى الرب أن يولد طفلها في أقرب وقت. كان الجو ثقيلًا مشبعًا بالرطوبة خاليًا من الهواء، وكانت تجد صعوبة كبيرة في التنفس. ذات صباح استيقظت منهكة ولم تتمكن من النهوض، فلبثت في فراشها متمنية أن تنفجر العاصفة ومعها ينزل ماؤها السلوي. قرعت الجرس لتشير إلى الطباخ بأنها تريد الفطور. في الأيام القليلة الماضية ظلت طريحة الفراش، غير قادرة على قبول فكرة لفّ وسطها بالمشدّ - وإن كان مصنوعًا خصيصًا لحالتها - ولا التناير العديدة، والفتان فوقها. كان من الأسهل لها أن تستلقي بثوب النوم، وبطنها غير مقيّد وبشرتها باردة نسبيًا.

عادت أفكارها إلى كاميرا ثانية، وعضّت على شفتها بقوة من الإحباط. كان كلّ شيء يسير على ما يرام، حتّى أندرو أقرّ بذكائها بعد أن طرح عليها بعض الأسئلة باللغة الألمانية. منذ أن أبرمت المراتان «الصفقة» بينهما، وأدركت كاميرا أنها لن تحبس أو تُنقل ليلاً إلى السجن المحلي بسبب جنح غير معروفة، أظهرت رغبتها وحرصها على المساعدة بكل ما استطاعت من سُبُل. مهما يكن من وظفها سابقًا فقد علّمها جيدًا، وسرعان ما أصبحت تدير شؤون المنزل، وتعطي أوامرها للخادمة الكسولة، وهي فتاة سريلانكية ذات عينين غليظتين تُدعى ميدا، وتمضي وقتًا أطول في النظر إلى وجهها في المرآة بدلًا من تنظيفها.

أخفت كيتي سرورها بسلطة كاميرا، التي كانت تصدر أوامرها بكنس الأرضيات ثلاث مرات على الأقل يوميًا لإزالة الغبار الذي لا ينفك يتراكم في كلّ مكان، وفرك أثاث الماهوغوني وتلميعه بشمع العسل، وإزالة أنسجة العنكبوت التي تغلغت في الزوايا العالية، وجرفها مع ساكنيها. وبينما كانت كاميرا تتمايل في غرفة الجلوس

بخفة فراشة، كانت كيتي تراقب من مكتبها، وهي من الوهن بحيث لم تكن قادرة على أن تستجمع طاقتها لتلتقط قلم الحبر. وعلى الرغم من أن كاميرا كانت في حملها أقرب من كيتي إلى الولادة، فلم يكن باديًا أن ذلك يؤثر فيها.

قبل عشرة أيام، ناقشت كيتي مع أندرو فكرة التخلص من ميدا وتولي كاميرا مسؤولية المنزل.

«دعينا ننتظر ونر ما سيحدث بعد أن تلد طفلها، فلا فائدة من التسرع. ولو ذهبنا وتركناها فجأة، سنجد أنفسنا في وضع صعب للغاية، خصوصًا في اللحظة التي سنكون فيها بأمس الحاجة إلى المساعدة».

وفي اليوم التالي، كما لو أن كاميرا سمعت كلمات أندرو، ذهبنا كيتي إلى الكوخ ووجدته مهجورًا.

«فريد، أين كاميرا؟».

«لقد ذهبنا».

«هل قالت إلى أين؟».

«لا يا سيدتي الرئيسة. لقد رحلت».

قال أندرو لاحقًا: «لقد حذرتك يا عزيزتي. هؤلاء السود لا يلعبون وفق القواعد التي نتبعها. لحسن الحظ أننا لم نطرد ميدا».

شعرت كيتي بالانزعاج الشديد من قناعة أندرو الواضحة بأنه كان دومًا على حق. منذ اختفاء كاميرا، كانت كيتي تذهب كل يوم إلى الكوخ وتجده مهجورًا. ولمّا كانت قد وعدت أندرو بعدم الإعلان عن وجود كاميرا في منزلها، لم تتمكن كيتي من السؤال في جميع أنحاء المدينة لمعرفة ما إذا كان أي شخص قد رآها.

«إنها تجول يا سيدتي»، كان هذا كلّ ما يقوله فريد.

وبصرف النظر عن غضبها من أن كاميرا غادرت من دون أن تودعها، خصوصًا بعد لطفها معها وتعاطفها، فقد افتقدتها كيتي. اكتشفت أن كاميرا تتمتع بفهم جيد جدًا للغة الإنجليزية، وروح الدعابة الماكرة. وللمرة الأولى منذ وصولها إلى بروم،

وجدت نفسها تضحك لأشياء صغيرة، وشعرت بأن كاميرا - على الرغم من الاختلافات الثقافية الشاسعة بينهما - كانت شقيقة روحها. ومع اقتراب موعد الولادة، كانت كيتي تشعر بالارتياح لأسلوب الفتاة الهادئ القدير.

«لا تقلقي يا سيدتي الرئيسة، سأعني لك أساعد طفلك في المجيء إلى العالم، لا توجد أي مشكلة».

وصدقتها كيتي، واسترخت وابتسمت، حتى أندرو لاحظ الفرق وبات سعيدًا بوجود كاميرا.

سالت دمة على خذ كيتي، وقالت في نفسها إنها لن ترتكب الخطأ نفسه ثانية.

سمعت كيتي طرقًا خفيفًا على الباب. رفعت نفسها إلى وضعية الجلوس عندما انفتح الباب.

«صباح الخير، سيدتي الرئيسة، هل أحضر لك الفطور؟ ما بال ميدا؟ لا تزال نائمة في أوقات العمل».

راقبت كيتي كاميرا في ذهول تام - كاميرا التي عادت نحيلة - بزيها الأبيض الأنيق، مع عصبة رأس تمنع تجعيد شعرها الأسود اللامع، وهي تتمايل في طريقها إليها حاملة الصينية.

غرّدت وهي تضع صينية الفطور على فخذي كيتي: «أخبرني طارق أنك كنت فتاة شقية لا تأكل طعامها كما يجب. لقد أعددت لك بيضة وحليبًا لطفلك».

«أين...». ابتلعت كيتي صوتها وهي تحاول العثور على الكلمات: «أين كنت؟» «ذهبت أجول، لألد الطفل».

هرّت كتفيها كما لو أنها عادت لتوها من المخبز حيث ذهبت لشراء رغيف من الخبز.

«جاءت بسهولة. تقول النساء إنها جميلة وبصحة جيدة. لكنها لا تشبع». أدارت كاميرا عينيها وأشارت إلى ثدييها: «لا يغمض لي جفن طوال الليل».

«لماذا لم تخبريني إلى أين كنتِ ذاهبة يا كاميرا؟». بدأ الغضب يحلّ محل الارتياح. «كدت أموت من شدة القلق!».

«لا تقلقي يا سيدتي الرئيسة، كان ذلك سهلاً. لقد خرجت مثل الحلزون من القوقعة».

«ليس هذا ما قصدته يا كاميرا. على الرغم من أنني بالطبع سعيدة لأنكِ وطفلتكِ بخير وبصحة جيدة».

«تعالى إلى الكوخ بعد الفطور وسأريك الطفلة. ألا تأكلين؟»

بعد أن قطعت بيد خبيرة الجزء العلوي من البيضة المسلوقة بالسكين، وضعت في المعلقة وقدمته لكيتي.

«لا، شكرًا. أنا قادرة تمامًا على إطعام نفسي».

بينما كانت كيكي تأكل البيضة، راحت كاميرا تجول في أرجاء الغرفة، وتضع كل شيء في مكانه الصحيح، وتشكو من طبقة الغبار الأحمر التي تراكمت على الأرضية منذ أن كانت هناك آخر مرة. أدركت كيكي أنها ربّما لن تعرف أبدًا إلى أين ذهبت الفتاة. لم تشعر إلا بالارتياح لانتهاؤ مخاض كاميرا، وحسدها على تعافيتها المذهل. في وقت لاحق من ذلك الصباح، تبعت كيكي كاميرا إلى الكوخ. فتحت الفتاة الباب برفق. هناك على الأرض، في الدرج الذي أخرجته كاميرا من الصندوق، كانت طفلة صغيرة تصرخ بكل قوتها.

قالت كاميرا وهي ترفع الطفلة وتجلس على السرير، وتفكّ الحلقات التي تثبت أزرار بلوزتها الأمامية: «لقد قلت لك. إنها لا تشبع».

رأت كيكي الثدي الضخم المحتقن، والحلمة تقطر سائلًا حليبيًا، وكاميرا تضع الطفلة عليه. توقّف الصراخ في الحال عندما راحت الطفلة ترضع، وعينا كيكي ملتصقتان بها بشغف. لم يسبق لها أن رأت صدر امرأة أخرى، وطفلها الذي ستلده سترضعه ممرضة بالزجاجة، لأن الرضاعة الطبيعية كانت للهمج فقط. مع ذلك، عندما رأت كيكي الأم والطفلة متحدثتين أدركت الجمال الخاص بهذا الطقس الطبيعي.

عندما حرّرت شفتا الطفلة الحلمة أخيرًا، وتراجع رأسها عن صدر كاميرا، رفعتها

بسرعة على كتفها وراحت تفرك ظهرها بقوة. تجشأت الطفلة وأومأت كاميرا برأسها راضية.

عرضت الطفلة على كيتي: «هل تريدين حملها؟».

«قلت إنها فتاة صغيرة؟».

«اسمها ألكينا، ويعني القمر».

أخذت كيتي الطفلة العارية بين ذراعيها وداعبت بشرتها الناعمة. لم يكن هناك شك في أن ألكينا، بالمقارنة مع والدتها، كانت ذات لون أفتح. فجأة فتحت الطفلة عينيها وحدقت إليها.

«يا إلهي! إنهما...».

قالت كاميرا وهي تزرر بلوزتها: «النساء يقلن: صفراوان، مثل أبيها. ياباني حقير من جابتاون».

تأملت كيتي العلامات الواضحة للإرث الذي أنعم على هذه الطفلة بأجمل عنين رأتها على الإطلاق. كانتا بلون العنبر، ذهبيتين تقريبا، وجعلهما شكلهما اللوزي تبدوان أكبر في وجهها الصغير.

همست كيتي في الأذن الصغيرة: «مرحبًا بك في العالم يا ألكينا، وليباركك الرب».

ربما خيل إليها، لكنّ الطفلة بدت وكأنها تبتسم لكلماتها. أغمضت عينيها الساحرتين ونامت بسلام بين ذراعي كيتي.

«إنها جميلة يا كاميرا. عيناها تذكّراني بعيني قطة».

«النساء يقلن ذلك أيضًا. لذلك أسميتها كات 'القطة'».

ضحكت وهي تأخذ الطفلة برفق من كيتي وتضع قطعة من القماش حول مؤخرتها وتربطها من كلا الجانبين.

لقد سمّاني أحدهم هكذا ذات مرة... فكّرت كيتي. أعادت كاميرا الطفلة إلى مهدها المرتجل. داعبت جبين ابنتها وهمست لها ببعض الكلمات غير المفهومة. ثمّ أظلمت عيناها ووضعت إصبعها على شفيتها.

«كأت سر؁ أليس كذلآ؟ وإلا سياتي رجال سيئون ويأخذونها. أأفهمين؟»
«أعدك يا كاميرا أن كأت ستكون بأمن هنا معنا. سأطلب من فريد أن يحرسها
بينما تعملين في المنزل».

«ما تزال رائحته كريهة؁ لكنه صديق جيد».
وافقت كيتي على ذلك قائلة: «نعم؁ فريد صديق جيد».



مرّ أسبوعان؁ ولم تهب أيّ عاصفة؁ ولم يشأ الطفل الخروج ليخفف من ضيق كيتي المتزايد؁ ولم يكن أندرو يساعد هو الآخر. كان دائم العبوس بسبب اللؤلؤتين اللتين عهد بهما إلى يدي تي بي إليس الماهرتين؁ ليراهما تتحولان إلى غبار أمام عينيه.
«ببساطة؁ هذا ليس منصفًا. لا يني والدي يسألني: لماذا لم تكتشف القوارب الشراعية الكنوز التي تعود عليها عندما كانت تحت إمرته. اللعنة؁ يا كيتي؁ عندما جاء إلى بروم لأول مرة؁ كان يكفي المرء أن يمشي على شاطئ كيبل ويلتقط اللآئ بيده من المياه الضحلة! ألا يفهم أنه منذ ذلك الحين؁ جاء العالم برمته واستقرّ هنا لصيدها؟ كلّ يوم؁ نذهب أبعد؁ إلى المياه العميقة الخطرة. لقد فقدنا الأسبوع الماضي غوّاصًا آخر؁ بسبب مشكلة في تخفيف الضغط».

أصبحت كيتي تعرف هذه الحالة وأعراضها مثلما تعرف نزلات البرد. كانت قد انبهرت عندما أأقت نظرة خاطفة على غوّاص للمرة الأولى؛ كان شابًا يابانيًا يرتدي لباس غوص جديد طلبه أندرو من إنجلترا. ارتدى الرجل النحيل البدلة القماشية الضخمة ذات اللون البيج؁ ووضعوا على رأسه خوذة برونزية كروية ثقيلة تثبتها بإحكام عند ياقته. ثمّ أثقلوا قدميه بأحذية من الرصاص وساعده زملاؤه على النزول بعد أن تحقّقوا من أن تدفق الهواء عبر الأنبوب الرفيع يعمل بشكل صحيح.

ارتعدت عندما فكّرت في كلّ تلك الأطنان من المياه التي تضغط على الرجل وهو يغوص إلى عمق عشرين مترًا؁ لا يحميه سوى قماش واهٍ والهواء الثمين الذي يتدفق عبر شريان حياته. قد يؤدّي الضغط الشديد إلى إتلاف الأذنين والمفاصل

إلى غير رجعة، وإذا ثابر الغواص، فقد ينتهي إلى الشلل والموت، وهي حالة تُعرف باسم تخفيف الضغط.

رسمت كيتي على صدرها إشارة الصليب وقالت: «رحمه الله. إنهم رجال شجعان».

نوه أندرو: «إنهم يكلّفوننا ثروة ليكونوا شجعانًا. لقد تلقّيت طلبًا آخر لزيادة أجورهم، وما زلتُ أسمع عن هذه السياسة السخيفة المطبقة في بروم، التي تمنع السود من الغوص. هل يمكن أن تتخيلي أن البيض قد يمارسون مهنة كهذه؟».

أجابت: «لا، ولكن بغض النظر عن لون البشرة، لا أستطيع أن أتخيّل أيّ شخص يخاطر بالموت كلّ يوم لمجرّد كسب المال».

«عزيزتي، أنتِ لم تعرفي الجوع، أو المسؤولية التي يشعر بها هؤلاء الرجال لكسب أكبر قدر ممكن من المال لإعالة أسرهم».

قالت بهدوء: «أنتِ على حق». استاءت كيتي من الطريقة التي يتمكن بها أندرو من الجمع بين الجشع والأخلاق في بضع جمل قصيرة. نهضت وقالت: «أعتقد أنني بحاجة إلى قيلولة».

«بالطبع. هل أرسل في طلب الدكتور بليك ليزورك هذا المساء؟».

«أشك في أنه يستطيع أن يخبرني بأكثر مما أعرفه جيدًا، وهو أن الطفل ليس مستعدًا بعد للمجيء إلى العالم».

«أخبرتني أمي أن معظم الأطفال الأوائل يتأخرون».

لكن معظم أمهاتهم لم يكنّ يعشن في بروم، مع اقتراب موسم الأمطار. قالت ذلك في نفسها وهي تومئ له برأسها وتغادر الغرفة.

أيقظتها كاميرا في وقت لاحق من ذلك المساء ووضعت على منضدتها كوبًا يحتوي على سائل ذي رائحة كريهة.

«سيدتي الرئيسة، الطفل لا يأتي. هذا ليس جيدًا. سنساعد الرجل الصغير، أليس كذلك؟». قدّمت لها الكوب وقالت: «نساؤنا يشربن هذا. سيدتي الرئيسة، لقد حان الوقت».

«ماذا يوجد في داخله؟».

«طبيعي... من الأرض. لا ضرر... اشربي الآن».

وكيتي، التي كانت يائسة، فعلت ما قيل لها.

بدأت الآلام بعد بضع ساعات، وعندما نهضت كيتي لاستخدام دورة المياه، فقدت ماءها السلوي. نادى أندرو، الذي كان نائماً في غرفة الملابس المجاورة، ثم عادت إلى الغرفة واستلقت.

قالت له عندما وصل إلى الباب: «الطفل آتٍ».

«سأرسل في طلب الدكتور بليك حالاً».

أنت كيتي التي بدأ مخاضها وهي تتلوّى من شدة الألم: «وكاميرا... أريد كاميرا معي».

وعد أندرو وهو يرتدي ملابسه على عجل وينطلق: «سأتي بها من فوري».

طوال تلك الليلة الطويلة المحمومة، وبينما كانت السحب الرعدية تتجمّع فوق بروم، لم تستطع كيتي أن تتذكّر سوى القليل، باستثناء الألم وصوت كاميرا الهادئ.

وصل الدكتور بليك. ومن مظهر وجهه، كان واضحاً أنه جاء مباشرة من حانة في شيبا لين.

تمتم في وجه أندرو: «ماذا تفعل امرأة سوداء في الغرفة؟».

صرخت كيتي: «اتركها!» بينما كانت كاميرا تدندن بصوت عالٍ وتفرك ظهر كيتي.

هزّ أندرو كتفيه للطبيب وأوماً برأسه. وبعد إجراء فحص سريع، قال لها الدكتور بليك إنه ما زال هناك متّسع من الوقت، وطلب منها أن تناديه إذا احتاجت إليه، ثم غادر الغرفة. إذًا، فقد كانت كاميرا هي التي ساعدتها على الوقوف، والمشي لتشجيع الطفل على الخروج، بينما راحت تغني له وتدعوه إلى المجيء.

في الرابعة صباحاً، تفجّرت الغيوم أخيراً، وبدأ المطر يهطل على السقف المصنوع من الصفيح.

«إنه قادم، إنه قادم، يا سيدتي الرئيسة، قريباً جداً... لا تقلقي».

عندما ومض البرق من فوقهما، وأضاء الحديقة ووجه كاميرا المطبوع بالنشوة، ضغطت كيتي ودفعت بقوة هائلة مع هدير الرعد، بينما كان طفلها يخرج إلى العالم.

استلقت كيتي، غير قادرة على فعل أي شيء سوى اللهاث. تنفست الصعداء لزوال الألم، ثم رفعت رأسها لترى طفلها، لكنها بدلاً من ذلك، رأت كاميرا جاثية بين ساقيها وتعض على شيء ما.

همست بصوت أجش كالحشرة: «ماذا تفعلين؟»

«أحرره يا سيدتي الرئيسة. ها هو».

حملت الطفل بين ذراعيها، وقلبتة رأساً على عقب وصدفت مؤخرته بقوة. لهذه الإهانة، أطلق الطفل صرخة مدوية وانفجر بالبكاء.

«خذي يا سيدتي الرئيسة. خذي طفلك. سأحضر لك الطبيب».

ثم ربّتت جبين كيتي وقالت: «إنه صبي قوي وكبير. أحسنت. أنتِ امرأة ذكية». وبهذا غادرت الغرفة.

دخل الدكتور بليك، الذي كان ينام في غرفة الجلوس للتخلص من خمار الكحول، مترنحاً من الباب.

قال وهو يحاول أن يأخذ الطفل من بين ذراعي كيتي: «يا إلهي! لقد كان مخاضاً سريعاً».

«إنه بخير يا دكتور، وأفضل أن يبقى معي».

«ولكن يجب أن أفحصه. هل هو صبي؟».

«نعم، وهو كامل».

«في هذه الحالة يجب أن أفحصكِ أنتِ».

نظرت إلى الدكتور بليك وهو يرفع الملاءة النظيفة التي وضعتها كاميرا فوقها.

«يكفي الآن، أرى أنه لا حاجة إلى ذلك».

اصطبغ وجه الدكتور بليك بالاحمرار عندما أدرك أنه نام طوال الحدث بأكمله.

«اطلب من زوجي أن يأتي لرؤية ابنه لو سمحت».

«بالطبع يا سيّدتى العزيزة. يسعدني أنها كانت عملية يسيرة وسريعة».

نعم، لقد كانت كذلك، لأن كاميرا كانت هنا، وأنت لم تكن. هذا ما قالت كيتي لنفسها.

عندما دخل أندرو إلى الغرفة، شكرت كيتي كلّ نجوم السماء لأن كاميرا عادت إليها.

بروم، أستراليا الغربية
كانون الأول 1911

قال أندرو وهو يطوي نسخته من صحيفة نورثرن تايمز، ويضعها بشكل أنيق بجوار طبق فطوره: «عزيزتي، ثمة أمر أريد أن أناقشه معك».

«وماذا يمكن أن يكون؟».

«طلب مني والدي أن أبحر إلى سنغافورة الشهر المقبل لأنضم إليه ونسافر معاً، من هناك، إلى أوروبا. إنه يرغب في أن ألتقي بمعارفه في ألمانيا وفرنسا ولندن، لأنه سئم من السفر ويريدني أن أتولى جانب مبيعات اللآلئ أيضاً. سنغيب لمدة ثلاثة أشهر تقريباً. فكّرت في أن أطلب منك مرافقتي، لكنها ستكون رحلة شاقّة في ذلك الوقت من العام، حيث تكون البحار شديدة الاضطراب. خصوصاً بالنسبة إلى طفل لم يبلغ الرابعة من عمره بعد. أفترض أنك لن تكوني على استعداد لتترك تشارلي في رعاية كاميرا؟».

أجابت كيتي: «يا إلهي، لا!».

كان تشارلي شمس نهاراتها وقمر ليلاتها. تفتقده إذا غابت عنه ساعة، فما بالك بثلاثة أشهر...

«هل أنت متأكد من أنه لا يستطيع أن يأتي معنا؟».

«كما تعلمين، قد تكون الحياة على متن السفينة مملة وغير سارة. لن نتوقف في أي ميناء لمدة تزيد عن يوم أو يومين. يجب أن أعود بحلول نهاية آذار لتحضير الموسم الجديد».

«في هذه الحالة، ربما يمكنني أن أسافر مع تشارلي من لندن إلى إدنبره؟ أرغب بشدة في أن تراه والدتي وباقي أفراد عائلتي. شقيقي الجديد، ماثيو، يبلغ من العمر خمس سنوات تقريباً، ولا يعرف شقيقته الكبرى بعد».

«عزيزتي، أعدك بأنه في العام المقبل، عندما أتمكن أخيرًا من ترتيب جدول أعمالي وضبطه، سنسافر معًا إلى إسكتلندا، ربّما لقضاء عيد الميلاد؟».

«أوه، نعم!». وأغمضت كيتي عينيها مسرورةً.

«ثمّ يمكنني أن أترككما لبضعة أسابيع في إدنبره بينما أنجز أعمالي. لكن هذا العام، مع وجود أبي، هذا غير ممكن للأسف».

كانت كيتي تعلم أن أندرو يقصد أن والده لا يريد أن يرافقهما طفل صغير. وبالمثل، كانت تعرف، من تجربتها، أن أندرو لن يقف في وجهه ويصرّ.

«حسنًا، لا أستطيع أن أترك تشارلي، ولن أغير موقفي».

اقترح أندرو: «إذًا، لماذا لا تفكرين في السفر إلى أديلاييد مع تشارلي في أثناء غيابي؟ على الأقل ستحصلين على الصحبة والأمان في أليسيا هول».

«لا، سأبقى هنا. لديّ كاميرا وفريد لحراستي، وثلاثة أشهر ليست فترة طويلة».

«لا أحبّ أن أفكر في أنك وحدك هنا يا كيتي، خصوصًا في موسم الأمطار».

«حقًا يا أندرو، سنكون بخير. لديّ جميع أصدقائنا ليسهروا علينا أيضًا. والآن جاء الدكتور سوزوكي إلى المدينة وأنشأ مستشفى الجديد، وأنا وتشارلي بصحة مطمئنة».

«ربما ينبغي أن أوّجّل الرحلة حتّى العام المقبل، عندما نتمكن من السفر معًا، لكنني حريص جدًا على أن أصبح مستقلًّا، من دون أن أشعر بأن والدي يراقبني باستمرار».

قالت: «عزيزي، على الرغم من أننا سنفتقدك، إلا أننا بمأمن هنا»، ثمّ التفتت كيتي إلى تشارلي الذي كان يجلس بينهما، يأكل بيضة وخبزًا محمّصًا، وأضافت: «أليس كذلك؟».

«نعم يا ماما!».

خبط تشارلي - هذا الملاك الأشقر الصغير الذي يلطّخ وجهه صفار البيض وفتات الخبز - المعلقة على طبقه.

أخذ أندرو الملعقة منه وقال: «اصمت يا تشارلي. والآن، يجب أن أغادر إلى المكتب. أراكما على الغداء».

بعد أن غادر، دخلت كاميرا إلى غرفة الطعام لتنظف تشارلي وتأخذه ليلعب في الحديقة مع كات. أثبت فريد أنه نجار مفيد فقد صنع أرجوحة خشبية للأطفال، وعلّقها بحبلين قويين إلى شجرة الباوباب. «في الحقيقة، لقد تغير فريد إلى حدٍّ يصعب معه التعرّف عليه. لم يعد كرية الرائحة، وبفضل تصميم كاميرا المتواصل، بدأ يفهم اللغة الإنجليزية»، ذلك هو ما فكّرت فيه كيتي راضية. بعد أن تطوّرت العلاقة بين فريد وكاميرا منذ حوالى أربع سنوات، بعد ولادة تشارلي مباشرة.

كانت السيدة جيفورد، زوجة أحد أقوى أسياد صيد اللؤلؤ في المدينة، قد قرّرت أن تأتي لزيارة المنزل من دون سابق إنذار، وهو حدث غير عادي في حد ذاته. فمن حيث المبدأ، تُرتّب هذه الأشياء قبل أسبوع على الأقل.

«كنت أمرّ بالقرب يا عزيزتي كيتي، وأدركت أنني لم أهنئك منذ ولادة ابنك. اعذريني، فقد كنت في إنجلترا، لزيارة عائلتي».

«إنه لمن اللطف أن تفكرّ بنا».

قادت كيتي إلى غرفة المعيشة وسألت وهي تراقب عينيها اللامعتين تجولان في أرجاء الغرفة: «هل يمكنني أن أحضر لك شرابًا باردًا؟».

«نعم، شكرًا لك. يا له من منزل صغير جميل».

بعد أن أشارت كيتي إلى ميدا بإحضار إبريق عصير الليمون، جلست. ومن النافذة، رأت كاميرا، وعيناها ممتلئتان بالرعب، تشير بيدها إلى عنقها، كما لو كان أحدهم يريد ذبحها. راحت السيدة جيفورد تحكي لكيتي عن التحف النفيسة والمقتنيات التي حصلت عليها مؤخرًا لمنزلها.

قالت ضاحكة: «نعتقد أن المزهرية تعود إلى حقبة المينغ».

كانت كيتي قد تعودت المزايدة التي كانت تمارسها زوجات أسياد صيد اللؤلؤ. يبدو أن تنافسهن، كان أشد من تنافس أزواجهن للحصول على تاج أنجح الأسياد في صيد اللؤلؤ في بروم.

«كان السيد جيفورد محظوظًا جدًا العام الماضي عندما عثر على ثماني لآلئ رائعة، باع إحداها مؤخرًا في باريس مقابل ثروة. أنا متأكدة من أن زوجك سيحقق القدر نفسه من النجاح في يوم من الأيام، لكنه بالطبع لا يزال شابًا وعديم الخبرة. لقد تعلم السيد جيفورد، بعد أن بذل جهودًا كبيرة، أن كثيرًا من اللآلئ الثمينة لن تصل إلى يديه، ما لم يبتكر طرائق ووسائل جديدة، وذلك بالضبط هو ما فعله ونجح فيه». تساءلت كيتي متى سيتوقف خطاب مديح السيدة جيفورد لنفسها ولزوجها.

عندما استنفدت السيدة جيفورد أخيرًا قائمة بذخها وتبذيرها، سألتها كيتي إن كانت ترغب في رؤية الطفل تشارلي. «إنه ينام الآن، لكنني أستطيع إيقاظه». «عزيزتي، لقد أنجبت ثلاثة أطفال، وأعلم مدى أهمية النوم بالنسبة إلى الطفل، لذا من فضلك لا توقظيه من أجلي. علاوة على ذلك، أخبرتني السيدة دونالدسون مؤخرًا أنك اتخذت مربية أطفال سوداء لرعايته».

«نعم، هذا صحيح».

«إذًا، يجب أن أحذرك من عدم تركها بمفردها مع الطفل مطلقًا، لأن السود يدفعون مبالغ كبيرة مقابل رؤوس الأطفال البيض، صدّقتني!». سألت كيتي بلا مبالاة: «هل يضعونها في قدر ويطهونها؟».

ارتجفت السيدة جيفورد: «من يدري يا عزيزتي؟ لكنني أكرر، لا يمكن الوثوق بهم. منذ بضعة أشهر فقط، اضطرت إلى طرد خادمتي الأخيرة، عندما علمت أنها كانت تزيد دخلها عن طريق ممارسة الدعارة في جابتاون. وعندما أقول إن ذلك لفت انتباهي، أقصد أن الفتاة كانت حاملًا منذ بضعة أشهر. لقد بذلت قصارى جهدها لإخفاء الأمر عني وعن السيد جيفورد بالطبع، لكن في النهاية، لا يمكن للمرء ألا يلاحظ ذلك. عندما قلت لها إن خدماتها لم تعد مطلوبة، هاجمتني، وتوسّلت إليّ أن أسامحها وأسمح لها بالبقاء. كان عليّ أن أطردها بالقوة. ثم اختفت في مدينة الصفيح، ولم أرها ثانية».

«حقًا؟ يا له من أمر مروّع».

«نعم يا عزيزتي». تمعّنت السيدة جيفورد في ملامح كيتي وأضافت: «من المؤكّد أن الطفل الذي كانت تحمله خلاسي، وقد وُلد بالتأكيد، لذا، يجب العثور عليه ونقله إلى إرسالية المحميّة».

«ربّاه! يا لها من قصة مأسوية». أدركت كيتي بالضبط الغاية من زيارة السيدة جيفورد.

«أقول إنها كانت عاملة جيدة وأنا أفقدها منذ ذلك الحين، ولكن باعتباري امرأة مسيحية، لم أستطع أن أتقبّل وجود طفل غير شرعي تحت سقف منزلي». ألقت السيدة جيفورد نظرة ثاقبة على كيتي.

«أنا متأكّدة من أنّك لا تقبلين بذلك. أوه، أعتقد أنّي سمعت تشارلي يبكي. هل تسمحين لي؟».

نهضت كيتي من كرسيّها وسارت بهدوء قدر ما استطاعت إلى الباب. أغلقته خلفها، وهرعت إلى المطبخ، ثمّ طلبت من ميدا أن توقظ تشارلي. التقطت الصباغ الأسود من جانب الفرن وخرجت مسرعة. وعندما دخلت الكوخ من دون أن تطرق الباب، وجدت كاميرا مختبئة تحت السرير تحضن طفلتها الصغيرة.

أعطتها الصباغ وقالت: «اصبغوها... فريد زوجك... هل تفهمين؟»

وفي الظلام، كلّ ما استطاعت كيتي رؤيته هو عينا كاميرا المرعوبتان. همست: «أفهم».

عادت مسرعةً إلى المطبخ، حيث كانت ميدا تحمل تشارلي وهو يصرخ. «من فضلك، أحضري الزجاجة إلى غرفة الجلوس».

أخذت الطفل وعادت إلى السيدة جيفورد. «سامحيني، لقد تأخّرت. كان قد بلّل نفسه». ثم جاءت ميدا بالزجاجة.

«ألا تتكفّل مربية طفلك بهذا النوع من الأشياء؟».

«بالطبع، لكن كاميرا ذهبت مع زوجها لإحضار مزيد من الحفاضات، بينما يأتي هو بالثلج من المدينة. لقد عادا لتوّهما».

علّقت السيدة جيفورد بينما كان تشارلي يمتص زجاجته بنهم: «يا له من طفل جميل، هل قلت إن اسم مربّيتك كاميرا؟».

«نعم، وأشعر بأنني محظوظة جدًا بوجودها. لقد تلّقت تعليمها في إرسالية خليج بيغل حيث كانت تعتني بالأطفال».

قالت السيدة جيفورد بعد برهة: «أتعلمين، أنا شبه متأكّدة من أن كاميرا هو اسم الخادمة الحامل التي كان عليّ أن أطردها؟ لقد أطلقنا عليها اسم أليس بالطبع».

قالت كيتي: «بالطبع، ما زلتُ أتعلّم هذه الأشياء».

«هل قلت إنها متزوجة؟».

- نعم، متزوجة من فريد الذي عمل لدى والد زوجي لسنوات ويعمل لدينا الآن. يقود العربة ويعتني بالخيول ويحرس المكان. إنه فخور جدًا بابنته الجديدة ألكينا التي وُلدت قبل أسبوعين من ولادة تشارلي. إنهم يشكّلون أسرة تقيّة، ويدرسون الكتاب المقدس بانتظام».

«حسنًا، حسنًا. لم يكن لديّ أيّ فكرة في أن أليس لديها زوج».

«قد ترغبين في التعرّف على العائلة السعيدة؟».

«نعم، بالطبع. يسرّني أن أرى أليس وطفلتها الجديدة».

«إذًا، تعالي معي».

قادت كيتي السيدة جيفورد إلى الفناء الخلفي.

«فريد، كاميرا».

كان قلب كيتي يخفق بشدّة. طرقت باب الكوخ، ولم تكن لديها أيّ فكرة عمّا إذا كانت كاميرا قد فهمت تعليماتها. لكنها تنفّست الصعداء عندما رأت أفراد «العائلة السعيدة» بأكملها - فريد وكاميرا والطفل - يظهرون من خلف الباب.

قالت كيتي وهي تحاول تهدئة الخوف في عيني كاميرا: «صديقتي العزيزة، السيدة جيفورد أرادت مقابلة زوجكِ ورؤية طفلتكِ الجديدة. أليست طفلة جميلة؟ أعتقد أنها تشبه والدها تمامًا».

دفعت كاميرا فريد وهمست له بشيء. ويُحسب له أنه صالب ذراعيه وأوماً برأسه، تمامًا مثل أب فخور.

قالت كيتي وقد لاحظت أن بقعًا سودًا بدأت تظهر على وجه الطفل بسبب الحرارة: «والآن يا فريد، لماذا لا تأخذ ألكينا بينما تأخذ كاميرا تشارلي لتطعمه. أعترف أنني منهكة تمامًا!».

صاحت كاميرا: «نعم، سيدتي».

تلا ذلك تبادل الأطفال واختفى فريد داخل الكوخ.

قالت السيدة جيفورد وهي تهوي نفسها بينما كانوا يتبعون كاميرا عائدين نحو المنزل: «يا إلهي! لم أكن أتصور أن أليس متزوجة. هم عادة ليسوا كذلك، كما تعلمين، و...».

وضعت كيتي ذراعها على ذراع السيدة جيفورد مستمتعة بكل لحظة من لحظات ضيق المرأة وقالت: «أفهم ذلك تمامًا يا سيدة جيفورد. وإنه لمن كرمك أن تكلفني نفسك عناء زيارتنا، أنا وتشارلي».

«العفو يا عزيزتي. والآن، يجب أن أغادر لأنني على موعد مع السيدة دونالدسون لنلعب البريدج. يجب أن تأتي مع أندرو لتناول العشاء قريبًا. إلى اللقاء».

راقبت كيتي السيدة جيفورد وهي تمشي مسرعة باتجاه عربتها. ثم ذهبت إلى المطبخ حيث كانت كاميرا، تطعم تشارلي وترتعش بشكل واضح.

قالت كيتي: «لقد صدّقت ذلك، أنا...» وراحت تضحك.

وعندما ظهر وجه فريد اليائس عند باب المطبخ، وهو يحمل الصغيرة كات مثل أضحية طقسية، سمحت له كيتي بالدخول وأخذت منه الطفلة المصبوغة بالأسود.

قالت كاميرا وقد ارتسمت على وجهها علامات الاشمنزاز: «تظن السيدة جيفورد أن فريد زوجي، لن أتزوج رجلًا مثله، كرية الرائحة».

ضحكت كيتي أكثر لملاحظة كاميرا.

نفخ فريد صدره ودقّه وقال: «أنا، زوج!».

وغرق الثلاثة في الضحك حتّى ألتمهم خواصرهم. ومنذ تلك اللحظة، تولى فريد مهمته الوهمية كزوج حقًا. فعندما كانت كاميرا تعمل داخل المنزل لرعاية تشارلي، كان فريد يحرس كات، كما لو أن اليوم الذي زارتهم فيه السيدة جيفورد جعل منهم أسرة حقيقية. صار يغتسل وازداد ذكاء، كما ازدادت شجاراته مع كاميرا مثل زوجين عجوزين. كان من الواضح أنه يعبدها، لكنّ كاميرا لم تكن تكثرث لذلك. «لا يناسب واحدنا الآخر، يا سيدة كيتي». استغرق الأمر شهرًا من الإقناع لكي تتمكّن كاميرا من مناداة سيدتها باسمها الأول، بدلًا من «الرئيسة».

لم يكن لدى كيتي أيّ فكرة عما يعنيه ذلك أو أين يكمن ولاء كاميرا الديني: في لحظة ما، تتحدّث إلى «أسلافها» في السماء همسًا، وتغني أغاني غريبة بصوتها العذب إذا أصيب أحد الأطفال بالحمى. وفي اليوم التالي، تجلس مع فريد في الإسطل، وتقرأ له الكتاب المقدس.

منذ زيارة السيدة جيفورد، لم تكن هناك أيّ تهديدات من المحمية المحلية. كانت كاميرا حرة في المشي أينما أرادت في بروم، مع كات وتشارلي معًا في العربة. بالنسبة إلى البيض، أصبحت الآن امرأة متزوجة، تحت راية «زوجها» وحمايته.



جلست كيتي لتكتب رسالة إلى والدتها ضمّنتها صورة حديثة لها مع أندرو وتشارلي، التقطها مصور في المدينة. بعيدًا عن عائلتها، كانت تجد عيد الميلاد أصعب وقت في السنة، وخصوصًا أنه جاء في بداية موسم الأمطار. فكّرت في ذهاب أندرو إلى أوروبا في كانون الثاني، وتمنّت أن تسافر هي وتشارلي معه لزيارة والدتها وأخوتها في إدنبره، لكنها كانت تعرف أن لا جدوى من استجدائه ثانية.

في السنوات الأربع الماضية، أصبح زوجها أكثر ارتباطًا بعمله. كانت كيتي تقرأ التوتّر على وجهه، عندما تصل حمولة مركب شراعي كبير، والإحباط في وقت لاحق من اليوم نفسه، عندما لا تحتوي على أيّ كنز. مع ذلك، كان يقول إن العمل جيد،

وإن والده سعيد بالطريقة التي تسير بها الأمور. في الشهر الماضي أُضيف مركب شراعي آخر مع طاقمه إلى أسطولهم. كانت كيتي سعيدة لأن تشارلي كان يشغل معظم وقتها، لأن اهتمام زوجها كان دائماً في مكان آخر. شيء واحد كان يتوق إليه أكثر من أي شيء، وهو اكتشاف اللؤلؤة المثالية.

قالت في نفسها وهي تغلق الظرف وتضعه على رزمة لترسله كاميرا لاحقاً، «إنه مهووس بهذه اللؤلؤة المثالية، كم أتمنى أن يقنع بما لديه».



في تلك الليلة قال أندرو على العشاء: «لقد كتبتُ إلى دروموند، وأوضحْتُ له أنك أصرت على البقاء في بروم أثناء وجودي في أوروبا. عادة ما يكون في داروين إبان شهر كانون الثاني، للإشراف على شحن الماشية إلى الأسواق الخارجية. لذا، اقترحتُ عليه في هذه الحالة، أن يأتي لزيارتك بعد أن ينتهي من عمله».

شعرت كيتي بالغثيان ما إن ذُكر اسم دروموند. «كما أكدت لك، سنكون بخير. لا حاجة لإزعاج شقيقك».

«سيفيده ذلك. لا يعرف ابن أخيه بعد، ويعيش في مزرعة نائية. أخشى أن يصبح بمثل همجية السكان الأصليين. إنه يفتقر إلى أي صبرة متحضرة».

«ألم يتزوج بعد؟»

ضحك أندرو ساخراً: «يبدو ذلك صعباً ما لم يكن مستحيلاً. لن يتمكن من العثور على زوجة ما دام مغرمًا بماشيته».

قالت كيتي وهي تتساءل عن سبب دفاعها عن شقيق زوجها: «أنا متأكدة من أنه ليس كذلك».

لم تكن قد رآته، ولم تسمع منه كلمة واحدة منذ خمس سنوات، ولا حتى برقية لتهنئتهما على ولادة تشارلي. لكن ذلك لم يُنسِها الطريقة التي قبلها بها ليلة رأس السنة، خصوصاً أن علاقاتها الزوجية تضاءلت بشكل كبير. في كثير من الأحيان، كان أندرو يذهب إلى الفراش قبلها، وعندما تتبعه إلى الغرفة تجده قد غرق في

نوم عميق، منهكًا بعد يوم مُضِنٍ من العمل. منذ ولادة تشارلي قبل ما يقرب من أربع سنوات، كانت كيتي قادرة على أن تحصي على أصابع يدها الواحدة عدد المرات التي مدَّ فيها يده إليها ومارسا الحب.

كان عدم إنجابها طفلًا ثانيًا موضوعًا للتعليق والتندر في دائرة الثرثرات من زوجات أسياد صيد اللؤلؤ. وكانت كيتي ترد بأنها تريد أن تنعم بأطول وقت ممكن مع تشارلي، وأن الحمل سيمنعها من ذلك، علاوة على أنها لا تزال فتية. والحقيقة، هي أنها كانت تتوق إلى إنجاب طفل آخر، وإلى عائلة كبيرة كالتي نشأت فيها. وأيضًا، إذا كانت صادقة، إلى لمسة رجل محب...

سألها أندرو بينما كانت كاميرا ترفع أطباق العشاء عن المائدة: «هل أنت متأكدة تمامًا من البقاء هنا بدلًا من الذهاب إلى أليسيا هول؟».

«للمرة الأخيرة يا عزيزي، نعم».

«إذا سأبئت سفري مع والدي. وأعدك، يا كيتي، بأنني سأصحبكما، أنت وتشارلي في العام القادم لزيارة عائلتك. نهض أندرو وربّت كتف زوجته.



بعد شهر، على ظهر السفينة كومبانا، ملأ الشعور بالذنب والندم عيني أندرو وهو يحضن زوجته وطفله.

- إلى اللقاء يا بني، أوصيك بوالدتك، اسهر عليها واعتنِ بها». بعد أن قال له ذلك باللغة الألمانية، وضع أندرو تشارلي أرضًا، ودوى جرس كومبانا مذكّرًا أقارب المسافرين والمودّعين بمغادرة السفينة.

«إلى اللقاء يا كيتي. سأرسل لك برقية عندما نصل إلى فريمانتل. وأعدك بأن أعود إلى المنزل ومعك هدية استثنائية». غمز لها ثم نقر على أنفه، بينما كانت كيتي ترفع تشارلي وتحضنه بين ذراعيها.

«اعتنِ بنفسك يا أندرو. والآن يا تشارلي، قل وداعًا لوالدك».

غرّد تشارلي بالألمانية: «إلى اللقاء يا بابا».

منذ ولادته، أصرّ أندرو على التحدّث إلى ابنه باللغتين الإنجليزية والألمانية والتنقّل بينهما بسهولة.

بعد أن هبطا العبّارة الخشبية، انتظرت كيتي وتشارلي على الرصيف مع حشد المؤدّعين. كان وجود كومبانا في بروم يجعل سكانها في حالة مزاجية طيبة، إذ كانت السفينة مصدر فخر شركة «إديلايد ستيمشيب كومپاني» Adelaide Steamship Company بفخامتها وتصميمها الهندسي. فقد بُنيت بقاع مسطح يتيح لها الانزلاق في خليج روبوك في أثناء انخفاض المد. ثمّ دوى البوق ولوح سكان بروم وداعًا للسفينة المبحرة وركابها.

بينما كانت كيتي وتشارلي يستقلان القطار المفتوح على امتداد الرصيف عائدين إلى المدينة، نظرت كيتي إلى المياه المتلألئة تحتها. ذلك اليوم، كان الجو مشبّعًا برطوبة لا تُطاق، واعترتها رغبة عارمة في خلع ملابسها والغوص في المياه المنعشة. فكرت في سخافة القواعد الاجتماعية السائدة؛ فبالنسبة إلى امرأة بيضاء، كانت السباحة في البحر فكرة يستحيل قبولها. كانت تعلم أن كاميرا تأخذ كات، في كثير من الأحيان، إلى الرمال الناعمة الرائعة والمياه الخفيفة لشاطئ كيبل عندما لا تغزوه قناديل البحر، وقد عرضت أن تأخذ معها تشارلي أيضًا، لكنّ أندرو رفض رفضًا قاطعًا.

«حقًا يا عزيزتي، في بعض الأحيان، تراودك أفكار سخيفة! طفلنا، يسبح مع السود؟».

- من فضلك لا تسمّهما هكذا! أنت تعرف اسميهما جيّدًا. إن طفلنا يعيش بالقرب من البحر، كما عشنا أنا وأنت، ألا ينبغي أن يتعلّم السباحة؟ أنا على يقين من أنك كنت تسبح في غلينيلغ».

قال أندرو: «كان ذلك... مختلفًا». لكنّ كيتي لم يكن لديها أيّ فكرة عما يعنيه ذلك. «أنا آسف يا كيتي، لكنه أمر مفروغ منه».

وبينما كان تشارلي ينام على كتفها، منهكًا من الحرارة والإثارة، ارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة.

في غياب القط، تسرح الفئران...



في اليوم التالي، سألت كيتي كاميرا إن كانت تعرف خليجًا صغيرًا مخفيًا حيث يستطيع تشارلي أن يخوض في الماء بعيدًا من الأعين. مستغربة طلب سيدتها، رفعت كاميرا حاجبها ذاهلة، لكنها أومأت برأسها. «أعرف مكانًا جيدًا لا يرتاده أحد».

بعد ظهر ذلك اليوم، قاد فريد المهر والعربة إلى الجانب الآخر من شبه الجزيرة. للمرة الأولى منذ وصولها إلى أستراليا، شعرت كيتي بالنعيم المطلق المتمثل بغمس قدميها في مياه المحيط الهندي الباردة. لم يكن شاطئ ريدل امتدادًا رمليًا شاسعًا كالذي يتباهى به شاطئ كيبل، لكنه، وإلى حد بعيد، كان أكثر إثارة للاهتمام، بتكويناته الصخرية الحمراء وبركه الصغيرة المليئة بالأسمك. وبتشجيع لطيف من كاميرا، التي خلعت بلوزتها وتنورتها ببراءة طفلة، سرعان ما راح تشارلي يصرخ ويخوض مع كات بسعادة في الماء. وبينما كانت كاميرا تلعب في المياه الخفيفة، رافعة تنانيرها الداخلية، شعرت كيتي برغبة شديدة في أن تحذو حذوها.

ثم أشارت كاميرا إلى السماء واستنشقت الهواء. «العاصفة قادمة. حان وقت الذهاب إلى المنزل».

على الرغم من أن السماء بدت صافية تمامًا في عيني كيتي، إلا أنها تعلمت أن تثق بغرائز كاميرا. بينما كان فريد يقود المهر والعربة في طريق العودة، سُمع دوي رعد، وبدأت قطرات موسم الأمطار الأولى تتساقط. تنهّدت كيتي وهي تدخل تشارلي إلى المنزل، فعلى الرغم من تشوّقها إلى الإحساس ببرودة الهواء المبهجة التي ترافق العاصفة، كانت تعرف أنه في خلال دقائق معدودة، ستصبح الحديقة نهرًا من الوحل الأحمر.

استمر المطر يهطل طوال الليل وحتى اليوم التالي، وبذلت كيتي قصارى جهدها لتسلية تشارلي داخل المنزل بالكتب والأوراق وأقلام التلوين. نظر إليها بحزن: «هل أستطيع اللعب مع كات يا ماما؟». «كات مع والدتها يا تشارلي. تستطيع الذهاب لرؤيتها لاحقاً». قال تشارلي وقد امتلأت عيناه بالدموع. «أريد أن أذهب الآن». نهرته: «في وقت لاحق!».

لاحظت كيتي مؤخراً أنه، بغض النظر عن الأشياء المثيرة والمسلية التي كانت تقترح أن يفعلها معاً، كل ما كان تشارلي يريده هو أن يكون مع كات. من المؤكد أن ابنة كاميرا كانت ذات طبيعة لطيفة هذأت ابن كيتي الأكثر نشاطاً وحيوية. في المقابل، لم يكن هناك أدنى شك في أنها كانت جميلة حقاً، ببشرتها الناعمة ذات اللون الماهو غوني اللامع، وعينيها العنبريتين الساحرتين. كما أدركت في الأشهر القليلة الماضية أن تشارلي لم يكن ثنائي اللغة فحسب، بل كان يتحدث ثلاث لغات أيضاً. في بعض الأحيان، كانت كيتي تسمعهما وهما يلعبان معاً في الحديقة ويتحدثان بلغة الياورو، موطن كات الأصلي.

لم تقل كيتي لأندرو شيئاً عن ذلك؛ لكن حقيقة أن تشارلي كان من الذكاء بحيث يفهم ثلاث لغات ويتحدث بها، بينما كانت هي نفسها تكافح في بعض الأحيان للعثور على الكلمة الصحيحة في لغة واحدة، جعلتها تشعر بالفخر. مع ذلك، وبينما كانت تراقب تشارلي وهو يحذق من نافذة المطبخ، ويبحث بيأس عن كات، كانت تتساءل عما إذا كانت قد سمحت لتشارلي بصرف وقت أطول مما ينبغي بصحبته.

توقّف المطر أخيراً، على الرغم من أن الوحل الأحمر غمر ورودها الثمينة، وبمساعدة فريد، صرفت صباح اليوم التالي في تنظيف الأسرة قدر استطاعتها. بعد ظهر ذلك اليوم، عندما علمت أن المد كان منخفضاً وشعرت أنه من المهم صرف بعض الوقت بمفردها مع ابنها، قادت تشارلي بالعربة إلى موقع غاثوم لتريه آثار أقدام الديناصورات.

بينما كانت كيتي تحاول أن تشرح له أن الحفر الهائلة الموجودة في الصخور أسفلها قد أحدثتها قدم عملاقة، قال تشارلي: «وحوش! هل (خلقم) الله؟» وبخته قائلة: «نقول هل خلقها الله يا تشارلي؟» مدركة أن لغة كات وكاميرا الإنجليزية المبسطة كان لها تأثير كبير فيه.

«نعم لقد خلقها الله».

«عندما (خلقم) الطفل يسوع».

أجابت: «قبل أن يُخلق الطفل يسوع».

كانت تعلم أن تشارلي أصغر من أن يتعامل مع مثل هذه الأسئلة الفلسفية. وبينما كانا عائدتين إلى المنزل، فكرت في أن الحياة تصبح أكثر تشويشاً عندما ينظر إليها المرء بعيني طفل بريء.

في ذلك المساء، وضعت كيتي تشارلي في السرير وقرأت له قصة، ثم وضعت عشاءها على صينية وحملتة إلى غرفة الجلوس. التقطت كتاباً عن الرف، وسمعت دويّ رعد آخر، فأدركت أن مزيداً من المطر كان قادماً وأن الأمطار الغزيرة بدأت بشكل جدي. استقرت لقراءة كتاب «المنزل الكئيب»، لتهدئة حواسها، وسمعت المطر يتساقط على سقف الصفيح. كان أندرو قد وعد بأنه سيعمل على تغطيته بالآجر في العام المقبل ووضع حد للقعقة الهائلة فوق رؤوسهم.

«مساء الخير يا سيدة ميرسر».

كادت كيتي أن تخرج من جلدها. استدارت ورأت أندرو، أو على الأقل نسخة منه، نصف مبّلل، وملطّخ بالطين الأحمر، يقف عند باب غرفة الجلوس.

«حبيبي!». ونهضت مسرعة نحوه. «ماذا تفعل هنا بحق السماء؟».

«كنت أتحرق شوقاً لرؤيتك بالطبع. ما هذا السؤال؟». احتضنها وشعرت بملابسه المبللة تبلّل ملابسها».

«ولكن ماذا عن الرحلة إلى سنغافورة؟ والرحلة إلى أوروبا؟ متى قرّرت العودة؟».

«كيّتي، كم هو جميل أن أضْمَك بين ذراعَيّ ثانية. كم اشتقتُ إليك يا حبيبتِي». ثمة شيء في رائحته، رائحة المسك التي تفوح منه، هو الذي نَبَّهها أخيرًا. «يا إلهي! هذا أنت!». «

أنتِ على حقٍّ يا سيدة ميرسر، هذا أنا بالفعل. طلب مني أخي الحضور لأطمئن إن كنتِ بخير في غيابه. وكنتُ أمر بالجوار...».

انتزعَت كيّتي جسدها من جسده وقالت: «بحقِّ السماء! هل تستمتع بمزحتك؟ اعتقدتُ أنك أندرو!». «

وكان ذلك ساحرًا...».

«كان ينبغي لك أن تعلن عن نفسك بشكل صحيح. أهو ذنبي إذا كنتما متطابقين؟».

مستاءة من وقاحتها، صفعته بحدّة على وجهه، ثمّ جلست على الكرسي مذعورة من تصرفها.

اعتذرت وهي تنظر إليه وهو يفرك خده المحمرّ: «سامحني يا دروموند، لم يكن سلوكي مبرّرًا على الإطلاق».

«حسنًا، لقد مررتُ بما هو أسوأ، وأسامحك. على الرغم من أنني لا أعتقد أن أندرو يناديك 'السيدة ميرسر' عندما يدخل من الباب، طالبًا عشاءه وصحبة زوجته. لكنك بالطبع على حق. كان ينبغي لي أن أعلن عن نفسي في اللحظة التي دخلتُ فيها، ولكن - اغفري غروري - ظننت أنك ستتعرفين عليّ».

«لم أكن أتوقّع مجيئك...».

«من المؤكّد أن أندرو أخبرك بأنه دعاني لزيارتك. ألم يفعل؟».

«بلى، ولكن ليس بعد وقت قصير من مغادرته».

«كنت في داروين عندما وصلتني البرقية في كانون الأول. فقررت أن لا فائدة من العودة إلى مزرعة الماشية، لأعود بعدها لأفعل ما طلبه مني أخي. هل لديك براندي؟ قد يبدو شرابًا غريبًا في هذه الحرارة، لكنني في الواقع أرتجف من البرد».

رأت كيتي الماء الموحل يسيل من ملابسه ويشكّل بركة على الأرض. «يا إلهي، سامحني فقد تركتك واقفًا هكذا والماء يسيل منك. سأنادي على الخادمة وأطلب منها أن تملأ حوض الاستحمام. وفي الوقت نفسه، سأجد البراندي. أندرو يحتفظ بزجاجة للضيوف في مكان ما». مكتبة سُر من قرأ

«هل ما تزالين ممتنعة عن الكحول؟». ابتسم لها ابتسامة ماكرة، ورغمًا عنها، ابتسمت.

«بالطبع». أخذت كأسًا وزجاجة من الخزانة وفعلت ما طلبه منها دروموند. «الآن، سوف أهتم بحمامك».

«لا حاجة لإزعاج خادمته. وجهيني نحو الماء والحوض وحسب». أفرغ كأسه بجرعة واحدة ومدّها إليها لتملأها ثانية.

سألته: «هل أنت جائع؟».

«نعم جائع، وسأكل بكل سرور أيّ عجل مسّمن تجدينه في متناول يدك. لكن أولاً، أحتاج إلى التخلص من هذه الملابس المبللة».

بعد أن قادت دروموند إلى غرفة ملابس أندرو وأرته الأباريق التي يملأ بها الحوض، ذهبت إلى المطبخ لتحضير صينية من الخبز والجبن والحساء المتبقي من وجبة الغداء.

دخل دروموند المطبخ بعد عشرين دقيقة بمنشفة ملفوفة حول خصره. «جميع ملابسك قدرة. هل يمكنني استعارة شيء من أخي؟».

«بالطبع، خذ ما تريد». لم تستطع كيتي أن تمنع نفسها من إلقاء نظرة خاطفة على صدره العاري وعضلاته المفتولة تحت سمرة كتفيه العميقة التي تشير إلى العمل اليدوي الشاق تحت الشمس.

وصل إلى غرفة الجلوس برداء أندرو الحريري وخفّيه. أكل الحساء بصمت ونهم، ثم سكب لنفسه مزيدًا من البراندي.

سألت بأدب: «هل سافرت بالقارب من داروين إلى بروم؟»

«لقد سافرت برّاً، في جزء من الطريق، على ظهور الخيل. ثم صادفت جمّالين أفغاناً كانوا يخيّمون على ضفاف نهر أورد. كان النهر فائضاً، وكانوا ينتظرون حتّى تنحسر المياه بما يكفي لنقل الجمال بأمان بوساطة الحبال. واصلت رحلتي معهم، وكانت أكثر تسلية من السفر وحدي، مع كلّ تلك القصص التي يروونها. لقد استغرقت الرحلة أياماً عدّة للوصول إلى هنا».

«سمعت أن الصحراء الواقعة خلف بروم مكان خطير».

«إنه كذلك بالفعل، لكنني لا أعتقد أنه بمثل خطورة ألسنة جاراتك. أفضل رماح السود أو الثعابين، على محادثات الطبقات الوسطى الاستعمارية».

عقبت كيتي بانزعاج: «إنك تعطي الانطباع بأن حياتنا هنا ممّلة ورتيبة. لماذا ترغب دائماً في التفضّل عليّ ورعايتي؟»

«سامحيني يا كيتي. أنا أفهم أن كلّ شيء نسبي. إن حقيقة إقامتك هنا الآن، كامرأة وحيدة غير محمية في بلدة تبعد آلاف الكيلومترات عن الحضارة، حيث يشيع القتل والاغتصاب، هي دليل على قوتك وشجاعتك. خصوصاً مع طفل صغير».

«لست غير محمية. لديّ كاميرا وفريد».

«ومن هما كاميرا وفريد؟».

«يعتني فريد بالعقار والخيول. وكاميرا تساعدني في المنزل، ومع تشارلي. لديها ابنة بعمر ابني».

«أفترض أنهما من السود؟».

«أفضّل عدم استخدام هذا المصطلح. إنهما ياورو».

«هنياً لك. إنه من غير المعتاد استخدام عائلة بأكملها، كهذه».

«لن أسميها عائلة بالضبط. الأمر معقّد».

وافق دروموند قائلاً: «دائماً ما يكون الأمر كذلك، لكنني سعيد من أجلك. وبمجرد التزام هؤلاء الأشخاص، يصبحون أكثر الخدم ولاءً. للأمانة، يدهشني أن أخي سمح لك بتوظيف هذين الزوجين».

«ليسا زوجين».

«مهما يكن وضعهما فهو غير مهم. المهم هو أن أندرو تجاوز عنصريته وسمح لهما بالعيش هنا. الآن لم يعد يقلقني وجودك هنا في بروم، وبمفردك. أعترف أنني شعرت بالرعب عندما تلقيت البرقية. لماذا لم يأخذك أخي معه؟».

«قال إنها كانت رحلة عمل وإن تشارلي لن يكون مرتاحًا على متن السفينة. أراد مني أن أذهب إلى أديلاييد للبقاء مع والدتك، لكنني رفضت».

قال ساخرًا وهو يعيد ملء كأسه: «لا شك في أنك رأيت في هذا الخيار ما هو أسوأ من الموت نفسه. أنا واثق من أنك أدركت الآن أن الشيء الوحيد الذي يهم أندرو هو إثبات نفسه لأبي. وبطبيعة الحال، أن يصبح أكثر منه ثراء».

«هذه الأشياء تهمة، بالطبع، كما تهمة أي رجل...».

«لا تهمني أنا».

«كلّ رجل آخر إذًا». كتبت كيتي انزعاجها عندما رأت دروموند يفرغ كأس البراندي ثانية.

«ربما لم أعرف الضغط الناتج عن كوني الابن الأكبر لرجل ثري. لقد فكرت كثيرًا في حقيقة أن هاتين الساعتين القصيرتين اللتين استغرقتهما للمجيء، بعد أندرو، إلى هذا العالم، كانتا هبة من السماء. أنا سعيد بحصوله على تاج آل ميرسر. وكما ترين، أنا قضية خاسرة، غير صالح لمجتمع متحضّر. على عكس أندرو، الذي كان، وما يزال، إحدى ركائزه المتينة.

«إنه بالتأكيد زوج صالح وأب حنون، ولا نطلب أكثر من ذلك. ليس لدي أي شكوى».

«حسنًا، ليس لديك أي شكوى، أما أنا فلدي». فجأةً، وضع دروموند كأسه على الطاولة: «لقد طلبت منك الانتظار حتى أعود من أوروبا قبل أن تقولي نعم لأندرو. ولم تنتظري».

حدّقت إليه كيتي، غاضبة من غروره. «هل تصدّق حقًا أنني اعتقدت أنك جاد؟ لقد اختفيت من دون كلمة واحدة».

«كنت على السفينة عندما تقدم أخي بطلب الزواج. بعد ذلك، شعرت بأنه من غير المناسب إرسال برقية أسأله فيها عن سبب عدم احترام خطيبته لأمنيتي!». «دروموند، كنتُ ثملًا تلك الليلة، كما أنت الآن!».

«سواء كنتُ ثملًا أو صاحيًا، ما هو الفرق بحق الجحيم؟! كنتِ تعلمين أنني أريدك!».

«لم أكن أعرف شيئًا! كفى!». نهضت كييتي وهي ترتجف من الغضب. «لن أستمع إلى هذا الهراء بعد الآن. أنا زوجة أندرو، ولدينا طفل وحياة معًا، نقطة نهائية».

خيم الصمت. وحده صوت المطر المتساقط على السطح فوقهما كان مسموعًا. «أعتذر يا كييتي. لقد كانت رحلة طويلة وشاقّة. أنا منهك وغير معتاد على الصحبة المتحضّرة. ربما ينبغي لي أن أخلد إلى النوم». «نعم، ربما ينبغي لك ذلك».

نهض دروموند وهو يترنّح قليلًا: «تصبحين على خير». مشى إلى الباب، ثمّ استدار لينظر إليها. «إن أكثر ذكرياتي إلحاحًا هي تلك القبلّة ليلة رأس السنة. وأنتِ؟».

بهذه الكلمات، غادر الغرفة.

لم تنم كيّتي تلك الليلة إلا بصعوبة، فقد كانت كلمات دروموند تتزاحم في رأسها مثل سرب من الذباب حول جيفة.

في صباح اليوم التالي، قال أثناء تناول الفطور: «من فضلك تجاهلي كلّ ما قلّته أمس، كنْتُ أهذي من شدة الإرهاق والشراب».

أخذ تشارلي بين ذراعيه وقذف به عاليًا في الهواء، ثمّ تلقّفه ووضع ساقيه المكتنزتين حول كتفيه العريضتين. «حسنًا يا ابن أخي، علينا نحن الرجال أن نتضافر معًا. أرني ما يجب أن يُرى هنا».

اختفيا من الممر، وغابا وقتًا طويلًا، وعندما عادا أخيرًا كانت كيّتي في ذروة القلق. قال دروموند وهو يضعه على قدميه: «لقد أراني تشارلي المدينة».

لاحظت كيّتي أن وجه ابنها كان ملطّخًا بالشوكولاتة والآيس كريم، والله وحده يعلم ماذا أيضًا.

«صحيح يا ماما، وكان الجميع يعتقدون أنه بابا! إنه مثله!».

«نعم يا تشارلي. إنه مثله».

ضحك دروموند وهو يمسح فم الطفل: «لقد خدعناهم، أليس كذلك يا تشارلي؟».

«أجل هذا أكيد، عم دروم».

- يجب أن نتوقّع زيارة بعض الجيران الحائرين الذين يعتقدون أن زوجك قد عاد مبكرًا من سفره. أنا شخصيًا لا أستطيع الانتظار». وغمز دروموند لكيّتي.

وبالفعل، جاء سيل من سكان المدينة يطرقون بابها في الأيام التي تلت. وفي كلّ مرة، كان دروموند يستقبلهم ويرحّب بهم بأدب، ويتصرّف مثل مضيف

مثالي. كان أكثر حماسة من أخيه، يمزج معهم ويلطفهم، ويسحر كل من يقابله. وبالطبع، فقد نجم عن ذلك سيل من الدعوات على العشاء التي ازدحم بها صندوق البريد.

قالت كيتي وهي تفتح رسالة جديدة: «دعوة أخرى. من آل جيفورد! حقًا يا دروموند، يجب أن نرفضها جميعًا».

«لماذا؟ ألسْتُ شقيق زوجكِ؟ ناهيك بأنني عم تشارلي وابن أبي؟ ألم أدعِ إلى هنا بناءً على طلب محدّد من أخي التوأم؟».

«لقد قلتُ مؤخرًا إن لدغة أفعى أقل فتكًا من السنة جاراتي. سوف تنظر إلى مثل هذه الدعوات كتسلية، ومهما تكن تجد معارفنا من «الطبقة الوسطى الاستعمارية» مملّين، فأنا لا أريدك أن تسيء إليهم».

صاح، وكانت قد تركته واتّجهت إلى غرفة الجلوس: «لقد قلتُ لكِ إنني كنت ثملًا ذاك المساء. لا أتذكّر شيئًا».

تفحّصتها كاميرا ومنفضة الريش في يدها: «ما بك سيدة كيتي، تبدين حزينة».

«لا شيء، أعتقد أنني متعبة».

«السيد دروم أزعجكِ؟».

تنهّدت كيتي: «لا. الأمر معقّد جدًّا بحيث لا يمكن شرحه».

«السيد دروموند مثل النور في السماء؛ السيد أندرو مظلم، مثل الأرض».

«كلاهما طيّب، لكنهما مختلفان فحسب». فكّرت كيتي بمدى دقة تقييم كاميرا للتوأمين.

«تشارلي يحبّه وأنا وفريد نحبه. وجوده هنا جيّد لنا».

ولكن ليس بالنسبة إليّ...

«نعم، من الجيّد أنه هنا. وأنتِ على حق، يبدو أن تشارلي يعشقه».

«السيد دروم يجعل حياتكِ أفضل يا سيدة كيتي. إنه رجل مرح».

نهضت كيتي: «أعتقد أنني سأخذ قيلولة يا كاميرا. هل يمكنكِ أن تهتمي

بتشارلي؟»

تأملتها كاميرا بشكل مثير للريبة: «نعم. أنا المسؤولة عن الرجل الصغير».

ذهبت كيكي للاستلقاء وتساءلت إن لم تكن مريضة. من المؤكد أنها شعرت بالحُمى، وعلى الرغم من نواياها الطيبة، فإن مجرد التفكير في وجود دروموند على بعد أمتار قليلة، يفصلهما جدار رقيق، قد ألهب حواسها. لم يقل لها كلمة حميمية واحدة منذ الليلة الأولى، واعترف بأنه كان ثملاً على أي حال...

استدارت على جنبها محاولة إيجاد وضعية مريحة لجسدها وعقلها المتعب. ربما جاء بحسن نية: الاهتمام بزوجة أخيه كما طلب منه شقيقه أن يفعل.



من سنغافورة. سمعتُ أن دروموند معكِ. سعيد لأنكِ لستِ وحدكِ. الأعمال على ما يُرام. قبلاتي لك ولتشارلي. أندرو.

قرأت كيكي البرقية أثناء الفطور وتأوهت. حتى زوجها بدا وكأنه يعتقد أن إقامة دروموند معهم أمر رائع. وحتى الآن، لم يتخذ ضيفها أي خطوة تدل على أنه سيغادر. في نهاية المطاف، لم يكن أمامها من خيار سوى قبول بعض دعوات العشاء، وبالتالي، فقد لبيا ثلاث دعوات على العشاء الأسبوع الماضي. ولدهشتها، كان دروموند يتصرف بطريقة لا تشوبها شائبة، حيث كان يسحر الزوجات ويروي لأزواجهن قصصاً شائعة عن حياته في المناطق النائية. والأهم من ذلك، لم يكن يسرف في الشراب ويبقى صاحباً طوال السهرة.

ضحكت السيدة جيفورد عندما قبل دروموند يدها وهو يودّعها وقالت: «عودا لزيارتنا. ربما الأحد المقبل، على الغداء؟».

ردّت كيكي بأدب: «شكراً لك يا سيدة جيفورد، سأخبرك إذا كنا أحراراً بمجرد أن أراجع مفكرتي».

«لا بُدّ من أنه أمر غريب بالنسبة إليك، أن يقيم دروموند معكِ في المنزل، وهو يمثل هذا الشبه بزوجك، لكنه... أكثر».

احمرت السيدة جيفورد خجلاً كفتاة صغيرة وقالت: «ليلة سعيدة يا عزيزتي».

كانت السماء تمطر بلا انقطاع، ولكن مع ذلك، وجد دروموند طرائق للترفيه عن تشارلي وكات. كانوا يلعبون الغميضة داخل المنزل، ويصرخون من الإثارة ويركضون في كل اتجاه. كما جرى تحويل المدخل إلى ملعب كريكييت مصغر، وأعرب دروموند عن رعبه من أن أندرو لم يعلم ابنه بعد قواعد اللعبة الأساسية. كما طُلب من فريد أن يقطع بعض جذوع الأشجار ليصنع مرمى ومضربًا، وقال دروموند إنه قام بعمل رائع.

مع استمرار هطول المطر، أصبح الباب الأمامي ملطخًا بآثار الكرة التي اشتراها دروموند من المتجر العام هدية لتشارلي، وكانت كات حارسة مرمى أو لاعبة ميدان، أمّا كيتي فكانت تسجل النقاط. بنهاية المباراة، على الرغم من تسجيل كيتي الدقيق، كان دروموند يعلن التعادل دائمًا.

أعلنت كاميرا بعد ظهر أحد الأيام، بينما كانت تقود الطفلين المتحمسين إلى المطبخ لتناول الشاي: «البيت سعيد عندما يكون في الجوار، متى يغادر يا سيدة كيتي؟».

أجابت بصدق، من دون أن تعرف ما إذا كانت ترغب في رحيله أم لا: «ليس لدي أدنى فكرة على الإطلاق».



سألت كيتي دروموند على العشاء متى يغادر فأجاب: «عندما يتوقف المطر، بحسب ما أعتقد».

أجابت كيتي وهي تعبت بالدجاج المطهو أكثر مما يلزم في طبقها: «قد يستغرق ذلك بضعة أسابيع. ما يزال طارق غير قادر على تحديد المدة اللازمة لشواء الطيور».

«هل ترين مشكلة في بقائي؟ إذا لم يكن مرحبًا بي هنا، فسأرحل».

«لا. لم أقصد ذلك...».

قال وهو يحدّق إليها متفحصًا: «إذا ما الأمر؟».

«لا شيء. ربّما أنا متعبة هذا المساء».

«ربّما تجددين وجودي غير مريح. لم أرك متوترة إلى هذا الحد من قبل. وأنا الذي كنتُ أعتقد أنني أتصرّف بشكل جيد أمام جميع أصدقائك، وأبذل قصارى جهدي لتسلية تشارلي وكات. يا لها من طفلة رائعة. عندما تكبر ستكون غاية في الجمال. كما أنني أساعد فريد في الحفاظ على الحديقة خاليةً من الطين، و...».

«توقّف! من فضلك، توقّف فحسب». أخذت كيتي رأسها بين يديها.

«باللّٰه عليك يا كيتي، ماذا فعلتُ؟ قلّلي أرجوك، وسأحاول تصحيح ذلك. حتّى أنني توقفت عن شرب الكحول لأنني أعلم أنك لا تحبينه. أنا...».

«ألا تفهم؟».

«ماذا؟».

«لا أعرف لماذا أنت هنا، أو ماذا تريد! مهما يكن الهدف من بقائك، فأنا ببساطة... مرهقة!».

تنهّد قائلاً: «أرى ذلك، سامحيني. لم يكن لديّ أيّ فكرة في أن حضوري هنا يزعجك إلى هذا الحد. سأغادر غدًا صباحًا».

وضعت كيتي يدها على جبينها: «دروموند. لم أطلب منك أن تغادر غدًا، بل سألتك متى ستغادر. لماذا تضخّم كلّ شيء؟ هل تذهب إلى سريك ليلاً وتقول في نفسك، لقد خدعتُ الجميع؟ أم أن هذا هو دروموند الحقيقي والآخر مجرّد ادعاء؟ أو ربّما لا علاقة للأمر بأيّ منّا. وعلى الرغم من نكرانك ذلك، فإنك لا تستطيع تغيير حقيقة أنك وُلدتَ بعد ساعتين من ولادة أخيك وأن لديه كلّ ما تريده!».

خبط دروموند بقبضته على الطاولة، فارتجّت أواني الخزف الصيني، والزجاج، وأدوات المائدة، مُحدّثَةً نَشَازًا، كما لو كانت أوركسترا سريالية: «كفى!».

سألته كيتي من جديد: «حسنًا؟ ما هو؟ ما هو السبب الحقيقي لوجودك هنا؟ صمت لفترة طويلة قبل أن ينظر إليها: «أليس واضحًا؟».

«لا. ليس بالنسبة إليّ».

وقف دروموند وغادر الغرفة، صافقًا الباب خلفه. تساءلت إن لم يكن قد ذهب لحزم أمتعته ليغادر في الحال، أم أنه ذلك النوع من الحركات الدرامية التي كان يميل إليها؟

وفي غضون ثوانٍ قليلة عاد، ليس مع أمتعته، ولكن مع إبريق.

«لقد أحضرتُ لك كأسًا، لكنني أفترض أنك لا تريدونها.»

«لا، شكرًا. على الأقل، إنه درس أشكرك على تعليمي إياه.»

«لا دروس أخرى؟»

«لا، على حدّ علمي. مهلًا، تعلّمتُ التسجيل في لعبة الكريكيّت أيضًا، حتّى لو كنتَ تعدّل النتيجة دائمًا.»

ابتسم لهذه الملاحظة وأخذ رشفة من البراندي. «على الأقل، نجحتُ في شيء ما. أنتِ على حق، بطبيعة الحال.»

«لماذا أنا على حق؟ أرجوك يا دروموند، اعفني من ألغازك.»

«سأقول لك لماذا. لقد قلت منذ لحظات قليلة إنني ربما كنت أرغب سرًا في الحصول على كلّ ما يملكه أخي. حسنًا، لقد كنتِ على حق، لأن ثمة شيئًا كنت أريده بشدّة وما أزال. عندما التقيتُ للمرة الأولى في عيد الميلاد تلك السنة، أعجبتُ بروحك، ونعم، وجدّتكِ جذابة، ولكن هل يوجد رجل في هذا العالم لا يجدرُ كذلك؟ أنتِ امرأة جميلة. ثم رأيتُ أخي يضعكِ نصبَ عينيه، وأعترف الآن بأن رغبته فيكِ زادت من جاذبيتكِ عندي. لا يمكن إلغاء المنافسة بين شقيقين توأمين يا كيتي، لقد كنّا كذلك دائمًا. ومع ذلك، إذا بدأ الأمر كلعبة، فأنا أعتذر، لأنني في ليلة عيد الميلاد تلك، رأيتُ كيف تأقلمتِ مع عائلتنا وطرائقها، وكيف كنتِ صبورة مع والدي وخالتي، ولم تشتكي أبدًا من افتقاركِ عائلتكِ، وقبلتِ بكل إخلاص كلّ ما قدّم لك. لن أنسى أبدًا صعودك على ظهر ذاك الفيل من دون الاهتمام بمظهرك أو حشمتك. وفي تلك اللحظة تغيّر كلّ شيء. لأنني رأيتُ روحك. رأيتُ أنها كانت حرة مثل روحي، غير مقيّدة بالتقاليد. رأيتُ امرأة أستطيع أن أحبها.»

رَكَزَت كيتي على الماء في كأسها، ولم تجرؤ على رفع عينيها إليه.

«عندما طلبت منك أن تنتظريني، كنتُ جدًّا للغاية، لكن الوقت كان ضيقًا جدًّا، ومتأخرًا جدًّا. كنت أعرف ذلك عندما غادرت، وأعترف أنني لو كنت في مكانكِ، لاتخذتُ القرار نفسه. شقيقان متماثلان في المظهر، أحدهما سكير ومهرج، والآخر... حسنًا... أنت تعرفين من هو أندرو. عندما حدث ما لا مفرَّ منه، وسمعتُ أنك ستتزوجين بأخي، عرفتُ أنني خسرتُ. مرَّ الوقت وعشت حياتي، كما نفعل جميعًا. ثم تلقَّيتَ بركة من أندرو يطلب مني أن آتي لرؤيتك في بروم. سوف يصدملك اعترافي بأنني فكَّرتُ في الأمر لساعات طويلة. في النهاية، قررتُ أنه من الأفضل أن آتي إلى هنا لأدفن أشباح الماضي، وأمضي قُدَّمًا. دخلتُ إلى هنا مبهلاً، ومنهكًا، وألقيت عليك نظرة واحدة، وعرفت من فوري أن شيئًا لم يتغيَّر. على أيِّ حال، بما أنني لمست قوتك وإصرارك على توفير حياة كريمة لك ولطفلك في بيئة معادية قد يجدها معظم الرجال - فما بالك بالنساء - مخيفَةً، زاد إعجابي بك واحترامي لك. بكل بساطة، يا عزيزتي كيتي، أنتِ، وإلى حدٍّ بعيد، المرأة الأشجع والأعند والأذكى والأجمل من كلِّ النساء اللواتي تعرَّفتُ إليهن في حياتي كلَّها. ولسبب استثنائي لا أفهمه، أحبُّ كلَّ ذرَّة في جسدك الجميل اللعين. ها أنت تعرفين كلَّ شيء».

بهذه الكلمات ختم كلامه ورفع كأسه وشرب.

لم تصدِّق كيتي ما سمعته لتوها، أو تجرؤ على الوثوق به. كلَّ كلمة قالها كانت تعبِّر عن مشاعرها بالضبط. مع ذلك، عرفت أنه كان عليها أن تردَّ بشكل عملي.

«أنا زوجة أخيك وقد اعترفتُ بأنك تشتهي ما عنده. هل أنت متأكَّد من أن ما تشعر به نحوي لا علاقة له بذلك؟».

«يا إلهي! لقد وضعتُ قلبي على طبق وقدَّمته لك، فلا تمرِّقِه بلسانكِ الحاد. مع ذلك، ليس المهمُّ هو إن كنتِ تصدِّقيني، بل المهمُّ هو أن أصدِّق نفسي. لقد سألتني عن سبب بقائي هنا وأخبرتُكِ بالحقيقة: أنا لكِ بكلِّيتي. إذا كنتِ تريدين أن أرحل، فسأرحل».

«بالطبع يمكنك أن تبقى. لماذا ترحل؟ زوجي نفسه هو الذي دعاكَ. من فضلك، تجاهل مزاجي الغريب هذه الليلة. ربَّما يكون السبب شيئًا أكلته».

نظر إلى وجهها بحثًا عن الحقيقة، لكنها دفعتها إلى أعماقها.

لن أفعل مثل ما فعل والدي...

«أنا متعبة يا دروموند. إذا سمحت لي، سأخلد إلى النوم. طاب مساؤك».

شعرت بعينه يتابعانها وهي تسير نحو الباب.

قال: «طاب مساؤك يا سيدة ميرسر».



مع استقرار موسم الأمطار على بروم، أصبحت الشوارع مغمورة بالمياه وغير سالكة. دُعِمَت المحلات التجارية على طول دامبيير تيراس بأكياس الرمل، وخَوْض فريد بشجاعة في الأوحال لجلب المؤن. نظرت كيتي من النافذة ورأت حديقته الغالية مدفونة تحت نهر من الطين الأحمر. انهمرت الدموع من عينها وهي تفكر في الحب الذي وضعته فيها والساعات الطوال التي قضتها لتصنع جزءًا صغيرًا من وطنها البعيد.

كانوا مقيدين في المنزل وقد زاد ذلك من توتر الوضع مع دروموند. حتى لو كان يرغب في المغادرة، مع استمرار سوء الطقس، لم يكن لديه خيار سوى البقاء في مكانه. بعد أيام طويلة، ظنت كيتي خلالها أنها قد تُصاب بالجنون بسبب الإحباط والرغبة، توقف المطر أخيرًا، وخرجوا جميعهم مثل حيوانات الخلد يخفون بأجفانهم تحت ضوء الشمس الساطع. في غضون دقائق، كان تشارلي وكات غارقين في الوحل الأحمر، يصرخان ويتراشقان بالطين.

بدا الهواء منعشًا وباردًا، لكن رائحة المجاري الكريهة كانت عالقة فيه.

قالت وهي تسحب تشارلي من الوحل: «من الأفضل أن نتوَّخى الحذر، إنه موسم الكوليرا. افركي الأطفال جيدًا يا كاميرا».

«حاضر يا سيدة كيتي. وقت سيئ وخطر بعد توقف هطول الأمطار».

سرعان ما وردت إلى المنزل أنباء عن نقل خمس حالات إصابة بالكوليرا إلى مستشفى الدكتور سوزوكي، وبعدها، جرى الإبلاغ عن حالات أخرى كثيرة.

طمأنها دروموند بعد أن قام بنزهة في المدينة لتحريك ساقيه: «على الأقل يقتصر الأمر على مدينة الصفيح في الوقت الحالي. لم يُبلغ عن حالات بين البيض حتى الآن».

ولكن سرعان ما حدث ذلك، فبعد أن هربوا من منازلهم لبضعة أيام، أغلقت الأبواب ثانية، وهذه المرة في مواجهة وباء قاتل.

كان فريد هو أول من أصيب في منزل ميرسر، وكان يرقد هادئًا على فراش القش في الإسطبلات. فوجئت كيتي عندما ألحّت كاميرا على الاعتناء به بنفسها بدلًا من نقله إلى المستشفى.

قالت بحزم: «لقد كان طيبًا معي وأنا لا أثق بهؤلاء الأطباء».

كانت كيتي تعلم أن السكان الأصليين هم آخر من توفّر لهم الرعاية في المستشفيات. شبكت يديها بيدي كاميرا وقالت: «بالطبع. ولكن أخبريني بما يمكنني فعله للمساعدة».

عند عودتها إلى المنزل، خفق قلب كيتي من الرعب عندما فكرت في عدد المرات التي كان فيها تشارلي مع فريد، فطمأنها دروموند: «حاوِلي ألا تقلقي. إن مقاومة السكان الأصليين للكوليرا أضعف من مقاومتنا بكثير. لقد جلبنا معنا إلى أستراليا كلّ أمراضنا الغريبة التي قتلت الآلاف منهم».

«على الرغم من أن هذا مروّع، إلا أنه يريحني من أجل تشارلي». ثم ابتسمت له ابتسامة ضعيفة وقالت: «أنا سعيدة لأنك هنا».

قال وهو ينحني تقديرًا: «حسنًا، هذا هو أول شيء إيجابي تقولينه لي منذ أيام. من دواعي سروري يا سيدتي».

بينما كان فريد يتعرق في الليلتين التاليتين مكافحًا ضد المرض، عبّرت كاميرا عن عدم ثقتها بأنه سيتعافى، لكنها كانت تذهب إلى المطبخ وتحضّر له خلطات كريهة الرائحة.

اقترح دروموند: «ما رأيك في أن نأخذ الأطفال بالعربة إلى الشاطئ؟».

«لا، بالتأكيد».

«يقع شاطئ ريدل بعيدًا من المدينة. أعتقد أن بعض الهواء النقي سيفيدنا جميعًا».

كانت كيتي مثله تتشوّق إلى مغادرة المنزل، لذلك جهّزت زادًا خفيّفًا وانطلقوا سالكين الطريق الأطول لتجنّب المرور بالمدينة.

جلست كيتي على الرمل الناعم بينما خلع دروموند ملابسه ونزل إلى الماء بسرواله الداخلي الطويل. قال ممازحًا: «آسف، ولكن لا بُدّ من ذلك. هيّا يا أطفال، تسابقا إلى الماء!»

رأت تشارلي وكات يصرخان من الفرع بينما كان دروموند يلعب معهما في المياه الضحلة. أسعدها الخروج من جو الضيق الذي يسود في المنزل الكئيب، لكنها في الوقت نفسه شعرت بالانزعاج من صورة نزهةٍ عائليّةٍ مع رجل لم تخفه قواعد المجتمع، ويشبه أندرو، لكنه لم يكن أندرو. رجل يعرف كيف يضحك ويعيش اللحظة.

اعترفت كيتي لنفسها أخيرًا، بأنها كانت تتمنى من كلّ قلبها أن تكون الأمور مختلفة.

عندما عادوا إلى المنزل، كانت كاميرا في المطبخ، وعلى وجهها علامات الارتياح. «سيكون فريد بخير الآن».

قالت كيتي وهي تعانق كاميرا: «الحمد لله. حسنًا، فلنضع هذين الطفلين في حوض الاستحمام ونفكر في العشاء».

في الساعات الأولى من الليل، شعرت كيتي بالمرض والحمّى. ثمّ بدأ بطنها يتقلص وبالكاد تمكّنت من الوصول إلى الحمام، حيث وجدتْها كاميرا في صباح اليوم التالي، منهارة على الأرض.

«سيد دروم! تعال بسرعة!».

ربما كانت تحلم، لكن كيتي سمعت كاميرا وهي تصرخ في وجه دروموند: «لا مستشفى، يا سيد دروم! مرضى كثيرون! أنت تذهب لتحضر الأدوية، نحن نعتني بالسيدة كيتي هنا».

فتحت عينيها لترى وجه أندرو - أو ربما وجه دروموند - وهو يحثها على ارتشاف سائل مالح جعلها تنقياً، ثم لاحظت أن رائحة حمضية كريهة معلقة بشكل دائم في الهواء.

غسلتها يدان لطيفتان بالماء البارد بينما كانت معدتها تنقبض مرة تلو أخرى. ثم حلمت أنها تطفو مع أسلاف كاميرا الذين يعيشون في السماء، أو ربما كانت مع الله نفسه... في إحدى المرات، فتحت عينيها ورأت أمامها ملاكاً أبيض يمدّ لها يده، وسمعت صوتاً عذباً عالي النبرة يصدح في أذنها.

قالت في نفسها وهي تبتسم: سيكون التحزّر من الألم جميلاً.

ثم ظهرت شخصية أخرى أمام الملاك، تقول لها: «كافحي يا عزيزتي كيتي. لا تتركيني الآن، أنا أحبك، أحبك...».

لا بُدّ من أنها نامت، لأنها عندما فتحت عينيها، استطاعت أن ترى شقوقاً أفقية صغيرة من الضوء تتسلّل من خلف المصاريع.

تمتمت: «لماذا لم يغلق أحد الستائر؟ أنا أغلقها دائماً. إنها تساعد على تخفيف الحرارة...».

«حسنًا، يا صاحبة الجلالة، من فضلك أن تغفري لامبالاتي. لقد كانت لديّ مشاغل أخرى أهمّ في الآونة الأخيرة.

كان دروموند يقف فوقها ويداه على خصره. بدا مخيفاً، شاحباً ومنهكاً، ترسم تحت عينيه هالتان أرجوانيتان داكنتان. قال لها: «مرحباً بعودتك إلى عالم الأحياء.»

«حلمت أن ملاكاً جاء ليحملني إلى السماء.»

«أنا متأكد من ذلك. لقد كدنا أن نفقدك يا كيتي. ظننت أنك كنتِ تستسلمين. مع ذلك، يبدو لي أن الله لم يكن يريدك بعد، وأعادكِ إلينا.»

همست وهي تحاول الجلوس: «ربما يكون هناك إله في نهاية المطاف»، لكنها شعرت بدوار شديد واستلقت على الوسائد.

«هذا موضوع نناقشه في وقت آخر، ليس الآن، بعد أن آخذ قيلولة. يبدو لي أنك واعية، إلى حدّ ما. لم تلوّثي سريرك منذ اثنتي عشرة ساعة كاملة.»

«ألوث سريري؟!».

«الكوليرا مرض خطير ومحرج. لا تقلقي، كنت أخرج من الغرفة عندما كانت كاميرا تغيّر الملاءات وملابسك. لقد فعلت الكثير. على الرغم من أنني أعترف أنك لو متّ، لذهبت إلى مركز الشرطة وأبلغت عنها واتهمتها بجريمة قتل سيّدتها وأصررت على اعتقالها. عندما حاولت أن آخذك إلى المستشفى، قاتلت بشراسة لبوة لتمنعني من ذلك. لقد تمكّنتُ من إقناعي بأن مستشفى البيض هو أسوأ مكان لكِ لأنه مليء بالمرض، وكانت على حق. فإذا لم يمِت المريض من بكتيرياته الشخصية، تقتله بكتيريات جاره. لقد قاومتُ بعناد واضطرتُّ إلى الإذعان في نهاية المطاف».

«أقسم بأنني رأيت ملاكًا هنا....».

«هل تهذين مجددًا يا كيتي؟ لا أتمنى ذلك. حسنًا، سأتركك لحديثك عن الملائكة وأذهب لأخبر الممرضة كاميرا أنك على قيد الحياة، وأنه من الممكن أن تتحسن حالتك قريبًا».

راقبته كيتي وهو يسير نحو الباب.

«شكرًا لك». تمكّنت من نطق هاتين الكلمتين، لكن ليس من دون مشقة.

«من دواعي سروري يا سيدتي. في خدمتك دائمًا».

أصرت: «لقد رأيتُ ملاكًا».

منهكةً وعاجزةً عن الكلام، أغمضتُ عينيها وغرقتُ في النوم مجددًا.



«كان السيد دروم معكِ ليل نهار. لم يترككِ مطلقًا إلا عندما كنتِ أغيّر لكِ الملاءات النتنة. إنه رجل أبيض جيد، استمع إليّ عندما قلتُ له: لا مستشفى».

كيتي، التي كانت تجلس في السرير وتبذل قصارى جهدها لترتشف الحساء المالح على الصينية أمامها، تفحصت تعابير كاميرا الحالمة. أدركت أن ممرّضتها ومساعدتها قد وقعت تحت تأثير سحر «السيد دروم» أيضًا.

أومات برأسها بقناعة: «إنه يحبكِ يا سيدة كيتي».

حاولت كيتي تخفيف رد فعلها الغريزي على كلمات كاميرا: «بالطبع لا! أو على الأقل، إنه يحبني كما ينبغي لأي رجل أن يحب زوجة أخيه».

دوّرت كاميرا عينيها احتجاجًا: «أنتِ امرأة محظوظة، يا سيدة كيتي. معظم البيض ليسوا جيّدين مثله. الآن، كلي لتقوّي نفسك من أجل ابنك».

بعد يومين، شعرت كيتي بالثقة الكافية لرؤية تشارلي من دون أن تخيفه رؤيتها.

ألقى نفسه بين ذراعيها فشعرت بقوة الحياة المطلقة في داخله. قال: «ماما! هل أنتِ أفضل؟».

«أفضل بكثير يا حبيبي تشارلي. أوه، أنا سعيدة جدًا برؤيتك».

«قال بابا إنه سيعود إلى المنزل عندما أرسل له العم دروم برقية يخبره فيها أنك مريضة».

غريزيًا، شعرت كيتي بالغثيان، تمامًا كما حدث خلال أسوأ مراحل مرضها الأخير. «قال ذلك؟ هذا لطف كبير منه».

«نعم، ولكن بعد ذلك، عاد العم دروم إلى مكتب التلغراف ليخبر بابا بأنكِ تعافيت، لذلك فهو لن يعود».

«لا بُدّ من أنك تشعر بخيبة الأمل يا تشارلي».

«نعم، ولكن العم دروم سيعتني بنا، وهو يشبهه تمامًا، لكنه أكثر مرحًا ويلعب الكريكييت ويسبح معنا. لماذا لا يسبح بابا معنا؟».

«ربما سيفعل ذلك إذا طلبنا منه بلطف».

«لن يفعل، لأنه مشغول بعمله دائمًا».

قبلها تشارلي على خدها بينما كانت يدها المكنزتان تلتفان حول عنقها. «أنا سعيد لأنكِ لم تموتي. أنا وكات، سنساعد فريد على بناء كوخ في الحديقة».

«أيّ كوخ؟».

«منزلنا الخاص. يمكننا أن نعيش فيه معًا، وربما نتناول عشاءنا هناك في بعض الأحيان».

توسّلت عينا تشارلي إلى أمه، وقال: «هل نستطيع؟»
كانت منهكةً لدرجة لا تسمح لها بالجدال، فوافقت: «ربما في بعض الأحيان».
«وذات يوم، سوف نتزوَّج مثلكِ أنت وبابا. إلى اللقاء يا ماما. تناولني حساءك وكوني قوية».

راقبتة كيتي وهو يغادر الغرفة بخطى واثقة. بدا أنه قد كبر في الأيام القليلة الماضية، سواء من حيث النضج أو القامة.

على الرغم من براءة ألعاب الطفولة، تساءلت كيتي من جديد إن كانت قد ارتكبت خطأ عندما عهدت إلى كاميرا برعاية تشارلي؟ ولكن ذلك كله كان موضوعًا للتفكير في وقت آخر. ركّزت كيتي على إنهاء حسائها.

في صباح اليوم التالي، أصرت على أن صحتّها جيدة بما يكفي لتستحم وترتدي ملابسها. كان الطعام لا يزال يمثل مشكلة، إذ كان يشعرها بالغثيان كلما نظرت إليه، لكنها بذلت قصارى جهدها لتتغذى. كان تشارلي وكات مشغولين في الحديقة مع فريد، الذي كان ينشر الخشب ويدقّ المسامير لبناء كوخهما.

علّق دروموند أثناء الفطور قائلاً: «إنه رجل طيّب. لقد عاملته هو وكاميرا باحترام، وقد ردّا لك الجميل أضعافاً مضاعفة».

«أنت رجل طيّب أيضاً. شكراً لك على الاهتمام بي عندما كنتُ مريضة. لا أعرف ماذا كنتُ لأفعل لو لم تكن هنا».

«من دواعي سروري، أو على الأقل، واجبي. لا يسعني أن أتركك تموتين أمام عيني، أليس كذلك؟ لم يكن أخي ليسامحني أبداً. أما الخبر السار فهو أن الوباء قد انتهى في المدينة، على الرغم من أن الدكتور سوزوكي أخبرني أنهم فقدوا عشرات الأرواح وثلاثة أضعافها في مدينة الصفيح. من المؤسف أن السيدة جيفورد كانت إحدى ضحايا الوباء».

«يا له من خبر مأسوي. يجب أن أكتب لزوجها في الحال».

ابتسم لها دروموند ابتسامة ساخرة: «الموت يجعل منّا قديسين، أليس كذلك؟ على أيّ حال، أنت الآن بصحة جيدة وقد تحسّن الطقس، سأغادر غدًا أو بعد غد.»
«لا بُدّ من أن الأمطار ستعود من جديد...».

«ربّما، ولكنني لا أريد أن أزعجك لفترة أطول.»

توسّلت قائلة: «أرجوك، ابقَ حتّى يستقر الطقس». أصبحت فكرة رحيله لا تُطاق. كانت متأكّدة من أن صوته هو الذي دعاها إلى الحياة عندما كانت على حافة الموت. «تشارلي يعشقك.»

«يسعدني أن تقولي ذلك. ولكن ماذا عنكِ أنتِ؟».

اندفع تشارلي من الباب: «ماما! عم دروم! لقد انتهى كوخنا. ألا تريدان رؤيته الآن؟».

«بالطبع». نهضت كيتي، ممتنة لأن ابنها كسر هذه اللحظة الحرجة.

احتشدوا في الكوخ الصغير، وشربوا الشاي وأكلوا الكعك الذي أعدّه طارق وكان له قوام الرصاص، لكنّ أحدًا لم يكثرث لذلك.

توسّلت تشارلي: «هل يمكننا النوم هنا هذه الليلة يا أمي؟».

«آسفة يا حبيبي، لكن لا. كات تنام مع أمها، وأنت تنام في غرفتك.»

قطّب تشارلي حاجبيه عندما نهضت والدته وعمّه، وهَمّا بمغادرة الكوخ الضيّق الخانق.

في ذلك المساء، استغرقت كيتي وقتًا أطول من المعتاد لتتجمل. لم يعد يسعها أن تنكر الطريقة التي رعاها بها دروموند، أو صوته الذي أعادها إلى الحياة، أو الطريقة الطبيعية التي يلعب بها مع تشارلي وكات. وضعت قليلًا من العطر على عنقها على الرغم من أنها تعلم أنه يجذب البعوض. حدقت إلى صورتها في المرآة وخاطبتها.

قالت لها: «أنا أحبّه. ليسامحني الرب، فالذنوب ليس ذنبي.»

تناولا العشاء معًا ذلك المساء، وكانت يدا كيتي ترتجفان وهي تكافح لتناول

الطعام. لم يكن لديها أي فكرة إن كان دروموند يشعر بهذه الكهرباء المفاجئة في الهواء. أكل جيّدًا، واستمتع بزجاجة النبيذ التي أرسلها أندرو من أديلايد. بدا غافلاً عن التحوّل الزلزالي في داخلها.

قالت: «اسكب لي كأسًا صغيرة من النبيذ».

«هل تعتقدين أنها فكرة حكيمة في حالتك الصحية الحساسة هذه؟».

«ربّما لا، لكنني أودّ أن أحتفل بتعافّي، وأهنئ نفسي بأنني لا أرقد في المشرحة مثل السيدة جيفورد المسكينة».

مكتبة

t.me/soramnqraa

«حسنًا». وسكب لها مقدار دمعة.

«أكثر قليلًا، لو سمحت».

«كيّتي...».

«بحق السماء، أنا امرأة ناضجة! إذا كنتُ أرغب في كأس من النبيذ، فسأشرب كأسًا من النبيذ».

«أرى أنك أصبحت أفضل. لقد عدتِ إلى أسلوبكِ المتسلّط».

سألتها: «أنا متسلّطة؟».

«كانت مزحة يا كيّتي. أنتِ تعلمين أن معظم الأشياء التي أقولها ليست جدية. ما بكِ هذا المساء؟ أنت عصبية المزاج مثل فرس غير مرؤّضة».

أخذت كيّتي رشفة من النبيذ وقالت: «أعتقد أن وصولي إلى حافة الموت قد... غيرني».

«كيف ذلك؟».

«أفترض أنني أدركتُ مدى هشاشة الحياة».

«إنها زائلة بالفعل. وهنا في عالمنا الجديد الرائع هذا، أكثر من معظم الأماكن الأخرى».

«أعترف لك أيضًا بأنني في الماضي، شكّكت في وجود الله، ولكن في تلك الليلة شعرتُ به. شعرتُ بحبه».

«يا إلهي!». ملأ دروموند كأسه بالنبيد ثانية. «هذا ما أسميه تجليًا. هل ستوسّلين قريبًا إلى القسّ المحلي لتكوني أول امرأة ترتدي ثوب الرهبنة؟». «توقّف عن مضايقتي، ولو لمرة!». أفرغت كيتي كأسها، وشعرت برأسها يدور. «المشكلة هي أنني... هي...».

«بحقّ السماء يا كيتي، ابصقيها. ابصقي هذه الكلمة».

«مثلما شعرت بحبه، أحبّك يا دروموند. وأعتقد أنني أحببتك منذ اللحظة الأولى».

أخذت كيتي زجاجة النبيد لكن دروموند انتزعها منها. «كفى يا فتاة. الخمرة تعيد كثيرًا من الذكريات السيئة». ثم أمسك بمعصمها وقال: «كما أريد أن أصدّق أنك تعنين ما تقولينه، وأنها الحقيقة».

«أعني ذلك. نعم». ضحكت كيتي فجأة وأضافت: «كلا، لست ثملة من الخمر، بل من الارتياح! هل لديك أيّ فكرة عن مدى الإرهاق الذي عانيتُ منه بسبب إنكار مشاعري خلال الأسابيع القليلة الماضية؟ من فضلك، أتوسّل إليك يا دروموند، هل يمكننا ببساطة أن نحتفل بفرحة كوننا على قيد الحياة؟ في هذه اللحظة؟ من دون أن نكثر لما يأتي به الغد، أو لما هو صواب أو خطأ...».

بعد صمت طويل، قال أخيرًا: «ليس لديك أدنى فكرة عن مدى السعادة التي يشعرني بها اعترافك. مع ذلك، بغضّ النظر عن كأس النبيد الصغيرة التي شربتها لتوكّ، أعتقد أنك قد تكونين ثملة بالحياة نفسها، بعد أن كدت أن تفقديها. بقدر ما أنا في حاجة ماسّة لأحبّك بكل الطرائق الممكنة، أقترح أنه من أجل مصلحتك، ثمة حاجة إلى وقفة تسمح لك بأن تستعيد عافيتك وقوتك، وتفكري في ما قلته لي هذا المساء، وفي العواقب التي قد تترتب على ذلك بالنسبة إلينا وإلى عائلتنا». نظرت إليه كيتي ذاهلة لا تصدّق: «ها أنا أقدم لك جسدي وروحي، وأنت تختار هذه اللحظة لتحكمّ عقلك! الوقت ترف قصير الأجل، يا إلهي، لا أريد أن أضيّع منه ثانية أخرى».

«وإذا أخذنا منه قليلاً للتفكير في ما قلت فلن يكون ضائعاً. إذا لم تغيّر رأيك في غضون أيام قليلة، عندئذٍ...».

«الآن أنا أتحدّث من قلبي، وأنت من رأسك... يا إلهي!».

عصرت كيتي يديها وأضافت: «هل تجد دائماً الوسيلة لتناقضني؟ أم ربّما هي رؤيتك لي مريضة، ولجسدي... ذابلاً، هي التي جعلتك تغيّر رأيك؟»
«لقد رأيتُ كلَّ شبر من جسدك، أؤكد لك أنه جميل جدّاً».
مدّ لها يده، لكنها رفضتها ووقفت على ساقها الضعيفتين.
«سأعود إلى السرير».

مشّت إلى الباب، بظهر مستقيم قدر استطاعتها، لكن ذراعاً أمسكت بها وسحبته. «كيتي، أنا...». ثم قبلها بعنف ودار رأسها أكثر. عندما أبعد شفّتيه، وحرّرها من عناقه، كادت تسقط على الأرض.
قال بلطف وهو يتلقّفها بين ذراعيه: «أنتِ واهنة كدمية من القماش. تعالي، سأقودكِ إلى غرفتك».

توقّف خارج الباب، وقال بنبرة مأكرة: «هل لديك القوة لخلع ملابسكِ بنفسكِ أم تريدين أن أساعدكِ؟»
«سأدبّر أمري بنفسي».

«يجب أن أعرف أنك متأكّدة يا كيتي، لأنني لا أستطيع التراجع إذا بدأنا. أبداً. أفهم ذلك. تصبح على خير يا دروموند».



مرّت الأيام القليلة التي فرضها عليها للتفكير ببطء شديد، كما لو كان يشاهد صخرة وينتظر أن تتفتّت وتتحوّل إلى رمال. لحسن الحظ، كان للطفلين كوخهما ليلعبا فيه. لم يكن لدى كيتي أدنى فكرة عما كانا يفعلانه معاً هناك، لكن سيلاً من الضحكات الصاخبة كان ينبعث منه كلما ذهبّت لتفقّدهما.

كان دروموند قد أعلن أن لديه بعض الأعمال التي طلب منه والده أن ينجزها في المدينة، وكان يتغيب عن المنزل معظم الوقت، تاركًا كيّتي مع قلقها، تحت وطأة الحرارة الشديدة ورغبتها المحمومة. بغض النظر عن عدد المرات التي طلبت فيها من نفسها أن «تفكر»، كما طلب منها أن تفعل، بدا أن الجزء المنطقي من عقلها قد هجرها تمامًا. وحتى عندما وصلت برقية رقيقة من أندرو، لم تستطع شحذ شعورها الضروري بالذنب للسيطرة على أفكارها الغادرة.

أنا مرتاح حقًا لأنك بخير، وسعيد لأن دروموند كان بجانبك. أمل أن أعود إليك بهدية تليق بملكة. أندرو.



بعد يومين، ضاقت كيّتي ذرعًا غير قادرة على التحمل. كانت مستلقية على السرير، حين سمعت باب غرفة دروموند يُغلق. منذ رحيل أندرو، درجت على النوم عارية تحت الملاءة. انتظرت حتى دقّت ساعة المدخل منتصف الليل، فنهضت ولقّت نفسها بردائها. أغلقت الباب خلفها بهدوء لئلا توقظ تشارلي، ثم اجتازت الممر على رؤوس أصابعها. دخلت غرفة دروموند من دون أن تطرق الباب؛ لم يكن قد أغلق المصاريع. وفي ضوء القمر المتسلّل عبر ألواح الزجاج، رآته يستلقي عاريًا على السرير.

فكّت شريط ردائها وتركته يسقط على الأرض. مشّت حتى السرير ومدّت له يدها.

«دروموند؟». فتح عينيه ونظر إليها.

«لقد فكّرتُ. وها أنا هنا».

بعد أسبوع علّقت كاميرا قائلة: «أنت بخير الآن يا سيدة كيتي. لقد تحسّنت كثيرًا، أليس كذلك؟».

كرّرت كيتي: «لقد تحسّنت كثيرًا»، وهي تحتسي كوبًا من الشاي على الشرفة، وتنتظر إلى ورودها التالفة متسائلة عن جدوى بذل الجهد لزراعة ورود أخرى. حدّقت إلى كاميرا، التي كانت تصب الماء على الطين الأحمر المتكتّل وتنظّفه بفرشاة صلبة.

اتّكأت كاميرا على فرشاتها وتأمّلت سيدتها. قالت: «أنت مختلفة. تتألّقين كنجمة في السماء!». ثمّ واصلت الفك.

«من المؤكّد أنني سعيدة بتحسّن حالتي الصحية من جديد، وبنهاية هطول الأمطار الغزيرة هذا العام».

«إنه سبب وجيه للشعور بالسعادة، لكنني أعتقد أن السيد دروم يجعلك سعيدة أيضًا يا سيدة كيتي». نقرت كاميرا على أنفها، وغمزت، وانطلقت لجلب دلو من الماء.

تسارعت دقّات قلب كيتي لكلمات كاميرا. كيف عرفت؟ من المؤكّد أنها لم تتمكّن من رؤية أيّ شيء، فقد كانا حذرين جدًّا، ولم يستسلما لغرامياتهما إلا بعد أن تكون كاميرا في كوخها مع كات، ويناام تشارلي بعمق في سريريه. مع ذلك، كان صوت ضحكها، عندما لا يتوقّف دروموند عن مضايقتها، أو يدغدغ تشارلي حتّى يطلب الرحمة، مختلفًا. كانت تعمّ المنزل طاقةً جديدة، وكذلك هي. في الواقع، فكّرت كيتي. كانت تشعر بأنها على قيد الحياة للمرّة الأولى في حياتها.

ليلاً ونهارًا، كان جسدها يرتعش شوقًا إلى دروموند، سواء كان حاضرًا معها في

الغرفة أو مختبئًا في مخيلتها. حتى أبسط الأنشطة كانت تمتّعها إذا كان بجانبها. إن مجرد لمسة من يده كانت تطلق موجة كهربائية في جسدها كلّها، وعندما تستيقظ في الصباح، لا تشتاق شيئًا غير حلول المساء، لكي تذهب إليه وتشاركه نشوة عالمهما السري.

بعد تلك الليلة الأولى، اتفقا على أن يعيشا اللحظة ببساطة، وألا يدعا الأفكار المستقبلية تدمّر ما وجداه معًا. كانت كيتي مندهشة وخجلة من السهولة التي كانت تفعل بها ذلك. على الرغم من أن الجزء المنطقي من عقلها كان يعلم أن أندرو سيعود في أقل من شهر، كان الجزء العاطفي الأقوى هو الذي ينتصر. كانت تبرّر سلوكها قائلة لنفسها إن وجود دروموند خلال موسم الأمطار الطويل لم ينقذ حياتها فحسب، بل كان نعمة لتشارلي أيضًا. كان عقل دروموند الخلاق قادرًا على تحويل الكرسي إلى سفينة مليئة بالقراصنة الباحثين عن الكنوز الغارقة في البحار، أو الطاولة إلى كوخ في غابة تجول فيها الأسود والنمور. لقد أحدث تغييرًا مرحّبًا به، قياسًا بألعاب الورق الرتيبة التي كان يقترحها أندرو دائمًا، عندما يهطل المطر.

قالت في نفسها إن «دروموند نفسه طفل» وهي تراقبه وهو يزحف في المدخل، ويزمجر بشراسة كنمر. لكنه في الليل، كان رجلًا، وأيّ رجل... منذ أن أصبح الطقس صافيًا، كثرت الرحلات إلى شاطئ ريدل، وأماكنه النائية المحميّة بالتكوينات الصخرية بعيدًا من الأعين، حيث كانت كيتي تنضم إلى كات، ودروموند، وتشارلي، الذي أصبح خبيرًا بالمياه الزمردية الرائعة.

كان تشارلي قد صاح فيها: «ماما! انزعي سروالك! قال العم دروم إن الملابس تثقل وتشد إلى أسفل».

لم تكن كيتي قد ذهبت إلى هذا الحد أمام تشارلي، وجعلته يقسم لها بأن يبقى رحلات السباحة سرًا بينهما، لكنها تركته في بعض المناسبات مع كاميرا بدعوى العمل في المدينة لتذهب هي ودروموند بالعربة إلى الشاطئ ويسبحا عاريين معًا. وبينما كان يحتضنها بين ذراعيه، ويقبّل وجهها ورقبتها ويلعق الماء المالح عن

ثديها عندما يعودان إلى الاستلقاء على الرمل، كانت توقن أنها لن تحظى أبدًا بمثل تلك اللحظات السعيدة في حياتها المستقبلية.



في نهاية شهر شباط بينما كانا مستلقين معًا في سريره، وكانت كيتي شبه خدرة من ممارسة الحب، قال دروموند: «حبيبتي، لقد تلقيت برقية من والدي. إنه يرغب في أن أذهب إلى أدبلايد الأسبوع المقبل لأنضم إليهما، هو وأندرو، عند عودتهما من أوروبا. للأمر صلة بأمبراطورية ميرسر التجارية. إذ يرغب والدي في توزيع أملاكه ومصالحه بيني وبين أندرو بحيث نتجنب أي إشكال في حالة وفاته. يجب أن أعود إلى أليسيا هول للتوقيع على الأوراق القانونية مع المحامي، وسوف نقوم أنا وأندرو بكتابة وصايانا الشخصية.

انقبض قلب كيتي الذي كان ممتلئًا بالحب والرضا. «أفهم ذلك. متى تغادر؟». «سأستقل القارب في غضون يومين. ألا تسألين ماذا سيعطيني؟ وما هي توقّعاتي؟».

«أنت تعلم أنني لا أهتم كثيرًا بهذا الأمر. سأعيش معك في شجرة إذا لزم الأمر».

«مع ذلك سأخبرك. وكما يمكنك أن تتخيلي، فإن شركة ميرسر لصيد اللؤلؤ، التي تشكّل حاليًا سبعين في المئة من دخل الأسرة، ستنتقل إلى أندرو. وسأحظى بألف وستمئة كيلومتر مربع من الصحراء القاحلة وقطيع من الماشية الهزيلة التي تموت جوعًا، بعبارة أخرى، مزرعة كيلغارا. أوه، وأيضًا بضعة هكتارات من الأرض التي تبعد بضع ساعات عن أدبلايد. ثمة حديث عن مشروع تعدين في المنطقة، وسجل والدي أسهمًا حسب الأصول. قد لا يؤدّي ذلك إلى شيء، لكن بحسب معرفتي بحسّ والدي الغريزي عندما يتصل الأمر بالمال، من المحتمل أن يكون مشروعًا مربحًا جدًا. كما سأرث منزلًا على تلال أدبلايد والكروم المحيطة به. بعد وفاة والدي، سيرث أخي أليسيا هول».

«أوه! لكن المنزل على التلال أجمل كثيرًا! لقد زرته، والمنظر من حوله مذهل!
إنه المكان الذي اقترح فيه أندرو...». تهّدج صوتها من الحرج.
«حقًا؟ يا للغرابة».

«اغفر لي. خانتني اللبابة».

«أتفق معك تمامًا». ردّ دروموند خصلة من شعر كيتي إلى الخلف. تابع:
«للأسف يا سيدة ميرسر، يبدو لي أن الواقع يعتدي على عش حبنا البائس. وعلى
الرغم من أننا بذلنا قصارى جهدنا لتجنّب ذلك خلال هذه الأسابيع القليلة السعيدة،
فقد حان الوقت لتتخذي بعض القرارات».

«أعرف ذلك جيّدًا. وبالتأكيد، أنت أيضًا؟ يبقى أن أندرو هو أخوك في النهاية».

«نعم، أخ لم يكن يتورّع عن سرقة ألعابي المفضّلة عندما كنا صغيرين».

ردّت كيتي: «أدعو الله ألا أتحوّل إلى أيّ شكل من أشكال الانتقام بسبب
أخطائه الماضية».

ضحك دروموند: «إذا كنتِ كذلك، فأهلاً ومرحبًا».

عندما رأى تعبيرها، رضح: «كيتي... يا قطّتي، أنا أستفرك فحسب، كما هو الحال
دائمًا. على الرغم من أنه يقلقني أنني لم أفز في أيّ معركة خضتها مع أندرو».
«أوه، بلى، لقد فزت».

اقتربت كيتي وقبّلته بلطف على خدّه: «أنت تعرف كيف تكون سعيدًا. ولهذا
السبب، أنا سعيدة أيضًا».

«من المحتمل أن أصبح تغيّسًا جدًّا إذا لم نتحدّث عن مستقبلنا يا حبيبتي».
ثم أخذ وجهها بين راحتيه وأضاف: «عندما أغادر إلى أديلابيد، هل ترغبين في أن
يكون ذلك إلى الأبد؟».

هرّت رأسها بياس وقالت: «أوه دروموند. لست أدري».

«أنا متأكّد من أنك تدرين. يا إلهي، ما هذا الخراب الذي نجد أنفسنا فيه. قد
يكون من المفيد أن أخبرك بما كنتُ أفكر فيه».

«قل. أرجوك».

«الأمر بسيط للغاية. لا أستطيع تحمّل فكرة التخلّي عنك وفقدانك. قد أبكي مثل فتاة صغيرة أمامك إذا أصررتِ على البقاء مع أخي». ابتسم لها ابتسامة واهنة.
«إذًا، ماذا تقترح؟».

«نهرب مع تشارلي».

«إلى أين؟».

«قد يكون القمر هو المكان الأفضل. لكنه بعيد جدًّا، ويلزم أن تنبت لنا أجنحة للوصول إليه. تبقى كيلغارا هي الخيار الأفضل».
«هل تريدني أن آتي معك؟».

«نعم، على الرغم من أنني أحذرك يا كات. فالحياة هناك قاسية ووحشية مقارنة ببروم. لا تمر قافلة الجمّالين الأفغان من كيلغارا إلا مرتين في السنة محمّلة بالإمدادات، وتقع أقرب مستوطنة، أليس سبرينغز، على بعد يومين. لا يوجد طبيب أو مستشفى، ولا دورات مياه داخلية. ومع ذلك فهي تتمتع بميزة واحدة، لكنها هائلة».

«ما هي؟».

«إن أقرب جار يبعد عنها مسافة يوم كامل على ظهر الجمل، لذلك لن يكون عليك أن تتحمّلي حفلات العشاء التي لا تنتهي».

ابتسمت كيّتي مدركةً أن دروموند يبذل قصارى جهده لإضفاء البهجة على الجو. «ماذا عن أندرو؟ كيف يمكننا أن نغدر به هكذا؟ قد يدمّره ذلك. فقدان زوجته، ناهيك بابنه الحبيب... إنه لا يستحق ذلك».

«لا، لا يستحق. نعم، سيؤلمه ذلك، هو الذي لم يخسر أيّ شيء في حياته. لقد كان أفضل لاعب ركبي في المدرسة، ذاك الذي يسجل دائمًا نقطة الفوز وينقذ الموقف».

«لستُ كرة ركبي، ولا تشارلي». نظرت إليه وأضافت: «هل أنت متأكّد تمامًا من أن الأمر لا علاقة له بفوز تحقّقه ضد أخيك؟»

«في ظل هذه الظروف، لا. على الإطلاق. أقسم لك يا كيتي، على الرغم من هذا الهراء، إلا أنني أحبه. إنه شقيقي التوأم، وسأفعل المستحيل كيلا أؤذيه، لكنها مسألة حياة أو موت ولا أقدر على مساعدته».

«ماذا تقصد؟»

- أنا، وبشكلٍ طبيعي، لا أستطيع العيش من دونك. إنه لأمر مؤسف، لكن هذا هو الحال الذي أنا فيه. والآن يا كيتي، إذا استخدمنا مصطلحات لعبة الركبي، فإن الكرة في ملعبك، والقرار لك.



مرة أخرى، وجدت كيتي نفسها تعاني عذاب التردد، إذ لم يكن عليها أن تفكر في نفسها ومستقبلها فحسب. إذا هربت مع دروموند، ستحرم تشارلي من حقه في العيش مع والده والنمو في كنفه. والأكثر إثارة للقلق هو أن أندرو قد يحاول استعادة تشارلي. لم يكن هناك شك في أن تشارلي كان يعشق عمه دروم الذي سيكون له عمًا محبًا وأبًا مرشدًا أثناء نموه، لكن الله وحده يعلم ماذا يمكنها أن تقول له عندما يكبر؛ كانت تدرك جيدًا الصدمة الناتجة عن اكتشاف الحقيقة القاتمة لوالد كتنا نقذسه.

كانت حائرة، حتى أنها زارت الكنيسة المحلية وركعت وطلبت الهداية. «من فضلك يا رب، لقد تعلمتُ دائمًا أن الله محبة. وأنا أحب دروموند بكل جوارحي، وكل ذرة من روحي، لكنني أحب تشارلي أيضًا...».

وبينما هي راكعة، رأت والدها يشبك يدي آني بيديه على عتبة الباب. وأمها المسكينة البريئة حامل أيضًا، غير مدركة خيانة زوجها وازدواجيته.

أمام لوحة حزينة لملائكة ترفع الموتى إلى السماء، همست لنفسها: «لستُ منافقة ولا أستطيع أن أكون كاذبة». مع أنها في تلك اللحظة، قالت في نفسها وهي واقفة: «لستُ أفضل من والدي، وأنا أنام في سرير شقيق زوجي ليلة بعد ليلة...».

تنهّدت قائلة: «ربّاه، ربّما حدث حقًّا أنك تجلّيت لي، ولكن يبدو أنني قد خرقت معظم وصاياك مُدّ ذاك التجليّ».

في الخارج تحت أشعة الشمس، ذهبت كيّتي إلى المقبرة لتقرأ شواهد قبور الموتى.

«هل أحببت مثلي قبل أن تغادري الأرض؟». همست بهذه الكلمات إلى بقايا إيزوبيل دود المسكينة التي ماتت في الثالثة والعشرين من العمر، وهو عمرها الآن. أغمضت عينيها، ونَدّت عنها تنهيدة عميقة: «لقد تجاوزتُ كلّ الحدود، ولن أخدع زوجي مدى الحياة. لذلك، فليساعدني الرب، لكن يجب أن أتحمل العواقب».



ذاك المساء، قالت كيّتي بهدوء وهي تجلس مع دروموند على العشاء: «قرّرت أن تأتي معك إلى كيلغارا عندما تعود من اجتماعك في أديلابيد».

نظر إليها ذاهلاً: «اللعنة يا امرأة! كنا نناقش ما إذا كان ينبغي لنا أن نأخذ تشارلي إلى الشاطئ للمرة الأخيرة، وأنت تقحمين قرارك هذا في المحادثة!».

قالت وهي تستمتع بتعابير الذهول على وجه دروموند: «أعتقد أنه ينبغي لك أن تعرف».

«نعم، أنتِ على حق، ينبغي لي ذلك. حسنًا. إذاً من الأفضل أن نضع خطة».

«لقد قرّرت أيضًا أن أخبر أندرو بنفسي عندما يعود إلى المنزل. لن أتصرّف كجبانة يا دروموند. ستأخذ كاميرا تشارلي إلى مكان ما، وستكون حقائبي جاهزة. سأغادر فورًا لأستعيد تشارلي من كاميرا، وسنلحق بك أينما تكن».

«يبدو أنك خطّطتِ لكل شيء».

«أنا امرأة عملية، وقد وجدت أنه من المفيد أن أكون مننظمة في المواقف الصعبة». لم تكن كيّتي ترغب في أن يرى سيل العواطف الذي كان يهدر تحت مظهرها الخارجي الهادئ.

سألها: «هل تسمحين لي بالتعبير عن فرحتي الكاملة والمطلقة بقرارك؟».

«نعم، لكنني أود أيضاً أن أعرف أين نجدك... بعد ذلك».

أخذ يدها بيده وقال: «حسناً. كيتي، هل أنت متأكدة من أنك لا ترغبين في أن أكون معك عندما تخبرين أندرو؟».

«إطلاقاً. أخشى أن يطلق عليك النار من فوره».

«قد يطلق النار عليك أيضاً».

قالت بصوت مرتجف: «ولن يكون ذلك أقل ممّا أستحقّه. لكنني أشك في ذلك. من المؤكّد أن إطلاق النار على زوجته سيضر بسمعته في مجتمع بروم».

سمحا لنفسيهما بابتسامة ساخرة.

«هل أنت متأكدة من هذا كلّ يا قطتي؟».

«ليس لديّ خيار آخر. يستحق أندرو أفضل كثيراً من زوجة خائنة لن تستطيع أن تحبّه أبداً».

«إذا كان ذلك يريحك، فأنا متأكّد من أنه لن يمر وقت طويل قبل أن تتزاحم على بابهِ أمهات بروم اللؤلؤيات وبناتهن المطيعات. والآن يكفي ذلك؛ أقترح أن أكمل السفر إلى داروين بحراً، كما أعلمت والدي وأندرو. ثم تهربين أنت وتشارلي على متن القارب التالي المتجه إلى داروين حيث تجديني بانتظارك».

«قد يطاردنا أندرو».

«ممكّن، وإذا فعل، فسوف نتعامل مع الأمر».

ضغط دروموند على يدها: «بحلول ذلك الوقت سأكون بجانبك».

«هل أنت مضطر للذهاب إلى أديلاييد؟ من المؤكّد أن اجتماع العمل هذا مع والدك يمكن عقده في موعد آخر؟». شعرت كيتي بأن عزمها على إخفاء عواطفها يزوب شيئاً فشيئاً.

«إن آخر شيء في العالم أريد أن أفعله هو أن أتركك هنا؛ وأكثر من أي شيء، أخشى أن تغيري رأيك في غيابي. مع ذلك، لكي يكون لدينا مستقبل نحن الثلاثة،

يجب أن أذهب وأضع توقيعي على سندات كيلغارا والأصول الأخرى. أشك في أن والدي سينقلها لي إذا عرف الحقيقة».

شعرت كيتي بالدموع تصعد إلى عينيها: «وماذا عن تشارلي؟ كيف أشرح له ذلك كله؟».

«يكفي أن تخبريه بأنه سيأتي في زيارة إلى المناطق النائية لزيارة العم دروم والآلاف من أبقاره. لقد رويت له قصصًا كثيرة عن كيلغارا، وأعلم أنه حريص على رؤية ذلك بنفسه. ثم يمر الوقت ولن تعودا إلى المنزل بكل بساطة. توقّف بعد ذلك، ثم قال: «هل أنت متأكدة من ذلك كله يا كيتي؟».

«لا».

هزت كيتي رأسها قليلًا وهو يرفع يدها إلى شفتيه ويقبلها بحنان. «هذا طبيعي. وهل يمكن أن تكوني غير ذلك؟».



بكت كيتي بصمت على كتف دروموند عشية سفره، ثم، وهو ينام، تأملته لتطبع في ذاكرتها كل تفاصيله. إن فظاعة ما كان عليها أن تواجهه من الآن وحتى تراه ثانية كانت ببساطة أكبر من أن تجرؤ على التفكير فيها.

كان فراقهما العلني على الرصيف في صباح اليوم التالي كما يجب أن يكون. قبلته بعفة على خديه، وتمنّت له التوفيق. كلّ العواطف التي شعرت بها مرّت إلى تشارلي الذي لم يكن يواسيه شيء.

صاح دروموند وهو يصعد العبارة الخشبية: «تعال لزيارتي!»

صاح تشارلي بدوره وهو يبكي بمرارة: «سأتي عم دروم، أعدك بذلك».

ثم صاح عمّه من جديد: «أحبك»، رغم أن عينيه وقعتا على كيتي. «سوف أراك في وقت أقرب مما تظن».

ومع تلويحة وداع أخيرة، اختفى دروموند عن الأنظار.



بذلت كيتي قصارى جهدها لتشغل نفسها بتنظيف المنزل في فصل الربيع، بل وأصرت على أن يساعدها فريد في زراعة بعض شجيرات الورد. لم يكن لديها أدنى فكرة إن كانت ستعيش وتزهر، وحتى لو حدث، فلن تكون هنا لترى النتيجة.

مع ذلك لم يكن هناك شك في عزمها. ولم تكن تستطيع الاستمرار في عيش الكذبة، كما لو أن حياتها مع أندرو كانت مثل لؤلؤة منقوطة، كبيرة وبراقة جدًا من الخارج، ولكن في جوهرها، لا شيء سوى طين باهت. كانت قد أبدعت هي ودروموند الآن لؤلؤتهما المثالية، التي تنعم البهجة سطحها وحوافها، وتؤوي في مركزها حبًا لا حدود له.

بعد بضعة أيام تلقت برقيتين، إحداهما من زوجها، يخبرها فيها أنه رسا بأمان في أدليلايد وأن ستيفان سيعود معه ومع دروموند إلى بروم على متن السفينة كومبانا لرؤية حفيده.

أما الثانية فكانت من دروموند، تقول الشيء نفسه، وتضيف بأن «الجوانب القانونية» كانت تتقدم بشكل جيد. كان من المقرر أن يصل رجال ميرسر الثلاثة إلى بروم في الثاني والعشرين من آذار، أي بعد عشرة أيام فقط، كما خمنت كيتي. في تلك الليلة، بدأت تحزم متاعها، وهي تشعر بالحاجة إلى أن تجعل رحيلها حقيقيًا.

جاء صوت من خلفها: «ماذا تفعلين يا سيدة كيتي؟».

ارتعدت وتمنت، لو لمرة واحدة، ألا تتحرك كاميرا بلا أي ضجيج مثل قطة. أجابت: «أوضب بعض ملابس تشارلي التي أصبحت صغيرة عليه»، وتركت غطاء الصندوق يسقط وينغلق من تلقائه.

«لكن هذا القميص، لا يزال يناسبه تمامًا».

شعرت كيتي بأن كاميرا تراقبها. «ألم يحن الوقت لوضع الأطفال في السرير؟».

«أجل».

خرجت كاميرا، ثم عادت أدراجها. قالت: «أنا أرى أصغر الأشياء، وأعرف

لماذا تحزمن صندوقك. فقط لا تنسونا. سنأتي معكم، وفريد يحميكم من الرجال الأشرار». ثم غادرت الغرفة.

هزّت كيّتي رأسها متعجّبة ومنزعجة في الوقت نفسه. بدا أن كاميرا كانت تستشعر مكائدها العاطفية وأسرارها.

في الليل، كانت خطط محمومة تزدهم في رأسها، وهي تحاول التفكير في كلّ ما يمكن أن يحدث ولم يكن متوقّعا وتأخذه باعتبارها. لكن الشيء الوحيد الذي كانت تعرفه يقينًا هو أن دروموند لن يخذلها أبدًا، وبمجرد أن تصبح بأمان بين ذراعيه في داروين، سيكون كلّ شيء على أحسن ما يرام.

كتبت رسائل صادقة إلى والدتها والسيدة ماكرومبي، تطلب فيها الصفح والتفهم، ثمّ أخفتها في بطانة صندوقها. بعد ذلك، بدأت تكتب رسالة إلى إديث، لكنها قررت عدم إرسالها، حيث لم يكن هناك ما يمكنها قوله لتجميل الوضع. على الأقل، ستشعر إديث بالراحة عندما تتأكد من أنها كانت على حقّ طوال الوقت. كانت كيّتي ابنة أبيها بكل ما للكلمة من معنى.

في صباح اليوم التالي وصلتها برقيّة من أندرو.

سوف أفاجئك عند وصولي بأشياء كثيرة. سيشرح لك والدي. لديّ مهمة طارئة، لكنني سأعود إلى المنزل آمنًا وسليمًا. قبلاتي لك ولتشارلي. أندرو.

قطّبت كيّتي حاجبيها وتساءلت عما يعنيه أندرو بحقّ السماء. لكنّ تشارلي جاء يطلب قبلة وقصّة ولم تفكّر في الأمر بعد ذلك.



في الليلة التي سبقت هروبها، كان الطقس مماتلاً لمشاعر كيّتي المضطربة. كانت الغيوم معلّقة في السماء، سودًا تنذر بالشؤم. هزّ الرعدُ الأرض، ومزقت صواعقُ البرقِ السماء. كانت كيّتي تتسكّع في المنزل، وكانت النوافذ المغلقة تهتزّ في دفاعها المستميت ضد الطبيعة الهائجة.

في اليوم التالي نهضت مع باقي سكان المدينة. خرجت من المنزل وشعرت بالارتياح إذ وجدت أن العاصفة كانت مجرد جعجعة بلا طحين. كانت ورودها ما تزال منتصبة، وعلّق فريد قائلاً إن الرياح استنفدت قوتها فوق رمال بيندان في الجنوب. لم يغمض لها جفن طوال الليل، فقد كان من المقرر أن تصل الكومبانا إلى بروم هذا المساء، وكانت تعلم أنه حتّى بعد أن تخبر أندرو برحيلها، كان أمامها القيام برحلة طويلة وشاقّة إلى داروين. لذلك كانت ما تزال تشعر بالغثيان، وأكّد لها الدكتور سوزوكي أن هذه الأعراض ناتجة عن مرضها في الآونة الأخيرة.

تساءلت كيّتي للمرة الألف إن كان من الأفضل أن تخبر أندرو الليلة، أو تنتظر حتّى صباح الغد. لم يكن وجود ستيفان في بروم يسهّل المَهْمَة، وكان عليها أن تنتظر حتّى يبتعد من طريقها. اغتسلت وارتدت ملابسها وكانت يداها ترتجفان بشكل مريع. بعد ذلك، ذهبت إلى المطبخ، فوجدت كاميرا تعد البيض لفطور تشارلي.

قالت: «أنتِ شاحبة، مثل الأرواح الشريرة في السماء، يا سيدة كيّتي». ثم ربّت كتفها وأضافت: «لا تقلقي، أنا وفريد، سنأخذ تشارلي إلى الشاطئ عندما تريدان التحدّث مع السيد الرئيس».

غطّت كيّتي يد كاميرا بيدها وقالت: «شكراً لكِ. أعدكِ بأن أكتب لكما ما إن نصل بأمان إلى كيلغارا».

قالت كاميرا وهي تومئ برأسها: «سنأتي معكِ. نحن هنا من أجلكِ يا سيدة كيّتي».

«شكراً لكِ يا كاميرا. حقاً، لا أعرف ماذا كنتُ لأفعل من دونك».



كان من المقرر أن ترسو السفينة كومبانا مع المد المسائي، ولكن عندما وصلت كيّتي - التي كانت في حالة من الاضطراب اضطرّتها إلى تجرّع قليل من البراندي لتهدئة أعصابها - إلى الميناء لم يكن هناك أيّ علامة لوجود السفينة في الخليج.

سمعت مدير المرفأ يقول لأولئك الذين كانوا قد تجمّعوا هناك: «كان هناك إعصار، ونعتقد أن السفينة لجأت إلى ديربي بانتظار توقّف العاصفة. لا فائدة من التسكّع هنا، أيها السيدات والسادة. اذهبوا إلى منازلكم وعودوا في وقت لاحق». لعنت كيتي الطقس السيئ الذي ضرب في اليوم الذي أعدت نفسها له بعناية. في قطار العودة، حيّاها بعض الجيران، الذين تحدثوا قليلاً عن عاصفة الليلة السابقة وعدد القوارب التي لجأت بانتظار انتهائها، وجلس بجانبها السيد بيغوت، أحد زملاء أندرو المحترفين في صيد اللؤلؤ.

«آمل أن تصل هذه السفينة قريباً. نصف عائلتي على متنها. وعائلتك أيضاً، كما سمعت».

«نعم. هل تعتقد أن كومبانا سالمة؟ ففي نهاية المطاف، هي الأحدث في الأسطول».

أجاب السيد بيغوت: «أنا متأكد من أنها كذلك، لكنها كانت عاصفة شديدة يا سيدة ميرسر، وقد عرفتُ سفناً أكبر منها غرقت في الماضي. حسناً، كلّ ما يمكننا فعله هو أن نأمل ونصلي».

رَبّت يدها ونزل عندما توقف القطار. شعرت كيتي بوخزة الخوف الأولى تتسلّل مثل خيط حريري في عمودها الفقري.

عند عودتها إلى المنزل، راحت تذرّع غرفة الجلوس بينما كانت كاميرا تحاول إقناعها بتناول الطعام، لكنها رفضت. عاد فريد، الذي أرسلته ليرصد أيّ سفينة يراها، إلى المنزل عند منتصف الليل. «لا يوجد أيّ قارب يا سيدتي الرئيسة».

لجأت كيتي إلى الفراش، لكنها لم تنم بسبب القلق الذي استحوذ عليها. في صباح اليوم التالي، بينما كان فريد يقودها إلى الرصيف، علقت وسط حشد من السكان الذين كانوا يناقشون مصير كومبانا بهمسات خافتة. قرّرت كيتي أن تتبعهم إلى أعلى التل الذي يطل على خليج روباك، ويوفر رؤية واضحة.

قال السيد رويين، وهو سيد آخر من أسياذ صيد اللؤلؤ: «لا نعرف أين هي يا سيدة ميرسر. يقول مدير مكتب البريد إنه يعتقد أن خطوط التلغراف في ديربي

قد انقطعت بسبب الرياح، وهذا هو سبب عدم إجابتهم. ستأتينا الأخبار قريبًا، أنا متأكد من ذلك».

أصبح المحيط الغادر تحتها أشبه ببركة طاحونة، وأعلن أولئك الذين لديهم مناظير أنهم لم يروا أي علامة على وجود أي سفينة. ومع اشتداد حرارة النهار، انضم مزيد من الأصدقاء والأقارب إلى الحشد على قمة التل. ثم وجدت كيتي نفسها مسحوبة مع الحشد إلى أسفل التل حيث مكتب التلغراف لاستجواب مديره، الذي قال للجمهور إنه مستمر في إرسال الرسائل إلى العاملين في مكتب ديربي، لكن الصمت كان ردهم الوحيد.

أخيرًا، عند غروب الشمس، خيم الصمت على الحشد عندما عادت آلة التلغراف إلى الحياة، ولم يعد يُسمع إلا طنين الحشرات في الغسق ونقر الآلة. خرج مدير البريد من مكتبه متجهًا الوجه، وعلق على السبورة ملاحظة تقول إن كومبانا ليست في ديربي.

دعا مدير المرفأ، الكابتن دالزيل، جميع الرجال للانضمام إليه في البحث عن السفينة، وسمعت كيتي نويل دونوفان، مدير شركة ميرسر لصيد اللؤلؤ، وهو يتعهد بوضع مراكب الشركة الشراعية تحت تصرف إدارة المرفأ. عندما عادت كيتي إلى المنزل، وكان عقلها مشوشًا بالرعب والإرهاق، استقرت في السرير بمساعدة كاميرا، التي راحت تمسّد شعرها وتبعده عن جبهتها التي بللها العرق.

«سأبقى معك وأغني لتنامي».

أمسكت كيتي بيدها وشدت عليها غير قادرة على التعبير عن الأفكار الفظيعة التي كانت تتزاحم في رأسها.



في خلال الأيام القليلة التالية، لم ترد أنباء أخرى، واستمعت كيتي ببلادة إلى كل من جاء إلى بابها ليطلعها على آخر تطورات عملية البحث. وكانت أعداد صحيفة نورثرن تايمز تتراكم على عتبة بابها، فقد رفضت مجرد إلقاء نظرة على عناوينها الرئيسية.

بعد مرور حوالى أسبوعين على التاريخ الذي كان من المفترض أن تصل فيه السفينة كومبانا إلى ميناء بروم، ذهبت كيتي إلى المطبخ حيث وجدت كاميرا تبكي وهي تلقي رأسها على كتف فريد.

«ما بك؟»

«الكومبانا، يا سيدة كيتي. لقد غرقت. غرق الجميع. رحل الجميع.»



لم تستطع كيتي أن تتذكر الكثير من باقي ذلك اليوم المشؤوم؛ كما لو أن الصدمة قد محت ذاكرتها. تذكرت بشكل مشوش أن فريد كان يقودها بالعربة إلى مكتب مدير المرفأ، حيث تجمع حشد من الناس الباكين. دعا الكابتن دالزيل إلى التزام الصمت وبدأ في قراءة البرقية الواردة من شركة أديلايد ستيمشيب: Adelaide Steamship

«مع الأسف العميق، يتعين على الشركة أن تعلن بأن السفينتين غورغون، ومينديرو، قد اكتشفتا حطام سفينة تنتمي إلى شركة إس إس كومبانا. ما يثبت أن الكومبانا قد غرقت بمن فيها في محيط جزيرة بيداوت خلال الإعصار الذي ضرب يومي العشرين والحادي والعشرين من آذار...».

ثم قرأ قائمة الركاب على الحشد المنكوب.

«ماكسوين دونالد.

ميرسر أندرو.

ميرسر دروموند.

ميرسر ستيفان...».

جاء بعض كراسي الاسترخاء لكي تتمكن النساء من الجلوس. كان كُثر من بين الحشد قد ارتموا في أمكنتهم على الأرض.

كان السيد بيغوت أحد أوائل الذين انهاروا، وكان يبكي بصوت عالٍ غير قادرة على تحليل أي من أفكارها أو مشاعرها، شكرت كيتي الله الذي رحمها من فقدان طفل. كان السيد بيغوت قد فقد زوجته وابنتيه.

أخيرًا، بدأ سكان البلدة المنكوبة يعودون إلى منازلهم ليخبروا أقاربهم أنه لا يوجد ناجون. وكان الكابتن دالزيل قد ذكر في إعلانه أنه قد جرى الاتصال بأقارب الضحايا عن طريق التلغراف. عندما ساعدها فريد على الصعود إلى العربة، فكّرت كيتي أن الشخص الوحيد الذي كان عليها أن تخبره هو ابنها. مع ذلك، عندما وصلت إلى المنزل، أخذت تلقائيًا قلمها وكتبت رسالة تعاطف قصيرة إلى إديث، مدركة أن كلّ كلمات العزاء عاجزة عن مواساة امرأة اختطف منها القدر زوجها وابنيها في حادثة أليمة واحدة. طلبت من فريد أن يأخذ الرسالة إلى مكتب التلغراف، ثمّ ذهبت إلى غرفتها، وأغلقت الباب خلفها، حيث جلست تحدّق إلى الفراغ. رحل أندرو.

رحل دروموند...

لم يعد للكلمات معنى. استلقت كيتي بكامل ملابسها على السرير الذي تقاسمته معها، ثمّ أغمضت عينيها ونامت.



«تشارلي، يا حبيبي، أريد أن أتحدّث معك».

«ما الأمر يا أمي؟ متى سيعود أبي إلى المنزل؟».

«حسنًا يا تشارلي، الأمر هو أن بابا لن يعود. على الأقل، لن يعود إلينا».

«إلى أين سيذهب إذًا؟».

«لقد استدعى الله والدك وعمك دروم وجدك ستيفان إلى السماء، ليكونوا مع الملائكة». شعرت كيتي بالدموع الأولى تصعد إلى عينيها. لم تكن قادرة على ذرفها منذ أن سمعت النبأ، وأدركت أنها لا تستطيع مطلقًا أن تبكي الآن أمام ابنها. «إنهم مختارون، كما ترى، والله أرادهم أن يكونوا معه».

«تقصدين أن يكونوا مع أسلافهم؟ مع باقي الأرواح؟».

ثم هزّ تشارلي إصبعه في وجهها وقال: «حذارِ يا ماما! تقول كات إنه عندما

يصعد شخص ما إلى السماء، يجب ألا ننطق اسمه». وضع إصبعه على شفتيه وأضاف: «صه».

«تشارلي، لنا كل الحق في أن ننطق أسماءهم، ونتذكّرهم».

«تقول كات إنه ليس...».

«لا يهمني ما تقوله كات!». تصاعد التوتر المكبوت في كيتي عند سماع كلماته. «أنا أمك يا تشارلي، وسوف تستمع إليّ!». ارتجفت شفة تشارلي السفلية وقال: «آسف يا أمي. إذا فقد صدوا إلى السماء؟ ولن نراهم ثانية؟».

في مثل تلك اللحظة، كانت كيتي تخاف من الصراخ عليه وتأنيبه، فأجابته بنحو: «لا يا حبيبي. لكننا سنتذكّرهم دائماً، وسوف يحرسوننا من السماء».

«هل يمكنني الذهاب لزيارتهم في بعض الأحيان؟».

«لا يا حبيبي، ليس بعد، على الرغم من أنك ذات يوم، ستراهم ثانية».

«ربما سيأتون إلى هنا. تقول كات إن أسلافها يفعلون ذلك في أحلامها».

«ربّما، لكنكما مختلفان يا تشارلي و...». هزّت رأسها وقالت: «أوه، لا يهم الآن. أنا آسفة جداً يا حبيبي». ثم ضمته إلى صدرها.

«سوف أفتقدهم، وخصوصاً العم دروم. كان يعرف ألعاباً كثيرة مسلية». ابتعد تشارلي عنها ووضع يده على ذراعها: «تذكّري أنهم يراقبوننا. تقول كات...». توقف تشارلي ولم يصف شيئاً.

«قد نستطيع الذهاب إلى أدبلايد لزيارة الجدة إديث؟». حاولت كيتي يائسة استعادة توازنها. وبدا أن طفلها البالغ من العمر أربع سنوات كان يريحها.

جعد تشارلي أنفه وقال: «لا. أنا أحب البقاء هنا مع كات وكاميرا. إنهما عائلتنا».

«نعم يا بني. إنهما عائلتنا». وابتسمت له ابتسامة واهنة.



جلست كيتي مستقيمة في سريرها وهي تسبح في عرقها، وقد شعرت بالارتياح لإفلاتها من كابوس رهيب. بعد أن عادت إلى رشدتها، أدركت أنه لم يكن كابوسًا. أو، على الأقل، كان كذلك، لكنه لم يكن شيئًا يتبدد بعودتها إلى وعيها، لأن دروموند لن يكون واعيًا من جديد.

أو أندرو. فكري في زوجك. لقد مات هو الآخر أيضًا...

أو ريمًا، كانت هي التي ماتت؛ ربما كانت قد رُميت في الجحيم لتقاسي العذاب عقابًا على خطيئتها.

«أتوسّل إليك يا رب، لا تدع ذلك يكن. لا يمكن أن يكون...».

دفنت وجهها في الوسادة لتخنق تنهداتٍ بلا دموع بدت وكأنها جرعاتٌ كبيرة من ألمٍ لا يُطاق.

وأندرو، ماذا فعل ليستحق خيانتها؟ لقد أحبها بالطريقة الوحيدة التي كان يعرفها. لم يكن يعوز حياتها معه إلا قليل من الإثارة؟ لكن هل هذا مهم؟ هل ثمة ما يهم بعد الآن؟

لا شيء يهم، لا شيء. أنا...

حشت كيتي فمها بطرف الملاءة مدركة أنها كانت على وشك الصراخ. «أنا عاهرة! لست أفضل من والدي! لا أستطيع أن أعيش مع هذا، لا أستطيع أن أعيش مع نفسي! ربّاه!».

ثم وقفت وراحت تذرّع أرض الغرفة، من جانب إلى آخر، «لا أستطيع العيش. لا أستطيع العيش!».

«يا سيدة كيتي، تعالي إلى الخارج وامشي معي».

كانت الأضواء الأرجوانية والحمرة تستحوذ على مجال رؤيتها، ما تسبّب لها بدوار. لكنها شعرت بذراع تحيط بكتفها وتقودها إلى الباب الأمامي. ثم، عبر الحديقة، حيث كانت التربة الحمراء الطازجة التي نشرها فريد ما تزال رطبة مثل دم يجف تحت قدميها.

«سوف أصرخ، يجب أن أصرخ!».

«سيدة كيتي، سنمشي والأرض من تحتنا، وسننظر إلى أعلى ونراهما ينظران إلى أسفل».

«لقد قتلت الاثنين، قتلتهما بطرائق مختلفة. نمت مع رجل لم يكن زوجي، بل شقيقه التوأم. لقد أحببته! فليكن الله في عوني، أحببته كثيرًا. وما زلت أحبه...». خرت كيتي جاثية على ركبتيها.

بكثير من الرقة، وضعت كاميرا يدها تحت ذقن كيتي ورفعتهما.

«لست أنتِ من يرسم الأقدار. هم الذين يرسمونها، هناك في الأعالي. أعلم أنك تحبين هذا الرجل. وأنا أحبه أيضًا. لكننا لم نقتله يا سيدة كيتي. الأشياء السيئة، تحدث. أرى كثيرًا من الأشياء السيئة. كلاهما عاش حياة هائلة. لكن الحياة، تبدأ وتنتهي. لا أحد يستطيع أن يغيّر ذلك».

«لا أحد يستطيع أن يغيّر ذلك...». وضعت كيتي رأسها على ركبتيها وبكت. «لا أحد يستطيع أن يغير ذلك...».

أخيرًا، عندما شعرت كما لو أن كل قطرة سائل في جسدها قد انسكبت من عينيها، ساعدتها كاميرا على الوقوف. «سأخذكِ إلى الفراش الآن يا سيدة كيتي. صغيركِ يحتاج إليك غدًا. وبعد غد».

«نعم، أنتِ على حق يا كاميرا، سامحيني على سلوكي. أنا...». هزت رأسها. لم يكن هناك مزيد من الكلمات.

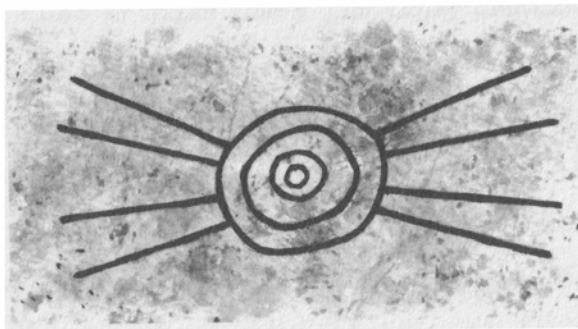
«سنذهب إلى الصحراء الكبيرة، حيث تستطيعين النواح كما يحلو لك تحت القمر والنجوم. سيريحك ذلك، سيحركك من الأشياء السيئة. بعد ذلك ستشعرين بالتحسن».

ساعدت كاميرا كيتي على النوم، ثم جلست بجانبها ممسكة بيدها. «لا تقلقي. سأغني لهما ليرقدا بسلام».

عندما أغمضت كيتي عينيها المنهكتين، سمعت صوت كاميرا العالي العذب يدندن بنغمة رتيبة ناعمة.

تمتتم قبل أن يغلبها النوم أخيرًا: «ربّاه، اغفر لي وسامحني على ما فعلت».

بروم، أستراليا الغربية
كانون الثاني 2008



رمز مكان اللقاء فيه ثقافة
السكان الأصليين

مسحت دموعي وجلست وأنا أحاول تهدئة نبضات قلبي.

فكرتُ في الحزن الذي شعرتُ به عندما مات يا، وحاولتُ أن أضاعفه بعدد الأشخاص الذين فقدتهم كيأتي في الكومبانا. كل الأشخاص الذين فقدتهم هذه المدينة...

خلعتُ السماعات وفركتُ أذني لأخفف ألمهما، ثم ذهبتُ لأفتح النافذة وأستنشق بعض الهواء النقي. حاولتُ أن أتخيل كل شخص من سكان هذه المدينة الواقفين على التل في نهاية شارع دامبيير تيراس، الذي مشيت فيه، وكلهم ينتظرون سماع أسوأ نبأ في حياتهم.

أغلقتُ النافذة لحجب أصوات جوقة الحياة البرية الليلية. وعلى الرغم من أن مكيف الهواء كان يعمل بكامل طاقته، إلا أنني كنتُ أشعر بالحر وأتصبَّب عرقًا. لم أستطع حتى أن أفكر كيف عاشت كيأتي هنا في بروم قبل قرن من الزمان، خصوصًا وهي ترتدي مشدًا، وسروالًا، وعددًا لا يُحصى من التنانير الداخلية. ناهيك بالاضطرار إلى الولادة في هذا الجو الحار.

حتى لو لم أفكر في ما كانت تمثله كيأتي بالنسبة إليّ قبل وصولي إلى بروم، فثمة جزء مني بات الآن يعشق الارتباط بها. ليس فقط لشجاعتها في الذهاب إلى أستراليا تاركة وراءها كل شيء، لكن أيضًا للطريقة التي تعاملت بها مع ما واجهته عندما وصلت. مقارنة بتجربتها بدت مشكلاتي تافهة. كانت الإقامة والعيش في بروم قبل مئة عام أمرًا شاقًا يحتاج إلى إرادة جبارة. وقد تبعت قلبها إلى حيث استطاع أن يقودها.

لم تكن صورتها على غلاف القرص المضغوط تساعدني على أن أتخيل أنني

على صلة قرابة بها، على الرغم من أن المحامي أكد أن إرثي جاء منها في الأصل. كان من المرجح أن أكون على صلة قرابة بالخدمة كاميرا. خصوصًا أن ابنتها ألكينا كانت على ما يبدو قد ورثت عيني والدها الياباني. كانتا مشابھتين لعيني.

كانت كاميرا وابنتها من هنا، من هذه المدينة، وقد طرقت خطواتهما هذه الشوارع التي كنت أمشيها. غدًا سأحاول معرفة مزيد. بينما كنت مستلقية، فكّرتُ كيف عادت هذه المدينة الهادئة الواقعة في نهاية الأرض إلى الحياة من خلال استماعي لقصة كيتي. عندما كانت هنا، كان المكان يعج بالناس. أردت أن أرى الأشياء التي رآتها، على الرغم من أنني لم أكن أعرف إن بقي منها شيء.



أيقظني رنين الهاتف في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. كانت موظفة الاستقبال في الفندق. «آنسة دابليز؟ هناك رجل ينتظر في صالة النزلاء. يقول إنه يعمل في صحيفة الأستراليان».

«شكرًا. أخبريه بأنني سأنزل خلال خمس دقائق».

أعدت السماعه ويدي ترتعشان. إذًا فقد تعقبتني الصحافة ووجدتني. أدركت أنه لم يكن هناك لحظة أضيّعها، فنهضت من السرير وارتديت ملابس على عجل، ثم وضعت أشياء في حقيبة ظهري. بعد أن قمت بحساب الدولارات المستحقة مقابل إقامتي، تركتها مع المفتاح على المنضدة بجوار السرير. ثم ركضتُ في الممر إلى مخرج الطوارئ الذي لاحظته الليلة الماضية عندما رأيت شخصًا يدخن سيجارة خلفه. دفعت الباب، وأراحني أنه انفتح من دون انطلاق صفارة جهاز الإنذار. هبطتُ سلمًا معدنيًا يؤدي إلى ساحة في الجزء الخلفي من الفندق كان سورها منخفضًا. لذا ألقيت حقيبتي من فوقه وتسَلَّقْتُهُ. بعد بضعة أفنية خلفية، وجدتُ نفسي في الطرف الآخر من الشارع.

قلت في نفسي: «حسنًا، والآن، ماذا أفعل؟». اتَّصلتُ بكريسي، التي ردَّت بعد الرنة الأولى. سألتها لاهثةً: «أين أنت؟».

«في مكتبي بالمطار. كيف حالك؟».

«هل من السهل حجز رحلة لمغادرة المدينة؟».

«إذا كنتِ تعملين في مكتب المعلومات السياحية مقابل مكتب مبيعات شركات الطيران، نعم. أين تريدين الذهاب؟».

«أليس سبرينغز. ما هي أفضل طريقة للوصول إليها؟».

«سيتعين عليكِ الحجز على الرحلة المتّجهة إلى داروين، ومن هناك إلى أليس».

«هل يمكنكِ أن تحجزي لي بطاقة على الرحلتين اليوم؟».

«هناك رحلة إلى داروين بعد ساعتين أو نحو ذلك. سأذهب وأستعلم إذا كان لا يزال عليها مقاعد شاغرة».

«إذا كان هناك مقعد شاغر، احجزيه لي. سأستقل سيارة أجرة، وأصل في أقرب وقت ممكن».

«سأرسلها لك الآن. امشي حتّى التماثيل البرونزية وستصل بعد عشر دقائق».

«شكرًا كريسي».

«لا عليكِ».

في المطار، وجدت كريسي تنتظرنني عند المدخل.

قالت وهي تقودني من ذراعي إلى مكتب الحجز: «يمكنك أن تخبريني بما يحدث بعد أن نثبّت حجزك». أشارت كريسي إلى الرجل الذي يقف وراء المكتب وقالت: «هذا صديقي زاب. الحجز جاهز. كلّ ما عليكِ فعله هو أن تسدّدي ثمنه».

أخرجتُ بطاقتي الائتمانية ووضعتها على المنضدة. اقتطع «زاب» المبلغ، وسلّمني بطاقة الطائرة وإيصلاً.

- شكرًا لكِ يا كريسي.

قالت: «سأعبر معكِ نقطة التفتيش. يمكننا أن نجلس في المقهى وستخبريني بكل ما حدث في تايلاند».

اللعنة! إذًا فإن كريسي أيضًا تعلم، ولم يكن ذلك مفاجئًا لأن مكتبها يقع قبالة كشك لبيع الصحف. لا شك في أنها رأَتْ وجهي على صفحاتها الأولى طوال أيام عدة، وهي تجلس إلى مكتبها. مع ذلك، لم تقل كلمة واحدة.

مررنا بنقطة الأمن معًا إلى مقهى صغير، وعادت كريسي ومعها زجاجتان من الماء وشطيرة لكل منا. اخترت الجلوس في مواجهة الحائط، تحسبًا لأي طارئ. «ما الذي يدعوك إلى المغادرة بهذه السرعة؟»

«جاء مراسل من صحيفة الأستراليان إلى الفندق وسأل عني هذا الصباح. من المحتمل أنك تعرفين سبب رغبته في إجراء مقابلة معي.»
«نعم أعرف. لقد تعرّفْتُ إليك في اللحظة الأولى التي جئت فيها إلى مكتبي. و...؟»

«التقيْتُ هذا الرجل على شاطئ في تايلاند وقضيت معه بعض الوقت. ثم تبين أنه مطلوب بتهمة الاحتيال المصرفي.»
«أنا قد تشانغروك؟»

«أو إيس، كما أعرفه.» ثم رويت لكريسي قصة لقائي به.
سألته عندما انتهيت: «كيف كان؟»

«رائع. لقد ساعدني عندما كنتُ في حاجة إليه.»
«هل نشأت بينكما علاقة؟»

«نعم. لقد أحببته حقًا، وحتى لو لم أحبه، لم أكن لأشي به. لم أكن لأفعل شيئًا بهذه الوضاعة، حتى لو كنت أعرف هويته، وكلّ ما فعله.»
- أعلم أنك لا تفعلين شيئًا كهذا يا سي.

كانت عينا كريسي مليئتين بالتعاطف بدلًا من الشك.

- إذًا فهو يعتقد أنك أنتِ التي خنته وأخبرت الصحف.

«لقد بعث لي برسالة نصيّة يقول فيها إنه كان يثق بي. شعرتُ وكأنني شخص وضيع تمامًا، وما زلتُ. لكن يستحيل أن يصدّقني، حتى لو شرحتُ له كلّ شيء.»

أعتقد أن هذا الصحفي السابق، جاي، رشا حارس إيس الشخصي للحصول على الصورة، وقد أعطيته الفرصة المثالية.

«يمكنك أن تكتبي له في السجن».

«لا أعتقد أنني قادرة على قول ما أريده». ثم ابتسمت لها ابتسامة واهنة وأضفت: «أنا أعاني من عسر القراءة، ألا تذكرين؟».

«هل يمكنني أن أكتب بدلاً منك؟».

«ربما. شكرًا».

«هل تعتقدين أنه مذنب؟».

«كيف لي أن أعرف؟ يبدو أن العالم كله يدينه. لا أعرف يا كريسي، ثمّة شيء مريب غير مفهوم. أشياء صغيرة قالها لي... إنه مجرد حدس غريزي، لكنني أعتقد أن في قصته أكثر مما يقول».

«قد يجدر بك أن تعرفي ما هو هذا الشيء».

«كيف لي أن أفعل ذلك؟ أنا لست محققة ولا أعرف شيئًا عن البنوك».

قالت مبتسمة: «أنت ذكية، ستجدين الطريقة».

احمررت خجلًا، إذ لم يصفني أحد من قبل بـ «الذكية». «على أيّ حال، سأركز في معرفة مزيد عن عائلتي».

قالت كريسي فجأة: «اسمعي، إذا كنت بحاجة إلى صديق محقق لمساعدتك في أليس، فأنا فتاتك. أنا على وشك أن آخذ إجازة على أيّ حال، وهو وقت هادئ وجميل من العام هنا، فما رأيك أن أنضمّ إليك هناك؟».

قلت متحمسة للفكرة: «حقًا؟ أقصد أنني لا أريد أن آخذ من وقتك، ولكن إذا كنت تستطيعين القيام بذلك، فسوف يكون من الرائع أن تساعديني. لقد اكتشفت مدى جهلي بأستراليا».

«لا يا صديقتي، أنت فقط بحاجة إلى شخص يريك طرف الخيط. سيكون الأمر رائعًا، ولطالما أردت الذهاب إلى أليس». ألقى كريسي نظرة سريعة على السبورة وقالت: «حان وقت الرحيل».

قلت لها وهي تسير معي إلى بوابة المغادرة: «أنا أكره الطائرات». «حقاً؟ أنا على عكسك تماماً، لطالما أحببتُ السفر ورؤية العالم. سأبعث لك برسالة نصية عندما أعلم على وجه اليقين أنني أستطيع الانضمام إليك». عانقتني وقالت: «أتمنى لك رحلة آمنة». «شكراً على كل شيء».

عندما صعدتُ إلى الطائرة، شعرتُ فجأة بالضياع، لقد تعرّفتُ إلى كريسي، وأصبحت صديقتي. يجب ألا أفسد هذه الصداقة كما حدث مع إيس.



عندما بدأنا النزول نحو أليس سبرينغز، رأيتُ تغييرًا ملحوظًا في المشهد الطبيعي أسفل مني. من السماء، بدت وكأنها واحة خضراء في الصحراء - كما افترضتُ - لكن ألوانها كانت أكثر نضارة. رأيتُ سلسلة من الجبال تتلألأ بلون بنفسجي في ضوء ضبابي، وقممها غير المنتظمة تشكل فكًا هائلًا من الأسنان الضخمة التي تخرج من الأرض. هبطت الطائرة بسرعة كما لو كانت تنقض على المدرج القصير، ثم نزلنا جميعًا.

ما إن ترجلتُ من الطائرة حتّى ضربتني موجة من الحرارة اللاهبة التي قد تشعل عود ثقاب بمجرد وضعه في الهواء. عندما تنفّستُ احترق أنفي ورتثائي، وشعرتُ بسعادة قصوى عندما دخلتُ إلى صالة المطار المكيفة.

لم يكن المطار أكبر كثيرًا من مطار بروم، لكنه كان يعجّ بالسيّاح. بعد أن اشتريتُ زجاجة ماء وجمعتُ بعض المنشورات الخاصة بالفنادق والأماكن المهمة، جلستُ على كرسيّ بلاستيكيّ وحاولتُ قراءتها قبل أن أقرّر مكان إقامتي. أدركتُ أن جميع السياح كانوا هنا لأن أليس سبرينغز كانت بوابة إيرز روك -أو أولورو- كما قالت كريسي إنه الاسم الذي يطلقه عليها السكان الأصليون. وجاء في المنشور إنها كانت مكانًا مقدّسًا، وأنه على بعد ست ساعات فقط بالسيارة.

بعد ذلك قرأتُ عن أليس سبرينغز، أو «أليس»، كما كانت تُسمّى. من الواضح

أن فن السكان الأصليين كان على قدرٍ عالٍ من الأهمية هنا. كان كثير من المعارض ينتشر داخل المدينة وخارجها، بدءًا من مركز Many Hands Arts الذي يديره فنانون من السكان الأصليين، إلى مركز Araluen Arts، وهو من الحداثة بحيث كان يبدو أشبه بسفينة فضائية هبطت في وسط الصحراء.

سرت في رعدة أخرى من الإثارة وشعرت بالغريزة أنني إذا كنت لأجد إجابات في مكان ما، فسوف تكون هنا.

تممت: «كانتريمني» (أهلي)، حين تذكرت أن جدة كريسي قالت هذه الكلمة. بعد ذلك فتحت الكتيب الخاص بإرسالية هيرمانسبورغ، التي أصبحت متحفًا يقع على بعد ساعتين بالسيارة من المدينة. كما جاء في الكتيب أن ألبرت ناماتجيرا وُلد هناك. لم أكن قد سمعت به قبل يوم أمس، لكنني اكتشفت أن اسمه يُطلق على المعارض والشوارع والمباني. حاولت أن أقرأ مزيدًا، لكن الكلمات كانت تتراقص أمام عيني على الصفحة، وبالأخص أسماء السكان الأصليين التي كانت تشكل الجزء الأعظم منها.

عندما شغلت هاتفني، واصلتني رسالتان، كلتاهما من كريسي:

مرحبًا! لقد وجدتُ لك فندقًا. أسألي عن كيث في مكتب المعلومات السياحية بالمطار وسيعطيك التفاصيل. قبلاتي.

تحدثت لتؤي إلى مكتب كانتاس، فقدّموا لي رحلة مجانية تقديرًا لجهودتي في ترتيب الرحلات الجوية للسياح على متن طائراتهم. لم أتوقع هدية كهذه! أصل غدًا. قبلاتي.

أدهشني أن تبذل هذه الفتاة التي بالكاد كنت أعرفها كلّ هذه الجهود من أجلي. وحتى لو لم ينته بي الأمر إلى اكتشاف من كنتُ ومن هي عائلتي، فإن المجيء إلى أستراليا كان يستحق ذلك، لأنني التقيتُ كريسي.

سلكتُ الممر متجهًا إلى مكتب المعلومات السياحية، حيث كان رجل طويل منمّش الوجه ذو شعر أشقر يصل إلى كتفيه يجلس أمام جهاز كمبيوتر.

سألت: «مرحبًا، هل أنت كيث؟».

«نعم، من يسأل؟».

«أعتقد أن صديقتي كريسي في بروم قد حدّثتك عني، قالت إنك حجزت لي غرفة في الفندق».

«آه، صديقة كريسي، سيسي! لقد حصلت لكِ على سعر خاص».

سَلَمَني ورقة الحجز وقال: تفضّلي. ما عليكِ إلا أن تستقلي سيارة أجرة إلى لايكهارد تيراس، ثمّ باتجاه نهر تود».

«شكرًا لك».

قال بابتسامة ودية: «أهلاً بكلّ أصدقاء كريسي، يسعدني ذلك. طاب يومك!». في سيارة الأجرة، فكّرت متعجّبةً في الطريقة السهلة التي كانت كريسي تتعامل بها مع كلّ الأشخاص الذين قابلتهم، ومدى تقديرهم لها. بدت مرتاحة تمامًا مع نفسها ومع هويتها.

الحمد لله، أنا ما أنا...

للمرة الأولى، أصبح اقتباس پا سولت المنقوش على الكرة الحلقية منطقيًا، لأنني أردتُ أن أكون كذلك أيضًا.

بعد نصف ساعة، وجدتُ نفسي في «غرفة فاخرة»، تحتوي على الأقل على دش لائق وغلاية. نظرتُ من النافذة متوقعةً أن أرى نهرًا، كما قال كيث، لكنني فوجئتُ بالعثور على مجرى نهر رمليّ جاف تحيط به أشجار ذات جذوع معوّجة تضم عقدًا كثيرة. فجأة كنتُ في وسط الصحراء وبدا ذلك صادمًا.

كانت ساعة الغسق عندما غامرتُ بالخروج، وأدركتُ أن رائحة الهواء مختلفة هنا؛ جافة وعطرة، بدلًا من رطوبة بروم. قطعتُ جسرًا يعبر مجرى نهر تود وتناولتُ طبق بيتزا في مطعم يعج بعائلات تتحدث وتضحك. افتقدتُ رفقة كريسي وشعرتُ بسعادة غامرة لفكرة انضمامها إليّ في اليوم التالي.

عدتُ إلى الفندق ووجدتُ صحيفة على طاولة القهوة في بهو الاستقبال.

التقطتها وكان عدد التايمز الذي صدر أمس. تساءلتُ عما إذا كانت هناك أيّ تطورات في قضية إيس. كان زخم القصة قد تراجع إلى عنوان صغير في الصفحة الأولى:

تشانغروك يعترف بأنه مذنب في جريمة الاحتيال

كانت هناك صورة له - أو على الأقل الجزء الخلفي من رأسه وكتفيه - وهو يدخل المحكمة ويحيط به حشد غاضب. تمكّنتُ من قراءة عبارة: «القصة كاملة في الصفحة 7»، لذا أخذتُ الصحيفة إلى غرفتي وحاولتُ فكّ شيفرة المقالة.

مثل أناند تشانغروك أمام محكمة وولويتش كراون اليوم بتهمة الاحتيال. وبدا تشانغروك هزيلًا ومنهكًا، واعترف بأنه مذنب في جميع التهم الموجهة إليه. ولم يمنح القاضي الكفالة، ولا يزال السيد تشانغروك رهن الحجز حتّى محاكمته، التي من المتوقع أن تتم في أيار. وخارج المحكمة، رشقه المئات من زبائن بنك بيرنرز بالبيض، ولوحوا بلافتات تطالب بتعويض خسائرهم.

وقد سعى الرئيس التنفيذي لشركة بيرنرز، ديفيد روتر، إلى تهدئة مخاوفهم. «نحن ندرك الوضع المحزن والصعب الذي يجد عملاؤنا أنفسهم فيه. ونواصل بذل كلّ ما في وسعنا لتعويض المتضرّرين».

وعندما سُئل كيف يستطيع السيد تشانغروك تغطية الخسائر لفترة طويلة وعن اعترافه بالذنب، رفض السيد روتر التعليق.

صعدتُ إلى السرير وأخيرًا دخلتُ في حالة من النوم المضطرب. تخيلتُ إيس مستلقيًا على فراش رقيق يشبه فراش السجن.



استيقظتُ مرتجفةً على صوت رنين الهاتف، وأجبتُ بصوت كالههمهمة. «ألو؟».

«سي؟».

«كريسي؟».

«نعم أنا هنا! هيا أيتها الكسولة، إنها الثالثة والنصف بعد الظهر! سأصعد في الحال».

سمعت نقرة إغلاق الخط فغادرتُ السرير لأرتدي ملابسِي. وبعد دقائق قليلة سمعتها تضع المفتاح في القفل، وانفتح الباب. «مرحبًا يا عزيزتي. تسعدني رؤيتك». حيتني كريسي بابتسامة مشرقة ورمت حقيبة ظهرها على السرير الآخر. «لا يزعجك أن أنام معكِ في الغرفة نفسها، أليس كذلك؟ قال كيث إنه لا توجد غرف أخرى شاغرة».

«لا توجد أي مشكلة، لقد تشاركتُ الغرفة مع شقيقتي طوال حياتي».

«كنتِ محظوظة. كان عليّ أن أشارك مع شقيقتي». ضحكت كريسي ثم جعدت أنفها وقالت: «غرفتنا تفوح دائمًا برائحة الصبيان، لعلمكِ». «لديّ خمس شقيقات، أتذكرين؟ وممرنا يفوح برائحة العطر».

قالت مبتسمة: «لست أفضل حالًا، خذي، لقد أحضرتُ لنا بعض الحلوى أيضًا». أعطتني علبة بلاستيكية. فتحتها لأجد فيها قطع كعك مربعة الشكل، مغطاة بالشوكولاتة ومسحوق جوز الهند. كانت رائحتها سماوية. حثتني قائلة: «هيا. لقد صنعتها بنفسِي. خذي قطعة للفطور، ثم يمكننا الخروج والاستكشاف».

مع فمي المليء بالكعكة اللذيذة، خرجنا. كانت شمس الظهيرة المتأخرة حارقة ألهبَت رأسي. من الخريطة، بدا كما لو كان من السهل التنقل في أليس سبرينغز، لأنها صغيرة جدًا. مشينا في شارع تود، الذي تصطف على جانبيه المعارض الفنية المكونة من طابق واحد، وصالونات العناية بالأظفار، والمقاهي تحت أشجار النخيل. توقّفنا لتناول مشروب وطعام في أحدها، ولاحظتُ لوحة كبيرة مرسومة بأسلوب التنقيط في واجهة المعرض المقابل.

«أوه، انظري يا سيسي! إنهن الشقيقات السبع!». ثم أضافت مبتسمة: «إنهن يتمتّعن بشعبية واسعة هنا. من الأفضل ألا تذكرِي أنكِ تحملين اسم إحداهن، وإلا سيبنِي السكان المحليون مزارًا حولكِ!»

بعد تطمينات كريسي، وللمرة الأولى في حياتي جرّبتُ طبق لحم الكنغر، وأنا متأكّدة أن تيغي لن تسامحني أبدًا إذا اكتشفت ذلك. كان لديها حنان حقيقي

خيال «بيبي رو» في قصص ويني ذا پو، التي كان والدي يقرأها لنا. وفي ذلك الوقت تقريبًا قررت أن تصبح نباتية.

سألتني كريسبي: «ما رأيك في لحم الكنغر؟»

«إنه لذيذ، يشبه لحم الغزال قليلًا. أليست حيوانات مهددة بالانقراض؟».

«لا، هناك آلاف منها في جميع أنحاء أستراليا».

«لم أرَ أيًا منها من قبل».

- من المؤكد أنك سترين، فهناك كثير منها في المناطق النائية. إذًا، هل أتاحت لك الفرصة لمعرفة مزيد عن ألبرت ناماتجيرا؟». نظرت إليّ كريسبي بعينيها المشرقتين المترقبتين.

«لا، أذكرك بأنني لم أصل إلا أمس، ولا أعرف حقًا من أين أبدأ».

«حسنًا، أعتقد أن الأفضل هو البدء بإرسالية هيرمانسبورغ غدًا. لكنها على مسافة بضعة كيلومترات من المدينة، لذا، سنحتاج إلى سيارة».

اعترفْتُ: «أنا لا أجيد القيادة».

«أنا أجيد القيادة شرط أن تكون علبة السرعة أوتوماتيكية. إذا كان لديك المال الكافي لاستئجار وسيلة النقل، سأكون سائقك. اتفقنا؟».

«اتفقنا. شكرًا يا كريسبي».

«أتعلمين، إذا كنتِ فعلاً قريبة لناماتجيرا، فسوف يقيمون لك مزارًا هنا، وسوف أساعدهم على ذلك! لا أستطيع الانتظار لرؤية ما ترسمينه يا سي. يجب أن تتزوّد ببعض اللوحات القماشية والفراشي، وتحاولي رسم المناظر الطبيعية هنا، كما فعل ناماتجيرا».

«ربما، لكنّ أعمالِي الفنية كانت سيئة خلال الأشهر الستة الماضية».

«تغلّبي على نفسك يا سي. لا أحد يلتحق بإحدى أفضل كليات الفنون في لندن ويرسم أشياء سيئة».

«حسنًا، كلّ اللوحات التي رسمتها في الكلية كانت سيئة. كما لو أن أساتذتي لوثوا رأسي بطريقة ما. والآن، لست متأكّدة مما يجب أن أرسمه».

«فهمت». وضعت كريسي يدها الدافئة على يدي: «ربّما عليك أن تعرفي من أنتِ قبل أن تعرفي ما تريدين أن ترسميه».

بعد وجبتنا، لَوّحت كريسي بمنشور سياحيّ في وجهي. اقترحت: «ما رأيكِ في أن نصعد إلى تل أنزاك؟ إنها مجردّ نزهة قصيرة سيرًا على الأقدام، والتل، كما يُفترض، يتمتع بأفضل إطلالة على أليس سبرينغز، وعلى قرص الشمس عند الغروب».

لم أخبرها أنني كنتُ قد استمتعتُ بغروب الشمس مرات عدّة في هذه الرحلة، لكن طاقتها كانت معدية، لذلك انطلقنا في ذلك الجو الحار وبدأنا تسلّق التل بوتيرة بطيئة.

على القمة، كان المصوِّرون يجهّزون كاميراتهم وحواملها الثلاثية ويتهيّأون لالتقاط غروب الشمس. وجدنا مكانًا هادئًا يواجه الغرب وجلسنا. نظرت إلى كريسي وهي تتأمل غروب الشمس؛ كان تعبيرها يدل على الرضا بينما كانت ألوان الضوء الذهبي والأرجواني الناعمة تخضّب وجهها. تحتنا، كانت أليس سبرينغز تشتعل بأضواء الشوارع المتألّئة والشمس تستقر خلف الجبال، حتّى لم يبقَ منها سوى خطٍّ أحمرٍ ذاكنٍ على السماء النيلية.

بعد أن تناولنا مشروب الكولا في المدينة، عدنا إلى الفندق وعرضت عليّ كريسي أن أستحم قبلها. تحت الدش شعرت بتيار الماء البارد يبلل بشرتي المتعرّقة، فرفعت وجهي إليه وابتسمت. كان وجود كريسي معي رائعًا، فقد كانت متحمّسة جدًّا لكل شيء. لففت المنشفة حولي، وعدت إلى الغرفة. تسمّرت للحظة، إذ خلال الدقائق العشر التي غبت فيها، بدا أن ساق كريسي اليمنى قد سقطت، ولم يبقَ منها سوى قطعة صغيرة تحت الركبة. كان باقي الساق يرقد على بعد بضعة سنتمترات منها.

قالت عرضًا وأنا أحدّق إليها: «نعم، لديّ ساق اصطناعية».

«كيف؟ متى؟».

«مذ أن كنتُ في الخامسة عشرة من العمر. ذات ليلة، كنت محمومة جدًّا، لكن أُمي لم تثق بالطبيب الأبيض، واكتفت بإعطائي قرصين من الباراسيتامول

لتخفيض الحرارة. في صباح اليوم التالي، وجدتني فاقدة الوعي في السرير. لا أتذكر شيئاً عن ذلك، لكنهم نقلوني جواً إلى المستشفى في داروين، حيث شُخّصت إصابتي بالتهاب السحايا. كان الأوان قد فات لإنقاذ ساقي بسبب بداية تسّم في الدم، لكنني على الأقل نجوتُ. أعتقد أن ساقي مقابل حياتي كانت مقايضة جيّدة، أليس كذلك؟».

قلت وأنا ما أزال تحت وقع الصدمة: «أنا... نعم صحيح، إذا نظرتِ إلى الأمر بهذه الطريقة».

«لا فائدة من النظر إلى الأمر بأي طريقة أخرى، أليس كذلك؟ أنا أتدبّر أمري بشكل جيد. لم تلاحظي، أليس كذلك؟».

«لا، على الرغم من أنني تساءلتُ لماذا ترتدين الجينز دائماً، بينما أتعرق أنا مثل خنزير في سروالي القصير».

«المشكلة الوحيدة هي أنني كنتُ أفضل سباحة في غرب أستراليا. فزت ببطولة الناشئين مرتين، وكنت أحاول الانضمام إلى الفريق الأولمبي للعام 2000 في سيدني حيث كنت وكاثي فريمان لُتري العالم ما يمكننا فعله نحن السكان الأصليين. على أيّ حال، لقد أصبح ذلك كلّهُ من الماضي. والآن، جاء دوري في الاستحمام».

نهضتُ من دون أن تتمايل، كما لو أنها غرزت قدميها بقوة في الأرض. استخدمت ذراعيها القويتين ببراعة للإمساك بالأثاث ورجّحت نفسها نحو الحمام وأغلقت بابه خلفها.

تهالكْتُ على السرير، وشعرتُ كما لو أن ساقيّ قد تحوّلتا إلى برك من العصيدة. كان نبض قلبي يتسارع والأفكار والمشاعر تتزاحم في رأسي. شعرت بالذنب من الشكوى والتذمّر والأسف على نفسي في حين كنت محظوظة على نحو لا يُصدّق، بل كنتُ أيضاً أمتلك كلّ قدراتي البدنية. شعرتُ بالغضب أيضاً، لأن هذه الفتاة لم تتلقَ الرعاية الطبية الفورية التي كانت تحتاج إليها. والأهم من ذلك كله، إعجاب لا حدّ له بالطريقة التي تقبّلتُ بها كريسّي مصيرها، بشجاعته وإقدامها على مواصلة

حياتها والمضي قُدُمًا، في حين كان بإمكانها قضاء بقية حياتها وهي تشكو وتتأسف على نفسها، كما فعلت مؤخرًا...

انفتح باب الحمام وظهرت كريسي، ملفوفة بالمنشفة. اتجهت إلى سريرها بسهولة وبحتت في حقيبتها عن پيجاما.

استدارت ورأت عينيّ مسلّطين عليها: «ماذا؟ لماذا تحدّقين إليّ هكذا؟». «أريد فقط أن أقول إنني أجدك رائعة. الطريقة التي تواجهين بها... ما حدث لك». وأشارت إلى الطرف المفقود من ساقها. «لم أرغب في أن أعرف بهذا الطرف المفقود، أتعلمين؟ انتبهي، لقد كانت له بعض الفوائد». ضحكت وهي تصعد إلى السرير. «ما هي تلك الفوائد؟».

«عندما تقدّمتُ بطلب الالتحاق بالجامعة، جاءتني مجموعة كاملة من العروض».

«ربّما كنتِ تستحقّينها». «سواء كنتُ أستحقّ أم لا، كان لديّ خيارات كثيرة. باعتباري شخصًا معاقًا من السكان الأصليين، كانت الجامعات تتنافس على تسجيلي». أجبت وأنا أصعد إلى السرير أيضًا: «يا للسخرية! كم يبدو ذلك صلفًا؟». «ربما، ولكنني حصلتُ على فرصة تعليم رائع، وقد استفدت منها إلى أقصى حدّ. إذًا من هو المستفيد هنا؟». مدّت يدها لتطفئ الضوء بجانب السرير. أجبت: «أنت».

أنتِ... بكل إيجابيتك، وقوّتك، وشغفك بالحياة. استلقيتُ في الظلام، وشعرتُ بطاقتها الغريبة، لكن المألوفة على بعد بضعة أمتار مني.

قالت: «طابت ليلتك يا سي. يسعدني أن أكون معك هنا». ابتسمتُ. «وأنا أيضًا».

«هل ستستيقظين أم لا؟». شعرتُ بأنفاس على وجهي وواجهت مشقة في العبور إلى حالة اليقظة، إذ كنتُ قد تعودتُ النوم حتّى وقت متأخّر من الصباح. «يا إلهي، لقد أهدرنا نصف الصباح!».

«آسفة». فتحتُ عيني ورأيتُ كريسي تجلس على السرير أمامي، وعلى وجهها لمحة استياء. «أنا أنام حتّى وقت متأخّر بشكل طبيعي».

«حسنًا، في الساعات الثلاث الماضية، تناولت الفطور، وجلتُ في المدينة واستأجرتُ سيارة يتعيّن عليك دفع تكاليفها في مكتب الاستقبال. يجب أن ننطلق إلى هيرمانسبورغ، وفي الحال».

«حسنًا، آسفة».

رميتُ الملاة ونهضتُ مترنحةً. راقبتني كريسي متسائلةً بينما كنت أرتدي سروالي القصير وأبحث في حقيبتني عن قميص نظيف.

سألتها بينما كانت عيناها تتبعانني إلى المرأة: «ما الأمر؟».

«هل تعانين غالبًا من الكوابيس؟».

«نعم، أحيانًا. قالت لي شقيقتي ذلك على أيّ حال. آسفة إذا أزعجتك».

«ألا تتذكرينها؟».

«نعم. أتذكر بعضها». أضفتُ وأنا أدسّ محفظتي في جيب سروالي: «هيا بنا إلى هيرمانسبورغ».

بينما كنّا نخرج من المدينة على طريق واسع مستقيم تحيط به الأرض الحمراء من كلا الجانبين، ضربت الشمس سيارتنا الصغيرة وأدهشني أنها لم تنفجر تحت

وطأة الحرارة التي كانت تتحملها. سألتُ وأنا أشير إلى الجبال المتعرجة البعيدة: «ما اسم هذه الجبال؟».

أجابت كريسي بلا تردّد: «سلسلة جبال ماكدونيل. لقد رسمها ناماتجيرا في كثير من لوحاته».

«تبدو أرجوانية».

«هذا هو اللون الذي رسمها به».

«أوه، حقاً؟».

تساءلت إن كنتُ قادرة على رسم صورة حقيقية لما أراه في العالم.

كنتُ أشاهد المناظر الطبيعية من النافذة وسألتُ كريسي: «كيف يستطيع الناس البقاء على قيد الحياة هنا؟ لا شيء هنا على امتداد كيلومترات».

«إنهم يتأقلمون. هكذا، بمنتهى البساطة. هل سبق لك أن قرأت داروين؟».

«داروين؟ كنت أعتقد أنها مدينة».

«إنها كذلك أيتها الحمقاء، لكن رجلاً يدعى داروين ألف كتباً - أشهرها كان بعنوان «أصل الأنواع». يتحدث فيه عن كيفية تكيف جميع النباتات والزهور والحيوانات والبشر مع محيطهم على مدى آلاف السنين».

التفتُ لإلقاء نظرة على كريسي. «أنت مثقفة حقيقية، أليس كذلك؟».

هزّت كريسي رأسها وقالت: «لا. أنا مهتمة بتراثنا وبما صنعناه وحسب. وأنتِ ألسب كذلك؟».

«نعم، لهذا السبب أنا هنا في أستراليا».

«أنا لا أتحدّث عن عائلتنا. أقصد، من الذي خلقنا، خلقنا حقاً. ولماذا».

«أنتِ مثل شقيقتي، تيغي. إنها تتحدّث عن قوة عليا».

«أود أن ألتقي شقيقتك. تبدو رائعة. ماذا تعمل؟».

«تعمل في محمية للغزلان بإسكتلندا».

«يبدو هذا جديراً بالاهتمام».

«إنها تعتقد ذلك».

- من الجيد أن تكون الروح مسؤولة عن شيء ما أو شخص ما. على سبيل المثال، عندما يصبح أولاد السكان الأصليين في سن البلوغ، يُختنون ثم يتسَلَّمون حجرًا - يُسمى تيجورونغا - عليه علامة خاصة توضح لهم ما عليهم الاعتناء به في الأدغال. قد يكون حفرة ماء أو كهفًا مقدسًا، أو ربما نباتًا أو حيوانًا. مهما يكن الأمر، تقع على عاتقهم حمايته والعناية به. قديمًا، كانت هناك سلسلة بشرية على امتداد الطريق التي تعبر المناطق النائية تتحمل مسؤولية رعاية الموارد الضرورية. لقد أبقي هذا النظام قبائلنا على قيد الحياة أثناء ترحالها في الصحراء».

«هذا لا يُصدّق. إذاً فإن مثل هذه التقاليد تهدف إلى شيء ما، والأولاد وحدهم يحصلون على هذه الأحجار تيجو...».

«تيجورونغا. نعم، الرجال فقط، ولا يُسمح للنساء والأطفال بلمسها».

«إنه تقليد ذكوري وغير منصف».

قالت وهي تهز كتفها: «إنه كذلك، لكننا نحن النساء لدينا تقاليدنا المقدسة أيضًا، وهي ممنوعة على الرجال. لقد أخذتني جدتي إلى الأدغال عندما كنت في الثالثة عشرة من العمر. ولا أمزج، كنت أموت من الرعب، ولكن في الواقع، كان الأمر رائعًا حقًا. لقد تعلّمت بعض الأشياء المفيدة، مثل كيفية استخدام عصا الحفر للعثور على الماء أو الحشرات، وأي النباتات صالحة للأكل وكيفية استخدامها. وعندما عدت كنت إذا سمعت شخصًا يعطس في الطرف الآخر من الشارع أعرف من هو وأخبرك من هو بالضبط. هناك، كنا نصغي لمعرفة مصادر الخطر، أو صوت قطرات الماء، أو الأصوات البعيدة التي ترشدنا إلى عائلتنا».

«يبدو هذا مذهلاً. لطالما أحببت هذا النوع من الأشياء».

صاحت كريسي فجأة: «انظري! هناك قطيع بأكمله!». انحرفت كريسي حتى حافة الطريق المغبرة وضغطت بقوة على المكابح، فالتصقنا بالمساند. «آسفة، لكنني لم أرغب في أن تفوّتيها. هل لديك كاميرا؟».

«نعم».

كان الكنغر أكبر كثيرًا مما كنت أتوقعه وشجعتني كريسي على اتخاذ أوضاع سخيفة أمامها. عندما عدنا إلى السيارة، طاردتنا أسراب لا حصر لها من الذباب وغزت جلدنا، تذكّرت المرة الأخيرة التي استخدمتُ فيها الكاميرا وما حدث بعد ذلك. في ذلك المكان المجهول، وحيوانات الكنغر، وكريسي، بدت تايلاند قصيّة جدًّا.

انطلقنا ثانية وسألتها: «متى نصل؟»

«بعد أربعين دقيقة كحدّ أقصى، بحسب ما أعتقد».

حين وصلنا انعطفنا على طريق ترابي ورأيت مجموعة من المباني المطلية بالكلس الأبيض. كانت هناك لافتة خشبية مكتوبة بخط اليد تشير إلى أننا وصلنا إلى إرسالية هيرمانسبورغ.

عندما ترحّلنا، رأيتُ أننا - وركاب الشاحنة الصغيرة المتوقّفة بالقرب من المدخل - كنا الكائنات البشرية الوحيدة التي وصلت بالسيارة، ولم يفاجئني ذلك. كانت مجموعة الأكواخ الصغيرة محاطة بكيلومترات من العدم، أشبه بسطح المريخ. لاحظتُ أن الصمت كان مطبقًا، حتى ولا وشوشة نسيم، بل مجرد طنين حشرات بين حين وآخر. حتّى أنا، المُحبّة للسلام والمساحات المفتوحة الواسعة، شعرتُ بالعزلة هنا.

دخلنا الجناح الرئيسي المسقوف بالصفيح، وأعيننا تتأقلم ببطء بعد تعرّضها لأشعة الشمس الساطعة.

قالت كريسي للرجل الذي يقف خلف المنضدة: «طاب يومك».

«طاب يومك. أنتما الاثنان فقط؟».

«نعم».

«تسعة دولارات لكل منكما».

علّقت كريسي عندما دفعت له: «المكان هادئ».

«لا يوجد كثير من السياح الذين يغامرون في المجيء إلى هنا في هذا الجو

الحار».

«أرى ذلك. هذه صديقتي سيلينو. لديها صورة فوتوغرافية نريدك أن تراها».

لكزنتي كريسي فأخرجت الصورة وأعطيتها للرجل. نظر إليها ثم إليّ.

«ناماتجيرا. كيف حصلت على هذه الصورة؟».

«أحدهم أرسلها لي».

«من؟».

«مكتب محاماة في أدبلايد. إنهم في طور تتبّع المرسل، بينما أحاول العثور على عائلتي الأصلية».

«أرى ذلك. إذًا، ماذا تريد أن تعرفي؟».

قلتُ: «لست متأكدة»، وراودني شعور بأنني محتالة أو ما شابه ذلك. ربما كان الرجل يلتقي أقارب مُحتمَلين لناماتجيرا كلّ يوم.

تدخلت كريسي: «تبناها أحدهم عندما كانت طفلة صغيرة».

«توفّي والدي بالتبني منذ بضعة أشهر، وكان قد ترك لي رسالة أخبرني فيها أنه أورثني بعض المال. وعندما ذهبْتُ لمقابلة محاميهِ السويسري، كانت هذه الصورة موجودة في الظرف الذي أعطاني إياه. قرّرتُ أن آتي إلى أستراليا وأكتشف من أرسل لي الصورة. تحدّثْتُ إلى المحامي في أدبلايد، لكن لم يكن لديّ أيّ فكرة عن هوية ناماتجيرا، ولم أسمع به من قبل.

بدأتُ أتلعثم حتّى وضعت كريسي يدها على ذراعي وتولّت المَهْمَة. «باختصار، جاءت سيسبي إلى هنا لأنني تعرّفت على ناماتجيرا في الصورة. إنها تعتقد أنها قد تكون دليلاً على هوية والديها الأصليين».

تفحص الرجل الصورة ثانية. - إنه بالتأكيد ناماتجيرا، وأود أن أقول إن الصورة التُقِطت في هيفيتري جاب، في منتصف الأربعينيات، عندما اشترى ألبرت شاحنته الصغيرة. أما من هو الصبي الذي يقف بجانبه، فلا أعرف.

اقتрحت كريسي: «حسنًا، سنلقي نظرة حول المكان. ربما تستطيع التفكير. هل لديك أرشيف هنا؟».

«لدينا سجلّات لكل طفل وُلِد هنا أو جيء به إلى الإرسالية، وصندوق من الصور بالأبيض والأسود مثل صورتك». أشار الرجل إلى صورتى وأضاف: «على الرغم من ذلك، سيستغرق الأمر أيامًا لمراجعتها».

«لا تقلق يا سيدي. سنذهب ونلقي نظرة فحسب».

رافقتني كريسي مرورًا بكومة من البطاقات البريدية وثلاجة مليئة بالمشروبات الباردة حتّى اللافتة التي تشير إلى مدخل المتحف. مشينا في طريقٍ متربّ آخر ووجدنا نفسينا في مساحة مفتوحة كبيرة، محاطتين بما كان على شكل حرف L من الأكواخ البيض.

أشارت كريسي إلى أحد المباني: «حسنًا، لنبدأ بالكنيسة».

دخلنا الكنيسة الصغيرة ذات المقاعد المتهالكة، وفوق المنبر كانت تتدلى صورة كبيرة للمسيح على الصليب.

قرأت كريسي الكلمات الموجودة على لوحة المعلومات بصوتٍ عالٍ: «إذًا، فقد جاء هذا الرجل الذي يُدعى كارل ستريلو إلى هذه الإرسالية لإقناع السكان الأصليين بالتحوّل إلى المسيحية. وصل من ألمانيا مع عائلته في العام 1894، وبدأ الأمر تمامًا مثل بعثة مسيحية عادية. لكن بعد ذلك، أصبح هو والقساوسة التالون مفتونين بثقافة الأيرينتي وتقاليدها المحلية».

كنت أحدّق إلى صفوف من الوجوه الداكنة في الصور، كانوا كلهم يرتدون ملابس ذات لون أبيض، بينما كانت كريسي توضّح ذلك.

سألْتُها: «من هم الأيرينتي؟»

«القبيلة المحلية من السكان الأصليين».

«هل ما زالوا يعيشون هنا؟».

«نعم، في الواقع، يُذكر أنه في العام 1982، عادت إليهم الأرض رسميًا. أصبحت هيرمانسبورغ الآن ملكًا لأصحابها الأصليين».

«هذا جيد، أليس كذلك؟».

«نعم، إنه رائع. هيّا، دعينا نرَ الباقي».

كان هناك مبنى طويل ذو سقف من الصفيح تبين أنه كان مدرسة.

وحين دخلنا إلى صفٍّ مدرسيٍّ وجدنا على السبّورة كلمات وصورًا.

«ذُكر هنا أيضًا أن المحمية لم تُحضر إلى هنا أيّ خلاصي بالقوة. لقد جاء الجميع وذهبوا بمحض إرادتهم».

«ولكن، هل جرى تحويلهم إلى المسيحية؟».

«كان عليهم جميعًا حضور القداديس وقراءة الكتاب المقدّس. لكن يبدو أن

القساوسة كانوا يغضّون الطرف عندما كانوا يرغبون في الاحتفال بثقافتهم الخاصة».

«إذًا في الواقع، كانوا يؤمنون - أو يتظاهرون بالإيمان - بديانتين مختلفتين؟».

«نعم. مثلي تقريبًا. ابتسمت كريسي وأضافت: «ومثل باقي شعبنا في أستراليا.

هيّا، دعينا نلقِ نظرة على الكوخ ناماتجيرا».

كان الكوخ يضم عددًا قليلًا من الغرف الخرسانية البدائية، وتعرّفت على

ناماتجيرا في صورة على رف الموقد. كان رجلًا ضخّمًا، قوي الملامح، يتسم مبهورًا

بالشمس، ويقف بجوار امرأة تغطي رأسها بمنديل. قرأتُ «ألبرت وروزي». فسألت:

«من هي روزي؟».

«زوجته. كان اسمها الأول روبينا. وكان لديهما تسعة أطفال، على الرغم من أن

أربعة منهم ماتوا قبل وفاة ألبرت».

قلتُ وأنا أشير إلى المدفأة في الصورة: «لا يسعني أن أصدق أنهم كانوا بحاجة

إلى نار في هذا الجو الحار».

«صدقيني، هنا في النقر نقر يصبح الجو باردًا جدًّا في الليل».

لفتت انتباهي لوحة على الحائط فذهبت للنظر إليها عن كثب. سألتُ كريسي:

«هل هذه اللوحة لناماتجيرا نفسه؟»

«نعم».

حدّقتُ إليها مفتونة، فبدل أن تشبه لوحة نموذجية لفن السكان الأصليين،

كانت منظرًا طبيعيًا بالألوان المائية، في أحد جوانبه شجرة لبنان بيضاء، وطبيعة ذات ألوان ناعمة مفرطة الجمال، وفي الخلفية سلسلة جبال ماكدونيل الأرجوانية. ذكرتني بلوحة انطباعية، وتساءلت كيف وجد هذا الرجل الذي نشأ في مكان ناءٍ - وهو من السكان الأصليين بالولادة ومسيحي بالإيمان - أسلوبه الخاص.

سألتني كريسي التي كانت تقف بجانبني: «ليس هذا ما كنت تتوقعينه؟».

«لا، لأن معظم فن السكان الأصليين الذي رأيته في المدينة كان عبارة عن لوحات بأسلوب التنقيط التقليدي».

«كان ناماتجيرا تلميذ رسّام أبيض يدعى ريكس باتاربي، وكان متأثرًا بالانطباعيين. جاء إلى هنا ليرسم الطبيعة. إنه هو الذي علّم ألبرت الرسم بالألوان المائية».

«أنا معجبة بثقافتك الفنية. أنت تعرفين كل شيء عن الفن، أليس كذلك؟».

«لأنني مهتمة. لقد أخبرتك أن الفن - وخصوصًا فن ناماتجيرا - هو شغفي».

بينما كنتُ أتبعها خارج الكوخ فكّرتُ. كان الفن شغفي أيضًا، لكنه ضاع مؤخرًا في مكان ما، وأدركتُ أنني أريد استعادته حقًا.

عندما خرجنا إلى حرارة النهار الصارخة، قلت: «يجب أن أذهب إلى دورة المياه».

أشارت كريسي: «هناك».

عبرت الفناء حتّى رأيت لافتة معلقة على الباب كتبت عليها:

الثعابين تحب الماء! أبقِ غطاء كرسي المرحاض مغلقًا!

كانت أسرع حاجة قضيتها في حياتي. انسحبتُ إلى الخارج، وأنا أتعرق أكثر مما كنتُ عندما دخلتُ.

قالت كريسي: «يجب أن نتحرّك. دعينا نتزوّد ببعض الماء لرحلة العودة».

داخل الكوخ الذي يضم مكتب التذاكر ومحل بيع الهدايا، ذهبت وكريسي إلى الصندوق وسدّدنا ثمن الماء.

قال الرجل الذي التقيناه عندما وصلنا: «هل يمكنك أن تتركي لي تلك الصورة يا آنسة؟ قلتُ في نفسي إنني قد أتمكن من عرضها على أحد كبار السن. إنهم قادمون إلى هنا غدًا لحضور اجتماعنا الشهري، وربما يتعرفون على هوية الصبي الذي يقف بجوار ناماتجيرا. أكبرهم يبلغ من العمر ستة وتسعين عامًا، وهو حاد الذهن مثل نصل. لقد نشأ هنا».

نظرت إلى كريسي غير متأكدة: «هل يتعين علينا العودة إلى هنا لاستردادها؟». «سأكون في أليس يوم السبت، ويمكنني أن أعيدها لك إذا أعطيتني رقم هاتفك وعنوان المكان الذي تقيمين فيه».

قلتُ: «حسنًا، عندما رأيتُ كريسي تومئ لي مشجعةً». أعطيتُ الصورة وكتبتُ التفاصيل التي طلبها.

قال الرجل مبتسمًا: «لا تقلقي يا عزيزتي، ستكون بأمان». «شكرًا».

صاح عندما غادرنا: «رافقتكما السلامة».

على الطريق الواسع المقفر، في أثناء عودتنا إلى الحضارة سألتني كريسي: «هل شعرت بشيء ما؟».

«ماذا تقصدين؟».

«هل قالت لك غريزتك إنك ربما أتيت من هيرمانسبورغ؟».

«هيرمانسبورغ؟».

«لست متأكدة من أنني أملك مثل هذه الغرائز يا كريسي».

«بل تملكينها يا سي، مثلنا جميعًا. عليك فقط أن تثقي بها أكثر قليلًا».

بينما كنا نقترّب من أليس سپرينغز، كانت الشمس تؤدّي دورها على أكمل وجه. كانت تنحني بشكل مثالي عند طرف سلسلة جبال ماكدونيل، ملقيةً شظايا من الضوء على الصحراء الحمراء تحتها.

أمرتها فجأة: «توقفي هنا!».

ضغطت كريس بعنف على المكابح وأوقفت السيارة على جانب الطريق.
«آسفة، ولكن يجب أن ألتقط صورة».
«لا عليكِ يا سي».

أخذتُ الكاميرا. فتحتُ الباب وعبرْتُ الطريق. قلتُ: «يا إلهي! هذا بديع»
فجأة شعرتُ بوخز في أصابعي، وكانت تلك هي الإشارة التي يعطيني إياها
جسدي عندما أكون بحاجة إلى رسم شيء ما. كان إحساسًا لم أشعر به منذ فترة
طويلة.

عندما عدتُ إلى السيارة، قالت كريس: «يخيّل إليّ أنك سعيدة».
أجبتُ: «نعم».
وكنْتُ أقصد ذلك حقًا.



في صباح اليوم التالي، استيقظتُ عندما سمعت كريس تذرع أرضية الغرفة على
أطراف أصابعها. في العادة، كنت أعود إلى النوم، أما اليوم، فثمة نوع من الترقّب
الغريب أجبرني على النهوض ومغادرة السرير.
«آسفة لأنني أيقظتُكِ. كنتُ على وشك النزول لتناول الفطور».
«لا بأس، سأتي معك».

في أثناء احتساء فنجان من القهوة القوية، مع لحم الخنزير المقدّد والبيض،
وطبق من الفاكهة لإراحة ضميري، ناقشنا برنامجنا لباقي اليوم. أرادت كريس
الذهاب لمشاهدة معرض ناماتجيرا الدائم في مركز أراالوين، أما أنا فكانت لديّ
أفكار أخرى مُدْ أدركتُ السبب الذي أيقظني في وقت مبكر جدًّا.
«في الواقع... حسنًا، لقد ألهمتني رحلة العودة إلى المنزل مساء أمس. كنتُ
أتساءل إن كنتِ تمانعين في إعادتي إلى ذلك المكان الذي التقطتُ فيه صور
غروب الشمس؟ أود أن أحاول رسم المشهد».

أضاء وجهه كريسي: «هذه أخبار رائعة. بالطبع سأخذكِ إلى هناك».

«شكرًا، على الرغم من أنني بحاجة إلى ورق وألوان».

قالت كريسي، وهي تشير من النافذة إلى عدد من صالات العرض المنتشرة على طول الشارع: «أنتِ محظوظة هنا. سنذهب إلى أحد المعارض ونسأل من أين يحصلون على لوازمهم».

بعد الفطور، خرجنا إلى الشارع ودخلنا أول معرض في طريقنا. في الداخل، سألت كريسي موظفة الاستقبال أين يمكنني العثور على الورق والألوان، وأضافت إنني طالبة في الكلية الملكية للفنون في لندن.

كان هناك غرفة كبيرة بجانب المعرض، حيث كان فنانون من السكان الأصليين يعملون على الطاولات أو على الأرض، والضوء يتسلل من النوافذ الكثيرة، وكان هناك مطبخ صغير وشخص يعد القهوة. بدا المكان أكثر راحة من غرف العمل المشتركة في كلية الفنون القديمة.

قالت المرأة: «هل تريدين الرسم هنا؟».

غمزت لي كريسي وقالت: «لا، إنها تخطط للذهاب إلى البرية، أليس كذلك يا سي؟ سيلينو هو اسمها الحقيقي».

ابتسمت لي موظفة الاستقبال وقالت: «عظيم. لدي بعض الزيوت واللوحات القماشية، أم أنكِ ترسمين بالألوان المائية؟». سألتني وهي تنظر من فوقي إلى كريسي كما لو كانتا تتحدثان عن طفل يبلغ من العمر أربع سنوات. قلتُ مقاطعةً: «كلا التقنيتين، لكنني اليوم، أرغب حقًا في تجربة الألوان المائية».

«حسنًا، سأرى ما يمكنني العثور عليه».

خرجت المرأة من خلف المنضدة، ورأيت نتوءًا كبيرًا تحت قفطانها الأصفر. وأثناء غيابها، تجوّلتُ في المعرض، وحدّقتُ إلى أعمال السكان الأصليين التقليدية. كانت الجدران مغطاة بصور متنوعة للشقيقات السبع استخدم فيها الفنانون

الخطوط المائلة، والأشكال الغريبة، لرسم الفتيات و«الرجل العجوز» أوريون، الذي طاردهنَّ عبر السماء. لطالما شعرتُ بالحرَج من اسمي المستوحى من أسطورة يونانية غريبة، وكوكبة من النجوم على بعد بضعة ملايين من السنين الضوئية، أما اليوم فقد جعلني ذلك أشعر بالتميز والفخر. كما لو كنتُ جزءًا منها. كانت تعينني، وهنا في أليس، شعرتُ وكأنني في معبدها العالي.

أحببتُ أيضًا حقيقة أنني كنتُ أقف بين مجموعة من الفنانين الذين كنتُ لأراهن على شقتي الواقعة على ضفاف النهر في لندن، أنهم لم يلتحقوا بأي كلية للفنون. مع ذلك، كانوا هنا، يرسمون ما يشعرون به، ويجنون أرباحًا جيدة أيضًا، إذا استندنا إلى عدد السياح الذين يمرون بالمعرض ويشاهدونهم وهم يعملون.

«تفضلي يا سيلينو».

أعطتني المرأة علبة قديمة من الألوان المائية، وبعض الفراشي المستعملة، وبعض الأشرطة اللاصقة، وحزمة من الورق، ولوحة قماشية ذات ظهر خشبي. سألتني بينما كنت أبحث عن محفظتي لتسديد الثمن: «هل تناسبكِ؟».

سارعت كريسبي إلى القول قبل أن أفتح فمي للنطق كأنها مديرة أعمال: «إنها لامعة. يجب أن تري بعضًا من أعمالها».

خجلتُ وبان الاحمرار تحت بشرتي المبلّلة بالعرق. سألتها: «كم هو ثمن الألوان والورق؟».

«ما رأيك بالمقايضة؟ أحضري لي لوحة، وإذا كانت جيدة، سأعلقها في المعرض ونتقاسم الأرباح. اسمي ميرين، وأدير هذا المعرض لصالح المالك.

«حقًا؟ هذا لطف منك ولكن...».

قاطعتني كريسبي مرة أخرى: «شكرًا لك يا ميرين. اتَّفَقنا، أليس كذلك يا سي؟».

«أنا... نعم شكرًا».

في ضوء الشمس الساطع خارج المعرض، التفتُ إليها: «يا إلهي، كريسبي، لم يسبق لك أن رأيتِ أيَّ شيء رسمته! لقد كنتُ دائمًا سيئة في استخدام الألوان المائية، وكانت هذه مجرد تجربة، للتسلية...».

«اصمتي يا سي. أعرف أنك رائعة حقًا». ثم نقرت على صدرها وقالت: «لا تحتاجين إلا إلى استعادة ثقتك بنفسك».

لهتُ من شدة الاضطراب والحرارة الخانقة. قلت: «لكن تلك المرأة، تتوقع مني أن أحضر لها شيئًا جيدًا و...».

«اسمعي، إذا كانت لوحتك تافهة، فسنعيد الألوان وندفع ثمن الورق، اتفقنا؟ لكن هذا لن يحدث يا سي، أعرف أنه لن يحدث».

في السيارة خارج المدينة، قرّرت كريسي أن تلقي عليّ محاضرة في كيفية تعامل ناماتجيرا مع لوحاته. «لقد قلتِ بالأمس إنكِ فوجئتِ بأنه رسم مناظر طبيعية، لأن معظم فناني السكان الأصليين يستخدمون الرموز في أعمالهم للتعبير عن قصص زمن الحلم».

قلتُ: «نعم، لقد فوجئت».

«حسنًا، انظري عن كثب، لأن ناماتجيرا كان يفعل ذلك، ولكن بشكل مختلف. أود أن أوضح لك ما أعنيه بالضبط، لكن عندما تنظرين إلى أشجار اللبان التي يرسمها، فهي ليست مجرد أشجار، على الإطلاق. تجددين فيها كل أنواع الرموز. إنه يروي قصص زمن الحلم في مناظره الطبيعية. أتفهمين؟».

«نعم. أعتقد ذلك».

«إنه يمنح الطبيعة شكلًا بشريًا. حين تنظرين عن كثب، تدركين أن العقد في شجرة اللبان هي العيون. في إحدى لوحاته يتغير تكوين المناظر الطبيعية - السماء والجبال والأشجار - ويتحول، لذا فأنتِ تنظرين فجأة إلى طيف امرأة تستلقي على الأرض».

قلتُ وأنا أحاول تخيل ذلك: «رائع! هل فكرتِ يومًا في استثمار معرفتك الفنية يا كريسي؟».

ضحكتُ: «كلاشتراك في برنامج مسابقات عن الفنانين الأستراليين في القرن العشرين؟».

«لا، أقصد على المستوى المهني».

«أنتِ تمزحين؟ لقد درس الأشخاص الذين يعملون في عالم الفن طيلة سنوات عدة ليكونوا مدراء أعمال أو أمناء في المتاحف. من يريدني؟»
قلتُ: «أنا أريدك. لقد قمتِ بعمل رائع اليوم. علاوة على ذلك، لا تبدو تلك المرأة في المعرض وكأنها حاصلة على مليون درجة علمية في الفن، ومع ذلك تدير المعرض».

«هذا صحيح. ها قد وصلنا. أين تريدان أن تستقري؟»

ساعدتني كريسي على بسط البطانية والوسائد التي أخذناها من غرفة الفندق خلصةً. ثم جلسنا في ظلّ شجرة لبان وشربنا بعض الماء.
«سأقوم بجولة قصيرة لكي لا أضايقك».
«نعم، شكرًا».

على عكس الفنانين في ذلك المعرض، لم أكن بعدُ قادرة على الرسم إذا كان يراقبني شخص آخر. جلست القرفصاء، وألصقت الورقة على القماش ذي الظهر الخشبي. تملّكني الذعر، تمامًا كما حدث في كلّ مرة حاولت فيها التقاط فرشة الرسم في الأشهر القليلة الماضية.

أغضتُ عينيّ واستنشقتُ الهواء الساخن، المعطرّ برائحة النعناع، المنبعثة من شجرة اللبان التي كنت أتكئُ عليها. فكّرتُ في هويّتي - ابنة پا سولت، إحدى الشقيقات السبع - وتخيّلْتُ أنني هبطتُ من السماء إلى الأرض وخرجتُ من الكهف إلى هذا المشهد الرائع المضاء بنور الشمس...

فتحتُ عينيّ، وغمستُ الفرشة في زجاجة الماء، ثم خلطتُ بها بعض الألوان وبدأتُ الرسم.



«كيف الحال؟»

جفلتُ، وكدتُ أسكب ماء الزجاجاة القذر على اللوحة.

«آسفة يا سي. كنت غارقة في عالمكِ الصغير، أليس كذلك؟». اعتذرت كريسي عازمة على إعادة زجاجة الماء إلى وضع مستقيم.

«ألم تجوعي بعد؟ أنت ترسمين منذ ساعتين وأكثر».

«حقاً؟». شعرت بالنعاس والخدر، كما لو كنت قد استيقظت لتوي من نوم عميق.

«نعم. كنت أجلس في السيارة والمكيف يعمل بكامل طاقته طوال الأربعين دقيقة الماضية. يا إلهي، الجو حار هنا. لقد أحضرتُ لك زجاجة ماء بارد من السيارة».

ناولتني كريسي الزجاجة. ورمقتني بنظرة ملؤها التساؤل: «إدّا؟».

«إدّا ماذا؟».

«كيف تجدين النتيجة؟».

«اممممم.....». لم أستطع الإجابة، لأنني لم أكن أعرف. نظرتُ إلى الورقة على ركبتي، واعترتني الدهشة عندما اكتشفت أن اللوحة كانت مكتملة.

نظرتُ كريسي من فوق كتفي قبل أن يتسنّى لي الوقت لإيقافها: «رائع... رائع وحسب! يا إلهي!».

شبكتُ يديها فرحةً وتابعت: «كنت أعلم! هذا مذهل! خصوصاً وأنك لا تملكين سوى هذه اللعبة الصغيرة الرديئة من الألوان».

قلتُ وأنا أتأمل اللوحة: «لا تبالغي. فمَنظور سلسلة جبال ماكدونيل ليس صحيحاً تماماً، والسماء زرقاء عكرة قليلاً، إذ لم يكن لديّ ماء نظيف». لكنني في الحقيقة عندما نظرتُ إليها، عرفتُ أنها كانت أفضل لوحة مائية رسمتها على الإطلاق.

قالت كريسي وهي تجلس القرفصاء بجانبني: «هل هذا كهف؟ يبدو أن هناك طيفاً غامضاً لامرأة تقف في المدخل».

نظرتُ عن كُشِب ورأيتُ أنها كانت على حق. كانت هناك سحابة ضبابية بيضاء، مثل خيط من الدخان يخرج من مدخنة. قلتُ، على الرغم من أنني لم أتذكر أنني رسمتها حقاً: «نعم».

«وهاتان العقدتان على لحاء شجرة اللبان، تبدوان كعينين تراقبان الشكل سرًا. لقد أبدعتِ!». أَلقت كريسِي ذراعَيْها حولي وعانقتني بقوة.

«هل أبدعتِ حقًّا؟ ليس لديّ أيّ فكرة كيف فعلتُ ذلك».

«لا يهم. المهم هو أنكِ فعلتِ ذلك».

«حسنًا، لكنه يهمّ إذا كنتِ أرغب في الاستمرار. وهذه اللوحة ليست مثالية، كما هو الحال دائمًا عندما يقول الناس إنني أجدت القيام بشيء ما، حيث تبدأ عيني الناقدة في فحصه عن كثب ورؤية عيوبه. انظري، أغصان شجرة اللبان غير متوازنة، والأوراق ملطّخة وليست خضراء تمامًا، و...».

«كفى هراءً!».

سحبتُ كريسِي اللوحة عن ركبتي بعيدًا عن متناول يدي كما لو كانت خائفة من أن أمرّقها. «أعلم أن الفنانين هم أسوأ ناقدِي أنفسهم، لكن الأمر متروك للجمهور ليقرّر ما إذا كان العمل جيّدًا أم سيّئًا. ولأنني أنا الجمهور وعاشقة سرية للفن، خصوصًا لوحات كهذه، أعلمكِ أنكِ رسمتِ شيئًا رائعًا. يجب أن ألتقط صورة، هل جلبتِ كاميرتكِ؟».

«نعم، في السيارة».

بعد التقاط عدد من الصور، حزمنا أمتعتنا وتوجهنا إلى المدينة. وطوال الطريق إلى أليس، تحدّثتُ كريسِي عن اللوحة. في الواقع، لم تتحدّث عنها فحسب، بل حلّلتها بالتفصيل.

«ما يثير الدهشة هو أنكِ تبنيّت أسلوب ناماتجيرا وأضفتِ إليه لمستكِ الشخصية. ذلك الخيط الصغير الذي يخرج من الكهف، والعينان اللتان تراقبان سرًا على الشجرة، والسحب الست المبحرة في السماء...».

اعترفت قائلة: «كنتُ أفكر في قصة جدتك عن الشقيقات السبع في زمن الحلم قبل أن أبدأ بالرسم».

«كنتُ على يقين من ذلك! لكنني لم أرغب في قوله قبلك. في الواقع، تمامًا مثلما فعل ناماتجيرا، فقد تمكّنتِ من رسم بُعد آخر في منظر طبيعي رائع. لكن بأسلوبك الخاص يا سي. لقد استخدمتِ الرموز والقصة. إنه عمل رائع! مذهل حقًا!».

جلستُ بجانبها، يستمتع نصفي بمديحها، ونصفي الآخر يتمنى أن تصمت. فهمتُ أنها كانت تحاول تقديم الدعم، لكن صوتًا داخليًا متعاليًا كان يقول إنها مهما تبذُ واسعة المعرفة بناماتجيرا، لم تكن خبيرة فنية. في النهاية، إذا كانت اللوحة واعدة، فهل يمكنني تكرارها ثانيةً؟

أوقفتُ السيارة إلى جانب الشارع الرئيسي، وعدنا إلى المقهى الذي تناولنا فيه لحم الكنغر اللذيذ. طلبتُ البرغر لكلٌ منا بينما كنتُ أستمع إلى ثرثرتها.

«سيتعين عليك أن تتعلّمي القيادة، إذ ينبغي لك أن تذهبي إلى هناك مرة أخرى». ثم أظلمت عينها وقالت: «ويجب أن أعود إلى بروم في وقت مبكر من صباح غد. والحقيقة هي أنني لا أرغب في ذلك، فأنا أعشق أليس. لقد سمعت عنها كثيرًا من القصص السيئة، وبالأخص المشكلات بيننا وبين البيض. أنا متأكدة من أن بعضها صحيح، لكن الحركة الفنية هنا مذهلة، حتّى أننا لم نبدأ بياپونيا بعد».

«ياپونيا؟».

«إنها مدرسة فنية أخرى جاءت بعد ناماتجيرا مباشرة. مثل معظم اللوحات التنقيطية التي رأيته في المعرض».

حاولتُ قمع تناؤب هائل، لكنني فشلتُ فشلًا ذريعًا. لم أفهم لماذا شعرتُ بالإرهاق الشديد فجأةً.

اقترحْتُ: «اسمعي، لماذا لا تعودين إلى الفندق وتأخذين قيلولة صغيرة؟».

قلتُ: «نعم، أنت محقّة، فأنا نعسانة جدًّا لدرجة أنني لا أستطيع الاعتراض. هل تأتين معي؟».

«لا، أعتقد أنني سأذهب لرؤية أعمال ناماتجيرا في مركز أراالوين للفنون».

«حسنًا».

وضعتُ الدولارات اللازمة لتغطية ثمن وجبة الغداء على الطاولة ونهضتُ:
«أراك في الفندق».



استيقظتُ بعد بضع ساعات وجلستُ في وضع مستقيم ينتابني القلق.

أين اللوحة؟

فكرتُ من فوري وأنا أهرّ نفسي لأخرج من حالة النعاس. بحث عقلي في ملفات ذاكرته، وأدركتُ أننا تركناها في صندوق السيارة عندما تناولنا وجبة الغداء. وكان من المقرر أن نعيد السيارة إلى شركة التأجير في الساعة السادسة هذا المساء...

«تبًا!».

نظرتُ إلى الساعة وكانت تقترب من السابعة والنصف. ماذا لو نسيْتُ كريسي؟ انتعلتُ حذائي وجريت هابطةً الدرج؛ كان المصعد ليستغرق وقتًا أطول. وصلت إلى مكتب الاستقبال ورأيتها من الباب الزجاجي، تجلس على أريكة في صالة النزلاء الصغيرة. كانت تقرأ كتابًا عن ناماتجيرا، وعندما فتحتُ الباب واتجهتُ نحوها، زاد ذعري. لم يكن هناك أي أثر للوحة بجانبها.

«استيقظت الأميرة النائمة». قالت ذلك وهي تنظر إلى أعلى وتبتسم لي. لكنّ الابتسامة تلاشت عندما رأت وجهي. «ما بك؟».

قلتُ لاهثةً: «اللوحة، أين هي؟ لقد كانت في الصندوق، أتذكرين؟ وكان علينا أن نعيد السيارة في الساعة السادسة، والساعة الآن السابعة والنصف و...».

«يا إلهي. هل تعتقدين حقًا أنني نسيْتُ ذلك؟».

«لا، ولكن أين هي؟».

عندما وضعتُ يدي على فخذي بشكل عدائي، أدركتُ مدى أهمية تلك اللوحة

بالنسبة إليّ. سواء كانت رائعة أو قمامة - أو على الأرجح بين الاثنتين - لم يكن ذلك هو الهدف. ما كان يهمني هو أنها كانت تمثل البداية.

«لا تقلقي، إنها في مكان آمن تمامًا، أعدك بذلك».

سألت من جديد: «أين؟».

وقفتُ ونظرتُ إليّ: «قلتُ لكِ إنها في مكان آمن. أعتقد أن لديك مشكلة مع الثقة، أليس كذلك؟ سأخرج للنزهة».

«حسنًا، آسفة، ولكن هل يمكنكِ أن تخبريني أين هي؟».

هزّت كتفيها بصمت وخرجت من الصالة. وعندما تمكّنتُ من تحريك قدمي لأتبعها، كانت قد غادرت الفندق. خرجتُ ونظرتُ إلى أعلى الشارع وأسفله، لكنها تبخّرت.

عدتُ إلى الغرفة في الطابق العلوي واستلقيتُ على سريري وقلبي يقرع مثل طبل. في النهاية، هدأتُ وقلتُ لنفسِي إنني بالغت في رد فعلي، ولكن من المؤكد أنه كان من الإنصاف أن أتوقّع منها ردًّا واضحًا عن مكان لوحتي؟ لأنها تمثل العودة إلى شيء كنت أعتقد جدّيًا أنني ربّما فقدته إلى الأبد. شيء كان لي، ملكي، ولا يمكن لأحد أن يأخذه، إلّا أنا.

بعد أن تخلّيتُ عنها، مجازيًا وفي الحياة الواقعية، كنت بحاجة إلى استعادتها. لم تكن في مكان آمن إلّا إذا كانت معي. ألا تستطيع أن تفهم ذلك؟ أخذت حمامًا ساخنًا طويلًا لأغرق أفكاري، ثم استلقيتُ على سريري بانتظار عودتها.

قالت وهي تدخل الغرفة بعد ساعتين وتلقي مفتاحها على المكتب: «مرحبًا».

أجبتُ: «مرحبًا».

شاهدتها وهي تجلس وتخلع حذاءها، ثم خلعت سروالها لتبدأ في خلع نصف ساقها اليمنى. لم تكلمني، وعاملتني بصمت كما كانت ستار تفعل عندما أقول أو أفعل شيئًا خاطئًا. استلقيتُ على سريري وأغمضت عيني.

سألتنِي أخيرًا: «هل سمعتِ ما قلّته عندما غادرت الفندق؟».

قلت، وعيناي ما تزالان مغمضتين: «نعم، قد أكون غبية وأعاني من عسر القراءة، لكنني لست صمًا».

نَدَّت عن كريسي تنهيدة طويلة من الإحباط: «يا يسوع!».

ذهبت إلى الحمام. انغلق الباب خلفها وسمعتُ صوت رشاش الماء.

كنتُ أكره تلك اللحظات، حيث كان الجميع يعرفون الخطأ الذي ارتكبته، باستثنائي أنا. كما لو كنتُ كائنًا فضائيًا سقط على الأرض ولم يفهم قواعد اللعبة. كنت مستاءة حقًا، وزاد من استيائي القضاء على مشاعر النشوة التي شعرت بها قبل ساعات قليلة. كنتُ محبطةً تمامًا.

في النهاية، خرجت كريسي من الحمام وسمعت صرير السرير وهي تجلس عليه.

سألتنى ببرود: «هل أطفئ النور، أم أنك ستحتاجين إليه لتخلعي حذاءك؟»

«كما يحلو لك. أنا بخير في كلتا الحالتين».

«عظيم. ليلة سعيدة». وأطفأت النور.

تمكّنتُ من البقاء صامتة ما يقرب من خمس دقائق - في الواقع، وعلى الأرجح أقل - قبل أن أتكلّم. «ما هي مشكلتك؟ كنتُ فقط أسألك أين كانت لوحتي».

لم يصدر عن السرير المجاور غير الصمت. مرة أخرى، لزمته قدر ما استطعت، لكنني بعد ذلك بادرت بالقول: «لماذا تضخمين الأمر إلى هذا الحد؟».

أضاءت كريسي المصباح وحذقت إلى وجهي. «حسنًا! سأخبركِ أين توجد لوحتك اللعينة! من المحتمل أن تكون الآن في المشغل الموجود في الجزء الخلفي من معرض تانجيتيل بانتظار وضعها في إطار، وسوف تكون جاهزة يوم غد. هذا ما وعدتني به ميرين. وربما تُعلّق على جدار المعرض بعد غد، بسعر ستمئة دولار، وهو المبلغ الذي فاوضتها عليه.

أطفأتِ النور من جديد. وبذهول غرقتُ أنا واضطراباتي في الظلام ثانيةً.

قلتُ ببطء وأنا أحاول التنفس: «هل أخذتها إلى المعرض؟»

«نعم. هكذا كان الاتفاق، أليس كذلك؟ كنت أعلم أنك لن تقْدري أبداً رأيي المتواضع في هذا العمل، لذا أخذته إلى أحد المتخصصين. لعلمك، لقد أحببتها ميرين. كادت تنتزعها من يدي. تريد أن تعرف متى سترسمين غيرها».

ثمة جُمل كثيرة لم يتمكن عقلي من استيعابها، فلم أقل شيئاً، واكتفيتُ بالتنفّس بأفضل ما استطعت. قلتُ أخيراً: «هل اشترت لوحتي؟».

«لا أقول إنها اشترتها فهي لم تدفع شيئاً، لكن إذا اشتراها أحدهم فسوف يكون نصيبك منها ثلاثمئة وخمسين دولاراً، وسيقتطع المعرض مئتين وخمسين. حاولت ميرين القسمة مناصفة، لكنني رفضت ووعدها بمزيد من أعمال سيلينو داپليز».

سيلينو داپليز... لطالما حلمت بأن يصبح هذا الاسم مشهوراً في عالم الفن! من المؤكّد أنه لم يكن اسماً يمكن لأيّ شخص أن ينساه.

«أوه. شكراً».

«لا عليك».

أضفتُ وقد بدأتُ أفهم سبب انزعاجها: «أقصد، شكراً حقاً».

قالت: «لا بأس»، ومن الظلام، جاء الرد مقتضباً.

أغمضتُ عينيّ وحاولتُ التفكير في النوم لكن ذلك كان مستحيلاً. جلستُ مستقيمة، وشعرتُ أن دوري قد حان للخروج. تلمّستُ سروالي القصير، وكوني خرقاء، تعثّرتُ بساق كريسي الاصطناعية، التي كانت ترقد مثل فخ بين السريرين.

قلتُ: «آسفة»، وأنا أتلّمسها في الظلام لأعيدها إلى وضع مستقيم.

اشتعل الضوء من جديد.

كررتُ بينما كنت أبحث عن حذائي: «شكراً».

سألتُ: «هل مللت مني؟».

«لا، لست متعبة فحسب. لقد نمّت طويلاً بعد ظهر هذا اليوم».

قالتُ: «طبعاً، بينما كنت أنا في الخارج أعقد صفقة من أجلك».

ثم نظرتُ إليّ وهي تسند رأسها إلى مرفقها وتابعت: «اسمعي يا سي، إنها ليلتي الأخيرة هنا ولا أريد أن نتشاجر. لقد شعرتُ بالإحباط لأنك لم تثقي بي ولا بحرصي على تلك اللوحة بعد كل ما قلته وفعلته. واليوم، رأيتُ أي نوع من الفنانين يمكنك أن تكوني، وكنت متحمسة للغاية. لكنك لم تَري أيًا من ذلك عندما دخلتِ إلى صالة الاستقبال لتطالبيني بمعرفة مكان لوحك. لقد صدمني ذلك. كنت أعتقد حقًا أنك بدأتِ تثقين بي. لقد شعرتُ بالفرح لأن ميرين أحبّتها. كنتُ مبهورة، ولم أستطع الانتظار حتّى أخبركِ بذلك، ثم نخرج ونحتفل. لكنكِ أتيتِ غاضبة جدًا مني وتصرفتِ بعدوانية فأفسدتِ جمال اللحظة».

«أنا آسفة حقًا يا كريسي. لم أقصد إزعاجكِ».

«ألا ترين؟ لقد جئتُ إلى أليس لأنني أردتُ أن أكون معكِ. لقد افتقدتُكِ عندما غادرتِ بروم».

«حقًا؟».

قالتُ بخجل: «نعم».

قلتُ بنبرة لطيفة وإعجاب: «وأنا سعيدة حقًا بقدومكِ». ولكي أتأكد من أن عقلي كان يعالج ويستوعب ما كنتُ أسمعه بشكل صحيح، أو الأهم من ذلك، ما كان مستترًا بين الكلمات، قلتُ: «أنا آسفة حقًا، وأرغب في نسيان الأمر برمّته. أنا حمقاء في بعض الأحيان».

«اسمعي، لقد أخبرتني عن ستار والعلاقة التي كانت تربطكِ بها، وكيف خذلتكِ».

قلتُ بصدق: «لم تخذلني حقًا، كانت تحتاج إلى عيش حياتها الخاصة، وإلى أن تمضي قُدّمًا».

«مهما يكن. أعلم أنك تجدين صعوبة في منح الثقة، خصوصًا في الحب عندما يكون...».

تنهّدتُ قبل أن تكمل: «في الحقيقة، أريدكِ أن تعرفي قبل أن أغادر أنني...

حسنًا، أعتقد أنني أحبكِ يا سي. لا تسأليني كيف أو لماذا، ولكن هذا هو الحال. أعلم أنه كان لديك صديق في تايلاند و...».

رأيتُ الدموع تصعد إلى عيني كريسي.

تابعتُ: «لكنني فقط أود أن أكون صادقة».

«حسنًا، لقد فهمت». قلت ذلك وأشحت بنظري عنها. «لقد كنتِ رائعة يا كريسي، و...».

«لا حاجة لقول أي شيء آخر. أنا أفهم أيضًا. على الأقل يمكننا أن نكون صديقتين قبل أن نخلد إلى النوم».

«نعم».

«طابت ليلتك». مطّت نفسها لتطفئ الضوء من جديد.

«طابت ليلتك».

كنتُ مرهقة ذهنيًا وعاطفيًا، فعدلتُ عن الخروج واستلقيتُ على السرير أتفكر في الآثار المترتبة على ما قالته كريسي. يبدو أنها كانت تحبني. ولست ساذجة لكي أعتقد أنها كانت تعني ذلك كصديقة فقط.

كان السؤال السديد هو، هل أحبها أنا أيضًا؟ أقصد، منذ بضعة أسابيع فقط، كنت مع إيس. ذهلتُ لأنني، منذ أن قرّرتُ ستار عيش حياتها بعيدًا مني، أصبحت أستسهل الارتباط بجميع أنواع الأشخاص، ذكورًا وإناثًا...

شعرتُ بيد لطيفة على كتفي. «استيقظي يا سي، يجب أن أتوجّه إلى المطار الآن. لقد تأخّرت في النوم».

استيقظتُ وجلستُ من فوري. «تغادرين الآن؟».

«نعم، هذا ما قلّته لتوي».

«لكن...». نهضتُ ورحتُ أبحث عن سروالي. «سأتي معكِ».

«لا. لستُ موهوبة في هذا النوع من الأشياء». ثمّ شدّتني إليها وعانقتني. قالت وهي تبتعد عني وتتّجه نحو الباب: «أتمنّى لك حظاً سعيداً في معرفة من أنت».

لم يفتني المعنى المزدوج لكلماتها. قلّت: «سأبقى على اتصال، أعدكِ بذلك».

«نعم، أتمنّى ذلك. مهما يحدث. ثمّ مدّت يدها إلى مقبض الباب.

دفعني المشهد إلى فعل شيء ما، فتوجّهت نحوها: «اسمعي، لقد استمتعتُ حقاً بوجودي معكِ يا كريسي. كانت هذه الأيام القليلة الماضية من أفضل أيام حياتي».

«شكراً. آسفة بشأن الليلة الماضية. لم يكن ينبغي لي أن... حسناً، يجب أن أذهب». ثمّ اقتربت مني، وشفتاها الدافئتان تلامسان فمي وقبّلتني. وقفنا هكذا لبضع ثوان قبل أن تبتعد. «وداعاً يا سي».

أغلقتُ الباب خلفها ووجدتُ نفسي في غرفة، شعرت فجأة كم كانت كئيبة. كما لو أن كريسي أخذت معها كلّ الدفء والحب والضحك. تهالكْتُ على السرير، ولم أكن أعرف ما كنتُ أفكر فيه أو أشعر به. استلقيتُ على ظهري، لكن الصمت صدّع أذني. شعرتُ تماماً كما شعرتُ عندما غادرت ستار إلى كينت لتنضمّ إلى عائلتها الجديدة. كما لو أنني تُركت.

لكنني فكّرتُ في أنني لم أكن كذلك. حتّى لو كان ما حدث للتوّ صادمًا، فقد قالت كريسي إنها تحبني.

الآن، كان ذلك بمنزلة كشفٍ غير مسبوق. إذ كانت قلة قليلة من الأشخاص الذين قالوا لي مثل هذه الكلمات من قبل. هل كان ذلك هو السبب الذي جعلني أشعر بالاضطراب تجاهها؟ أم أنه كان...؟ أم أنني نفسي كنتُ...؟
«تبًا!»

هزرتُ رأسي حائرة. لم أكن أجيد فهم مشاعري وتحليلها، فقد كنتُ بحاجة إلى طبيب نفسي ليرشدني ويقود خطاي. كنتُ أفكر في حقيقة أنه ربما ينبغي لي أن أحذو حذو غالبية الناس في العالم الغربي، وأفترغ كلّ شيء أمام شخص محترف، عندما رنّ الهاتف بجوار سريري.

«مرحبًا يا آنسة دابليز. لديّ رجل هنا يريد رؤيتك».

«ما اسمه؟»

«السيد دروري. قال إنه التقاك في إرسالية هيرمانسبورغ».

«قولي له إنني قادمة في الحال».

أغلقتُ جهاز الهاتف، وانتعلتُ حذائي وغادرتُ الغرفة.

وجدتُ الرجل يذرع أرضية مكتب الاستقبال، فذكرني بحيوان بري كبير سُجن لتوّه في قفص صغير ولم يعجبه ذلك. كان طويل القامة شامخًا فوق كلّ شيء، وكانت ملابسه المتربة، ووجهه الذي لوّحته الشمس، غريبين على المكان بين الأثاث البلاستيكي الحديث.

قلتُ متجاهلةً قواعد التهذيب التي كانت تصر «ما» على أن نلتزم بها عندما كنا أطفالًا، ومددتُ يدي: «مرحبًا سيد دروري. شكرًا على حضورك».

«مرحبًا سيلينو. نادني فيل. هل هناك مكان يمكننا الذهاب إليه لننحدّث قليلًا».

«أعتقد أن الفطور لم يُرفَع بعد».

نظرتُ إلى موظفة الاستقبال التي أومأت برأسها. قالت لنا: «سيغلق البوفيه في غضون عشرين دقيقة».

ذهبنا إلى المطعم. وأشرتُ إلى طاولة بجانب النافذة في المطعم شبه الفارغ: «هنا؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

قال: «يناسبني تمامًا»، وجلس.

«هل ترغب في تناول أي شيء من البوفيه؟».

«قهوة لو سمحت».

بعد أن طلبت فنجانين من القهوة - قوية وسوداء - ذهبت إلى البوفيه وكدست طبقي بالكوليسترول. وبينما كنت أضع الصينية أمامه علّق فيل قائلاً: «أحبّ المرأة التي تستمتع بطعامها».

قلتُ وأنا آكل: «أوه، أنا كذلك».

إذا حكمتُ وفق الطريقة التي كان يحدق بها إليّ، لخُصْتُ إلى الاعتقاد بأنني كنتُ بحاجة إلى غذاء للعقل.

قال بعد أن احتسى فنجان القهوة اللذيذ بجرعة واحدة: «لقد عقدنا اجتماعًا مع كبار السن الليلة الماضية في هيرمانسبورغ».

قلتُ: «نعم، لقد ذكرتُ أنكم ستفعلون ذلك».

«في نهاية الاجتماع، أريتهم صورتك الفوتوغرافية».

«هل تعرّف أحدكم على الشاب الموجود فيها؟».

«نعم». أشار فيل للنادلة لتصب له قهوة أخرى، وقال: «يمكنني أن أقول ذلك».

«ماذا تقصد؟».

«حسنًا، لم أستطع أن أفهم لماذا كانوا جميعًا ينظرون إلى الصورة ويشيرون إلى أحدها ثم يضحكون».

سألته وأنا أحرص على الاستمرار في الاستجواب: «لماذا كانوا يضحكون؟».

«لأن الرجل الذي في الصورة يا سيلينو كان حاضرًا في الاجتماع وهو أحد كبار السن. كان الآخرون جميعًا يسخرون منه بشأن الصورة».

أخذتُ نَفْسًا عميقًا ثم أخذت رشفة من القهوة، وكنت على وشك أن أصرخ، أو أقفز من الفرع، أو أتقيأ وجبة الفطور الهائلة التي حشوتُ نفسي بها لتؤي. لم أكن معتادة على هذا القدر من الإثارة في غضون أربع وعشرين ساعة.

قلتُ: «حقًا؟».

تابع وكنتُ أعرف أنه سيفعل: «توقّف الضحك في النهاية، وجاء الرجل الموجود في تلك الصورة ليتحدث معي بعد أن غادر الآخرون».

«ماذا قال؟».

«هل تريد أن أكون صادقًا؟».

«نعم».

«حسنًا». ابتلع فيل ريقه وقال: «قبل الليلة الماضية، لم أكن قد رأيت في حياتي عجزًا ييكى».

قلت: «أوه». ولسبب ما شعرت بكتلة تسد حلقي.

«إنهم رجال كبار وأقوياء، لعلمك. ليس لديهم شيء من تلك العواطف البنّائية. اسمعي، إنه يعرف بالضبط من أنت، ويريد مقابلتك».

قلتُ: «أوه، من يعتقد نفسه؟ أقصد... من هو بالنسبة إليّ؟».

«يعتقد أنه جدك».

«حقًا؟».

هذه المرة، لم أستطع كبح دموعي فتركها تتدفق أمام هذا الرجل الذي لم أكن أعرفه. بحث في جيبه ومرّر لي منديلًا أبيض نظيفًا.

قلت وأنا أنظف أنفي: «شكرًا. إنها الصدمة، أقصد... لقد قطعت شوطًا طويلًا ولم أتوقّع أبدًا العثور على... عائلة».

انتظر بصبر حتّى استجمعتُ قواي.

«آسفة».

«أفهم».

أبقيت منديله المبلّل في يدي، متردّدة في إعادته إليه.

«لماذا يعتقد أنه قد يكون جدي؟».

«أعتقد أن عليه هو أن يجيبك».

«ولكن ماذا لو كان مخطئاً؟».

هزّ فيل كتفيه قائلاً: «قد يكون، لكنني أشك في ذلك. هؤلاء الرجال لا يقتصرون على الوقائع، لعلمك. لديهم غريزة تتجاوز كثيراً ما يمكنني أن أشرحه لك. وفرنسيس، من بين كلّ الآخرين، ليس من النوع الذي يعبث أو يطلق الكلام جزافاً. إذا كان يعرف، فهو يعرف، وكفى».

كان المنديل قد ابتلّ بالكامل فمسحتُ أنفي الذي كان لا يزال يقطر بظاهر يدي.

«متى يريد مقابلتي؟».

«في أسرع وقت ممكن. قلت إنني سأسألك إن كنتِ تستطيعين اختصار الوقت والعودة معي إلى هيرمانسبورغ الآن؟».

«الآن؟».

«نعم، إذا كان ذلك يناسبك. سيخرج إلى الأدغال قريباً، لذا فإنني أقترح أنه لا يوجد وقت أفضل من الوقت الحاضر.

قلتُ: «حسناً، لكن ليس لديّ أيّ وسيلة نقل للعودة إلى هنا».

أجاب: «يمكنك البقاء في منزلي الليلة إذا لزم الأمر، وسأوصلك إلى المدينة متى شئت».

«عظيم. إذًا يجب أن أجمع أشيائي».

أوماً برأسه: «بالتأكيد. تمهّلي. على كلّ حال، عليّ أن أنجز بعض المهام في المدينة ويمكننا أن نلتقي هنا بعد نصف ساعة».

«ممتاز. شكرًا».

افترقنا في قاعة الاستقبال وصعدت الدرج إلى غرفتي. إذا قلتُ إن رأسي كان يدور، فهذا لا يعدّ حتّى بداية وصفٍ. وبينما كنتُ أحزم أشياءي في حقيبة ظهري، شعرتُ كما لو أنني عالقة في فيلم استمر لساعات هي حياتي كلها، قبل هذا الصباح. وبعد ذلك، جرى تسريعه فجأة بحيث حدثت أشياء كثيرة في وقت واحد، أستراليا، كريسي، جدي...

وقفتُ وشعرتُ بدوار كان من الشدة بحيث اضطررتُ إلى الاتكاء على الحائط. هزرتُ رأسي، لكن ذلك زاد الأمر سوءًا، فاستلقيتُ وشعرتُ بالوهن.

حاولتُ التنفّس بعمق لتهذئة نفسي وتمتعت: «كثير من الإثارة».

أخيرًا، نهضتُ، ورأيتُ أنّه لم يتبقّ لي سوى عشر دقائق قبل أن أقابل فيل.

استسلمي للتيار يا سي، هذا ما قلته لنفسي بينما كنتُ أنظف أسناني وأنظر إلى انعكاس صورتي في المرأة. استسلمي للتيار فحسب.

أخبرتني موظفة الاستقبال أن نفقات إقامتي مدفوعة، فأدركتُ أن كريسي استخدمت المال القليل الذي كسبته لسداد الفاتورة. شعرتُ بالندم لأنني لم أفكر في الأمر ودفعْتُ قبلها. من الواضح أنها كانت فخورة، مثلي، ولم ترغب في إعطاء الانطباع بأنها تستغل الوضع.

كانت الشاحنة البالية المترّبة التي رأيتها في موقف السيارات في هيرمانسبورغ خارج الفندق.

قال فيل: «ألقي حقيبتك في الجزء الخلفي واصعدي».

انطلقنا، ورحت أتفحصه خلسةً وهو يقود السيارة. من أطراف حذائه الضخم الملطّخ بالأوساخ، إلى ذراعيه القويتين، حتّى قبعة أكوبرا على رأسه، كان رجل الأدغال الأسترالي النموذجي.

علّق قائلاً: «إدّا، فهي لحظة استثنائية تلك التي تنتظركِ أيتها السيدة الشابة».

«نعم. إذا كان هذا الرجل هو جدي حقًا... إذ لا أفهم كيف يمكنه أن يعرف

أنني حفيدته بالتأكيد. أقصد أنه لا يعرفني ولم يرَ صورة لي أو أي شيء آخر، كما أعلم أن والدي بالتبني هو الذي أطلق عليّ اسمي».

«حسنًا، كل ما أستطيع قوله هو أنني أعرف فرنسيس منذ سنوات طوال، وأنه ليس من النوع العاطفي الذي يتأثر ويتصرف بتلك الطريقة الرقيقة عندما حدثته عنك يوم أمس. علاوة على ذلك، كان لديك صورته، أتذكرين؟».

«نعم، ربما كان هو الذي أرسلها وترك لي الميراث؟».

«ربما».

«كيف هو؟ كشخص، أقصد؟».

ضحك فيل: «فرنسيس؟ من الصعب جدًا وصفه، فهو فريد من نوعه. لم يعد شابًا بالتأكيد، فقد وُلد في أوائل الثلاثينيات، بحسب ما أعتقد، لذا فهو في السبعينات من العمر، وقد قلّت أعماله في الآونة الأخيرة...».

«أهو فنان؟».

«نعم، وهو معروف جدًا هنا. عاش في الإرسالية عندما كان طفلًا. وإذا كان كبار السن يضايقونه الليلة الماضية، فلأنه كان يتبع ناماتجيرا مثل كلب الدغو الأليف».

«أنا فنانة أيضًا». عضضتُ على شفتي عندما شعرتُ بالدموع تتجمع في عيني ثانيةً.

«أرايتِ؟ أنتِ فنانة أيضًا. الموهبة تنتقل من جيل إلى جيل في العائلات، أليس كذلك؟ لستُ متأكدًا مما أورثه لي والدي العجوز، باستثناء كراهية المدن والناس... لا تعتبرها إهانة لك يا آنسة، لكنني أشعر براحة أكبر مع طيوري وكلابي مقارنة بالبشر».

«إذًا، فأنا لستُ على صلة قرابة بناماتجيرا قطعًا؟». فكّرتُ في مدى خيبة أمل كريسي.

- لا أعتقد ذلك، لا. لكن أن تكوني حفيدة فرنسيس أبراهام الذي يعدّ من الشخصيات المحترمة فهو مصدر فخر لا يُستهان به».

«أبراهام؟».

«نعم، لقد أعطوه لقبًا في البعثة، كما هو الحال مع جميع الأطفال الأيتام».

«هل كان يتيماً؟».

«من الأفضل أن يخبرك بنفسه. لا أعرف عنه إلا الأساسيات. كل ما تحتاجين إلى معرفته هو أنه رجل طيب وصلب، وليس مثل بعضهم من ركام الجوار. سأفتقده عندما يتقاعد من اللجنة، إنه الوحيد القادر على ضبط الأعضاء، إذا كنتِ تفهمين ما أقصده بذلك. إنهم يحترمونه».

عندما وصلنا أخيراً إلى موقف سيارات هيرمانسبورغ جن جنون العدّاد الذي يحصي نبضات قلبي، وتمنيت لو كانت كريسي بجانبني لتهدئني.

قال فيل وهو يخرج من الشاحنة: «حسنًا، هيّا بنا نتناول مشروبًا باردًا بينما ننتظره. من الأفضل أن تتركي حقيبتك في مكانها إذا كنتِ لا تريدين أن يزورها أشخاص غير مرحّب بهم، أليس كذلك؟».

رحتُ أرتجف وارتفع معدل ضربات قلبي بمقدار تسعين ألف نبضة إضافية، بينما كانت تتصاعد موجة من الذعر في داخلي. ماذا لو اضطررتُ فعلاً إلى قضاء الليلة هنا، في المناطق النائية، محاطة بأسوأ كوبايسي ثمانية الأرجل؟

هيّا، يا سي، كوني شجاعة. عليك أن تواجهي مخاوفك، قلتُ لِنفسي بينما كنت أسير على الأرض الحمراء الصلبة خلف فيل.

عندما وصلنا إلى موزّع المشروبات سألني: «كوكا كولا؟».

«شكرًا».

توجّه فيل إلى رف الكتب، بحثًا عن شيء ما. رأيتُه يتصفّح كتابًا كبيرًا بغلاف مقوّي يحمل عنوان «فن السكان الأصليين في القرن العشرين»، وتمنيت فقط ألا يعطيني مقطعًا ضخمًا لأقرأه.

قال وهو يشير بإصبعه إلى الصفحة ثمّ نقر عليها: «كنت أعرف أنها هنا. هذه لوحة لفرنسيس، وهي معروضة في المتحف الوطني في كانبيرا».

نظرتُ إلى الصورة اللامعة ولم أستطع إلا أن ابتسم. لقد تعلّم جدي المُحتمَل من ناماتجيرا، لذلك كنتُ أتوقّع منظرًا طبيعيًا بالألوان المائية. وبدل ذلك، أذهلتني لوحة نقطية نابضة بالحياة، بدت وكأنها دوامة مستديرة بالأحمر الناري والبرتقالي والأصفر، ذكّرتني بالألعاب النارية التي أطلقها والذي في حديقة أتلانتس بمناسبة عيد ميلادي الثامن عشر.

عندما نظرتُ عن كثب، بدأتُ ألاحظ أشكالًا داخل اللولب المثالي. ربما كان أرتبًا، وربما كان ذلك ثعبانًا يزحف إلى المركز...

قلتُ، ولأول مرة كنتُ أكتشف ما يمكن لفنان موهوب أن يفعله بالنقاط: «مذهل!»

قال فيل من خلف المنضدة: «عنوانها عجلة النار. ما رأيك؟»
- عشقتها حقًا، ولكن لم يكن هذا ما كنتُ أتوقّعه لأنك قلتَ إنه تعلّم من ناماتجيرا».

«نعم، لكن فرنسيس ذهب أيضًا إلى پاپونيا مع كليفوردي بوسوم قبل وقت طويل من وصول جيفري باردون. لقد ساعد الاثنان في بدء حركة پاپونيا. سأريك أعمالًا لكليفوردي بوسوم».

شعرتُ بالحرج لأن هذا الرجل كان يتحدث معي بأشياء جديدة تمامًا لا أفقه منها شيئًا. لم يكن لديّ أيّ فكرة عن هوية جيفري باردون أو كليفوردي بوسوم، أو أين كانت پاپونيا.

«هنا». نقر فيل على الصفحة فظهرت لوحة أخرى بديعة أمام عيني. استعمل الفنان في لوحته ألوان الباستيل الناعمة، ومثل الأشكال بآلاف النقاط الدقيقة شديدة الحساسية. ذكّرتني بزنابق الماء لمونيه، لكنها كانت كما لو أن الرسام قد دمج مدرستين مختلفتين معًا ليخلق شيئًا فريدًا من نوعه.

أوضح فيل: عنوان اللوحة Warlugulong وقد بيعت بأكثر من مليوني دولار في العام الماضي. إنه ثمن مرتفع جدًا. والآن، عذرًا، يا سيلينو، عليّ أن أتحقّق من سلامة دورة المياه، فقد وجدت فيها أمس أفعى سامّة جدًّا».

«أوه... هل قال جدّي متى سيصل؟».

قال فيل بشكل غامض: «اليوم، في وقت ما. خذي كلّ ما تحتاجينه من الثلاجة يا عزيزتي، وسأراك بعد قليل».

أخذت زجاجة ماء والكتاب وبحثت عن مكان أجلس فيه لأتصفّحه. لم يكن هناك سوى المقعد المرتفع خلف المنضدة. جلستُ عليه وفتحتُ الكتاب على الصفحة الأولى.

في الواقع كنتُ منغمسة جدًّا، ليس فقط في اللوحات المذهلة، بل في محاولة فك رموز أسماء الفنانين من السكان الأصليين ومعانيها أيضًا، حتّى أنني لم أرفع عينيّ إلّا عندما سمعت الباب ينفتح، ومن الواضح أنني لم أسمع صوت وصول السيارة.

قال الشخص الذي كان يقف في المدخل: «مرحبًا».

«أهلاً وسهلاً».

في البداية، اعتقدتُ أنه سائح يأتي لزيارة هيرمانسبورغ، لأنه لا يمكن أن يكون جدّي. كلّ الرجال المستنّين من السكان الأصليين الذين رأيتهم في الصور كانوا قصيري القامة وذوي بشرة داكنة جدًّا وجافّة بسبب الشمس التي حفرت فيها تجاعيد وشقوقًا عميقة كالخوخ المجفّف. بالإضافة إلى أن هذا الرجل بدا أصغر من سنّه، فقد كان طويل القامة نحيفًا، وله لون بشرتي نفسه. عندما خلع قبعته الأكوبرا وسار نحوي، شاهدتُ عينين ساحرتين، زرقاوين وبرّاقتين، مع نقط من الذهب والعنبر، بحيث بدت القزحية مثل اللوحات النقطية التي كنت أتفرّج عليها لتوي. ثم أدركتُ أنه كان يحدّق إليّ بحدة نظرتي إليه نفسها، وشعرت بأن وجنتيّ تشتعلان من شدّة الاحمرار.

- سيلينو؟ أنا فرنسيس أبراهام.

كان صوته عميقًا ورخيماً، بحلاوة العسل. التقت أعيننا وانطبقت في لحظة تعرّف.

رحنا نتبادل النظرات، وأدركتُ أنه لم يكن يعرف كيف يتصرّف في هذه اللحظة أفضل مني، لأن كلينا كان يعلم أنها كانت لحظة.

سألني وهو يشير إلى الثلاجة: «هل يمكنني الحصول على بعض الماء؟». كنتُ ممتنةً لأنه كسر اللحظة، لكنني تساءلتُ أيضًا عن سبب سؤاله. ففي نهاية المطاف، كان «كبيرًا في السن»، أيًا يكن معنى ذلك، وكنتُ متأكدة تمامًا من أنه يستطيع تناول الكمية التي يريدها من الماء.

راقبته وهو يسير نحو موزع المشروبات. كانت الطريقة التي مشى بها ثمّ مدّ ذراعه القوية ليفتح الباب الزجاجي تكذب ما قاله فيل عن عمره. كيف يمكن أن يكون هذا الرجل القوي والحيوي في السبعينات من العمر؟ لقد كان أقرب إلى كروكودايل داندي من كونه عجوزًا، وهو ما أكّده عندما استخدم أخف لمسة بإبهامه وسبابته لفتح غطاء الزجاجاة. شاهدته وهو يشرب بروية، لكسب الوقت وربما للتفكير في ما سيقوله.

بعد أن أفرغ الزجاجاة، ألقاها في سلة المهملات، ثمّ التفت إليّ.

قال: «لقد أرسلتُ لك تلك الصورة. كنت أتمنى أن تأتي».

«شكرًا».

أعقب ذلك صمت طويل، قبل أن تندّ عنه تنهيدة عميقة، ويهزّ رأسه قليلًا، ويتقدّم نحوي.

«سيلينو... تعالي وعانقي جدك».

بالنظر إلى ضيق المساحة الصغيرة خلف المنضدة، كفاني أن أمد يديّ، ليأخذني بين ذراعيه. كان رأسي على قلبه وسمعته يدقّ بثبات في صدره. شعرت بقوة الحياة تسري فيه، وبحبه أيضًا.

مسح كلانا دمعة خفية عندما افترقنا أخيرًا. همس بشيء ما بلغة لم أفهمها، ثمّ نظر إلى السماء. كان قريبًا الآن، وتمكّنتُ من رؤية التجاعيد الدقيقة تتقاطع على جلده وحبال من الأعصاب في رقبتة، فبدا أكبر سنًا ممّا أوحى به انطباعي الأول.

قال: «أنا على يقين من أن لديك أسئلة كثيرة».

«نعم. صحيح».

«أين فيل؟».

«ذهب للبحث عن الثعابين في دورات المياه».

«حسنًا، لا أعتقد أنه يمانع إذا استخدمنا كوخه للدردشة. تعالي، لدينا الكثير لنحدّث عنه».

كان كوخ فيل غرفة صغيرة منخفضة السقف الذي تتدلى منه مروحة قديمة فوق سرير خشبي خشن يحتوي على كيس نوم فوق الفراش الملطّخ بالبقع. فتح فرنسيس الباب الذي يؤدّي إلى شرفة مظلّلة. أخرج لي كرسيًا خشبيًا قديمًا متداعيًا يتمايل عندما يوضع على الأرض.

جلست، وعلى الفور عوّض المنظر الذي اكتشفته أمامي فقرّ أثاث الداخل. كانت الصحراء تمتد حتّى جدول ماء، وفي الجانب الآخر خط صغير من الشجيرات الخضر الفضية التي تتناثر على الضفّة وتعيش على امتصاص المياه القليلة لتبقى على قيد الحياة. وأبعد... لا شيء غير الأرض الحمراء حتّى خط الأفق الأزرق.

«لقد عشتُ بالقرب من هذا الجدول بعض الوقت مثل كثير منّا. داخل الإرسالية، لكن خارجها، إذا كنت تفهمين ما أقصده».

لم أفهم، لكنني أومأت برأسي. وأدركت أنني أقف عند ملتقى ثقافتين لا تزالان تتصارعان من أجل أن تتصالحا، بعد مرور مئتي عام على وصول الإنجليز. كانت أستراليا - مثلي تمامًا - شابة ما زالت تبحث عن نفسها. كنا نتقدّم، لكننا ارتكبنا أخطاء أيضًا، إذ لم يكن لدينا قرون من الحكمة ولا خبرة السن لإرشادنا.

شعرت غريزيًا بأن الرجل الذي يجلس أمامي يفوق معظم الناس حكمة، ورفعت عينيّ إليه ثانيةً.

«آه، سيلينو، من أين يجب أن نبدأ؟». غرس أصابعه في شعره ونظر إلى ذلك الأفق البعيد.

«أخبرني أنت».

قال وهو يعيد نظره إليّ: «أتعلمين، لم أتخيل أن هذا اليوم سيأتي. هناك كثير من اللحظات التي نتمنى حدوثها ولا تحدث».

أومات من جديد وتمنيت أن أتمكن من فهم لهجته الغريبة، التي كانت مزيجاً من نعمات مختلفة كنت أعتقد في كل مرة أنني فهمتها، لكنني كنت أعرف أنني كنت مخطئة. كانت مزيجاً من الأسترالية والإنجليزية وأعتقد أنني تعرّفت على بعض الكلمات الألمانية.

سألني: «إذا، لقد تلقيت الرسالة والصورة من المحامي في أدلايد؟».

«نعم».

«والمبلغ المرفق بهما؟».

«نعم. شكراً لك. كان هذا لطفاً منك حقاً، إذا كنت أنت الذي أرسله».

«لقد تكفّلت بإرساله، نعم، لكنني لم أكتبه بعرق جبين. مع ذلك فهو لك بالقانون. إنه إرثك من... عائلتنا». جعدت عينيه ابتسامة دافئة وأضاف: «أنت تشبهين جدتك الكبرى».

«ابنة كاميرا؟ الطفلة ذات العينين العنبريتين؟». جازفت بالتخمين وفق ما استمعت له على القرص المضغوط.

«نعم. كانت ألكينا والدتي. أنا... حسناً. اختفت ابتسامته وخيل إليّ أنه على وشك البكاء.

قلت: «أوه».

استجمع فرنسيس قواه وقال: «أخبريني. ما الذي اكتشفته حتى الآن عن أقرباك؟».

أخبرته عما أعرفه، وشعرت بالخجل وعدم اليقين لأن هذا الرجل كان يتمتع بحضور طاعٍ، وهالة من الهدوء والكاريزما، ما جعلني أشعر بأن لساني معقود أكثر من المعتاد.

«لقد وصلت إلى حادثة غرق السفينة كومبانا، وغرق الأب وابنيه في البحر.

يبدو أن المؤلف يؤكد في كتابه وجود علاقة وثيقة حقًا بين كيتي وشقيق زوجها، دروموند، أليس كذلك؟».

«لقد قرأته. إنه يشير إلى أنهما كانا على علاقة غرامية».

«أعرف أن الناس يميلون إلى كتابة بعض الأشياء لبيع كتبهم، لذلك لم أصدق بالضرورة ما جاء فيه». كنت أترثر خائفة من الافتراء على أحد أفراد عائلته المقربين، عائلتنا.

«سيلينو، هل تقولين إنك تشعرين بأن كاتب السيرة الذاتية ربما يكون قد أضفى بعض الإثارة على حياة كيتي ميرسر؟».

قلتُ محتاطة: «ربما، نعم».

«سيلينو».

«نعم».

«عندما تسمعين ما سأقوله لك، ستعرفين أن الكتاب متحفّظ جدًا ولا يرقى إلى مستوى الحقيقة».

دُهِلْتُ حين رأيتُ فرنسيس يقذف رأسه إلى الخلف وينفجر ضاحكًا. وعندما عادت عيناه إليّ، كانتا مليئتين بالمرح.

«الآن، سأروي لك القصة الحقيقية. حقيقة لم تكشفها لي جدتي إلا وهي على فراش الموت. وأنا لا أعبتُ بمثل هذه الأمور، لأنها كانت واحدة من أعزّ البشر وأغلاهم على قلبي».

«أفهمك، وأرجو ألا تخبرني إذا كنتَ لا ترغب في ذلك. ربّما ينبغي أن يتعرّف أحدنا إلى الآخر بشكلٍ أفضل، بحيث تكون على يقين من أنه يمكنكُ الوثوق بي».

«لقد شعرتُ بكِ مُدُّ كنتِ بذرة في بطن ابنتي. أنا قلق عليكِ يا سيلينو. يقلقني ألا تعرفي جذوركِ، ومن أين أتيتِ».

تنهّد بعمق وأضاف: «يجب أن تعرفي قصة أقاربك. دمهم ودمي يسري في عروقتك».

سألته: «كيف وجدتي بعد كل هذه السنوات؟».

«كانت الأمنية الأخيرة لزوجتي الراحلة، جدتك، هي أن أبحث عن ابنتنا مرة أخرى. لم أجدها، بل وجدتك أنت. لمساعدتك على فهم مزيد، يجب أن نعود بالزمن إلى الوراء. إذا، فأنت تعرفين القصة حتى غرق الكومبانا، ورجال آل ميرسر. أليس كذلك؟».

«نعم. ولكن ما علاقتي أنا بذلك؟».

«أنفهم نفاذ صبرك، لكن عليك أولاً أن تستمعي جيداً لتفهمي. لذا، سأخبرك بما حدث لكيتي بعد تلك المأساة...».

كيتيڤ
بروم، أستراليا الغربية
نيسان 1912

كثيرًا ما تساءلت كيتي: كيف ينجح البشر في اجتياز أحلك لحظات الفقد. في ليث، كانت تزور عائلات فقيرة، لتكتشف أنهم قد هلكوا بسبب وباء الأنفلونزا أو الحصبة. وكان الناجون منهم يضعون ثقتهم في الرب، لأنه لم يكن لديهم أحد يلوذون به ويضعون فيه هذه الثقة.

وأنا بالتأكيد في طريقي إلى الجحيم، هذا ما كانت تقوله لنفسها باستمرار. في الأسبوع التالي، وعلى الرغم من أن روتينها اليومي لم يتغير ظاهريًا، لكن كيتي عاشته مثل شبح، كما لو أنها هي أيضًا رحلت عن هذا العالم. كانت قطع قماش أسود تتدلى على واجهات المتاجر الواقعة على امتداد دامبيير تيراس، ولم يكن في المدينة عائلة لم تتأثر بالكارثة إلا ما ندر. ولزيادة صدمتهم، وصلتهم أخبار تقول إن المحيط قد ابتلع سفينة تاي تانك «غير القابلة للغرق»، ولم ينجُ منها سوى عدد قليل.

لم يكن لدى أحد أدنى فكرة عن ظروف غرق السفينة كوماننا آخدة حمولتها الثمينة إلى قاع البحر. باب مقصورة ووسادة أريكة من الجلد المغربي... كانا من البقية الضئيلة التي طفت على السطح. لم يُعثَر على جثث، وكانت كيتي تعلم أنها لن تجدها أبدًا. إذ لا بد من أن أسماك القرش الجائعة التهمتها في غضون ساعات قليلة.

كانت كيتي سعيدة في مجتمعها الصغير الذي كان يقاسمها الحزن. ضاربين بالقواعد الاجتماعية الرصينة عرض الحائط، كان الناس يتعانقون في الشارع ويذرفون دموعهم من دون رادع. وكانت كيتي تقدّر لفتات اللطف والتعاطف التي تتلقاها من جيرانها ومعارفها، وكذلك حرصهم على عدم إزعاجها بزيارات العزاء، إذ كانوا يكتفون بوضع بطاقات التعزية في صندوق الرسائل.

أما تشارلي فكان ردّ فعله الأولي هادئًا، لكنه بكى على ركبة والدته بعد أيام قليلة من إعلان الخبر. «أعلم أنهم ذهبوا إلى الجنة يا ماما، لكنني أفتقدهم. أريد أن أرى بابا والعم دروم...».

أتاحت معاناة ابنها ويأسه لكيّتي التركيز على شيء آخر غير ألمها هي. فبفقدان والده وجدّه وعمّه، قُضي على آل ميرسر وسلالتهم من الذكور بضربة واحدة، وأصبح تشارلي الوريث الوحيد. كانت كيّتي تخشى العبء الذي قد يشكّله ذلك في المستقبل.

بعد أن وضعت تشارلي في سريره، ومسّدت شعره برقّة لينام، تلمّست كيّتي بإصبعها الكومة المتضخّمة من الرسائل والبرقيات غير المفتوحة على مكتبها. لم تقوَ على تحمّل فتحها، وتقبّل تعاطف مرسلها، الذي كانت تعلم في قرارة نفسها أنها لا تستحقّه. وعلى الرغم من جهودها في كبح جماح قلبها المخادع وتركيز حزنها على أندرو، إلا أنها استمرّت في الحداد على دروموند.

خرجت إلى الشرفة ونظرت إلى النجوم، بحثًا عن إجابة. وكما هو الحال دائمًا، ظلّت السماء الشاسعة صامتة.



لم يكن هناك جثث لتُدفن، فأعلن الأسقف رايلي أن قداسًا على أرواح الضحايا سيقام في كنيسة البشارة نهاية شهر نيسان. ذهبت كيّتي إلى الخياط المحلي وينغ هينغ لونغ لتفصيل ملابس الحداد، لكنها اكتشفت أن القماش الأسود قد نفذ.

قال الرجل الصيني قصير القامة: «لا تقلقي يا سيدة ميرسر. ارتدي ما لديك، لا أحد يهتم بمظهركِ».

غادرت كيّتي المتجر المزدهم بابتسامة متجهمّة، وهي تقول في نفسها: يمكن أن نكره شيئًا وهو خير لنا.

على الرغم من أن معظم المراكب الشراعية في أسطول صيد اللؤلؤ ظلّت

راسية في المرفأ، فقد غرق عدد قليل منها في الإعصار. جاء نويل دونوفان، الأيرلندي اللطيف مدير شركة Mercer Pearling، إلى المنزل ليعطيها تفاصيل الخسائر. تنهّدت قائلة: «عشرون رجلاً. هل لديك عناوينهم لكي أكتب إلى عائلاتهم؟ هل لدى أيّ منهم أقارب في بروم؟ وإذا كان الأمر كذلك، أود زيارتهم شخصياً.» «سأحاول الحصول على ما أستطيع من العناوين يا سيدة ميرسر. أعتقد أن العشرين من آذار، اليوم الذي غرقت فيه السفينة العملاقة كومبانا، سيدخل التاريخ. إنه يعلّمنا التواصل، أليس كذلك؟ إن غطرسة الإنسان تجعله يعتقد أنه قادر على السيطرة على المحيطات. لكن الطبيعة هي الأقوى وتنتصر دائماً.» «للأسف، بعد كلّ هذه الضحايا، أنتَ على حقّ يا سيد دونوفان.» «حسنًا، أستاذك الآن.»

نهض، ثمّ شبك يديه معاً بتوتّر: «عذرًا على ذكر ذلك في مثل هذا الوقت. لكن، هل لديك أخبار من السيدة ميرسر الأم؟» أشارت كيّتي إلى الكومة المتضخّمة على مكتبها وقالت: «أخشى أنني لم أجد بعد الشجاعة الكافية لفتح جميع البرقيات التي تلقيتها أو البطاقات والرسائل.» قال نويل: «من جهتي، لم تردني منها أيّ أخبار ولا أرغب في إزعاجها. لكنني تساءلتُ ما إذا كان لديك فكرة عن مصير شركة آل ميرسر لصيد اللؤلؤ بعد رحيل رجالها الثلاثة؟»

«أعترف أنه ليس لديّ أيّ فكرة، ولكن مع عدم وجود أحد لإدارتها، وتشارلي الذي لا يزال صغيرًا جدًّا، لا أستطيع إلا أن أتخيّل بيعها.» «هذا ما فكرتُ فيه، ويجب أن أحذرك يا سيدة ميرسر، فأسمك القرش تنتظر اللحظة المناسبة لتنفّض. أعتقد أنهم سيّصلون بكِ أولاً، لذا أنصحك بالاتصال بمحامي الأسرة في أدبلايد. هناك رجل ياباني يهتم كثيرًا بشراء الشركة. والسيد بيغوت يخطط لبيع كلّ شيء أيضًا. إنها ضربة قوية لصناعتنا. والآن، أتمنّى لكِ يومًا سعيدًا يا سيدة ميرسر، وسوف أراكِ في قداس التّأبين.»

في صباح يوم القداس، حاولت كيتي إقناع كاميرا وفريد بمرافقتها، لكنّ كاميرا بدت مرعوبة. «لا يا سيدة كيتي، ذلك المكان للبيض، وليس لنا».

«لكنك تستحقين أن تكوني هناك يا كاميرا. أنت وفريد... كنتما تحبانهما أيضاً». رفضت كاميرا بعناد، وانطلقت كيتي مع تشارلي بالعربة.

في الكنيسة الصغيرة، كان الناس يتنحّون جانباً للسماح لها بالجلوس مع تشارلي بالقرب من المذبح. كانت الجموع تملأ الكنيسة وظل كُثُر في الحديقة يستمعون من النوافذ المفتوحة لخطبة الأسقف. طوال القداس، وسط أصوات النحيب المؤلمة، جلست كيتي جاقّة العينين. صلّت من أجل الأرواح التي فُقدت، لكنها لم تبكِ على نفسها. كانت تعلم أنها تستحق كلّ ثانية من الألم والذنب اللذين كانت تعاني منهما.

بعد ذلك، ذهب الجميع إلى فندق «روباك باي» Roebuck Bay لتناول لقمة الرحمة، حيث أغرق بعض الرجال أحزانهم في الكحول الذي قدّمه لهم سادة صيد اللؤلؤ، وراحوا ينشدون أغاني إسكتلندية وإيرلندية، فعادت الذاكرة بكيتي إلى اليوم الذي دخلت فيه إلى فندق قلعة إدنبره.

عندما عادت إلى المنزل، ذهبت إلى غرفة الجلوس. وكعادتها، جلست تطرّز. وبينما كانت منهمكة، فكّرت في مستقبلها ومستقبل تشارلي. لا شكّ في أن ما قالته لنويل دونوفان كان صحيحاً، وأن الشركة ستُباع، وستوضع الأموال في البنك باسم تشارلي. ثمّ تساءلت إن كان ينبغي لها أن تعود إلى إدنبره، لكنها شكّكت في أن إديث ستوافق على مغادرة حفيدها الوحيد أستراليا. قد تصرّ على أن يعودا كلاهما إلى أدليلايد والعيش فيها، وإذا رفضت كيتي، فقد تحتجز ثروة تشارلي المستقبلية رهينة...

نهضت كيتي وقصدت مكتبها. فبعد أن انتهت مراسم التأبين، كان عليها أن تبدأ في مواجهة المستقبل. فصلت الرسائل عن البرقيات غير المفتوحة، وجلست تقرأ. وبدأت الدموع تنهمر على وجهها عندما اكتشفت مدى كرم سكان بلدة بروم وتعاطفهم.

... ودروموند، يا له من نسمة هواء نقية رائعة. أضاء مائدة العشاء بذكائه وروح الدعابة...

جفلت كييتي عندما سمعت انغلاق الباب الأمامي. سمعت وقع خطوات ثقيلة في المدخل، وانفتح باب غرفة الجلوس. حبست كييتي أنفاسها، وأدركت بعد فوات الأوان أنها أصبحت الآن امرأة وحيدة في مدينة خطيرة. نظرت من مكتبها ورأت هيئة بشرية تقف هناك، هيئة كانت مألوفة للغاية، مغطاة بالقذارة والغبار الأحمر. تساءلت كييتي إن لم تكن تهذي، لأن ما رأيته كان مستحيلًا...

أغضت عينيها وفتحتهما. وكان لا يزال هناك، يحدّق إليها.

همست: «دروموند؟».

ضاقت عيناه لكنّه لم يردّ.

«يا إلهي، دروموند، أنت على قيد الحياة! أنت هنا!».

ركضت نحوه، لكنها فوجئت عندما دفعها بقسوة. كانت عيناه الزرقاوان فولاذيتين محمّرتي الحواف.

«كييتي، لستُ دروموند، بل أندرو، زوجك!».

«أنا...». أدارت رأسها وقاومت رغبة في التقيؤ، لكن غريزتها منعته من الانهيار وأملى عليها عقلها التصرف بهدوء وإعطاء تفسير لسلوكها.

«لقد أضناني الحزن، حتّى أنني بالكاد أستطيع أن أتذكر اسمي. بالطبع أنت أندرو، نعم، الآن أرى بوضوح». قالت ذلك وهي تجبر يدها على مداعبة خده وشعره. «هل هذا ممكن؟ كيف يرجع إليّ زوجي من بين الأموات؟».

«حتّى أنا لا أعرف... أوه، كييتي...». اكفهرّ وجهه واستند إلى الحائط منهأراً، فأمسكت بذراعه وقادته إلى الكرسي، حيث أسقط رأسه بين يديه وراحت كتفاه تهتزّان وقد أجهش في البكاء.

همست والدموع تتجمّع في عينيها: «يا حبيبي». ذهبت إلى الخزانة، وسكبت له كأسًا من البراندي، ثمّ دسّتها بين أصابعه المرتجفة. أخيرًا، أخذ رشفة.

تمتم قائلاً: «لا أقوى على تحمّل ذلك. أخي وأبي... رحلا. لكنني ما زلتُ هنا. كيف يمكن أن يكون الله بهذه القسوة؟». ثمّ نظر إليها بعينه الخاويتين وقال: «كان يجب أن أكون على متن كومبانا. كان يجب أن أموت معهما...».

«اصمت يا حبيبي، إنها معجزة أن تعود إلينا. قل لي أرجوك، كيف تمكّنت من البقاء على قيد الحياة؟».

أخذ أندرو رشفة أخرى من البراندي واستجمع قوته. بدا أن الألم قد عمّق الخطوط على وجهه الشاب، وتحت الغبار الأحمر، اتخذت بشرته لوناً رمادياً من شدة الإرهاق والصدمة.

«غادرت السفينة بعد وقت قصير من وصولها إلى فريمانتل. كان لديّ... عمل ينبغي القيام به. ثمّ سافرت برّاً، ولم أسمع الأخبار إلا عندما وصلت إلى پورت هيدلاند قبل يومين. لم أنم منذ ذلك الحين...». تحطّم صوته وأخفى وجهه.

قالت وهي تحاول أن تستجمع قواها: «لقد كان كلّ ذلك صدمة كبيرة لك يا حبيبي، ولم يكن لديك الوقت الكافي لتقبّل ما حدث. دعني أحضر لك شيئاً تأكله، ويجب أن تخلع ملابسك المبلّلة. سأعطيك أخرى جافة». كانت في أمس الحاجة إلى إشغال نفسها، لتخفي اضطراب ذهنها وتبقيه هادئاً.

أمسك يدها. «ألم تصلك برقيّتي؟ لقد أخبرتك أن لديّ مهمّة يجب أن أنجزها في اللحظة الأخيرة».

«نعم وصلّت. قلّت فيها إن والدك سيشرح لي ما كنت تقصده، لكنه لم يأت يا أندرو...». خفت صوت كيّتي.

ارتسمت على وجهه تكشيرة ألم وقال: «بالطبع. كيف حال والدتي؟ لا بُدّ من أن تكون مدمّرة».

«أنا... لا أعلم. لقد كتبتُ لها مباشرة بعد الحادث، لكن...».

ومع شعور بالذنب، أشارت كيّتي إلى كومة البرقيات التي لم تُفتح بعد وأضافت: «أمس، جاء نويل دونوفان لرؤيتي، وقال إنه لم يسمع منها شيئاً هو أيضاً».

«بحق السماء يا كيّتي!». وقف أندرو وهو يرتجف من الغضب: «نويل دونوفان مجرد عضو في طاقمي. في لحظات عصبية كهذه، من الطبيعي ألا ترد على مثل هذا الرجل. أنتِ زوجة ابنها! ألم يخطر في ذهنك أنها قد تحتاج إلى ردّ منك». بدأ في تمزيق أغلفة البرقيات، وقراءتها، ثم هزّ إحداها في وجهها.

تعالى إلى أديلايد في الحال. لا أستطيع السفر إلى بروم لأنني منهارة. يجب أن أعرف ما حدث. أنتظر ردّك. إديث.

رماها أندرو على الأرض وقال: «بينما كان سكان المدينة يواسونك، ويحضرون مراسم التأبين وتتلقّين رسائل التعزية، كانت والدتي وحيدة مع حزنها، على بعد آلاف الكيلومترات».

«أنت على حقّ، وأنا آسفة. سامحني يا أندرو».

«وأنتِ، سامحيني على عودتي إلى المنزل، متلهفًا لرؤية زوجتي، بعد أن اكتشفتُ أن والدي وأخي ماتا. ومع ذلك، بقيت هنا طوال الأسابيع الماضية من دون أن تكثرني لوالدتي المسكينة أو تفكرني فيها».

لم يتحدثا كثيرًا بعد ذلك. وبينما كان أندرو يلتهم وجبة الخبز واللحم البارد التي أحضرتها له، كانت كيّتي تراقب تعابيرهِ عن كثب، ومشاعر متنوعة تتوالى في عينيه، لكنه لم يشاركها إياها.

سألته أخيرًا: «أندرو، هل ستأتي إلى السرير؟ لأبّد من أنك مرهق جدًّا».

مدّت يدها إليه لكنه أبعد يده. «لا. سأستحم. نامي أنت».

«سأحضّره لك».

«لا! سأحضّره بنفسي. ليلة سعيدة يا كيّتي. أراك في الصباح».

«تصبح على خير».

غادرت كيّتي الغرفة، وعندما وصلت إلى غرفة النوم، أغلقت الباب خلفها، وعصّت شفتها لكبح النحيب الذي كان يتراكم داخل صدرها.

لا أستطيع تحمّل ذلك...

بعد أن خلعت ملابسها، استلقت على السرير ودفنت وجهها في الوسادة.

لقد ناديته دروموند... يا إلهي! كيف فعلت ذلك؟

همست لنفسها: «هل يعلم؟ هل هذا هو سبب غضبه؟ ربّاه، ماذا فعلتُ؟».

أخيرًا، جلست وأخذت بضعة أنفاس عميقة. ثم قالت لنفسها بصوت عالٍ: «أندرو حيّ يرزق. وهو خبر رائع. تشارلي، وإديث... سيكونان سعيدين جدًا. سيقول الجميع إنني محظوظة. نعم. أنا محظوظة».

لم يأت أندرو إلى سريرها تلك الليلة. وجدته يتناول فطوره في صباح اليوم التالي، وتشارلي يجلس على الكرسي المجاور له.

ابتسم ابنها بسعادة: «لقد عاد بابا من السماء. إنه ملاك الآن، وقد طار بجناحيه عائداً إلينا».

قال أندرو: «وأنا سعيد بعودتي إلى المنزل».

وبينما كانت كاميرا تخدمهم، رأت كيتي النظرة المرتبكة في عينيها.

«أليس هذا رائعًا؟ أندرو في المنزل!».

أجابت وهي تومئ برأسها: «نعم، سيدة كيتي»، ثم غادرت الغرفة.

علق أندرو وهو يمضغ شرائح من الخبز المحمص ولحم الخنزير المقدّد: «لا تبدو سوداؤك الصغيرة على ما يرام».

«ربما تكون مذهولة بعودتك المعجزة، مثلنا جميعًا».

«أريدك أن ترافقيني إلى المدينة يا كيتي. يجب أن يرى الناس شملنا وقد التّم».

«نعم، بالطبع يا أندرو».

«سأذهب بعد ذلك إلى المكتب، حيث أتخيّل أنه سيكون هناك عمل كثير

ينبغي القيام به. سأرسل برقية إلى أمي وأخبرها بأننا سنذهب جميعًا في زيارة إلى أليسيا هول قريبًا.

ما إن أخذت كاميرا تشارلي إلى المطبخ، حتّى نهض أندرو وراح يدرس تعابير كيتي.

«قرأت بطاقات التعزية التي أرسلها سكان المدينة بعد أن استحمتُ الليلة الماضية. لقد كانوا طيبين جدًا تجاهي وتجاه والدي، وتجاه المسكين دروموند. من الواضح أنه كان يتمتع بشعبية كبيرة هنا».

«نعم، هذا صحيح».

«يبدو أنكما قمتما معًا بنشاطات اجتماعية مكثفة في أثناء غيابي».

«جاءت الدعوات وشعرتُ أنني يجب أن أقبلها. لطالما حدَّثتني عن مدى أهمية ذلك».

«وأذكر عدد المرات التي قدمتَ فيها الأعذار لرفضها في الماضي».

قالت: «أنا... في الواقع، كانت الأمطار أسوأ من المعتاد هذا العام. أعتقد أننا جميعًا عانينا من البقاء مسجونين وكنا نحتاج إلى الخروج بمجرد توقُّفها».

«حسنًا، الآن بعد أن عدتُ من بين الأموات، يمكننا أن نحتفل. وآمل ألا أخيب جيراننا بأن أكون نفسي وليس أخي، رحمه الله».

«أندرو، من فضلك لا تتكلم بهذه الطريقة».

«حتَّى ابني لا يقول شيئًا سوى 'العم دروم قال كذا' و'العم دروم فعل كذا'. يبدو أنه محبوب من الجميع. هل هذا يشملك يا عزيزتي؟».

«أندرو، من فضلك، أخوك مات! لقد رحل إلى الأبد! لا يمكنك أن تلومه لاستمتاعه بالأسابيع القليلة الأخيرة من حياته مع عائلته وأصدقائه الجدد».

«بالطبع لا. من تظنينني؟ مع ذلك، وعلى الرغم من أنه مات، يبدو كما لو أنه دخل إلى منزلي وحياتي واستولى على كليهما في أثناء غيابي».

«والحمد لله أنه كان هنا، وخصوصًا عندما كنتُ مريضة».

أوما أندرو برأسه: «نعم بالطبع. سامحيني يا كيتي، لقد كان الأمر برمته مرهقًا إلى حدٍّ ما. سأغادر إلى المدينة في الساعة العاشرة صباحًا. هل يمكنك أن تكوني جاهزة؟».

«بالطبع. هل نأخذ تشارلي معنا؟».

أصدر أندرو مرسومه قائلاً: «من الأفضل أن نتركه هنا».

بينما كانا يقودان عربتهما على طول دامبيير تيراس، لم يكن بوسع كيتي إلا أن تفترض أن أندرو كان يرغب في أن يرى أكبر عدد ممكن من السكان أنه قد عاد. كما رأت ردود أفعال أصحاب المتاجر والمارة الذين احتشدوا حوله، يائسين لمعرفة كيف تمكّن من الهروب من قبره المائي. روى أندرو القصة نفسها مرات عدّة، وعانق الناس كيتي قائلين لها إنها كانت محظوظة.

أنا محظوظة.

كرّرت العبارة بصمت عندما انطلقوا إلى المكتب القريب من المرفأ. مرّة أخرى، كانت شاهدة على الدهشة ثمّ الفرح عندما احتضن نويل دونوفان رئيسه. أخرج زجاجة من الشمپانيا واحتفل الجميع بعودته. بدا أن سكان المدينة كانوا يريدون الاحتفال بمعجزة بقاء أندرو على قيد الحياة، وكانت كيتي تبتسم باقتضاب بينما كانوا يعانقونها، باكين لسعادتهم بعودة زوجها. كانوا يحيطون بأندرو طوال الوقت أيضاً، ويربّتون ظهره، كما لو كانوا يتأكّدون من أنه حقيقي.

ذاك المساء، عندما انتقل الحفل إلى فندق روبوك باي، قال أندرو مازحاً: «ربما ينبغي لهم أن يسمّوني لعازر».

كانت تلك لحظة فكاهة نادرة منه، وكانت كيتي سعيدة بها.

خلال الأسبوع التالي، رَحّباً في المنزل بسيل من الزوار التّواقين إلى سماع أندرو يكرّر حكاية قراره بمغادرة السفينة في جيرالدتون.

سألته السيدة روبن: «هل كانت رؤية؟ هل كنتَ تعلم ما الذي كان ليحدث؟».

قال أندرو: «بالطبع لا، وإلاّ لما سمحت للسفينة بمواصلة رحلتها. لم تكن إلّا مصادفة».

ولكن لا أحد كان يريد أن يصدق بأن الأمر كان على هذا النحو. لقد تولّى أندرو دور المسيح، وأصبح بقاؤه على قيد الحياة فأل خير لمدينة بروم. فقد أسهمت في تنشيط قباطنة السفن والغوّاصين، الذين شعروا باليأس منذ الخسائر الأخيرة. حتّى زملاؤهم من أسياذ صيد اللؤلؤ، الذين كانوا بالتأكيد متشوّقين لرؤية

إفلاس شركة ميرسر لصيد اللؤلؤ، احتضنوا أندرو وأجلسوه على رأس المائدة في عشاءهم الأسبوعي.

وسط هذه الزوبعة، وجدت كيتي نفسها تقضي أيامها مثل دمية تحرّكها قوى خارجية. لم تكن إلا شاهدة على حياة لم تكن حياتها. كان الشعور بالذنب يقض مضجعها في اليقظة والنوم. في أثناء النهار، كان أندرو مهذبًا ولطيفًا وممتنًا لأولئك الذين كانوا يحيطون به، ولكن في أثناء العشاء، كان بالكاد يتحدث معها، ثم يلجأ إلى النوم، مفضلًا الآن السرير الفردي في غرفة الملابس.

سألته كيتي ذات ليلة وهي مترددة: «ألن تشعر براحة أكبر في غرفة نومنا؟»

أجاب ببرود: «أجد نفسي مضطربًا ولا أرغب في أن أزعجك يا عزيزتي».

بحلول نهاية الأسبوع، كانت كيتي قد بلغت ذروة التوتر. جلست مع أندرو وتشارلي لتناول الفطور، ولاحظت أن ابنها كان صامتًا في حضور والده. هل كانت الخسارة الفادحة هي التي تؤزّق أندرو وتؤثّر في موقفه تجاهها، أم... لسبب آخر لم تستطع أن تتحمّل التفكير فيه.

اقتحم أندرو أفكارها من دون أن ينظر إليها: «كيتي، أتمنى أن ترافقيني اليوم، لديّ بعض المهام التي ينبغي أن أنجزها».

وافقت: «بالطبع».

بعد الفطور، ساعدها على الصعود إلى العربة، ثمّ جلس متصلبًا بجانبها وأخذ يقود. ولكن بدلًا من أن يسلك الطريق المؤدّي إلى المدينة، سلك أندرو الطريق المؤدّي إلى شاطئ ريدل.

سألت: «إلى أين نذهب؟».

«أعتقد أنه يجب أن نتحدّث أنا وأنتِ. وحدنا».

راح قلب كيتي يرتجف في صدرها، لكنها ظلّت صامته.

«أخبرني تشارلي أنك غالبًا ما كنتِ تذهبين إلى الشاطئ عندما كنتِ غائبة،

وتسبحين بسرّالك الداخلي».

«نعم، أنا... حسنًا، كان الجو حارًّا جدًا و...». أغمضت كيتي عينيها لتطرد الدموع.

«يا إلهي! إلى أين يتَّجه هذا العالم؟ زوجتي تسبح بسرورها الداخلي مثلما يفعل السكان الأصليون». أوقف أندرو العربة وربط المهر إلى وتد، ثم أشار إلى الشاطئ تحتكما وقال: «هل نسير؟».

قالت: «كما يحلو لك»، وهي تفكر في أنه إذا كان أندرو على وشك أن يخبرها بأنه يعرف كل شيء عن علاقتها الغرامية، فقد اختار المكان الذي كانت تنام فيه مع أخيه منذ أسابيع فقط، ويمارسان الحب. لم يسبق أن اقترح أندرو المشي على الشاطئ؛ كان يكره الشعور بالرمال في حذائه.

هبت نسمة لطيفة، وأصبح البحر نفسه، الذي سلب كيتي حبيبها، هادئًا مثل طفل ينام. تقدَّم أندرو نحو المحيط بينما كانت كيتي - التي لم تجرؤ على خلع حذائها ومواجهة أندرو - تتعثر خلفه. وصلا إلى الصخرة التي سعدت إليها آخر مرة وغطست. وقف أندرو على بعد سنتمترات من الماء، وكان الموج يزيد بالقرب من حذائه.

أشار أندرو إلى المحيط: «أبي وأخي يرقدان في مكان ما هناك... لقد رحلا إلى الأبد، وبقيت أنا على قيد الحياة».

رأته كيتي وهو يخز على الصخرة آخذًا رأسه بين يديه: «أنا آسف يا حبيبتي». عندئذ فهمت سبب مجيئه إلى هذا المكان. كان يريد أن يبكي والده وأخاه ويحزن على انفراد. رأت كتفيه تهتزان وانعصر قلبها عليه.

«أندرو، لا يزال لديك أنا وتشارلي، وأمك، و...». ركعت وحاولت أن تضمه، لكنه ابتعد عنها ومشى مترنحًا على الشاطئ.

«أوه، سامحني، أرجوك سامحني يا الله، ولكن...». وقفت كيتي تراقبه، في حيرة من أمرها. بدا وكأنه يضحك بدلاً من البكاء. «أندرو، أرجوك!».

هرعت وراءه عندما بدأت الأمواج تضرب حذائه وانهار على الرمل، وكتفاه

ترتعثان، وعيناه لا تزالان مختبئتين خلف يديه السمرأوين الكبيرتين. وأخيراً رفع رأسه وأزاح يديه عن عينيه. وكانت الدموع تتدفق منهما.

قال أخيراً: «سامحني يا الله، ولكن كان لا بُدَّ من ذلك. لأجلنا جميعاً، أنا وأنتِ وتشارلي. كيتي... يا قطتي...».

«أندرو، لا أفهم ما تقول...».

حدّثت إليه وأدركت أن الدموع لم تكن دموع حزن، بل دموع فرح. «لماذا تضحك بحق السماء؟».

«أعلم أن الأمر ليس مضحكاً، بل على العكس تماماً، ولكن...».

أخذ أنفاساً عميقة قبل أن ينظر إليها وقال: «كيتي، ألم تتعرّفي عليّ حقاً؟»
«بالطبع يا حبيبي». كانت كيتي تتساءل كيف يمكنها أن تعيد أندرو إلى العربة وتذهب به مباشرة إلى الدكتور سوزوكي. كان من الواضح أنه فقد عقله تماماً. «أنت زوجي وأب طفلنا، تشارلي».

صرخ وهو يلكم الهواء: «إذاً لقد نجحتُ حقاً! بحق السماء يا كيتي، هذا أنا». ثمَّ سحبها إليه وقبلها بشغف ونهم. وعندما ذاب جسدها في جسده، عرفت بالضبط من هو.

«لا». انتزعت نفسها من قبضته وهي تبكي من الصدمة والارتباك. «توقّف عن ذلك! أرجوك توقّف! أنت أندرو، زوجي... زوجي!».

خرّت على ركبتيها وتوسّلت إليه قائلة: «أرجوك. كفّ عن ممارسة هذه الألعاب. مهما يكن ما تريدني أن أعترف به، فسوف أعترف. فقط أرجوك أن تتوقف!».

لَقَتْها ذراعاه القويّتان. «سامحيني يا كيتي، ولكن كان عليّ أن أفعل ذلك لكي أتأكد من أن الجميع يعتقدون أنني زوجك، بما فيهم أنتِ. إذا كنتُ مقنعاً بما يكفي لخداعك، أنتِ التي تعرفيني أكثر من أيّ شخص آخر، فيمكنني خداع الجميع. لو كنتِ تعلمين، لكانت مجرد نظرة أو لمسة كفيلة بفضحنا. حتّى تشارلي مقتنع بأنني والده. يا فتاتي الحبيبة...». مرّر أصابعه على ذراعيها وقبّل رقبته المتعرّقة بكثير من الرقة.

«لا!». ابتعدت كيتي. «كيف يمكنك أن تفعل بي هذا؟ كيف استطعت انتحال شخصية أخيك العائد من بين الأموات؟ هذا... مشين».

«كيتي، ألا يمكنك أن تفهمي؟ إنه الحب!».

«لا أفهم شيئاً! كل ما أعرفه هو أنك خدعتنا جميعاً! لقد تنكّرتَ بزي زوجي المتوفى، وسمحت لطفلي بالاعتقاد بأن والده قد عاد من القبر، واستعرضت نفسك أمام سكان المدينة مدّعياً أنك أندرو».

«وهم يصدّقونني يا كيتي. لقد صدّقوا أنني أندرو، كما صدّقتِ أنتِ. خطرت لي الفكرة في أثناء زيارتي الأخيرة، عندما اعتقد سكان المدينة - وأنتِ في البداية - أنني أندرو».

أسقط ذراعيه عن كتفها وأضاف: «لقد كذبتُ كذبة فظيعة ولكن كان عليّ أن أغتني الفرصة. لذلك، عندما سمعتُ بما حدث وجئتُ برّاً، رسمتُ خطتي».

«إذا كنتُ تعرف قبل پورت هيدلاند؟».

«بالطبع كنتُ أعرف! يا إلهي، حتّى طيور الكوكابورا على بعد مئات الكيلومترات من هنا كانت تصرخ بالخبر من بين الأشجار. إنها أكبر مأساة تضرب المنطقة منذ عقود».

«لذلك قررتُ انتحال شخصية أخيك؟».

«يجب أن تكون هناك بعض الميزات لتأمين تماثلين. من المؤكّد أنني لم أرَ أيّاً منها من قبل، لكنني أدركت فجأة أن ثمة سبباً يكمن وراء هذه الحقيقة. وبينما كنتُ أجلس وحدي بجوار نار المخيم في الصحراء، استشرّ السماء طلباً للنصيحة، فأجابت إن الحياة قصيرة جدّاً على هذه الأرض. وعلى الرغم من أنني قد أكون قادراً على الزواج منك يوماً ما، عندما يحين الوقت المناسب، لكنّ فكرة إضاعة سنوات بعيداً عنك بدت بلا معنى، في حين أنني أستطيع أن أعود وأحبك بلا انتظار. يمكننا أن نكون معاً زوجاً وزوجةً، وسيفرح الجميع لأنني نجوت، و...».

«دروموند». استخدمت كيتي اسمه للمرة الأولى. «لا بُدّ من أنك أُصبتَ بالجنون. ألا تفهم الآثار المترتبة على ما قمتَ به؟».

«قد لا أفهمها كلها، لكنني أفهم معظمها، نعم. أردت فقط أن أكون معك. هل اقترفتُ جرماً؟».

«إذا». فأنت مستعد لتغيير هويتك الحقيقية والكذب على الجميع.

«إذا كان هذا هو ما يتطلبه الأمر، فنعم. لأكون صادقاً، ما زلتُ مندهشاً لأن تقليدي أندرو كان ممتازاً جداً. لم يشكك فيه أحد!».

«لقد كنتَ معي في غاية الشراسة. في الواقع، كنتَ فظيئاً».

«إذا سألتُك من سلوكي معك من الآن فصاعداً».

«دروموند». لاقت كيتي صعوبة كبيرة في إيجاد كلماتها أمام تجاهله الغريب واستخفافه بخطورة تمثيليته.

أجاب: «من الآن فصاعداً، يجب أن تناديني أندرو».

«سأناديك بالاسم الذي أختاره. يا إلهي! ليس الأمر مجرد لعبة يا دروموند. وما قمتَ به ليس أخلاقياً، بل وغير قانوني! كيف يمكنك أن تمارس خداعك بهذه الخفة؟».

«لا أعرف، لكنني أنظر إلى هناك وأتخيل والدي وأخي ميّتين في قاع المحيط، وقد التهمتهما أسماك القرش. وأفكر فيك يا كيتي، التي كدت ترحلين أيضاً عندما كنت مريضة. لقد أدركتُ الآن كم هي ثمينة الحياة. ونعم، أنا أمارس هذا الخداع بكثير من الخفة».

ابتعدت كيتي عنه، وهي تحاول تحديد عواقب ما فعله.

ليكون معها...

«يجب أن أعترف بأنني مندهش لأنك لم تكتشفي حقيقتي، على الرغم من أنني بذلتُ قصارى جهدي للبقاء بعيداً عنك جسدياً».

كان دروموند قد خلع حذاءه وجواربه ووقف ليخلع سرواله.

تابع: «في البداية، من المؤكد أنك تعرفين أندرو جيداً لتدركي أنه لا يسافر براً على ظهر حصان أو عربة؟ في الواقع، كنت أسافر إلى بروم على ظهر الجمل كالمتعاد، لكنني قررت أن العربة تبدو أكثر واقعية».

أجابت ببرود: «نعم، وجدتُ ذلك غريبًا، ولكن لم يكن لديَّ أيُّ سبب للاعتقاد بأن زوجي يكذب. ربما يمكنكُ الآن أن تخبرني كيف نجوت».

«لقد كان أندرو هو الذي طلب مني مغادرة الكومبانا في جيرالدتون. أعطاني حقيبة ممتلئة بالنقود وأخبرني أين يجب أن أقابل جهة اتصالة قبل أن يريني صورة لما كان عليَّ أن أسترده في المقابل. باختصار، اعترفَ بأنه كان خائفًا جدًّا من القيام بالرحلة بنفسه، وكان يعلم أن لديَّ خبرة أكبر بمناطق أستراليا النائية. ولأنني كنتُ أتحرّص للهرب مع زوجته وابنه عند عودتي، فقد شعرتُ بأن هذا أقل ما يمكنني فعله. عملُ صالحٍ أخير، (إن شئتِ).

«وما الذي كان عليكُ أن تسترده؟».

«كيّتي، هذه قصة لوقت آخر. يكفي أن أقول إن جبن أندرو في اللحظة الأخيرة أنقذ حياتي، وأفقده حياته. لو أنكِ فتحتِ برقياتك، لوجدتِ واحدةً مني تحذركِ من أنني سأقابل أندرو هنا في بروم ومعني... جائزته، قبل الإبحار إلى داروين كما كان متوقعًا. كتبْتُ لكِ أنني سأتأخّر بضعة أيامٍ عليكِ أن تنتظريني هناك حتّى وصولي. والآن عذرًا، لكنني بحاجة إلى السباحة لأبرد نفسي».

جلست كيتي على الشاطئ، وكان رأسها يدور كدوّامة. شاهدته وهو يغوص في داخل الأمواج بطريقة لا تشبه طريقة أندرو إطلاقًا، ولم تكن تصدّق كيف انخدعت مثل باقي سكان المدينة، فالحقيقة هي أن الشقيقين التوأمين كانا مختلفين جدًّا. كانت عواقب ما فعله وتهوّره مثل لعنة تحوّم فوقها. ومع ذلك، لم يكن يسعها إلا أن تتخيّل السعادة التي يمكن أن يتقاسماها الآن، من الناحية القانونية، كزوجين. كيف يمكنكُ أن تفكري بهذه الطريقة يا كيتي؟ أنبها ضميرها وغرزت يديها في الرمل لتعيد نفسها إلى الواقع.

كان عدم مشاركة خطّته معها يزيد من غضبها، إذ اعتبر أنها تريد ما يريد.

واستجابت. كان الله في عونها... ولكن بأي ثمن؟

لم تكن كيتي تجهل أنه كان باهظًا، ولكن بعد المقتلة التي شهدتها في الأسابيع القليلة الماضية، ما أهمية ذلك؟ إذا كانت الحياة في أستراليا قد علّمتها شيئًا واحدًا،

فهو أن حياة الإنسان هشة؛ كانت الطبيعة هي المسؤولة ولا تكثر للخراب الذي تلحقه بأولئك الذين يسكنون أرضها.

بالإضافة إلى ذلك لم تكن عائلتها قد قابلت أندرو؛ كان من الممكن تمامًا أن تعود إلى إدنبره مع دروموند من دون أن يثيرا الشبهات. كانت أستراليا لا تزال دولة فتية، وكان أولئك الذين لديهم الشجاعة الكافية للسكن فيها يميلون إلى وضع القواعد بأنفسهم، وهذا هو بالضبط ما فعله دروموند.

بينما كان يخرج من البحر متجهًا نحوها، وهو ينفذ عنه قطرات الماء المالح مثل كلب لا مبالٍ، بدا ساحرًا وانتهازيًا يفعل أي شيء للوصول إلى غايته. أخيرًا، بانث لکیتی صورة المستقبل الذي ينتظرها. لكي تكون مع دروموند، كان عليها أن تعيش كذبة حتى آخر يوم في حياتها، وأن تخون رجلين ميتين وأرملة، وأما ثكلی. ناهيك بانبها الغالي البريء، الذي سيكبر معتقدًا أن عمه هو والده... لا! لا! إنها خطيئة... خطيئة...

عندما اقترب منها دروموند، نهضت. مشت على الشاطئ، وفجأة لم تعد قادرة على احتواء غضبها.

صرخت في البحر والسحب تمشي بلطف فوق رأسها: «كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على توريطي في تمثيليتك المثيرة للقلق! ألا ترى يا دروموند أن ما تفعله ليس كإحدى ألعابك الصغيرة؟ ما فعلته وتفعله ليس أقل من - بحثت كيتي عن الكلمة - فاحش! ولن يكون لي أي دور فيه».

«كيتي، كات يا حبيبتي، كنت أعتقد أنك تريدين أن نعيش معًا. لقد فعلت ذلك من أجلنا...».

«لا. ليس من أجلنا! بل من أجل نفسك وحدك!». كانت كيتي تروح وتجيء على الرمل. «لم تمتلك اللياقة الكافية حتى لتسألني رأيي! ماذا لو اكتشف أحدهم الحقيقة؟ لا شك في أنك ستذهب إلى السجن!».

«أمل ألا تتمنين لي ذلك».

«هذا ما تستحقه على أقل تقدير. ربّاه، ما هذا الخراب؟ ما هذا الخراب الذي لا أرى منه مخرجًا؟».

اقترب منها دروموند كما لو كانت عقرباً محصورةً في الزاوية قد تهاجمه في أي لحظة.

«لا حاجة إلى مخرج. هل يهم ما اسمي، أو ما اسمك؟ بهذه الطريقة، يمكننا أن نكون معًا دائمًا. سامحيني يا كيتي إذا تصرفت على عجل». اقترب منها خطوة: «أرجوك؟».

دوى صوت قوي عندما صفعته كيتي بقوة على خدّه للمرة الثانية في حياتها، لكنها منعت نفسها من الانقضاض عليه وإشباعه لكماً حتى تطرحه أرضاً.

«ألا ترى؟ لو أنك انتظرت وحسب، وتحليت بالصبر، ولم تتصرف بطريقتك المتهورة المعتادة، لكان من الممكن أن نكون معًا ذات يوم، شرعاً أمام الله. كان الجميع سيجدون اقتراب الأرملة من شقيق زوجها شيئاً طبيعياً. لكن لا يا دروموند، أردت أن تفرض قانونك الشخصي، وتقدم نفسك على أنك أندرو لكل شخص في المدينة!».

«ثم أخبرهم بأنني تلقيت ضربة على رأسي، أو...».

«لا تكن سخيًّا! لن يصدقنا أحد ولو للحظة واحدة، ولن يؤدي ذلك إلا إلى توريطي في كذبتك القذرة. هل سيصدق الناس حقاً أنني لا أعرف زوجي؟».

قال دروموند يائساً: «ربما يمكننا أن نلتزم بالخطة الأصلية إذاً. أنت وتشارلي تأتيان معي إلى المزرعة. لا أحد يعرفكما هناك...».

- لا! لقد مات زوجي ويجب أن أكرّم ذكراه. أوه دروموند، ألا ترى أنك عقدت اتفاقاً مع الشيطان؟ وأنه من الآن فصاعداً لن يكون بيننا شيء مقبول؟». جثت كيتي على الرمل وأخذت رأسها بين يديها.

ساد الصمت بينهما لفترة طويلة. وفي نهاية المطاف، تكلم دروموند: «أنتِ على حق يا كيتي. لقد كنتُ متهوِّراً. وجدتُ فرصة لأكون معك، ولم أفكر. ارتكبتُ خطأً فادحاً، وأعترف بذلك. كم أتوق إلى عيش اللحظة، من دون التفكير في عواقبها المستقبلية. ماذا تريد مني أن أفعل؟».

أغمضت كيتي عينيها وأخذت نفسًا عميقًا مستجمعةً الشجاعة لتقول له الكلمات التي ينبغي أن تقال. «يجب أن ترحل في أسرع وقت ممكن».

«إلى أين أذهب؟».

«إنها مشكلتك. لم تطلب رأيي في قرارك المتسرع، ولا أستطيع أن أكون طرفًا في أي قرار يخص مستقبلك».

«إذًا، قد أذهب لرؤية أمي، وأدع الوقت يفعل فعله. أيا يكن ابنها، سواء كان أندرو أو دروموند، فسوف يريحها أنه ما زال لديها ابن. أيهما ينبغي أن أكون؟».

عصرت كيتي يديها وقالت: «لقد قلت لك لتوي، لا أريد أن أ تدخل في أي شيء يخصك بعد اليوم».

«وماذا عن الناس هنا في بروم؟ ألن يتساءلوا لماذا عاد زوجك ورحل بهذه السرعة؟».

«أنا على يقين من أنهم سيفهمون أنه بعد وفاة الأب والأخ، هناك أشياء كثيرة يجب الاهتمام بها في مكان آخر».

«كيتي». مدّ يده إليها فجفلت، لعلمها أن لمستّه قد تكسر عزمها.

سحب دروموند يده وقال: «هل يمكن أن تسامحيني يومًا؟».

«أسامحك الآن يا دروموند، لأنني أعلم أنه على الرغم من غبائك المطلق، لكنك لم تقصد الأذى. ولا يسعني أن أقول إنني لم أعد أحبك، لأنني سأحبك دائمًا. لكن لا يمكنني أن أنغاضي عمّا فعلته، أو أعيش الكذبة التي لفقتها، ليس من أجلنا فقط، بل من أجل تشارلي أيضًا».

«أفهم ذلك».

نهض دروموند، وهذه المرة رأت كيتي دموع الدمار التام في عينيه. قال: «سأرحل كما طلبت. وأحاول - على الرغم من أنني في الوقت الحالي لا أعرف كيف- أن أصحح الأخطاء التي ألحقها سلوكي الأناني بك وبتشارلي. سوف يكبر بلا أب....».

«وبلا عم».

«إلى الأبد؟».

«لا أستطيع أن أكذب على ابني. يجب أن يحافظ على قداسة ذكرى والده».

«لكنه رأني هذا الصباح...».

«الوقت يشفي يا دروموند، وإذا رحلت فلن يكون من الصعب جدًا أن أخبره ذات يوم بأن والده مات».

«هل تريدني أن أموت ثانية؟».

أخذ دروموند نفسًا عميقًا وموجعًا: «إِذَا، سأرحل الليلة». ومهما ترغب في أن أتوسل إليك لتغيري رأيك، وأن تغتني فرصة السعادة التي أصبحت الآن في متناول اليد، فلن أفعل ذلك. كيتي، لا تنظري إلى هذه اللحظة وتتساءلي إن كنتِ المُلامّة بأي شكل من الأشكال. أنا المُلام. لقد دمرتُ مستقبلنا».

«يجب أن نعود. لقد حلّ الظلام». نهضت كيتي منهكة خاوية من الحيوية، كما لو كانت دمية فُرغَتْ من أحشائها.

«هل يمكنني على الأقل أن أضمّك للمرة الأخيرة؟ لأودّعك؟».

لم يكن لدى كيتي أي طاقة للإجابة بنعم أو لا. سمحت له أن يأخذها بين ذراعيه وظلًا هكذا للمرة الأخيرة. حرّرها أخيرًا، ومدّ لها يده، ومعًا سارا على الرمل. كانت كيتي سعيدة لأن تشارلي كان نائمًا في سريره عندما وصلا إلى المنزل. لجأت إلى غرفتها وأغلقت الباب، ثمّ جلست على كرسي مثل امرأة مُدانة، تنتظر صوت خطي دروموند في المدخل، ونقرة الباب الأمامي التي ستعلن رحيله. وبدلًا من ذلك، رأت ظلًا خارج نافذتها وأصواتًا. نهضت من سريرها ونظرت إلى الخارج، فرأت دروموند يتحدث إلى كاميرا في الحديقة. وبعد خمس دقائق، طرق بابها.

- سامحيني على إزعاجك يا كيتي، لكن يجب أن أعطيك شيئًا قبل أن أرحل». ثمّ قدّم لها علبةً جلديةً صغيرةً وقال: «هذا هو السبب وراء بقائي على قيد الحياة حتى اليوم. تلقى أندرو برقية بينما كنا نبحر من فريمانتل، وأخبرني أن هناك لؤلؤة

مشهورةً جدًا معروضة للبيع، بحسب مصادره. قام بكثير من التحريات للتأكد من مصدرها، واتصل بالطرف الذي يمثل البائع. جاء في البرقية التي تلقاها ردًا على برقيته أن عليه أن يحضر النقود إلى مكان محدد، على بعد بضع ساعات من جيرالدتون. وكما تعلمين، وافقت على أن أكون رسوله، وتركت السفينة وذهبت لإحضار اللؤلؤة. بحسب وصف أندرو ونصيحته بما عليّ التأكد منه، عرفتُ أنها أصلية ما إن رأيْتُها. إن آخر لفظة أقوم بها تجاه أخي هي تسليم اللؤلؤة الوردية إلى زوجته كما أراد. إنها تساوي ثروة. لم يكن أندرو قادرًا على انتظار رؤيتها متدلية حول عنقك، برهانًا على حبه لك، ونجاحه الذي أراد أن يهديه لبروم بأكملها.»

«أنا...»

«انتظري يا كيتي. ثمة شيء آخر. يجب أن تعلمي أن الأسطورة تقول إن اللؤلؤة ملعونة. يُزعم أن كل من اقتناها مات موتًا مفاجئًا وصادمًا. كان أندرو هو المالك الحالي للؤلؤة، وهو الآن في قاع البحر. كيتي، على الرغم من أن من واجبي أن أفعل ما طلبه مني أخي، إلا أنني أتوسّل إليك أن تتخلّصي منها في أقرب وقت ممكن. لا تقنيتها مطلقًا. في الواقع، لن أضعها بين يديك، لكنني سأتركها في مكان تعتبرينه آمنًا. أتوسّل إليك ألا تلمسيها.»

تفحّصت كيتي العلبة، ثم وجه دروموند، ولم ترَ في عينيه أي أثر للمزاح. كان جدّيًا. «هل يمكنني أن أراها على الأقل؟».

فتح دروموند العلبة ونظرت كيتي إلى اللؤلؤة. كانت بحجم كرة بلي كبيرة، ذات لون ذهبي وردي بديع. ينشر بريقها الرائع ضوءها الخاص ويجذب النظر على نحو لا يُقاوم.

حبست كيتي أنفاسها: «يا لجمالها، إنها أروع لؤلؤة رأيْتُها على الإطلاق...».

مدّت أصابعها نحوها لكن دروموند أبعد العلبة عن متناول يدها.

«لا تلمسيها! لا أريد أن أتحمل مسؤولية موتك بعد الأخطاء الفظيعة الأخرى التي ارتكبتها بحقك». أغلق الصندوق وسألها: «أين يجب أن أضعها لكي تكون بمأمن؟».

«هناك». ذهبت كيتي إلى مكتبها وفتحت الدرج السري الذي يقع تحته. وضع دروموند العلبة داخله وأغلقه بإحكام.

توسّل إليها وهو يضغط على المفتاح في يدها: «أقسمي لي بأنكِ لن تلمسيها». «دروموند، أنتَ بالتحديد، من بين الجميع، لا يمكنكُ أن تصدّق مثل هذه القصة. هناك كثير من الأساطير التي تدور حول لآلئ معيّنة في بروم. كلّها خيال». «للأسف، بعد الذي حدث في الأسابيع القليلة الماضية، أميل إلى أن أصدّق ذلك. إذ بينما كنت أحمل تلك اللؤلؤة، اعتقدتُ أنها أنقذت حياتي. وعندما كانت في حوزتي رسمتُ خطتي. شعرتُ... أنني لا أقهر، كما لو كان المستحيل ممكنًا. كنت مبتهجًا. وها أنا الآن قد فقدت كلّ ما يعنيني ويهمّني. روعي ميتة مثل والدي وأخي. لذلك، يجب أن أقول لكِ وداعًا. وإذا التقينا ثانية، آمل أن أثبت لك أنني تعلّمت من خطئي. أرجوك، حاولي أن تسامحيني. أحبك يا كاتي. وإلى الأبد».

استدار دروموند واتجه نحو الباب.

كانت كلّ غريزة كيتي تتوسّل إلى قدميها لكي تتقدما بضعة أمتار نحوه، وتعيده إليها، ليعيشا ويغتتما الفرصة التي خلقها لهما، ليتحابّا في وضح النهار كزوج وزوجة. لكنّها قاومت بثبات.

«وداعًا». ابتسم لها للمرة الأخيرة. ثمّ رحل.

أليسيا هول

جادة فيكتوريا

أديلايد

5 حزيران 1912

عزيزتي كيتي،

بقلب مثقل أكتب لك، لأنك أنتِ وحدكِ تستطيعين أن تتخيلي الفرحة التي شعرتُ بها عندما تلقيتُ برقية أندرو، التي تخبرني بمعجزة بقائه على قيد الحياة.

عزيزتي، أنتِ الروح الأخرى الوحيدة التي أعرفها، وتفهم حقًا ما يعنيه المرور بسلسلة من المشاعر الأليمة التي عانيتُ منها في الأسابيع القليلة الماضية. في الحقيقة، لأيام عدّة تلت المأساة، كافحتُ باحثَةً عن سبب للاستمرار في العيش. كنتُ قد فقدتُ العالم بأكمله في غضون ساعات قليلة، ولكن لحسن الحظ كان الربّ معي.

إن عودة أندرو إلينا كانت معجزة لم نكن نأمل حدوثها. لكننا استقبلناها، على الرغم من أنه، كما قلتُ من قبل، لن تنتهي هذه الرسالة نهايةً فرحة. كنتُ أتوقع أن يزورني أندرو هنا في أديلايد لكي أتمكن من رؤية ابني الغالي بأم عيني. لكنني، تلقيتُ أمس زيارة من السيد أنغوس، محامي الأسرة، الذي جاء ليخبرني أن أندرو ذهب لرؤيته وطلب منه أن يسلمني رسالة كتبها لي. وفق السيد أنغوس، يبدو أن صدمة فقدان والده وشقيقه في رحلة كان من المفترض أن يقوم بها أندرو نفسه قد أثرت عليه بشدّة.

إنه يحمل ذنبًا رهيبًا لأنه ما يزال يمشي على الأرض بينما رحلا هما عنها. عزيزتي كيتي، ربما كانت الصدمة أكبر من أن يتحملها، لأن السيد أنغوس استنتج أنه لا يتمتع بكامل قدراته ويبدو مختلفًا تمامًا.

طلب أندرو من السيد أنغوس أن يخبرني - ويخبركِ - أنه قرّر الذهاب بعيدًا للتعافي. لكي يستعيد نفسه من جديد، إذا جاز التعبير. أتمنى فقط أن يأتي إليّ شخصيًا لأنني كنت لأتوسّل إليه وأقنعه بالبقاء. هناك أطباء جيدون كثر يمكنهم المساعدة في علاج الانهيار العصبي - لقد كان دائمًا متوترًا للغاية عندما كان طفلًا - لكن يبدو أن أندرو أصر على حاجته إلى القيام بذلك بمفرده. كما طلب من السيد أنغوس أن يتوسّل عفوك لرحيله بعد وقت قصير من عودته، لكنه لم يرغب في فرض حالته الذهنية المشوّشة عليك.

أتمنى لو كنت أتمكن من أن أريحكِ بإخباركِ متى سيعود إلينا، لكنه لم يعطِ السيد أنغوس أيّ معلومة. وهو أيضًا - على الرغم من أنني أعتقد أنه كان من الجنون القيام بذلك - أصرّ على وضع جميع المصالح التجارية لشركة ميرسر في صندوق ائتمان لصالح تشارلي. لقد أحضر السيد أنغوس المستندات ليريني إياها، وكان من المروّع أن أرى أن التوقيع لا يشبه توقيع أندرو على الإطلاق. إذا لم يعد أندرو، فستنتقل مصالحنا إلى تشارلي عندما يبلغ الحادية والعشرين.

في رسالة أندرو، أخبرني أنه زار نويل دونوفان قبل مغادرته بروم وأخبره بقراره. السيد دونوفان رجل قدير وسوف يدير العمل بكفاءة. لقد جعلكِ أندرو أيضًا، المنفّذ الوحيد لشركة تشارلي. مرة أخرى، استفسرْتُ عن قراره - فالمسؤولية تلقي عبأً ثقیلاً على كاهلكِ - لكن أندرو أخبرني أنه يثق في حكمكِ.

يجب أن أذكر أيضًا أنه عندما قرأ السيد أنغوس وصية زوجي الحبيب ودروموند، اللتين كتباهما قبل بضعة أسابيع فقط عندما كانا هنا في أدبلايد، تبين أن عم تشارلي العزيز قد وهب ابن أخيه كلّ ممتلكاته

الدنيوية، ما يعني أن حفيدنا الحبيب هو الوريث الروحي لثروة ميرسر. يا له من عبء ثَقِيل يقع على كتفيه الصغيرتين، ولكن في الوقت الحالي، لا يوجد شيء يمكننا، نحن النساء، فعله لتغيير رغبات أندرو. طلبت مني رسالته أن أؤكد لك أنه سيتم إيداع مبلغ شهري كبير في حساب بروم الخاص بك، وأنه سيغطي تكاليف معيشتك بشكلٍ كافٍ.

مع ذلك، فأنا أدرك أن هذا ليس غير عزاء بارد في مواجهة فقدان زوجكِ مرة أخرى، في الوقت الحالي على الأقل.

عزيزتي كيتي، أنا متيقنة من أن هذا سيكون صدمة أخرى لأعصابك المنهكة. أتوسل إليك أن تفكري في العودة مع حفيدي للعيش في أليسيا هول، حتى نتمكن من أن نمنح بعضنا بعضاً الراحة والقوة لاجتياز هذه العاصفة الجديدة.

كل ما يمكننا فعله هو الصلاة من أجل أندرو وعودته السريعة.
يُرجى إبلاغي بقراركِ على الفور.

إديث

وضعت كيتي الرسالة، وشعرت بحبات العرق الباردة تتصبّب من جسدها، والصفراء تصعد إلى حلقها، قبل أن تهرع إلى حوض غرفتها وتتقيأ. مسحت فمها ووجهها بمنشفة، ثم حملت الحوض إلى المرحاض وأفرغته، كما لو كانت تتخلّص من آخر البقايا السامة التي خلّفتها خدعة دروموند. وجدتْها كاميرا وهي تغسل الوعاء في المطبخ.

«هل أنتِ مريضةٌ ثانيةً يا سيدة كيتي؟ أنتِ مريضة؟ سأحضر الطبيب. جلد وعظم، هذا ما أنتِ عليه». ملأت كوباً من الماء وأعطته لكيتي.
«شكراً لكِ. أنا بخير».

«هل نظرتِ في تلك المرأة مؤخراً يا سيدة كيتي؟ أنتِ مثل شبح».
«كاميرا، أين تشارلي؟».

«في الكوخ مع كات».

«يجب أن أعلمك أن السيّد الرئيس قد رحل لفترة من الزمن».

نظرت إليها كاميرا بشكل مثير للريبة وقالت: «أيّ سيّد؟»

«أندرو زوجي، بالطبع».

«ربّما كان ذلك أفضل». ثمّ أومأت كاميرا برأسها بثقة العارف وقالت: «أنا

وفريد نعتني بكما أنت وتشارلي. الرجال يسبّبون المتاعب».

«بالتأكيد». ابتسمت كيتي بوهن لتصريحات كاميرا البسيطة.

«سيدة كيتي، أنا...».

وصل تشارلي وكات إلى باب المطبخ، فتنهّدت كاميرا ولم تقل شيئاً.

بعد ظهر ذلك اليوم، جلست كيتي على الشرفة وأعادت قراءة رسالة حماتها. بما

أن دروموند أرسل برقية إلى والدته ليخبرها أن «أندرو» قد نجا، فقد افترضت كيتي

أن دروموند لم يكن لديه خيار سوى الاستمرار في تمثيلته حتّى النهاية. لكنه على

الأقلّ أوفى بوعدده لها واختفى. كما أثر فيها بشكل خاص حقيقة أنه قبل حدوث أيّ

شيء من هذا كله، كان دروموند قد ترك كلّ ما يملك لتشارلي في وصيته.

الآن بعد أن هدأ رعبها الأوّل، أدركت كيتي أنها على منحدر خطر. في البداية

جاء الغضب، وتلاه الحزن، وأخيراً الندم لتصرّفها بهذه السرعة. خلال ليالي الوحدة

الطويلة والمؤلمة، كانت كيتي تتألّم متسائلة إن كانت قد تسرّعت في قرارها ولم

تُتَح للوقت تهدئة الأمور. لقد فات الأوان، فقد رحل دروموند إلى الأبد كما طلبت

منه أن يفعل.

بعد أن حزنّت عليه مرة، كان عليها الآن أن تحزن عليه مرة أخرى.

بالكاد رفع تشارلي نظره عندما قيل له إن «بابا» قد غادر مرة أخرى بهدف

العمل. بعد أن اعتاد على غياب أندرو المتمكّر، وانخرط في عالمه الطفولي الذي

يتخيّل فيه كات، تقبّل رحيل والده من دون مرارة. لكن ما كان مفاجئاً هو أن

تشارلي كان يذكر العم دروم أكثر بكثير.

«أعلم أنه صعد إلى السماء لأن الله أراد، لكننا نفتقد ألعابه، أليس كذلك يا كات؟».

أومأت كات برأسها بكل رصانة وقالت: «نعم يا تشارلي، نحن نفتقده كثيرًا». ابتسمت كيتي لخطاب الفتاة الصغيرة. كانت كيتي تتحدث معها باللغة الإنجليزية منذ ولادتها، كما أنها كانت تعرف قليلًا من اللغة الألمانية أيضًا. وكانت طفلة جميلة، مهذبة، حسنة الخلق، قرة عين أمها. مع ذلك، تساءلت كيتي عما يمكن أن يحمله مستقبل كات. لأنها، على الرغم من جمالها وذكائها، كانت طفلة خلاسية؛ منبوذة من ثقافتي والديها، وبالتالي تحت رحمة المجتمع الذي تعيش فيه. فتحت كيتي درج مكتبها لتكتب إلى إديث وترفض عرضها بالإقامة في أليسيا هول. على الرغم من أنها كانت تدرك مدى صعوبة البقاء في بروم كأرملة، لكنها على الأقل حصلت على استقلالها هنا. ربما تستطيع أن تأخذ تشارلي إلى إسكتلندا في الأسابيع القليلة المقبلة ليتعرف إلى عائلته وتقرّر ما إذا كانت ستستقر هناك بشكل دائم.

شعرت أصابعها ببرودة المفتاح النحاسي الذي يفتح الدرج السري. في خضمّ فوضى عواطفها، نسيت اللؤلؤة التي أعطها إياها دروموند قبل رحيله. فتحت الدرج وأخرجت العلبة وفتحت غطاءها. كانت هناك، تتألق في الضوء، ببريقها الوردي الرائع وحجمها الذي يجعلها لؤلؤة نادرة باهظة الثمن. كلّ شرٍّ مُفترَض كان مخفيًا بعمق في حبة الرمل التي أعطت الحياة لجمالها المشرق. جميلة مثل ملكة حكايات الطفولة الشريرة، التي لم تكن قشرتها الخارجية تعطي أيّ دليل على ما تخفيه في جواهرها وقلبها الأسود.

استجابت كيتي لتحذير دروموند بآلا تلمسها وآلا «تقتنيها» أبدًا، فوضعتها جانبًا وراحت تجول في الغرفة. كانت اللؤلؤة آخر هدية قدّما لها أندرو وعليها أن تتقلّدها وتعزّز بها. لكن، إذا كان دروموند على حق، فقد ألحقت بها لعنة قاتلة.

سمعت طرقًا على الباب، فصاحت وهي مستغرقة في أفكارها: «ادخلي».

«سيدتي كيتي، الطفلان ضجران. طلبا منا أن نأخذهما إلى الشاطئ. أنا...». وقعت نظرة كاميرا على اللؤلؤة فقطبت حاجبيها. «سيدتي كيتي، لا تلمسيها!». تمتمت كاميرا ببعض الكلمات لنفسها وأشاحت بنظرها بينما سقط شعاع من ضوء الشمس وانعكس بريقه على اللؤلؤة. «أغلقي العلبة! الآن! لا تنظري يا سيدة كيتي! أغلقي العلبة!». فعلت كيتي تلقائياً ما طُلب منها بينما فتحت كاميرا النافذة خلف المكتب. «لا تقلقي يا سيدتي كيتي، سأنقذك!». تمتمت كاميرا مجدداً بكلمات أخرى غير مفهومة بينما كانت كيتي تنظر إليها ذاهلة. ثم أخذت طرف تنورتها الموسلين في راحة يدها، والتقطت العلبة ورمتها من النافذة المفتوحة.

«ماذا تفعلين بحق السماء؟! هذه اللؤلؤة ثمينة يا كاميرا! ثمينة جداً. ماذا لو لم تتمكن من العثور عليها؟». رفعت كيتي رأسها ونظرت من النافذة. قالت كاميرا وهي تشير إلى مكان سقوط العلبة: «أنا أراها، سيدتي كيتي، لا تباعي تلك اللؤلؤة. لا تأخذي المال الذي تجنيه منها. أتفهمين؟». «لقد حدثني زوجي عن اللعنة المرتبطة بها، ولكن من المؤكد أنها مجرد حكاية نساء عجائز».

«إذاً أخبريني لماذا مات السيد الرئيس؟ ومن قبله مات كُثر». صححت بحدّة: «تقصدين، السيد دروم، يا كاميرا». قالت وهي تتنهد: «سيدتي كيتي، أنا أعرف الفرق بينهما، حتى لو كنت أنتِ لا تعرفين».

«أنا...». أدركت كيتي أن لا جدوى من محاولة الاستمرار في التمثيلية مع كاميرا، فسألتها: «هل تؤمنين باللعنة؟». «الأرواح تجد الرجال الجشعين وتقتلهم. أشعر بأرواح شريرة تحوم حول هذه العلبة. لقد قلتُ للسيد دروم إنها سيئة».

«ماذا تقترحين أن أفعل بها، إذا لم أتمكن من بيعها، يا كاميرا؟ وبصرف النظر عن حقيقة أنها كانت هديتي الأخيرة من أندرو، فهي تساوي ثروة. لا أستطيع أن أرميها في القمامة».

«أعطني إياها. سأحملها إلى مكان بعيد بحيث لا ينالك منها أي ضرر».

«أين؟». قطبت كيتي حاجبيها للحظة، فمهما تكن تحب كاميرا وتثق بها، إلا أن الفتاة فقيرة واللؤلؤة تساوي حياة جديدة تمامًا لها ولطفلتها.

درست كاميرا تعابير وجهها، وكالعادة، قرأت أفكارها. «سواء حافظت على تلك اللؤلؤة الملعونة، أو بعته من أجل المال، لن تنقضي ثلاثة أشهر حتى يكون تشارلي يتيماً». عقدت كاميرا ذراعيها ونظرت بعيداً.

وافقت كيتي: «حسناً». في الواقع، لم تكن بحاجة إلى المال ولا ابنها. «لقد جلبت هذه اللؤلؤة التعاسة لنا جميعاً. إذا صدقت هذه اللعنة، فقد أقول إنها دمّرت عائلتنا. ربما يجدر بنا أن نتخلص منها بأسرع وقت، بحيث يمكننا جميعاً أن نتنفس من جديد».

«سيأخذني فريد إلى مكان يعرفه وستأتي معنا كات. لا نحتاج إلى أكثر من يوم واحد. توجهت كاميرا نحو الباب، وأضافت: «إن أفضل ما يمكننا فعله يا سيدة كيتي، هو أن نضع هذا الشيء السيئ حيث لا يمكنه أن يضر».

«تأكدي من عدم حدوث ذلك. شكراً لك يا كاميرا».



بعد أيام قليلة، جاء نويل دونوفان لزيارة كيتي.

«سامحيني على التطفل مرة أخرى يا سيدة ميرسر، وفي مثل هذا الوقت العصيب الذي تمر به عائلتك. لكنني متأكد من أنك تعرفين أن زوجك قد عهد إلي بإدارة شركة ميرسر حتى عودته، أو حتى يبلغ الصغير تشارلي سن الرشد».

أجابت كيتي: «دعنا نصل من أجل عودته».

«بالطبع، ولا أشك في ذلك. إنها أوقات عصيبة هذه التي تمرين بها يا سيدة ميرسر. لقد فقدت عائلتي عشرة أشخاص ضحية مجاعة البطاطس في القرن الماضي. وهذا ما جعل الناجين منا يقررون المجيء إلى هنا. هناك كثير من الرجال والنساء الذين وصلوا إلى هذه الشواطئ بسبب مأساة ما».

قالت كيتي بنبرة فظة: «لم آتِ إلى هنا بسبب مأساة، ولكن يبدو أنها تبتعني. والآن يا سيد دونوفان، ماذا يمكنني أن أفعل لك؟».

«حسنًا، أنتِ الأقرب لمعرفة ما كان يدور في ذهن السيد أندرو قبل رحيله. وأنا أتساءل عما إذا كنتِ تعرفين بالضبط متى سيعود؟».

«لم يعطني أيّ إشارة يا سيد دونوفان».

«ألم يتحدث على مائدة العشاء كما نفعل أنا وزوجتي؟ وإذا كان أيّ شخص يعرف أفكاره حول مستقبل العمل، فهو أنتِ».

همست لها غريزتها بأن تجيب بالإيجاب: «نعم، بالطبع. قبل رحيله تحدثنا عن أشياء كثيرة».

«إذا أنتِ تعلمين أن زوجكِ سحب عشرين ألف جنيه من الحساب المصرفي للشركة قبل أيام قليلة من وفاته».

تقلّصت معدة كيتي عندما أدركت الغرض الذي استخدم أندرو المال من أجله. «نعم. ما الغريب في ذلك؟».

«ربّما كان ذلك مخصّصًا لبناء مركب شراعي جديد؟».

«نعم هذا صحيح».

«وهل تعلمين من سيبنيه؟ يبدو أنه لا أثر لذلك في السجلات».

«للأسف لا أعرف، على الرغم من أنني أعتقد أنها شركة في إنجلترا».

«ممكّن. الحقيقة يا سيدة ميرسر، هي أننا خسرنا ثلاثة مراكب شراعية في الإعصار. أشكر الله على أنه كان موسم الاستراحة، وإلا لكان العدد أكبر من ذلك بالتأكيد. المشكلة هي أنه، مع هذا النقص في المراكب، بالإضافة إلى سحب مبلغ

عشرين ألف جنيه، نجد أنفسنا أمام عجز كبير في حساباتنا المصرفية. إن وضعنا سيئ حقاً؟».

على الرغم من أن كيتي كانت مصدومة، إلا أنها لم تُظهر دهشتها. «ألا يمكن سداد الدين خلال فترة زمنية محدّدة بالاتفاق مع البنك، بينما تتعافى الشركة من خسارتها؟».

«إن عشرين ألف جنيه إسترليني مبلغ كبير، ومع فقدان ثلاثة مراكب شراعية كبيرة، نصبح أمام عجز ليس من السهل سداده يا سيدة ميرسر حتّى مع دخول كمية كبيرة من الأموال في الأشهر المقبلة. أودّ أن أقول إننا سنستغرق ثلاث سنوات كاملة قبل أن نعود إلى الربح. ما لم نكن، بالطبع، محظوظين...». تراجع صوت نويل وقرأت القلق على ملامحه الهادئة عادة.

«أرى ذلك».

«والمشكلة الأخرى التي نواجهها، إذا سمحت لي بقول ذلك، هي أن الروح المعنوية بين أفراد الطاقم منخفضة. إنها خسارة مزدوجة، كما ترين. بصرف النظر عن مدى الجهد الذي يبذله زوجك في العمل، فإن كثيراً منهم ما زالوا يعتبرون السيد ستيفان رئيسهم. ومع غياب السيد أندرو، يضعف بعض أفضل رجالنا أمام العروض المغرية التي يتلقونها من شركات أخرى. أمس فقط، أخبرني إيتشيتارو، الغواص الأكثر خبرة لدينا، أنه سيذهب مع مساعده للعمل في شركة روبن. إنها ضربة قوية، ولن تؤدّي إلا إلى تشجيع الرجال الآخرين على فعل الشيء نفسه».

«أفهم تمامًا يا سيد دونوفان. إنه بالفعل وضع مقلق للغاية».

وقف نويل وقال: «حسنًا. ها أنا أزعجك بمشكلات العمل في الوقت الذي خسرت فيه الكثير. أستاذك بالذهاب».

وقفت كيتي أيضًا: «سيد دونوفان، يبدو لي، كما تقول، أن الرجال محبطون وليس لديهم قائد. ألا تعتقد أنها فكرة جيدة، أن آتي شخصيًا إلى المكتب وأتحدّث إليهم مباشرة، وأشرح لهم أن شركة ميرسر للؤلؤ ما تزال شركة قويّة، وأنه لا يوجد سبب للقلق؟».

بدا نويل متشككًا. «أود أن أقول، من دون أي نية في الإساءة إليك يا سيدة ميرسر، إنني لست متأكدًا من أنهم سيستمعون لامرأة».

ردّت كيتي: «ألا يستمع الرجال لزوجاتهم أو يطلبون الراحة التي يوفّرها لهم في المنزل؟».

احمرّ وجه نويل خجلًا. «حسنًا، ربما تكونين على حق. ولا أستطيع أن أقول إن هذا سيضر. من المقرر أن تخرج مراكبنا إلى البحر بعد غد. كان علينا أن نجد طاقمًا بديلًا وقد أدّى ذلك إلى تأخيرنا».

«هل دفعّت لأولئك الرجال الذين قالوا إنهم سيغادرون؟».

«لا. سيأتون صباح غد لتقاضي أجورهم الأخيرة».

«من فضلك، اجمع أكبر عدد ممكن من أفراد الطاقم من الحانات ودور الدعارة وأخبرهم أن الرئيس الجديد لشركة ميرسر لصيد اللؤلؤ يرغب في مخاطبتهم جميعًا في الساعة الحادية عشرة من صباح غد».

رفع نويل حاجبيه مستغربًا وقال: «هل تقولين يا سيدة ميرسر إن أندرو قد سلّمك مسؤولية العمل؟».

«في الجوهر، نعم. أنا منقّذة الثقة لممتلكات الشركة حاليًا، لذا فأنا أقرب إلى أن أكون «الرئيس» من أي شخص على الإطلاق».

«حسنًا، ثمّة شيء آخر. أحذرك يا سيدة ميرسر، إنهم مزيج من الأشخاص المتنافرين، وجميعهم يتوقّعون رجلاً».

«لقد عشتُ في بروم خمس سنوات، يا سيد دونوفان، ولا يفوتني ذلك. أراك غدًا في تمام الساعة الحادية عشرة تمامًا».

توجّهت كيتي إلى درج مكتبها وأحصت كومة من الأوراق النقدية الأسترالية. «اذهب إلى ياماساكي وميز واشترِ أربعًا وعشرين زجاجة من أفضل أنواع الشمبانيا».

«هل تجدين ذلك عقلانيًا يا سيدة ميرسر، بالنظر إلى الوضع المالي للشركة؟».

«هذه أموالي يا سيد دونوفان، وليست أموال الشركة».

«حسنًا». وضع نويل النقود في جيبه وابتسم لها. «أود أن أقول إنه، بطريقة أو بأخرى، يتعرّض موظفونا لصدمة كبيرة تمامًا».

عندما غادر نويل، طلبت كيتي من فريد أن يقودها إلى المدينة. دخلت إلى محل وينغ هينغ لونغ للخياطة وسألته إن كان يستطيع أن يفصل لها صدرية وتنورة من القطن الأبيض المُستخدَم في بدلات أسياذ صيد اللؤلؤ. كان من المفترض أن يكون للصدرية خمسة أزرار كبيرة من اللؤلؤ، وياقة صينية. وبعد أن عرضت ضعف التكلفة العادية للتأكد من أن الملابس ستكون جاهزة في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، عادت إلى المنزل وقضت فترة ما بعد الظهر وهي تجول في غرفة الجلوس لتفكر في ما ستقوله عندما تخاطب الرجال. في حيرة من أمرها، تساءلت عمّا إذا كانت مجنونة تمامًا لتفعل ما تخطّط له، ثم تذكرت والدها الذي كان يقف على المنبر كلّ يوم أحد.

في كثير من الأحيان، كانت شاهدة على الحشد المفتون، ليس بكلماته، ولكن بقوة إيمانه بها، وجاذبيته التي لا شك فيها.

قالت لنفسها عندما خطرت لها فكرة: إن الأمر يستحق المحاولة من أجل أندرو وتشارلي ودروموند.



في صباح اليوم التالي، تفحصت كيتي صورتها في المرآة. أخذت السلسلة الذهبية الصغيرة التي ترمز إلى أن صاحبها ينتمي إلى دائرة أسياذ صيد اللؤلؤ وثبتتها على صدريتها، ثم وضعت الخوذة البيضاء على رأسها وضحكت من انعكاس صورتها. ربما كانت أكبر من اللازم. وضعت المبلغ في حقيبة أندرو الجلدية، التي كان يستخدمها لنقل أوراقه بين المكتب والمنزل.

ألقت نظرة أخيرة على انعكاس صورتها، ثم أخذت نفسًا عميقًا.

«كيتي ماكبرايد، لم تولدي ابنة أبيك عبثًا...».



نظرت كيتي إلى بحر وجوه الرجال المحتشدين تحتها، وتساءلت لبرهة وجيزة عن عدد الجنسيات المختلفة التي تخاطبها. يابانيون، وماليزيون، وأندونيسيون، ومعهم عدد كبير من البيض. بعضهم كانوا يضحكون ويتهايمسون.

أيها السادة، في البداية، لأولئك الذين لا يعرفونني، أود أن أعرفكم بنفسي. اسمي كاثرين ميرسر، وأنا زوجة السيد أندرو ميرسر. إثر فقدان والده وشقيقه مؤخرًا، اضطر السيد ميرسر إلى أخذ إجازة من بروم لتسوية شؤون عائلتنا. أمل أن نتمنى له جميعًا التوفيق في رحلاته، وندعو له أن يجد القوة لمعالجة مثل هذه الأمور في هذه الأوقات العصيبة التي يمر فيها.

سمعت كيتي ارتعاشًا طفيفًا في صوتها وهي تكرر هذه الكذبة.

لا علامة ضعف واحدة يا كيتي، سوف يشتمونها على بعد كيلومترات... في أثناء غيابه، طلب مني التصرف بدلًا منه، بمساعدة السيد نويل دونوفان، الذي سيواصل إدارة العمل يوميًا بعد يوم.

رأت عددًا من الحواجب المرفوعة استغرابًا، وسمعت همسات احتجاج تصعد من الحشد. لكنها استجمعت كل ذرة قوة تمتلكها لتتابع.

أيها السادة، لقد سمعت مؤخرًا شائعات في المدينة تقول إن شركة ميرسر لصيد اللؤلؤ تعاني ماليًا، بسبب فقدان ثلاث من سفنها في الإعصار. وادّعى بعضهم أننا قد نتوقف عن العمل. أنا على يقين من أنه لا يوجد بينكم اليوم من كان بهذه القسوة لنشر مثل هذه الشائعات بالنظر إلى المأساة التي لم تصب عائلتنا فحسب، بل مدينة بروم بأكملها. وأن كل فرد منكم يتذكر باعتزاز الرجل الذي بدأ كل هذا في الأصل، السيد ستيفان ميرسر. إن شركة ميرسر تعدّ واحدة من أقدم الشركات وأكثرها رسوخًا في مدينتنا وقد وفرت لكثير منكم دخلًا لأنفسكم وزوجاتكم وأطفالكم.

جمعتكم لأخبركم أن شائعات المشكلات المالية لا أساس لها من الصحة على الإطلاق. لقد روج لها أولئك الذين يشعرون بالغيرة من تاريخنا ويتمنون لنا الفشل. إن إمبراطورية ميرسر تعدّ واحدة من أغنى الإمبراطوريات وأكثرها نجاحًا في أستراليا، ويمكنني أن أوكد لكل رجل هنا أنه لا يوجد نقص في الأموال، سواء في

شركة صيد اللؤلؤ، أو على نطاق أوسع. اعتباراً من هذا الصباح، وقّعت أنا والسيد دونوفان عقداً لبناء ثلاثة مراكب شراعية جديدة، ونأمل أن نضيف اثنين آخرين بحلول نهاية العام.

أخذت كيتي نفساً وقاست نبض جمهورها. بعضهم لجأ إلى جاره لترجمة ما كانت تقوله. وكان كثير منهم يومئون برؤوسهم ذاهلين.

أنا على وشك أن أمتلكهم...

ليس الإفلاس هو ما ينتظرنا، بل على العكس من ذلك، سنتطّلع إلى توظيف أفضل الرجال في بروم للانضمام إلينا في الأشهر القليلة المقبلة. إن أمنيّتي ورغبة زوجي هما الاستمرار لتكون شركة ميرسر للؤلؤ أعظم شركة في العالم.

انطلقت بعض الهتافات التي منحت كيتي الشجاعة لتتابع.

أعلم أن بعضاً منكم قد قرّروا الذهاب إلى شركات أخرى. بالطبع سيحصلون على مستحقّاتهم كاملة. إذا كنتم ترغبون في إعادة النظر والبقاء، فسوف تحصلون على زيادة قدرها عشرة في المئة على رواتبكم تنفيذاً لوصية السيد ستيفان ميرسر ورغبته.

أيها السادة، بالنيابة عن عائلة ميرسر، أتوسّل إليكم الصفح عن حالة عدم اليقين التي أصابتكم في الأسابيع القليلة الماضية. وتفهمكم أننا، من بين عائلات كثيرة هنا في بروم، عانينا من الخسارة التي تعرّضنا لها. سوف يشك بعضكم أيضاً في قدرات امرأة تربي طفلاً. مع ذلك، أرجوكم أن تنظروا إلى نساءكم وتعترفوا بقوتهن. إنهن يدرن شؤون أسرهم، ويوفّقن بين حاجات أفرادها. قد لا أملك ظاهرياً القوة أو الشجاعة اللتين يملكهما كلّ فرد منكم في ركوب البحر يوماً بعد يوم، لكن قلبي مليء بكلّيهما، وببركة والد زوجي العزيز الراحل وزوجي في توجيه شركة ميرسر نحو المستقبل.

حاولت كيتي ألا تلهث من الانفعال والتوتر. نظرت إلى جمهورها، فوجدتهم صامتين الآن، وهم يحاولون التقاط كلّ كلمة تقولها. وبناءً على طلبها، وُزّعت كؤوس الشمبانيا على الجميع. اقترب منها نويل وقدم لها كأساً فأخذتها.

غداً، سأكون على الرصيف لأحيي خروج أولئك الذين ما زالوا معنا منكم إلى البحر. أتمنى لكم حظاً سعيداً وأدعو لكم بالعودة سالمين. أخيراً، أود أن نشرب نخب الرجال الذين فقدناهم في الإعصار الأخير. وبالأخص، نخب مؤسس شركتنا، السيد ستيفان ميرسر.

رفعت كيتي كأسها: «نخب ستيفان!»

ردّ الرجال بينما كانت كيتي تتناول جرعة من الشمبانيا: «نخب ستيفان!»
خيم صمت آخر، ثم صاح أحد الحضور: «ثلاثة هتافات للسيدة ميرسر».

- هورا!

- هورا!

«هورا! هورا! هورا!»

ترنّحت كيتي قليلاً وشعرت بذراع قوية تتلقّفها. ساعدها نويل في الجلوس على كرسي بجانب المستودع، جلست ممتنة.

قال بينما كانا يشاهدان الرجال وهم يعيدون ملء كؤوسهم ويتحدّثون فيما بينهم: «لقد كان خطاباً رائعاً هذا الذي ألقّيته». ثم همس لها مبتسماً: «حتى أنا كنتُ مقتنعاً. وأشكّ في وجود رجل بينهم لم يكن مثلي. مع أن الرب وحده يعلم كيف سندفع ثمن الوعود التي قطعَها لتوك».

قالت له: «علينا أن نجد طريقة يا نويل، وسنجد طريقة. سنجدها».

«تبدّين مرهقة يا سيدة ميرسر. لماذا لا تعودين إلى المنزل وترتاحين؟ لقد قمتِ بواجبك هنا، هذا مؤكد. الآن سيستنزفون كؤوسهم وسيحصلون على أموالهم، ومع الزيادة التي قدّمَتها لهم، يا سيدة ميرسر، استنزفت الحسابات بالفعل».

قالت كيتي بحزم: «معي المبلغ الإضافي. والآن، إذا لم يكن لديك أيّ اعتراض، أودّ أن أحيي كلّ واحد من الرجال شخصياً وأدفع لهم ما يستحقّونه».

نظر إليها نويل برهبة: «ليس لديّ أيّ اعتراض بالطبع».

انحنى لها انحناءة صغيرة، وهرع إلى الموظف في المكتب الخلفي لجلب الأجور.



في الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم، ساعد فريد كيتي على الترحّل من العربة. دخلت المنزل مترنّحةً.

قالت لكاميرا وهي تمرّ بها في المدخل: «سأخذ قسطاً من الراحة، هل يمكنكِ إحضار إبريق ماء بارد إلى غرفتي؟».

«حاضر يا سيدة كيتي».

مالت كاميرا بانحناءتها المعتادة، ثمّ تفحّصت سيدتها: «هل أنتِ مريضة من جديد؟»

«لا. بل متعبة جداً جداً».

استلقت كيتي على سريرها تستمتع بالنسيم المنعش القادم من النافذة المفتوحة. في الساعات الثلاث التي استغرقها إلقاء التحية على كلّ رجل والسؤال عنه وعن أسرته، لم يطلب أحد أجره النهائي. جاؤوا إليها بابتسامة مُحَرّجة، وأخبروها بإيمانهم بشركة ميرسر للؤلؤ، وأبدوا تعاطفهم معها - أحياناً على لسان مترجم - بعد خسارتها الأخيرة.

أصبحت الشركة اليوم تعاني من عجز أكبر في البنك، ولكنّ هناك طاقم كامل وغوّاصون سيبحرون غداً لاستعادة ثروات الشركة المتعثّرة.

أغمضت كيتي عينيها وشكرت الله على وجبات الفطور التي أصرّ عليها والدها يوم الأربعاء عندما كانت طفلة. لقد ألهمت سيرته الذاتية عن إليزابيث تيودور - حتّى لو كانت هي التي قتلت ابنة عمها الإسكتلندية ماري - خطابها اليوم.

مع أنّ لي جسد امرأة ضعيفة...

قالت إليزابيث وهي تخاطب جيوشها في تيلبوري دوكس، وهي تستعد لهزيمة الأرمادا الإسبانية.

سامحني يا أندرو، لقد بذلت قصارى جهدي من أجلك اليوم...



خلال الأسبوعين التاليين، كانت كيتي تستيقظ باكراً وتصل إلى المكتب قبل نويل. كانت تدقق الدفاتر بعناية، مستخدمة الخبرة الأساسية التي اكتسبتها في تولي حسابات أبرشية والدها. كان هناك كثير من التناقضات ومبالغ نقدية مسحوبة استفسرت الموظف عنها.

قال لها الرجل: «أسألي السيد نويل. لقد أذن بها».

نظر نويل إلى يديه اللتين كانتا تتشابكان وتنفكان بعصبية: «حسنًا، في بعض الأحيان، يحصل غواص على لؤلؤة زائفة فيهربها من المركب إذا اعتقد أنها ذات قيمة. وبدلاً من أن يسرقها الغواص ويحتفظ بالقيمة الكاملة لنفسه، كان السيد أندرو - والسيد ستيفان من قبله - يعرضان مبلغاً نقدياً على أي رجل يجلب لهما ما يعتقدان أنه لؤلؤة مميزة. وتبين أن بعضها لم يكن أكثر من لآلئ نفطة، ولكن بهذه الطريقة، يتم تقاسم المخاطر. أفهمين؟».

- نعم، أفهم تمامًا.

حدّدت كيتي موعداً في البنك بعد ظهر ذلك اليوم، وجلست قبالة مكتب السيد هاريس. بدا الألم على وجهه عندما شرحت له الوضع.

«أؤكد لك أنه لا يوجد نقص في الأموال يا سيد هاريس. أمبراطورية ميرسر تساوي ثروة».

«قد يكون ذلك صحيحاً يا سيّدة ميرسر، لكنني أخشى أن يطالب البنك بضمان فوري. ربما يمكنك تحويل مثل هذه الأموال من فرع آخر لأمبراطورية ميرسر».

ظل مدير البنك متحجّر الوجه، إذ تعود على العيش في بلدة مليئة بالأرواح التي قد تستخدم كل وسائل الإقناع للحصول على أشهر أخرى من الائتمان.

ولمّا كانت كيتي لا تملك أيّ فكرة عمّا يوجد في حسابات ميرسر المصرفية، وتحتاج إلى القيام برحلة إلى أديلايد لزيارة محامي الأسرة لمعرفة ذلك، أو مأت برأسها.

«أتفهّم ذلك. هل يمكنك أن تمنحني مهلة شهر؟».

«لا يا سيّدة ميرسر. فالعجز الحالي يبلغ ثلاثة وعشرين ألف جنيه».

اقترحَتْ: «ربما يمكن لمنزلنا أن يوفّر لك ضمانًا مؤقتًا؟ إنه يقع في أفضل جزء من بروم، وهو مؤثث بشكل فاخر. هل ستقبل ذلك حتّى أتمكّن من تدبير المبلغ؟».

قال مدير البنك عابسًا: «سيّدة ميرسر، لا يحقّ لي أن أنصحك، لكن هل أنتِ متأكّدة من أن ما تقترحينه حكيم؟ ربّما لا تدركين مدى التقلّب الذي يمكن أن تعاني منه صناعة صيد اللؤلؤ. سأكون حزينًا جدًّا إذا وجدتِ نفسكِ أنتِ وابنكِ بلا سقف فوق رأسيكما في المستقبل».

«إنها بالفعل تجارة متقلّبة يا سيّد هاريس، وإذا كان المرء مقامرًا، فقد يراهن على حقيقة أن عائلة ميرسر ستشهد مرحلة من الحظ السعيد بعد هذا الوقت العصيب. سأحضر لك الصكوك غدًا».

«كما تريدين يا سيّدة ميرسر. وسيطلب البنك إيداع باقي الأموال خلال الأشهر الستة المقبلة».

«اتفقنا».

مع ذلك، قالت كيتي وهي تنهض: «إذا سمعتُ همسة واحدة عن هذه الصفقة من أيّ جهة في هذه المدينة، فسنوقف كلّ أعمالنا معك على الفور. هل هذا مفهوم؟».

«مفهوم».

«عظيم. سأعود غدًا لاستكمال الأوراق».

غادرت كيتي مكتبه مرفوعة الرأس، وهي تدرك تمامًا أنها ليست بحاجة إلى

تعريض نفسها لهذه المخاطر. يمكنها وتشارلي العودة إلى أليسيا هول، والعيش برفاهية مع إديث إذا اختارت ذلك.

«مصير أسوأ من الموت». كزرت كلمات دروموند عندما غادرت البنك وخرجت تحت شمس منتصف النهار الحارقة. إن عيش كذبة هنا بمفردك شيء، والعيش كل يوم تحت سقف امرأة تعتقد أن ابنها الأكبر على قيد الحياة وأنه سيعود يومًا ما، هو شيء آخر تمامًا.

عند عودتها إلى المنزل، شعرت كيتي بأنها على وشك أن يُغمى عليها، فلعلت جسدها وضعفه، وأدركت أنها لا تحتاج إلى إظهار أي شيء سوى القوة إذا أرادت بقاء الشركة على قيد الحياة. جلست إلى مكتبها، وأخرجت الدفاتر التي أحضرتها معها إلى المنزل في حقيبة أندرو الجلدية وعادت تدرسها مجددًا.

«يا إلهي». وضعت كيتي رأسها على المكتب.

- ما هذا الذي بدأته؟

طُرق الباب ودخلت كاميرا تحمل صينية وإبريق الشاي الذي طلبته كيتي.

«شكرًا لك»، قالت وهي تنهض من مكتبها لتأخذها منها.

«سيدتي كيتي، تبدين وكأنك بلا حياة. استريحِي، أنت بحاجة إلى الراحة.

«إنها الحرارة وحسب، وأنا...».

استولى الرعب على كاميرا حين شاهدت سيّدتها المحبوبة وهي تنهار على الأرض.



«سيدتي، متى كانت دورتك الشهرية آخر مرّة؟».

نظرت كيتي إلى عيني الدكتور سوزوكي الداكنتين الذكيّتين. عبست وهي تحاول أن تتذكّر، متسائلة عن سبب رغبته في معرفة ذلك بينما كان واضحًا أنها ما تزال تعاني من الإرهاق، بالإضافة إلى آثار الكوليرا التي أصيبت بها مؤخرًا.

«ربما قبل شهرين. لا أعرف حقًا يا دكتور سوزوكي».

«لم تنزفي منذ ذلك الحين؟».

ارتجفت كيّتي لافتقاره إلى الرقّة. على الرغم من أنها عرفت أنه الطبيب الأفضل، لكن الدكتور بليك لم يتحدّث بمثل هذه المصطلحات الرسمية. فكّرت بسرعة، ثمّ كذبت كيّتي: «كان ذلك في منتصف شهر نيسان. الآن تذكّرت». «حقّاً؟ حسناً، يفاجئني ذلك. أودّ أن أقول إن عمر الجنين يبلغ حوالى أربعة أشهر».

«أنا حامل؟ هل أنت متأكّدة؟».

«متأكّدة».

لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً...

«بصرف النظر عن حملك، وأستطيع أن أعلن أنك حامل، فأنت بصحّة استثنائية. اسمح لي أن أهنيك يا سيدتي، وأتمنى أن يعود زوجك إليك قريباً حتّى تتمكّني من مشاركته النبأ السعيد».

قالت كيّتي بخدر: «شكراً لك».

«لقد تكبّدت خسارة فادحة، ولكن ما أخذه الله يرجعه إليك. الآن، لا أستطيع إلا أن أصف لك أكبر قدر ممكن من الراحة. أنت نحيفة للغاية ومن الواضح أن الطفل كبير الحجم. ابقِي في السرير طوال الشهر التالي وحافظي على الحياة التي تنمو في أحشائك».

راقبت كيّتي المصدومة بصمت الدكتور سوزوكي وهو يجمع أدواته.

«طاب يومك يا سيّدة ميرسر. أنا في خدمتك، إذا احتجبت إليّ». حيّاه بانحناء خفيفة وغادر الغرفة.

«لا، أرجوك...». شهقت كيّتي عندما سالت دمعة صغيرة من عينها. «لديّ الكثير للقيام به».

نظرت إلى السقف فرأت عنكبوتاً كبيرة تدبّ عليه. وتذكّرت كيف هرع دروموند إلى غرفة نومها لنجدتها. كان ذلك منذ سنوات طويلة.

أنا حامل بطفلك... تنفّست ثمّ شكرت السماء لأن خدعته الأخيرة ستسمح

للجميع بالاعتقاد أنه طفل زوجها على الأقل. ومما تتذكره، أن آخر نزيغ لها كان في منتصف شباط...

«يا إلهي». عَضَّت كيتي شفتها، ثم همست قائلة لنفسها: «يا لها من مصيبة». لمست بطنها بيد مترددة.

توسّلت إلى هذه الحياة الجديدة التي كانت بريئة من كلّ خطيئة: «سامحني، لأنك لن تتمكن أبداً من أن تعرف من هو والدك الحقيقي».

مكتبة

t.me/soramnqraa

بروم
كانون الثاني 1929
بعد 17 عامًا

كانت الشمس قد غربت منذ فترة طويلة عندما رفعت كيتي عينيها المتعبتين عن الدفتر الذي أمامها. خلعت نظارة القراءة وأسندت مرفقها إلى مكتبها وفركت أنفها بضجر. نظرت إلى الساعة المعلقة على جدار المكتب، فرأت أنها تجاوزت الثامنة. كان جميع الموظفين قد غادروا المبنى، وكانت تعلم أنها ربّما ينبغي لها أن تحذو حذوهم، لكن إذا كانت أمينة، فمن الطبيعي تمامًا، بالنسبة إليها، أن تجلس هنا حتّى منتصف الليل.

تنهّدت وهي تفكّر في ابنها الحبيب تشارلي. كانت تنوي استقباله عند وصول السفينة، لكنّ مركبًا شرعياً لم يكن متوقّعًا وصل وعلى متنه كمية كبيرة من الأصداغ، فأصبحت مشتتة الذهن وافتقدته.

من ناحية، كانت فخورة للغاية بأن عملها الشاق وخبرتها الذكية في مجال الأعمال لم يؤدّيا إلى استعادة أمبراطورية ميرسر فحسب، بل أيضًا إلى ازدهارها على مدار السبعة عشر عامًا الماضية. وبأن تشارلي سيرث ثمار عملها ومخزونها بعد يومين، أيّ عندما يبلغ الحادية والعشرين من العمر. ومن ناحية أخرى، شعرت بالذنب لأن تفانيها في العمل جعل منه يتيمًا افتراضيًا.

لكن ما خفّف من ذنبها جزئيًا، هو أنه نما وكبر في المنزل برعاية كاميرا ومع كات، بينما كانت، هي تعمل في المكتب. والرابطة الخاصة التي استمرّت في الازدهار بينهما على مر السنين لم تغب عن انتباه كيتي. حتّى عندما غادر إلى مدرسة داخلية في أديلبيد، وهي أمينة أندرو التي حققتها، وكانت الحل الأفضل في مثل هذه الظروف، كانا يقضيان العطلة الصيفية معًا.

ربّما كان من الجيّد أيضًا أنها اختارت إليز فورسايت، وهي شابة جميلة للغاية

تتمتع بتربية جيدة، وصلت حديثًا إلى بروم مع عائلتها، سكرتيرة لتشارلي عندما يتولى إدارة العمل بدوام كامل، لكن هذا الاختيار لم يكن بريئًا. وعلى الرغم من أنها أثبتت نفسها بسبب نواياها المستقبلية في التوفيق بين إليز وابنها، إلا أنه كان من الضروري أن يختار تشارلي لنفسه زوجة مناسبة تحبه وتدعمه عندما يتولى منصب رئيس أمبراطورية ميرسر.

أما بالنسبة إليها، فهي لم تخبر أحدًا عن خططها بعد، لكن كان لديها فكرة واضحة عما ستفعله بمجرد تسليم زمام الأمور إلى ابنها. كانت تشعر بالقلق من عدم انشغالها بالعمل في المستقبل، لأنه كان يستحوذ على ذهنها ويمنعه من الذهاب في اتجاه دروموند، وكل ما حدث قبل سبعة عشر عامًا... والدمار الذي شعرت به بعد فقدانها له مرتين، كاد أن يدمرها.

لم يدخل حياتها أي شخص آخر منذ ذلك الحين، على الرغم من وجود عدد كبير من الخاطبين المستعدين لتجريب حظهم، وطلب الزواج من الشابة الجميلة الثرية، مالكة أنجح شركات صيد اللؤلؤ في بروم. عندما وعدت نفسها بأنها لن تحب مرة أخرى بعد رحيل دروموند، التزمت بوعدها. كان عملها عشيقها؛ ودفتر الحسابات رفيق سريرها.

يا إلهي! لقد أصبحت رجلًا!

قالتها بضحكة مكتومة، ثم أعادت وضع نظارتها وأعادت انتباهها إلى دفتر الحسابات.



غمز لها تشارلي خلصة بينما كانت تقدم له ولوالدته وجبة الفطور: «شكرًا ألكينا». وكالعادة، تجاهلت ألكينا ذلك خشية أن تلاحظ والدته، التي كالعادة كانت مستغرقة في صفحات النورثرن تايمز، ومن غير المرجح أن تلاحظ حتى انهيار السقف على رأسها.

قالت كيتي وهي تتنهد وتتصفح جريدتها: «يا إلهي! لقد اندلعت أحداث

شغب في ميناء أديلاييد. لحسن الحظ أنك غادرت في الوقت المناسب». ثم هزت رأسها.

وضعت الصحيفة جانبًا وتوجّهت إلى تشارلي: «هل سنحت لك الفرصة للاطلاع على قائمة الضيوف لعشاء عيد ميلادك مساء الخميس؟ لقد دعوت شخصيات بروم الراقية كلها. لا أستطيع أن أصدق أنك في غضون أيام قليلة سوف تأخذ مكانك الصحيح بينهم. يا إلهي كيف يمر الوقت بهذه السرعة، أمس كنت طفلًا بين ذراعي». أراد تشارلي أن يردّ قائلًا إن السنوات الإحدى والعشرين الماضية مرّت ببطء لا متناهٍ؛ وأنه انتظر هذه اللحظة طويلًا. قال: «لا، ليس بعد، لكنني متأكد من أنك لم تنسي أحدًا يا أمي».

«بعد ظهر اليوم، سيأتي السيد سوي ببجلات أسيايد صيد اللؤلؤ. لقد طلبتُ دسنة منها، على الرغم من أنه يبدو لي كما لو أنك قد فقدت بعض الوزن منذ المرة الأخيرة التي رأيته فيها. ماذا كنت تأكل في أديلاييد، يا ترى؟ أتمنى أن ترافقني إلى المكتب هذا الصباح. لقد عيّنتُ شابة كفوءة للغاية تدعى فورسايت لتكون سكرتيرتك. إنها موصى بها للغاية، وهي تنتمي إلى واحدة من أفضل العائلات في بروم».

أجاب تشارلي: «نعم يا أمي».

كان قد تكيف مع عاداتها المزعجة المتمثلة في التوفيق بينه وبين أي أنثى تأتي إلى المدينة تحت سن الخامسة والعشرين. وبينما كانت نظراته تتبع جسد ألكينا الرشيق وهي تخرج من الغرفة، قال في نفسه إن والدته تعرف بالتأكيد أن قلبه يميل لامرأة واحدة فقط؟ يا له من ارتياح عندما يصدر قرار إعلانه رئيسًا رسميًا وتنتهي التمثيلية بأكملها.

- إذًا، نلتقي في العربة بعد ثلاثين دقيقة؟

«حاضر يا أمي».

كان يعلم أن سكان بروم يتساءلون إن كانت سعيدة، ويعلقون قائلين إنه بعد مرور ما يقرب من سبعة عشر عامًا على اختفاء زوجها، لا بدّ من أن يكون تقديم

طلب لإبطال الزواج على أساس الهجر ممكنًا. في الواقع، كانت في الأربعينات من العمر. وكان قد طرح معها هذا الموضوع بشكل مبدئي قبل عامين، مشددًا على أنه لا ينبغي لها أن تشعر بالذنب إذا أرادت إنهاء زواجها من والده رسميًا. أنهى كلامه بصوت ضعيف: «أنا حقًا لا أمانع. كل ما أريده هو أن تكوني سعيدة يا أمي».

«إنني أقدر مشاعرك وأشكرك عليها، لكنني أبدًا لن أتزوج ثانية». وعندما رأى النظرة التي رمقته بها وهي تغادر الغرفة، لم يميض في الموضوع إلى أبعد من ذلك.

عندما ذهب والدته إلى مكتبها لجمع دفاتر حساباتها اليومية، ذهب تشارلي للبحث عن ألكينا وصادف كاميرا في المطبخ.

قالت قبل أن يتمكن من السؤال: «لقد خرجت كات يا سيد تشارلي. إنها تقوم بمهامها اليومية. لا داعي للقلق، ستعود لاحقًا. اخرج من هنا».

طردته من المطبخ، فسار تشارلي يائسًا إلى غرفته حيث كان عليه أن يستعد للذهاب إلى المكتب.

مرت أربعة أشهر منذ المرة الأخيرة التي عاد فيها إلى منزله من أديلاييد، وهي أطول فترة انفصل فيها عن ألكينا على الإطلاق. كان متحرِّقًا لاحتضانها بين ذراعيه. وعندما أنهى امتحاناته الجامعية في نهاية تشرين الثاني، كان قد حزم أمتعته بالفعل للعودة إلى بروم. لكن برقية من والدته تخبره فيها أن جدته إديث ماتت في الليلة الماضية، أوقفته عند الباب. وبدلاً من الصعود إلى السفينة، تلقى الأمر بانتظار والدته في أديلاييد لإجراء الترتيبات اللازمة.

دفنا إديث وقضيا عيد الميلاد في أليسيا هول. بعد ذلك، اصطحبت كيتي تشارلي إلى مزارع الكروم على تلال أديلاييد، حيث شجَّعته على التحاور مع المدير هناك، استعدادًا لتولي العمل. ثم سافرا إلى كوبر بيدي حتَّى تريه منجم الأوبال، وأصرت على بقاءه هناك لمدة أسبوعين، لكي يتعرَّف على طريقة العمل بينما عادت هي إلى بروم.

على الأقل، منحته الفترة الطويلة التي قضاها في أدبلايد فرصة رؤية صديقه المفضل، تيد ستريلو، بشكل منتظم. كان يعرف تيد منذ أن كان في الحادية عشرة من العمر عندما كانا ينامان في سريرين متجاورين في مساكن كلية إيمانويل. واصلا دراستهما في جامعة أدبلايد، وبينما كان تشارلي يبذل جهداً كبيراً للحصول على درجة الاقتصاد، درس تيد الأدب الكلاسيكي واللغة الإنجليزية، لكنه كان مصمماً على أن يتخصص في الأنثروبولوجيا ويواصل دراسة تاريخ السكان الأصليين. كان عالم تيد بعيداً عن التجارة وجمع الثروة، ولم يكن في وسع تشارلي إلا أن يحسده على ذلك. كان تشارلي مستعداً لفعل أي شيء يحرره من المسؤوليات التي كانت تنتظره.

نادته كيتي: «هل أنت جاهز للذهاب يا تشارلي؟».

تنهّد قائلاً: «نعم يا أمي، أنا قادم على الفور».



سرف تشارلي يومه وهو يحاول جاهداً أن يكون حاضراً ذهنياً مع خياط كان فخوراً بحصوله للمرة الأولى على شرف صنع بدلات أسياذ صيد اللؤلؤ. ثم ذهب إلى المكتب بجوار المرفأ للقاء سكرتيته الجديدة إليز فورسايت. كانت جميلة بالفعل، ذلك الجمال الإنجليزي الباهت الذي لا طعم له، ولا يضاهاي جمال كات الغريب المظلم. بعد ذلك، التقى نويل دونوفان وباقي كبار الموظفين واستمع إلى نقاشهم حول المنافسين اليابانيين.

قالت والدته ساخرة: «إنهم يسمونها لؤلؤة (مُستنبّطة)، ولكن كيف يمكنهم أن يصدّقوا أن نسخة بدائية تافهة تستطيع أن تحل محل تحفة هي من صنع الطبيعة وحدها؟».

قال محاسب الشركة: «سمعت يا سيّدي أن ميكيموتو يغرق الأسواق بها. لا يمكن تمييز لآلئه الكروية تقريباً عن الطبيعية، وقد افتتح مؤخراً متجرًا آخر في باريس. يطلقون عليها اسم لآلئ بحر الجنوب و...».

ردّت كيتي: «إذا كان الناس يرغبون في شراء منتجات مقلّدة رخيصة الثمن، فليواصلوا ذلك. أنا متأكّدة من أن مثل هذا الشيء لن يكون مقبولاً هنا أبداً. والآن أيها السادة، إذا لم يعد هناك ما نناقشه، فسوف أري ابني مكتبه الجديد».

وقفت وحذا الرجال حذوها. خرجت وتبعها تشارلي إلى الردهة، حيث كانت مكاتب الموظفين الذين راحوا يومئذ برؤوسهم في أثناء مرور كيتي وتشارلي. فتحت والدته باباً في نهاية الممر وقادته إلى الداخل. «والآن يا حبيبي، ما رأيك في هذا؟ لقد جهّزته لك كمفاجأة».

وجد تشارلي مكتباً لماعاً، ومجسماً جميلاً لكرة أرضية قديمة، وخزانة جانبية رائعة مطلية باللون الأسود ومزينة برسوم فراشات ذهبية. «يا إلهي، إنه رائع يا أمي، شكراً لك. أتمنى أن أكون عند حسن ظن الجميع». مشى تشارلي إلى النافذة وحدّق إلى الرصيف، فرأى القطار الصغير الذي قطع المسافة من المدينة وهو يشقّ طريقه بثبات.

«بالطبع ستكون عند حسن الظن. إن تجارة اللؤلؤ تجري في دمك».

جلس تشارلي متثاقلاً على الكرسي الجلدي ذي الظهر العالي وقال: «لا أعرف إذا كنتُ جاهزاً يا أمي. لقد أدّرتِ العمل إدارة رائعة طوال هذه السنوات».

«اسمع يا حبيبي، كلّ ما كنتُ أقوم به من عمل هو السهر على أمبراطورية ميرسر بشكل مؤقت ريثما تتسلّم زمامها بعد أن ورثتها عن والدك وعمك. طوال الأحد وعشرين عامّاً التي شاهدتك فيها وأنت تكبر لتصبح رجلاً، لم تمنحني أبداً سبباً للشكّ في مدى قدراتك. سوف تكون جديراً بخلافة والدك».

«شكراً لك يا أمي». لم يستطع تشارلي إلا أن يلاحظ أن والدته لم تنسب الفضل لنفسها.

تفحّصته بعينيها الزرقاوين الزاهيتين وقالت: «لقد كنتُ أفضل وريث تمنّيته كما تمّنّته جدتك ووالدك. أنا فخورة جداً بك يا تشارلي. لكنني أوصيك بشيء واحد...». انتقلت نظرة أمه بعيداً إلى النافذة والبحر من خلفها.

«نعم يا أمي».

«حذارٍ من الحب، لا تدع الحب يعميك. إنه سقوطنا جميعًا».

رسمت على وجهها ابتسامة قسرية ووقفت وقالت: «كان الطاقم مجهز عربات النقل خلال موسم الراحة. انزل معي إلى الأرصفة وتفقد عملهم».

«بالطبع يا أمي».

عندما وقف وتبعها خارج المكتب، شعر تشارلي بالغثيان وهو يفكر في كلماتها.



في تمام الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة، بعد أن رأى الضوء ينطفئ في غرفة نوم والدته، غادر تشارلي المنزل خلسة، مثل القطة التي كان سيقابلها، وعبر الشرفة إلى الحديقة. كان العشب طرياً تحت قدميه، بفضل عناية فريد المستمرة، وتفاؤل والدته العنيد بأنها ستمكن يوماً ما من إيجاد حديقة لا تستسلم لسيول الطين الأحمر إبان موسم الأمطار. مع ذلك، فقد تخلّت عن مشاتل الورود، وأصبحت تزرعها في أصص كبيرة حول الشرفة. وفي اللحظة التي تهدّد فيها العاصفة، تُنقل إلى غرفة خاصّة وفُرت منطقة مناسبة للقاء الشابين. كان فريد يقفلها باجتهاد كلّ ليلة، لكنّ كات تمكّنت من «استعارة» المفتاح، وأخذته تشارلي إلى صانع الأقفال وعمل نسخة منه.

في وقت سابق من النهار، كان تشارلي قد قلب الصخرة التي تقع عند المدخل من الجانب الأحمر إلى الجانب الأخضر، وهي العلامة التي كان يستخدمها كلاهما للإشارة إلى أنهما سيلتقيان في المساء عندما يكون الجميع في السرير. كانا قد شهدا عواصف كثيرة داخل تلك الغرفة، وشكّلت الورود تعريشة معطرة شهدت إعلان حبهما للمرة الأولى. واللييلة، كان لديه شيء خاص جداً ليقدمه لها.

كان قد اكتشف ذلك في شقّة تيد عندما كانا يحتسيان البيرة للاحتفال بالعام الجديد. كان تيد هاوياً مهووساً في جمع المشغولات الفنية، وكانت غرفه مليئة بجميع أنواع الحجارة والأصداف والمصنوعات اليدوية القبلية التي جمعها في أثناء

رحلاته. كانت القطعة حجر عنبر صغيراً لامعاً، وبداخله نملة صغيرة عالقة منذ آلاف السنين. وكان تيد قد أهداه لتشارلي عندما أبدى إعجابه الشديد به. في اليوم التالي أخذه إلى صائغ في شارع الملك ويليام ليصنعه على شكل خاتم خطوبة لكات. كان لون الحجر مطابقاً للون عينيها تماماً.

ابتسم تشارلي وهو يتذكر عندما طلب من كات الزواج منه للمرة الأولى. حدث ذلك عشية مغادرته إلى المدرسة الداخلية في أديلاييد. كان في الحادية عشرة من عمره وقد احتضنته وواسته وهو يبكي على كتفها الصغيرة الناعمة، ضائعا وخائفاً من مشاعر الفقد.

«ذات يوم، لن أضطر إلى فعل ما تقوله أمي، وسوف أعود ونتزوج. ماذا سأفعل من دونك؟ انتظريني، أليس كذلك يا قطتي؟».

«سأنتظرك يا تشارلي. سأنتظر».

وانتظرت عشر سنوات طوال كما انتظرها هو. كان يكتب لها من المدرسة الداخلية كل يوم أحد، ساكباً قلبه على الورق، بينما كان الأولاد الآخرون من حوله يكتبون على عجل بضع كلمات إلى ذويهم. كانت الكتابة لها تريحه، وكانت ترد برسائل قصيرة تعج بالأخطاء، لكنها، وفي كل مرة، كانت ترفقها برسم جميل لزهرة رأتها، أو بالقمر وهو يشع فوق البحر، وتجمع الصفحات بعضها مع بعض بشرائط مزينة بالقلوب. عندما لم تكن تستطيع التعبير عن حبها له بالكلمات، كانت ترسمه. والليلة سيطلب منها الزواج به رسمياً.

نظر تشارلي إلى السماء عندما سمع صوت رعد خافت. كانت الحرارة خانقة، والمطر على وشك الهطول. عندما أمسك المقبض ليفتح باب غرفة الورود، متوقعاً أن يجده مفتوحاً، سيطر الخوف على قلبه عندما لم يفتح. كانت كات تسبقه إليها دائماً، لأنها كانت تحمل المفتاح. حاول مرة أخرى، لكن الباب لم يتزحزح. فتش في الظلام وأصغى عله يسمع وقع خطواتها الخفيفة عبر الحديقة. ربما كان ذلك من صنع خياله، لكنها عندما نظرت إليه أثناء تناول الفطور ذلك الصباح، كان الدفء المعتاد مفقوداً من عينيها العنبريتين. لطالما كان يخشى أن تملّ من انتظاره وتجد

شخصاً آخر. لكن الآن، كانت تفصله ساعات قليلة عن إعلان نواياه للعالم، وكان كلاهما حرّاً في أن يحب الآخر في وضع النهار...

عاد عقله إلى كات وإلى تلك الليلة عندما كان معها في غرفة الورود، منذ ما يزيد قليلاً على أربعة أشهر. لقد نشأ معاً، ولم يكن على أيّ منهما حرج حيال جسد الآخر عندما كبرا. ضحك تشارلي وهو يتذكّرها، وهي في السادسة من عمرها، تجلس في كوخ اللعب عارية تماماً وتقدّم له الشاي في كوب صيني صغير. كان يعرف جسدها عن ظهر قلب منذ أن كانت طفلة صغيرة، ولم يكن في وسعه إلا أن يتعجّب كيف تحوّلت إلى شابة رائعة الجمال.

في عيد ميلاده السادس كانت قبلتهما الأولى، أروع لحظة في حياته، لكنها كانت مُحِبّة في الوقت نفسه، إذ لم يكن يريد تقبيلها على شفيتها فحسب، بل على جسدها بأكمله. مع ذلك، كانا يعرفان إلى أين يمكن أن يؤدّي هذا النشاط المحموم، حتّى أنها صفعته ذات مرة عندما كانت يده ترحف في اتجاه صدرها. قالت باكية: «لا أستطيع، لا تجبرني على ذلك».

بعد تأديبه، بذل تشارلي قصارى جهده للسيطرة على دوافعه الجسدية الطبيعية، مذكّراً نفسه باستمرار أنه عندما يتزوّج بها سيصبح جسدها ملكاً له شرعاً. ثم... في تلك الليلة من أيلول، قبل أن يعود إلى أديلايد لقضاء أسابيعه القليلة الأخيرة في الجامعة، سرق زجاجة شمپانيا من خزانة المشروبات وفتحها معها في غرفة الورود. نظرت إليه بريية بعد أن سكب كأسين. «تقول والدتي إن هذه الأشياء ليست جيّدة لنا».

حنّها تشارلي قائلاً: «جربني كأساً، وسوف تحبين الطريقة التي تدغدغ بها الفقاعات لسانك. أقسم أنها لن تضرّك».

تناولت رشفة لإرضائه، وأغمضت عينيها لتتذوّق الطعم الجديد. قالت أخيراً وقد فتحت عينيها وابتسمت له: «أحبّ ذلك!».

شربت تلك الكأس، وسكب لها أخرى، وشرب الباقي وحده. استلقيا هناك على البطانية الخشنة، يتحدثان عن المستقبل.

كانت هي التي استدارت لتقبله، هي التي تدرجت فوقه وقادت يده لتفكّ أزرار قميصها. بعد ذلك، كانت سعادة الشعور بجلد كات العاري على جلده قد منعتة من أيّ تفكير عقلائي، وأحبّها وأحبّته. مارسا الحب ونامت كات بعد ذلك مباشرة، لكن تشارلي ظلّ مستيقظًا، مفتونًا بكل سنتمتر من جسدها وهي تستلقي عارية بجانبه. عزّى نفسه بفكرة أنهما سيكونان زوجًا وزوجة بعد بضعة أشهر، وحتى لو كان الحدث سابقًا لأوانه، فقد كان متأكدًا من أن آلهتهما المختلفة ستغفر لهما. في النهاية، كانا راشدين، وكان فعل الحب طبيعيًا تمامًا...

مرّت عشرون دقيقة أخرى وهو ينتظر في الخارج وما من علامة واحدة على وجود كات. عاد إلى المنزل ودخل إلى المطبخ ليرى إن كانت قد تأخّرت هناك، لكن المنزل كلّهُ كان مظلمًا، فقصّد الكوخ الذي تتقاسمه كات مع والدتها. في طريقه رأى فريد نائمًا على فراشه في الإسطبل وشعر بقطرة مطر على يده. ينام فريد دائمًا في الخارج إلا إذا رأى علامة على هبوب العاصفة، عندها يعود إلى الداخل. عند وصوله إلى باب الكوخ، أصاخ السمع لكنه لم يسمع أيّ صوت مقبل من الداخل. أمسك بالمقبض وأداره بهدوء قدر استطاعته، وفي الداخل، رأى ضوء القمر يتدفّق عبر النافذة المغلقة، ولا ينير سوى كاميرا النائمة في السرير المزدوج.

أغلق الباب، وغمرته موجة من الذعر. أين هي؟ وبعد أن فتّش في كلّ مكان، عاد إلى غرفة الورود، وحاول فتح الباب، لكنه كان ما يزال مغلقًا. تساءل عن سبب عدم وجودها وهما بهذا القرب مما كانا يحلمان به منذ سنوات.

قال في نفسه: ربما التقت شخصًا آخر... غواصًا ما، نزل من مركب شراعي. شعر تشارلي بانقباض في معدته، ثمّ تساءل عما إذا كان ينبغي له أن يأخذ المهر والعربة ويذهب إلى المدينة للبحث عنها. ربما كانت والدتها قد أرسلتها في مهمّة في وقت متأخّر من الليل، وأثناء قيامها بعملها، تعرّضت للاعتداء أو حتى للاغتصاب...

أصبح الهواء ساكنًا مع الصمت الذي يسبق عاصفة حبلى قبل أن يتفجر ماؤها.

ثم سمع صوتًا مفاجئًا من داخل غرفة الورد. سعالًا بسيطًا أو نسيجًا... لم يكن متأكدًا من ذلك، لكنه كان كافيًا لتحفيزه.

دوى الرعد فوقه وهو يدق الباب بقبضته. «كات، أعلم أنك هنا. دعيني أدخل!».

دوى الرعد مجددًا في السماء، ودق الباب ثانية. «سأحطمه إن لم تفتحي!».

أخيرًا، فتحت كاتي ودخل تشارلي ليجدها تحدق إليه والخوف يبرز من عينيها الجميلتين.

قال تشارلي لاهثًا: «بحق الله! هل كنت هنا طوال الوقت؟ ألم تسمعيني أحاول فتح الباب؟». خففت عينيها.

أغلق تشارلي الباب خلفه، وأقفله، ثم توجه نحوها ليأخذها بين ذراعيه. لم تستسلم له، وبدأت أشبه بلوح من الخشب.

«ما بك يا حبيبتي؟ ماذا حدث؟».

ابتعدت عنه ثم استدارت وجلست على البطانية. قالت شيئًا، لكنه لم يسمع لأن الرعد كان فوقهما مباشرة، وحجب صوتها الواهن.

«عفوًا، ماذا قلت؟».

«قلت إنني حامل. سأنجب طفلًا».

رأى تشارلي كات تضع قبضتها على فمها لتكبح صراخها. كانت ترتجف من رأسها حتى قدميها. دوى الرعد ثانية وبدأ المطر يهطل على سقف الصفيح فوقهما.

«أنا...». تقدّم منها ليضمّها، لكنها تراجعت مذعورة. «كات، قطتي الحبيبة... لا تخافي مني. لستُ عدوكِ، حقًا، أنا...».

«إذا علمت والدتي بذلك، ستضربني وترميني في الشارع! لقد وعدتها، لقد وعدتها...».

«حبيبتي». تقدّم بضع خطوات مترددة نحوها: «أستطيع أن أفهم سبب غضبك، ونعم، إنه أمر سابق لأوانه بعض الشيء، ولكن...».

«لقد وعدتها، لقد وعدتها بعدم القيام بما فعلته هي». بكت كات وهي تتراجع بعيداً عن تشارلي: «لا تثقي بهم. أولئك البيض، لا تثقي بهم، لا تثقي بهم...».

رآها تشارلي ترفع ركبتها أمامها بشكل وقائي. قال وهو يخطو خطوة أخرى نحوها: «والدتكِ على حق. لكنني لست مجرد رجل أبيض، أنا تشارلي حبيبك، وأنت قطتي. فكّري في الأوقات التي تخيلنا فيها أننا سنزوّج ونكوّن عائلة».

«نعم، لكننا كنّا أطفالاً يا تشارلي. كان لعباً. لا الحياة الحقيقية. والآن، هذا الجنين حقيقي. أريد التخلص منه، وإغراقه ما إن يولد. عندها أتخلص من المتاعب».

شعر تشارلي بالرعب من كلماتها، واستمرّ الرعد في الدويّ مباشرة فوق رأسيهما كما لو أن السماء بكل جبروتها كانت تعبّر عن غضبها.

تقدم منها بضع خطوات وجثا على ركبتيه أمامها: «كات، أرجوك. لديّ شيء لك». أخرج من جيبه الخاتم العنبري: «كل شيء على ما يرام يا حبي. اسمعيني».

أخذ يدها الصغيرة في يده: «قطتي الحبيبة. هل تنزوّجينني؟». وضع الخاتم في إصبعها، ثم شاهد عينيها تتوجّهان إلى الخاتم وتتأملانه بصمت. «إنه مصنوع من العنبر، وفي داخله حشرة صغيرة. سوف يتناسب مع لون عينيك. هل يعجبك؟».

«أنا...». عضّت كات شفتها: «إنها هدية جميلة يا تشارلي».

«أترين؟ سيكون كل شيء على ما يرام. سوف ننزوّج في أقرب وقت ممكن يا حبيبتي».

نظرت إليه: «لا. لا أستطيع أن أتزوّجك يا تشارلي. أنا خادمتك».

- أنتِ تعلمين أنني لا أبالي بذلك! أحبك. لقد أردت أن أتزوّجك مذ كنت طفلاً صغيراً.

رفعت كات عينيها إلى السماء. وعندما عادت نظرتها إليه، كانت مليئة بالحزن.

«تشارلي، غداً ستصبح أهم رجل أبيض في بروم. أنت ترث شركة ميرسر لصيد اللؤلؤ وستصبح الرئيس الكبير. أنت تعرف أشياء كثيرة لا أعرفها، لأنك حصلت على تعليم جيد. أنت تنتمي إلى عالم البيض، أما أنا فلا».

«سأعلمك يا كات، كما علمتك في الماضي».

«لا! لن يجلس أحد إلى مائدتك ليتناول العشاء وأنا زوجتك. سيسخرون منك. أنت بحاجة إلى امرأة بيضاء، وليس أنا. لا أستطيع أن أجعلك فخورًا، ولا أن أكون شيئًا آخر غير نفسي. لا أريد أن يضحك مني البيض عندما أدير ظهري ويقولون إنني غبية. أنا شخص طيب، لكنني مختلفة».

«أعرف ولكن...». بحث تشارلي عن الكلمات وهو يشير إلى بطنها: «هنا في الداخل. ثمة شيء صنعه كلُّ منا، بحبنا. يجب أن يكون أولويتنا؟ إذا تزوجنا سريعًا، فلن يعرف أحد، لأن الطفل سيأتي مبكرًا، و...».

«أنت تحلم ثانية. سيعرف الجميع سبب زواجك بي. لقد مرت أربعة أشهر. سحبت ألكينا يدها وأسندت رأسها إلى ركبتيها: «لن يصدقوا حبنا أبدًا».

قال تشارلي بصوت قوي واضح أقوى من صوت الرعد: «أنا أصدق. أصدق أنك أنتِ التي سمحت لي بالصمود طوال السنوات العشر الماضية. لم تكن تمر بضع دقائق -حتى خلال امتحاناتي النهائية- من دون أن أفكر فيك. لا... أكرر، لا تضعيني في فئة الرجال البيض نفسها. أنا أحبك بكلِّ جوارحي. لقد وُعدنا لنكون معًا. لن تكون حياتي شيئًا من دونك أنتِ، وطفلنا القادم». جذبها إليه وقبلها بعنف وشغف، لكنها ابتعدت.

«حبيبي! لا! توقّف عن ذلك! توقّف أرجوك! مع كلِّ هذا العلم الذي تلقّيته، ألا تفهم؟ لا أستطيع أن أكون زوجتك. لا مستقبل لنا معًا».

«أفهم يا حبيبتي. نعم، أنتِ على حق، قد يكون الأمر صعبًا، وقد يصدم الجميع، لكننا مدينان للأجيال القادمة من الرجال والنساء في هذا البلد باتخاذ موقف. نستطيع تحطيم التقاليد، وأنا في وضع مثالي للقيام بذلك. في خلال أربع وعشرين ساعة سأرث ثروة ضخمة. المال يساعد في هذه المدينة».

ضمّهما ثانية والتصق جسده بجسدها المشدود: «يا حبيبتي. نحن الآن عائلة، ألا ترين ذلك؟ هذا هو قدرنا، مُدُّ كُنَّا طفلين...»

«لا! أنا وأنت، و... هذا» - ربّت بطنها - لسنا تجربة. نحن بشر وهذه هي

حياتنا يا تشارلي. لقد عشنا جنبًا إلى جنب، قريين جدًا، دائمًا، لكن الحقيقة هي أننا متباعدان. أنت تسير في عالم البيض، لكن بعصبة فوق عينيك. أنت لا ترى كيف يراني الآخرون، وكيف يعاملونني بسبب لون بشرتي. أنت لا ترى كم هو مسدود هذا العالم في وجهي، لأنك حرّ، وأنا لا. لن يكون طفلنا حرًّا».

«كأت، سنكون زوجًا وزوجة، والقانون يسمح بذلك! وسأفعل كل ما في وسعي لأحميك أنت وطفلنا، تمامًا كما فعلت والدتي من أجل كاميرا، من أجلك. عصر تشارلي يديه وهو يحاول أن يفهمها: «لست شيئًا من دونك».

ساد الصمت بينما كانا يستمعان لصوت المطر وهو يتساقط على السطح. نذت عن كات تنهيدة طويلة: «تشارلي، أنت لا تعيش في بروم منذ وقت طويل. أنت لا تفهم طبيعة الأشياء هنا».

«لا تهمني طبيعة الأشياء هنا! سنعمد الطفل أمام المدينة بأكملها! لقد ناقشت الأمر مع تيد، الصديق الذي أخبرتك عنه، والذي يدير والده إرسالية هيرمانسبورغ بالقرب من أليس سبرينغز. لقد علّمني الكثير، حتى أنه يتحدث لغة أيرلندي، وأخبرني أن السكان الأصليين في الإرسالية أحرار في المجيء والذهاب كما يحلو لهم. البيض يحترمون ثقافتكم، و...».

«هل أخبرته عني؟».

«بالطبع».

«هل يقبل بالزواج من خلاسية مثلي؟».

«يا إلهي، لا أعرف، لم أسأله...».

«هاه! يقول لك الآخرون أشياء، لكنهم لا يفعلونها».

«لا! ليس صحيحًا. تيد ستريلو رجل طيب، رجل يريد إحداث تغيير في أستراليا».

«سيكون في عداد الأموات قبل أن يحدث ذلك».

نزعت كات الخاتم وأعادته إليه: «لا أستطيع أن أحتفظ به. خذه من فضلك يا تشارلي».

وضعته في راحة يده وضغطت. وكان على وشك أن يناديها أن تحتفظ به عندما سمع طرقًا قويًا على الباب. جفل كلاهما.

«هل هناك أحد في الداخل؟ يا إلهي، إنني مبلّلة تمامًا، وكذلك ورودي! لماذا لا يدخل مفتاحي في القفل؟».

همس تشارلي لكات: «اختبئي». نهضت كات، أطفأت الشموع ورفعت البطانية عن الأرض.

صاح تشارلي بمرح عبر الباب: «آسف يا أمي، هذا أنا، سمعت العاصفة وبدأت في إدخال الورود».

ولكي يتأكد من أن كات كانت مختبئة جيدًا في الظل، أدار المفتاح في الباب بقدر ما استطاع من تودة وألقى به في يد كات، ثم راح يدور المقبض مرات عدة. قال بصوت عالٍ: «للأسف، هذا القفل صدي، ويجب أن يقوم فريد بتزييته».

عاد إلى الفتاة القابعة في الظل، وقال: «أحبك». ثم، وبحركة مبالغ فيها، فتح الباب.

«أماه! أنتِ مبلّلة تمامًا!».

«هذا أقل ما يمكن قوله، لكن ملابسني ستجف بسرعة، لا تقلق». دخلت كيتي وهي تجر حوضًا من الورود خلفها.

«لم يسبق أن وجدت صعوبة في فتح هذا القفل. كأنك أغلقته من الداخل».

«لماذا أغلقه؟ حسنًا، سأحاول إنقاذ باقي الأحواض من موت وشيك». ضحك تشارلي وخرج تحت المطر المتساقط بغزارة.

بعد بضع دقائق كان قد أدخل آخر الورود إلى ملاذها الآمن. تنهدت كيتي قائلة: «شكرًا لك. لطالما كنت فخورة بمعرفة متى ستأتي العاصفة، لكنني الليلة، كنت متعبة جدًا».

«هذا طبيعي. أنت تجهدين نفسك في العمل».

أجابت كيتي: «وسوف أشعر بالارتياح حقًا عندما تستلم هذا العبء. بالمناسبة،

لقد دعوتُ إليز فورسايت لحضور حفلة عيد ميلادك. إنها شابة لطيفة. لقد أخبرتني اليوم بعد مغادرتك أن جدها ينحدر من إسكتلندا».

«يا لها من مصادفة. والآن يا أمي، ألا نذهب إلى المنزل لنجفف أنفسنا؟».

«نعم. شكرا لك يا حبيبي. أعلم أنني أستطيع الاعتماد عليك دائماً».

«دائماً يا أمي». غادرا وأقفلت كيتي الباب بالمفتاح.

ما إن خفّ وقع الخطى، حتّى اقتربت كات من الباب على رؤوس أصابعها وفتحته بالمفتاح الذي ألقاه لها تشارلي، ثم خرجت في الليل.

هدأت العاصفة، على الأقل لفترة من الوقت. استندت كات إلى جدار غرفة الورود ونظرت إلى السماء، ويدها مثبتتان بشكل وقائي حول بطنها. «هيرمانسبورغ»، قالت في نفسها متنفساً الصعداء بينما سقطت دمعة على خدّها. «ملاذنا الآمن».

برفق القطة التي تحمل اسمها، انزلقت ألكينا داخل السرير بجوار والدتها محاولة حبس أنفاسها.

ساعدوني... أتوسّل إليكم، أيها الأسلاف، ساعدوني.

في تلك الليلة، حلمت أن الغومانيا (الشقيقات السبع) قد نزلن إلى كهفهنّ. رأتهنّ يعبرن الغابة، وظهر الرجل العجوز. هربن إلى كهفهنّ، لكن الصغرى بقيت وراءهنّ. وفجأة، راح الرجل العجوز يلاحقها، لكنها جرت عائدة إلى الكهف، وعندما وصلت، كانت تعرف أن عليها أن تعثر على شيء مدفون عميقاً تحت التربة الحمراء. كانت شقيقاتها ينادينها ويطلبن منها أن تسرع، لأن الرجل العجوز كان على وشك الوصول إليها، والاستئثار بها لنفسه. مع ذلك، وعلى الرغم من أنها سمعت وقع قدميه على الأرض، لكنها استمرت في الحفر لأنها لم تكن تستطيع مغادرة الأرض من دونه...

استيقظت ألكينا من حلمها في اللحظة التي كانت تمسك فيها علبة معدنية وتهتمّ باستخراجها من الأرض. فتحت عينيها وعادت إليها ذكرى والدتها وهي تقودها إلى الأدغال عندما كانت في الرابعة عشرة من العمر لتعلمها طقوس أسلافهم. في

الطريق إلى الكوربوري، قالت والدتها إن عليها أن تتوقّف وتتحقّق من شيء ما. عندما وصلنا إلى كهف مماثل تمامًا لذاك الذي رأيته في حلمها، انحنى والدتها وراحت تحفر في الأرض قبل أن تنبش علبة معدنية.

قالت لابنتها: «تراجعي إلى الوراء».

جلست متربعةً وفتحتها. بدافع الفضول، فعلت ألكينا ما قيل لها، لكنها رأت والدتها وهي تفتح الكيس الجلدي الصغير الموجود داخل العلبة وتخرج منه شيئاً. في تلك اللحظة، قبضت الشمس على ذلك الشيء وقصفت به بوابل من أشعتها، فراح يشعشع ببريق وردي لم تر ألكينا مثيلاً له من قبل. أشرق مثل القمر نفسه، وانبهرت بجماله.

أعادت الشيء إلى العلبة ودفنتها في الأرض. ثم نهضت وراحت تتمتم ببعض الكلمات، قبل أن تعود إلى ابنتها.

سألت ألكينا كاميرا: «ماما، ما هذا؟».

«لست بحاجة إلى معرفة ذلك. إنها آمنة حيث هي، وكذلك السيدة كيتي. والآن، هيا بنا».

عندما رأت ألكينا ضوء الفجر يخترق مصاريع الكوخ الخشبية، عرفت ما كان عليها القيام به.

لم ينم تشارلي أيضًا، تلك الليلة. كان يتقلب في فراشه، محاولاً التفكير في ما هو أفضل ما يمكنه القيام به، ويوتخ نفسه لأنه تسبب في كل ذلك. في الواقع، كان هو الذي حثّ كات على شرب الشمپانيا.

كان يفهم خوفها، ولم يكن هناك شك في أن الأمر سيكون صعباً عليهما في البداية. مع ذلك، كانت المدينة قد شهدت في الآونة الأخيرة زيجات مختلطة الأعراق، فلماذا لا يكون زواجهما مقبولاً أيضاً.

لم يكن هناك سوى خيار واحد آخر، وقد فكر فيه تشارلي العام الماضي بينما كان يعمل بجدّ على تحضير مستقبله كواحد من أسياد صيد اللؤلؤ. لم يسأله أحد ولم يأخذ أحد رأيه، إن كان ذلك هو المستقبل الذي يتمناه لنفسه. على غرار أمير ولي العهد، كان من المسلّم به أنه سيجلس على العرش عندما يحين الوقت، بغضّ النظر عما إذا كان مناسباً للمهمّة. كان تشارلي يعرف أنه لا يريد ذلك، وكان يكره كلّ ثانية صرفها وهو يدرس الاقتصاد في الجامعة. حتّى أساتذته قالوا إنه لا يملك القدرة على التعامل مع الأرقام، لكنه عندما طرح الأمر مع والدته، لم تكثر ث حججه وبدّدتها بطريقة عين.

«تشارلي، يا حبيبي. أنتَ لستَ هنا لتجمع أو تطرح، فلديك كثير من الكتب للقيام بذلك نيابةً عنك. أنتَ هنا لتقود، وتلهم، وتتخذ القرارات بشأن توجّهات الشركة المستقبلية».

كان عزاءً باردًا، لأنه لم يكن ملماً بكل جوانب أمبراطورية ميرسر التجارية، سواء كان اللؤلؤ، أو الأوپال، أو الماشية. بدا أنها جميعاً تنطوي على الحرمان، وأحياناً الموت، لبعض العاملين فيها، في حين أن «الرؤساء»، كما كانت كات تسميهم، كانوا يكذّسون الثروات من كدح موظفيهم وشقائهم.

لذا...إذا كانت كات ترفض الزواج منه في بروم، فإن تشارلي كان مستعداً للتخلي عن كل شيء والذهاب معها أينما تشاء.

كانت والدته تجلس إلى الطاولة وتقرأ جريدتها المعتادة، عندما دخل لتناول الفطور.

«صباح الخير يا تشارلي. هل نمت جيداً؟».

«نعم، شكرًا لك يا أُمي. وأنتِ؟».

«أصبحت أفضل بعد أن عرفت أن ورودي الثمينة في مأمن من الأمطار. شكرًا لمبادرتك في إنقاذها».

«قهوة يا سيّد تشارلي؟».

«شكرًا لك». نظر إلى أعلى، ليمنح كات ابتسامة، لكنه بدلًا من ذلك، وجد عيني كاميرا تحدّقان إليه. أحسّ بضيق مفاجئ يقبض على صدره. كانت كات هي التي تقدم وجبة الفطور دائمًا.

«هل كات بخير؟».

أجابت كاميرا بنبرة هادئة: «إنها بخير يا سيّد تشارلي. ذهبت لزيارة ابنة عمها».

«أرى ذلك. متى ستعود؟».

«عندما تلد ابنة عمها. بعد أسبوع واحد، أو أسبوعين».

كانت نظرة كاميرا الغامضة تخترقه كسهم، فراح يتصبّب عرقًا باردًا على الرغم من أن حرارة النهار كانت شديدة. هل كانت تحاول أن تمرّر له رسالة سرّية؟ هل أخبرتها كات بحالتها؟

«حسنًا»، تمكّن من قول ذلك، محاولاً أن يضبط نفسه ويحافظ على سيطرته أمام والدته ووالدة كات، في حين كان كلّ ما يريد فعله هو النهوض من فوره والذهاب بحثًا عنها.

خلعت كيتي نظارتها وتوجّهت إلى كاميرا: «هل قلتِ إن كات ذهبت؟».

«نعم يا سيّدة كيتي. سأتولّى المَهْمَة في غيابها».

استبدلت كاميرا إبريق القهوة وغادرت الغرفة.

تنهّدت كيتي: «إنها طريقة ملطّفة للقول إنها ذهبت لتجول. على أيّ حال، المهم هو أنت يا تشارلي. في منتصف الليل، ستبلغ الحادية والعشرين من عمرك وستصبح المالك الشرعي لجميع مصالح شركة ميرسر التجارية. ما هو شعورك؟»
«أنا خائف قليلاً يا أمي».

«لا شيء يدعو إلى ذلك، على الرغم من أنني لا أستطيع أن أقول إنك تتولى المسؤولية في لحظة مثالية، لأن طلبات الصدف قد انخفضت مؤخراً...»
لم يكن تشارلي يسمع ما تقوله، بل يكتفي بإيماءة من رأسه، ويبتسم كلّما توقّفت عن الكلام لمعرفة ردّ فعله.
كات، أين أنت؟

في النهاية، توقّفت والدته عن الكلام ونهضت، وقد أراحه ذلك.
«لذا، أقترح عليك أن تستمتع بيومك الأخير من الحرية قبل أن تتحمّل مسؤولياتك. غداً سيكون يوماً حافلاً؛ هناك الغداء في المكتب للترحيب بك، ثمّ بالطبع العشاء والحفل الراقص في فندق Roebuck Bay. والآن، دعنا نصلّ لكي تمرّ العاصفة، وإلا سيصل نصف أكابر بروم مبليّ الثياب وملطّخينها بالطين الأحمر. ضحكت: «أراك الليلة».

«نعم يا أمي». أوماً تشارلي برأسه بلطف عندما غادرت الغرفة.
انتظر حتّى رأى فريد يسحب العربة من الطريق قبل أن يذهب بحثاً عن كاميرا. وجدها في المطبخ، تنتف بطة وتقطّعها. في العادة، كانت كات هي الطاهية، فقد علّمتها والدته تحضير الأطباق البريطانية.
من دون أن يهتم إذا كانت تعلم بأمر الطفل أم لا، سألتها: «أين ذهبت؟»
ارتعشت كتفا كاميرا: «ذهبت لمساعدة ابنة عمها».
«هل تصدقين ذلك؟».

«إنها ابنتي. وهي لا تكذب».

تهاوى تشارلي على أحد الكراسي الخشبية وأوشك أن يجهش في البكاء. «إنها صديقتي المفضلة. أنت تعرفين ذلك. لقد نشأنا معًا و... لماذا تغادر عشية عيد ميلادي الحادي والعشرين؟».

استدارت كاميرا ورمقته بنظرة ثاقبة لا تتزعزع: «أعتقد أنك تعرف السبب يا سيّد تشارلي، وأنا أيضًا. ربما كان من الأفضل ألا نتحدّث عن ذلك. موافق؟».

خبط بقبضته على الطاولة: «لا. أنا...».

هزّ رأسه مدرّكًا القاعدة الذهبية المتمثلة في عدم إفشاء أيّ معلومات للخدم، ناهيك بالمشاعر. لكن ذلك كلّهُ لم يعد مهمًّا. «أنا أحبّها؛ إنها كلّ شيء بالنسبة إليّ. لقد طلبت منها أن تتزوّج بي الليلة الماضية! كنت أريد أن أعلن غدًا، أمام العالم كلّهُ، أنها ستصبح زوجتي! لماذا ذهبت؟ لا أفهم!».

حين بكى أحاطت به ذراعان رقيقتان لم تكونا ذراعي أمه، بل ذراعاها البديلتان، اللتان كانتا من عالم آخر.

«يا إلهي يا كاميرا... أنت لا تعرفين كم أحبّها، وكم أحتاج إليها. لماذا ذهبت؟».

«تعتقد أنه الحل الأفضل لك يا سيّد تشارلي. لا تريد أن تعيقك. يجب أن تكون جزءًا من عالم البيض».

«لقد تحدّثنا في ذلك مُذُ كنّا طفلين! قلت لها الليلة الماضية إننا سننزوج ونعيش معًا!».

خبط تشارلي على الطاولة ثانية. «كلّ الرسائل التي كتبتها لها على مدى السنوات العشر الماضية، أخبرتها فيها كم أفتقدها، وكم أحبّها... كنتُ صادقًا. سوف أتخلّى عن كلّ ما أملك عن طيب خاطر. هذا لا يعني شيئًا بالنسبة إليّ، لا يهمّني أن أصبح ثريًّا، كلّ ما أريده هو أن أعيش معها وأحبّها أمام الله».

رقّ وجه كاميرا. «أنتم البيض رؤساء. ربما تريد أن تكون رئيسة نفسها. ولا تريد أن تعيش في عالمكم».

«كاميرا، أين هي؟ أين ذهبت؟ بحق الله، أخبريني!».

- لا أعرف، أقسم لك يا سيد تشارلي. أخبرتني أنها سترحل، وأنا أفهم. أرى وأفهم. هذا كل ما أعرفه.

«كانت آمنة معي. كنت أستطيع حمايتها».

«إنها خائفة. تمهلّت لتفكر».

«إلى متى؟ ماذا لو لم تعد قبل شهرين؟ لن يكون في وسعنا أن نخدع أحدًا! الآن أو أبدًا. قل لي أين ذهبت! يجب أن تقولي!».

مشّت كاميرا حتّى باب المطبخ الخلفي. فتحته ثمّ وقفت في الخارج لبرهة من الوقت، تميلّ رأسها وترفعه إلى السماء وكأنها تطلب الإرشاد. وعندما عادت، هزّت برأسها. «سيد تشارلي، حتّى الأسلاف لم يخبروني أين ذهبت ابنتي. صدّقني».

«هل أعطيتكِ رسالة لي؟».

«نعم، لقد طلبت مني أن أعطيك شيئًا ما، ولكن غدًا».

«إذا كانت تحتوي على أيّ دليل عن وجهتها، فيجب أن تحضرها الآن».

«لن أفعل إلا ما قالت كات. غدًا».

كان تشارلي يعرف أن الجدل لا يفيد. «سأتي إلى كوخك في منتصف الليل».

أومأت كاميرا برأسها: «الآن، يجب أن أطهو البطّة».



قبل منتصف الليل بقليل، توجّه تشارلي إلى الكوخ، ومدّ يده ليطرق بابه بلطف، لكن قبل أن يلمس الخشب، فتحت كاميرا الباب.

سلّمته رزمة من الورق البني مربوطة بشريط كان قد رآه ذات مرة في شعر كات. ثمّ ابتسمت له برقة وقالت: «تفضّل. ميلاد سعيد. تهانّي! أنت رجل الآن، ولم تعد فتى صغيرًا. وقد ساعدتك على أن تكبر».

«نعم لقد ساعدتني يا كاميرا، وأنا ممتنّ لك».

حدّق إلى الرزمة التي بين يديه، ثم نظر إليها وقال: «ألسِتِ قلقة على ابنتكِ؟». «أنا أثق بها يا سيّد تشارلي، لقد كبرت أيضًا. ليس لديّ خيار آخر، أرجوك». وضعت يدها على يده، وكانت راحة يدها دافئة: «إنه يومك. وأنت تستحقّه. أرجوك، استمتع. أنا وكات نريدك أن تستمتع». «سأحاول، ولكن عليك أن تعرفي...».

وضعت كاميرا إصبعها على شفثيه: «لا تقل تلك الكلمات. أنا أعرفها جيّدًا». ثم رفعت نفسها على أطراف أصابع قدميها وقبّلت جبينه: «أنت ولدي. أنا أمك أيضًا، وفخورة بك».

أغلقت الباب وعاد تشارلي إلى المنزل. جلس على سريره، ومزّق الورقة البنية، وكل آماله معلّقة على ما سيجده بداخلها؛ أيّ دليل، أو طريق يتبعه، أو شيء يقوده إليها.

بعد أن حلّ الطبقات التي كانت تغلف الهدية الصغيرة، وجد نفسه أمام لوحة صغيرة يحيط بها إطار منحوت بخطوط دقيقة تشكل وروداً. رفعها إلى الضوء، ورأى أنها رسمتهما، هو وهي، جالسين معًا في غرفة الورود، ورأسه الفاتح ينحني على رأسها الداكن. وكانت أيديهما متشابكة بحيث يستحيل تمييز أصابعه من أصابعها. أغمض عينيه، واللوحة ما تزال في يده. وبينما كان الليل يتراجع أمام تقدّم الصباح، بعد مرور إحدى وعشرين سنة على صرخته الأولى، نام.



كان تشارلي ينظر دائمًا إلى الوراء ويحاول أن يتذكّر يوم عيد ميلاده الحادي والعشرين، لكنه مرّ وسط ضبابية من الوجوه والهدايا والشمپانيا، التي قبلها بأريحية كبيرة لعلّه يغرق فيها حزنه. تحرّك وتصرفّ كما كان منتظرًا منه أن يفعل، كما لو كان إنسانًا مكتمل التكوين، على الرغم من أن كلّ جزء من كيانه، روحًا وجسدًا، كان يصرخ طالبًا كات.

بعد العشاء في فندق Roebuck Bay كان الحفل الراقص، وكانت إليز

فورسايت تشاركه الرقص معظم الوقت، وتتعمّد إظهار غمازتيها المثاليتين وهي تضحك على كلّ ما يقوله، حتّى لو لم يكن مضحكاً. أخبرته أنها من «الهون»، وهي كلمة في اللغة الإنجليزية تعني أنها من سلالة أرسقراطية، وكان يرى أنها تمثّلها جيداً. أقّر تشارلي بكونها جميلة في فستانها المسائي ذي اللون الأزرق الداكن، وشعرها الأشقر وبشرتها الشاحبة كالقشدة. وعندما حان وقت إطفاء شموع كعكة عيد ميلاده الفاخرة ذات الطبقات الثلاث، انفجر الجمهور بالتصفيق، وتألّقت كيتي بكلّ فخر.

استمع تشارلي إلى خطابها السخيّ وعيناه مغمضتان من الحرج واليأس. ثمّ دوّت هتافات ثلاثة ورفع الجميع كؤوسهم وشربوا نخبه.

بعد أن شكر أمه كثيراً على هذه الحفلة الرائعة وعلى الساعة التي صنعها صائغ سويسري وكلفت ثمنًا باهظًا، وبعد أن أصبح وحيداً في غرفة نومه اتضح له أنه لم يشعر بمثل هذا الامتنان لانتهاؤه يومه. كان من المقرّر أن يصل إلى المكتب في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، كما كان ليفعل كلّ يوم حتّى آخر يوم في حياته.

تمتم: «كيف أستطيع العيش من دونك؟». ثمّ نام ويده تشد على شريط كات.



في صباح اليوم التالي، أعلنت كيتي خلال وجبة الفطور: «لقد اتّخذت قراراً يا تشارلي. في غضون شهر، سأقوم برحلة إلى أوروبا». «للعمل؟».

«لا، إنه شغلك الآن. أود رؤية عائلتي في إدنبره، فقد مرت خمس سنوات على زيارتي الأخيرة إلى إسكتلندا، وكانت مجرد زيارة قصيرة. لديّ أبناء وبنات إخوة لا أعرفهم وسأبقى معهم لبضعة أشهر. أشعر أيضاً بأن من المهم أن أتركك تستقر هنا، وتجد مكانك بالضبط، لكي يعرف الجميع أنك المسؤول. وهذا لا يتوافق مع وجودي في الشركة».

قال تشارلي وقد غمرته موجة من الذعر: «أماه. هل تعتقدن أنه قرار حكيم؟ أنا بالكاد أعرف ما أفعله. أحتاج إليك هنا معي».

«سيكون لدينا شهر كامل معًا، وهو وقت كافٍ لتتعلم. ألا ترى يا ولدي الحبيب أنني إذا بقيتُ، سيستمر الموظفون في مراجعتي بدلًا منك، وعليهم أن يفهموا أنك الرئيس. قد ترغب في إجراء بعض التغييرات، التي قد لا تحظى بالشعبية لدى موظفينا. ولا أرغب في أن أكون الأذن المستمعة لمجموعة الساخطين الذين يظنون أنني قد أوثر في قراراتك. لا، من الأفضل أن أذهب. وعلاوة على ذلك، لم أعد شابة. أنا متعبة، وأحتاج إلى إجازة».

«هل أنت مريضة يا أمي؟».

«لا. يبدو أن الله أعطاني بنية ثور، وأرغب في المحافظة عليها بذهابي».

«ستعودين؟».

«بالطبع. أشك في قدرتي على تحمّل برد الشتاء الإسكتلندي القارس، الذي سيوفّر لي الحافز، وسأعود إلى أدبلايد قبل موسم أعياد الميلاد ورأس السنة الذي سأقضيه في أليسيا هول. أتمنى أن تتمكن من الانضمام إليّ، إذ يمكننا أن نزور منجم الأوبال، وكروم العنب للتأكد من أن الفئران لا تلعب في غياب القطّة».

القطّة رحلت...

«على الرغم من أنني أفهم أنك ترغبين في أخذ قسط من الراحة، لكنني أشعر بقلق شديد لأنني لستُ مؤهلاً لإدارة العمل بمفردي».

«وأنا متأكدة تمامًا من أنك تستطيع. عندما رحل والدك، لم يكن لديّ أيّ خيار سوى الغوص في العمل. كنتُ وحيدة تمامًا ولم يكن هناك من أطلب نصيحته، باستثناء السيد دونوفان العزيز، الذي سيكون حاضرًا لمساعدتك أيضًا. إنه يعرف كلّ ما يجب معرفته، على الرغم من أنه سيحتفل بعيد ميلاده الستين هذا العام وأنا أعلم أنه يرغب في التقاعد. لديه شخص في ذهنه ليحل محله، شاب ياباني ذكي يتحدّث الإنجليزية بطلاقة. ومع عدد اليابانيين الذين نوظّفهم، سيكون قادرًا على التواصل مع أطقمنا وسيشكّل رصيّدًا هائلًا للشركة».

نهضت كيتي وقالت: «حسنًا، والآن، إلى العمل. أليس كذلك؟».



خلال الشهر التالي، وعلى الرغم من أن تشارلي كان يستلقي في سريره كل ليلة ويأخذ على نفسه بأنه سيخبر والدته في اليوم التالي عن سبب مغادرة كات، وأنه سيبحث عنها، إلا أنه لم يتمكن من التفوّه بكلمة واحدة. كان يعلم أن والدته أنفقت الأعوام السبعة عشر الماضية من حياتها في العمل من أجل تنمية ميراثه، وكل ما أرادته الآن هو أن تأخذ استراحة تستحقّها عن جدارة. فكيف له أن ينكر عليها ذلك؟

وسرعان ما نما إعجابه بها عندما لاحظ سلطتها الطبيعية، والطريقة الهادئة التي تتعامل بها مع موظفيها في حل المشكلات. رأى أيضًا كيف اختفت تجاعيد القلق من وجهها وكيف بدت مرتاحة مقارنة بالماضي.

كيف يتخلّى عنها بعد كلّ ما فعلته من أجله؟ ولكن كيف لا يذهب ويبحث عن كات ويعيدها؟ كان تشارلي، ممزّقًا بين ولائه للمرأتين اللتين أحبهما، وفي كثير من الأحيان يشعر أن رأسه وقلبه على حافة الانفجار. في أيام الأحد - وهو يوم إجازته الوحيد إلا في حال وصول مركب نقل شراعي إلى المرفأ - كان يقود عربته إلى شاطئ ريديل ويسبح بكل قواه لتهدئة عقله المعذّب. ثم يطفو، والأمواج تضرب أذنيه، محاولًا العثور على السلام والقرار اللذين يحتاجهما، لكنه لم يتوصّل إلى ذلك. ومع اقتراب اليوم الذي ستغادر فيه والدته إلى أوروبا، ازداد ذعره. وتساءل عما إذا كان ينبغي له أن يغطس تحت الأمواج إلى الأبد ليجد تحرّره المنشود.

بالإضافة إلى عذاباته، لم يشعر أنه مؤهّل للمنصب. لم يكن يتمتّع بأيّ من سمات السلطة الطبيعية التي تتمتع بها والدته، أو السهولة التي تتحدّث بها مع أسياد صيد اللؤلؤ الآخرين في حفلات عشائهم المعتادة. ولمّا كانت أعمار معظمهم تبلغ ضعف عمره، فمن المؤكّد أنهم كانوا يغتابونه ويهزأون منه، وربما كانوا يراهنون على إفلاس الشركة بسبب فشله في إدارتها. في هذه الحالة، لم يكن لديه

خيار سوى بيع الشركة إلى أحد أسياد اللؤلؤ المحليين، لكنه كان يعلم أن والدته ستعتبر ذلك خيانة لأبيه وجده. كانت شركة ميرسر للؤلؤ واحدة من أقدم الشركات في المدينة، وكان يديرها أحد أفراد العائلة منذ إنشائها.

باختصار، لم يكن تشارلي في حياته كلها بمثل هذا البؤس والعذاب والوحدة. دعت كيتي إليز إلى الغداء يوم الأحد في مناسبات عدة. لم يكن هناك شك في أنها كانت سكرتيرة كفوءة وربما أكثر كفاءة منه، لأنها كانت تتستر على أخطائه حيثما تستطيع. كانت لامعة وذكية وجميلة. وكانت والدته تعتقد أن إليز هي زوجة المستقبل المثالية، ولم تكن تتوقف التتممات حول الزواج ووريث الأمبراطورية. قالت بوضوح: «من الأفضل أن تطلب يدها قبل أن يسبقك أحد آخر، فالنساء مثلها لا يأتين كثيرًا إلى هذه المدينة».

لكن، ثمة وريث في مكان ما، ينمو يومًا بعد يوم في بطن أمه. والله وحده يعلم ماذا كانت تفعل لتبقى على قيد الحياة...
كان يهمس لأسلافها: «انتظريني يا كات. سوف أجذك...».



ابتسمت كيتي لابنها بينما كانا يقفان في جناحها الفاخر على متن السفينة التي ستأخذها إلى فريمانتل، ومن ثم في رحلة طويلة عبر البحار إلى وطنها. فكر تشارلي كم بدت خلية البال، وأشبه بفتاة صغيرة، عيناها مليئتان بالإثارة. «سأبذل قصارى جهدي كي لا أخذلك».

«أعلم أنك ستفعل». مدت كيتي يدها لتلمس وجه ابنها: «اعتنِ بنفسك يا ولدي الحبيب».

«حاضر يا أمي».

رن جرس السفينة ليعلن أن على غير المسافرين النزول.

«اكتب لي. دعني أعرف كيف حالك».

«بالطبع. أتمنى لك رحلة آمنة يا أُمي».

عانقها تشارلي قبل أن يغادر الجناح ليشق طريقه إلى الرصيف. ثم لَوَح لها حتى أصبحت السفينة مجرد نقطة على صفحة المحيط. استقلَّ القطار الصغير عائداً إلى العربة حيث كان فريد ينتظره ليقوده إلى المنزل.

في ذلك المساء، تناول تشارلي العشاء بمفرده. كان الصمت في المنزل مخيفاً، وبعد أن انتهى من تناول الطعام، ذهب لرؤية كاميرا في المطبخ. في الشهر الماضي، مع وجود كيتي في المنزل، كان من الصعب أن يتحدث معها على انفراد، لكنها لم تعد تستطيع تجنُّبه الآن.

«هل كان عشاؤك جيداً يا سيد تشارلي؟».

أجاب: «نعم. هل وردتكِ أخبار منها؟».

«لا».

«ألم تتصل بكِ على الإطلاق؟ أرجوكِ، أتوسَّل إليكِ، قلولي لي الحقيقة».

«سيد تشارلي، أنت لا تفهم. هناك في الخارج...». لَوَحَت كاميرا بشكل مبهم وأضافت: «لا يوجد ورق ولا طوابع».

«ربما رآها آخرون؟ أعرف كيف يعمل تلغراف الأدغال وكيف تُنقل الرسائل شفهيّاً».

«لا، لم أسمع شيئاً، بصراحة يا سيد تشارلي».

«يذهلني ألا تشعرني بالقلق».

«بل أنا قلقة، لكنني أعتقد أنها بخير. أشعر بها، والأسلاف يسهرون عليها».

«هل تعتقدين أنها ذهبت لتعيش مع شعبكم؟».

«ربّما».

«هل ستعود؟».

«ربّما».

كان لدى تشارلي رغبة في هزّها: «يا إلهي! ألا ترين أنني أكادُ أجَنّ من القلق؟».

«نعم، رأيتُ شعرة بيضاء في رأسك هذا الصباح».

«إذا لم تعد في الأسابيع القليلة المقبلة، سأجدها بنفسي».

كان تشارلي يذرع أرضية المطبخ، في حين واصلت كاميرا غسل الأواني بهدوء وقالت: «إنها لا تريد أن تعثر عليها».

«كلانا يعرف سبب رحيلها، لذلك، من واجبي أن أحاول، سواء أرادت ذلك أم لا. ففي نهاية المطاف، إنها تحمل...». ضبط تشارلي نفسه، مدرِّكاً أن الكلمات الحقيقية يجب أن تظل غير منطوقة بينهما. ومرة أخرى، وجد نفسه على وشك البكاء.

«سيد تشارلي، أيها الرجل الطيب، أعلم أنك تحب ابنتي. وهي تحبك. إنها تعتقد أن ما تفعله هو الأفضل، إنها تريد لك حياة سعيدة. من الصعب جداً أن تحظى بها معها. اقبل الأشياء التي لا يمكنك أن تغيّرها».

«لا أستطيع يا كاميرا، لا أستطيع».

جلس تشارلي. وضع ذراعيه على الطاولة وأسند رأسه إليهما. ثم شعر بالخجل عندما أجهش في البكاء من جديد. «لا أستطيع العيش من دونها، لا أستطيع».

تركت كاميرا الغسيل، وجففت يديها. تقدّمت ووضعت ذراعيها حول كتفيه المرتعشتين. قالت: «سيد تشارلي، كنتُ أراكما معاً منذ سنوات عديدة، وكنتُ أعتقد أن هذا الحب قد يتلاشى، لكنّ ذلك لم يحصل».

«بالضبط، لذلك لا أستطيع التخلي عنها يا كاميرا، أن أتركها هناك... أنتِ تعرفين ما يمكن أن يحدث للأطفال الخلاسين إذا كانت الأم غير متزوجة... كان بإمكانني على الأقل أن أقدم لها بعض الحماية! وحاولتُ، لكنها رفضت».

أخرج الخاتم العنبري من جيبه ولوّح به في وجهها: «قد ينتهي الأمر بابني أو ابنتي في إحدى دور الأيتام المروّعة، وما دام في صدري نفس، فلا أستطيع أن أجلس هنا ولا أفعل شيئاً!». ألقى الخاتم على الطاولة، حيث تدرج ثم استقر أمام كاميرا.

قالت: «أفهم ذلك». خيّم صمت في الغرفة وكانت تفكر: «سيد تشارلي، إذا لم أسمع منها شيئاً في الأسابيع القليلة المقبلة، فسوف أذهب لأجدها».

«وسأتي معك».

«لا. أيها الرجل الأبيض، لا يمكنك البقاء على قيد الحياة هناك. أنتَ الرئيس هنا، ووالدتك تثق بك. يجب ألا تخذلها. لقد عملتُ بجدٍّ لتقدم لك هذا كله».

ثم التقطت الخاتم ومدّته إليه: «خذه». لكنه أبعد يدها. «لا، احتفظي به. ابحتي عنها وأعيديها، وسأضعه في إصبعها. وحتى ذلك الحين، لا أستطيع تحمّل النظر إليه».

وضعت كاميرا الخاتم في منزرها. «حسنًا، هل نعتقد اتفاقًا؟ أنتَ تعمل بجدٍّ في مكتب السيدة كيتي وأنا سأبحث عن ابنتي إذا لم تعد إلى المنزل قريبًا. لقد فقدت هذه العائلة كثيرًا من الأشخاص، كفى. نم الآن يا سيّد تشارلي، وإلا سيزداد الشعر الأبيض في رأسك».



لم يكن لدى تشارلي خيار آخر؛ بذل قصارى جهده للالتزام بنصيحة كاميرا التي وعدته بأنها ستذهب للبحث عن كات والعودة بها عندما يحين الوقت المناسب. أتاح له هذا الوعد الانغماس في العمل خلال الأشهر الأربعة التالية كما أرادت والدته أن يفعل. كما أتاح له الوثائق القانونية والمحاسبية، ناهيك بوصول مراكب النقل الشراعية، أن يخرج كات من ذهنه ويفكر في شيء آخر. كانت الأعمال التجارية، مثل كلّ شيء في بروم، تعاني. فقد انخفضت أسعار مخزوناتهم الهائلة من الصدف، نتيجة سعي أوروبا وأميركا إلى التحوّل إلى مواد أرخص وأقل كلفة. وكان تشارلي يركّز كلّ اهتمامه على مزارع اللؤلؤ المُستنبَت التي يديرها السيد ميكيموتو. ومع تحوّل اللآلئ الحقيقية إلى سلعة نادرة في بروم بسبب الإفراط في الصيد بشباك الجر قبالة الساحل، فقد رأى أن اللآلئ المُستنبَتَة كانت نسخًا جيدة. وفي الواقع، أكثر ملاءمة للمجوهرات، بسبب أحجامها النموذجية، إذ يسهل وضعها في قلادة أو سوار. وعلى الرغم من تعليقات والدته المهينة، كان ميكيموتو يعتقد أن اللؤلؤ المُستنبَت هو المستقبل، وكذلك فعلت القارة الأميركية العظيمة، التي كانت تشتري منتجاته بكميات كبيرة.

كما أبدى تشارلي إعجابه بحقيقة أن زراعة اللؤلؤ لا تعرّض حياة البشر للخطر كما يحدث في الغوص. وفي نهاية المطاف، رأى من الضرورة أن يدعو أحد مديري ميكيموتو ليوضح له كيفية إنشاء مزرعة كهذه في بروم. كان يعلم أيضًا أنه بعد تكاليف الاستثمار الأولية، سترتفع الأرباح، وأن ذلك سيؤدي في النهاية إلى تدمير الصناعة التي جعلت المدينة مزدهرة، ولكن كما هو الحال في الطبيعة، كان لكل شيء موسمه، وشعر تشارلي غريزيًا، بأن بروم كانت تغرق في خريف مظلم. على الأقل، كان يعتقد أنه يخطو خطوته الأولى نحو المستقبل، مهما يكن ذلك مثيرًا للجدل.



كان تشارلي ينام بعمق عندما سمع صوتًا حادًا مفاجئًا يملأ الهواء الساكن من حوله. جلس منتصبًا، مجبرًا نفسه على الخروج من حالة النعاس إلى اليقظة. استمرّ الضجيج. وذكره نحيب عالٍ رهيب بصوت سمعه من قبل. «لا... لا!...». قفز من سريره، واجتاز المنزل راكضًا وهو يتتبع الصوت حتّى المطبخ. ثم خرج من الباب الخلفي ليجد كاميرا جاثية على الأرض، تعجن الغبار الأحمر بأطراف أصابعها. كانت تثرثر بكلمات لم يستطع فهمها، لكنه لم يكن في حاجة إلى ذلك، لأنه كان يعرفها.

نظرت إليه بعينين مسكونتين بالألم واليأس. «سيد تشارلي، لقد رحلت! لقد تأخرت وفات الأوان. لقد تأخرت كثيرًا!».



خيّمت سحابة من البؤس على المنزل الذي كان ساكنه ييكيان ليلاً ونهارًا. بالكاد كانا يتحدثان، وتفكّك الرابط الذي كان بينهما ذات يوم متحوّلًا إلى مرارة وغضب وشعور بالذنب. كان تشارلي يقضي أقل وقت ممكن في المنزل، ويعزل نفسه في

المكتب تمامًا كما فعلت والدته بعد أن تركها والده. لقد فهم الآن السبب؛ فالقلب المكسور يخرب الروح ويدمرها، خصوصًا عندما نشعر بالذنب.

بدا أن إليز، سكرتيرته، قد شعرت بأن شيئًا ما لم يكن على ما يرام، ورغمًا عنه، ومع ابتسامتها المشرقة وحضورها الهادئ، وجدها تشارلي نورًا في بحر كآبته المظلم. لكنه في الوقت نفسه، كان مستاءً من سذاجتها، وأرستقراطيّتها، وحقيقة أنها كانت على قيد الحياة، في حين أن ألكينا وطفلهما لم يكونا كذلك.

كان عذابه الأكبر يتمثل في حقيقة أنه لن يعرف أبدًا كيف ماتت، ربما وحيدة في أرض مجهولة، وهي تلد طفلهما.

في الحادية والعشرين من العمر، وأحد أغنى الرجال في أستراليا، بدا تشارلي ميرسر وكأنه في سن الأربعين.

النقر النقر
بالقرب من أليس سبرينغر

حزيران 1929

سكن الليل، وكان نباح كلب الدنغو البعيد وحده يقطع الصمت. وفي السماء الصافية، كان القمر والنجوم الساطعة نوره الوحيد بينما كانت فرسه تتقدم بخطى كسولة فوق تضاريس الصحراء الصخرية، متنقلةً بين الشُجيرات والأجمات لتحتمي من العواصف الرملية المتكررة. كانت عينا الراعي قد تكيّفتا مع الضوء الخافت، بحيث تستطيعان تمييز ظلال الأرض الوعرة، وأثلام المنحدرات الزرق الداكنة. وكان هواء الليل معطرًا برائحة الأرض الباردة، ومثقلًا بأصوات الحيوانات الزاحفة والحشرات الطنّانة.

ربط حصانه إلى نتوء صخري يبرز من الأرض مثل عمود أحمر. كان يأمل الوصول إلى أليس بحلول الليل، لكنه فضّل الانتظار حتّى تهدأ المناوشات التي اندلعت مؤخرًا بين قبيلة السكان الأصليين المحلية والرعاة. أخرج قربة الماء المصنوعة من جلد الإبل، وأخذ من خرجه وعاء ملاء ووضعها على الأرض لتشرب فرسه المنهكة، ثم شرب هو قطراته الأخيرة. بحث في الكيس عن بقايا ما حمله من زاد، ثم فرش بطانيته الخشنة وجلس ليأكل. سيكون في أليس سبرينغز غدًا عند غروب الشمس. وبعد التزود بالمؤن، كان سيّجه شرقًا للاعتناء بماشيته حتّى شهر كانون الأول. وبعد ذلك...

تنهّد. ما الفائدة من التخطيط لمستقبل غير موجود؟ على الرغم من أنه بذل قصارى جهده للعيش يومًا بيوم، لكن عقله استمر في إرغامه على التطلّع إلى شيء ما. في الواقع، كان ذلك فراغًا من صنعه.

نام الراعي وسمع فحيح ثعبان بالقرب منه فرمى حجرًا لإخافته وإبعاده. حتّى

بمعاييره هو، كان قذرًا؛ قادرًا على أن يشتم رائحة عرقه اللاذعة. طوال سفره، لم يتمكن من الاستحمام. كانت آبار المياه المعتادة فارغة، والموسم جافًا على نحو غير معتاد حتّى بالنسبة إلى النقر نقر.

كان يفكر فيها، كما يفعل كلّ ليلة، ثمّ أغمض عينيه ونام.

استيقظ على صراخ غريب قادم من مسافة بعيدة. أتاح له السنوات التي قضاها في المناطق النائية أن يعرف أنه صوت بشري، وليس حيوانًا. بذل جهدًا لتحديد طبيعة الصوت وأدرك أنه صراخ طفل. قال في نفسه، لقد وُلدت روح أخرى في هذا العالم الفاسد، ثمّ أغمض عينيه ونام.

استيقظ عند الفجر، وتلَهّف للوصول إلى أليس بحلول الليل، واستئجار غرفة في المدينة حيث سيغتسل للمرة الأولى منذ أن غادر داروين. امتطى فرسه وانطلق. رأى قافلة الجمال في الأفق، وقد أضاءتها الشمس المشرقة خلفها، فبدت أشبه بمشهد خرافي. لحق بها في أقل من ساعة، حيث توقّفت للراحة وتناول الطعام. كان يعرف أحد الجمّالين الأفغان، الذي ربّت ظهره وعرض عليه الجلوس على سجّادته ورغيفًا من الخبز. تجاهل العفن الذي يغطّي إحدى زوايا الرغيف وراح يمضغه بنهم. من بين كلّ أشكال الحياة البشرية التي واجهها خلال ترحاله في «النقر نقر»، كان الجمّالون هم الذين يستمتع بصرف الوقت معهم. كانوا الرّواد السريين للمناطق النائية، والأبطال المجهولين الذين ينقلون الإمدادات التي تحتاج إليها مزارع الماشية المنتشرة في جميع أنحاء المناطق الداخلية. كانوا في الغالب متعلمين، يتحدّثون الإنجليزية بطلاقة. وبينما كان يشرب الماء الذي قدّموه له، سمعهم يقولون إن تجارتهم كانت في خطر بسبب خط سكة الحديد الجديد الذي سيُفتتح قريبًا بين پورت أوغوستا وأليس سبرينغز، ومدّه بعد ذلك حتّى داروين شمالًا.

قال مصطفى بفتور: «نحن آخر الذين بقوا، لقد عاد الآخرون جميعًا إلى ديارهم بحرًا».

«أنا على يقين من أنه سيظل لك مكان هنا يا مصطفى. لا يستطيع خط القطار الوصول إلى القرى النائية».

«لا، لكن السيارة تستطيع ذلك».

كان الراعي يودّعهم عندما عادت الصرخة الغربية التي سمعها الليلة الماضية من جديد، خارجة من سلّة مربوطة على جانب أحد الجمال.
سأل: «أهذا طفل؟».

«نعم. جاء إلى العالم قبل خمسة أيام. توفيت الأم الليلة الماضية، فدفنّاها عميقًا حتّى لا تتمكّن كلاب الدنغو من التهام جثتها.
«طفل أسود؟».

«يبدو خلاسياً. طلبت منا المرأة أن نأخذها معنا قبل أسبوعين؛ قالت إنها كانت متوجّهة إلى إرسالية هيرمانسبورغ. لم يرغب الآخرون في اصطحابها بسبب حالتها، لكنها كانت يائسة، فوافقْتُ. والآن لدينا طفل يتيم يصرخ ليل نهار طلباً لحليبه وليس لدينا شيء نعطيه إياه. قد يموت قبل أن نصل إلى أليس. كان نحيلًا جدًّا منذ ولادته».

«هل يمكنني أن أراه؟».

«إذا كنتَ ترغب في ذلك».

نهض مصطفى وقاده نحو الصراخ. فكّ السلّة وسلّمها لصديقه.

في الداخل، كلّ ما استطاع الراعي رؤيته هو طيّات أغطية تتحرّك. وضع السلّة على الأرض، وجثا بجانبها، ثمّ أزال الشاش الذي يغطّي الطفل. فاحت رائحة البراز والبول عندما كشف عن جسده الصغير النحيل. كانت بشرته الناعمة بلون السكر المحروق.

كان الطفل يركل ويصرخ، وقبضتاه الصغيرتان تجلدان الهواء بقوة. على الرغم من أنه رأى أشياء كثيرة في المناطق النائية، لكنّ هذا الطفل اليتيم الذي يتصوّر جوعاً أثار في داخله عاطفة لم يختبرها منذ سنوات، وشعر بحرقه الدمع في عينيه. لفّ الطفل بأغطية الشاش لئلاّ يلمس فضلاته خوفاً من المرض، وعندما رفعه من السلّة سمع شيئاً يسقط فيها.

علّق مصطفى وهو يقف بعيداً بسبب الرائحة الكريهة: «إنه صبي. ما هي الحياة التي يأمل فيها حتّى لو بقي على قيد الحياة؟».

وبلمسة من الراعي، هدأ الطفل وتوقّف عن الصراخ. وضع قبضة في فمه، وفتح عينيه، فجفل دروموند عندما رآهما. كانتا زرقاوين، والقزحية بلون العنبر، لكنّ لم يكن لونهما النادر هو ما لفت انتباهه، بل الشكل والتعبير فيهما. كان قد رأى هاتين العينين من قبل، لكنه لم يتذكّر أين.

سأل مصطفى: «هل أعطته الأم اسماً قبل وفاتها؟».

«لا، لم تقل الكثير».

«هل تعرف أين يمكن أن يكون الأب؟».

«لم تقل شيئاً عنه، وربّما لم ترغب في ذلك. أنت تعرف كيف تجري الأمور».

ثمّ هز مصطفى كتفيه بأناقة.

نظر الراعي إلى الطفل، وهو لا يزال يمص قبضته، ومرة أخرى، تحرك شيء بداخله. «يمكنني أن آخذه معي إلى أليس سپرينغز، ثمّ إلى هيرمانسبورغ».

«يمكنك ذلك، لكنني أعتقد أنه لن ينجو يا صديقي، وربما يكون ذلك أفضل».

«أو ربما أكون فرصته». كانت كلمات الراعي مدفوعة بالغريزة. «سوف آخذه. إذا تركته معك، فسوف يموت بالتأكيد، مثل والدته».

أجاب مصطفى بجديّة، وقد غمر الارتياح ملامحه الصادقة: «صحيح. صحيح».

«هل لديك قليل من الماء؟».

«سأحضره لك».

أغمض الطفل عينيه، مرهقاً من كثرة البكاء. كان تنفّسه منتظماً، وأدرك الراعي أنه لم يكن هناك متّسع من الوقت.

أعطاه مصطفى قارورة ماء وقال: «خُذْ. أنتَ تفعل شيئاً جيّداً يا صديقي، وأباركك أنتَ والرضيع». ثمّ وضع يده المعروقة على جبين الطفل المتعرّق.

بعد أن حمل السلة إلى حصانه، صنع الراعي صرّةً من البطانية التي كان

يستلقي عليها ليلاً وربطها حول نفسه قبل أن يضع الطفل فيها. وبينما كان يفعل ذلك، رأى علبة معدنيةً متسخة ملقاة أسفل الشاش فدسّها في حقييته. أخذ قليلاً من الماء من الدورق، ومسح به شفتي الطفل. ثمّ شعر بالارتياح عندما رآه يمتص السائل بوهن. ثبّت السلة الفارغة على مؤخرة سرجه، وامتنطى فرسه، وانطلق عدواً عبر السهل.

راحت الشمس تكوي جلده، وتساءل عما دفعه إلى فعل مثل هذا الشيء. من المُحتمَل أن يصل إلى أليس ليجد طفلاً ميتاً مربوطاً به. ومع ذلك، مهما يحدث، ثمة شيء كان يدفعه إلى الأمام في حرارة الظهيرة. أدرك أنه إذا بقي ليلة أخرى في الصحراء، فإن القلب الصغير سيتوقّف عن النبض.

في الساعة السادسة من تلك الليلة، دخلت فرسه الشجاعة فناء نزله المعتاد. وضع يده على صدر الطفل، فشعر برفرة مطمئنة ولو ضعيفة. بعد أن ترجّل وملاً لفرسه العطشى دلوّاً من الماء، فكّ الصرّة وأعاد الطفل إلى سلّته، ثمّ غطّاه بالشاش. وعد فرسه بمزود لائق قبل أن يدخل لتستقبله السيدة راندال، صاحبة المنزل.

«يسعدني أن أراك في الجوار ثانية. غرفتك المعتادة؟».

«إذا كانت شاغرة، نعم. كيف حالك؟».

«أنت تعرف كيف هو الحال هنا، على الرغم من أنه سيكون أفضل كثيراً عندما يصبح القطار جاهزاً للعمل. هل يمكنني أن أحضر لك أيّ شيء يا سيّد دي؟». ثمّ غمزته بمكر وأضافت: «كالمعتاد؟ هناك فتاتان جديدتان في المدينة».

«ليس الليلة، لقد كانت رحلة طويلة. كنت أتساءل، هل لديك بعض الحليب؟»

«حليب؟». بدت السيدة راندال مندهشة من طلبه. «بالطبع لدينا. ليست الأبقار هي ما ينقصنا في الجوار. لكنه ليس مشروبك المعتاد يا سيد دي».

«أنتِ على حق، ربما يمكنك أن تضيفي كأساً من الويسكي الإسكتلندي الجيّد إلى هذا الطلب».

«لديّ زجاجة خصيصاً لك. ألا تأكل شيئاً؟».

ابتسم لها: «أي شيء لديك على النار، مهما يكن. وبعض الملح». «عظيم». سلّمتة المفتاح: «سأحضر كلّ شيء إلى غرفتك في لمح البصر». «شكرًا».

التقط الراعي السلّة والخرج وصعد الدرج الخشبي الخشن. دخل الغرفة وأغلق الباب خلفه بقوة. وضع السلّة على السرير، وأزال غطاء الموسلين عن وجه الطفل. على الرغم من أنه وضع أذنه لصق أنفه الصغير، إلا أنه بالكاد سمع تنفّسه. أخذ القارورة التي أعطاه إياها مصطفى، وبلّل شفّتي الطفل، لكنه لم يستجب. توسّل إلى الكائن الصغير: «اللعنة! لا تمت الآن يا صغيري! سوف ينتهي بي الأمر متهمًا بجريمة قتل».

وضع السلّة على جانب السرير، وراح يذرع الغرفة منتظرًا وصول السيدة راندال. في النهاية، وبسبب الإحباط، وكذلك بسبب الرائحة النفّاذة داخل الغرفة، هُرع عائداً إلى الطابق الأرضي.

سألها: «متى تحضرين ما طلبته؟».

قالت المرأة وهي تضع الصينية على مكتب الاستقبال الضيق: «كنتُ على وشك أن أحضرها لك».

نظر إلى محتوياتها وأدرك أن الشيء الوحيد المهم الذي كان يريده لم يكن من بينها. «هل أضفتِ المملحة يا سيدة آر؟».

«آسفة، سأذهب وأحضرها». عادت وهي تحملها في يدها المنمّشة. «إنها مطلّية بالفضة. إحدى هدايا زفافي عندما تزوّجت من السيد آر. تأكّد من إعادتها لي، وإلا ستكلّفك ثروة».

قال وهو يتناول محتويات الصينية: «سأعيدها، اطمئني. سأنزل لأستحمّ في وقت لاحق».

عندما عاد إلى غرفته، خلع قميصه، ثم فكّ غطاء المملحة الفضي وسكب محتوياتها في قميصه. مرّق صفحة من الكتاب المقدس الذي كان موضوعاً على

المنضدة، وصنع منها قمعًا، ثم سكب الحليب في المملحة. أخذ الطفل، وتنفس من فمه تجنبًا للرائحة الكريهة المنبعثة منه، وبكثير من الرقة، دس طرف المملحة بين شفتيه الورديتين.

في البداية، لم يستجب، وكان قلبه ينبض بسرعة. فتح غطاء المملحة الفضية الصغيرة، ثم غمس إصبعه في الحليب وبلل به شفتي الطفل. بعد بضع ثوانٍ بدت له دهرًا بأكمله، تحرّكت الشفتان. أعاد الكرة وراح يصلي للمرة الأولى منذ سبعة عشر عامًا. بعد بضع ثوانٍ، شعر بسحب خفيف من الزجاجاة المرتجلة. تبعت ذلك فترة توقّف مؤلمة بدت له دهرًا بأكمله. ثم أخيرًا، بدأ الطفل في الرضاعة.

رفع الراعي عينيه إلى السماء وشكرها.

عندما شبع الطفل، نزع عنه ملابس الشاش النتن، ثم غطّسه في حوض الماء وبذل قصارى جهده في غسل الوحل المتراكم على جسده. بعد ذلك، أخذ اثنين من مناديله الشخصية ولفّ بهما مؤخره الطفل الصغيرة بأفضل ما استطاع. أخفى القماش المتسخ في إحدى ملاءات السرير ودسّها في أحد الأدراج، ثم أخذ الملاءة الأخرى ولفّها حول الطفل، فلاحظ بطنه المنتفخ وساقيه الهزيلتين.

عندما نام الطفل أخيرًا، التهم حساءه الذي برد مع قليل من الويسكي. ثم غادر الغرفة لإطعام فرسه والاستحمام في برميل الماء الموجود في الفناء الخلفي.

بعد أن شعر الراعي بالانتعاش، هرع عائداً إلى الطابق العلوي ورأى أن الطفل لم يتحرّك. وضع أذنه على صدره الصغير، فسمع رفرقة نبضات قلبه وصوت تنفّسه المنتظم. عندما صعد إلى سريره، تذكر العلبة المعدنية التي كان قد دسّها في حقيبته.

كانت صدئة مغطاة بالتراب الأحمر كما لو كانت مدفونة منذ وقت طويل. فتحها ليجد كيسًا جلدًا صغيرًا بداخلها. ثم بعد أن فتح المشبك، انقطعت أنفاسه وتوقّف قلبه عن النبض.

اللؤلؤة الوردية... اللؤلؤة التي أنهت حياة أخيه وأنقذت حياته.

لم يصدّق عينيه اللتين انجذبتا إلى جمالها الساحر، كما حدث منذ سنوات

عديدة. يمكنه أن يفعل الكثير بهذه النقود... كان يعرف قيمتها. لقد سَلَّم العشرين ألف جنيه بنفسه.

منفيًا من بروم وغير قادر على العودة إلى كيلغارا، مزرعته المحبوبة، كان يجول في النثر نثر، يأخذ ما يجده من عمل. كان انعزالياً لا يثق بأحد. تحوّل، وأصبح مختلفًا، رجلاً بقلب من جليد. ولم يكن يستطيع أن يلوم إلا نفسه وربما اللؤلؤة أيضًا. مع ذلك، ومنذ اللحظة التي رأى فيها هذا الطفل، ذاب شيء ما في داخله.

أغلق الكيس الجلدي وأعادَه إلى العلبة قبل أن ينومه مغنطيسيًا. ما الذي يربط هذا الطفل باللؤلؤة الوردية؟ لم يرها ثانية منذ سبعة عشر عامًا، عندما حبسها في درج مكتب كيتي، وتوسّلت إليه كاميرا ألا يقدّمها إلى سيدتها و... «يا إلهي!». تذكر أين رأى عينيّ الطفل.

نهض واقفًا وذهب يتفحص الرضيع النائم مجدّدًا. وللمرّة الأولى، منذ سنوات، اعترف بوجود المصير والقدر. أدرك غريزيًا أن هذا الطفل واللؤلؤة الملعونة المخبأة في سلّته كانا على صلة به.

«ليلة سعيدة يا صغيري، غدًا سأحملك إلى هيرمانسبورغ».

داعب خدّه الناعم، واستلقى على فراشه حيث أضاف: «بعدها، سأقوم برحلة إلى بروم لأكتشف من أنتَ بالنسبة إليّ».



رفع القسّ ألبريخت عينيه عن الكتاب المقدّس عندما سمع وقع حوافر خيل تدقّ أرض الإرسالية. رأى من النافذة الرجل يتوقّف، ثم يترجّل وينظر من حوله حائرًا لا يعرف إلى أين يتوجّه. مشى القسّ ألبريخت حتّى الباب وخرج تحت الشمس الساطعة.

«صباح الخير».

أجابه الرجل: «صباح الخير».

في الفناء تجمع عدد من الرعية، جميعهم يرتدون ملابس بيضاء، وراحوا يراقبون الرجل الوسيم. كان مُرحَّبًا بأي غريب يأتي إلى الإرسالية. أمرهم القسّ قائلاً: «عودوا إلى أشغالكم»، فعادوا. «هل يوجد مكان نستطيع التحدث فيه أيها القسّ؟». أشار القسّ إلى الغرفة وراءه: «تعالَ إلى مكتبي».

عندما سمع بكاء ينبعث من الصرة الملفوفة حول صدر الرجل قال: «اجلس من فضلك». أغلق الباب والمصاريح تجنبًا لأعين الفضوليين. «أجلّس بعد أن أعطيك هذا». فكّ الرجل الصرة ونشر محتواها على الطاولة. بين الثياب التنتة كان يوجد طفل حديث الولادة، يدل صراخه على أنه يتضوّر جوعًا. «لمن هو هذا الطفل؟».

«ماتت أمه على بعد بضع ساعات من أليس سبرينغز. قال الجمّالون الذين دفنوها إنها كانت في طريقها إلى هيرمانسبورغ، فعرضتُ عليهم أن آخذ الطفل وأحضره إلى هنا بنفسي، لأن ذلك سيكون أسرع. أعطيتُه أمس بعض الحليب من هذه المملحة».

«يا لك من مُبدِعٍ يا سيدي».

«يبدو أن بقايا الملح كانت مفيدة، فهو اليوم أقوى».

قال القسّ ألبريخت وهو يفحص أطراف الطفل وردود فعله: «إنه هزيل جدًّا ويعاني من سوء التغذية».

«لقد نجا على الأقل».

«أهنتك يا سيدي، وليباركك الرب. قلة قليلة من الرعاة يفعلون ما فعلته. أفترض أن أمّه من السكان الأصليين، أليس كذلك؟».

«لستُ أدري، فقد ماتت ودُفنت قبل أن أكتشف الطفل. ولو أنني، لحسن الحظ، لديّ فكرة عن المكان الذي جاء منه».

رمقه القسّ بنظرة متشكّكة وقال: «هل أنتَ والد هذا الطفل؟».

أخرج العلبة من جيبه وقال: «لا، على الإطلاق. لكنني وجدت هذه العلبة في سلّته وتعرّفت عليها. يجب أن أقوم برحلة إلى بروم لتأكد من فرضيتي».

أخذ القسّ ألبريخت العلبة بين يديه: «فهمت. إذاً يجب أن تخبرني بالنتائج التي تتوصّل إليها. ولكن في الوقت الحالي، إذا بقي الطفل على قيد الحياة، فسوف يكون له بيت هنا في هيرمانسبورغ».

«من فضلك، احتفظ بهذه العلبة حتّى أعود. ومن أجل خيرك وسلامتك، لا تنتظر إلى محتواها».

قَطَبَ القسّ حاجبيه وقال: «من تظنني يا سيدي؟ أنا خادم الله، وجدير بالثقة».

«بالطبع».

شاهد القسّ الرجل وهو يبحث في جيبه، ويكتب بعض الملاحظات.

«هذا تبرّع للإرسالية، ولقاء إطعام الطفل».

«شكراً لك».

«سأعود بأسرع ما أستطيع».

«سؤال أخير يا سيدي. هل سمّته الأم؟».

«لا».

«إذاً سأسمّيه «فرنسيس» تيمناً بفرنسيس الأسيزي، شفيح الحيوانات. ألم تخبرني أن الجمل هو الذي ساعد على إنقاذ حياته؟». ثمّ ابتسم القسّ.

«اسم مناسب».

«واسمك يا سيدي؟».

«يعرفونني باسم بالسيد دي في هذه الأرجاء. إلى اللقاء». خرج وأغلق الباب خلفه.

ذهب القسّ ألبريخت إلى النافذة وفتح مصراعها ليراقب الراعي وهو يمتطي فرسه ويغادر. على الرغم من أن الرجل كان صحيح الجسم، قوي البنية، لكنّ ثَمّة هشاشة غريبة كانت بادية عليه.

تمتم وهو ينظر إلى الطفل على الطاولة أمامه: «روح أخرى ضائعة». بادلته الطفل النظر، مرفقاً بعينيه الزرقاوين الواسعتين. «لقد نجوت من رحلة طويلة يا صغيري».

التقط قلم الحبر وفتح دفتر السجلات. كتب اسم فرنسيس وتاريخ وصوله على صفحة جديدة. ثم أضاف ملاحظة، السيد دي - راعي بقر، أليس سبرينغز.



بعد مرور شهر، ربط الراعي فرسه على مسافة كيلومتر أو نحو ذلك من المنزل، ثم قطع باقي الطريق سيراً على الأقدام. كانت ليلة مظلمة، تستتر فيها النجوم خلف مساحات من السحب، وقد وافقه ذلك. عندما وصل إلى البوابة الأمامية، خلع حذاءه ووضعه على السياج. كان المنزل غارقاً في ظلام دامس، ولم يكن يصدر من الإسطبلات سوى حفيف بين الحين والآخر. تنهّد متفكراً في حياته، وأدرك أن أفضل أوقاتها وأسوأها قد قضاها تحت هذا السقف. عندما رأى فريد نائماً في مكانه المعتاد أمام الإسطبلات، مشى حتّى الكوخ. صلى من أجل ألا يكون مقفلاً، وجرب المقبض فانفتح الباب بسهولة. أغلقه خلفه، وانتظر حتّى تتكيف عيناه مع الظلام. كانت هناك، يدها خلف رأسها. اقترب منها وهو يعلم أنه إذا أخافها فستوقظ سكان المنزل المجاور.

جثا بجانب السرير، وأشعل الشمعة على المنضدة، لكي تتعرّف إليه من فورها. هزها برفق فتحركت. «كاميرا، هذا أنا، السيد دروم. لقد عدتُ لرؤيتك. أنا هنا حقاً، لكن يجب ألا تصدرى أيّ صوت».

وضع يده على فمها، وهي تحدّق إليه، مستيقظة تماماً الآن. «من فضلك، لا تصرخي».

بدأ الرعب في عينيها ينحسر، وحاولت إبعاد يده عن فمها. أومأت برأسها، فرفع يده ووضع إصبعه على شفتيه بدلاً من ذلك. «لا نريد إيقاظ أحد، أليس كذلك؟».

هَزَتَ رأسها بصمت، ثم اتخذت جلسة مستقيمة. همست: «ماذا تفعل هنا يا سيد دروم؟ أنت ميت منذ سنوات!»

«كلانا يعلم أنني لم أمت، أليس كذلك؟».

- إذا لماذا تعود الآن؟».

«لأن لدي ما يجب أن أخبرك به».

«إن ابنتي ماتت؟». امتلأت عينا كاميرا بالدموع: «كنت أعرف. أخبرتني روجي».

«للأسف، قالت روحك الحق. أنا آسف جدًا يا كاميرا. هل كانت... حاملًا؟».

«نعم. ولكن، لا تخبر أحدًا بذلك. فقد مات الطفل أيضًا».

الآن عرف على وجه اليقين أن ظنه كان حقيقة. «حسنًا، هناك شيء لا تعرفينه».

«ما هو؟».

«وضع يده برفق على ذراعها: «لقد نجا طفل كات. لديك حفيد». ثم أخبرها القصة بأكملها، وكيف وجد الطفل، فامتلأت عينا كاميرا بالعجب والدهشة.

«هكذا هم الأسلاف، لديهم مآرب لا ندرکہا نحن البشر. أين هو؟». نظرت كاميرا في أرجاء الغرفة كما لو كان الطفل مخبأ في مكان ما.

«كان أضعف من أن يقوم بالرحلة إلى هنا. تركته بين أيدي أمينة في إرسالية هيرمانسبورغ. كما يجب أن أخبرك أيضًا أن اللؤلؤة الملعونة كانت في سلته. لا بد من أن ألكينا وجدتها و...».

«لا! تلك اللؤلؤة لعنة. لا أريدها قريبة من حفيدي!». رفعت كاميرا صوتها، فوضع دروموند إصبعه على شفثيه محذرًا.

«أقسم لك أنها محفوظة في مكان آمن بعيدًا عنه حتى تقرري ماذا تفعلين بها وبالطفل. ظننت أنك ربما ترغبين في إحضاره إلى هنا بعد أن يتعافى».

قالت كاميرا بحزم: «لن يأتي إلى هنا».

«ولم لا؟ كنت أعتقد أنه قد يكون راحة لك ومواساة».

وكان دور كاميرا قد حان لتخبره بما حدث، فأخبرته.

«إِذَا هَذَا الطِّفْلُ هُوَ حَفِيدُ أَخِي؟ وَبِالتَّالِي فَإِنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ رَابِطَةٌ دَمٌ».

قَالَتْ بِنَبْرَةٍ جَدِيَّةٍ: «نَعَمْ. دِمَاؤُنَا امْتَزَجَتْ فِيهِ، لِذَا فَهُوَ يَنْتَمِي لِكُلِّنَا».

«لَكِنَّ الْأَهَمَّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، يَا كَامِيرَا، هُوَ أَنَّهُ لَابْنُ أَخِي تَشَارَلِي الْآنَ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْتَ وَالِدَتَهُ مَعَ الْأَسْلَافِ».

«لَا! مِنْ الْأَفْضَلِ لِلْجَمِيعِ وَلِلسَّيِّدِ تَشَارَلِي، أَنْ يَظُنَّ أَنَّ الطِّفْلَ مَاتَ أَيْضًا».

«لِمَاذَا تَقُولِينَ ذَلِكَ؟ أَسْتَغْرِبُ هَذَا مِنْ طَرَفِكَ أَنْتِ تَحْدِيدًا».

«لَقَدْ تَغَيَّرَتْ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ فِي غِيَابِكَ يَا سَيِّدَ دَرُومٍ. أَنْتِ لَا تَفْهَمُ. لَقَدْ كَدَحَتْ السَّيِّدَةُ كَيْتِي، وَعَمَلَتْ بِجَدٍّ، وَقَدْ فَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِ ابْنِهَا بَعْدَ رَحِيلِكَ. لَقَدْ مَرَضَتْ مَرَضًا خَطِيرًا، وَحَزَنْتْ».

«أَهْيَ بِخَيْرِ الْآنَ؟ أَهْيَ هُنَا؟». وَأَدَارَ رَأْسَهُ نَحْوَ الْمَنْزَلِ.

«إِنَّهَا فِي أَوْرُوبَا لِقَضَاءِ عَطْلَةٍ، وَتَرَكْتَ إِدَارَةَ الْعَمَلِ لِلْسَّيِّدِ تَشَارَلِي. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ حَزِينٌ أَيْضًا عَلَى ابْنَتِي، إِلَّا أَنَّهُ شَابٌ وَلَنْ يَلْبَثَ أَنْ يَتَعَافَى. قَدْ يَتَزَوَّجُ بِسَكْرَتِيرَةٍ لَطِيفَةٍ. مِنْ الْأَفْضَلِ لَهُ أَلَّا يَعْرِفَ، هَلْ تَفْهَمُ؟».

«وَمَاذَا عَنْ كَيْتِي؟ إِنَّهَا جَدَّةٌ مِثْلُكَ يَا كَامِيرَا. مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ لَهَا وَتَشَارَلِي الْحَقَّ فِي الْعِلْمِ بِوُجُودِ الطِّفْلِ؟ وَمَاذَا عَنْ الطِّفْلِ نَفْسَهُ؟ أَنَا شَخْصِيًّا، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتْرَكَ ابْنَ أَخِي يَعِيشَ فِي إِرْسَالِيَةِ لِلْأَيْتَامِ».

نَهَضَتْ كَامِيرَا مِنْ فِرَاشِهَا: «سَأَتِي مَعَكَ. خُذْنِي إِلَى الْإِرْسَالِيَةِ. سَيَكُونُ حَفِيدِي فِي رِعَايَتِي هُنَاكَ».

«وَتَتَخَلَّيْنَ عَنْ كُلِّ مَا لَدَيْكَ هُنَا؟ مَاذَا عَنْ كَيْتِي؟ أَعْرِفُ مَدَى اعْتِمَادِهَا عَلَيْكَ».

كَانَتْ كَامِيرَا قَدْ أَخْرَجَتْ كَيْسًا مِنَ الْخِيْشِ لَتَحْزَمَ حَاجِيَاتِهَا. مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُ كَانَ يُسْتَخْدَمُ لِلْخُضَرِ بِسَبَبِ رَائِحَةِ الْمَلْفُوفِ الْقَدِيمَةِ. «أَنَا مَسْؤُولَةٌ عَنْ رِعَايَةِ عَائِلَتِي، وَهُوَ يَنْتَمِي إِلَيْهَا. هَذَا هُوَ الْأَفْضَلُ لَنَا جَمِيعًا».

«أَعْتَقِدُ أَنَّكَ تَقْلَلِينَ مِنْ قُدْرِ سَيِّدَتِكَ. فِيهِ النِّهَايَةُ، لَقَدْ أَدْخَلْتِكِ إِلَى مَنْزِلِهَا ضِدَّ مَشِئَةِ أَخِي، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَدَيْهَا قَلْبٌ مُحَبَّبٌ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهَا تَرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَهَا رَأْيٌ فِي قَرَارِ كَهَذَا. كَمَا أَنَّنِي أَعْرِفُ يَقِينًا أَنَّهَا سَتَرْحَبُ بِحَفِيدِهَا فِي مَنْزِلِهَا».

«نعم. لكنّها الآن ترتاح وتحتاج إلى السلام. لا أريد أن أجلب العار لها أو لتشارلي، هل تفهم؟ من الأفضل أن أذهب معك. بهذه الطريقة يُحفظ السرُّ».

أدرك دروموند أن كاميرا ستفعل كلّ ما في وسعها لحماية السيدة التي أنقذتها، والصبي الذي ساعدت في مجيئه إلى العالم، حتّى لو كان الثمن هو التخلّي عنهما. مع ذلك، كانت صاحبة القرار، سواء وافق أم لم يوافق.

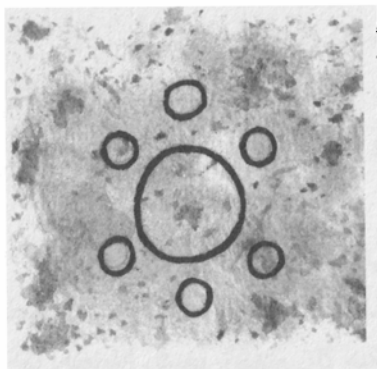
«ماذا عن فريد؟ أفترض أنك ستخبرينه بكل شيء، أليس كذلك؟».

«إنه لا يجيد حفظ الأسرار يا سيّد دروم. قد أخبره ذات يوم».

نظرت إليه كاميرا بترقب، وقد أصبحت كلّ ممتلكاتها الدنيوية في كيس من الخيش. قالت: «الآن، ستأخذني إلى حفيدي، أليس كذلك؟».

أوما دروموند برأسه مستسلماً، وفتح باب الكوخ.

سيسي
(هيرمانسبورغ، الإقليم الشمالي).
كانون الثاني 2008



رمز النجم أو الشمس في ثقافة السكان الأصليين

كنتُ أنظر إلى جدي عندما انحدرت الشمس في السماء. إلى فرنسيس، الطفل الرضيع الذي أنقذه رجل من الصحراء من غير أن يعرف حتّى أنهما قريبان.

تمتت: «كيف حدث ذلك؟»

أبعدتُ الذبابة عن وجهي، لأكتشف أن الدموع قد بلّلت وجنتي.

«أنا الدليل الحي على حقيقة أن القريب يهتدي لقريبه، وأن المعجزات تحدث». ابتسم لي ابتسامة واهنة، وشعرت بأن رواية القصة قد أرهقته وهزّته.

لا يسعنا أن نعرف الأسباب التي أدّت إلى حدوث أشياء غير عادية في حياتنا. وحدهم - الأسلاف - أو الله - يعرفونها. ولن تتّضح لنا تلك الأسباب ما لم نصعد بدورنا لننضمّ إليهم.

«ماذا حدث لكيّتي ودروموند؟».

«آه، يا سيلينو، هذا سؤال كبير. لو تحلّى بالصبر وانتظر، لتقاسما حياة سعيدة معًا بعد وفاة أندرو. لكنه كان متهورًا، يعيش اللحظة. ثمّ ابتسم وأضاف: «أعترف بأنني ورثت بعض طباع عمّي الأكبر دروموند».

قلتُ: «وأنا أيضًا». وكنتُ أتساءل ما إذا كنت لأحذو حذو كيّتي وأتخلّى عن الرجل الذي أحببته. «هل عرفته؟».

«هذا هو الجزء التالي من القصة، ولكن علينا أن نحفظ به لوقت آخر. أشعر فجأة بأنني رجل طاعن في السن. ألا تشعرين بالجوع؟».

قلتُ: «يمكنني أن أكل، نعم».

كانت معدتي تقرر مثل قطار على سكّته، إلا أنه لم يكن من السهل تناول سندويش بيرغر عند زاوية أيّ شارع في هذا البلد.

ساد صمت قصير وهو يحدّق إلى الخليج الصغير. قال أخيراً: «لماذا لا تأتين معي إلى المنزل؟ لديّ طعام كثير، وهو ليس بعيداً».

كانت السماء قد بدأت تتحوّل إلى ظلال رقيقة وردية وبنفسجية، إيذاناً بحلول الليل. «كنت أخطط للعودة إلى أليس سبرينغز الليلة».

«الأمر لك بالطبع. ولكن إذا أتيت معي، يمكننا أن نتحدث أكثر. وإذا أردت، لديّ سرير لك».

أجبتّه: «حسنًا، سأتي».

هذا الرجل كان جدي. لقد وثق بي وشاركني أسرار عائلته، أي عائلتي، وكان عليّ أن أثق به.

غادرنا غرفة فيل إلى الفناء، حيث وجدناه متكئًا على الحائط.

«هل أنت جاهزة للذهاب يا سيلينو؟».

شرحتُ له تغيير الخطّة فتقدّم ليصافحني: «كان ذلك من دواعي سروري. لم تعودني غريبة بعد الآن، أليس كذلك؟».

قال جديّ مازحًا: «يمكنها أن تأخذ مكاني في اللجنة عندما أ التقاعد».

صاح فيل ونحن نبتعد: «بالمناسبة، الشاحنة ليست مغلقة».

فتحت باب الشاحنة الخلفي لأخرج حقيبتني، لكن يديّ جدي السمراوين القويتين سبقتا يديّ، ورفعتا الحقيبة كأن لا وزن لها.

أشار لي أن أتبعه: «من هنا».

اعتقدت أنه أوقف سيارته في مكان آخر. لكننا عندما ابتعدنا عن مدخل الإرسالية، كانت المركبة الوحيدة التي استطعت رؤيتها هي عربة يجرها مهر.

قال وهو يرمي حقيبتني على المقعد الخشبيّ الخشن: «اصعدي». ثم سألني وهو يمسك بالزمام: «هل تجيدين ركوب الخيل؟»

«أخذتُ بعض الدروس عندما كنت طفلة، لكن شقيقتي ستار لم ترقها الفروسية، فتوقّفنا».

«وَأَنْتِ؟ كُنْتَ تحبينها؟».

«كنت أعشقها».

خرج من الطريق وقاد العربة على أرض وعرة حتّى وصلنا إلى أعلى منحدر لطيف.

«يمكنني أن أعلمكِ ركوب الخيل إذا كنت ترغبين في ذلك. كما سمعت، فقد قضى عمكِ الأكبر دروموند معظم حياته على ظهور الخيل».

بينما كان المهر يشق طريقه مسرعًا على الأرض الوعرة، وجدي يحدق إليّ، ويده مرخيتان حول الزمام. أضفتُ: «وعلى ظهور الجمال».

«ليت والدتك وجدّتك كانتا تستطيعان رؤيتنا الآن. هنا، معًا».

ثمّ هزّ رأسه ومد يده ليلمس خدي. كانت راحته بمثل خشونة ورق الصنفرة، لكنها كانت مليئة بالحب.

تبادر سؤال إلى ذهني. «هل يمكنني أن أسألك ما هو زمن الحلم؟ لقد سمعتُ بعض القصص عن زمن الحلم، والأسلاف، ولكن ما هو في الواقع؟».

كتم ضحكة. «آه، سيلينو، بالنسبة إلينا، زمن الحلم هو كلّ شيء. إنها الطريقة التي خُلق بها العالم، حيث نشأ كلّ شيء».

«ولكن كيف؟».

«سأروي لك القصة كما روتها لي جدتي كاميرا عندما كنتُ صبيًا صغيرًا. في عالم الأحلام، كانت الأرض فارغة عندما بدأ كلّ شيء، صحراء مسطحة غارقة في الظلام؛ لا أصوات، لا حياة، لا شيء. ثمّ جاء الأسلاف. وبينما كانوا يتنقلون في الأرض، رعوها وأحبوها، فخلقوا كلّ ما هو الآن موجود: النمل، والكنغر، والوالابي، والثعابين...».

قاطعتُه: «والعناكب؟».

«نعم، حتّى العناكب يا سيلينو. كلّ الأشياء مترابطة ومهمّة، مهما تكن قبيحة أو مخيفة. كما خلق الأسلاف القمر والشمس والبشر وقبائلنا».

«هل ما زال الأسلاف هنا؟».

«حسنًا، بعد أن خلقوا كل شيء، انسحبوا وتفرقوا. حلّوا في السماء، والأرض، والسحب، والمطر... وفي جميع الكائنات التي خلقوها. ثم كلفونا نحن البشر بمهمة حماية كل شيء ورعايته».

«هل يعود أصل القبائل كلها إلى زمن الحلم؟».

«نعم، مع أن القصص تختلف من قبيلة إلى أخرى. أتذكر مدى انزعاج الجدة كاميرا عندما تتناقض إحدى قصصنا نحن الآرنتي مع إحدى القصص التي نشأت فيها. كانت تنتمي إلى قبيلة ياورو، كما تعلمين».

سألته وأنا أفكر في كريسي: «هل تتحدث لغة الياورو أيضًا؟».

«قليلاً، ولكن في هيرمانسبورغ تعلّمت الألمانية، والآيرنتية، والإنجليزية، وهي لغات أكثر من كافية لملء رأس واحد».

بعد نصف ساعة، وصلنا إلى ما بدا لي وكأنه سقيفة حديقة كبيرة قائمة على ركائز خرسانية فوق الأرض الحمراء، وخلفها إسطلب صغير قاد جدي المهر والعربة إليه. في المقدمة، كان هناك شرفة محمية من أشعة الشمس الحارقة بسقف من الصفيح، وملبئة بقطع الأثاث التي بدت وكأنها مصممة للداخل، وقد ذكرني ذلك بمنزل جدة كريسي. رفعتُ حقيبتي إلى أعلى الدرج واستدرتُ لتأمل المنظر.

وضع يده برفق على كتفي بينما كنّا نتأمل المناظر الطبيعية الممتدة أمامنا. كانت أشعة الشمس الغاربة تتسرب عبر نتوء صخري يلتف خلفه جدول صغير يتلأأ في التربة الحمراء، وأكواخ هيرمانسبورغ البيض تتكتل في البعيد مغمورةً بوهج برتقالي عميق.

قال وهو يشير إلى الورا: «انظري. إلى الشمال الغربي، هاستس بلاف، بالقرب من يابونيا. وإلى الشمال الشرقي، سلسلة جبال ماكدونيل. لطالما كانت هيفيتري غاب مكاني المفضل للرسم».

«أهو المكان الذي التقطت فيه صورتك مع ناماتجيرا؟».

ابتسم وقد راقه ذلك: «نعم. أرى أنكِ قمتِ ببعض التحريات».

اعترفت قائلة: «فيل هو من أخبرني بذلك».

«نعم، لقد كنا هناك معًا مرّات عدّة».

كانت أصابعي ترتعش رغبة في رسم المنظر عندما قلت: «المنظر مذهل».

«فلندخل».

كانت تفوح في الكوخ رائحة زيت التربنتين والألوان. وكانت الغرفة التي دخلناها صغيرة، تحتوي على أريكة قديمة موضوعة أمام مدفأة مفتوحة، ويحتل باقي المساحة مسند للرسم مليء بأوعية الألوان والفراشي، وعلى الأرض عدد من اللوحات المستندة إلى الجدران.

«دعينا نر ما لدينا للعشاء».

تبعته إلى غرفة مجاورة تحتوي على ثلاجة قديمة صاخبة، وموقد غاز، وحوض بلا صباير.

«لدي بعض شرائح اللحم، ما رأيك في أن نحضرها مع قليل من الخضار؟».

«يبدو ذلك عظيمًا».

«تجدين الأطباق وأدوات المائدة في تلك الخزانة. هناك مقلاة وطنجرة أيضًا».

بحثت في الخزانة ووضعت الأشياء المطلوبة على الطاولة الخشبية الصغيرة في وسط الغرفة. في هذه الأثناء، أخرج بعض الجزر والبصل والبطاطس من الثلاجة وبدأ في تقشيرها وتقطيعها بمهارة. جلسْتُ وشاهدته، وعقلي يحاول فهم الروابط الجينية التي تجمعنا. قد ينبغي لي أن أرسم شجرة عائلتي ذات يوم.

سألني وهو يعمل: «هل تجيدين الطبخ يا سيلينو؟».

اعترفتُ: «لا. كانت شقيقتي ستار هي التي تتكفل بالطبخ».

«هل تعيشان معًا؟».

«كنا نعيش معًا، قبل بضعة أشهر».

«ماذا حدث؟ تخاصمتما؟».

«لا... إنها قصة طويلة».

قال وهو يشعل موقد الغاز ويرمي الخضار في المقلاة، مع بعض الأعشاب التي لم أكن أعرفها: «حسنًا، بعد العشاء، يمكنك أن تخبريني بكل شيء عن حياتك».

جلسنا على الشرفة وتناولتُ ألدَّ شرائح لحم تذوّقتها في حياتي كلّها، ربما لأنني كنت أتصوّر جوعًا. ثم أدركتُ أنها كانت وجبتي الأولى مع أحد أقاربي بالدم، وتعجّبتُ كيف يتناول الآخرون وجباتهم مع أقاربهم كلّ يوم ولا يفكرون في هذه النعمة الإلهية.

حين انتهينا من تناول الطعام، أراني جدي برميل مياه الأمطار في الجزء الخلفي من الكوخ. غرقتُ بعضًا منه وذهبتُ به إلى الحوض حيث غسلتُ الأطباق بينما كان هو يقوم بإعداد القهوة. أشعل مصباح زيت على الشرفة، وجلسنا نشرب القهوة.

«إذا كانت ما تزال لديك بعض الشكوك، فإنني في هذه الحالة، أريد منك أن تلقي نظرة على هذا».

كانت صورة أخرى بالأبيض والأسود، وهذه المرة لرجل يقف بين امرأتين. على الرغم من أن بشرة إحداهما كانت أغمق من بشرتي، كان من الممكن أن تكون نسخة عني. كانت العينان تقطعان الشك باليقين؛ كان لهما شكل عينيّ اللوزي نفسه.

«هل ترين الشبه؟».

«نعم. عيناك أيضًا لهما الشكل نفسه. هل كانت والدتك؟».

«نعم، ألكينا، أو «كات» كما كان الجميع ينادونها. وكما تعلمين، لم أعرفها مطلقًا».

أشرت إلى الرجل الأشقر الوسيم الذي كان أطول من المرأتين، ويحيطهما بذراعيه.

«تشارلي ميرسر. جدك الأكبر وأبي».

«والمرأة الأخرى؟».

«كاميرا، جدتي. باستثناء سارة، كانت أروع إنسانة عرفتُها على الإطلاق. لطيفة وشجاعة....».

حوّل عينيه إلى الأفق ورأيت أنهما كانتا تغرورقان بالدموع.

«إذًا، فقد أتت لتعتني بك في هيرمانسبورغ؟».

«أوه نعم، لقد جاءت. نشأتُ معتقدًا أنها أُمي، ولم يكن ذلك مستحيلًا. كانت في أوائل الأربعينات عندما وُلِدْتُ».

«هل عرف تشارلي ميرسر بوجودك؟ هل التقيتَ به؟».

تنهّد قائلاً: «سيلينو، دعينا نترك الماضي في الوقت الحاضر. أريد أن تحدثني عنك. كيف كانت حياتك؟».

«هذا سؤال كبير».

«إذًا دعيني أساعدك. عندما بدأت البحث عن ابنتي وقادتني تحرياتي إليك في النهاية، قيل لي إن رجلًا ثريًا من سويسرا قد تبّنك. هل عشتِ طفولتك هناك؟».

«نعم، في جنيف».

«لديك أشقاء وشقيقات؟».

«شقيقات فقط. وجميعنا تبّنانا رجل واحد».

«ما هي أسماء شقيقاتك وأعمارهن؟»

«قد تجد ذلك غريبًا، لكننا جميعًا نحمل أسماء الشقيقات السبع».

اتّسعت عيناه باهتمام واعتقدت أنه يمكنني على الأقلّ ألاّ أستطرد في شرح الأسطورة. كان هذا الرجل يعرفهنّ منذ ولادته. وكنّ أسلافه أيضًا.

«تقولين إنك ست شقيقات؟».

«نعم».

«كما في الأسطورة»، قلنا ذلك معًا وضحكنا.

«ميرورب موجودة، على الرغم من أنها تختبئ في بعض الأحيان. ربما تنضم إليك ذات يوم».

«حسنًا، لقد فات الأوان، بالنسبة إلى يا على الأقل. لقد توفي في حزيران الماضي».

«آسف يا سيلينو. هل كان رجلاً صالحاً؟».

- نعم، جدًّا. على الرغم من أنني كنت أشعر أحيانًا بأنه يحب شقيقتي الأخريات أكثر مني. إنهنَّ جميعًا موهوبات وجميلات».

«أنتِ أيضًا موهوبة وجميلة. وتذكري أن لا شيء يحدث بالمصادفة. كلَّ شيء مقدر ومكتوب حتَّى قبل أن نأخذ نفسنا الأول.
«هل تعتقد ذلك حقًّا؟».

- عندما أفكر في الطريقة التي عثر عليَّ بها أحد أقاربي وكنت لا أزال راضيًّا، وأحضر جدتي لتعطني بي، لا يسعني إلا أن أومن بأن أقدارنا مكتوبة. لا أعرف معتقداتك الدينية، ولكنَّ بالتأكيد لا يمكن لأي رجل أو امرأة أن ينكر أنه لا بدَّ من وجود شيء أو أحد أكبر منَّا؟ أنا شخصيًّا، أضع ثقتي في الكون، على الرغم من أنني أشعر أحيانًا بأنه خذلني، كما حدث عندما فقدتُ ابنتي. لكنه كان الطريق الذي يجب أن تسلكه، وعليَّ أن أتقبل الألم.

وجدت هذا الرجل حكيماً ووقوراً. وببالغ الألم، فكَّرت كم كان يذكّرني بـ
سولت.

«مرة أخرى، ابتعدنا عن مسار حياتك. أرجوك، أخبريني عن شقيقاتك».

أوجزت له السيرة الذاتية لكل واحدة منهنَّ، مثلما سبق وفعلتُ مرّات عدّة.
«أرى ذلك. ولكن يبدو أنك نسيّت إحداهن».

أحصيتهن في ذهني. «لا، لقد أعطيتك موجزًا عنهنَّ جميعًا».
«وأنتِ؟ لم تخبريني عنكِ بعد».

جلوتُ صوتي وقلْتُ: «أوه، صحيح، حسنًا. ليس هناك الكثير يُقال حقًّا. أعيش في لندن مع ستار، على الرغم من أنني أعتقد أنها ربّما انتقلت إلى مكان آخر بشكل دائم أثناء غيابي. كنتُ غبية في المدرسة لأنني أعاني من عسر القراءة. إنه...».

«أعرف ما هو عسر القراءة، لأنني أعاني منه أيضًا. وكذلك كانت والدتك».

بعثت كلمة «والدتك» رعدة غريبة في جسدي كله. وعلى الرغم من أن ما قاله حتى الآن كان يدفعني إلى أن أؤمن أنها ماتت، لكنه على الأقل، قد يكون قادرًا على إخباري عنها.

«إنها مشكلة وراثية إذا. كانت ستار - أو أستروپ - الشقيقة الأقرب إليّ، لأننا كنا في الوسط، ولم يكن يفصل بيننا سوى بضعة أشهر. إنها ذكية حقًا، وأسوًا ما في الأمر هو أن كوني غيبية في الدراسة قد أعاقها وقصّ جناحيها. كانت قد نجحت في الحصول على مكان في كامبريدج، لكنها رفضته. وجاءت معي إلى الجامعة في ساسكس. أعلم أنني ضغطتُ عليها لكي تبقى معي، واليوم أشعر بالذنب حقًا».

«ربّما هي أيضًا، لم تكن تريد الانفصال عنكِ يا سيلينو».

«نعم، هذا ممكن، لكن في بعض الأحيان، تتطلّب الحياة أن تبرهن أنك الأكبر والأنضج، أليس كذلك؟ كان عليّ أن أقنعها بالذهاب إلى كامبريدج، وأطمئنتها بآلا تقلق عليّ، لو أنني كنت أحبّها حقًا. وكنت أحبّها، وما أزال».

«الحب هو أشدّ العواطف أنانيةً وإيثارًا في آن معًا، يا سيلينو، وهذان الوجهان لا يمكن الفصل بينهما. إن الحاجة إلى الآخر الذي نحبه تتعارض مع الرغبة في أن يكون سعيدًا. لذا، وللأسف، الحب ليس شيئًا يُعقلَن ولا يقدر أيّ كائن بشري على الإفلات من قبضته، صدقيني. ماذا درستِ في الجامعة؟».

«تاريخ الفن. لقد كانت كارثة وتركت الجامعة بعد فصلين. لم أكن قادرة على قراءة المقالات بسبب عسر القراءة الذي أعاني منه».

«أفهم ذلك. ولكن، هل كانت دراسة تاريخ الفن تهمك؟».

«يا إلهي، نعم، الفن هو الشيء الوحيد الذي أجيد».

«أنت فنانة؟».

«قد لا أقول ذلك. أقصد، أنني حصلت على مكان في الكلية الملكية في لندن، وكان ذلك رائعًا، ولكن بعد ذلك...».

غمرني الخجل إذ أدركت أن هذا الرجل قد بذل جهدًا كبيرًا للعثور عليّ وليسمع النجاحات التي حققتها في حياتي، لكنني في الحقيقة، وطوال السبعة

وعشرين عامًا الماضية، لم أحقق شيئاً على الإطلاق. «لم تسر الأمور على ما يُرام. غادرت بعد ثلاثة أشهر وجئت إلى هنا. آسفة».

قال جدي ليخفف عني: «لا حاجة للاعتذار لي، أو لنفسك. سأفضي لك بسر؛ لقد فزتُ بمكان في مدرسة ملبورن للفنون، وقد ساعدني رجل يُدعى ريكس باتاربي، الشخص الذي درّس ناماتجيرا. لم أصمد أربعة أيام، وهربت عائداً إلى منزلي في هيرمانسبورغ».

«حقاً؟».

«أجل. وكانت لحظة قلق رهيبة أتلّفت أعصابي، حيث اضطررتُ إلى مواجهة جدتي كاميرا عندما وصلت أخيراً إلى المنزل بعد رحلة استغرقت شهراً كاملاً. كانت فخورة جداً بدخولي تلك المدرسة. ظننت أنها ستضربني، لكنها كانت سعيدة برؤيتي آمناً وبصحة جيدة. كانت العقوبة الوحيدة التي فرضتها عليّ، هي أنها حبستني في السقيفة مع برميل من الماء، لكي أغتسل من رأسي حتّى أخمص قدميّ بصابون الكربوليك!

«ومع ذلك أصبحتُ فناناً مشهوراً؟».

«لقد أصبحتُ فناناً، نعم، ولكنّ بأسلوبٍ الخاص، تماماً كما تفعلين أنتِ. هل عدتِ للرسم مجدداً؟».

«أصبحتُ أجد صعوبة كبيرة في الآونة الأخيرة، لأكون صادقة. لقد فقدتُ ثقتي بنفسي بعد أن تركتُ الكلية في تشرين الثاني.

«هذا طبيعي، لكنها ستعود، عندما يطرق ذهنك شيء ما؛ منظر طبيعي، أو فكرة. وهذا الشعور في أحشائك سينتقل إلى يدك التي لن تهدأ ما لم ترسم، و...». قلتُ بحماسة: «أعرف هذا الشعور! هذا بالضبط ما يحدث لي!». من بين كلّ ما قاله لي جدي حتّى الآن، كانت هذه هي اللحظة التي اعتقدت فيها حقاً أن الدم نفسه يجري في عروقي.

أضفتُ: «لقد حدث لي هذا الشعور منذ بضعة أيام عندما كنتُ أقود سيارتي عائدة مع صديقتي كريسي من هيرمانسبورغ، ورأيتُ غروب الشمس خلف سلسلة

جبال ماكدونيل. في اليوم التالي، استعرتُ بعض الألوان المائية، وجلستُ تحت شجرة لبان... ورسمتُ! قالتُ، أقصد صديقتي كريسي، إنها لوحة رائعة، ثم أخذتها إلى معرض في أليس سپرينغز من دون علمي، حيث صنعوا لها إطارًا، وقالوا إنهم سيعرضونها مقابل ستمئة دولار!..».

خبط جدي على ركبتيه وقال: «لو أنني لم أقلع عن الشراب، لشربت نخبك. أتشوق حقًا لرؤية اللوحة».

«أوه، لا أعتقد حقًا أنها مميزة، ولم يكن لديّ سوى علبة قديمة من الألوان المائية التي يستعملها الأطفال...»

«لكنها على الأقل كانت البداية، أنا على يقين من أنها أفضل كثيرًا مما تعتقدن». كانت عيناه تومضان بما يشبه السعادة الحقيقية. «لقد رأيتُ لوحتكِ عجلة النار في كتاب. إنها رائعة».

«شكرًا لك. ومن المثير للاهتمام، أنها ليست المفضلة لديّ، ولكن في كثير من الأحيان، لا تتوافق ذائقة الفنان مع وجهة النظر النقدية أو العامة».

قلتُ له: «لقد رسمتُ بأسلوب التنقيط لوحة جدارية للشقيقات السبع عندما كنت أصغر سنًا. ولم أكن أعرف حتّى لماذا كنت أفعل ذلك».

أجاب فرنسيس: «كان الأسلاف يرشدونك إلى موطنك».

«لقد كافحتُ دائمًا لأجد أسلوبِي الخاص...».

«كما يفعل أيّ رسام موهوب».

«عندما رأيتُ هذا الصباح، الطريقة التي مزجتَ بها أنت وكليفورد بوسوم أسلوبين مختلفين للخروج بشيء جديد، أغوتني تجربة شيء من هذا القبيل».

لم يحرّجني بالسؤال عن ماهية الشيء الذي أرغب في تجربته، واكتفى بالتحديق إليّ بعينه الاستثنائيتين.

«إدًا، عليك أن تجربي. وبأسرع ما يمكنك. لا تدعي لحظة الإلهام تمر. ولا تقارني نفسك بالفنانين الآخرين، سواء كانوا أفضل منك أو أسوأ، لأن المقارنة لا تؤدي إلّا إلى اليأس...».

انتظرتُ، وكنت أعلم أن لديه أشياء يقولها.

«لقد وقعتُ في هذا الفخ عندما بدأت لوحات كليف تحظى باعتراف وطني. كان عبقرياً وما أزال أفتقده حتى اليوم، كنا صديقين رائعين. لكن الغيرة أكلتني عندما رأيتَه يرتقي إلى الشهرة ويتملقه الآخرون. كنت أعلم أن ذلك لن يحدث لي أبداً. لا يمكن أن يمثل مدرسةً رسمٍ جديدةً إلا فنان واحد، كان هو. لذا أدركت أنني لن أكون أبداً ذلك الفنان».

سألته: «هل فقدت الثقة بموهبتك؟».

«بل أسوأ من ذلك. لم أتوقف عن الرسم فحسب، بل بدأت أتعاطى الكحول. تركت زوجتي المسكينة وذهبتُ للتجوال لأكثر من ثلاثة أشهر. لا أستطيع أن أصف لك الغيرة التي شعرتُ بها، أو كيف بدا فني بلا معنى في ذلك الحين. لقد استغرق الأمر مني وحدي كل هذا الوقت لأدرك أن النجاح والشهرة لأيّ فنان حقيقي هما مجرد سراب. المتعة الحقيقية تكمن في العملية الإبداعية نفسها. سوف تكونين دائماً عبدةً لها، ونعم، سوف تهيمن على حياتك، وتتحكّم فيك مثل عاشق تملّكي. ولكن على عكس العاشق، فهي لن تتركك أبداً. إنها في داخلك إلى الأبد».

سألته: «عندما قبلت ذلك، هل استطعتَ الرسم من جديد؟».

«عدتُ إلى المنزل، ثملاً ومكسوراً. أرقدتني زوجتي في السرير واعتنت بي إلى أن تحسّنت حالتي البدنية. كان تعافيّ العقليّ قد بدأ أثناء وجودي في الأدغال، لكنّ الأمر استغرق وقتاً طويلاً حتى استجمعتُ شجاعتي وجلستُ أمام لوحة قماشية وأمسكتُ بالفرشاة ثانية. لن أنسى أبداً كيف كانت يدي ترتعش عندما التقطتُ الفرشاة مجدّداً. وأخيراً، فإن حقيقة معرفة أنني لا أرسّم لأحد إلا لنفسي، وأنني قد لا أحقق أبداً هدفي الأصلي المتمثل في الشهرة العالمية، أعطتني إحساساً بالسلام والحرية لا أستطيع وصفه. منذ ذلك الحين - طوال الثلاثين عاماً الماضية أو نحو ذلك - تحسّنت لوحاتي، وفي الواقع، أصبحت الآن تُباع بأسعار باهظة، وذلك ببساطة لأنني لا أرسّم إلا عندما أشعر بالحاجة إلى الرسم، حاجة لا تقاوم. هذا هو ما أنا عليه اليوم».

جلسنا وخيمت بيننا برهة صمت مريح. كنت قد بدأت أتعلّم أن جدي، مثل لوحته، لا يتحدث إلا عندما يكون لديه ما يقوله. شعرتُ أيضًا بأنني جمعتُ كمية هائلة من المعلومات في خلال اليومين الماضيين. وكطفل يحمل علبة من الحلوى، أردتُ أن أخبرها كلّها في خزانة ذهني، وأتذوّق الوقائع قطعة تلو الأخرى.

«انظري!».

قفزت حوالى عشرين سنتمترًا في الهواء عندما سمعت صوته، وكان رد فعلي الفوري هو الذعر، وكأنه يشير إلى ثعبان أو عنكبوت.

«هناك في الأعلى». أشار وتبعّت إصبعه إلى كوكبة النجوم الحليبية المألوفة المعلّقة في السماء. لم يسبق لي أن رأيْتُها بمثل هذا القرب. «ها أنتِ ذا.»

ثم تقدّم مني ووضع ذراعه حول كتفي: «هذه أنتِ، وهذه والدتك بليونى، ووالدك أطلس. انظري، حتّى شقيقتك الصغرى تظهر لنا نفسها الليلة.»

«يا إلهي! إنها هناك! أستطيع رؤيتها!»، واستطعت. كانت ميروپ مفعمة بالحيوية مثلنا جميعًا. بدا أننا نتألّق هنا أكثر من أيّ مكان آخر.

«ستنضم إلينا قريبًا يا سيلينو. لقد تمكنت أخيرًا من اللحاق بشقيقاتها...».

سقطت يده ثقيلة على جانبه. ثم التفت إليّ ومدّ ذراعيه وسحبني إليه بقوة. لففت ذراعيّ حول خصره، ثم سمعت صوتًا غريبًا خارجًا من حلقه، وأدركت أنه كان يبيكي. كنتُ بخير وشعرتُ بالسعادة، إذ كنت أقف مع جدي تحت شقيقتاتي وپا سولت في هذا المكان المذهل. ثم قررتُ أن لا بأس في أن أنضمّ إليه وأذرف الدموع.

في النهاية، ابتعد عني وأخذ وجهي بين يديه: «هل يمكنكِ أن تصدّقي ذلك؟ أنت وأنا، حفيدا سلالة قوية، نقف معًا هنا، تحت النجوم؟».

قلتُ وأنا أمسح أنفي: «لا أستطيع أن أصدّق.».

«لا. لقد صدّقتُ ذلك لتوّي ورأيتِ النتيجة. من الأفضل تجاهل ذلك. والآن، هل يسرّك البقاء هنا الليلة؟ هناك سرير مريح لك وسوف أنام على الأريكة في الخارج.».

أحبته مذهولةً من نفسي: «نعم، لكنني لم أشعر بمثل هذه الحماية من قبل. أووه، أين المرحاض؟».

«في الخلف. سأتي معكِ للتحقق من خلوه من الدخلاء، إذا كنت تفهمين ما أقصده».

قضيتُ حاجتي، ثم عدتُ إلى الكوخ، ورأيت أن باب الغرفة كان مغلقاً. قال جدي وهو يضع وسادتين نظيفتين على الفراش: «أغتر الملاءات فقط. ستغضب سارة إذا عرفت أنني لم أستخدم الكتان النظيف لحفידتنا».

«كانت سارة زوجتك؟».

مكتبة

t.me/soramnqraa

«نعم».

«من أين هي؟».

«من لندن، حيث قلتُ إنكِ تعيشين».

أخرج غطاءً من صندوق السيارة وألقاه فوق الفراش. «سأحضر لك بطانية، فقد يبرد الجو في الساعات الأولى من الصباح، وهناك مروحة إذا أصبح الجو حاراً جداً. تجدين منشفة على الكرسي إذا رغبت في الاستحمام».

«شكراً، ولكن هل أنت متأكد من أنني لا أضايقك؟ أنا معتادة على النوم في أي كان».

«ليس لدي أي مشكلة. في الغالب أنام في الخارج».

أردتُ أن أخبره أنني أفعل ذلك أيضاً، لكن الأمر أصبح مبتذلاً بعض الشيء».

اقترب وقبّلني على خدي: «تصبحين على خير».

«بالمناسبة، كيف يجب أن أناديك؟».

«أعتقد أن فرنسيس يفي بالغرض، أليس كذلك؟».

ثم أضاف: «نامي جيداً».

أغلق الباب خلفه، بعد أن وضع حقيبتني على الأرض بجانب السرير. خلعت ملابسِي وصعدت إلى السرير. كان الفراش محشواً بشعر الخيل يتوسطه تجويف صنعتُه أجساد قديمة قبلي، وكان جاهزاً للغوص فيه، وبدا رائعاً. تفحصت السقف

والجدران الخشبية الخشنة بحثاً عن كائنات كثيرة الأرجل، لكنني لم أتمكن من رؤية أي منها في ضوء المصباح الخافت. شعرتُ بأمان لم يسبق لي أن شعرتُ بمثله، وكأنني قبل اليوم كنت فراشة تحوم حول اللهب مفتونة بالضوء، والآن وصلت. قد أتخطم وأحترق، ولكن قبل أن يكبر قلقي من هذا المصير، غرقتُ في نوم عميق.

عندما استيقظتُ في صباح اليوم التالي، كانت الشمس تشرق من فوق قمة جبل هيرمانسبورغ، خجولة مثل طفل صغير يختبئ خلف ساقَي أمه. نظرتُ إلى ساعتَي ولم تبلغ السادسة بعد، لكنني شعرتُ بالإثارة لاستقبال اليوم الجديد. لاحظتُ أن ربلتي قد حَوَّلها البعوض إلى لوحَتين منقُطَتين، فارتديتُ سروالاً لعدم رغبتَي في أن تلتهم هذه المخلوقات مزيداً مني قبل أن أتناول وجبة الفطور.

عندما فتحتُ باب الغرفة، فاحت رائحة الخبز الطازج من المطبخ. كان جدِّي يضع رغيفاً من الخبز على الطاولة في الخارج، بالإضافة إلى الزبدة والمربى وإبريق القهوة.

«صباح الخير يا سيلينو. هل نمتَ جيداً؟».

«بعمق حقاً، شكرًا. وأنتَ؟».

«أنا بومة ليلية. تأتيني أفضل الأفكار بعد منتصف الليل».

قلتُ وهو يجلس: «أنا أيضًا. يا إلهي، ما أطيب رائحة هذا الخبز! لم أكن أعلم أنه يوجد مخبز في الجوار».

«أخبره بنفسي. اشتريت لي زوجتي فرناً منذ عشر سنوات. في كثير من الأحيان، أقضي هنا وقتًا طويلًا، وأرادت التأكد من أن لدي شيئًا آكله في حالة عدم تمكّني من إطلاق النار على كنغر عابر».

«هل سبق لك أن أطلقت النار على أحدها؟».

«مرات عدّة، لكنّ ذلك كان منذ زمن بعيد. اليوم، أفضل الخيار الأسهل، السوپر ماركت».

وضع لي شريحة من الخبز الساخن على طبق معدني. غطيتها بطبقة من المربى والزبدة ورأيتها تذوب في العجين الناعم.

قلتُ وأنا ألتهم شطيرتي بنهم: «إنها لذيذة جدًا».

قطع لي شريحة أخرى. وتابع: «إذًا، فقد عشتَ حقًا في الأدغال؟ ومن دون كوخ تأوي إليه؟».

قال: «نعم. لقد ذهبتُ للمرة الأولى، على غرار جميع أولاد السكان الأصليين، في سن البلوغ، في الرابعة عشرة تقريبًا».

«لكنني كنتُ أعتقد أنكَ تلقيتَ تربية مسيحية».

«نعم، صحيح، لكن القسَّ كان يحترم تقاليدنا ولم يتَّخذ أيَّ إجراء لمنعنا من ممارستها. كنا في هيرمانسبورغ أكثر حظًا من الآخرين. حتَّى أن القسَّ ألبريخت تعلَّم لغة الآرتني وترجم الكتاب المقدس إليها، حتَّى يتمكن أولئك الذين لا يتحدثون الإنجليزية أو الألمانية من قراءته والاستمتاع به أيضًا. لقد كان رجلًا صالحًا، وكانت الإرسالية مكانًا جيّدًا. كنا نذهب ونجيء كما نشاء، لكن معظمنا كان يعود دائمًا. وبعد أن عشتُ عشرين عامًا في يابونيا، أنا أيضًا، عدتُ إلى الوطن. والآن، ما هي خططك؟».

«لقد جئتُ إلى أستراليا للعثور على عائلتي، ووجدتُك. ابتسمتُ له وأضفتُ: «لم أفكر أبعد من ذلك بعد، وليس لديّ أيّ خطط».

«عظيم. في الواقع، كنتُ أتساءل إن كنتَ ترغبين في البقاء معي بعض الوقت؟ لكي يتعرّف أحدها إلى الآخر حقًا. والرسم بالطبع؛ كنتُ أفكر أنه ربّما يمكنني أن أكون معلمًا لطيفًا، وربما أساعدك في اكتشاف أين يكمن أسلوبك الفني حقًا. لقد درّست في يابونيا لسنوات عدة».

«أوووه...».

لا بُدَّ من أنه رأى تعبير الخوف على وجهي، فقال: «في الواقع، لا تقلقي، لا شيء يرغمك على ذلك. كانت مجرد فكرة».

«لا! إنها فكرة رائعة! في الواقع، نعم! المشكلة هي... حسنًا، أنتَ مشهور جدًا، وأنا قلقة من أنك قد تكتشف أنني لستُ موهوبة».

«لن يحدث ذلك أبدًا يا سيلينو، فأنتَ حفيدتي كبداية! أنا لم أقدم أيَّ إسهام في حياتك، ويمكنني الآن أن أساعدك في العثور على طريقك».

«ربما ينبغي لك أن ترى عملي قبل أن توافق على مساعدتي».

«إذا كان ذلك يسعدك، فسأفعل. لقد أردنا البقاء هنا لبضعة أيام، لذا يجب أن نذهب إلى أليس للتسوق، وفي أثناء وجودنا هناك، يمكننا الذهاب إلى المعرض الذي يعرض لوحتك».

«حسنًا، على الرغم من أنك قد تجدها رديئة...».

«اصمتي يا سيلينو».

وضع فرنسيس إصبعه على شفثيه وأضاف: «الأفكار السلبية تؤدي إلى العمل السلبي».

رفعنا وجبة الفطور، وأزلنا الفتات حتى أصبحت الطاولة نظيفة تمامًا من أي نتفة طعام قد تجلب جيشًا من النمل قبل عودتنا. ثم توجهنا إلى الجزء الخلفي من الإسطبل، حيث كانت ترقد شاحنة صغيرة قديمة في ظل شجرة مولغا.

وصلنا إلى المدينة بعد ثلاث ساعات، وقادنا جدي مباشرة إلى السوبر ماركت لشراء ما يلزمنا من أطعمة وموّن. كانت عملية بطيئة، حيث كان كُثر يأتون لتحيتته متمنين له «يومًا سعيدًا». حتى أن إحدى النساء طلبت التقاط صورة معه، فوقف محرّجًا أمام زاوية اللحوم، وبدا عليه الضيق. استمرت الأمور على هذا المنوال في أنحاء المدينة، وبدأت أدرك أن جدي - حتى لو لم يكن كليفورد پوسوم - كان بالتأكيد أحد كبار المشاهير في الجوار. وقد تأكد ذلك عندما كنتُ أتبعه في المعرض والفنانون عندما يرونه يتوقفون عن عملهم ويحدّقون إليه ذاهلين فاغري الفم. اجتمعوا حوله، وراحوا يتحدثون بلغة أخرى، وفرنسيس يجيبهم بطلاقة. بعد الصور والتوقيعات، خفق قلبي عندما سأل ميرين، موظفة الاستقبال، أين علّقت لوحة حفيدته.

«حفيدتك؟». حدّقت ميرين إلى وجهي، وبدت مرتبكة، ثم هزّت رأسها. «أرجو المَعذرة. لم تعد موجودة».

سألتُ والذعر يغمرني: «أين هي إذًا؟».

«لم نعرضها إلا ساعة قبل أن يأتي زوجان ويشتريانها».

حدّقت إلى ميرين، وتساءلت إن لم تكن تغطي تقصيرها لأنها لم تؤطرها بعد.
«لذا، أنا الآن مدينة لك بثلاثمئة وخمسين دولارًا!».

قال جدي بما بدا في صوته وكأنه فخر: «حسنًا، هذا هو أفضل سبب منعني من عدم رؤية عملك».

«سيلينو موهوبة يا سيد أبراهام. سأشتري أي شيء آخر ترسمه، موافقة؟»
بعد بضعة دقائق، غادرنا المعرض وفي جيبي الخلفي أول مبلغ نقدي كسبته من فني. وبينما كنت أسير في الشارع بجوار فرنسيس أبراهام، الفنان الشهير وجدي، شعرتُ بسعادة غامرة.



قال جدي وهو يشد آخر صمولة على الحامل الذي اشتريته من عائدات البيع: «حسنًا، سأدعك لعملك. هل لديك كل ما تحتاجينه؟»
«بل أكثر».

على الطاولة القابلة للطي بجواري، كانت ترقد مجموعة جديدة من الألوان المائية والزيتية والباستيل، بالإضافة إلى مجموعة من الفراشي.
قال وهو يضع يده على كتفي مطمئنًا: «ستعرفين انتقاء ما ستستخدمينه منها. تذكرني أن الذعر يخنق غرائزك ويجعلك عمياء».

أشعل لفافة طاردة للحشرات بجانب ساقي لطرد الذباب، ثم غادر وأنا أحدّق إلى اللوحة الفارغة أمامي. لم أشعر قط بمثل هذا الضغط. فتحت أنبوبي اللونين الزيتيين، البرتقالي والبني، وخلطتهما معًا.

زفرت وقلتُ لنفسِي: «هيا بنا». ثم التقطتُ فرشاة جديدة لامعة وبدأتُ أرسم. بعد خمس وأربعين دقيقة، نزعْتُ اللوحة عن الحامل وألقيتها على الأرض لأنها كانت مروّعة. بعد ذلك، جربت الورق والألوان المائية، واستخدمت جبل هيرمانسبورغ موضوعًا في محاولة لتكرار اللوحة التي رسمتها قبل بضعة أيام، لكنها كانت بعد أسوأ، فمزقتها أيضًا.

صاح فرنسيس من الكوخ: «إنه وقت الغداء».

أجبتُه: «لستُ جائعة»، وأخفيتُ اللوحة الأولى تحت كرسيي متمنية ألا يلاحظها.

قال وهو يقترب من الشرفة ويضع الطبق على ركبتي: «إنها مجرد شطيرة من لحم الخنزير والجبن. كانت جدّتك تقول إن عقل الفنان يحتاج إلى غذاء. لا تقلقي، لن ألقى نظرة واحدة على أي شيء ترسمينه حتّى نهاية الأسبوع. لا تستعجلي، لديك متّسع من الوقت».

هذأت كلماته - والشطيرة الرائعة - من روعي مؤقتًا، ولكن بحلول نهاية اليوم كنت على استعداد لأخذ حقيقتي والعودة إلى أليس سپرينغز لإغراق أحزاني في إحدى حاناتها. وما زاد من يأسِي، هو أنني عندما عدت إلى الداخل لأبرد نفسي بجوار المروحة، رأيتُ جدي جالسًا على كرسي وأمامه لوحة ضخمة. رأيتُه يمزج الألوان، ثم يأخذ فرشاة ويملأ مساحة أخرى بنقاط معقّدة. في وسط مزيج رائع من الألوان الوردية والبنفسجية والخضر، تمكّنت من رؤية شكل حمامة تكاد تكون غير مرئية، مرسومة بسلسلة من البقع البيضاء الصغيرة.

إنه عبقرِي، وأنا لا أستطيع أن أرسم جدار المطبخ، هذا ما قلّته لنفسي وأنا أقرب وجهي من المروحة لأبرّده. كنتُ من القرب بحيث تشابك شعري بشفراتها وكدت أسلخ فروة رأسي.

قلّت، بينما كان فرنسيس يفك خصل شعري: «لوحتك رائعة. رائعة جدًّا!»
«شكرًا لك يا سيلينو. لم أشتغل عليها منذ أسابيع، ولم أكن متأكّدًا أين أذهب، لكن رؤيتك جالسة هناك في الخارج أوحّت لي بفكرة».

«تقصد الحمامة؟».

«هل رأيتها؟».

على الرغم من أنني لم أتمكّن من النظر إليه لأنه كان لا يزال يتصارع مع شعري، كنت أعلم أنه سعيد بملاحظتي.

«أعتقد أنني سأضطرّ إلى قص الخصل الأخيرة».

شَجَعْتَهُ، لَأَنْ رَقَبْتِي بَدَأَتْ تَوْلُمْنِي بِشِدَّةٍ: «مَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ».

«سَأَفْعَلُ». عَادَ وَهُوَ يَلُوحُ بِمَقْصَصٍ كَبِيرٍ: «هَلْ تَعْرِفِينَ مَا الَّذِي يَمْنَعُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْ تَحْقِيقِ إِمْكَانَاتِهِ الْكَامِلَةِ؟».

«مَاذَا؟».

أَحْسَسْتُ بِيَدِهِ تَسْحَبُ بِكَثِيرٍ مِنَ الرِّقَّةِ كِتْلَةَ الشَّعْرِ، ثُمَّ قَرَّبَ الْمَقْصَصَ مِنْ أُذُنِي الْيَمْنَى، وَتَبَادَرَ إِلَى ذَهْنِي قَانَ كَوَخٍ، لَكِنِّي اسْتَبْعَدْتُ الْفِكْرَةَ.

«الْخَوْفُ. عَلَيْكَ أَنْ تَتَخَلَّصِي مِنَ الْخَوْفِ».

قَرَنَ الْقَوْلَ بِالْفِعْلِ، وَأَطْبَقَ الْمَقْصَصَ عَلَى شَعْرِي.



لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ مَا إِذَا كَانَ جَدِي قَدْ مَارَسَ عَلَيَّ نَوْعًا مِنَ السَّحَرِ الْأَسْوَدِ، لَكِنِّي اسْتَيْقِظْتُ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ مَعَ شُعُورٍ عَمِيقٍ بِالسَّكِينَةِ.

قَالَ لِي بَيْنَمَا كُنَّا نَرْفَعُ أَطْبَاقَ الْفُطُورِ: «سَأَذْهَبُ الْيَوْمَ إِلَى جَاي كَرِيكَ، وَسَأَعُودُ مَتَأَخَّرًا. إِذَا صَادَفْتُكَ أَيُّ مُشْكَلَةٍ، اتَّصِلِي بِي، تَرَكْتُ رَقْمَ هَاتِفِي عَلَى الْمَدْفَأَةِ، اتَّفَقْنَا؟».

«هَلِ التَّغْطِيَةُ جَيِّدَةٌ هُنَا؟».

قَالَ مَبْتَسِمًا: «لَا. وَلَكِنْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، يُمْكِنُكَ الْحَصُولُ عَلَى تَغْطِيَةٍ مَقْبُولَةٍ بِجَوَارِ الْجَدُولِ. أَرَاكَ لَاحِقًا».

شَاهَدْتُهُ وَهُوَ يَقُودُ شَاحِنَتَهُ الصَّغِيرَةَ حَتَّى أَصْبَحَتْ نَقْطَةً صَغِيرَةً فِي الْأَفْقِ. ثُمَّ قَلْتُ لِنَفْسِي بِحَزْمٍ وَأَنَا أَضَعُ أَكْبَرَ لَوْحَةٍ قِمَاشِيَّةٍ كَانَتْ لَدَيَّ عَلَى الْحَامِلِ وَأَتَبَّهْتُ جَيِّدًا: «حَسَنًا، يَا سَيِّ، قَدْ تَكُونُ كَارِثَةٌ، لَكِنَّا سَنَتَحَلَّى بِالشَّجَاعَةِ وَنَحَاوُلُ».

حَوَّلْتُ الْحَامِلَ عَنْ جَبَلِ هِيرْمَانْسِبُورْغٍ، وَقَرَّرْتُ الْعَمَلَ مِنَ الذَّاكِرَةِ...

بَعْدَ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، عَدْتُ إِلَى نَفْسِي وَرَأَيْتُ الشَّمْسَ تَغْرِبُ وَالشَّاحِنَةَ تَشَقُّ طَرِيقَهَا أَعْلَى الْمُنْحَدَرِ. نَظَرْتُ إِلَى مَا أَنْجَزْتُهُ، وَاكْتَشَفْتُ أَنَّي لَمْ أَرْسَمْ سِوَى الْخُطُوطِ الْأَسَاسِيَّةِ وَلَوْنْتُ زَاوِيَةَ صَغِيرَةً مِنَ اللَّوْحَةِ، لَكِنْ حُدْسِي طَمَأْنَنِي بِأَنَّي كُنْتُ عَلَى

الطريق الصحيح. مع اقتراب الشاحنة، فككتُ القماشة عن الحامل وهرعتُ بها إلى الغرفة، لأنني لم أرغب حقاً في أن يراها جدي. ثم أغلقتُ الباب خلفي وذهبتُ لأشغل غلاية القهوة.

سألني عندما وصل إلى الشرفة: «كيف تسير الأمور؟».

قلتُ وأنا أسكب له فنجاناً من القهوة: «جيدة».

أوما برأسه وقال: «عظيم».

في صباح اليوم التالي، استيقظتُ مطلع الفجر، لأنني لم أكن أطيق الانتظار لإكمال العمل. وهكذا دواليك، في الأيام القليلة التي تلت. كان فرنسيس في الغالب يخرج في أثناء النهار، ليعود عند غروب الشمس ومعه شيء شهى للعشاء. بعد الوجبة، كنت أختفي في غرفتي لأدرس لوحتي وأفكر في مراحل اليوم التالي. كنتُ قد فقدتُ الإحساس بالوقت بينما كانت الأيام تتوالى، وقد ساعدني حقيقة أن هاتفي كان خارج التغطية.

مع ذلك خطرت كيسي في ذهني. ربما كانت تعتقد أن كلباً برياً افترسني، أو، أنني لم أكن أرغب في معرفة أي شيء عنها بعد إفصاحها واعترافها في ذلك الصباح المشؤوم؟ وكذلك ستار التي لا بُدَّ من أنها كانت تشعر بالقلق عليّ. أخذتُ هاتفي وذهبتُ إلى الجدول بحثاً عن التغطية، وبعثت لكل منهما رسالة نصية.

أرسم في المناطق النائية. كل شيء على ما يرام.

كانت أصابعي تتردد وأنا أتساءل إن كنتُ أرغب في إضافة ملاحظة: وأقيم مع جدي في الوقت الحاضر، لكنني عدلت عن ذلك وكتبت:

سنتحدث عند عودتي. لا توجد تغطية هنا. قبلاتي.

وقبل أن يتمكن ذهني من الغوص في الواقع، عدتُ إلى لوحتي.



وضعتُ فرشاتي جانبًا للمرة الأخيرة وتمطّطُ طويلًا. شعرتُ بأن ذراعي اليمنى خدرة وساخطة عليّ لفرط ما أطلتُ استخدام عضلاتها. حدّقتُ إلى النتيجة التي كانت أمام عينيّ، وحاولتُ التقاط الفرشة ثانية وإضافة لمسة هنا ولمسة هناك، لكنني كنت أعلم أنني أغوص في مياه خطيرة لو حاولت بلوغ الكمال، فالأفضل هو عدو الجيد. صرفتُ عينيّ وجسدي عنها وذهبتُ لأعدّ لنفسني فنجانًا قويًا من القهوة، ثم استلقيتُ على سريري في البرودة التي تنشرها المروحة، وشعرتُ بأنني خاوية تمامًا.



«سيلينو، هل تسمعينني؟».

زعلتُ: «نعم».

«إنها الحادية عشرة والنصف، ولم تتحركي منذ رأيتكِ عند عودتي أمس، لأجذك غارقة في النوم».

نظرتُ إلى الشمس الساطعة التي ترسل وابل أشعتها عبر النافذة، وتساءلتُ عن سبب استمرار سطوعها حتّى الساعة الحادية عشرة ليلاً.

«لقد نمتِ خمس عشرة ساعة متواصلة». ثم ابتسم وقال: «انهضي، لقد أحضرتُ لكِ القهوة».

«بحقّ يسوع! اللوحة! ما زالت في الخارج؟». قفزتُ من السرير، وكدت أدلق فنجان القهوة على الأرض.

«لقد أدخلتها. سقط بعض المطر في الساعات الأولى من الصباح. لا تقلقي، لم أنظر إليها فقد غطيّتها بملاءة بينما كنتُ أحملها».

ألقي يده الدافئة على كتفي وقال: «يشخص الدكتور أبراهام حالتكِ بما يُسمّى الإرهاق الذي يلي الرسم. لقد حدث لي ذلك أيضًا بعد (نشوة الرسم)، كما كانت تسميها سارة».

«نعم، حسنًا، ليس لديّ أيّ فكرة عما رسمته، سواء كان جيّدًا أم سيّئًا أو...».

«مهما تكن النتيجة، فهو أسبوع من حياتك، ولن يضيع. إذا كنتِ ترغبين في ذلك، فسوف نلقي نظرة بعد أن تتناولتي شيئًا ما. سأدعكِ لتغتسلي وترتدي ملابسكِ.»

«هل يمكننا أن نفعل ذلك الآن؟ أشعر بالتوتر ولا أطيع الانتظار!». تبعته إلى غرفة الجلوس.

أشار إلى الحامل المغطى بملاء بيضاء: «بالطبع. لا تقلقي، لقد تأكّدتُ من أنها كانت جافّة. من فضلك، اكشفي عنها.»

«قد لا تروق لك، و... لا أعرف إن كانت جيدة، و...».

«سيلينو، من فضلك، دعيني أرها.»

«حسنًا.»

اقتربتُ منه؛ أخذتُ نفسًا عميقًا، وسحبتُ الملاء. تراجع جدّي بضع خطوات إلى الوراء وعقد ذراعيه على صدره وهو يتفحصها. انضممتُ إليه وحذوتُ حذوه. ثمّ اقترب خطوة وتبعته مثل ظلّه.

التفت إليّ، ولم يخبرني تعبير وجهه بأي شيء. قال: «ما رأيك في ذلك؟».

أجبتُه: «كنتُ أظن أنك الشخص الذي من المفترض أن يعطي رأيَه!». «أولًا، أريد أن أسمع رأيك فيها.»

أعادتني كلماته إلى درس الفنّون، عندما كان المعلم يستخدم طريقة النقد الذاتي هذه، قبل أن يمزّق اللوحة إلى أشلاء. «أنا... تعجبني. كمحاولة أولى، على أيّ حال.»

«هذه بداية جيّدة. أكملني لو سمحتِ. توسّعي أكثر.»

«حسنًا، حاولتُ مقارنة جديدة للمنظر الذي رسمته قبل بضعة أسابيع، باستخدام الألوان الزيتية بدلًا من المائية، وبأسلوب التنقيط.»

«عظيم.»

شاهدتُ جدّي يقترب من اللوحة ويشير إلى شجرة اللّبان ولحائها المليء

بالعقد. قال: «يبدو لي هذا مثل عيين، وهناك في الأعلى، في الكهف، هناك دائرة صغيرة باللون الأبيض، مثل روح تدخل إليه».

غمرتني السعادة بملاحظته، فقلتُ: «نعم، جاءتني الفكرة من ميروپ، الشقيقة السابعة، عندما تراقبها عينا الرجل العجوز وهي تدخل الكهف».

«خمنت أنه شيء من هذا القبيل».

لم أستطع التحمل أكثر من ذلك فقلت: «إدًا. ما رأيك؟»

«أعتقد يا سيلينو أنك خلقت شيئاً فريداً. إنه ممتع للنظر أيضاً، وفي الواقع، كتجربة أولى بأسلوب التنقيط، أجد أنه منفذ ببراعة، وتحديدًا شجرة اللبان التي على الرغم من أنها مرسومة بالنقاط وبالألوان الزيتية، إلا أنها تتمتع بـ «ضياء» كبير. إنها تكاد تنفصل عن اللوحة، مثل سحابة بيضاء.

«هل أعجبتك؟».

«لم تعجبني فحسب يا سيلينو، بل عشقتها. نعم، يمكن تحسين الجانب الفني للنقاط التي تنتقل من لون إلى آخر، لكنني سأشرح لك أفضل تقنية للقيام بذلك. في الواقع، لم أر شيئاً مماثلاً من قبل. وإذا كانت هذه هي المحاولة الأولى، فلا يسعني إلا أن أتخيل ما تستطيعين إنجازه من أعمال فذة في المستقبل. هل تدركين أنك أمضيت ستة أيام وأنت ترسمين؟».

«لأكون صادقة، لقد فقدت الإحساس بالوقت...».

«في ستة أيام، خلق الرب السماء والأرض، وفي اليوم السابع استراح. لقد وجدت عالمك الفريد هذا الأسبوع يا سيلينو، وأنا فخور بك جداً. والآن اقتربي، ودعيني أضمك».

بعد ذلك، وبعد أن ذرفت بعض الدموع، غاب فرنسيس وعاد ومعه زجاجة بيرة. أعطاني واحدة، وقال: «أحتفظ بالقليل منها في قاع برميل الماء للمناسبات الخاصة جداً. وهذه بالتأكيد إحداهن. في صحتك».

«في صحتك!». قرعنا زجاجتي وأخذ كل منا رشفة.

«يا إلهي! بيرة قبل وجبة الإفطار!».

«لعلك نسيت أن وقت الغداء قد حان».

قلتُ: «أنا أتضور جوعًا».

ألقيتُ نظرة أخرى على لوحتي وغمرتني موجة كبيرة من الفخر.

على الغداء، ناقشتُ وجدي الأمر بمزيد من العمق، وعندما فرغنا من تناول طعامنا، جلسنا جنبًا إلى جنب أمام لوحة جديدة حيث أراني أسلوبه في رسم النقاط وتنعيم حوافها بحيث لا تبدو نقاطًا من بعيد، على الإطلاق.

قال بينما كنتُ أحاول: «لكل شخص طريقته الخاصة في الرسم وتقنياته، وأنا واثق من أنك ستطورين طريقتك الخاصة. إنها حقًا مسألة تجربة وخطأ، وسيكون هنالك كثير من الأخطاء التي تمثل جزءًا من عملية التحسّن». ثم التفت إليّ: «إن السؤال السديد الذي يجب أن تطرحيه على نفسك هو ما إذا كان أسلوب الرسم نفسه - بغض النظر عن النتيجة - يبدو مناسبًا لك».

«أوه، هذا صحيح، بالتأكيد. أعني أنني استمتعتُ بذلك حقًا».

«وهكذا، فقد وجدتِ مهنتكِ. في الوقت الحالي، على الأقل، لأن حياة الفنان تتمحور حول إيجاد طرائق جديدة للتعبير عن نفسه».

«هل تقصد أنني قد أرسم على طريقة بيكاسو في مرحلة ما على سبيل المثال؟»، وضحكت.

«معظم الرسّامين يفعلون ذلك - وأنا منهم - لكنني كنتُ أعود دائمًا إلى الأسلوب الذي أشعر فيه براحة أكبر».

قلتُ له: «حسنًا، لقد مررتُ بالتأكيد بمثل هذه اللحظات في الماضي»، وأخبرته عن التوليفة التشكيلية الغريبة التي اشتغلت عليها العام الماضي.

«ألا ترين أنك كنتِ تستخدمين أشياء حقيقية لدراسة الشكل؟ كنتِ تتعلّمين كيفية وضع المكونات على اللوحة القماشية. كل تجربة تعلّمك شيئًا».

«لم أنظر إلى الأمر بهذه الطريقة من قبل، لكن نعم، أنتَ على حق».

«أَنْتِ فَتَّانَةٌ بِالْفِطْرَةِ يَا سِيلِينُو، وَالْآنَ، بَعْدَ أَنْ امْتَلَكْتِ الْأَدَوَاتِ الْأُولَى الْمَهْمَةَ نَحُو الْعَثُورِ عَلَى أَسْلُوبِكَ الْخَاصِّ، فَالَسَّمَاءُ هِيَ الْحَدُّ. ثَمَّةُ أَمْرٍ أَوْدَّ أَنْ أَشِيرَ إِلَيْهِ، وَهُوَ أَنْكِ لَمْ تَوْقَعِي اللَّوْحَةَ بَعْدَ».

«لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ فِي الْعَادَةِ، لِأَنْنِي لَا أُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ أَيُّ شَخْصٍ أَنَّ اللَّوْحَةَ لِي».

«حَقًّا؟»

«نَعَمْ».

نصحتني فرنسيس: «مِنَ الْأَفْضَلِ إِذَا أَنْ تَتَدَرَّبِي عَلَى تَوْقِيعِكَ. أَعْدِكِ أَنَّهُ سَيَكُونُ الْأَوَّلُ مِنْ بَيْنِ كَثِيرٍ مِنَ التَّوْقِيعَاتِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ».

فِي وَقْتٍ لَاحِقٍ مِنْ بَعْدِ ظَهَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، أَخَذْتُ فَرِشَةً رَفِيعَةً وَأَنْبُوبًا زَيْتِيًّا مِنَ اللَّوْنِ الْأَسْوَدِ وَوَقَفْتُ أَمَامَ اللَّوْحَةِ أَجْهَازَ نَفْسِي لِلتَّوْقِيعِ عَلَيْهَا.

«سِيلِينُو دَابِلِيِيز؟»

«سِيسِي دَابِلِيِيز؟»

«سِي. دَابِلِيِيز...؟»

ثُمَّ خَطَرْتُ لِي فِكْرَةَ فَتَوَجَّهْتُ نَحُو جَدِّي الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ فِي الشَّرْفَةِ وَيَبْرِي قِطْعَةً مِنَ الْخَشَبِ. «مَاذَا تَفْعَلُ؟».

ابْتَسَمَ لِي قَائِلًا: «أَجْرَبُ رُؤْيَا الْأَشْكَالِ الَّتِي يُمْكِنُنِي ابْتِكَارُهَا. هَلْ وَقَعْتَ لَوْحَتِكَ؟».

«لَا، لِأَنَّ سِيلِينُو دَابِلِيِيز طَوِيلَةٌ إِلَى حَدٍّ مَا، وَأَشْعُرُ بِالْغَضَبِ عِنْدَمَا يَنْطِقُ الْجَمِيعُ دَابِلِيِيزَ بِشَكْلِ خَاطِئٍ».

«هَلْ تَسْأَلُنِي إِنْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَدَيْكَ اسْمٌ مُسْتَعَارٌ؟».

«نَعَمْ، لَكِنِّي لَا أَعْرِفُ مَا هُوَ».

«لَنْ أَمَانَعَ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِذَا أَخَذْتَ لِقَبِي، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ اسْمًا مُسْتَعَارًا».

«شُكْرًا، وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ سَأَتَاجَرُ بِاسْمِكَ، وَكَوْنِي حَفِيدَتِكَ وَكُلِّ شَيْءٍ وَ...».

«أَنْتِ تَرِيدِينَ أَنْ تَنْجَحِي بِمَوْهَبَتِكَ وَحَدِّهَا. أَفْهَمُ ذَلِكَ».

«لذا، فكَرْتُ أنه لو أن والدَكَ البيولوجي تزوّج من والدتك كما أراد، لكان لقبكَ اليوم ميرسر».

«نعم، كان من الممكن أن يكون كذلك».

«ووالدتي أيضًا، حتّى زواجها على الأقل».

«صحيح».

«إذن ما رأيك في سيلينو ميرسر؟».

حدّق جدّي إلى الأفق البعيد، كما لو أن أفكاره كانت تسافر عبر أجيال عائلتنا كلّها. ثمّ رفع عينيه إليّ وقال: «سيلينو! أعتقد أنه مثالي».



عندما استيقظتُ في صباح اليوم التالي، شعرتُ بالغرابة حقًّا. كما لو أن وقتي هنا قد انتهى - في الوقت الحالي - وأن ثمة مكانًا آخر يجب أن أكون فيه، لكنني لم أستطع معرفة أين. أرغمتني هذه الفكرة على العودة إلى الواقع بحيث يمكنني اتّخاذ قرار بشأن ما سأفعله بالضبط. لم أكن أعرف حتّى في أيّ يوم من أيام الأسبوع كنا، ناهيك بالتاريخ، لذا ذهبت إلى فرنسيس وسألته بكثير من الحرج.

«لا تقلقي، إن عدم الإحساس بالوقت يعني ببساطة أنكِ منخرطة تمامًا في ما تفعلينه. اليوم هو الخامس والعشرون من كانون الثاني».

قلت: «رائع». أذهلني مرور زهاء شهر على مغادرتي تايلاند، وفي الوقت نفسه تساءلت كيف مرّ الوقت.

حدّق إليّ متسائلًا: «أنت تفكرين إلى أين ستذهبين، أليس كذلك؟».

«نعم، قليلًا».

«لا حاجة إلى أن أعبّر لكِ عن مدى رغبتني في بقائكِ وقتًا أطول. ليس في هذا الكوخ بالطبع، فلديّ منزل مريح جدًّا في أليس يتّسع لنا نحن الاثنين. لكن ربّما كان لديكِ أماكن أخرى ترغبين في الذهاب إليها، وأشخاص آخرون ترغبين في رؤيتهم....».

«المسألة هي...». فركتُ يديَّ على الجزء العلوي من سروالي، وشعرتُ بالغضب: «لستُ متأكّدة. ثمة حالات تكون... مربكةً قليلاً».

«الحياة مليئة بها. هل تريدان التحدّث عنها؟».

فكرتُ في ستار، ثم في إيس وكريسي، وهزّزتُ رأسي: «لا. ليس الآن».

«حسنًا، كنتُ أفكرُ في أنني ربّما أعود إلى أليس اليوم، ما دمت لا ترغبين في البقاء هنا وقتًا أطول. حتّى أنني أتشوّق إلى حمامٍ لائق!».

«نعم، يبدو ذلك جيّدًا حقًّا». وافقتُ وأجبرتُ نفسي على الابتسام.

«لديّ أيضًا بعض ألبومات الصور الفوتوغرافية التي يمكنني أن أطلعكِ عليها». قلتُ: «أحبّ أن أراها».

«لماذا لا تتمشّين قليلًا؟ هذا ما أفعله دائمًا عندما يتعيّن عليّ اتخاذ قرار ما». «حسنًا، سأفعل في الحال».

بينما كنت أتمشى، تخيلت نفسي وقد عدت إلى لندن، بمفردي، أرسم كلّ يوم بأسلوبي الجديد في شقتي الجميلة. لا شك في أن ستار ستكون على بعد رحلة بالقطار، ولا تعيش في الجانب الآخر من العالم، لكنني كنت أعلم أنها لن تعود أبدًا لفترة أطول من مبيت ليلة، ومن حين إلى آخر. كان إيس في لندن أيضًا، محبوبًا في سجن حقير بين القتلة والمنحرفين جنسيًا. شعرتُ بأنني مدينة له بالتفسير وإظهار الدعم، على أقل تقدير. سواء صدّقني أم لا، لم يكن الأمر مهمًّا حقًّا. كان ذلك هو الشيء الصحيح الذي ينبغي القيام به.

ثمّ كان هناك الوطن - أتلانتس، وما، وكلاهما لم أزرهما منذ سبعة أشهر تقريبًا، لكنني لم أستطع أن أتخيّل مستقبلي هناك. على الرغم من أنني أردتُ في أحد الأيام أن أرسم بحيرة لومان والجبال من خلفها.

كانت تلك أوروبا. إذًا، ماذا عن أستراليا، البلد الذي كانت ترعبني زيارته؟ مع ذلك، كانت الأسابيع الماضية هي الأروع في حياتي كلّها. قد يبدو ذلك سخيفًا، لكنني شعرتُ وكأنني وُلدتُ من جديد. وكأن كلّ أجزائي التي لم تتلاءم مع أوروبا قد أُعيد

ترتيبها بحيث أصبحت - أنا - «كلًا» أفضل، هنا. تمامًا مثل توليفتي التشكيلية. لم أتمكن من بلوغ الكمال، ولو بلغته، كنت أعرف أنني لن أكون مثالية. لكنني كنت أعرف أنني أفضل، وكان ذلك كافيًا.

ثم جدّي وكريسي... لقد كانا هنا أيضًا. حتّى الآن، لم يكن عليّ أن أكسب جبهما، فقد وهباه لي من دون قيد أو شرط، لكنني كنت أعلم أنّ عليّ أن أستحق هذا الحب في المستقبل.

بينما كنتُ أقف وسط هذه المساحة المفتوحة الضخمة تحت شمس حارقة تُلهب رأسي الرقيق، أدركتُ أنه لم يكن هناك قرار يجب اتخاذه. استدرتُ وعدتُ أدراجي إلى الكوخ.



بعد ساعات قليلة، وبينما كنا نجلس إلى طاولة في أحد فنادق أليس، نتناول طبقَي الجديد المفضّل - شريحة من لحم الكنغر - قلتُ لجدّي: «هذا مكاني، وأنا أنتمي إليه، بمنتهى البساطة».

قال والفرح المتأصل في عينيه يفيض بمدى سعادته: «يسعدني ذلك».

«مع ذلك، يجب أن أعود إلى إنجلترا لتسوية بعض الأمور، كما تعلم».

«أعرف. أنت بحاجة إلى وضع الأشياء في نصابها». ثم أضاف مبتسمًا: «ربما يكون الجانب الألماني فينا هو الذي يجعلنا ننزع إلى ترتيب أمورنا الحياتية قبل أن نتمكن من المضي قدمًا».

«بالحديث عن ترتيب أمورنا، أخطط لبيع منزلي. أعتقد أنني أخبرتك بأنني اشتريت بميراثي شقة مطلة على نهر التايمز في لندن. تبين أن ذلك كان كارثة حقيقية».

قال وهو يتنهد: «كلنا نرتكب أخطاء، وهذا جزء من منحني التعلّم البشري، طالما أننا نتعلّم منها. إذا كنت تريد العودة إلى هنا، فإن بيتي لك طالما احتجت إليه».

«شكرًا». لم أكن قد رأيت منزله هنا في أليس بعد. إذ بعد وصولنا إلى المدينة، ذهبنا مباشرة لتناول الطعام. «إلى جانب عرض شقتي للبيع، أحتاج أيضًا إلى رؤية شقيقتي لتصحيح الأمور بيننا».

وافق على ذلك قائلًا: «الآن أصبح لديك سبب حقيقي للعودة. الناس أهم من الممتلكات».

أنهينا وجبتنا وصعدنا إلى الشاحنة للذهاب إلى منزله الذي تبين أنه يقع في محيط المدينة مباشرةً، ضمن صف من المنازل البيض الجميلة المبنية على طراز الشاليهات بشرفاتها الأرضية الواسعة وسطوحها المستوية.

«تجاهلي الحديقة. إن الحفاظ على رونق النباتات وترتيبها ليس من أولوياتي». قلتُ: «تستطيع ستار أن تحل هذه المشكلة في غضون أيام قليلة». درس المفتاح في القفل وفتح.

ما إن دخلتُ حتّى تشكّل لديّ انطباع بأن من صمّم هذا الداخل، جلب معه قطعة صغيرة من إنجلترا إلى المناطق النائية. كان التصميم بالتأكيد أنثويًا للغاية. ستائر جميلة مزينة بالزهور، وسائد متناثرة مطرزة يدويًا توزعت على أريكة قديمة لكن مريحة، وعشرات الصور الفوتوغرافية التي تصطفّ على رفوف الكتب المنضّدة على جانبي المدفأة. كانت الإضاءة هادئة أيضًا، ومن أغطية المصابيح ذات الحوامل النحاسية ينتشر وهج رقيق.

على الرغم من رائحته العفنة التي تنبعث من المنازل التي لا نعيش فيها، وتظل مغلقة لفترة طويلة، لكنني شعرتُ فيه بالسكينة والراحة.

«لقد شغلت سخان الماء على جهاز التوقيت عندما كنت هنا آخر مرة، لذلك، لا بدّ من أن يكون الماء ساخنًا جدًا. سأملأ لك حوض الحمام».

قلت: «هذا رائع، شكرًا».

فكرتُ في المرة الأخيرة التي كنتُ فيها في الحمام، مغطاة ببتلات الورد، مع يدين لطيفتين ملفوفتين حول خصري. لقد قطعْتُ شوطًا طويلًا منذ ذلك الحين...

بعد فترة طويلة وممتعة من نقع نفسي في الحوض، خرجتُ ورأيتُ أن الماء كان بلون الطين، وفيه جميع أنواع الحشرات الصغيرة التي يظهر أنها غزت شقوق جسدي وشعري واستقرت أثناء وجودي في الكوخ. كنتُ مسرورة من شعوري بالنظافة، إلا أنه لم يكن لديّ سوى ملابس قدرة لأرتديها. عدتُ إلى غرفة الجلوس بمنشفة.

«هل لديك قميص قديم أستطيع أن أستعيّره؟ ملابسك كريهة الرائحة».

«لديّ أفضل من ذلك. كانت جدتكِ بمثل مقاسكِ تقريبًا، وهناك خزانة ملابس ممتلئة في غرفتنا.

سألته وكنتُ أتبعه في الممر: «هل أنت متأكد من أنك لا تمانع؟».

أشعل ضوء الغرفة، قبل أن يفتح خزانة ملابس قديمة من خشب الأرز ويقول: «بالطبع لا، لا يسعني أن أتخيل أحب إليّ منك ترتديها. كنتُ قد قرّرتُ التبرّع بها لجمعية خيرية على أيّ حال. اختاري».

شعرتُ بالغربة من مداهمة خزانة ملابس جدتي المتوفّاة. كانت مليئة بأثواب قطنية مزخرفة، وتنانير، وبلوزات بياقات من الدانتيل، وبعض قمصان الكتان الطويلة. ارتديتُ قميصًا وعدتُ إلى غرفة الجلوس لأجد على هاتفي، الذي عادتُ إليه التغطية من جديد، رسالة من تاليثا مايرز، محامية أديلايد. استمعتُ إليها وهي تخبرني أنها اكتشفت اسم «فرنسيس أبراهام» في السجّلات، وشعرتُ بالفخر لأنني وصلتُ إلى الاسم قبلها.

كان فرنسيس الآن في الحمام، واغتنمتُ الفرصة للاستمتاع بالنظر إلى الصور ذات الإطارات الفضية. كان معظمها له، وبجانبه امرأة، أفترض أنها جدّتي. كانت صغيرة، وشاحبة، وأنيقة، وكان شعرها الداكن مثبتًا على شكل كعكة أعلى رأسها.

كانت هناك صورة لفتاة صغيرة ذات وجه مشرق تبلغ من العمر حوالي ثلاث سنوات، تبتسم ابتسامة عريضة أمام الكاميرا، وصورة أخرى للطفلة نفسها في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر، تجلس بين جدّتي وجدّي. «أمي». شعرتُ

بغضة في حلقي. لم أر لها صورًا أخرى بعد بلوغها الخامسة عشرة، وكنتُ أتساءل عن السبب عندما عاد فرنسيس إلى الغرفة.

«هل رأيتِ صور والدتكِ؟».

«نعم. ماذا كان اسمها؟».

«إليزابيث. كانت فتاة صغيرة جميلة، تضحك دائمًا. كانت نسخة من والدتها».

«نعم، لاحظت ذلك. ولكن لماذا لا توجد لها صور في سن الرشد؟».

تنهّد فرنسيس: «إنها قصة طويلة يا سيلينو».

«أسفة، ما يزال هناك كثير ممّا لا أعرفه أو أفهمه».

«نعم. حسنًا، سأعدّ لنا بعض القهوة. ثمّ يمكننا أن نتحدّث».

عاد بعد دقائق قليلة، وبينما كنا نرتشف قهوتنا بصمت، شعرتُ بأنه كان

يستجمع قواه ليخبرني بشيء ما.

قال في النهاية: «ربما يكون من الأسهل العودة إلى حيث توقّفنا».

«إن ما تريده هو الأفضل. لكنني أود أن أعرف ما الذي حدث لكيتي وتشارلي

ودروموند».

«بالطبع ستعرفين، وبالمناسبة كان لكيتي الفضل الأكبر في لقائي بزوجتي

سارة...».

کیتھ
میناء تیلبورئی، إنجلترا
كانون الثاني 1949

قالت ميريّام وهما تقفان بجانب العبّارة الخشبية التي ستفصل بينهما ثانية: «وداعًا يا أختي العزيزة. لا أستطيع أن أخبرك كم كنتُ سعيدة بوجودك هنا معنا. عديني بأنك ستعودين في أقرب وقت ممكن، أليس كذلك؟».

قالت كيتي: «أنتِ تعلمين أنني بالتأكيد أنوي ذلك، إن شاء الله. وداعًا عزيزتي، وشكرًا لك على كلّ شيء».

مع تلويحة أخيرة، شقّت ميريّام طريقها إلى أسفل العبّارة الخشبية. حول كيتي، كان أقارب كثيرون يتجولون متردّدين في التخلي عن أحبائهم الذين كانوا يغادرون إلى أستراليا. وعلى الرغم من أنها قامت بهذه الرحلة مرات عدّة على مدار الأربعين عامًا الماضية، إلا أن رؤية الألم البشري الناتج عن الانفصال كان ما يزال يؤثّر فيها بشدّة.

شعرت كما لو أنها تغرق في عاصفة من الدموع عندما هدرت محركات السفينة وأطلق البوق تحذيرًا أخيرًا. وسط الحشد، برزت بعض الوجوه، واليأس واضح على ملامحها: امرأة تبكي بشدّة وتحتضن طفلها الرضيع، ورجل هزيل ذو شعر رمادي، بدا الذعر واضحًا على وجهه، وهو يشاهد العبّارة الخشبية تُرفع إلى أعلى.

«أين هي؟ كان من المفترض أن تقابلني هنا على متن السفينة! عذرًا يا سيدتي، هل رأيتِ امرأة شقراء تصعد على متن السفينة في الدقائق القليلة الماضية؟».

أجابت كيتي بصراحة: «لا أعرف. كان هناك أشخاص كُثُر يأتون ويذهبون، لكنني متأكّدة من أنها على متن السفينة في مكان ما».

دوّى صوت البوق ثانية بينما كان القارب يبتعد عن الرصيف، ونظر الرجل إلى البحر أسفلّه كما لو أنه يريد أن يقفز من فوق سطح السفينة.

صرخ في الريح، وحجب صوته هديرُ المحركات وصياحُ طيور النورس: «يا إلهي... أين أنت؟».

إنسان آخر قهره الحبُّ، فكّرتِ كيتي وهي تراقب الرجل وهو يبتعد بخطى مترنّحة. كان يبدو كجندي في الجيش، بشعره الرمادي المبكر وعينه المعذبتين. لقد رأت كثيرًا منهم في إنجلترا خلال إقامتها التي استمرت عامًا كاملاً. كان أولئك الذين نجوا بعد ست سنوات من القتال يُعتبرون «محظوظين» لأنهم عادوا - كانت قد جلست ذات مرة بجوار نقيب في الجيش على العشاء. كان يضحك وهو يسرد قصصًا عن المتعة التي حَظّوا بها جميعًا - مع ذلك، كانت كيتي تدرك أن الأمر كله مجرد واجهة. هؤلاء الرجال لن يتعافوا تمامًا، ولن يتعافى أحباؤهم الذين تركوهم وراءهم.

ارتعشت كيتي في النسيم البارد الذي كان يهب أثناء خروجهم من ميناء تيلبوري على طول مصب نهر التايمز. شقّت طريقها عبر ممرٍ مغطى بالسجاد الكثيف إلى مقصورتها. فتحت الباب، ووجدت مضيئًا يعدّ الشاي في غرفة الجلوس. «مساء الخير سيدتي. اسمي جيمس ماكديويل، وسأقوم بتلبية احتياجاتك أثناء الرحلة. اعتقدت أنك قد ترغبين في تناول شيء ما، لكنني لم أكن متأكدًا مما يعجبك».

أجابت كيتي وقد هدأها صوت الشاب الرقيق: «شكرًا لك يا جيمس. هل سافرتِ إلى أستراليا من قبل؟».

«أنا؟ لا، إنها مغامرة حقيقية، أليس كذلك؟ كنت أعمل خادماً لرجل ثري في هامبشاير، لكنه توفي، ومنذ انتهاء الحرب لم يعد الناس بحاجة إلى خدم، لذلك فكّرتُ في الهجرة إلى أستراليا. هل سافرتِ إلى هناك من قبل؟».

«أستراليا وطني. لقد عشتُ هناك لأكثر من أربعين عامًا».

«إدّا قد أستطيع سؤالك عما يجب فعله عندما أصل إلى هناك. إنها أرض الفرص، هكذا يقولون».

وأرض الأحلام المحطّمة، فكّرتِ كيتي.

أرغمت نفسها على الابتسام وقالت: «نعم. إنها كذلك».

«حسنًا، أستاذك الآن يا سيدتي. لقد أفرغتُ حقيبتك، ولكن يجب أن تخبريني بما ترغبين في ارتدائه هذا المساء. لديك دعوة لتناول العشاء على طاولة القبطان، لذا سأعود في الساعة السادسة لأحضر لك الحمام. يكفي أن تضغطي على الجرس إذا كنت بحاجة لأي شيء».

قالت وهي تغلق باب المقصورة خلفه: «شكرًا لك يا جيمس». ذكرتُها ملامحه القوية وعينه الزرقاوان بتشارلي.

خلال تلك الأيام المظلمة التي تلت اندلاع الحرب في أوروبا قبل عشر سنوات، كان ابنها مشغولاً في بروم، حيث كان يعمل مع البحرية الأسترالية لتجهيز القوارب الشراعية التي تنقل الجنود إلى ساحات القتال في أفريقيا وأوروبا. بعد فترة وجيزة، اعتُقل أفراد الطواقم اليابانية، ومع عدم وجود قوارب شراعية، كتب لها تشارلي ليخبرها بأن المدينة كانت تموت ببطء، وصمت.

على الأقل تشارلي آمنٌ في بروم، هكذا كانت تظن في ذلك الحين. وكانت هي نفسها قد انتقلت بالفعل للعيش في أليسيا هول، حتى لا يشعر ابنها - وزوجته إليز - كما لو كانت ظلاً يلاحقهما في كل تحركاتهما التجارية والمنزلية.

في شهر آذار من العام 1942، فتحت كيتي جريدتها لتقرأ خبر هجوم غير متوقع على الساحل الشمالي الغربي لأستراليا، كانت نتيجته وقوع ضحايا في بروم. وعندما تمكنت أخيراً من الاتصال، لم تتفاجأ عندما علمت أن تشارلي كان في عدادها.

«هل أنت مصمّم على حرمانني من كل ما أحبه؟!».

كانت تشتم الآلهة التي فوقها، وهي تمشي في حدائق أليسيا هول بملابس نومها والخدم ينظرون ذاهلين إلى سيدتهم الهستيرية. لم تكن كاميرا بجانبها لتهدئها، فقد تركت كيتي أيضاً.

نجت إليز من الغارة الجوية ولم تمض ستة أشهر حتى تلقت كيتي رسالة من زوجة ابنها تعلن فيها أنها ستتزوج من أحد عمالقة التعدين وتنتقل إلى مدينة

بيرث. لم يولد أطفال من زواجها بابنها، وشعرت كيتي بفراغ غريب عندما سمعت الخبر. كانت تعلم أنها هي التي دفعت إليز إلى أحضان ابنها منذ عشرين عامًا، متمنيةً أن تنسيه ألكينا. كانت تعرف أن تشارلي لم يحب زوجته يومًا، وأنه ببساطة، كان يتظاهر بذلك فحسب.



كانت كيتي تحتسي شايتها بينما كانت السفينة تبحر بها وبأفكارها المظلمة بعيدًا من إنجلترا. كان أمامها عشرون عامًا لتفكر في لغز اختفاء كاميرا بعد رحيل ابنتها ببضعة أشهر، والحياة كلها لتلوم نفسها، لأنها لم تواجه الموقف. لقد تجاهلت الدمار الواضح الذي أصاب تشارلي عندما اختفت ألكينا في الليلة التي سبقت عيد ميلاده الحادي والعشرين، وأخبرتها غريزتها أن الحدين مرتبطان. وحتى اليوم، كانت ما تزال تفتقد كاميرا، التي وقفت بجانبها وحفظت أسرارها الرهيبة.

قضمت كيتي قضمه من شطيرة كان طعمها فارغًا مثل حياتها منذ أن تركها كل من أحبّتهم. ومع ذلك، حذرت نفسها من الوقوع في الشفقة على الذات. فقد كان هناك ضوء واحد سطع فجأة من حيث لا تدري، بعد أربع سنوات طوال من وفاة تشارلي.

بعد المأساة مباشرة، وجدت كيتي نفسها تلقائيًا على رأس إمبراطورية ميرسر. إلى جانب الحزن، لم تكن قادرة على زيارة مناجم الأوپال، أو الذهاب إلى الكروم، أو إلقاء نظرة على حسابات مزرعة تربية الماشية. ولم تكن تقرأ بيانات الشركة المصرفية التي كانت تتراكم على مكتبها ولا تفتحها. لقد دخلت - كما يوصف في روايات العصر الفيكتوري - في حالة من التدهور، وأصبحت منعزلة، وكان الشعور بالذنب إثر ما فعلته، وما لم تفعله، يطاردها ليل نهار.

خلال سنوات الظلام تلك، كانت تشتهي الموت لكنها كانت أجبن من أن تقترب منه.

وفي إحدى ليالي عام 1946، طرقت خادماتها باب غرفتها.

«سيدة ميرسر، هناك شاب في الطابق الأرضي يقول إنه من الضروري أن يتحدث إليك».

«من فضلك، أنتِ تعلمين أنني لا أستقبل زوارًا. اصرفيه».

«لقد حاولتُ يا سيدتي، لكنه يرفض الذهاب. يقول إنه سيجلس عند البوابة حتى تستقبله. هل أتصل بالشرطة؟».

«ما اسمه؟».

«السيد رالف ماكنزي. ويدّعي أنه أخوك».

فكرت كيتي في هوية هذا الرجل. رجل يحمل اسم والدها نفسه... ثم تذكرت كل شيء.



نهضت كيتي عن الأريكة الأنيقة المغطاة بالحرير ومشّت نحو إحدى النوافذ الكبيرة. كان رالف ماكنزي قد دخل حياتها في اللحظة المناسبة تمامًا، ليذكرها بفعل جيد واحد على الأقل قامت به.

تذكرت هبوطها السلم، وتوقفها في منتصفه لترى رجلًا طويل القامة، يمسك قبعته بقلق. رفع رأسه عندما سمع وقع خطواتها، وفي ظلام الغسق، تساءلت كيتي إن كانت ترى نسخة طبق الأصل عن والدها في أيام شبابه. كان لهذا الشاب العينان الزرقاوان الجذابتان نفسيهما، والفكّ القوي، والشعر الكثيف البنيّ نفسه.

«سيّد ماكنزي. تفضّل».

في غرفة الجلوس، جلس بعصبية على حافة الأريكة بينما كانت الخادمة تصبّ الشاي.

تنحّج رالف وقال: «لقد أخبرتني والدتي عنك. كانت تقول دائمًا إنكِ كنت لطيفة معها عندما كانت... حاملًا بي. عندما أخبرتها أنني سأهاجر إلى أستراليا بحثًا عن حياة جديدة، أعطتني عنوانك. لقد احتفظتُ به طوال هذه السنوات، كما ترين. لم أعتقد أنني سأجده، ولكن... ها أنتِ هنا».

ثم أخرج الصليب الفضي الذي أعطته كيتي لأنني قبل سنوات طويلة. حدّثت إليه، وتذكّرت غضبها من ازدواجية والدها.

أخبرها رالف أنه كان محاسبًا مبتدئًا في حوض بناء السفن في ليث. ودعته للبقاء لتناول العشاء وهو يروي مدى سوء الأمور منذ انتهاء الحرب. سمعت بمدى صعوبة تعامل زوجته مع الأمر عندما اضطرّ إلى إخبارها بتسريحه من العمل لأن الأعمال كانت متوقّفة ولا يوجد طلبيات.

«زوجتي روث هي التي شجّعته على المجيء إلى هنا لأرى بنفسي ما يمكن أن تقدمه أستراليا لرجل مثلي».

طرح كيتي سؤالاً كانت تحجم عنه منذ بداية اللقاء. «هل تحدّثت مع والدي... والدنا؟».

«لم أكن أعرف أنه والدي حتّى توقّيت أمي، رحمها الله. كنت أرى القس ماكبرايد عندما تأخذني أمي إلى الكنيسة، حيث كنّا نجلس في المقعد الخلفي. أفهم الآن لماذا كانت دائماً غاضبة جدًّا بعد الخدمة. كانت تستخدمني لتذكيره بالخطيئة التي ارتكبها».

ثمّ نظر إلى كيتي معترّفاً، فأومأت برأسها وهي ممتقعة الوجه. تابع: «عندما كنت في الثالثة عشرة من العمر، أرسلتُ في منحة دراسية إلى كلية فيتس. كانت أفضل فرصة حصلت عليها لتحسين ظروف وتكوين حياتي. ولم أعلم إلا بعد فترة طويلة أن والدي هو الذي ربّتها لي. على الرغم من كلّ شيء، فأنا ممتنٌّ له».

في نهاية المساء، عرضتُ عليه وظيفة محاسب في شركات ميرسر. وبعد ستة أشهر، أبحرت زوجته روث للانضمام إليه.



أشاحت كيتي نظرها عن الأمواج الرمادية خارج نافذة المقصورة، وهي تفكر في حقيقة أن وصول رالف إلى أديلايد قد أنقذها بلا شك. بعد خسارة تشارلي التي لا تُطاق، وجدت كيتي نفسها متحمّسة لتركيز طاقتها على هذا الشاب - أخيها غير

الشقيق الذي يصغرها بأكثر من ثمانية عشر عامًا - الذي ظهر بشكل غير متوقع في حياتها.

على مر السنين، أثبت رالف أنه شاب ذكي، متعطش للتعلّم، وأصبح ساعدها الأيمن. على الرغم من أن تجارة اللؤلؤ في بروم لم تنتعش بعد الحرب، تمامًا كما توقع تشارلي، لكن أرباح منجم الأوبال وكروم العنب كانت تزدهر يومًا بعد يوم. مع الاثنين - الأخ وأخته - استعادت ميرسر مواردها المالية شيئًا فشيئًا. كان الجانب المظلم الوحيد هو أن روث، بعد سنوات عدة من المحاولة، قيل لها مؤخرًا إنها لن تنجب أبدًا. كتب رالف إلى كيتي في إسكتلندا ليخبرها أنهما اشتريا جروًا كان يعوض حاجات روث الأمومية المحبطة.

قرّرت كيتي نتيجة لقدرات أخيها غير الشقيق الممتازة، العودة إلى أستراليا للمرة الأخيرة لتسلّمه العمل بالكامل، وهي واثقة من أن مستقبل الشركة سيكون في أيدي أمينة.

كانت قد عادت إلى ليث قبل ستة أشهر لحضور حفل تأبين والدها الذي مات بسبب الشيخوخة، لا أكثر؛ استقبلت الخبر بمزيج من الحزن والراحة الممزوجة بالذنب، وكذلك رالف. خلال فترة إقامتها مع والدتها، لم تذكر كيتي كلمة واحدة عن رالف ماكنزي جونيور. في أثناء إقامتها سافرت إلى إيطاليا مع أختها ميريام للقيام بجولة ثقافية قصيرة في مدنها القديمة، ووقعت في حب فلورنسا حيث اشترت شقة صغيرة ولكن أنيقة، تطل على سطح الكاتدرائية العظيمة. كانت تنوي قضاء الشتاء هناك والصيف مع عائلتها في إسكتلندا.

كانت حقيقة أنها بلغت لتوّها عامها الستين حافزًا لها؛ إذ لم يتبقّ لها في أستراليا سوى الذكريات المؤلمة. وبعد أن حاولت لسنوات تجاوز عائلة ميرسر والتحرّر من الخيوط الحريرية التي حاصرتها فيها طوال معظم حياتها الراشدة، كانت الآن مصمّمة على القيام بذلك أخيرًا.

توجّهت كيتي نحو خزانة الملابس لتختار ما سترتديه على طاولة القبطان هذا المساء. عند وصولها إلى أديلاييد، كانت لتنفق الأسابيع القليلة التالية في ترتيب

شؤونها، بما في ذلك رؤية محام لتسجيل وفاة «زوجها» قانونيًا. أشعرتها فكرة إعادة النظر في خديعة دروموند بقشعريرة سرت في عمودها الفقري، ولكن كان لا بد من القيام بذلك لكي تتمكن أخيرًا من الابتعاد والبدء من جديد.

بينما كانت ترفع ثوب السهرة أمام جسدها الذي ما زال نحيفًا، تساءلت إن كان دروموند قد مات. في ليالي العزلة الطويلة، عندما كانت تشتاق إلى لمستته، كانت تتخيل أن كل صرير باب، أو حفيف حيوان على أوراق الشجر في الحديقة، هو صوت وقع خطاه وقد عاد. ولكن كيف كان لها أن تتوقع عودته؟ وهي التي طلبت منه أن يرحل.

فكرت في أن العودة إلى وطنها قد تسمح للصدوق الفولاذي الذي حبست فيه قلبها بأن يُفتح من جديد.

مع بدء الرحلة، انزلقت كي تي بسهولة إلى رتابتها المعتادة على متن السفينة. لم تكن تعير أي اهتمام للتواصل مع ضيوف الدرجة الأولى، بل كانت تتنزه على سطح السفينة، وتستمتع بأشعة الشمس الدافئة على بشرتها. في بعض الأحيان، وفي أثناء الليل، كانت تسمع صوت الموسيقى والضحك المنبعثين من الدرجة الثالثة أسفلها، أغنية مرتجلة على أنغام صفارة أو أكورديون. تذكرت كيف رقصت ذات مرة في قاعة الدرجة الثالثة، وكان الهواء مشبعًا بدخان السجائر. كانت الصداقة معدية، وربما لم يكن أصدقاؤها أثرياء، لكن آمالهم وأحلامهم كانت ثروتهم الحقيقية.

كانت كي تي قد أدركت منذ وقت طويل أن الامتياز قد عزلها. وعلى الرغم من أن جزءًا منها كان يتوق إلى النزول إلى الطابق السفلي والانضمام إليهم، فقد كانت تعرف أنها لم تعد مقبولة بينهم.

«وها هم جميعًا يحلمون أنهم ذات يوم قد يكونون هنا حيث أنا».

تنهدت عندما وصل جيمس ليملاً حوض الحمام.



سأل جيمس وهو يسكب لها كوبًا من شاي الفطور الإنجليزي: «هل ستخرجين اليوم عندما نرسو في بورسعيد؟».

قالت: «لم أفكر في الأمر حقًا. وأنت؟».

«أنا؟ بالطبع! لا أصدق أننا نقرب من مصر، أرض الفراعنة. للأمانة يا سيدة ميرسر، أتشوّق لوضع قدمي على اليابسة، وأشعر بأنني محبوس على متن السفينة. تقول صديقتي ستيل إن في مصر أشياء كثيرة يجب رؤيتها، على الرغم من أنه علينا أن نكون حريصين على عدم الابتعاد كثيرًا. سأخذ معي بعض الأيتام لأفرحهم قليلًا».

«الأيتام؟».

«نعم، أعتقد أن هنالك مئة منهم في الدرجة الثالثة. لقد سُحنوا من إنجلترا للعثور على عائلات جديدة في أستراليا».

«فهمت». أخذت كيتي رشفة من الشاي. «إذن، ربما أنضمّ إليكم».

«حقًا؟». نظر جيمس إليها ذاهلاً لا يُصدّق أذنيه. «بعضهم كرهه الرائحة يا سيدة ميرسر، ولا توجد مرافق مناسبة للاغتسال حيث هم».

أجابت بحيوية: «أنا متأكّدة من أنني سأتعامل مع ذلك. لذا، سأقابلك عند أسفل العبارة الخشبية عندما ترسو السفينة في الساعة العاشرة غدًا».

قال: «حسنًا، لكن لا تقولي إنني لم أحذرك».

في اليوم التالي، نزلت كيتي من السفينة في بورسعيد. كانت رائحة الفاكهة المتعفّنة والأجساد غير المغسولة تزكم أنفها، وتضم أذنيها صيحات مدوّية آتية من رصيف الميناء المزدهم. كان هناك سيل لا ينتهي من الصناديق والحيوانات والبشر يتدفّق من البواخر وإليها.

وجدت جيمس بانتظارها، مع فتاة طويلة القامة ذات شعر أحمر، ومجموعة من الأطفال.

«ستيل». قدم جيمس الفتاة ذات الشعر الأحمر، التي شدّت قلنسوتها الواقية من الشمس إلى أسفل لتحمي بشرتها البيضاء.

قال: «إنها تبذل قصارى جهدها لرعاية الصغار في الطابق السفلي»، والتفت إليها. رأت كيتي في نظرتة إلى ستىلا عشقًا مطلقًا.

«يسرني أن ألتقي بك، يا ستىلا. ما هي أسماؤكم؟». وانحنت كيتي لتحدث إلى أصغرهم، الذي لم يكن يتجاوز الخامسة من العمر.

أجاب عوضًا عنه صبي آخر بلكنة كوكني القوية: «إدي. لا يتكلم كثيرًا. وهؤلاء جوني، وديشي، وجيمي، ثم هناك مابيل، وإدنا، وسوزي...».

أكملت فتاة لامعة العينين، هزيلة حدّ الألم، ذات بشرة شاحبة وشعر بني فاتح، جازفت كيتي بتخمين أنها كانت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر: «وأنا سارة. لقد تبئينا بعضنا بعضًا، أليس كذلك؟».

رددت مجموعة الوجوه المتسخة: «نعم».

أعلنت كيتي: «حسنًا، أنا السيدة ميرسر، وأعرف مكانًا قريبًا يبيع جميع أنواع الحلوى. هل نذهب ونلقي نظرة؟».

هتف الأطفال بصوت واحد: «نعم».

حملت كيتي إدي الصغير بين ذراعيها، بدافع الغريزة وقالت: «إدًا، هيا بنا».

قال جيمس بينما كانوا يشقون طريقهم وسط صخب الباعة المتجولين في الشوارع: «يسعدني أنك تعرفين طريقك يا سيدة ميرسر. لم أر شيئًا كهذا في حياتي».

نظرت كيتي خلفها ورأت سارة وستىلا تمسكان بأيدي الآخرين بقوة.

سمعت كيتي جوني يهمس لصديقه بينما كان السكان المحليون يحومون حولهم بأرديتهم ذات الألوان الزاهية وطرايشهم: «هناك الكثير من السود هنا، أليس كذلك يا ديشي؟»

قادت المجموعة إلى ما وراء الأرصفة، إلى المدينة نفسها. هناك، كانت تعرف سوقًا شعبية واسعة تباع فيه التوابل ذات الرائحة اللذيذة، والفواكه، والخبز الرقيق الخارج لتوه من الفرن، والهواء من حوله لا يزال يموج بالحرارة.

أشارت سارة إلى كومة من الحلوى التركية المرشوشة بمسحوق السكر وتلمع كالجواهر: «أوه. انظروا إلى هذه»

قالت كيتي: «نعم، إنها لذيذة جدًا. أريد - أحصت الرؤوس - ثمانية أكياس يحتوي كلٌّ منها على ثلاث قطع».

أعطت تعليماتها للبائع خلف الطاولة، ثمّ قلّدت وأومات إلى أن فهم الرجل ما تطلبه.

قدّمت كيتي الحلوى إلى الصبي الصغير الذي كان يلقي رأسه على كتفها وقالت: «جرّب هذه يا إدي».

نظر إدي إلى الحلوى، وبعوض التردّد، أخرج إبهامه من فمه، ثمّ أخرج لسانه الوردي الصغير ليتذوق مسحوق السكر.

قالت سارة، التي كانت تقف بجانب كتف كيتي الأخرى وتوزّع الأكياس الورقية: «علينا أن نحصر على ألا يمرضوا يا سيدة إم. لم يتذوقوا شيئًا كهذا في حياتهم كلها».

همست لها كيتي: «يا إلهي، بعضهم هزيل للغاية».

قالت سارة: «في الواقع، إنهم يطعموننا يا سيدتي. وفي بعض الأحيان، أفضل مما كنت أحصل عليه في دار الأيتام. كلٌّ ما في الأمر أننا جميعًا مرضنا قليلًا، بسبب الأمواج، وخصوصًا الصغار».

ثمّ أشارت إلى إدي، الذي كان وجهه صورة ملائكية وهو يتذوّق الحلوى التركية وقالت: «لقد عانى كثيرًا وساءت حالته جدًا».

جالوا في السوق، وهم يتفرجون على التماثيل الخشبية لأبي الهول وتابوت توت عنخ آمون، المنحوتة بشكل تقريبي.

توقّفوا عند كشك آخر حيث اشترت كيتي لكل منهم برتقالة طازجة. حدّقوا جميعًا إلى الفاكهة كما لو كانت أفضل هدية تلقّوها على الإطلاق.

عادوا إلى السفينة قبيل الساعة الرابعة، وكانت وجوه الأطفال ملطّخة بمسحوق السكر وعصير البرتقال.

وضعت كيتي إدي النائم بين ذراعي سارة. فقالت سارة: «شكرًا يا سيدة إم، لن ننسى لطفك. لقد أسعدت الجميع هذا اليوم. وإذا كنت بحاجة إلى رتق فساتينك الفاخرة، فأنا فتاتك. لا أتقاضى ربع ما تتقاضاه العاملات على متن السفينة، وأنا أفضل منهن بكثير!«.

ابتسمت ورافقت الأطفال إلى أسفل الدرج.



قالت كيتي ذلك المساء بينما كان جيمس يجهز فستانها لتناول العشاء: «أعتقد أنه من الممكن أن نستضيف اثنين من الأيتام كل ليلة للاستحمام في مقصورتى». قال جيمس وهو يكاد يهتق: «هذا لطف كبير منك، لكنني لست متأكدًا من أن المراقب سيوافق على جلب ركاب الدرجة الثالثة إلى الدرجة الأولى». «إذًا، عليك أن تجد طريقة. دعني أخبرك يا جيمس أن النظافة هي أحد مفاتيح الصحة. وفي الوقت الحاضر، تشجع جلود هؤلاء الأطفال على تكاثر جيش من البكتيريا. هل ترغب في أن تكون مسؤولاً عن إعلان وفاة إدي الصغير قبل أن يصل إلى شواطئ أستراليا؟». مكتبة سر من قرأ «حسنًا، لا، أنا...».

«ثم أنا على يقين من أنه يمكنك وضع خطة. إذا تمكنت من تدبير هذا الأمر، فيمكنني أن أعرض عليك أجرًا جيدًا وثابتًا لقاء عمل في إحدى شركاتي عندما نصل إلى أدिलाيد. إذًا، هل ستحاول؟».

قال متشككًا: «نعم يا سيدة ميرسر».

في تلك الليلة، وصل طفلان إلى غرفة كيتي. أسرع جيمس في الدخول، ثم غادر بعد ذلك، وأغلق الباب خلفه. بعد أن انطلقت شهقات الصبيين، اللذين لم يصدقا وجود مثل هذا الترف والسعة على متن السفينة، قادتهما كيتي إلى الحمام وطلبت منهما خلع ملابسهما.

قال جيمي ذو الثمانية أعوام: «كانت أُمي تقول لي لا تخلُجْ ملابسك أمام شخص غريب». ثم عقد ذراعيه على صدره وراح يهز رأسه.

أضاف جوني: «وأنا يا سيدة إم».

«حسنًا، سأترككما هنا؟ افركا نفسيكما جيدًا بصابون الكاربوليك. هناك منشفة حمام لكل منكما. بعد الحمام، هناك عشاء بانتظاركما».

أغلقا باب الحمام في وجهها. وسمعت كيتي محادثة هامسة، ثم سمعت بعض الرذاذ، وأخيرًا ضحكات الفرح.

قالت عبر الباب: «جفّفنا نفسيكما بسرعة، لقد برد عشاؤكما».

ظهرا أكثر نضارة، حتّى لو كانت بعض البقع ظاهرة على عنقيهما. عندما أجلستهما إلى الطاولة أمام وعاءين كبيرين من الحساء، استنشقت، وأدركت أن ملابسهما غير المغسولة ما تزال تفوح برائحة كريهة.

في صباح اليوم التالي، بينما كان جيمس يقدم لها وجبة الفطور، فكّر في أيّ يتيمين سيأتيان للاستحمام تلك الليلة».

«إن ما تفعلينه من أجل الأطفال هو برهان طيبة منك يا سيدة ميرسر».

«سيكون من الأفضل لو استطعنا أن نزودهم بملابس نظيفة. الطقس أدفأ الآن. كلّ ما سيحتاجونه هو قميص وسروال قصير، ثمّ يمكننا إرسال ملابسهم الحالية إلى المغسلة. هل لديك أيّ أفكار؟».

«سارة خياطة رائعة. لقد رتقت جوارب الأولاد وصنعت ملابس كاملة من القصاصات لدمية مابل».

«ممتاز. إذًا يجب أن نستفيد من مهارتها».

«ليس لديها آلة خياطة يا سيدة ميرسر».

«إذًا، يجب أن نحصل على واحدة. قل للمراقب إن السيدة ميرسر غريبة الأطوار تتمتع بموهبة الخياطة، وهي بحاجة إلى آلة لتسليتها على متن السفينة. أنا متأكدة من أن لديهم واحدة في قسم الغسيل».

«حسنًا، سأرى ما يمكنني فعله، ولكن ماذا عن القماش؟».

«اترك الأمر لي. وأرسل سارة لرؤيتي بعد ظهر هذا اليوم. سنتناول الشاي معًا ونناقش مشروعا».



قادت كيتي سارة إلى الغرفة، وأشارت إلى كومة قمصان النوم والتنانير الملقاة على السرير: «ها هي. هل يمكنك أن تصنعي منها شيئًا؟».

حدّقت سارة إلى كومة ملابس كيتي، ثمّ التفتت إليها مذعورة. «سيدتي إم، هذه أشياء باهظة الثمن حقًا. لا أستطيع أن أقطعها، سيكون ذلك تدنيًا للمقدّسات».

«لن يكون الأمر كذلك يا سارة. لديّ من الملابس أكثر مما أستطيع ارتدائه، ويمكننا دائمًا سرقة ملاءة أو اثنتين من السرير إذا لزم الأمر».

قالت سارة بينما كانت أصابعها ترسم الدانتيل الرقيق على ياقة ثوب النوم: «حسنًا، ما دمت أنتِ المسؤولة يا سيدة إم».

«أنا المسؤولة. ستصل آلة الخياطة في وقت لاحق بعد ظهر هذا اليوم ويمكنك أن تبدأي العمل غدًا».

كانت عينا سارة الزرقاوان مضخّمتين في وجهها النحيل الشاحب.

«ولكن ماذا سيقولون عن وجودي هنا في الدرجة الأولى؟».

«لن يقول المراقب شيئًا على الإطلاق لأنني سأخبره أنني استخدمتك وأنتِ تصلحين ملابسني. والآن، اذهبي، أراك في تمام الساعة التاسعة».

«حاضر يا سيدة إم».

وقفت سارة، وفستانها يتهدّل على جسدها الهزيل. وعندما أخرجها جيمس، نرف قلب كيتي على هؤلاء الأيتام، الذين أرسلوا إلى المجهول من دون أحد يرعاهم. وكانت كيتي تتمنّى لهم حياة أفضل بعد وصولهم إلى شواطئ أستراليا.



بحلول نهاية الأسبوع، كان جميع الأيتام قد حصلوا على ملابس جديدة من صنع أصابع سارة الماهرة وتصميمها. وكانت كيتي تستمتع بصحبة الفتاة، إذ كانت تجلس أمام آلة الخياطة وتتحدث عن القنابل التي سقطت في الطرف الشرقي خلال الحرب كما لو كانت تتذكر نزهة في الحديقة.

«لقد حصدت القنبلة الأخيرة عشرة أرواح في شارعنا، من بينهم أُمي. كنّا في القبو، لأن صفارات الإنذار انطلقت، ثم أدركت أنها تركت القطعة التي كانت تطرزها في الطابق العلوي، وذهبت لإحضارها في الوقت الذي سقطت فيه القنبلة على سطح منزلنا. أخرجوني من تحت الأنقاض من دون أن يصيبني خدش. كان عمري ست سنوات فقط في ذلك الحين. والرجل الذي سمعني أصرخ قال إنها كانت معجزة.

تنهّدت كيتي: «يا إلهي. أين ذهبت بعد ذلك؟».

«أخذتني عمّتي إلى منزلها، في شارعنا نفسه، بانتظار أن يعود أبي من الخدمة العسكرية في فرنسا. لكنه لم يعد مطلقاً، ولم تكن عمّتي قادرة على تحمّل تكاليف بقائي في منزلها، فوضعتني في دار للأيتام، كما ترين. كان كلّ شيء على ما يُرام هناك، لأننا جميعاً كنا متلاحمين معاً. هذا ما ينبغي فعله في هذه الحالات، أليس كذلك يا سيدة إم؟».

«نعم». شعرت كيتي بغصة في حلقها، وأذهلتها شجاعة سارة وإيجابيتها.

«يقول الجميع إنه يمكنك أن تبدأي حياة جديدة في أستراليا. كيف هي الحياة هناك يا سيدة إم؟».

شاسعة... مفجعة... استثنائية... قاسية...

«إنها حقاً أرض الإمكانات. أنا واثقة من أنك ستنجحين هناك يا سارة. بالمناسبة كم هو عمرك؟».

«خمسة عشر عاماً، يا سيدة إم. أنا أملك يدين ماهرتين، وأعتقد أنني سأحصل على وظيفة وأكسب بعض المال بنفسني، والحصول على زوج». ثم ضحكت، وصبغت حمرة طفيفة وجنتيها الشاحبتين.

أخرجت سارة سروالاً قصيراً من تحت إبرة الآلة وهزته لتقويمه. قالت: «يجب أن يناسب جيمي، مادام لن يفقد مزيداً من الوزن».

«أحسنَت. إنه جميل جداً وخياطته رائعة». أخذته كيتي من يدي سارة وطوته بعناية على الكومة مع باقي الملابس. «يمكنك أن تأخذها معك وتوزعيها».

«نعم، على الرغم من أنني يجب أن أكون حذرة لكي لا تُسرق. هناك أشياء كثيرة قد تُسرق بلمح البصر. كنتُ أتساءل أيضاً إن كنتُ أستطيع أخذ تلك القطعة المتبقية من الملاء وخياطة ثياب داخلية لإسعاد صديق لي».

«بالطبع يمكنك ذلك، وأشكرك يا سارة على ما قمت به من عمل شاق. والآن، ها هي مكافأتكِ».

التقطت كيتي بلوزة وتئورة مطرّزتين فضفاضتين على جسد سارة النحيل وقالت: «هل يمكنك أن تفعلي شيئاً بهذه الأشياء لتكون على مقاسكِ؟».

مدّت يدها لتلمس القماش الناعم وقالت: «أوه، سيدة إم... لا يمكنني أن أخذهما. ليس إلى الطابق السفلي على الأقل. ستُسخان في أقل من خمس ثوانٍ». «إذاً ستعدّلينهما بحيث تناسبانكِ، ويمكنك أن تبقيهما هنا حتّى تغادر السفينة. ستحتاجين إليهما لجذب الزوج، أليس كذلك؟».

قالت سارة وهي تجمع كومة الملابس، بالإضافة إلى الملاء الاحتياطية، وتتوجّه إلى الباب: «شكراً يا سيدة إم، أنت ملاكنا الحارس. أراك لاحقاً».

تنهدت كيتي وهي تغلق الباب خلفها: «ليتني كنت أستطيع أن أقدم مزيداً».

على الرغم من سحنة المراقب المتجهمة ونظرته الرافضة، أصرت كيتي على أن تنضم إليها قبيلتها الصغيرة من الأيتام عندما اقتربت السفينة من ميناء أدلايد، حيث كان من المقرر أن ينزلوا جميعًا. طلبت وجبة أخيرة التهموها بنهم، وأعينهم تبحث في الأفق، بين الحين والآخر، عن المكان الذي ستبدأ فيه حياتهم الجديدة. عندما ظهرت الأرض، رآها جيمي وصرخ، فهرعوا جميعًا إلى سطح السفينة.

«يا إلهي!»

«انظروا إلى القمم! إنها خضر وليست حمراء!».

«أين المنازل والمدينة؟ يبدو وكأن لا شيء هنا».

رفعت كيتي إدي بين ذراعيها ومسدت شعره الناعم. «هل ترى الرمال يا إدي؟ ربما آخذك ذات يوم إلى الشاطئ لتصنع قلعة رملية».

كالعادة لم يرد إدي. لفّت كيتي ذراعيها بقوة حول جسده الضعيف وألقى رأسه على كتفها. ثم جاء جيمس ليقول إن على الأطفال أن يعودوا إلى الطابق السفلي استعدادًا للنزول.

سألته: «هل سيكون هناك أحد لاستقبالهم؟».

«يبدو أن عملاء الحكومة سيأخذونهم إلى حيث يتم تبنيهم. سمعت أن عملية التبني تشبه إلى حد ما سوق اللحوم، حيث تختار العائلات أقوى الأولاد أولاً، وأصغر الفتيات وأجملهن».

«ماذا يحدث لأولئك الذين لا يختارهم أحد؟».

أجاب جيمس: «لا أعرف يا سيدة ميرسر». لكن كيتي كانت تعرف أنه لا يقول الحقيقة.

قالت وهي تستدير إلى مجموعة الوجوه المتحمسة التي تحدّق إليها بثقة شديدة: «والآن، سأعطي كلّ واحد منكم بطاقة تحمل اسمي وعنواني. أسكن بالقرب من وسط مدينة أديلايد، وإذا احتاج أيّ منكم إلى مساعدتي، فليأتِ ويجدني في أليسيا هول. مفهوم؟».

ردّدوا بصوتٍ عالٍ: «نعم يا سيدة إم».

«حسنًا، والآن حانت ساعة الوداع». قبلت كيتي رؤوسهم النظيفة اللامعة وشيّعتهم بنظرها وهم يغادرون المقصورة للمرة الأخيرة. تمتمت والدموع تملأ عينيها: «ليبارككم الربّ جميعًا».



بعد عودتها إلى أليس هول، شرعت كيتي في ترتيب جميع شؤون حياتها وأعمالها قبل أن تغادر أستراليا إلى الأبد. صرفت بضع ساعات مع محاميها، السيد أنغوس، حيث أوضحت له أن عليه نقل جميع أعمال ميرسر إلى رالف، واستثمار مبلغ من المال في الأسهم وتسجيلها باسمها، بحيث تضمن شيخوختها، وفي حالة وفاتها، تُحوّل الأموال إلى الأعمال الخيرية.

قالت، ووجهها خالٍ من أيّ عاطفة: «أود أيضًا أن أعلن وفاة زوجي رسميًا، لأنه مفقود منذ سبعة وثلاثين عامًا».

نقر السيد أنغوس بقلمه على ورق النشاف وقال: «فهمت. لا ينبغي أن يمثل ذلك أيّ مشكلة يا سيدة ميرسر، لكنني سأحتاج إلى بعض الوقت لجمع الأدلة». «ما هو الدليل الذي تحتاج إليه؟ لم يره أحد أو يسمع عنه منذ عقود».

«بالطبع. لكنّ إعلان وفاة شخص ما غيابيًا يحتاج إلى بعض الإجراءات البيروقراطية؛ علينا أن نظهر للمحكمة أننا حاولنا وبذلنا الجهود الكافية للعثور على زوجك، على الرغم من أن كفة الاحتمالات تميل إلى أنه متوفّى. سأبدأ المعاملة في الحال».

«شكرًا لك».

عاد شقيقها رالف من منجم الأوبال في كوبر بيدي، وجلس الاثنان لمناقشة الأمور.

قال: «بالنظر إلى الأزمة المالية الحالية في أوروبا، أود أن أقول إننا صامدون بشكل جيّد. إنه الوقت المناسب للتوسّع، يا كيتي. عندما كنت في كوبر بيدي، عرضت عليّ بعض الأراضي بسعر رخيص. أعتقد أنه سيكون استثمارًا ممتازًا».

«أنا أثق في حكمك يا رالف، لكن هل لدينا الأموال؟».

«بالتأكيد، شرط أن نبيع مزرعة تربية الماشية، كيلغارا. كنت أطلع على الحسابات. لا أعرف إذا كنتِ تتذكرين أن المدير القديم قد توفي منذ فترة، ولكن لا يبدو أن المدير البديل منتظم تمامًا في تقديم تقاريره الشهرية. أعتقد أنه من الضروري أن أسافر إلى الشمال لأرى بنفسي ما الذي يجري هناك».

«هل ذلك ضروري؟».

«أعتقد ذلك، نعم. لم أتلّق أي رد على أي من برقياتي الأخيرة».

قالت كيتي: «لم أذهب إلى هناك. إنها رحلة طويلة جدًّا». كانت تعلم جيّدًا لماذا لم تذهب إلى كيلغارا.

«باتت الآن أقرب، حيث يمكننا أن نستقل القطار إلى أليس سبرينغز. ثم بعد ذلك، إلى كيلغارا التي تستغرق الرحلة إليها يومين بالعربة، لكن يجب أن أغادر قريبًا، قبل موسم الأمطار».

«بالطبع».

«ثم هناك مسألة العقارات في بروم. لقد بعثُ جميع القوارب الشراعية كما اتّفقنا، ولكن تبقى المكاتب والمستودعات، والمنزل بالطبع. هل ترغبين في الاحتفاظ به؟ أعرف كم لديكِ فيه من الذكريات».

قالت متفاجئة: «نعم، ولكن يمكن بيع المباني التجارية. والآن يا عزيزي رالف، دعني أخبرك بخططي للمستقبل».

رأت كيتي تعبير رالف يتحوّل إلى الذهول عندما أخبرته أنها ستسلّمه
أمبراطورية ميرسر بأكملها.

«سوف أحصل على معاش تقاعدي متواضع من الشركة، ولكن لدي أموال
أخرى، علاوة على ذلك، فإن احتياجاتي ستكون قليلة. ثم بالطبع، هناك أليسيا هول.
أنوي أن أنقلها إليك».

«حقًا يا كيتي، هل أنت متأكّدة؟ أنت تعرفيني منذ أقل من ثلاث سنوات
و...».

وضعت كيتي يدها اللطيفة على ذراعه. «رالف، أنت أخي، دمك دمي. لا
أستطيع أن أفكر في أي شخص أفضل منك لإدارة العمل في المستقبل. لقد أثبتت
أنك مدير موهوب، وتملك حسًا تجاريًا عاليًا. أنا متأكّدة من أنك ستكون قادرًا
على ركوب موجة التغيير التي أشعر أنها قادمة إلى أستراليا. وفي الحقيقة، سأكون
سعيدة جدًا باستلامك زمام الأمور. لقد تعبت من إدارة الأعمال طيلة هذه السنين».
«شكرًا لك يا كيتي. تشرفني ثقتك بي».

«إذًا، وقد تمّت تسوية الأمور. أفكر... في تحضير نفسي للمغادرة بحلول شهر
نيسان. على الرغم من أن ثمة رحلة أخرى وعدت نفسي بأن أقوم بها عندما أبحرت
إلى هنا للمرة الأولى، وكنت ما أزال فتاة صغيرة».
«إلى أين؟».

«إلى آيرز روك. هل تصدّق أنني بعد كلّ هذه السنوات، لم أرها بعد؟».
ابتسمت له كيتي وتابعت: «لذا، سيكون لديك صحبة في القطار. سأتي معك إلى
أليس سبرينغز».



عندما قامت كيتي باستعداداتها النهائية لمغادرة شواطئ أستراليا، أدركت أنه لم يكن
هناك سوى القليل الذي ترغب في حمله معها إلى أوروبا، فكل شيء تقريبًا في أليسيا
هول كان من اختيار حماتها إديث. كانت أوراق نقل الأعمال لرالف جاهزة للتوقيع

عندما عادت من رحلتها إلى أليس سبرينغز. أبلغها السيد أنغوس أن العمل جارٍ على قدم وساق لتسجيل وفاة أندرو غيائياً، وكتبت كيتي بياناً موجزاً عن حالة «زوجها» العقلية بعد غرق السفينة كومبانا، على أمل أن يكون ذلك كافياً لإقناع القاضي.

بعد أسبوعين، تلقت شهادة وفاة أندرو بالبريد. جلست تحقق إليها بمزيج من الرعب والارتياح. خرجت إلى الشرفة وألقت نظرة خاطفة على المكان الذي رأت فيه دروموند للمرة الأولى عندما كانت فتاة في الثامنة عشرة من العمر. تمتمت لنفسها: «لقد انتهى كل شيء، انتهى أخيراً».



غمرها شعور غريب بالسلام عندما سمعت جرس الباب يرن بينما كانت تتناول الحلوى بعد العشاء بمفردها. وتساءلت عن هوية الزائر في هذا الوقت المتأخر من الليل. سمعت نورا، خادمتها تفتح الباب الأمامي.

قالت نورا وهي تطل من باب غرفة الطعام بعد ثوانٍ قليلة: «اعذريني يا سيدة ميرسر، هناك متسولة تريد رؤيتك. تقول إنكِ أعطيتها عنوانك. تدعى سارة. هل أسمح لها بالدخول؟».

«نعم، بالطبع». نهضت كيتي وغادرت المائدة.

أضافت نورا بسحنة كئيبة بينما كانت كيتي تتبعتها إلى القاعة: «معها صبي صغير أيضاً».

«سيدة إم! أشكر الرب لأننا وجدناك!».

إذا كانت سارة هزيلة من قبل، فقد أصبحت الآن أشبه بشبح. ارتمت في أحضان كيتي. «سيدة إم...».

ثم وقعت نظرة كيتي على إدي، الذي كان يختبئ خلف سارة، وكانت عيناه مستديرتين مثل طبقين وهو يحدّق إلى الثريا المعلقة في الوسط من السقف المقيبب العالي.

جذبت إدي إليها، وكان ما يزال يتشبّث بسارة: «يا إلهي، ماذا حدث بحق السماء؟ تعالي. أخبريني بكل شيء». وجّهت كلا الطفلين نحو غرفة الجلوس وأجلستهما على جانبيها.

«يا سيدتي إم، لقد قضينا أفضع الأوقات في دار الأيتام».

«دار الأيتام؟». رأت كيتي أن سارة كانت على وشك البكاء.

«نعم، لأن ذلك كلّه كان كذبة، أتفهمين؟ ذهب الآخرون مع عائلاتهم الجديدة، أما أنا وإدي، فلم يكن هناك أحد في انتظارنا. أخذونا مع عدد كبير من الأطفال الآخرين إلى هذا المكان الذي تديره الراهبات».

سألت كيتي: «هل أنت جائعة؟».

«نحن نتضور جوعًا، يا سيدة إم!».

قرعت كيتي الجرس وطلبت من نورا أن تحضر بعض الخبز واللحوم الباردة لضيفيها. بعد أن رأتهما كيتي وهما يلتهمان الطعام كما لو كانا متسولين جائعين، طلبت من سارة أن تخبرها بهدوء بما حدث.

خرجت من فم سارة قصة الويل والألم التي دارت أحداثها في دار الأيتام سان فانسان دو پول: «لقد عاملونا معاملة العبيد، يا سيدتي، وإذا رفضنا، كنا نتعرّض للضرب، أو نقف ساكنين لساعات ولا يُسمح لأحد بالتحدث إلينا. كانوا يمنعونا من النهوض من السرير للذهاب إلى المرحاض بعد إطفاء الأنوار. لم يكن لدى إدي الصغير أي خيار، سوى أن يبّل فراشه، كذلك باقي الصغار، ثمّ يتعرّضون للضرب بسبب ذلك. كنّا جميعنا كبارًا بما يكفي لنستيقظ قبل بزوغ الفجر، ونحمل ممسحة ودلّوا لنبدأ في التنظيف، وكل ما كنا نأكله هو الخبز اليابس».

أخذت سارة لحظة لتننّفس قبل أن تتابع وتكشيرة غضب تغضن وجهها: «وأسوأ ما في الأمر يا سيدتي، هو أن أولئك الراهبات، قد أطلقن على أنفسهن اسم (أخوات الرحمة)، ولم يكن في قلوبهن ذرّة رحمة. كانت إحداهن - الأخت ماري - تنتهك عقّة إحدى الفتيات الصغيرات كلّ ليلة، وتأخذها إلى إحدى الغرف، و... يا سيدتي إم، لا أستطيع حتّى أن أصف لك ذلك!». غطت سارة وجهها بيديها.

مع كل كلمة نطقها، كان رعب كيتي يتزايد. «أين يقع هذا المكان بالضبط؟». «في غودوود. لقد تهنا في طريقنا إليك، لكنني أعتقد أنه على بعد نصف ساعة سيرًا على الأقدام». أضافت سارة بحزم: «إذا كنت لا تستطيعين إنقاذنا، فنحن نتفهم ذلك، لكن لن يعود أي منا إلى هناك».

استدارت كيتي لترى إدي ينام ورأسه يستقر في ثنية ذراعها. «أعتقد أن الوقت قد حان لتخلدا إلى النوم، أليس كذلك؟».

«هل تقصدين أنه يمكننا البقاء؟ فقط هذه الليلة، بالطبع. ولكن من فضلك، سيدتي إم، لا تخبري أحدًا أننا هنا إذا سُئِلتِ. قالت الراهبة إننا سننتهي في السجن إذا هربنا». تثاءبت سارة، وكاد وجهها الصغير، الذي على شكل قلب، يختفي خلفهما.

«لن أتصل بالشرطة يا سارة، أعدك بذلك. تعالي الآن، سأخذكما إلى السرير، وسوف نتحدث في الصباح».

حملت إدي إلى أعلى الدرج، وأخذتهما كيتي إلى الغرفة القديمة التي ما تزال تحتوي على السريرين التوأمين اللذين كان دروموند وأندرو ينامان فيهما عندما كانا طفلين. أرقدت إدي على أحدهما بكامل ملابسه وغطته بملاءة، ثم أشارت إلى سارة لتنام في السرير الآخر.

«تمتتمت سارة وهي تغمض عينيها: «شكرًا لك يا سيدة إم، لن أنسى أبدًا ما فعلته من أجلنا الليلة».

همست كيتي وهي تغلق الباب خلفها: «يا طفلي العزيزة، لن يمكنني أبدًا أن أفعل ما يكفي».



بعد ظهر اليوم التالي، بينما كانتا تجلسان وتشربان عصير الليمون على الشرفة، وتشاهدان إدي يلعب مع كلبها تينكي، قالت روث، زوجة رالف: «هل أنت متأكدة من أن هذه الفتاة لا تبالغ؟».

«متأكدة. لقد قضيت معها وقتًا طويلًا في أثناء رحلتي إلى هنا، وأصدق كل كلمة تقولها».

«لكنهنّ راهبات... نساء نذرن حياتهن لخدمة الله».

أجابت كيتي مع إحساس بالمرارة وهي تشاهد إدي الذي كان يحاول الإمساك بفراشة: «علّمتني تجربتي أن نذر الحياة لله لا يعني بالضرورة العمل بتعاليمه».

سألت روث: «ماذا ستفعلين بهما؟».

«لم أقرّر بعد. من المؤكد أنني لن أعيدهما من حيث جاءا».

كانتا تشاهدان إدي يجري في الحديقة خلف الفراشة. ثم توقّف عن الضحك فجأة عندما تعثّر بحجر وسقط.

وقبل أن يتاح له الوقت ليطلق صرخة ألم، كانت روث تهب على قدميها وتجري نحوه، وذراعاها تحيطان به وهي تجثو على ركبتيها. دفن الطفل وجهه في صدرها وهي تتمتم له بكلمات المواساة. في تلك اللحظة، ثمة فكرة أخذت تتشكّل في ذهن كيتي.



«سيدتي إم، لقد صنعت هذا لأعبر لك عن شكري». قدّمت سارة بخجل لكيتي قطعة مربّعة من القماش، إحدى حوافها مطرّزة بالأحرف الأولى من اسمها، ومزينة بتصميم معقّد من الورود المتسلّقة.

«إنها جميلة يا سارة، شكرًا لك. أنتِ شابّة موهوبة جدًّا».

«ليس هذا ما كانت تقوله لي الأخت أنييس. بالنسبة إليها كنتُ لا شيء، مثلما كنّا جميعًا».

أجابت كيتي بحزم: «أؤكد لك أنك لست كذلك يا سارة».

«كنت أفكر في الذهاب إلى المدينة اليوم للعثور على عمل في الخياطة، بحيث أكسب بعض المال لي ولإدي. هل تعرفين خياطة تقبل بتوظيفي؟».

«رَبِّمَا يَا سَارَةَ، لكنني أعتقد أنكِ لا تزالين صغيرة للعمل بدوام كامل».

«لا يخيفني العمل الشاق يا سيدة إم».

«حسنًا، في واقع الأمر، أردتُ أن أسألكِ إن كنتِ على استعداد لمساعدتي لفترة من الوقت. لديّ أشياء كثيرة يجب أن أقوم بتنظيمها قبل أن أغادر إلى أوروبا، ومن المقرر أن أقوم برحلة إلى شمال أستراليا. إن وجود نوراً ضروري هنا، وسأحتاج إلى شخص يساعدني في ملابسي وأمور أخرى. انتبهي، إنها رحلة طويلة، أولاً بالقطار، ثم بالعربة».

«يا سيدتي إم، سأتبعكِ إلى أقاصي الأرض، سأفعل ذلك حقًا. هل أنتِ جادة؟».

«بالطبع، يا سارة، أؤكد لكِ».

«إِذَا أَوْدَ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ يَا سِيدَةَ إِم. ولكن...». قَطَبَت سَارَةُ حَاجِبِيهَا وَقَالَتْ: «مَازَا بِشَأْنِ إِي؟ لَيْسَ قُوِيًّا مِثْلِي. لَسْتُ مُتَأَكِّدَةً مِنْ أَنَّهُ سَيَكُونُ قَادِرًا عَلَى الْمَجِيءِ مَعَنَا».

رَبَّتْ كَيْتِي أَنْفَهَا وَابْتَسَمَتْ: «اتركي أمر إدي لي».



قَالَتْ روث: «بما أنك ستغيبين مع رالف خلال الأسابيع القليلة القادمة يا كيتي، كنت أتساءل إن كنتِ قد قرّرتِ ما ستفعلينه بإدي؟».

أَجَابَتْ كَيْتِي: «أتعلمين يا روث؟ لقد قرأتِ أفكارِي، لأنني لَسْتُ مُتَأَكِّدَةً عَلَى الإِطْلَاق مِمَّا سَأَفْعَلُهُ. لَا أَرْغَبُ فِي إِعَادَتِهِ إِلَى دَارِ الْإِيْتَامِ...».

«لا بالتأكيد، لا ينبغي أن تفعلي ذلك! لقد كنتُ أتحدث إلى رالف الليلة الماضية ونعتقد أنه سيكون من الأفضل أن يبقى معي في أثناء غيابكما».

«يا إلهي! يا لها من فكرة رائعة! ولكن ألن يكون عبئًا عليكِ؟».

«لن يكون ذلك على الإطلاق. إنه طفل لطيف، وأشعر حقًا أنه بدأ يثق بي».

امتلاّت عينا روث بالحنان عندما لكرها إدي ليربها أنه أنهى الألغوزة التي أهدته إياها.

«نعم، إنه طفل لطيف. حسنًا، إذا كنتِ متأكّدة، لمَ لا؟».

«تمامًا. من الأفضل أن يكون لديّ رجل في المنزل لحمايتي في غياب رالف».

قالت ذلك وابتسمت.

«إذا كان إدي سعيدًا، فأنا أيضًا سعيدة».

لمست روث ذراع الصبي الصغير: «ما رأيك يا إدي؟ هل ترغب في المجيء معي والعيش في منزلي لفترة من الوقت؟».

«نعم من فضلك!».

على الرغم من الغصّة في حلقها تمكّنت كيّتي من القول: «حسنًا، أعتقد أن القرار قد اتُّخذ».

كانت هذه هي المرة الأولى التي سمعت فيها إدي يتكلم.

بعد مرور خمسة أيام، عند الفجر، غادرت كيتي وسارة أدليبيد مع رالف إلى پورت أوغوستا، حيث استقلوا القطار إلى أليس سپرينغز. على امتداد الرحلة التي استغرقت ثلاثة أيام، تعوّدوا على روتين هادئ، ترافقه أصوات القطار الإيقاعية وهو يسحبهم عبر الصحراء الحمراء التي كانت تزداد وعورةً وفراغاً. كانت كيتي سعيدة بوجود سارة معها، ليس لطبيعتها العملية فحسب، لكن أيضاً لحماستها. ففرحتها الدائمة بكل منعطف من الرحلة، ساعدت كيتي على رؤية المناظر الطبيعية بعينين جديتين.

كانوا يمضون فترة بعد الظهر الطويلة في المراقبة، وكان وجه سارة دائم الالتصاق بالنافذة وهي تعلن لسيدتها عن كلّ مشهد وصوت جديدين.

في لحظة ما، شهقت قائلة: «جمال!».

كانت قافلة إبلٍ تقطع الصحراء في الأفق.

قال رالف من دون أن يرفع نظره عن أوراقه: «نعم، ذكر المضيف أنهم على الأرجح سينضمّون إلينا في المحطة التالية».

في الواقع، عندما توقفوا في أودناداتا، راقبت سارة باهتمام شديد الجمالين الأفغان، بعمائمهم البيض وعباءاتهم الفضفاضة، وهم يفرغون الإمدادات من القطار ويحمّلونها على مطاياهم الأنيقة.

بتشجيع من سارة، تأملت كيتي أيضاً المشهد المتغيّر للجمال الأحمر، وبحيرات الملح البيض اللامعة والأنهار الزرق، التي فوّتها على نفسها، بعد كلّ هذه العقود التي قضتها في أستراليا.

وصلوا إلى محطة أليس سپرينغز وترجلوا على رصيف مزدحم، حيث بدا

كما لو أن المدينة بأكملها قد جاءت تستقبل القطار. شقّوا طريقهم وسط الحشد الصاخب، ووجد رالف عربة لتقلّهم إلى الشارع الرئيسي في المدينة. وصلوا إلى ما أطلق على نفسه بكل فخر اسم فندق سبرينغز. وبينما كان سائقهم يحمل حقائبهم، دخلوا إلى ردهة استقبال مظلمة ومترّبة. همست سارة في أذنها: «ليس تمامًا ما تعودت عليه، أليس كذلك يا سيدة إم؟».

سأل رالف إن كان لدى المالكة، السيدة راندال - وهي امرأة ذات شعر أشيب تبدو وكأنها تستحمّ في مشروب الجن بانتظام - غرف شاغرة. أعطت صاحبة الفندق مفتاحًا لكل منهم. «المراحيض في الخلف، وهناك برميل ماء للاغتسال».

قالت كيتي وهي تومئ برأسها للمرأة: «شكرًا لك».

همست سارة قائلة: «بالاه، حتّى دار الأيتام كانت مراحيضها في الداخل». قالت كيتي بينما كانا يصعدان الدرج الخشبي: «أنا متأكّدة من أننا سنتمكّن من البقاء على قيد الحياة».

كان الثلاثة مرهقين تلك الليلة، فتناولوا العشاء باكراً في قاعة الطعام الصغيرة بالطابق الأرضي.

سألها رالف: «تقول السيدة راندال إن مزرعة كيلغارا تبعد مسافة يومين بالعربة. لذلك سأبدأ البحث عن شخص ليأخذني إلى هناك. هل سترافقيني؟».

قالت كيتي بحزم: «لا. لدينا عشرة أيام فقط هنا وأتمنّى أن أرى آيرز روك. أنا متأكّدة من أنك ستتمكّن من إبلاغي بحقيقة الوضع يا رالف. الآن، أعتقد أنني سأنسحب. لقد أنهكتني الرحلة تمامًا».

في غرفتها المتواضعة الواقعة في الطابق العلوي، استلقت على الفراش القاسي المصنوع من شعر الخيل، ونظرت عبر الزجاج الذي كان يرتدي الغبار الخارجي كجلد ثانٍ. كانت تعلم أن دروموند لن يكون في مزرعة تربية الماشية، ولم يكن

ليخاطر بأن يتعرّف عليه أحد. مع ذلك، إذا كان المنطق يقول إنه من المحتمل أن يكون في أيّ مكان من هذه الأراضي الشاسعة، فإن وجوده هنا في المناطق النائية جعلها تشعر بأنه قريب.

هذا هو مكانه، أرضه...

قالت لنفسها موبخة: «كيّتي، لقد أعلنت وفاته رسميًا. وعلاوة على ذلك، من المؤكّد تقريبًا أنه ليس أكثر من مجرد عظام الآن...».

مع هذه الكلمات الصارمة، استدارت كيّتي ونامت.



في صباح اليوم التالي، أمام الفندق، بدا رالف متوترًا قليلًا وهو يجلس على عربة بجوار سائق من السكان الأصليين.

قال، وهو يتسم لكيتي وسارة: «ستكون مغامرة تُروى لروث وإدي، أليس كذلك؟ إن شاء الله، أراهما في نهاية الأسبوع. حسنًا، هيا بنا».

لكز السائق المهر فانطلقت العربة على الشارع المترّب.

قالت سارة وهي تهوّي نفسها: «لحسن الحظ أننا لم نقم بهذه الرحلة في هذه الحرارة يا سيدة إم. أليس كذلك! كنت أفكر في الذهاب إلى متجر الملابس على الجانب الآخر من الطريق وأرى إن كنت أستطيع شراء بعض المواد لصنع قبعتين واقيتين من الشمس، مع شبكة فوقهما لإبعاد هذا الذباب». سحقّت ذبابة كانت تحطّ على خدّها.

وافقت كيّتي قائلة: «فكرة جيدة. أقترح أن نقضي اليوم هنا في المدينة ونسافر إلى آيرز روك غدًا».

«أنتِ على حق يا سيدة إم. عندما أعود، سأبذل قصارى جهدي لغسل ملابسكِ في ذلك البرميل».

بعد أن أعطت سارة بعض النقود المعدنية التي أخرجتها من حقيبتها، شاهدت

الفتاة تختفي في الشارع المزدحم. كانت المدينة تعجّ بمزيج من البيض والسكان الأصليين، وكان الطريق مزدحمًا بالرجال الذين يمتطون الخيول والمهور والعربات وما ندر من السيارات. أعادها المشهد إلى أيامها الأولى في بروم؛ مزيج متعدّد الثقافات من البشر المصمّمين على شقّ طريقهم في بيئة قاسية لا ترحم.

بعد أن تناولت كيتي طعام الغداء ولم تعد معتادة على الحرارة الشديدة، عادت إلى الفندق واحتمت تحت مروحة السقف فوق سريرها. ومع حلول الغسق وتراجع حرارة النهار، قررت أن تتمشّى في الخارج وإلا فإنها لن تنام الليلة أبدًا. عند وصولها إلى مكتب الاستقبال الصغير في الطابق الأرضي، نظرت إليها السيدة راندال التي كانت تتحدث مع رجل من وراء المنضدة.

«مساء الخير يا سيدة ميرسر. يقول مارشال إنه سيكون هنا باكراً ليأخذك إلى الصخرة. من الأفضل أن تسافري قبل شروق الشمس، لذا فهو يقترح الساعة الرابعة من صباح الغد. هل يناسبك ذلك؟».

«نعم تمامًا. شكرًا لك».

كانت كيتي قد أدارت مقبض الباب لتوها عندما أضافت السيدة راندال: «أنتما فقط ستتناولان العشاء الليلة، أليس كذلك؟ ربما يمكن للسيد دي أن ينضمّ إليكما».

«أنا...».

استدار الرجل وراح يحدّق إليها مباشرة. كانت عيناه الزرقاوان الواسعتان تبرزان من بشرته التي لوحتها الشمس فوق شعيرات لحيته الرمادية.

تشبّثت كيتي بالباب لئلا تسقط مغشيًا عليها، عاجزة عن إبعاد نظرتها عنه.

«بالطبع، إذا كنتِ تفضّلين تناول العشاء بمفردكما، يمكنني ترتيب ذلك».

بدأت السيدة راندال مرتبكة بينما استمر ضيفاها يتبادلان النظرات.

قال في النهاية: «الأمر متروك للسيدة».

حاولت كيتي صياغة ردّ، لكن دماغها كان مشوّشًا.

«هل أنتِ بخير يا سيدة ميرسر؟ لقد شحب لونك فجأة».

حاولت جاهدة أن ترفع يدها عن مقبض الباب، لكنها كانت تعلم أنها قد تسقط إذا فعلت ذلك. وبجهد جبار، أدارت ظهرها لتفتحه وقالت: «نعم... سأقوم بنزهة في الخارج».

في الشارع، استدارت كي تي وراحت تسير بخطى سريعة مبتعدة عن الفندق. هذا مستحيل... مستحيل...

«كي تي!».

عندما سمعت صوته خلفها، أخذت تجري. انعطفت إلى ممر ضيق، غير مهتمة بالمكان الذي تتجه إليه ما دام لا يتمكن من اللحاق بها. «بحق السماء! توقفي! يمكنني أن أسبقك بقفزة واحدة».

«عليك اللعنة! اذهب إلى الجحيم!».

ثم أبطأت عندما بدأت تظهر بقع أرجوانية أمام عينيها وقبضت يد قوية على ذراعها. كانت على وشك الإغماء حين انحنت، وهي تلهث مثل كلب مصاب بالربو، ولم يكن أمامها خيار سوى السماح له بحملها.

«اجلسي. سأذهب وأحضر لك بعض الماء». أنزلها بلطف على عتبة الباب وطلب منها أن تنتظر عودته.

«لا أريدك أن تعود... اغرب عن وجهي...» تأوهت كي تي وهي تحني رأسها وتضعه بين ركبتيها محاولة الحفاظ على وعيها.

«هيا، اشربي».

شمت رائحة الويسكي قبل أن تراه. «لا! لكمت الكوب المعدني، الذي طار في الهواء، ثم سقط وتدحرج على الأرض، واندلق محتواه. «كيف تجرؤ!».

«كيف أجرؤ على ماذا؟»

«أن تحضر لي كحولاً! أحتاج إلى ماء!».

عاد بالماء.

أمسكت كي تي القارورة التي قدّمها لها وشربت بنهم. أخذت بعض الأنفاس العميقة وهي تهوي نفسها بقبعتها. شعرت بأن حواسها تعود إليها شيئاً فشيئاً.

«ماذا تفعل هنا؟».

«لقد أتيتُ إلى هنا منذ ما يقرب من أربعين عامًا. لكنني أعتقد أنني أحقُّ بأن أ طرح عليكِ هذا السؤال».

«لا أعتقد أن هذا من شأنك...».

«أنتِ على حق كما هو الحال دائمًا، لكنني أحذركِ من أن عروضنا المسرحية على طول الشارع الرئيسي في أليس سبرينغز ستصبح قريبًا حديث الجميع. هل يمكنني أن أقترح مواصلة هذه المحادثة في مكان أكثر خصوصية؟».

قالت وهي تسمح له بمساعدتها على النهوض تحت أعين المارة المشدوهين: «سوف ترافقني إلى الفندق، وبعد ذلك ترحل».

«هاه! لقد جئتِ إلى أرضي. عليكِ أنتِ أن ترحلي وليس أنا».

أجابت: «سنرى».

لم يضيفا كلمة واحدة حتى وصلا إلى الفندق. توقف عند عتبة الباب والتفت إليها.

«أقترح أن نتناول العشاء معًا الليلة، بهدف إبعاد الشكوك فحسب، إذ يصادف أننا نتشارك سقف سيّدة النميمة في البلد. ولاحقًا، عندما تذهب إلى النوم، بعد بضع كؤوس من الكحول، أيّ حوالى الساعة التاسعة والنصف، نتحدث».

قالت كيتي وهي تهم بفتح الباب: «اتفقنا».

سألتهما السيدة راندال عندما دخلا إلى مكتب الاستقبال: «هل كل شيء على ما يرام يا حبيبتي؟»

«نعم شكرًا لك. لا بُدَّ من أن حرارة النهار قد أثرت عليّ».

«بالتأكيد يا عزيزتي، هذا يحدث لنا جميعًا». ثم غمزت له وسألته: «أليس كذلك يا سيد دي؟».

«بالتأكيد يا سيّدة آر».

سألت السيدة راندال: «هل قرّرنا إذا كنا سنتناول الطعام معًا؟»

أجاب: «بالطبع. لقد التقيت بالسيدة ميرسر منذ سنوات عدّة. وكان زوجها... صديقًا مقربًا. سيكون من دواعي سروري أن نتذكر ذلك الزمن الجميل، أليس كذلك يا سيدة ميرسر؟».

استطاعت كيتي أن ترى أن جزءًا منه على الأقل كان يجد هذه التمثيلية مضحكة. قبل أن تخنقه قالت «نعم» وصعدت الدرج عائدة إلى غرفتها بقدر ما استطاعت من هدوء.

«يا إلهي!». أغلقت الباب خلفها بالمفتاح كإجراء وقائي جيّد، واستلقت على سريرها محاولة تهدئة نبض قلبها الخافق.

كنتِ تحبّينه في ما مضى...

بعد بضع دقائق، نهضت كيتي وراحت تجول في الغرفة مثل حيوان محاصر. نظرت إلى وجهها في المرآة الصغيرة المحرّزة بخطوط سود شوّهت صورتها.

كتمت ضحكة مريّة من سخرية القدر، الذي جاء بها إلى مكانٍ خالٍ من أيّ وسائل أنثوية تتيح لها تجميل نفسها قليلًا، أو لتبدو كذلك في عينيه، حتّى لو لم تكن تريد ذلك، بالطبع. سخرت من غرورها، لكنها مع ذلك، أحضرت سارة من الغرفة المجاورة، وطلبت منها أن تُخرج بلوزتها الموسلين الزرقاء المفضّلة لديها، وأن تفعل شيئًا ما بشعرها الرمادي المحمرّ الذي تمرّدت خصله وراحت تتدلّى على جانبي وجهها.

علّقت سارة وهي تحاول ترويض شعر سيدتها وتنعيمه بالأمشاط: «الشعر المرخي يليق بكِ أكثر يا سيد إم. يجعلكِ تظهرين أصغر بسنوات».

أعلنت كيتي وهي تضيف قليلًا من أحمر الشفاه ليبدو فمها ممتلئًا: «سنتناول العشاء مع صديق قديم جدًّا لزوجي». عندما بدأ أحمر الشفاه يتسلل إلى التجاعيد حول شفتيها، أزالته بعصية.

«ذكرت السيدة راندال أن رجلًا سيتناول العشاء معنا الليلة. لم أدرك أنه كان صديقًا قديمًا لكِ. ما اسمه؟».

ابتلعت كيتي بصعوبة: «الجميع هنا ينادونه بالسيد دي».

كان ينتظرهما في الردهة، واستطاعت كيتي أن تدرك من بشرته النظيفة ووجهه المحلوق حديثاً أنه أيضاً بذل جهداً لتجميل نفسه. وقف ثم انحنى لتقبيل يدها: «السيدة ميرسر. يا لها من مصادفة».

«بالفعل».

تحول انتباهه إلى سارة: «ومن هذه؟».

«هذه سارة. التقيتُ بها على متن السفينة في رحلة العودة إلى أستراليا قبل بضعة أشهر. إنها خادمتي».

انحنى سارة انحناء غير ضرورية: «كيف حالك يا سيدي؟».

«جيد جداً، شكرًا لك. هل نجلس؟».

وبينما كانوا يجلسون، اقترب من كيتي وهمس في أذنها: «أنتِ حقًا لا مثيل لكِ في جمع المتشردين».

أثناء تناول الحساء الجيد نسيًا، والذي أخبرهم السيد «دي» أنه كان بلحم الكنغر، جلست كيتي تراقب دروموند وهو يسحر سارة. كانت هي نفسها سعيدة بحضور شخص آخر يبعد اهتمامه عنها. كانت معدتها منقبضة إلى الحد الذي جعلها تشعر أنها ستنفجر مع كل لقمة.

سأل سارة: «إذًا، إلى أين تذهبين؟».

أخبرته سارة بكل سرور، وهي تتناول جرعة أخرى من البيرة التي أصرّ دروموند على أن تجربها: «سندهب لرؤية بعض الصخور الكبيرة في وسط الصحراء غدًا. تريد السيدة إم رؤيتها لسبب ما. يبدو أنه طريق طويل نقطعه لمجرد رؤية بعض الصخور، إذا كنت تعرف ما أقصده».

«أعرف، ولكن ثقي بي، بمجرد وصولك إلى هناك، سوف تفهمين. إنه مكان خاص جدًا».

«حسنًا، إذا كنا سنستيقظ في الرابعة صباحًا، من الأفضل أن أذهب إلى الفراش. وأنتِ يا سيدة إم؟».

نظر إليها دروموند: «ستذهب إلى الفراش بعد تناول القهوة، أليس كذلك يا سيدة ميرسر؟».

تثاءبت سارة بشدة، ثم نهضت: «حسنًا. أراك في وقت مبكر من صباح الغد». راقبتها كي تي وهي تخرج مترنحة من الردهة. همست: «هل من عادتك أن تُسكر الفتيات الشابات؟ لم تبلغ سارة السادسة عشرة بعد!».

رفع دروموند كأسه: «نخبك يا كي تي. أقسم أنك لم تتغيري منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. لطالما تساءلت، ما الذي يجعلك غاضبة إلى هذا الحد؟».

هزت كي تي رأسها، مشمئزة من دروموند، الذي تمكن بعد كل هذه السنوات، من تحويلها إلى كتلة من الغضب وعدم الأمان. ومرة أخرى، كان لديها رغبة عارمة في صفعه.

«كيف تجرؤ على التحدث معي بهذه الطريقة؟».

«أي طريقة؟ تقصدين، لا كباقي أتباعك الذين ينحنون ويتمرغون عند قدمي كي تي ميرسر الشهيرة، التي عانت من مأساة عائلية مريرة، ولكن على الرغم من كل الصعاب، ارتقت لتصبح أقوى أسياد صيد اللؤلؤ في بروم؟ تحظى باحترام الجميع وتبجيلهم، على الرغم من أن نجاحها حرمها من أي شكل من أشكال الحب؟».

«كفى!».

نهضت كي تي بشكل غريزي، غير راغبة في إعطاء السيدة راندال مزيدًا من القيل والقال لنشره في جميع أنحاء المدينة، ومدركة أنها كانت على وشك الانفجار.

«سأقول ليلة سعيدة». ومشت نحو الباب.

«أنا معجب بقدرتك على ضبط النفس. كنت أتوقع لكمة في أي لحظة».

تنهدت كي تي بعمق، إذ كانت مرهقة ومرتبكة لدرجة أنها لم تعد قادرة على القتال. «تصبح على خير يا دروموند».

صعدت الدرج إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها. خلعت بلوزتها الزرقاء ووبخت نفسها لأنها فكرت في ارتدائها، وصعدت إلى السرير. ولأول مرة منذ فترة طويلة بقدر ما تستطيع أن تتذكر، بكت.

عندما هدأت وباتت على وشك أن تغفو، سمعت طرقًا خجولًا على بابها. جلست مستيقظة تمامًا. «من هناك؟».

جاءها همس عبر الباب: «أنا».

هبت كيتي من السرير، غير متأكدة من أنها أغلقت الباب خلفها عندما دخلت. كان الجواب مائلًا أمامها عندما دخل دروموند، وبدأ بمثل بؤسها.

أغلق الباب خلفه وأقفله بإحكام. «سامحيني يا كيتي. جئت أعذر. أنا لا أتصرف مثل خنزير كما فعلت لتوي. لقد كانت رؤيتك صدمة قاسية. أنا... لم أكن، بل لا أعرف. لا أعرف كيف أتعامل مع هذا».

«لست أفضل منك حاليًا. وأنت على حق. أنا التي يجب أن ترحل. سأذهب إلى أيرز روك غدًا، بعد ذلك، سأعود إلى أديلاييد في أقرب وقت ممكن».

«لا حاجة للقيام بذلك. صدقيني».

«بل ضروري. يا إلهي، ماذا لو تعرّف عليّ أحد أو علينا نحن الاثنين؟ لقد تلقيت لتوي شهادة وفاة أندرو».

«إدًا، فقد قتلتني أخيرًا». لزم الصمت لبرهة، وفي النهاية نظر إليها وابتسم ابتسامة ضعيفة: «لا يهم يا كيتي. هنا يعرفني الناس باسم السيد دي، الراعي الذي لا يبقى في مكان واحد لمدة تزيد على بضعة أسابيع. يُقال همسًا إنني سجين سابق، هارب من سجن فريمانتل».

نظرت كيتي إلى كتلة شعره الداكن الكثيفة، التي شابها لون رمادي، ووجهه الخشن الذي حفرته الشمس أكثر مما فعلت السنون، و صدره الواسع الذي تكمله ذراعان غليظتان مفتولتا العضلات.

قالت: «لا أستغرب أن يُنظر إليك كواحد منهم».

ابتسم لها نصف ابتسامة وقال: «دعينا نكفّ عن تبادل الإهانات من جديد. تبدين أكبر بيوم واحد منذ رأيتكِ آخر مرة. ما زلتِ جميلة جدًا».

لمست كيتي شعرها الرمادي: «أعلم أنك تجاملني، ولكنني أقدر هذه اللفتة».

ساد صمت بينهما بينما كان عمر من الذكريات يومض أمام أعينهما. في النهاية، قال دروموند: «يجب أن أخبرك، في حالة عدم حصولي على فرصة أخرى، أنه لم يمر يوم واحد منذ ما يقرب من أربعين عامًا، من دون أن أفكر فيك». ابتسمت كيتي وقالت ساخرة: «بغضب حتمًا».

ضحك: «نعم، صحيح، لكن من سلوكي المتهوّر فحسب، فهو الذي جعل حياتي منذ ذلك الحين مجرد مهزلة جوفاء».

«يبدو أن ذلك يناسبك تمامًا ويليق بك، عليّ أن أعترف أنني لا أصدق أنك تجاوزت الستين».

تنهّد قائلاً: «جسدي يصدّق. في هذه الأيام أعاني من تقلّبات العمر. يؤلمني ظهري بعد قضاء ليلة على الأرض، وتصدر ركبتي صريرًا في كلّ مرّة أتسلّق فيها حصاني. إن الحياة التي أعيشتها تليق بشاب، ولم أعد كذلك بعد الآن». «وماذا ستفعل إذا؟».

«ليس لديّ أيّ فكرة على الإطلاق. ماذا يفعل الرعاة في شيخوختهم؟ الآن، عندما أفكر في ذلك، أدرك أنني أكاد لا أعرف واحدًا بمثل سني. في العادة نكون قد انتهينا بعمر الخمسين. سواء بلدغة أفعى، أو برمح رجل أسود، هذا إذا لم نفطس بسبب الزحار. لقد حالفني الحظ بالإفلات من ذلك. ربما لأنني متّ بعد أن رأيتك آخر مرة، لم أعد آبه بالموت، لذلك أبقاني الله على قيد الحياة ليعاقبني. حسنًا، هذا بما يخصّني. ماذا عنك؟».

«سأغادر أستراليا إلى الأبد بعد عودتي إلى أديلاييد».

«إلى أين؟».

«إلى إسكتلندا، أو على الأقل، إلى أوروبا. لقد اشتريت شقّة في إيطاليا. أنا مثلك، أعتقد أن أستراليا لا تصلح إلا لرجل شابّ أو امرأة شابة».

هزّ دروموند رأسه: «آه يا كيتي، كيف كبرنا إلى هذا الحد؟ ما زلت أذكرك عندما كنت في الثامنة عشرة، وكنت تغنين بأعلى صوتك في فندق قلعة إدنبره، وقد بلغت حدّ الثمالة».

نظرت إليه: «ومن كان المسؤول عن ذلك؟»

«أنا، بالطبع. كيف حال تشارلي؟ أعرف زميلاً له من إرسالية هيرمانسبورغ، قال إنه ذهب معه إلى المدرسة ويتمنى أن يأتي لزيارته ذات يوم». «لا بُدَّ من أنك تتحدّث عن تيد ستريلو».

«بالفعل. الرجل غاضب طوال الوقت، مثل كوبرا مصابة بصداق نصفي، لكنني ألتقيه أحياناً في أثناء رحلاته إلى المناطق النائية. إنه عالم أنثروبولوجيا يدرس ثقافة السكان الأصليين».

«نعم، لقد التقيته مرة واحدة في أديلاييد. للأسف، أعتقد أنك لم ترَ السيد ستريلو مؤخراً. لقد توفي تشارلي قبل سبع سنوات في الهجوم الياباني على خليج روبوك».

«كيّتي، لم أكن أعرف!». اقترب دروموند وجلس على السرير المجاور لها: «يا إلهي، لم أكن أعرف. سامحيني».

كانت كيّتي مصمّمة على عدم البكاء. قالت: «إذا، ليس لديّ ما يبقيني هنا في أستراليا، لذا سأعود إلى الوطن».

بعد برهة صمت، نظرت إليه وقالت: «يا لها من عبثية! أليس كذلك؟» «ماذا؟».

«أنا وأنتَ ما زلنا هنا على الأرض، بينما ابني - وكثير من الأشخاص الآخرين الذين أحببناهم - رحلوا، ولم يعودوا معنا».

«نعم». أخذ يدها بيده، وأحسّت بالدفء يسري في جلدها، وأدركت أن يده كانت آخر يد رجل تلمسها بحركة كهذه منذ ما يقرب من أربعين عاماً. ثم لفّت يدها حول يده.

سألها: «ألم تتزوّجي ثانية؟».

«لا».

مكتبة

t.me/soramnqraa

«بالتأكيد كان هناك كثير من الخاطبين؟».

«بعضهم، نعم. لكن، كما يمكنك أن تتخيل، كانت ثروتني هي التي تهتمهم. وأنت؟».

«يا إلهي، لا! من هي التي سترضى بي؟». وساد صمت طويل آخر بينهما.
ويداهما متشابكتان، فكّر كلّ منهما في الأسرار التي أخفاها عن الآخر، وفي الوقت نفسه كان ممتنًا للحظة التي كانا يتقاسمانها.
قالت كيتي في النهاية: «يجب أن أنسحب، وإلا فلن أتمكن من فعل شيء في الصباح». مع ذلك، لم تحرّر يدها من يده.
سألت بنبرة هادئة: «هل تتذكّر ألكينا؟».
«نعم».

«لقد اختفت في الليلة التي سبقت عيد ميلاد تشارلي الحادي والعشرين. ثم اختفت كاميرا بعد بضعة أشهر عندما كنت في أوروبا.
«حقًا؟».

«نعم. غادر فريد أيضًا بعد ذلك. ذهب للتجوال ولم يعد. ولم أر أو أسمع عن أيّ منهم شيئًا منذ ذلك الحين. لا بُدّ من أنني فعلت شيئًا سيئًا جدًّا في حياتي. كلّ من أحبهم يتركونني».
«لم أتركك. أنت التي أقصيتني من حياتك وطلبت مني أن أرحل، أتذكرين؟».
«دروموند، أنت تعلم أنه لم يكن لديّ خيار آخر. أنا...».
«أعرف. وسوف أندم على فعلتي حتّى آخر يوم في حياتي. اطمئني، لديّ ما يكفي من الوقت للندم».
«كنّا مذبذبين يا دروموند».

«مع ذلك، من الجيّد أن تشعرني أنك على قيد الحياة، أليس كذلك؟».
«بالتأكيد».
«لقد أتاحت لي تلك الذكريات أن أصمد ليالي كثيرة، باردة وطويلة في النقر نقر يا كيتي...».
«حقًا؟».

مرّر دروموند يده في شعره، وكان متوترًا على نحو غير معهود. قال: «يجب أن أسألك... لقد... سمعت شائعات... تقول إنك كنت حاملًا بطفل بعد رحيلي. هل هذا صحيح؟».

«أنا... كيف عرفت؟».

«أنتِ تعرفين كيف تنتقل الأخبار في المناطق النائية. كيتي، هل كان الطفل لي؟».

«نعم».

حرّرت الكلمة كيتي من عبء ثقيل، عندما كشفت أخيرًا عن السرّ الذي احتفظت به طوال هذه السنوات.

«لا يوجد أيّ شك ممكن؟».

«أبدًا. نزلتُ بعد ذهاب أندرو، قبل أن نكون معًا». وظهر احمرار خفيف على خدي كيتي.

ابتلع دروموند ريقه بصعوبة: «ماذا حدث لطفلنا؟».

«خسرته. طوال سبعة أشهر، شعرتُ به في داخلي، جزءًا منك، وجزءًا منّا، لكنني دخلتُ في المخاض مبكرًا ووُلِدَ ميتًا».

«كان صبيًا؟».

«نعم. سمّيته ستيفان، على اسم والدك، ودُفِنَ في مقبرة بروم». بكت كيتي بكاء مريّرًا بينما راح جسدها يهتزّ معبّرًا عن كلّ ما كانت تحمله فيه من ألم طوال كلّ تلك السنين. بكت أمام الشخص الوحيد على وجه هذه الأرض، الذي يمكنه أن يفهمها.

«لقد ذهب ابننا الصغير وذهب تشارلي وصارا رمادًا. رباه! في تلك الأيام المظلمة، كنت في بعض الأحيان أتساءل، ما المغزى من ذلك كله؟». مسحت عينيها بملاءة السرير. «والآن، ها أنا أفكر في نفسي، وليس لديّ حتّى الحق في العيش، بعد أن مات ولداي».

وضع دروموند ذراعه حول كتفها المرتعشة: «يا إلهي! أيّ دمار هذا الذي يمكن أن يحدثه الحب فينا نحن البشر؟».

تمتت كيتي وقد وضعت رأسها على صدره: «لم يكن غير حبّ صغير فحسب، ودمّرنا نحن الاثنين».

«يجب أن تواسيكِ حقيقة أنه لا يوجد شيء بسيط في هذه الحياة. لو لم يرسلني أندرو لجلب اللؤلؤة الوردية، لكان هو الذي عاد إليك حيًّا، ولكنّ أنا الذي يرقد في قاع المحيط. يجب أن نتحمّل مسؤولية أفعالنا، لكن لا يمكننا أن نكون مسؤولين عن تصرّفات الآخرين. لديهم هذه الطريقة الماكرة في الالتفاف حول مصائرنا مثل أعشاب ضارّة. لا شيء على وجه الأرض منفصل عن الآخر».

همست كيتي وعلى شفيتها شبح ابتسامة: «هذا عميق بشكل فظيع».

«ولحسن الحظ، أعتقد أن هذا صحيح، فهو الذي منعني من إلقاء نفسي من قمة آيرز روك».

«وما الفائدة من ذلك؟ لا أحد منّا لديه عائلة ينقل إليها حكمتنا والدروس التي تعلّمناها. بالنسبة إلى آل ميرسر، إنها نهاية السلالة...».

كان هناك صمت طويل قبل أن يجيب: «كيتي، أتوسّل إليك أن تثقي بي للمرة الأخيرة. ثمة مكان يجب أن آخذكِ إليه قبل أن تغادري. يجب أن تأتي معي غدًا».

«لا يا دروموند، لقد أمضيتُ الأربعين عامًا الأخيرة من حياتي وأنا أتمنّى الذهاب إلى آيرز روك، وسوف أفعل ذلك بعد ساعات قليلة. لا شيء يمكنه أن يثنييني».

«ماذا لو أقسمتُ أنني سأخذكِ إلى هناك بعد غد؟ علاوة على ذلك، فهذا يعني أنك لن تضطري إلى الاستيقاظ مع الفجر، فقد تجاوزت الساعة الواحدة صباحًا. أتوسّل إليك، كيتي. يجب أن تأتي».

«من فضلك يا دروموند، أتقسم لي أن الأمر ليس مجرد نزوة جامحة؟».

«أقسم لك أنه ليس كذلك، ولكن يجب أن نذهب في أقرب وقت ممكن، وقبل فوات الأوان».

نظرت كيتي إلى تعابير وجهه الجدية: «إلى أين سنذهب؟».

«إلى هيرمانسبورغ. هنالك شخص يجب أن تريه».

«سيدة إم! لقد تجاوزت الساعة الثامنة! ألم يكن من المفترض أن نستيقظ في الرابعة؟ قلت إنك ستوقظيني».

تحركت كيتي عندما رأت وجه سارة القلق يحوم فوقها. قالت بصوت أجش وهي تستعيد وعيها: «لقد حدث تغيير في الخطة. سيأخذنا السيد دي إلى هيرمانسبورغ اليوم».

«هذا جيد إذًا، أليس كذلك؟». انتظرت سارة التأكيد.

«نعم إنه كذلك».

سألت سارة وهي تطوي الملابس التي خلعتها كيتي وأسقطتها على الأرض الليلة الماضية: «ما هو هيرمانسبورغ؟»

«إنها إرسالية مسيحية. رأى السيد دي أن الجو سيكون حارًا جدًا للقيام بالرحلة إلى آيرز روك اليوم. ويقول إن هيرمانسبورغ أقرب كثيرًا».

قالت سارة: «أنا لا أحب المبشرين. كانوا يروون لنا قصصًا عن الرب يسوع الصغير في دار الأيتام، ويقولون إن علينا أن نصلي له من أجل خلاصنا. كل ما أعرفه هو أنه لم يعيش طويلًا، أليس كذلك يا سيدتي؟ مع أنه كان ابن الله».

وقفت سارة عند طرف السرير ويداها على خصرها. «في أي وقت سنغادر».

«في التاسعة».

«إذًا، سأذهب وأحضرك حوضًا جديدًا من الماء حتى تتمكني من الاغتسال جيدًا قبل أن نغادر، لأن الرب وحده يعلم متى سنحصل على حوض آخر. أنا أحب صديقك، بالمناسبة. من الجيد أن يكون لدينا شخص يحميننا، أليس كذلك؟».

كبت كيتي ابتسامتها: «نعم».

«هل تعتقدين أنه سيسمح لي بقيادة العربة قليلاً؟ لطالما أحبت الخيل».

قالت كيتي: «أنا متأكدة من إمكانية ترتيب ذلك، وارتمت على وسادتها بينما كانت سارة تغادر الغرفة».

«ماذا أفعل؟». تأوّهت كيتي عندما استعادت الأحداث التي وقعت قبل ساعات قليلة فقط.

أنت تعيشين يا كيتي، للمرة الأولى منذ سنوات...

في الطابق الأرضي، تناولت فطوراً مكوّناً من الخبز والقهوة القوية بينما كانت سارة تتجاذب أطراف الحديث بعيداً منها.

«قال السيد دي إنه سيقابلنا في الخارج عندما ننتهي من الفطور. علينا أن نأخذ ملابس إضافية بسبب الغبار، لكنه هو الذي سيتكفل بالمؤمن. أنا سعيدة بقدومه يا سيدة إم، يبدو أنه يعرف المنطقة جيداً. إنها تشبه الغرب الأميركي، أليس كذلك؟ لقد رأيت ذات مرة فيلماً يُظهر خيولاً تعدو في الصحراء. لم أتخيل أنني سأرى ذلك بأم عيني».

في الخارج، كان دروموند ينتظر ومعه حصان صغير وعربة. صعدت المرأتان وجلستا على المقعد الخشبي، ونوّهت كيتي بأن سارة ترغب في قيادة المهر في وقت ما، وأجلستها بينهما.

«هيا بنا». لكز دروموند ظهر الحصان بلطف وانطلقوا مسرعين على طول الشارع الرئيسي.

كانت كيتي سعيدة جداً برؤية سارة مستمتعة بقصص مغامرات دروموند في المناطق النائية. كما استمتعت بالمناظر الطبيعية التي تحوّل لونها إلى الأحمر النابض بالحياة أثناء خروجهم من المدينة، وكذلك بسلسلة الجبال خلفها وقد تحولت إلى اللون البنفسجي الضبابي. كانت سارة تستجوبه باستمرار، وكان يشرح ويعدّد بصر أنواع الشجيرات والأشجار والحيوانات، وهي تخزّن المعلومات مثلما تخزّن صحراء سبينيفكس الماء في أثناء الجفاف.

أشار دروموند إلى شجرة بيضاء اللحاء: «وهذه شجرة اللبّان. إنها مقدّسة لدى السكان الأصليين، ويمكنك أن تستعملي اللحاء لعلاج نزلات البرد...».

مع غروب الشمس، كانت كيتي سعيدة بقبعتها القطنية ذات الحجاب الشبكي، وفي نهاية المطاف، هدّأها انتظام إيقاع خطوات المهر الوثيقة وغفت.

«إلى اليسار، هنا». أعادها صوت دروموند إلى وعيها. «لا، يسارًا يا سارة».

ترنّح المهر واستيقظت كيتي لترى سارة تقود العربة إلى الممر الذي كان يقع خلفه عدد من المباني المطلية باللون الأبيض.

«أهلاً بك في هيرمانسبورغ». ابتسم دروموند وهو يمدّ يده لمساعدتها على النزول. «لدى هذه الفتاة المراهقة كلّ مقومات الفارسة الجميلة. عندما سلّمتها زمام الأمور، لم تتحركي.

«أوه! لقد أحببتُ ذلك يا سيدة إم! لكنني أتمنى ركوب المهر». نظرت سارة بحزن إلى دروموند.

«هناك الكثير من الخيول هنا، أنا متأكّد من أن شخصًا ما سوف يسمح لك بركوب أحدها قبل أن نغادر. الآن، فلنرَ إذا كان القسّ موجودًا».

قادهما دروموند عبر مجموعة من الأكواخ إلى ساحة مركزية تنبض بالحياة. كانت معظم الوجوه من السكان الأصليين؛ نساء من أعمار مختلفة يرتدين ملابس بيضاء، وهو ما وجدته كيتي سخيّفًا بعض الشيء، بالنظر إلى الغبار الأحمر الذي تراكم على ملابسها، ورجال يجلسون تحت سقيفة كبيرة مفتوحة، يمدّون جلود الأبقار ذات اللون البيج ويعلّقونها لتجف في الشمس.

«هذه هي المدبغة؛ البعثة تباع الجلود. هناك مبنى المدرسة، والمطابخ، والكنيسة».

قالت كيتي وهي تشير إلى الأكواخ وتسمع الصوت العذب لترنيمة خارجة من الكنيسة: «يا إلهي، إنها قرية حقيقية!»

«بالفعل. وشريان حياة لشعب أريرنتي المحلي».

قالت كيتي مشيرةً إلى مجموعة من الأطفال الصغار الخارجين لتوّهم من حجرة الدراسة: «هؤلاء الأطفال، هل أحضروهم إلى هنا ضد إرادة أمهاتهم لأنهم خلاسيون؟».

أجاب دروموند بضحكة مكتومة: «لا. المحمية غير مرحّبة بها هنا. هؤلاء الناس يأتون بمحض إرادتهم ليتعرّفوا إلى يسوع، والأهم من ذلك، ليحصلوا على وجبة جيدة تملأ بطونهم الفارغة. كثيرون منهم يعيشون هنا منذ سنوات، والقسّ يسمح لهم بممارسة ثقافتهم وطقوسهم الخاصة إلى جانب المسيحية».

عندما سمعت كيتي صوت ضحكات الأطفال، غمرها التأثر. «إنه أجمل مشهد رأيته على الإطلاق؛ ثقافتان تتعايشان في وئام تام. في النهاية، ربما كان هناك أمل لأستراليا».

أشار دروموند إلى رجل طويل القامة، ضخم الجثّة، يسحب طاولة إلى داخل أحد الأكواخ: «انظري من هناك. أشهر أبناء هيرمانسبورغ، ألبرت ناماتجيرا. نحن محظوظون بوجوده، إذ غالبًا ما يكون في الخارج ليرسم».

«ناماتجيرا؟». ضيّقت كيتي عينيها بذهول لتحتمي من الشمس. كان أشهر فنان من السكان الأصليين في أستراليا يقف على بعد أمتار قليلة منها.

«هو بلحمه وشحمه. رجل مثير للاهتمام. إذا كنتِ امرأة عاقلة، سأقدّمك له في وقت لاحق. الآن، فلنذهب لرؤية القس».

ساروا إلى منزل من طابق واحد منفصل عن المنازل الأخرى، وطرق دروموند الباب. فتح رجل أبيض قصير القامة، عريض البنية واستقبلهم بابتسامة. وعلى الرغم من الحرارة، كان يرتدي ثيابًا سودًا وياقة بيضاء، ويضع نظارة مستديرة بلا إطار على أنفه الكبير.

قال بإنجليزية ذات لكنة ألمانية واضحة وهو يصفع دروموند بقوة على ظهره: «سيد دي، يا لها من متعة غير متوقعة».

قال دروموند: «أيها القسّ ألبريخت، هذه هي السيدة كيتي ميرسر من أدिलाيد وسابقًا من بروم. إنها مهتمة جدًا برؤية هيرمانسبورغ بنفسها، بعد أن سمعت عنها من ابنها، الذي كان في المدرسة والجامعة مع تيد».

تفحصت عينا القس ألبريخت كيتي كما لو كان يقيم إمكانية حصولها على مكان في ملكوت السماوات. قال: «من المؤسف أن تيد ليس هنا. إنه يقيم حاليًا في كانبيرا ويعمل على مشروع بحثي في الجامعة، ولكن يسعدني أن أرحب بك يا سيدة ميرسر. ومن الشابة؟».

أجاب دروموند: «هذه سارة، صديقة السيدة ميرسر».

نظرت سارة بعصبية إلى ملابس رجل الدين، وانحنت: «كيف حالك يا صاحب السعادة؟».

«هل تشعرون بالعطش؟ لقد أعدت زوجتي للتوّ إبريقًا من شراب الورد». تقدّمهم القس ألبريخت وهو يعرج قليلًا، إلى غرفة جلوس صغيرة، حيث بدا أثاثها الذي يعود إلى العصر الإدواردي غريبًا في الكوخ البسيط.

بعد أن جلسوا وأخذ كلّ منهم شرابه، سأل دروموند: «إذًا، كيف كانت الأمور هنا منذ زيارتي الأخيرة؟».

قال القس: «كالعادة، منها الجيد ومنها السيئ. أشكر الربّ أننا لم نواجه جفافًا آخر، لكن ألبرت واجه بعض المشكلات، كما تعلم. وتعرّضنا للسرقة قبل بضعة أسابيع. أخذ اللصوص كلّ شيء من الخزنة، وأخشى أن أقول إن العلبة المعدنية التي تركتها عندي طوال تلك السنوات الماضية عندما أحضرت فرنسيس، سُرقت أيضًا. أمل ألا يكون فيها شيء ذو قيمة. بعد سرقتها، أخبرني فرنسيس أن جدّته شعرت بالارتياح لسبب أجهله».

شاهدت كيتي وجه دروموند يمتقع ويشحب. قال بنبهة أرادها خفيفة: «لا، لم يكن شيئًا ذا قيمة».

«حسنًا، قد يسعدك أن تعرف أن العدالة قد تحقّقت. كانا اثنين من سارقي الماشية. عُثر عليهما مقتولين بالرصاص بالقرب من هاستس بلاف. من قتلهم استولى على المسروقات. أعتذر حقًا، يا سيد دي».

تمتم دروموند: «وتستمر اللعنة إذًا».

سُمع طرقٌ على الباب. أطلّت امرأة شابة برأسها وكلمت القس باللغة الألمانية.

أجابها ألبريخت: «آه، الجوقة على وشك الغناء! نعم، سنأتي، شكرًا لك يا ماري. وهل يمكنك أيضًا أن تخبري فرنسيس أنني أريد رؤيته؟ منذ قليل، كان يساعد ألبرت».

ابتسم دروموند: «بالطبع، وهل يمكن أن يكون فرنسيس في مكان آخر؟»
بينما كان الأربعة يسرون باتجاه الكنيسة، أمسك دروموند بالقسّ وتحدث الرجلان بصوت منخفض خلف كيتي وسارة. عندما وصلا إلى عتبة الكنيسة، لاحظت كيتي تعابير دروموند الجادة.

أشار القسّ إلى مقعد خشبي خشن في الجزء الخلفي من الكنيسة وجلسوا.
كانت الكنيسة بسيطة، وزخرفتها الوحيدة لوحة كبيرة للمسيح على الصليب، يقف أمامها حوالى ثلاثون من الشباب والبنات، وجميعهم يرتدون ملابس بيضاء، يتشوّقون لبدء الغناء ما إن يشير لهم القسّ بذلك.

أغمضت كيتي عينيها عندما غنّت جوقة السكان الأصليين Abide With Me. وفي النهاية، صفق الأربعة بحرارة.

قالت سارة: «أنا لستُ من محبّي الترانيم، لكن هذا الغناء كان جميلًا يا سيدتي، حتّى لو لم أتمكن من فهم كلمة واحدة مما كانوا يقولون».

لاحظت كيتي رجلًا ذا شعر رمادي يدفع امرأة عجوزًا على كرسي متحرك خشبي إلى الجزء الخلفي من الكنيسة. كان معهما شاب وسيم يخطف الأبصار، شعره بلون خشب الماهوغوني، وبشرته بلون السكر المحروق، وعيناه واسعتان. عندما اقتربت كيتي، رأت لونهما الأزرق الاستثنائي المذهل وقرحتيهما العنبريتين. مع ذلك، لم تكونا تنظران إليها، بل كانتا مثبتتين على سارة بجانبها. وكانت سارة تبادلهما النظرة الصارخة نفسها.

تمتت كيتي بينما كانوا ينتظرون خروج الجوقة: «يا له من شاب جميل».
قال دروموند: «إنه كذلك حقًا، وفنان موهوب جدًّا أيضًا. كان فرنسيس يتبع ناماتجيرا مثل جرو منذ أن أصبح قادرًا على المشي».

أبعدت كيتي عينيها عن فرنسيس ونظرت إلى المرأة الجالسة على الكرسي

المتحرك. نظرت المرأة إليها وكان على كيتي أن تتمسك بالمقعد لئلا تنهار. على الرغم من أن المرأة كانت هزيلة جدًا، والتجاعيد تغطي وجهها، لكن كيتي كانت تعرف هذا الوجه كما تعرف وجهها نفسه.

همست لدروموند: «يا إلهي، هذا مستحيل!» ثم نظرت إلى الرجل العجوز الذي يدفع الكرسي المتحرك. وقالت: «وهذا فريد!».

«نعم، لكنني أحضرتكِ إلى هنا لتري كاميرا. لم يعد لديها كثير من الوقت. اذهبي إليها الآن».

مشت كيتي نحوها وساقاها ترتجفان. «كاميرا؟ هل أنتِ حقًا كاميرا؟».

بمثل ذهول كيتي همست كاميرا: «سيدتي كيتي؟».

حدّق فريد إليها من خلف الكرسي المتحرك.

قال دروموند وهو يراقب تعابير العاطفة على ملامح المرأتين: «الآن يا فرنسيس، أقدم لك سارة. لديها شغف بالخيول. هل يمكنك أن تأخذها وتعطيها درسًا في ركوب الخيل؟».

«بالطبع، يا سيد دي». كانت تعابير وجهه، عندما أشار إلى سارة لتتبعه، تخبر الجميع بمدى متعته بتنفيذ هذه المهمة.

قال القس ألبريخت: «أنا والسيد دي لدينا بعض الأشغال التي ينبغي القيام بها. لماذا لا تنضم إلينا يا فريد؟ سترك السيدة ميرسر وكاميرا بمفردهما».

ما إن ذهب الرجال، حتّى انحنّت كيتي ووضعت ذراعيها بحنان حول صديقتها العزيزة.

«أين ذهبتِ؟ لقد افتقدتكِ كثيرًا، أنا...».

«أنا أيضًا أفتقدكِ يا سيدة كيتي، لكن الأمور تحدث، أليس كذلك؟».

حرّرت كيتي الجسد الهزيل وأمسكت بيد كاميرا: «ما هي هذه الأشياء التي تحدث؟».

«أخبريني أولاً، كيف جئت إلى هنا. هل السيد دروم هو الذي وجدكِ؟».

«لا، يبدو أنني أنا التي وجدته. أو لنقل وجد كلُّ منَّا الآخر». شرحت كيتي بإيجاز كيف التقيا، وهي تتحرَّق لمعرفة السبب الذي جعل كاميرا تتركها طوال تلك السنين.

«أرأيتِ؟ هناك في الأعلى، يريدون أن تكونا معًا».

سارعت كيتي إلى القول: «ليس الأمر كذلك. سأغادر قريبًا بشكل نهائي إلى أوروبا. ولا ينبغي لأحد أن يعرف الحقيقة يا كاميرا».

أطلقت كاميرا ضحكة مبحوحة: «ولمن أستطيع قولها هنا؟ ماذا قال لك السيد دروم؟».

«لا شيء على الإطلاق، ولا حتَّى أنكِ كنتِ هنا. أرجوكِ، عزيزتي كاميرا، أخبريني لماذا رحلتما، أنتِ وألكينا؟».

«حسنًا، لكنها قصة طويلة يا سيدة كيتي، اجلسي وسأحكى لك».

حكّت كاميرا وعرفت كيتي حقيقة علاقة ابنتها بابتة كاميرا. دفنت وجهها بين يديها: «يا إلهي، لماذا بحق السماء لم يأتيا إليّ؟ كنتُ لأوافق على زواجهما».

«نعم، لكن ابنتي امرأة قوية الإرادة. لم تكن تريد العيش في عالم البيض حيث كانت لتُعاملَ معاملة الكلب الأجرب. كانت تحبّ تشارلي، يا سيدة كيتي، إلى الحدّ الذي جعلها تتركه. أتفهمين؟».

«نعم، بالطبع أفهم، لكن كان بإمكانني إعلان خطوبتهما، وكانت المدينة بأكملها ستشهد على مباركتي لزواجهما».

خيمت برهة صمت بينما كانت كاميرا تتأمل لوحة يسوع المسيح. «سيدتي كيتي، ثمة سبب آخر دفعها إلى الهرب».

«ما هو؟». توسّلت عينا كاميرا إلى كيتي لكي تفكر، وتقول الكلمات بالنيابة عنها.

«لا! هل تقصدين أنها كانت حاملًا؟».

«نعم. كانت في الشهر الرابع عندما رحلت».

«هل كان تشارلي يعلم؟».

«نعم، كان يعلم. أراد الذهاب للعثور عليها، وتوسّل إليّ أن أخبره أين ذهبت، لكنني لم أكن أعرف. بعد أن ذهبت إلى أوروبا، لم يعد قادرًا على الذهاب للعثور عليها. وذات ليلة، عرفت أنها ماتت. وبكينا، أنا وتشارلي معًا».

«يا إلهي، أين ماتت؟».

«هناك، في «النثر نثر». أسندت كاميرا رأسها إلى ذراع كيتي وتابعت: «الحب مشكلة كبيرة. لقد قطع السيد دروم كلّ هذه المسافة إلى بروم لرؤيتي وإخباري بوفاتها. وجئت معه إلى هنا. ثمّ جاء فريد بعد بضعة أشهر، وشممت رائحته قبل أن أراه».

كان رأس كيتي يدور بسبب ما قالته لها كاميرا. كان لديها أسئلة كثيرة تنتظر إجابات، لكنها لم تعرف ما الذي يجب أن تسأل عنه بعد ذلك كله. «ولكن كيف عرف أن الطفل هو لألكينا؟».

«تلك اللؤلؤة السيئة. لقد رأيتني ابنتي ذات مرة عندما كنتُ أتأكد من أنها لا تزال حيث دفنتها. أخذتها لتبيعها لتسد حاجاتهما، هي وطفلها. لقد رأى السيد دروم اللؤلؤة السيئة مع الطفل ورأى عينيه. كانتا مثل عيني والدته. ثمّ جاء ليراني وجاء بي إلى هنا لرعاية الطفل».

«إدّا، لم تخبرني تشارلي أنه كان أبًا؟». حاولت كيتي السيطرة على الغضب المتصاعد في داخلها. «ولا أن طفل ابني كان على قيد الحياة؟ يا إلهي يا كاميرا، لماذا لم تخبريني أنا؟!».

«ربّما أخطأت، لكن تشارلي كان صديق إليّ، واعتقدت أنه من الأفضل ألاّ يعرف. كان يدير أعمالًا كبيرة، وكانت ابنتي قد ماتت. كيف يمكنه أن يرّبي الطفل؟ وأنتِ كنتِ بعيدة في أوروبا. نعم، سمعت أن تشارلي مات أيضًا، وحرّنت كثيرًا. لكنهما الآن في الأعالي مع أسلافهما. إدّا، كلّ شيء يتحوّل إلى الأفضل، أليس كذلك؟».

توسّلت عينا كاميرا إلى كيتي أن تغفر، لكنها نهضت وراحت تذرّع ممر

الكنيسة الضيق جيئةً وذهابًا. «لا أعرف حقًا يا كاميرا. أشعر كما لو أنني لم أُمْنَح أي خيار في هذا الشأن. أشعر... بأنني مخدوعة تمامًا».

«سيدتي كيتي، نحن جميعًا نحبك، ونريد لك الأفضل».

«كم من القرارات الخاطئة اتخذت بسبب الحب».

تنهت كيتي. وبينما كانت تبذل قصارى جهدها للسيطرة على نفسها أمام امرأة أحببتها، امرأة تعيش أسابيعها القليلة الأخيرة على الأرض، خطرت لها فكرة أخرى. سألت وهي تستعد لسماع خبر سيئ: «ماذا حدث للطفل؟». أخيرًا اجتمعت ملامح كاميرا على ابتسامة عريضة. «كان مريضًا عندما كان طفلًا، لكنه الآن شاب كبير وقوي. من الأفضل أن أربيه جيدًا لكلتينا». ثم ضحكت وأضافت: «سيدتي كيتي، لقد التقيت لتوك بحفيدنا. اسمه فرنسيس».



شاهد دروموند كيتي وهي تدفع كرسي كاميرا المتحرك نحو الإسطبلات، ولم يكن متأكدًا من رد فعلها على ما سمعته. أدار رأسه عند سماع صرخات الضحك المنبعثة من سارة وهي تبذل قصارى جهدها لتدور الحصان المتدمر في مكانه، وفرنسيس يمسك بطرف الحبل.

قالت سارة: «إنه يرغب في الانطلاق إلى أمام! هل يمكننا ذلك، من فضلك؟».

ردّ فرنسيس: «شرط أن نركب معًا».

«هيا إذن! اصعد!».

أرعى فرنسيس الحبل، ثم رجّح جسده الطويل، وقفز معتليًا صهوة الحصان خلفها.

عندما رأى الماضي والحاضر على وشك أن يتصادما، قال دروموند في نفسه إن كلمات سارة كانت مجازًا مثاليًا. فكم من رجال ونساء كانوا يدورون في مكانهم حالمين بمستقبل يرعبهم القبض عليه والانطلاق إلى أمام.

تمتت كاميرا: «لقد أخبرتها يا سيد دروم. لا تبدو راضية».

أخذ فريد الكرسي المتحرك من قبضة كيتي المرتعشة. حيث، ثم ثبتت نظرها على الشاب الذي يمتطي الحصان.

أضافت كاميرا: «ربما فعلتُ شيئاً خاطئاً».

الآن، كان الجميع يشاهدون فرنسيس يبذل قصارى جهده لإغواء سيدة. مع يده حول خصر سارة، وتحكم فخذه القويتين بحركات الحصان، انطلقا في خب سري. بدأت سارة بالصراخ، لكن المتفرجين استطاعوا جميعاً رؤية فرحتهم المطلقة بالحياة والمستقبل كله أمامهما.

التفتت كيتي إلى دروموند وقالت أخيراً. «لا أعلم إذا كنتُ مخطئة، لكنني أعتقد أنني أشاهد حفيدي وهو يمارس الفروسية مع خادمتي».

«لستِ مخطئة. هل أنت غاضبة؟».

«من الطبيعي أن تغضب عندما يُصادرُ قرارك، وتترك في الظلام تماماً».

«سامحها يا كيتي، لم تفعل كاميرا إلا ما اعتقدت أنه الأفضل في حينه».

استعد دروموند لهجومها اللفظي. مع ذلك، عندما وقع نظرها على فرنسيس وسارة ثانية، لزم الصمت. في النهاية قالت: «شكراً لك».

«ماذا؟».

«الرد المهذب هو العفو، كما تعلم جيداً. ولأنك أنقذت حياة حفيدنا، يمكنني التغاضي عن استخدامك المروّع للغتنا الجميلة هذه المرة فقط».

ابتسم وقال: «يسعدني سماع ذلك».

تنفّست كيتي وعيناها الزرقاوان تلمعان بدموع لم تُدرف: «أستطيع أن أرى تشارلي فيه؛ طاقته ولطفه»، ثم رفعت راحتها إلى خد دروموند وقالت: «لقد ارتكبتُ أخطاء كثيرة في حياتي».

«اصمتي يا كيتي».

أخذ دروموند يدها وقبّلها. ثمّ ضغط جبينه على جبينها وهمس قائلاً: «أنا أحبك. ولم أتوقف عن حبك مطلقاً».

همست بدورها: «أخشى أن يكون لديّ الشعور نفسه».

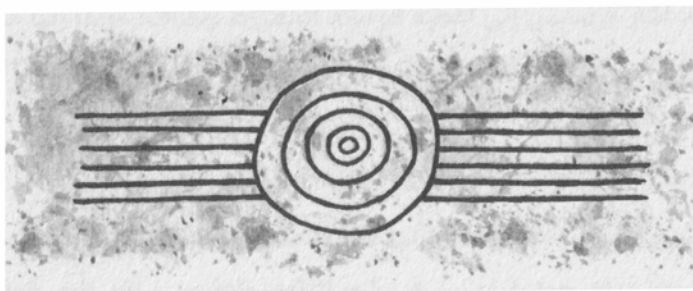
«لقد حان الوقت الآن، أليس كذلك؟ لنا».

أجابت كيتي: «نعم. أعتقد أنه قد حان».

أدارت كاميرا رأسها وشاهدت ذراعي السيد دي تحيطان كيتي بحنان وتقرّبانها منه. نظرت إلى الحقل حيث كان حفيدها يصرخ فرحاً وهو يترك الفتاة تأخذ زمام الحصان، ممسكاً إياها بأمان.

أغمضت كاميرا عينيها وابتسمت. «لقد فعلتُ أفضل ما استطعت».

السيرة
أليس سبرينغر، الإقليم الشمالي
كانون الثاني 2008



رمز المأوى في ثقافة السكان الأصليين

هذه هي قصة لقائي بسارة. يبدو الأمر سخيًّا إلى حدٍّ ما، لكنه كان حبًّا من النظرة الأولى. يمكنك القول إننا لم نفترق منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها». اغرورقت عينا فرنسيس وهو يستدعي هذه الذكريات.

«ألم تعد إلى أديلاييد مع كيتي؟».

«لا. لقد ظلت معي في هيرمانسبورغ. كانوا سعداء بوجودها، لمهاراتها في الخياطة». أشار فرنسيس إلى أغطية الوسائد المطرزة، وأضاف: «ولقدرتها الطبيعية على رعاية الصغار. لقد وُلدت لتكون أمًّا. وكانت المفارقة هي أننا انتظرنا سنوات حتى رُزقنا بطفل».

همستُ: «أمي؟».

«نعم. وللأسف، أخبرنا الأطباء أنها كانت الطفلة الوحيدة التي يمكن أن ننجبها. كلانا كان يعشقها». جهد فرنسيس في كبح تثاؤبه: «اعذريني، لقد تأخر الوقت». قبل أن يهَمَّ بالنهوض، كان ثمة سؤال آخر أردت أن أعرف الإجابة عنه قبل أن أخلد إلى النوم. «ماذا بشأن كيتي ودروموند؟».

«كانت نهاية سعيدة. رافقها إلى أوروبا. وحده الله يعلم كيف حصل على جواز سفر، بعد أن تم إعلان وفاته رسميًا، ربما دفع ثمن جواز سفر مزوَّر. كان بإمكانك فعل هذا الشيء في الأيام الخوالي. أقاما في فلورنسا حيث لم يكن أحد يعرف ماضيهما، وعاشا سعيدين حتَّى النهاية. لم تذهب كيتي إلى آيرز روك، وبقيت في هيرمانسبورغ حتَّى وفاة جدتي تقريبًا.

«هل أخبرتك كيتي أنها جدتك أيضًا؟ وأن دروموند كان عمك الأكبر؟».

«لا، تركت الأمر لكاميرا، التي أخبرتني بالقصة كاملة وهي على فراش الموت

بعد بضعة أيام. بعد أن ذهبنا إلى إيطاليا، ظل دروموند وكيّتي على اتصال منتظم بي وبسارة، وفي العام 1978، عندما توفيت كيّتي، تركت لنا شقتها في فلورنسا. بعنا الشقة واشترينا بئمنها هذا المكان بهدف التقاعد. أما منزلها في بروم وحقبة أسهمها التي نمت على مرّ السنين وأصبحت تمثّل مبلغًا كبيرًا، فقد تركتهما لليزي، والدتك».

«ماذا حدث لرالف جونيور وعائلته في أليسيا هول؟».

تذكّر فرنسيس مبتسمًا: «عزيزي العم الأكبر رالف. كان رجلًا صالحًا، جديرًا بالثقة ومخلصًا حتّى النهاية. كانت عائلته ترحب بنا دائمًا في المناسبات النادرة التي زرنا فيها أديلايد وأليسيا هول. أما إدي الصغير فقد تحسّن كثيرًا في رعاية روث ورالف، وبمجرد شعوره بالأمان، بدأ يتكلّم. كانت سارة، التي ظلّت على اتصال به حتّى وفاتها، تقول دائمًا إنه لم يصمت منذ ذلك الحين! كان ذكيًا جدًّا وأصبح محاميًا ناجحًا. لقد تقاعد العام الماضي. قد آخذك لزيارته في أليسيا هول ذات يوم».

«نعم ربّما. لكنني أريد أن أعرف. هل ماتت أمي أيضًا؟».

«نعم. آسف يا سيلينو».

قلت في النهاية: «حسنًا، أعتقد أنك لا تستطيع أن تحزن على شخص لم تعرفه، أليس كذلك؟ وأبي؟ من كان؟».

«كان يُدعى توبا، وقد التقت به والدتك بينما كنا لا نزال نعيش في پاپونيا، كانت في السادسة عشرة من العمر فقط. كانت پاپونيا قرية مليئة بالمبدعين، ومركزًا مهمًا لقبيلتي بينتوپو ولوريتايا. وقعت والدتك في حبه، لكنه لم يكن رجلًا مناسبًا. كان رسامًا موهوبًا من السكان الأصليين، لكنه كان يحب الشرب والنساء. عندما أعلنت أنها حامل بك، اقترحنا عليها أن تجهض. آسف يا سيلينو، لكن هذه هي الحقيقة».

شعرتُ بغصة في الحلق: «أفهم. صدقني. كما لو كانت قصتك هي التي تتكرّر». «بالطبع، رفضت والدتك الاستماع لنا. هدّدت بالهرب إذا رفضنا أن نمنحها

الإذن بالزواج من حبيبها. لقد كانت مندفعة، لكنني أعتقد أن هذه السمة متوارثة في العائلة. للأسف، لم نعتقد أنها ستنفذ تهديدها، وتمسكنا بموقفنا بثبات. وبعد يوم واحد، رحل الاثنان، ولم نرها ثانية».

«لا بُدَّ من أن ذلك كان مروِّعًا بالنسبة إليكما. ألم تكن هناك طريقة للعثور عليها؟».

«كما لاحظتِ، من السهل جدًّا أن تختفي هنا. لكن الجميع كانوا يبحثون عنها. بحثنا لسنوات في جميع أنحاء المناطق النائية، لكن بلا جدوى، لم يشاهدها أحد مطلقًا. وذات يوم، قرّرنا الاستسلام».

«أفهم. إنه لمن المؤلم ألا تفضي الجهود إلى شيء».

«بالضبط، ولكن عندما أُصيبَت سارة بمرض خطير منذ عامين، توّسّلت إليّ أن أقوم بمحاولة أخرى، فاستعنتُ بمحقّق خاص. بعد ستة أشهر من وفاة سارة، اتصل بي المحقّق وأخبرني أنه وجد امرأة في بروم تدّعي أنها كانت حاضرة عند ولادتك. أعتَرَفَ بأنني لم أكن متحمّسًا، فلطالما أوصلني البحث إلى طرق مسدودة. ولكن مع ذلك، فإن تلك المرأة كانت تعرف اسم والدتك: إليزابيث، تيمُّنًا بالملكة الإنجليزية التي كانت سارة تحبها كثيرًا».

جَرَّبَتِ الاسم بصوتٍ عالٍ للمرة الأولى: «إليزابيث».

«كانت المرأة ممرّضة في مستشفى بروم. أطلعتني على السجلات، وتمكّنتُ من رؤية تاريخ وصول ليزي في طور المخاض بحسب ما يبدو. التواريخ مناسبة تمامًا».

«هل ذكرت هذه المرأة والدي؟».

قالت إن ليزي كانت وحدها. لقد سبق وأخبرتكِ أن كيتي تركت منزل بروم لليزي. كانت والدتك قد زارته معنا وربما رأت فيه عش الحب المثالي لها ولصديقها. لا أستطيع إلا أن أفترض أنه تركها في مكان ما بين پاپونيا وبروم. في حالتها، وبالنظر إلى خلافها معنا، ربما شعرت والدتك أنه ليس لديها بديل سوى الاستمرار في العيش في بروم وحيدة».

«ماذا حدث بعد أن ولدتني؟».

نهض فرنسيس، ومشى إلى المكتب. أخرج ملفاً وقال: «هذه شهادة وفاة والدتك. إنها مؤرّخة بعد سبعة أيام من ولادتك. كانت ليزي قد أُصيبت بعدوى شديدة بعد الولادة، وأخبرتني الممرضة أنها لم تكن قوية بما يكفي لمقاومتها. سامحيني يا سيليно، لم تكن هناك طريقة سهلة لإخبارك بذلك».

تمتمت وأنا أحدّق إلى الشهادة: «لا بأس».

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً، ولم أكن قادرة على فك رموز كلمات الشهادة التي راحت تتراقص وتتقاذف أمام عيني. قلت: «وماذا عني؟»

«حسناً، هنا تتحسن القصة قليلاً. فقد أخبرتني الممرضة أنه بعد وفاة والدتك، احتفظوا بك لأطول فترة ممكنة، بانتظار أن يتمكنوا من العثور على عائلة تتبنّاك. كان من الواضح أن الممرضة كانت معجبة بك. قالت إنك كنت طفلة جميلة جداً. «جميلة؟ أنا؟».

قال فرنسيس مبتسماً: «يبدو أنك كذلك». ثم تابع: «مع ذلك، وبعد مرور بضعة أشهر، لم يكن لديهم خيار سوى إرسالك إلى دار محلية للأيتام. من المحزن القول، إنه قبل سبعة وعشرين عاماً، لم يكن هناك أحد يرغب في تبني طفل خلاسي. وبينما كانوا يحضرون الوثائق، قالت إن رجلاً يرتدي ملابس باهظة الثمن ظهر في المستشفى. ومما تتذكره أنه جاء إلى بروم للبحث عن أحد أقاربه، لكنه وجد المنزل المعني فارغاً، وأبلغه أحد الجيران أن المالكة السابقة قد توفيت، وأن امرأة شابة عاشت فيه بضعة أسابيع. كما أخبره الجار أن المرأة كانت حاملاً وعليه أن يتوجّه إلى المستشفى. عندما التقت الممرضة بالرجل وأخبرته أن ليزي ماتت وتركتك يتيمة، عرض عليها أن يتبنّاك في الحال».

شهقت قائلة: «يا سولت. ماذا كان يفعل في بروم؟ هل كان يبحث عن كيتي؟» قال فرنسيس: «لم تستطع المرأة أن تتذكر اسمه، لكنها اقترحت عليه أن يأخذك معه إلى أوروبا ويكمل إجراءات التبني هناك. وبالفعل، فقد ترك لها الرجل اسم محام في سويسرا. السيّد غيورغ هوفمان».

قلتُ، وقد خاب أُملي، لأنّ پا تمكّن من إخفاء هويته الحقيقية مرة أخرى: «غيورغ العجوز الطيب».

«كان السيّد هوفمان هو الذي كتبتُ إليه عندما كنتُ أحاول تعقبك. أخبرته أن امرأة تركت لكِ إرثاً؛ الأموال والممتلكات التي وضعتها كيتي باسم والدتك، وعادت إليك باعتبارك ابنة ليزي. بمجرد بيع منزل بروم، بالإضافة إلى عائدات الأسهم، وصل المجموع إلى مبلغ كبير، كما تعلمين. ردّ السيد هوفمان ليؤكد أن موكله قد تبنّاك بالفعل، وأنك بخير. كما وعد بأن الأموال ستحوّل إليك مباشرة. بعد ذلك، أعطيتُ تعليماتي لمحامي أديلاييد بتحويل الأموال وأعطيته صورة لي مع ناماتجيرا، ليرفّقها بالمبلغ المدفوع».

«لماذا لم ترسل صورة سارة وليزي بدلاً من صورتك؟».

«سيلينو، لم أكن أريد أن أزعجك إذا كنتِ لا تريدين أن يُعثر عليك. وفي الوقت نفسه، كنت أعلم أنك إذا كنتِ تريدين أن تجديني هنا في أستراليا، فلن يمر وقت طويل حتّى يتعرّف شخص ما على ناماتجيرا واسمه الموجود على السيارة في الصورة، ويوجّهك نحو هيرمانسبورغ. ابتسم فرنسيس ابتسامة صغيرة مأكرة وأضاف: «لقد نجحت خطتي».

«نعم. لقد نجحت، لكنني لعلمك، لم أكن أريد المجيء في البداية».

«كنت قد قرّرت أنه إذا لم تحضري خلال عام، فسوف أتصل بغيورغ هوفمان وأتي للبحث عنك. لقد أنقذتني من مشقة لا طاقة لعظامي الضعيفة عليها يا سيلينو». ثم أخذ يديّ بيديه وقال: «كان عليك استيعاب أشياء كثيرة، وكان أكثرها مؤلماً. هل أنتِ بخير؟».

«نعم». أخذت نفساً عميقاً وقلت: «أنا سعيدة الآن، لأنني أعرف كل شيء». وهذا يعني أنه يمكنني أن أعود إلى لندن».

«عظيم».

أدركت أنه اعتقد أنني غيّرت رأيي. فأضفتُ من فوري: «لا تقلق، كما قلتُ لك سابقاً، هناك أمور ينبغي تسويتها قبل أن أنتقل إلى هنا بشكل دائم».

شدّ قبضته على يديّ وقال: «أنتِ متأكّدة من أنكِ ستعودين للعيش في أستراليا؟».

«نعم، أعتقد أنه يجب علينا نحن الاثنين أن نبقى معًا. نحن آخر سلالة ميرسر، أليس كذلك؟ الناجيان الوحيدان».

«صحيح. على الرغم من أنني لا أريدك أن تشعري بأنك مدينة لي - أو لماضيك - بأي شيء، يا سيلينو. إذا كانت حياتك في لندن، فلا تتخذي القرار الخطأ بدافع الشعور بالذنب. لقد ذهب الماضي وانقضى. المستقبل هو الذي يهم».

قلتُ: «أعلم، لكنني أنتمي إلى هذه الأرض، وأشعر فيها بثقة أكبر من أي وقت مضى بشأن مستقبلي وحياتي. الماضي هو أنا».



استيقظتُ في صباح اليوم التالي مع صداع رهيب وشعور بالخمول، لا بسبب الكحول، بل بسبب كثرة المعلومات. استلقيتُ في الغرفة، مع الستائر المزهرة الجميلة تحت اللحاف الذي لا شك في أن جدّتي، سارة، قد خاطته وهي تتصبّب عرقًا في كثير من الليالي الحارّة هنا في أليس.

أغمضتُ عينيّ، وأنا أفكر في قراري المهم الذي اتّخذته أمس، وفي الحلم الغريب الذي رأيته، وارتعشت أصابعي. شعرتُ وكأن عليّ أن أفرغ كلّ القلق والألم اللذين راكمتهما لسنوات، وأن أتحرّر منهما لئلاّ يسمّاني من الداخل.

كنتُ أعرف كيفية القيام بذلك.

نهضتُ من السرير وارتديتُ إحدى بلوزات جدّتي، وسروالًا قصيرًا فضفاضًا، جعل ساقيّ تبدوان كحامليتي مصباحين.

كان فرنسيس يتناول وجبة الفطور في المطبخ على طاولة مخصّصة لشخصين.

«هل لديك لوحة كبيرة؟».

«بالطبع. اتبعيني».

كنتُ ممتنةً لأنه فهم حاجتي الملحة من دون أيّ تفسير. تبعته إلى الدفيئة التي كان يستخدمها مخزنًا. وضعت لوحتي على الحامل في جزء مظلل من الحديقة الخلفية، وأعارني فرنسيس فراشيه الشخصية، فاخترت الحجم المناسب وبدأت في مزج الألوان. ما إن لمست الفرشاة اللوحة، حتّى اجتاحني ذلك الشعور الغريب الذي كان يعتريني في بعض الأحيان عندما كنت أرسم، وفي المرة التالية التي نظرت فيها إلى أعلى، كانت اللوحة ممتلئة والسماء مظلمة.

صاح فرنسيس من الباب الخلفي: «سيلينو، حان وقت دخولك، سوف يلتهمك البعوض حيّةً».

«لا تنظر! لم تنتهِ بعد!». حاولتُ بطريقة مثيرة للشفقة تغطية اللوحة الضخمة بيديّ، على الرغم من أنه ربّما كان قد رآها من خلال نافذة غرفة الجلوس. اجتاز المساحة المعشبة وعانقني بقوة: «إنها حاجة، أليس كذلك؟». قلتُ وأنا أثنأب: «بالتأكيد. لم أستطع التوقّف. بالمناسبة، إنها لك». «شكرًا لك، أقدر ذلك، وسوف أحافظ عليها مثل كنز».

كنتُ جالسة في المكان نفسه لفترة طويلة جدًّا، وكانت ساقاي خدرتين، فساعدني فرنسيس على النهوض واتكأْتُ عليه كما لو كنتُ عجوزًا. تهالكت على كرسيّ بذراعين في غرفة الجلوس، وقلتُ: «لا شكّ في أنها فظيعة».

قال: «ربّما، لكنني أعرف مسبقًا أين سأعلّقها»، وأشار إلى المساحة الفارغة فوق رفّ الموقد، ثمّ سألني: «ألستِ جائعة؟».

«أنا متعبة وليس لي قدرة على ابتلاع أيّ شيء، لكنني قد أتناول كوبًا من الشاي قبل الذهاب إلى السرير».

أحضر لي الشاي، ثمّ وضع لوحتي الجديدة أمام المدفأة وجلس يدرسها. «هل وضعتِ لها عنوانًا؟».

كنتُ في العادة أفشل في اختيار العناوين، لكنني وبغربة، تفوّقت على نفسي

وقلتُ: «صَيَادو اللؤلؤ... حسنًا، للوحة صلة بعائلتنا. حلمت أنني كنت في بروم، أسبح في البحر، وكنا نبحث جميعًا عن لؤلؤة و...».

قاطعني فرنسيس: «إدًا، أهو قمر هذا الذي في المركز؟».

«أنت تعلم أن والدتي كانت تدعى ألكينا، أي القمر».

«لا أعرف، ربّما. لكن القرص الأبيض يمثل خصوبة الأنثى وجمال الطبيعة وقوتها، دورة الحياة والموت الأزلية. وبعبارة أخرى، إنه تاريخ عائلتنا». أضاف فرنسيس، وهو يدرس تموجات البحر الكبيرة تحت القمر، والنقاط اللؤلؤية الصغيرة التي تتخلّلها تحت الأمواج في قاع البحر: «أحب هذا العمل. لقد تحسّن أسلوبك. إنه مثير للإعجاب حقًا، وكل ذلك في يوم واحد».

قلتُ وأنا أتثاءب من جديد: «شكرًا، لكن العمل لم ينتهِ بعد. أعتقد أنني سأخلد إلى النوم الآن».

«قبل أن تذهبي، أود أن أعطيك شيئًا». دسّ يده في جيبه وأخرج علبة مجوهرات صغيرة. «لقد احتفظت به منذ وفاة سارة، لكنني كنت أنتظر أن أقدمه لك».

وضعتها في يدي وفتحتها بعصبية. كان في داخلها خاتم صغير مرصّع بحجر ناعم من العنبر.

قال فرنسيس: «إنه الخاتم الذي أعطاه والدي تشارلي لألكينا في الليلة التي سبقت رحيلها».

رفعت الخاتم إلى الضوء فتألّق العنبر بلون عسلي باذخ. كانت نملة صغيرة عالقة في قلبه، كما لو أنها وقعت لتوها في الفخ وهي تتنزّه. لم أصدق أن عمره كان آلاف السنين، أو أنني رأيت ذلك الحلم في طفولتي، حيث كنت أتأمل حشرة صغيرة ترقد في راحة يدي. كانت مثل هذه النملة تمامًا.

تابع فرنسيس: «كانت كاميرا قد جلبته معها إلى هيرمانسبورغ بعد وفاة ألكينا. وفي اليوم الذي أخبرتها فيه أنني أريد الزواج من سارة، أعطتني إياه».

«رائع».

أخرجتُ الخاتم ووضعتُه في الإصبع الرابع من يدي اليمنى.

قلت بكثير من التأثر: «شكرًا لك يا فرنسيس».

قال وهو يبتسم لي: «لا حاجة لشكري. الآن، من الأفضل أن تذهبي إلى النوم. ليلة سعيدة يا سيلينو».

«ليلة سعيدة يا فرنسيس».



في صباح اليوم التالي، ذهبنا بالسيارة إلى البلدة لحجز بطاقة سفر إلى لندن، وكان فرنسيس قد اقترح أن آخذ اللوحة معي وأريها لميرين.

في وكالة السفر، سألتني المرأة التي تقف خلف شاشة الكمبيوتر: «ذهاب وإياب؟».

قلتُ بحزم: «نعم».

«وتاريخ العودة؟».

«أحتاج إلى حوالى أسبوع هناك، لذلك سيكون السادس من شباط».

قال فرنسيس: «هل أنت متأكدة من أنها مدة كافية؟ ينبغي أن تأخذي كل الوقت الذي تحتاجينه. يمكنني تغطية التكلفة الإضافية لتذكرة مفتوحة قابلة للتعديل».

طمأنته: «لا أحتاج إلى أكثر من أسبوع».

تابعتُ الحجز وتبين أنه كان عليه أن يدفع، لأنني استنفدت الحد الأقصى للدفع ببطاقتي الائتمانية. كدتُ أموتُ من العار عندما رُفِضَتْ؛ إذ كانت قاعدتي الذهبية في الحياة، هي عدم اقتراض المال مطلقًا.

قال بعد أن خرجنا من وكالة السفر مع التذكرة: «لا توجد مشكلة يا سيلينو. في النهاية، سترئين كل شيء. اعتبريها دفعة على الحساب».

تأوهت من الحرج: «لقد أعطيتني الكثير، قد يغطي ما تقدّمه لي ميرين مقابل اللوحة ثمن التذكرة».

أجاب: «كما تريدن».

في المعرض، أَلَقَت ميرين نظرها على اللوحة وأومات برأسها استحساناً: «إنها جَيِّدة جداً».

نظر إليها فرنسيس وقال: «أفضل من ذلك. أودّ أن أقول إنها استثنائية».

«سنجرب عرضها مقابل ألف دولار».

ردّ فرنسيس قائلاً: «ضعف ذلك. وتتوقّع حفيدتي خمسة وستين في المئة من السعر».

«نحن لا نعطي أكثر من ستين يا سيد أبراهام، أنت تعلم ذلك».

«حسنًا، سنأخذها إلى غاليري ماني هاند Many Hands».

حاول فرنسيس التقاط اللوحة، لكن ميرين أوقفته. «لَكَ فقط، لكن يجب ألا تخبر الفنانين الآخرين».

تراجعت فجأة ووضعت يدها على نتوء بطنها الكبير. قالت وهي تفرك جانب بطنها: «الطفل يستعد للمجيء، ولم أجد من يحلّ محلي. على هذا المنوال، سألد الطفل على طاولة مكتبي».

خطرت فكرة في رأسي: «هل تحتاجين إلى شخص يحلّ محلّك طوال فترة الأمومة؟».

«نعم، ولكن من الصعب جدًّا العثور على الشخص المناسب. يحتاج الفنانون إلى الوثوق به، ويجب أن يكون قادرًا على فهم عملهم وتشجيعهم. هذا، ويجب أن يكون قادرًا على التفاوض. مع أنه، لحسن الحظ، ليس الجميع بمثل صلابتك في التفاوض يا سيد أبراهام».

قلت بطريقة عَرَضِيَّة بقدر ما تسمح به حماستي: «أعرف الشخص المناسب. هل تتذكّرين الفتاة التي جاءت معي منذ بضعة أسابيع؟».

«كريسي؟ الفتاة التي فاوضت بمثل ضراوة جدك؟».

«نعم. لقد درست تاريخ الفن في الجامعة، وتعرف كلّ ما يمكن معرفته عن

فن السكان الأصليين، وبالأخص ألبرت ناماتجيرا». بالغت قليلاً وأضفت أساليب فنية أخرى، من باب حسن التدبير.

«هل تعمل في معرض الآن؟».

«لا، إنها تعمل في مجال السياحة، لذا فهي تجيد التعامل مع الأجانب، وكما تعلمين، فهي من السكان الأصليين، لذلك سيحبها الفنانون».

أشرق وجه ميرين: «هل تتحدث لغة الأيرنتي؟».

قلتُ: «أسألها. لكنها تتحدث الياورو بالتأكيد. وكما رأيت، فهي لا تمزح عندما يرتبط الأمر بالبيع».

«إذاً، فهي تريد أن تتغير مجال عملها؟».

«نعم».

رأيت فرنسيس يراقبني مستمتعاً بينما كنت أعدّد مزايا كريسي التي لم أحدثه عنها إلا بإيجاز.

قالت ميرين: «لن أكذب عليك يا سيلينو، لكن الأجر ليس جيداً».

أجبتُ: «لا أحد يعمل في مجال الفن من أجل المال، بل بدافع الشغف، أليس كذلك؟».

«حسناً، يجب أن تأتي لأراها بأسرع ما يمكن. سأكون هنا كل يوم هذا الأسبوع».

«اتفقنا. سأخبرها بأن تتصل بك لتحديد موعد».

أعطتني رقم هاتفها وغادرتُ المعرض في حالة من الإثارة القصوى.

في طريقنا إلى الشاحنة، سألتني فرنسيس: «إذاً، من هي هذه الكريسي بالضبط؟»

قلتُ بينما كنت أستقر في مقعد الراكب: «صديقتي».

«أين تقيم؟».

«في بروم».

سأل وهو يخرج من المرأب ويتجه إلى المنزل: «أليس مشوارًا بعيدًا للعمل كل يوم؟».

«أجل، بالطبع، ولكن إذا حصلت على الوظيفة، فأنا واثقة من أنها على استعداد للانتقال إلى هنا. لقد افْتُتِنْتُ بأليس سبرينغز عندما جاءت قبل أسبوعين. إنها فتاة لامعة، ولديها شغف كبير بالفن. أعرف أنك ستحبها كثيرًا».

«إذا كنت تحبينها يا سيلينو، فسوف أحبها بالتأكيد».

«سأتصل بها حالما نصل إلى المنزل، وأطلب منها أن تتصل بميرين. يجب أن تحضر إلى هنا بأسرع وقت ممكن. ولكن المؤسف، هو أنني حجزت تذكرة على رحلة الغد».

«أذكرك بأنك أنتِ التي أصررتِ على عدم شراء تذكرة مفتوحة يمكنك تعديّلها أو استرداد ثمنها».

«حسنًا، إذا حصلت على الوظيفة، قد يمكننا أن نستأجر شقة لنا نحن الاثنين». كان ذهني قد بدأ يضع تصوّرات لمستقبل ما مع كريسي في عالم الفن الذي يجمعنا.

«أو يمكننا أن تسكننا معي، وتعتنيا بمنزل جدّك العجوز».

قلت باسمّة: «سيكون ذلك لطيفًا أيضًا».

قال وهو يفتح الباب: «أخبريها أنها تستطيع قضاء الليل في المنزل عندما تأتي لمقابلة ميرين»، ثم أضاف: «وسأعطيها بعض دروس الأيرنتي».

«إنها لفتة رائعة حقًا، شكرًا لك».

جريت لأخذ هاتفي من غرفة الجلوس واتصلت بكريسي. ردّت عند الرنة الثانية.

قالت: «مرحبًا، اعتقدت أنك اختفيت عن وجه الأرض».

قلت وأنا أبتمسم في هاتفي لأنني كنت سعيدة جدًّا لسماع صوتها: «بعثتُ لك رسالة نصية لأقول إنني كنتُ في الأدغال لأرسم. كنت مع جدّي».

«عظيم! إذا، هل أنت قريبة ناماتجيرا؟».

«لا، على الرغم من أن جدِّي رسام أيضًا».

«ما اسمه؟».

«فرنسيس أبراهام».

سادت برهة صمت على الطرف الآخر من الخط.

«أنتِ تمزحين!».

«لا، لماذا؟ هل سمعتِ عنه؟».

«قليلاً، يا سي! كان في پاپونيا مع كليفورد پوسوم ورسم عجلة النار و...».

قاطعتها: «نعم، هذا هو. اسمعي، هل يمكنكِ أن تتغيبي عن العمل يومًا أو يومين للحضور إلى أليس؟».

«أنا... لماذا؟».

شرحتُ لها، وتلاشت البرودة التي كانت في صوتها.

«يبدو هذا جميلًا، على الرغم من أنني لا أعتقد أنها ستوافق على استخدامي عندما تسمع أنني أعمل في مكتب المعلومات السياحية بمطار بروم. لقد وصفتني كما لو أنني كنت أمينة معرض كانبيرا الوطني!».

أبتتها: «أين إيجابيتك؟ بالطبع ستوافق! الأمر يستحق المحاولة على أي حال. يقول جدِّي إنك تستطيعين قضاء الليل في منزله».

«المشكلة يا سي، هي أنني لا أملك ثمن التذكرة. لقد استنفدت كلّ النقود التي كانت لديّ عندما جئت إلى أليس».

ذكرتها: «لأنكِ دفعتِ إيجار الفندق، أيتها الحمقاء. انتظري دقيقة واحدة...».

سألتُ جدي إذا كانت كريسي تستطيع استخدام بطاقته الائتمانية لحجز الرحلة مقابل الدولارات التي ما زلت أحتفظ بها من بيع لوحتي الأولى.

قال وهو يسلمني البطاقة: «بالطبع، أخبريها بأنني سأحضرها من المطار أيضًا».

«شكرًا جزيلاً». أبلغت كريسي بالأخبار السارة.

«هل أحلم؟ اعتقدتُ أنني أفزعتكِ عندما لم أسمع منك...».

«أنا آسفة، لم أتمكن من الاتصال. كنت مشغولة في هذه الأثناء وأردت التريث قليلاً للتفكير».

قالت بعد فترة صمت: «أفهم ذلك. لا يهم الآن. يمكنك أن تخبريني بكل شيء عندما أصل إلى أليس».

«في الواقع، لا أستطيع لأنني حجزت، وسأستقل الطائرة إلى إنجلترا غدًا».

«أوه». وصممت.

«إنها تذكرة ذهاب وإياب، يا كريسي. يجب أن أعود إلى لندن لأرتب حياتي، وأعرض شقتي للبيع وأرى عائلتي».

«هل تقصدين أنك ستعودين؟».

«نعم، بالطبع سأعود، في أقرب وقت ممكن. سأعيش هنا في أليس. و... سوف يكون من الرائع لو كنتِ هنا أيضًا».

«هل تعنين ما تقولين؟».

«أنا لا أقول أشياء لا أعنيها، يجب أن تعرفي ذلك. على أي حال، سيكون جدي معك عندما تصلين، ومن خلال ما سمعته، ستكونين أشد مني حماسة لرؤيته».

«أنتِ تعلمين أن هذا ليس صحيحًا. متى ستعودين؟».

«في غضون عشرة أيام تقريبًا. والآن، اتصلي بميرين، ثم احجزي رحلة وسأرسل لك رقم جدي لكي تتمكني من الاتصال به وإعطائه التفاصيل».

«حسنًا. صدّقيني يا سي، لا أعرف كيف أشكر».

«إذًا لا تشكريني. حظًا سعيدًا وأراك قريبًا».

«نعم. سأفتقدكِ».

«أنا أيضًا سأفتقدكِ. إلى اللقاء».

أغلقت الهاتف وأدركت أنها لم تكن مجرد مجاملة، كنت أفتقدها حقًا. لم

أكن أعرف بعدُ الشكل الذي ستخذه علاقتنا، لكن ما كان مهمًّا هو المضي قُدُمًا.
وبطريقة أو بأخرى، كنت أشعر بتحسُّن كبير في الأسابيع الماضية.
همست لنفسِي: «بفضل الله، أنا كما أنا».

على الرغم من كلِّ ما حدث لي في الآونة الأخيرة، فقد تعلَّمت شيئًا مهمًّا وهو
أنني كنت بالتأكيد ثنائية الثقافة، وربما ثنائية الجنس، لكنني بالتأكيد لم أكن أريد
أن أكون وحيدة.

عندما انضممت إلى جدي في غرفة الجلوس سألتني: «هل رتبت كلَّ شيء؟».
«آمل ذلك. ستحجز الرحلة وتخبرك بموعد وصولها».

«رائع. أنا جائع. وأنت؟».

«بل أتضوّر جوعًا».

«إذًا، سأحاول فعل شيء ما بهذا البيض».

«حسنًا، سأحزم أمتعتي».

توقَّف في الردهة وسأل: «هل تحب صديقتك كريسِي الطبخ؟»

تذكَّرت كعكاتهما، وأوماتُ برأسي: «نعم».

«عظيم. يسعدني أنك وجدتِ شقيقة روحكِ، يا سيلينو».



قال جدي وهو يعانقني في صالة المغادرة بالمطار، بينما كنت أفكر في مدى روعة
شعوري بوجود شخصين لا يريدانني أن أغادر أستراليا: «اعتني بنفسكِ يا سيلينو».
- سأفعل.

سَلَّمَنِي مَظْرُوفًا بَنِيًّا كَبِيرًا وَقَالَ: «خذي، لقد جمعتُ لكِ بعض المستندات...
فيه شهادة ميلادكِ. حصلت عليها من مكتب السجلات العامة في بروم عندما زرتُ
الممرضة القديمة. إذا كنتِ جادة بشأن المجيء للعيش هنا إلى الأبد...».

«بالطبع، أنا جادة».

«إذًا، أقترح عليك التقدّم بطلب للحصول على جواز سفرك الأسترالي في أقرب وقت ممكن. النموذج موجود هنا أيضًا، بالإضافة إلى شهادة ميلاد والدتك».

قلتُ وأنا أدسّ المظروف في جيب حقيبتني، حريصة على ألا أجعّده: «حسنًا، أرجو أن ترخّب بكريسي بالنيابة عني، أمل أن تعجبك».

«أنا متأكد من ذلك».

أضفتُ، بينما كان مكبر الصوت يبث نداء الصعود إلى الطائرة: «شكرًا على كلّ شيء. أنا أكره الطائرات».

- قد يقلّ كرهك لها عندما تعيدكِ إحداها إلى منزلي. إلى اللقاء، يا سيلينو».

«إلى اللقاء، يا فرنسيس».

لوّحت له، ومشيت نحو نقطة التفتيش، وأعددت نفسي لرحلة طويلة إلى لندن.

عندما خرجتُ من مطار هيثرو، صفعني هواء لندن البارد مثل كرة من الجليد. كان الجميع من حولي ملفوفين حتّى آذانهم في معاطف سميكة وأوشحة، ولسع الهواء عينيّ وأنفي. رفعت قلنسوة كنزتي وأخذت سيّارة أجرة، ورجوتُ الله أن يكون لديّ من النقود الإنجليزية ما يكفي لإيصالي إلى باترسي.

عندما توقّف سائق التاكسي أمام مبنى شقتي، أعطيته ورقة نقدية مجمدة وبعض العملات المعدنية، ثمّ ترجّلت. كانت كآبة أواخر شهر كانون الثاني تحل محل أضواء عيد الميلاد التي تركتها، وشعرتُ كأنني قد خرجت من فيلم بالألوان لأدخل فيلمًا بالأسود والأبيض.

أقلّني المصعد إلى الطابق الثالث حتّى باب شقتي. فتحتُ الباب وفوجئتُ عندما رأيتُ أن جميع الأنوار مضاءة. لشدة غبائي لم أطفئها قبل مغادرتي. أغلقتُ الباب خلفي، وأدركتُ أن الشقّة كانت أدفأ مما ضبطتُ عليه منظم الحرارة. كانت رائحة الهواء حلوة، مثل كعكة لذيذة، لا كريهة كما توقّعت. في الواقع، كانت تفوح فيها رائحة ستار.

كنتُ قد كتبتُ لها رسالة نصية عندما توقّفتُ في سيدني لأخبرها بأنني أخذتُ الطائرة وسأعود اليوم إلى المنزل، كما سألتُها إذا كان لديها الوقت لنتلقى الأسبوع المقبل. كان عليّ أن أخبرها بأنني أنوي بيع الشقّة، فعلى الرغم من أنني كنتُ مالكتها، إلا أنها كانت منزلها أيضًا.

عبستُ عندما رأيتُ فزاعة جاي فوكس لا تزال جالسة على برميل الزيت في الاستديو وكأنه عرش، ثمّ ذهبتُ إلى المطبخ وشعرتُ بالرعب عندما رأيتُ ضوء الفرن مضاءً. كنت على وشك إطفائه عندما سمعت الباب الأمامي يُفتح.

«سي! وصلت! يا إلهي! كنت أعتقد أن اجتياز دائرة الهجرة وحركة المرور في لندن سيستغرقان منك وقتًا طويلًا...».

التفت لأرى ستار، تغطي وجهها ونصف جذعها العلوي باقة هائلة من الزنابق الجرسية. قدّمتها لي.

قالت لاهثة: «خرجت لتوّي واشتريت هذه الزهور لأرحب بك في المنزل، كان من المفترض أن تكون بانتظارك في مزهريّة على الطاولة، لكن لا يهمّ. أوه سي، من الرائع أن أراك ثانية».

في أثناء العناق الذي تلى ذلك، انحشرت بعض الزنابق بيننا، لكننا لم نهتم لذلك.

قالت وهي تتراجع وتضع الزنابق على منضدة القهوة. «يا إلهي، تبدين مذهلة. لقد أصبح شعرك أفتح وأطول».

«نعم، مع كلّ ذلك الضوء الساطع في أستراليا. أنت أيضًا تبدين رائعة. لقد قصصت غرتك!».

كنت أعلم أنها تبقّيها طويلة لتختبئ خلفها. الآن وقد قصّتها، كانت عيناها الجميلتان تشعان في وجهها مثل ياقوتتين زرقاوين.

«نعم، لقد حان وقت التغيير. اسمعي، اصعدي إلى الطابق العلوي واستحمي بينما أعدّ العشاء!».

«سأفعل، لكن أولاً، هل أشمّ رائحة كعك؟».

«نعم، إنها كعكة بالليمون. هل تريدن قطعة؟».

«هل أريد؟ كنتُ أحلم بشريحة من كعكتك منذ أن غادرت».

أعطتني قطعة سميكة مثالية، فأخذتها وأنهيتها بالكامل ببضع ثوانٍ. ومع قطعة أخرى في يدي، أخذت حقيبتني إلى الطابق العلوي، لأجد غرفة النوم تشعّ نظافة، والملاءات والأغطية جديدة. دخلت الحمام، وفتحت صنوبر الدش بأقصى طاقته، سعيدة بكوني في المنزل.

عندما عدت إلى الطابق السفلي، كانت ستار تنتظرني مع زجاجة بيرة.
شكرتها وقرعت زجاجتي بكأسها من النبيذ وشربنا نخب عودتي.
«أهلاً بك في المنزل، لقد أعددتُ وجبتك المفضلة. ستكون جاهزة في غضون
عشرين دقيقة».

«بودنج اللحم والكلّي!». أكدت ذلك عندما رأيت المعجنات تنتفخ تحت ضوء
الفرن.

«نعم. والآن هيا، أريد أن أسمع كلّ ما حدث لك في الشهرين الأخيرين».
«يا إلهي، هذا طلب كبير. كم لديك من الوقت».
«الليل بطوله».

سألتها دهشةً: «هل ستبيتين هنا؟».

«إذا كنتِ لا تمانعين، فنعم».

«بالطبع، يا سيا! هذا بيتك أيضاً، ألا تذكرين؟». تنهدت وذهبت لتسخين بعض
براعم البروكولي. قلتُ لها: «انظري، قبل أن تقولي أي شيء، أريد فقط أن أعذر.
لقد كنت مصدر إزعاج حقيقي في الخريف الماضي. في الواقع، ربما كنتُ مصدر
إزعاج طوال حياتي».

«لا، لم تكوني كذلك، يا غبية. أنا التي أعذر. كان يجدر بي أن أكون إلى جانبك
عندما كنتِ تمرّين بتلك الفترة الصعبة في الكلية».

عصت ستار على شفتها السفلية وأضافت: «لقد كنتُ أنانية حقاً وأشعر
بالندم».

«نعم، لم أكن بخير في ذلك الحين، لكن ذلك أعطاني الدفعة التي كنت أحتاج
إليها. أدرك الآن أنه كان عليك أن تفعلي ذلك، يا سيا. فالطريقة التي اتبعناها -
الطريقة التي اتبعتها - لم تكن صحية. كان عليك الخروج وإيجاد حياتك الخاصة. لو
لم تفعلي ذلك، لما وجدتُ حياتي أنا الأخرى».

التفتت إليّ وقالت: «لقد وجدتُ صديقاً، إيس، أليس كذلك؟ كان واضحاً أنكما
مرتاحان ومنسجمان معاً على شاطئ فرا نانغ».

«أوه، لا، ليس إيس، ولكن...». شعرتُ بعدم الاستعداد تمامًا لهذه المحادثة، فغيّرتُ الموضوع. «كيف حال ماوس؟».

قالت وهي تسحب بودنغ اللحم والكلّي من الفرن وتبدأ في وضع العشاء: «بخير. لكن من الأفضل أن نتحدث أثناء تناول الطعام، أليس كذلك؟».

للتغيير، تولّت ستار معظم الحديث، بينما التهمتُ أكبر قدر ممكن من الطعام الذي استطاعت معدتي السماح به. سمعتُ كل شيء عن هاي وولد، منزل ماوس، وأنه قيد التجديد، لذلك كانت هي وماوس وابنه روري يقيمون في المزرعة المقابلة. «سيستغرق الترميم سنوات عدة، بالطبع. موقع العقار مصنّف في الدرجة الأولى، وماوس مهندس معماري، لذا ينبغي أن يكون كل شيء مثاليًا. رفعت عينيها إلى السماء كما لو كانت تشير إلى عيوب ماوس.

«لكنك سعيدة معه، أليس كذلك؟».

«أوه نعم، على الرغم من أنه وسواسي وصعب المراس على نحو لا يُصدّق، وخصوصًا في ما يتعلّق بالتفاصيل وزخارف المدفأة. لذا نخرج أنا وروري للنزهة ونتركه. وعندما يكون روري في السرير، وماوس ما يزال يدرس أشكالًا مختلفة للمدفأة، أكتب.

«هل بدأتِ روايتكِ؟».

«نعم. أقصد، لم أذهب بعيدًا جدًّا - ثمانين صفحة أو نحو ذلك - ولكن...». نهضت ستار وبدأت في رفع الأطباق. قالت: «لقد أعددتُ حلوى الكرز أيضًا. يبدو أنك بحاجة إلى تغذية».

شعرتُ بأنها غير راغبة في الحديث عن هذه الأشياء فغيّرتُ الموضوع: «وماذا عن عائلتك؟ هل سمعتِ شيئًا من والدتك منذ أن غادرتِ إلى الولايات المتحدة؟». «أوه، نعم. لكنني الآن أريد أن أسمع عن مغامراتك، خصوصًا مع إيس. كيف التقيتِ به؟ كيف كان؟».

بينما كنت أروي، تذكّرتُ مدى لطفه معي. وشعرتُ بالحزن لأنه اعتقد أنني خنته.

سألتني: «هل ستذهبين لرؤيته في السجن؟».

قلت وأنا أكشط آخر قطعة حلوى من الوعاء: «لا شك في أنه سيطرمني. لكنني أستطيع المحاولة».

«السؤال السديد، هل هو مذنّب؟».

«نعم، أعتقد ذلك».

«حتى لو كان مذنّبًا، كما قال ماوس، فمن المشكوك فيه أنه فعل ذلك بمفرده. لماذا لا يتكلم الآخرون في البنك؟».

«لأنهم لا يريدون قضاء السنوات العشر القادمة خلف القضبان. لقد ذكر أن امرأة تُدعى ليندا تعرف الحقيقة».

«ألا تعتقدين أنكِ مدينة له بالعثور عليها؟ ربّما يسامحك إذا حاولت مساعدته».

«لا أعرف. عندما أفكر في الأمر، يبدو لي وكأنّ إيس قد تقبّل مصيره واستسلم».

«لو كنتُ مكانكِ، لاتّصلت بالبنك وطلبتُ التحدّث إلى ليندا».

«ربما، ولكن قد يكون هناك أكثر من ليندا».

«واصلت ستار استجوابها: «إِذَا، لم يكن حبًّا؟».

«لا، على الرغم من أنه كان يروقني حقًا. كان لطيفًا، أتعلمين؟ هو الذي طلب نسخة من السيرة الذاتية لكيتي ميرسر، المرأة التي طلب مني يا في رسالته أن أقتفي أثرها. وهو الذي قرأ لي الكتاب بعد أن أخبرته أنني أعاني من عسر القراءة».

«حقًا؟ رائع، لا يبدو مثل إيس الذي كنّا نقرأ عنه في الصحف. لقد جعلوا منه شخصًا فظيئًا: زير نساء يشرب ولا يهتم إلا بكسب الملايين».

«لم يكن كذلك على الإطلاق، عندما عرفته، على الأقل. لم يشرب غير كأس واحدة من الشمبانيا طوال فترة إقامتي معه».

«ابتسمتُ عندما تذكرتُ تلك الليلة».

«إِذَا، هذا هو إيس. والآن، ماذا عن عائلتك بالولادة؟ هل وجدتها؟...»

«نعم، لقد وجدتهم، لكنّ معظمهم ماتوا. أُمي بالتأكيد، وربّما أبي... حسنًا، فلنقل إن أحدًا لا يعرف عنه شيئًا».

أخذت ستار يدي بيدها: «أنا آسفة يا سي. هذا هو الحال مع والدي الطبيعي أيضًا».

«لا بأس، لأن الشخص الذي وجدته رائع حقًا، جدّي. إنه فنان، وفنان مشهور جدًا أيضًا».

«أوه، سي. أنا سعيدة جدًا من أجلك!».

«شكرًا. إنه شعور جيّد أن تجدي شخصًا من لحمك ودمك، أليس كذلك؟».

«نعم. أخبريني كلّ شيء، كيف عثرتِ عليه، ومن هم أفراد عائلتك؟».

وهكذا رويت لستار ملحمة عائلتي التي افتتنت بها.

«إذًا، لديك دماء يابانية وأسترالية وألمانية وإسكتلندية وإنجليزية». أحصت كلّ تلك الجنسيات على أصابعها.

قلتُ مازحة: «نعم. لا عجب في أنني كنتُ دائمًا ضائعة».

«أجد ذلك غريبًا، مقارنة بي، فقد اتضح أنني إنجليزية مئة في المئة. أليس غريبًا أن تكون جدّتك سارة وأمي من شرق لندن؟ وها نحن نعيش على بعد كيلومترات قليلة من المكان الذي وُلدنا فيه».

«نعم، صحيح».

«هل أحضرتِ صورًا للوحاتك؟».

«لقد نسيْتُ، لكنني أعتقد أن كريسي التقطت صورة لأول لوحة رسمتها بكاميرتي. سأحمّض الفيلم».

«من هي كريسي؟».

«صديقة تعرّفت إليها في أستراليا». لم أكن جاهزة لإخبارها عن كريسي بعد؛ لم أكن أعرف كيف أعبر عن ذلك بالكلمات. «في الواقع، يا سيّ، أعتقد أنني سأخلد إلى النوم. إنه منتصف النهار في أستراليا ولم أُنم كثيرًا على متن الطائرة».

«بالطبع. اصعدي وسأتابعك بعد أن أشغل غسالة الأطباق».

«شكرًا». تنفّست الصعداء لأنني تهرّبتُ من استكمال المحادثة. أراحتني جلبة

أصوات التنظيف المنزلية التي كانت ستار تحدثها، وانزلت في سريري، وسحبت اللحاف الناعم فوقي.

قالت ستار عندما دخلت غرفة النوم: «من الرائع جدًا أن أراك ثانية، يا سي». خلعت ملابسها وصعدت إلى السرير المجاور، ثم أطفأت الضوء.

قلتُ بنبرة يخالطها النعاس: «نعم، إنه شعور رائع. أفضل مما كنتُ أعتقد، أريد أن أقول إنني آسفة إذا كنتُ صعبة طوال هذه السنين. لم أكن أتعتمد ذلك. كل شيء موجود هنا في داخلي، لكنه يخرج بشكل خاطئ في بعض الأحيان، لكنني أتعلّم، أتعلّم حقًا».

«اصمتي يا سي، لا حاجة للاعتذار. أعرف من أنتِ في داخلك، ألا تذكرين؟ نامي جيّدًا».



في صباح اليوم التالي، استيقظتُ وستار في الوقت نفسه، وهو ما لا يحدث. تجولتُ في الشقة، وحاولتُ ترتيب الأشياء التي سأخذها معي إلى أستراليا، بينما خرجت ستار إلى الشرفة، لتتحدث على الهاتف وهي ملفوفة برداء الحمام. عندما دخلت أخيرًا لإعداد الفطور، بدت سعيدة، وخمنتُ أنها كانت تتحدث إلى ماوس. ولكي يزداد شعوري بالتحسن، واصلتني رسالة نصية من كريسي.

مرحبًا يا سي! أمل أن تكوني وصلتِ بسلامة. كانت المقابلة في المعرض مرعبة. سأحصل على الرد غدًا، تمنني لي حظًا سعيدًا! أفتقدك!

سألتني ستار ونحن نتناول وجبة الفطور: «إذًا، هل قرّرتِ ما ستفعلينه الآن بعد عودتك؟».

كان البيض لذيذًا جدًا، حتّى أنني رغبت في تغيير رأيي والبقاء.
«حسنًا، كنت أنوي أن أحدثك عن ذلك، يا سي. أفكر في بيع الشقة».

قَطَبَت ستار حاجبيها وقالت: «حقًا، لماذا؟ كنتُ أعتقد أنكِ تحبين هذا المكان».

«لقد أحببته... أقصد أحبه، لكنني سأنتقل إلى أستراليا».

«يا إلهي! حقًا؟ أوه سي... إنها بعيدة جدًا». اغرورقت عيناها بالدموع.

مازحَّتْها قائلة بأنها على مسافة يوم واحد بالطائرة، وأنا أحاول إخفاء صدمتي. فقد بدت حزينة. لكنَّ الغريب، هو أنها قبل بضعة أسابيع فقط، كانت لتسعد بذهابي إلى الطرف الآخر من العالم.

«وماذا عن العناكب هناك؟ ألم تكن ترعبكِ دائمًا؟».

«ما زالت ترعبني، لكنني أعتقد أنني أستطيع التعامل معها. والغريب هو أنني لم أرَ قط أيًا منها أثناء وجودي هناك. انظري يا ستار، إنها الأرض التي أنتمي إليها. أقصد، أكثر من أيِّ مكان آخر، على أيِّ حال. وفرنسيس جدِّي لن يعود شابًا. لقد عاش وحيدًا منذ وفاة زوجته، وأريد أن أقضي معه أكبر قدر ممكن من الوقت».

أومأت ستار برأسها، ومسحت دموعها بكمِّ سترتها: «أتفهم ذلك يا سي».

«ثمَّة شيء آخر أيضًا، وهو أن المكان يلهمني للرسم، أم أنه دمي الأسترالي الأصلي. عندما وجدتُ نفسي في الأدغال، كنتُ كما لو أنني أعرف ما يجب أن أرسمه من دون الحاجة إلى التفكير فيه».

قالت بنبرة حزينة: «لقد اقتربتِ من إلهامك. إنه سبب حقيقي للانتقال إلى الطرف الآخر من العالم».

«نعم، أقصد أنني كنت ضائعة عندما غادرتُ لندن، ولم أكن أعرف ما الذي أريد أن أرسمه. ولكن عندما أرتني كريسي أشجار اللِّبان بالقرب من سلسلة جبال ماكدونيل، حدث شيء سحري. وبعد يومين، باعت كريسي اللوحة بستمئة دولار». حدَّقت إليَّ وسألتني: «هذا مذهل يا سي! إذًا، من هي كريسي هذه؟ هل تعيش حيث تنوين الاستقرار؟».

«لا، ليس في الوقت الحالي، لكنها قد تنتقل في الأسابيع القليلة القادمة».

«لتكون بالقرب منك؟».

«نعم، لا، نوعًا ما... قد يُعرض عليها وظيفة في معرض فني، و...». رحت أومئ برأسي مثل كلب يجلس في النافذة الخلفية للسيارة، وأخيرًا قلتُ: «إنها صديقة حقيقية، فتاة رائعة وإيجابية. لقد عاشت حياة صعبة، ولديها ساق صناعية و...».

أدركتُ أنني كنتُ أثّرر وربما كشفتُ نفسي تمامًا.

وضعت يدها اللطيفة على معصمي وقالت: «تبدو كريسي مذهلة، وآمل أن ألتقي بها ذات يوم».

«آمل ذلك أيضًا، لأن ما مرّت به، جعلني أدرك مدى الرعاية والبذخ اللذين نشأتُ فيهما. لقد نعمنا بطفولة سحرية في أتلانتس، محميات من كل شيء، لكن كريسي كان عليها أن تكافح للوصول إلى حيث هي الآن».

«أفهم. هل تجعلكِ سعيدة؟».

«نعم، هذا صحيح».

«إِذَا فهي الشخص المميّز بالنسبة إليك؟».

«ربّما، لكنّ الوقت ما زال مبكرًا، ثم... يا إلهي!». ضربتُ الطاولة بقبضتي. «ما الذي يحدث عندما أكون هنا؟ لا أستطيع أن أضع الكلمات جنبًا إلى جنب بشكل صحيح».

«اهدأي يا سي، هذه أنا، سيا. لم نكن بحاجة إلى الكلمات، أذكركين؟». بدأت يداها تتحرّكان بلغة الإشارة التي ابتكرناها في طفولتنا عندما لم نكن نريد أن نعرف شقيقاتنا الأخريات ما نقوله.

أشارت: «هل تحبينها؟».

«لستُ متأكّدة بعد. ربّما».

«هل تحبكِ؟».

أشرتُ من دون أن أتوقّف للتفكير: «نعم».

قالت بصوتٍ عالٍ ونهضت لتعانقني بحرارة: «إِذَا، أنا سعيدة جدًّا من أجلك!».

تمتمت: «شكرًا، لكنكِ تعرفينني جيدًا، قد أفسد كل شيء».

«هذا ما أفكر فيه كل يوم مع ماوس. هذا ما يُسمى بالثقة، أليس كذلك؟».

«أجل».

قالت، وهي تتراجع لتنظر إلي: «وتذكّري. مهما يحدث، سنكون دائمًا معًا».

أغمضت عيني بقوة لأكبج الدموع: «شكرًا».

قالت وهي تجلس مجددًا: «لقد قمْتُ ببعض التحريات عن ليندا».

قلت وأنا أحاول استعادة نفسي: «هل فعلتِ ذلك؟».

«نعم». وضعت ستار اسمًا ورقمًا أمامي. حدّقت إليهما.

«هناك ثلاث نساء يحملن اسم ليندا في البنك. ولما كانت إحداهن تعمل في قسم التمويل، والأخرى تعمل في البنك منذ شهرين فقط، فإن المرشحة الأرجح هي ليندا پوتر. كانت مساعدة الرئيس التنفيذي للبنك، ديفيد روتر».

«حقًا؟ كيف عرفت ذلك؟».

«أتصلتُ بالبنك وطلبت ليندا. بعد أن تحدّثت مع الاثنتين اللتين لم تكونا ليندا المطلوبة، أعطوني مكتب الرئيس التنفيذي على ما يبدو، واكتشفت أن ليندا پوتر قد تقاعدت مؤخرًا».

«عظيم».

نظرت منتظرة رد فعلي: «حسنًا؟».

«حسنًا، ماذا؟».

قالت بثقة: «إذا كان إيس قد قال إن ليندا تعرف كل شيء وإنها كانت تعمل مساعدة شخصية للرئيس التنفيذي، فهذا يعني أنها على علم بكل ما يجري في الشركة. المساعدون الشخصيون هم كذلك دائمًا».

أومأت برأسي، متسائلة إلى أين تريد أن تصل: «حسنًا».

«سي، أعتقد أنه ينبغي لك أن تذهبي لرؤية إيس، وسؤاله عن ليندا. وإلى جانب ذلك، لا يرتبط الأمر به فقط، بل بكِ أيضًا! يعتقد أنكِ أنتِ من وشى به

لصحافة. بالتأكيد تريدان توضيح الأمور قبل مغادرتكِ إلى أستراليا، أليس كذلك؟». «نعم، ولكن لا يوجد دليل، أليس كذلك؟ كان الفيلم على كاميرتي، وأعطيته لحارس الأمن ليحمّضه».

«يجب أن تقولي له ذلك بنفسك. واسأليه أيضًا لماذا لا يبذل أيّ جهد للدفاع عن نفسه».

«أنت متحمّسة حقًا، أليس كذلك؟».

قالت بشراسة: «كل ما في الأمر هو أنني لا أحبّ أن يُلام الناس على شيء لم يفعلوه. خصوصًا عندما تكون شقيقتي هي المعنية».

قلت رافعةً كتفيّ: «أحاول أن أتعلّم أن أبقى فمي مغلقًا».

«حسنًا، إنها المرة الأولى التي أقول فيها الكلمات بالنيابة عنك. وأعتقد أنه يجب عليك أن تريه».

وجدتُ أنها تغيّرت عمّا كانت عليه منذ أشهر قليلة. كانت ستار القديمة لتفكر في كلّ هذه الأشياء في داخلها، لكنها لم تكن لتقولها بصوتٍ عالٍ. في حين كنت دائمًا أقول أكثر مما يلزم. ربما كنا نتكيّف مع واقعنا الجديد، منفصلتين إحدانا عن الأخرى.

«حسنًا، حسنًا. أعلم أنه في سجن وورموود سكرابز. سأستعلم عن ساعات الزيارة».

«عديني بذلك».

«أعدكِ».

«حسنًا. عليّ أن أتحركَ بعد قليل لآخذ روري من المدرسة».

«حسنًا، قبل أن تذهبي، كنت أتساءل إن كنت ستساعديني في ملء طلب جواز السفر الأسترالي؟ لقد أعطاني جدّي جميع المستندات التي أحتاج عليها لكنك تعرفين أنني لا أحسن ملء الاستمارات».

«بالطبع. أحضري المستندات».

أحضرتُ المغلف إلى الطابق السفلي وذهبت ستار للبحث عن قلم حبر أسود لملء الاستمارة. نشرنا المستندات على طاولة المطبخ وألقينا نظرة خاطفة على شهادة ميلاد والدتي، قبل أن تلتقط ستار شهادة ميلادي.

«إِذَا، فقد وُلِدَت في بروم في الخامس من آب 1980».

قرأت التفاصيل، وهي تحني رأسها في تركيزٍ عالٍ وقالت: «يا إلهي! سي، هل نظرتِ إلى هذه الشهادة؟».

«لا، لا. لقد أعطاني جدِّي المغلف قبل أن أغادر»

«إِذَا، فأنتِ لم تري اسمك الأصلي في شهادة الميلاد؟... أشارت إليه وانحنيت لإلقاء نظرة.

«اللعنة!».

قالت ستار: «نعم، اللعنة، آنسة بيرل أبراهام!». ثم راحت تضحك.

تأوّهت بقرف: «بيرل، أوه. وكنت دائماً أشتكي من سيلينو... أنا آسفة يا پا».

لم أتمالك نفسي وانضمت إلى ستار في الضحك، وأنا أحاول تخيّل نفسي الأخرى التي تدعى «بيرل». لم يكن الاسم يناسبني. مع ذلك، وفي كثير من النواحي، كان مثاليًا.

هدأنا، وأعدت شهادة الميلاد إلى مغلفها.

قالت ستار: «بالمناسبة، ستأتي والدتي في غضون أيام قليلة. وكذلك ما».

قلت: «أوه، هذا رائع! أنا سعيدة لأن مجيء ما كان يوفّر عليّ السفر إلى جنيف. هل تأتيان لتتعارف إحداهما على الأخرى؟».

قالت ستار: «نوعًا ما، عندما وجدتني أُمي الحقيقية، اتّصلت ببعض أفراد عائلتها الآخرين. بعضهم ما زالوا يعيشون في شرق لندن. سنذهب جميعًا لحضور حفلة مفاجئة لأحد أقاربنا. قالت أُمي منذ فترة إنها ترغب في التعرّف إلى المرأة التي ربّنتي وتشكرها شخصيًا، فكانت هذه هي اللحظة المثالية لدعوة ما. أود أن تتعرّفي إلى والدتي أيضًا. لقد أخبرتها كلّ شيء عنك».

«كيف هي؟».

«جميلة، جميلة جدًا. لن تحضر معها أطفالها الآخرين هذه المرة، لكنني سأسافر إلى نيو إنجلاند قريبًا وألتقي إخوتي الثلاثة غير الأشقاء. حسنًا، عليك أن توقعي هنا». أضافت: «سيتعين عليك أيضًا أن ترفقي نسخة من أوراق التبني الرسمية. يكفي أن تتصلي بالعم غيورغ هوفمان، فهي بحوزته، وهو الذي أعطاني أوراقك عندما احتجتُ إليها».

«إذًا، كيف حال الشقيقات الأخريات؟ لم أسمع عنهن شيئًا منذ قضية الصحافة».

«حسنًا، مايا تعلم اللغة الإنجليزية للأطفال في حي فقير في ريو، وأخبرتني آلي الأسبوع الماضي أن بطنها يزداد حجمًا يومًا بعد يوم، لكنها بصحة جيدة. اتصلتُ بتيغي بعد رأس السنة، لقد غيّرت وظيفتها وتعمل في مكان ليس بعيدًا عن ملجأ الحيوانات. كما تريد أن تجمعنا في أتلانتس في شهر حزيران لإحياء ذكرى وفاة پا. لم أسمع كلمة واحدة من إلكترا منذ أسابيع، ولم أرها في الصحف، وهو أمر غريب. لقد ذهبت الشهرة إليك، يا شقيقتي الصغيرة». ثم ضحكت وسألتني: «بالمناسبة، متى ستسافرين إلى أستراليا؟».

«في ساعة مبكرة من صباح الأربعاء المقبل».

بدأت ستار محبطة: «قريبًا جدًا إذًا. ستقام الحفلة ليلة الثلاثاء. هل يمكنكِ الحضور؟».

«ربما لا. عليّ أن أحزم أمتعتي، وأشياء أخرى».

«أفهم ذلك. إذًا ربما نستطيع إقامة احتفال صغير قبل أن نذهب إلى الحفلة. ثم يمكنكِ أن تقابلي أمي، وأن تري ما أيضًا».

«إذا كنتِ تستطيعين التخلي عن ما ليلة واحدة، يمكنكِ أن أحضرها من مطار هيثرو، بحيث تبقى معي ليلة الاثنين، وتذهب معك إلى الحفلة يوم الثلاثاء؟».

«يبدو هذا مثاليًا! شكرًا لك يا سي. الآن، يجب أن أذهب وأحضر أشياءي. في غضون ذلك، اتصلني بالسجن واستعلمي عن أوقات الزيارة؟ تجديد الرقم على الطاولة».

صعدت ستار إلى الطابق العلوي لتحزم حقيبتها والتقطت الهاتف مدركة أن ستار لن تدعني أحظى بلحظة سلام واحدة ما لم أّصل بالسجن. كانت موظفة الاستقبال ودودة، ولو أنها أصرت على معرفة صلة القرابة التي تربطني «بالسجين». أّجبت ببساطة: «إنه صديق».

طلبت تاريخ ميلادي، وعنواني، وأّبلغتني بضرورة إبراز هويتي الشخصية لكي يُسمح لي بالدخول.

سأّلت وهي تهبط الدرج: «هل حصلتِ على موعد للزيارة؟».

«نعم غدًا، في الساعة الثانية من بعد الظهر. قد أّغتني الفرصة للحصول على صور شخصية لجواز سفري. إنه لمن الغريب تخيّل إيس سجينًا».

سأّلتني ستار وهي تضع يدها برفق على كتفي: «هل أنتِ متأكّدة من أنك ستكونين بخير إذا بقيتِ وحيدة في الشقة؟».

«طبعًا. أنا الآن فتاة كبيرة، لا تنسي ذلك».

«أّخبريني بنتيجة لقاءك مع إيس». ثمّ عانقتني وقالت: «أراك في الأسبوع المقبل».



عندما وصلتُ إلى السجن تشكّل لديّ انطباع بأنني في فيلم سينمائي. في الداخل، كان كلّ زائر يخضع لتفتيش دقيق قبل أن يقتادوه إلى غرفة كبيرة مليئة بالطاولات والكراسي البلاستيكية، وفي الواقع، لم تكن كثيفة بقدر ما تصوّرتها. من الواضح أن أحدهم قد زيّن الجدران بملصقات فرحة ذات ألوان زاهية. جلسنا كلّ إلى طاولة منفصلة، وبعد أن قرأوا علينا قائمة لما هو مسموح وغير مسموح، دخل السجناء.

راحت نبضات قلبي تتسارع بينما كنتُ أّبحث عن إيس في الطابور. عندما سمعتُ صوتًا مألوفًا يقول «مرحبًا»، لم أدرك أنني لم أّتمكّن من التعرف عليه، كان شعره قصيرًا جدّا، ولحيته طويلة، وهزيلًا بشكل مؤلم.

سألني وهو يجلس: «ماذا تفعلين هنا؟».

«أنا... في الحقيقة، كنت أقول في نفسي، إنه من المُفترض أن آتي لزيارتك بما أنني عدتُ إلى إنجلترا».

«أرى ذلك. أنتِ الأولى، إذا استثنينا محاميَّ بالطبع».

«آسفة».

خيم الصمت بيننا بينما راح إيس ينظر إلى يديه، والناس من حوله، والسقف، وكل شيء... سواي.

قال أخيرًا: «لماذا فعلتِ ذلك يا سيسي؟».

«لم أفعل شيئًا، أؤكد لك! هذا ما جئتُ أقوله لك. أنا متأكدة من أن الذي وشى بك هو پو، الذي تلقى رشوة من شخص يدعى جاي، وهو صحفي. لقد قال لي أحد رواد فندق رايلي بيتش إن جاي تعرّف عليك، ولم أخبرك بذلك لأنني لم أرغب في إثارة قلقك، ولم يكن لديّ أدنى فكرة عن هويتك. لذلك لم أصدقه».

قال ساخرًا: «أوه، كفى يا سيسي، لقد جاءت هذه الصورة من كاميرتك الخاصة مباشرة. لو لم أكن أثق بك لما سمحتُ بالتقاطها، ظننتُ أننا أصدقاء».

أصررتُ: «كنّا كذلك! لقد كنتِ رائعًا معي!».

حاولتُ خفض صوتي عندما رأيتُ الآخرين ينظرون إلينا: «لم أخنك مطلقًا. لأبْد من أن پو حصل على نسخة من الصور وأعطائها لجاي. على أيّ حال، هذه هي الحقيقة، وهذا هو ما حدث».

حدّق إيس في الفراغ: «حسنًا. أعتقد أن ذلك كان ليحدث عاجلاً أم آجلاً. كنتُ أعلم أنني لا أستطيع البقاء مختبئًا إلى الأبد. لقد عجّلتِ ما كان محتمًا».

«يهمّني أن تصدّقي. كدتُ أصاب بنوبة قلبية عندما وصلتُ إلى أستراليا وتلقيتُ من جميع شقيقاتي رسائل نصية يخبرني فيها أنني كنت على الصفحة الأولى من كل الجرائد! هل تعتقد أنني كنت أرغب في ذلك؟».

«ماذا؟ أن تكوني متورّطة مع أشهر المجرمين في الوقت الحاضر؟».

«بالضبط!».

«كثير من الفتيات كنَّ ليرغبن في ذلك».

قلتُ بحزم وأنا أحاول الحفاظ على هدوئي: «حسنًا، كثير من الفتيات، لا أنا».

«لا، أنتِ على حق. كنتُ أعتقد أنك مختلفة، وأنني أستطيع أن أثق بك».

«تستطيع أن تثق بي! اسمع، إذا كنت لا تريد أن تصدقني، فهذا شأنك، لكنني لست كاذبة. جئتُ لأسألك إذا كنت بحاجة إلى أي مساعدة. يمكنني أن أكون شاهدة أو أي شيء من هذا القبيل».

«شكرًا لك يا سي، ولكن بفضل وسائل الإعلام، لا يمكن إصلاح سمعتي، وأنا أستحق ذلك. أنا متأكد من أنك قرأتِ عن سلوكي السابق. لا لأن له علاقة بما حدث في البنك، لكن يبدو أنني الآن، عدو الشعب رقم واحد في بريطانيا».

«الخبر السار هو أنني أعاني من عسر القراءة، هل تتذكر؟ لا أستطيع القراءة بشكل صحيح».

أخيرًا، ابتسم ابتسامة خفيفة: «نعم، ممتاز».

«من هي ليندا پوتر؟».

التقت عيناه عيني للمرة الأولى: «ماذا؟». عرفت حينها أن ستار قد وجدت المرأة المناسبة.

«ليندا پوتر. أخبرتني ذات ليلة أنها تعرف. إذًا، ماذا تعرف؟».

«لا شيء، إنها لا أحد».

«ليس صحيحًا، أعرف أنها شخص مهم، لأنها كانت المساعدة الشخصية لرئيس بنك بيرنرز».

قال وهو يضغط على أسنانه بقوة: «لا تتدخل في هذه الأمور يا سي سي، أتفهمين؟».

«هل تعرف هذه المرأة شيئًا؟ إيس، لماذا لا تتيح لي مساعدتك؟».

قال وهو يميل نحوي: «اسمعي. ما حدث قد حدث؟ ومهما يحدث، سيدينونني. أنا المذنب، لا أحد غيري».

«لا بُدَّ من أن أشخاصًا آخرين كانوا يعلمون. أليس كذلك؟».

«قلت لك، لا تتدخل».

رأيته يرفع يده لتنبيه الحارس الذي جاء نحونا. قال إيس: «أريد العودة إلى زنزانتني».

«حسنًا. لقد انتهى الوقت، يا آنسة».

نهض إيس وقال: «شكرًا لمحاولتكِ المساعدة يا سي، لكن لا شيء يمكنك فعله، صدّقيني».

خارج السجن، وفي انتظار الحافلة التي ستعيدني إلى وسط لندن، أدركت أن ستار كانت على حق. حتّى لو لم يكن ذلك يساعد إيس في نهاية المطاف، كان عليّ أن أظهر له أن شخصًا ما على الأقل كان يهتمّ به.

لم يتركني فارق التوقيت وشأني، لذلك، استيقظت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. في البداية، اتّصلتُ بـ«ما» وأخبرتها أنني سأكون بانتظارها في مطار هيثرو بعد ظهر يوم الاثنين عند نزولها من الطائرة القادمة من جنيف. ثمّ في تمام الساعة التاسعة تمامًا، اتصلت برقم بنك بيرنرز الذي تركته لي ستار.

«مرحبًا، هل يمكنني التحدث إلى ليندا پوتر، من فضلك؟».

قال صوت أنثوي مقتضب: «أخشى أنها لم تعد تعمل هنا. هل أنتِ السيدة التي اتصلت قبل يومين؟».

«نعم، كنت أحاول الاتصال بها لأنها من المُفترض أن تأتي إلى حفلة عيد ميلادي الليلة، ولم أسمع منها شيئًا بعد».

«حسنًا، سيكون من الأفضل أن تحاولي الاتصال بها في المنزل».

«نعم، ولكن...» بحثت في خلايا دماغي عن كلّ فيلم إثارة شاهدته ليخبرني بما يجب أن أقوله.

«أنا في مكان الحفل الآن وهي لا تجيب على هاتفها المحمول، ولا أحمل رقم هاتفها الأرضي معي. هل الرقم في متناول يدك؟».

«نعم، انتظري دقيقة». حبستُ أنفاسي وهي تتلو عليّ الرقم.

«شكرًا جزيلاً، إنه عيد ميلاد خاص ووجودها ضروري».

«أتفهم ذلك وربما يسعدها. إلى اللقاء».

«إلى اللقاء».

استجمعتُ قواي واتّصلتُ بـليندا. وأنا مزهوّة بانتصاري الصغير، راح قلبي

ينبض بقوة عندما سمعت الرنين على طرف الخط، لكنني وقعتُ على جهاز الرد الآلي فأغلقتُ الهاتف. ثم اتّصلتُ بستار، إذ لم يكن لديّ أيّ فكرة عن الخطوة التالية التي يجب أن أتخذها.

قالت: «حسنًا أنتِ بحاجة إلى عنوانها. انتظري دقيقة». سمعتها تتحدث في الخلفية مع صوت ذكوري مخملي.

«سي، سأمرّر لك أورلاندو، شقيق ماوس. إنه رائع في دور المحقّق». «السيدة سيلينو؟».

«نعم، لكن نادني سي سي».

«يا إلهي، أتمنّى على أولئك الذين وُهبوا أسماء استثنائية أن يستخدموها. إذا تجرّأ أيّ شخص غير ابن أخي على مناداتي «لاندو»، فسأصاب بالاكْتئاب لبقية العام. حسنًا، أخبرتني الآنسة ستار أنك بحاجة إلى عنوان شخص ما».

أجبتُ وأنا أحاول كبت ضحكتي من أسلوبه القديم في التعبير: «نعم، هذا صحيح».

«حسنًا، لقد بحثت لتوي على الكمبيوتر وأخبرني رمز الاتصال 01233 أن المرأة الغامضة المعنية تقطن في كينت، في أشفورد على وجه التحديد. وهي بلدة صغيرة راقية، قريبة جدًا من هنا. حسنًا، سأبحث في سجل ناخبي تلك المنطقة عن ليندا پوتر. تحمّليني من فضلك، بينما أتصفّح... آه، نعم! ها هي. طريق تشارت، آشفورد، كينت».

قالت ستار وهي تعود إلى الخط: «سأرسله لك برسالة نصية يا سي، هل ستذهبين لرؤيتها؟ إنها على مسافة ساعة بالقطار من محطة تشيرينغ كروس».

«قد لا تكون في المنزل...».

«أو مختبئة. انتظري...».

انتظرتُ حتّى انتهى النقاش بين أورلاندو وستار. وعادت ستار إلى الخط: «إنها مسافة قصيرة بالسيارة من هاي ويلد. ماذا لو ذهبنا وحدّنا المنزل؟».

«لست مضطرة إلى فعل ذلك يا سيا، ليست مسألة حياة أو موت».

«قد تكون كذلك بالنسبة إلى إيس يا سي. يمكننا التحقق من أن المنزل مسكون قبل أن تذهبي».

«حسنًا».

تساءلتُ ما إذا كانت حياة ستار مملة إلى الدرجة التي تضطرّها إلى ملء حياتها بمهام غريبة، كروية امرأة لا يعرفها أيّ منّا، على أمل أن تتمكّن هذه المرأة من مساعدة رجل كان في السجن بتهمة الاحتيال، ولا يرغب في أن أظلل عتبة بابه ثانية.

قالت ستار: «سنذهب خلال فترة الغداء، وسيؤدّي أورلاندو دور المراقب». ضحك الاثنان مثل طفلين في عيد الهالوين، وشكرتهما.

بعد عشر دقائق، رن جرس الباب. كان وكيل العقارات الذي اتّصلتُ به بشأن بيع الشقة.

تصافحنا وجال في المكان وهو يهز رأسه ويهمهم. في النهاية، جاء إليّ وندّت عنه تنهيدة درامية مصطنعة.

«ما الأمر؟».

«حسنًا، لا بُدّ من أنك تعرفين حالة سوق العقارات في لندن هذه الأيام؟

«لا، ليس لديّ أيّ فكرة».

«بصراحة، الوضع مروّع». هذا الرجل نفسه الذي عندما باعني الشقة لم يتوقّف عن ذكر فضائلها، راح الآن يشرح لي لماذا لن يشتريها أحد على الإطلاق، وبالتأكيد ليس بالسعر الذي اشتريتها به على أيّ حال.

«السوق غارقة بشقق حديثة البناء على الواجهة البحرية، وثلاثها الآن فارغ. إنها عواقب أزمة سوق الرهن العقاري الثانوي في أميركا بالطبع، لكنه مفعول أحجار الدومينو كما تعلمين».

«يا إلهي! هل يمكنك أن تخبرني ببساطة ما الذي تعتقد أنه السعر المناسب في السوق؟».

أخبرني، وكدتُ أقتلَع عينه.

«هذا أقل بنسبة عشرين في المئة مما دفعته!».

«للأسف، يا آنسة دابلييز، إن سوق العقارات قانون في حدّ ذاته. فهو يعتمد على المشاعر، التي، على عكس الشقق المطلّة على الواجهة البحرية، نادرة في الوقت الحالي. سوف يعود السوق إلى الصعود، بالطبع، كما يحدث دائماً في لندن. لو كنتُ مكانك ولم أكن بحاجة إلى المال، لأمنت استثماراتي وأجرتها».

تناقشنا في المبلغ الذي يمكنني أن أؤجرها به، والذي في الواقع، بالنسبة إلى شخص مثلي، كان كافياً لتأمين عشائي من لحم الكنغر لسنوات وسنوات. قال إن وكالته ستتولّى كلّ شيء، لذا وقعنا على بعض الاستثمارات وتضافحنا. وبينما كنتُ أعطيه مفتاحاً احتياطياً، رنّ هاتفني.

قلت بلهفة: «سياه؟».

«لقد وصلنا».

«إلى أين؟».

«نحن الآن أمام منزل ليندا پوتر. إنها في الداخل».

«كيف تعرفين ذلك؟».

«طرق أورلاندو بابها، وعندما فتحته، أعلن عن نفسه باعتباره المرشح المحلي عن حزب المحافظين، ربما كان حزب الحمقى المهلوسين أكثر إقناعاً».

انطلقت صيحات الضحك على طول الخط. وعندما استعاد الاثنان هدوءهما، تابعت ستار: «على أيّ حال، تولّيتُ المسؤولية وقدمتُ نفسي كسكرتيرة أورلاندو، فأضاء وجهها، وأخبرتني أنها كانت سكرتيرة خاصّة لرجل مهمّ جداً».

«أوه، وهل توصّلتِ إلى شيء مهم؟».

«مهلاً يا سي، دعيني أخبرك الباقي. سألتها إذا كانت متقاعدة، فأومأت برأسها وقالت نعم، لقد أحالوني على التقاعد قبل الأوان. أعتقد، وكذلك أورلاندو، أنهم تخلّصوا منها».

«ربما حان وقت تقاعدها؟».

«نعتقد أنها لم تبلغ الخمسين بعد».

«ماذا تعتقدين أنه يجب عليّ أن أفعل؟».

«تعالى لرؤيتها. يمكنني اصطحابك من محطة آشفورد غداً، قبل الساعة الثالثة والنصف، لأن هذا هو الوقت الذي آخذ فيه روري من المدرسة.

«شكرًا يا سيبا. إلى اللقاء».

بدأت بحزم أغراضي من دون أيّ حماسة، ومع تقدم فترة ما بعد الظهر، بدأت أشعر بذلك الشعور السيئ بالوحدة. كان لدى ستار أهلها الآن، وأنا كذلك، لكن أهلي كانوا على الجانب الآخر من العالم. تكوّرتُ على الأريكة، وشعرتُ بإحباط شديد. ثم، كما لو كان ذلك بفعل السحر، رنّ هاتفي.

«مرحبًا؟».

بعد فترة صمت طويلة، قال صوت مألوف: «سي؟ أنا كريسي».

«مرحبًا! كيف حالك يا كريسي؟».

«بخير. جدّك يرسل لك قبلاته».

«قبلاتي له أيضًا. كيف الحال؟».

«جيد، جيد. أردتُ فقط أن تكوني أول - أو في الواقع، ثاني شخص يعرف، بعد جدّك - أنني حصلت لتوّي على الوظيفة في المعرض!». أطلقت كريسي صرخة فرح.

«هذا خبر رائع!».

«أعرف! أليس كذلك؟ المرتّب زهيد بالطبع، لكن جدّك اللطيف قال إنني أستطيع البقاء معه حتّى أَدخر بعض المال لاستئجار منزلي الخاص. لا أُمزح يا سي، إنه صديقي الجديد، لكننا نفتقدك حقًا».

«أنا أفتقدكما أيضًا».

«أنا على وشك الاتصال والتخلّي عن وظيفتي في بروم. هل تعتقدين أن هذا هو الشيء الصحيح الذي يجب فعله؟».

«كريسي، أنا على وشك التنازل عن حياتي هنا في إنجلترا. هذا ما تريدين فعله، أليس كذلك؟».

مرة أخرى، فترة صمت. «إذًا، فأنتِ ستعودين بالتأكيد؟».

قلت بحزم: «بالطبع سأعود».

«إذن سأفعل».

«تفعلين ماذا؟».

«سأتخلّى عن وظيفتي، أيتها الحمقاء! ماذا عن إيس؟ هل رأيته؟».

«نعم، أُمس. إنه في حالة سيئة».

«أوه، ولكنك ستعودين بالتأكيد؟».

«ما بك؟ ألم أقل ذلك؟».

«بلى، قلتِ. اسمعي، الاتصال يكلف جدك ثروة، لذا سأقول تصبحين على خير.

أفتقدك».

«أنا أيضًا أفتقدك».

جلتُ في الشقة وسقيتُ نباتات ستار. كان ذلك شيئًا صغيرًا يمكنني أن أفعله من أجلها، كما فعلت كثيرًا من أجلي. جعلني ذلك أعيد التفكير في اعتمادي عليها، والطريقة التي كانت تساعدني فيها على القيام بالأشياء التي لم أكن أجيدها.

قلتُ في نفسي وأنا في السرير: إذا ذهبتُ لزيارة تلك الليندا، فإنني سأفعل ذلك بمفردي.



بعد رحلة القطار القصيرة إلى آشفورد في صباح اليوم التالي، أقلتني سيارة أجرة إلى العنوان الذي أعطاني إياه أورلاندو.

قال السائق مشيرًا إلى المنزل: «لقد وصلنا يا آنستي».

طلبت منه أن يمر به وينعطف في الطريق الجانبي التالي.
دفعت له خمسة جنيهات إضافية وقلت: «إذا لم أعد في غضون عشر دقائق،
يمكنك المغادرة، وسأصل بك لاحقاً».

مشيتُ على طول الطريق وتوقفتُ أمام المنزل الواقع في صفٍّ من المنازل
المتشابهة. كان الاسم مكتوباً على لافتة خشبية صغيرة على البوابة. عبرتُ الطريق،
ورأيتُ أن الحديقة كانت نظيفة للغاية. فتحتُ البوابة وعبرتُ الممر لأقرع الجرس،
وأنا أحاول أن أحضر ما سأقوله. وقبل أن أصل، انفتح الباب فجأة.

«إذا كنتِ هنا لتتحدثي عن فائدة انتخابات المجلس المحلي، فأنا لستُ
مهتمّة».

كانت المرأة على وشك أن تغلق الباب بقوة، لكنني مددتُ يدي لإبقائه
مفتوحاً. «لا، أنا سيسي دابليز، صديقة إيس من تايلاند».

نظرت المرأة إليّ ذاهلة: «ماذا؟ يا إلهي! أنتِ!».

«نعم». كان الباب لا يزال مغلقاً.

عندما كانت تقف هناك فاعرة فاهاً، نظرتُ إلى شعرها البني المقصوص
بطريقة غير جذابة، وبلوزتها الأنيقة، وما أسميه أنا وستار تنورة امرأة عجوز، لأن
القماش كان يصل إلى تحت ركبتها مباشرة. لم تتفوّه بكلمة، لذا واصلتُ: «أردتُ
أن أتحدث معكِ».

رأيت عينيها البنيتين تغادرانني، وتحرّكان يميناً ويساراً. «كيف وجدّتي؟».
«في سجل الناهبين. زرتُ إيس في السجن. يعتقد أنني أنا من أعطى الصحف
تلك الصورة، لكن ذلك ليس صحيحاً. أعتقد أنه شخص جيّد على الرغم من كلّ هذا.
لقد ساعدني عندما كنتُ بحاجة إليه، وأشعر أن اصدقاءه قد تخلّوا عنه، وهو يحتاج
حقاً إلى بعضهم».

أنهيتُ كلامي وأنا ألثث من الجهد الذي بذلته محاولة قول الشيء الصحيح.
أومأت برأسها في النهاية. «من الأفضل أن تدخلتي».

«شكرًا».

خطوتُ إلى الداخل وصفقتُ الباب خلفنا، ثم أغلقته بالمفتاح. «لا أحد يعرف أنك هنا، أليس كذلك؟».

«لا أحد».

أكدتُ ذلك، بينما كنتُ أتبعها عبر صالة ضيقة إلى غرفة جلوس تجعلك تخشى مجرد التفكير في تناول مشروب، مخافة أن ينسكب على سطح منضدة القهوة اللامع المصقول. حتى الأريكة كانت تتناثر عليها وسائد في وضع متناظر على شكل حرف V، حادّ.

«من فضلك، اجلسي. هل يمكنني أن أحضر لك كوبًا من الشاي؟».

«لا شكرًا، لن أبقى طويلًا».

جلست ليندا على المقعد المقابل وحدّقت إليّ لبرهة قصيرة، ثم نظرت إلى الفراغ. وفجأة أصبحت عيناها ضبابيتين، كأنها على وشك أن تجهش في البكاء.

كان واضحًا أنها تحاول استعادة رباطة جأشها وقالت: «إدًا، أنتِ صديقة أناذ؟».

استغرق الأمر مني لحظة لأدرك أنها كانت تشير إلى إيس باسمه الصحيح.

أجبت: «لن أذهب إلى هذا الحدّ، لكننا كنا معًا لفترة قصيرة، نعم. بالمناسبة، لماذا قال لي إن اسمه إيس؟».

«كان لقبًا يطلقونه عليه في قاعة التداول لأنه يفوز دائمًا. أو على الأقل، غالبًا... لماذا أنتِ هنا بالضبط؟».

«أنا أهتم به فحسب، أفهمين؟ كان قد ذكر اسمك ذات ليلة. قال: «ليندا تعرف». لم أفهم حقًا عما كان يتحدث في ذلك الحين، لكنني أفهمه الآن. أنا على وشك الذهاب للعيش في أستراليا، لذلك اعتقدتُ أنني مدينة له بالعثور عليك قبل أن أغادر».

قالت ليندا، بعد فترة صمت طويلة: «إنه فتى لطيف».

«نعم، إنه كذلك. لقد سمح لي بالبقاء معه عندما لم يكن لديّ مكان آخر أذهب إليه. لا أعرف حتى ما الذي من المُفترض أن أسألك عنه، ولكن...».

أدركتُ أن ليندا كانت بعيدة، تحدّق إلى الفراغ. لذا جلستُ وانتظرتُ أن تتكلّم.

«لقد جاء إلى إنجلترا عندما كان في الثالثة عشرة من عمره ليذهب إلى مدرسة داخلية. كنت أنا التي استقبلته في المطار قادماً من بانكوك، وأخذته إلى مدرسة تشارتر هاوس، القريبة من هنا. كان صغيراً جداً في ذلك الوقت. لم يكن عمره يبدو أكثر من تسع سنوات أو عشر. كان طفلاً حقاً، وكان قد فقد والدته مؤخراً أيضاً، ومع ذلك كان شجاعاً، ولم يبكِ عندما قدّمته إلى مدير المدرسة، ثم تركته هناك. لا بُدّ من أنها كانت صدمة كبيرة، بالنسبة إلى طفل يترك بانكوك ويذهب إلى مدرسة داخلية في إنجلترا الرمادية الباردة».

راقبتُ ليندا وهي تتوقّف وتتنهّد بعمق، قبل أن تقول، «يمكن أن يكون الأولاد الصغار قساة للغاية، أليس كذلك؟».

«لا أعرف حقاً، لأكون صادقة. لدي خمس شقيقات».

ابتسمت لي ابتسامة خفيفة وقالت: «حقاً؟ يا لك من محظوظة. كنتُ طفلة وحيدة. على أيّ حال، تعودتُ الاتصال به كلّ أسبوع، فقط لأطمئن أنه بخير. كان يبدو دائماً مرحاً على الهاتف، لكنني كنت أعلم أن الأمور لم تكن سهلة بالنسبة إليه. في بعض الأحيان، في البداية، كنت أقود سيارتي يوم الأحد ونخرج لتناول الغداء. أصبحنا قريبين، وفي النهاية، بإذن والده، كان يأتي ليقيم معي خلال العطلات والأعياد. مع ذلك، هذا كلّهُ من الماضي».

جلسنا في صمت لبعض الوقت، وكنت أحاول أن أفهم هذه المؤامرة في ذهني الصغير، لكنني لم أفجح. كنت متيقّنة من أن إيس قال بوضوح إنه لم يعرف والده، مع ذلك، ذكرته ليندا لتوّها. هل كانت قريبة إيس؟ هل هذا هو السبب الذي جعلها تهتم به عندما كان صغيراً؟».

سألْتُها: «ألم تكوني مساعدة الرئيس التنفيذي لبنك بيرنرز؟».

«نعم، كنتُ كذلك. وربما كنتِ تعرفين، فقد تغيّرت أشياء كثيرة في الأشهر القليلة الماضية. أنا الآن متقاعدة رسمياً».

«أوه، جميل».

«لا، ليس كذلك. إنه أمر مروّع تمامًا! بالكاد أعرف ماذا أفعل بنفسى، وأنا أتسكّع في المنزل طوال اليوم. مع ذلك، أنا متأكّدة من أنني سأتكيف في نهاية المطاف، لكن من الصعب جدًّا أن يُسلب منك أسلوب حياتك فجأة، أليس كذلك؟».

قلتُ بكثير من التعاطف: «نعم، إنه كذلك. هل أعالوك على التقاعد لأن البنك بيع؟».

«جزئيًّا»، نعم، لكن ديفيد شعر أنه من الأفضل أن أختفي».

«ديفيد؟».

«الرئيس التنفيذي. لقد عملت معه ثلاثين عامًا، وعشت من أجله ومن أجل وظيفتي. والآن...». هزّت كتفيها وأضافت: «حسنًا، هذا ما وصلتُ إليه. هل أنتِ متأكّدة من أنك لا ترغبين في فئجان من الشاي؟».

«لا، شكرًا. لا يزال رئيسك يعمل هناك، أليس كذلك؟».

«أومأت برأسها وقالت: «سمعت أن لديه نسخة جديدة منى تُدعى ديبورا. إنها شقراء جدًّا، على ما يبدو. لا بسبب شكلها، فأنا متأكّدة من أنها فعّالة جدًّا».

اعتقدتُ أن هذا لن يوصلنا إلى أيّ مكان، بخلاف إغضابها أكثر، فسألتها: «ما الذي تعرفينه عن إيس؟ على سبيل المثال، هل تعرفين أيّ شيء مفيد قد يساعده؟».

قالت ببطء: «أوه، أعرف كلّ شيء عن أناند. أعرف أنه يحب أن يُمسّد شعره وهو نائم، وأنه أصمّ قليلًا في إحدى أذنيه بسبب إصابة في لعبة الركبي، كما أعرف أنه يحبّ بسكويت الزبدة».

«أقصد، هل تعرفين أيّ شيء قد يساعد في الدفاع عنه في المحاكمة القادمة للتخفيف من عقوبته، أو أيّ شيء آخر؟».

عضّت على شفتيها وامتلأت عيناها بالدموع مرة أخرى. قالت: «أتعلمين؟ إنه منتصف النهار تقريبًا وأعتقد أنني أرغب في تناول القليل من الشيري. هل ترغبين في كأس؟».

«لا، شكرًا».

ذهبت إلى خزانة جانبية وأخرجت منها زجاجة وكأسًا صغيرة جدًا ملأتها بسائل بني.

«يا إلهي، لم أشرب الشيري في وقت الغداء منذ سنوات».

بالنسبة إلى شخص قال إنه لا يشرب كثيرًا، أفرغت ليندا الكأس بجرعة واحدة، وقالت: «يا إلهي، أفهم تمامًا لماذا يلجأ الناس إلى الكحول، خصوصًا عندما يكونون تحت الضغط. هل كان أنا قد يشرب عندما رأيته في تايلاند؟».

«لا. لا شيء، باستثناء كأس من الشمبانيا في ليلة رأس السنة الجديدة».

«هذا رائع. لم يكن يشرب قبل أن يصبح تاجرًا في سوق الأسهم. المشكلة هي أن الإفراط في الشراب هو طقس من طقوس المهنة، وكان يريد أن يتناسب مع زملائه. لا أحد يريد أن يكون مختلفًا، أليس كذلك؟ خصوصًا إذا كان مختلفًا بالأصل. أومأت برأسي: «لا، لا أحد يريد ذلك».

«قلت لديفيد منذ البداية أنني أعتقد أنه من الخطأ توظيف أناوند في البنك بعد أن ترك المدرسة، لكنه كان يرى مدى موهبته. لم يرغب أناوند في فعل ذلك. قالها لي وهو يجلس حيث تجلسين الآن، لكن ديفيد كان يحكم عالمه». تنهدت. سألتها بارتباك: «هل تقولين إن رئيسك أجبر إيس على ممارسة هذه المهنة؟». «ببساطة، كان أناوند منبهراً به، وكان ليفعل أي شيء يقوله ديفيد».

«لماذا؟».

عقدت ليندا حاجبيها وقالت: «لا بُدَّ من أنه أخبرك؟ وإلا لما كنتِ هنا».

«أخبرني ماذا؟».

«ديفيد هو والد أناوند».

«أوه».

بلعت ريقِي وأنا أحاول استيعاب ما قالت له لتوها: «لا، لم يخبرني».

«يا إلهي، افترضت أنه أخبرك....».

دفنت ليندا وجهها بين يديها وأضافت: «لا أحد يعرف برابطة الدم تلك». «حقاً؟ لماذا؟».

«كان ديفيد يعاني من جنون العظمة بشأن سمعته في المدينة. لم يكن يريد أن يعرف أحد أن لديه ابناً غير شرعي. وبطبيعة الحال، كان متزوجاً عندما وُلد أنا، وكان لديه طفل من زوجته».

«حسنًا، هل يعرف إيس أن ديفيد هو والده؟».

«بالطبع يعرف، ولهذا السبب كان يحاول إرضاءه باستمرار. عندما سمع ديفيد بوفاة والدته أنا، أحضره إلى إنجلترا ليخفف من شعوره بالذنب، ووضعه في إحدى المدارس البريطانية المرموقة، ثم عرض عليه وظيفة في البنك، كما قلتُ، شريطة ألا يعرف أحد طبيعة قرابتهما».

«هل تقصدين أن ديفيد كان يخجل بطفله الخلاسي؟».

«كان يفتخر بأنه الرجل الإنجليزي المثالي. وكان دائماً يقدم نفسه على أنه رجل العائلة المثالي».

قلتُ في نفسي: يا إلهي! نحن في العام 2008، وما يزال هذا النوع من الأشياء يحدث.

«إذًا، كان إيس يفعل المستحيل لإبهار والده؟ حتّى إلى درجة الاحتيال؟».

«كان واضحًا منذ البداية أن أنا، موهوب مثلما كان والده في السابق، وهذا هو السبب الذي جعل ديفيد يوظفه. في غضون عامين، ارتقى في الرتب وأصبح أنجح تاجر في بيع الأسهم لدى بيرنرز. لم تكن هناك سوى ثلاث كلمات مهمة في قاعة التداول: الربح والربح والربح. وكان أنا، يكسب أكثر من الجميع».

«هل كان والده فخورًا به؟».

«نعم، إلى حدٍّ كبير، ولكن بعد ذلك تعرض أنا لحالة من سوء الحظ، وبدلاً من أن يتعامل مع الأمر بهدوء، أُصيب بالذعر. وهنا أظن أنه بدأ في الغش. المشكلة هي أنك، حتّى لو خاطرت مرة واحدة فقط لتغطّي خسائرك، فلا ينكشف أمرك

ويُقبض عليك، فإنك ستعيدين الكرة. يصبح الأمر إدمانًا، وكان أناند مدمنًا على مديح والده واهتمامه».

«يا له من أمر محزن». هزّزْتُ رأسي، وشعرتُ بالأسف على إيس. «ليندا، هل تعتقدين أن ديفيد كان يعرف ما كان يخطط له إيس؟ أقصد، لا بُدَّ من أنه كان يعرف؟ بعد أن رآه يخسر أموالًا كثيرة».

نهضت ليندا لتسكب لنفسها كأسًا أخرى من الشيري، ورشفت جرعة كبيرة. «الحقيقة هي أنني لا أعرف على وجه اليقين، لكن ما أعرفه هو أن على ديفيد أن يقف بجانبه الآن. إنه ابنه، يا للهول! ولن أتفاجأ على الإطلاق إذا كان ديفيد يعلم بالمشكلة التي وقع فيها أناند، فهو الرئيس التنفيذي. حتّى أنني تساءلت منذ ذلك الحين عما إذا كان قد دسّ لأناند بعض النقود لمساعدته على الاختفاء بشكل ملائم في تايلاند».

«يا لها من مصيبة».

«نعم، إنها كذلك. ولدي المسكين. أنا...». وامتلأت عينا ليندا بالدموع. «لم أنجب، لكنني أحببت أناند مثل ابني. كنت حاضرة من أجله عندما لم يكن والداه موجودين، وساعدته في تلك السنوات الصعبة من المراهقة».

«لماذا لم تذهبي لرؤيته في السجن؟».

«منعني ديفيد. أمرني بالابتعاد».

«لئلا يكتشف أحد طبيعة علاقتهم، أليس كذلك؟».

«نعم، على الرغم من عدم وجود دليل مكتوب؛ فاسم ديفيد ليس في شهادة ميلاد أناند».

شعرتُ بموجة من الغضب ترتفع في داخلي. «هناك تحاليل وراثية. أنا آسفة لقول ذلك، لكن ديفيد يبدو لي وغدًا حقيقياً. يحتاج إيس إلى كلّ الدعم الذي يمكنه الحصول عليه. إنه وحيد تمامًا، يواجه كلّ هذه المصاعب بمفرده».

قالت ليندا بنبرة حزينة: «أنتِ على حق بشأن ديفيد، لقد استغرق الأمر ثلاثين

عامًا لإزالة الغمامة عن عيني. كانت المشكلة أنني كنت أعشقه منذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها العمل مبتدئة على الآلة الكاتبة، وعندما وُظفني كمساعدة شخصية له، كان أسعد يوم في حياتي. لقد أعطيته كل شيء. أينما كنت، وفي أي وقت من النهار أو الليل، كنت حاضرة لترتيب شؤون حياته وتنظيمها. لا حياته فقط، بل أيضًا حياة تلك المرأة المتغطرة المتعالية التي تزوجها، وطفليه المدللين اللذين لم يقوموا بأي عمل جاد في حياتهما. كنت أحبه، كما ترين. يا لها من صورة نمطية! السكرتيرة التي تحب رئيسها. والآن، رمانى ورمى أنا. هل تعلمين أنه لم يملك الكياسة الدنيا ليخبرني بنفسه عندما خرج الإعلان عن تسريح العمال بعد أن اشترى جين تشيان البنك مقابل جنيه إسترليني؟ أرسلوني إلى قسم الموارد البشرية، جنبًا إلى جنب مع باقي الموظفين. في ذلك الوقت، كنتُ أرغب في خنق هذا الأحمق بيدي العاريتين».

«هذا لأنك تعرفين أشياء كثيرة».

«كنتُ الظل على كتفه، أذكره بما كان عليه حقًا. إنه والد أنا، يا سيسي. يجب أن يكون بجانبه في ساعة حاجته، وهو يعلم ذلك».

«هل فكرت يومًا في إخبار وسائل الإعلام بالحقيقة؟».

«بالطبع، لم أتوقّف عن التفكير في ذلك! أحلم برؤية وجه ديفيد عندما ينكشف!» ضحكت قليلًا وشربت ما تبقى من الشيري.

«إذا ماذا تنتظرين؟».

«أنا... لا أستطيع. لست شخصًا حقودًا. والحق لا يحقق أي شيء إيجابيًا، باستثناء إذلال ديفيد أمام الملاء».

«هذا كثير جدًا برأيي».

«لا يا سيسي. حاولي أن تفهمي أن الشيء الوحيد الذي بقي لي هو نزاھتي. ولن أسمح له بأن يفقدني إياها».

أصررت: «ولكن ماذا بشأن إيس؟ أفهم أنك تقولين إنه المسؤول الوحيد عن تلك الأفعال السيئة وإنه تصرف من تلقاء نفسه، ولكن بالتأكيد، إذا كان هناك

شخص يشرح للمحكمة لماذا حدث ذلك، فقد يكون ذلك مفيداً؟ في النهاية. لقد عرفته منذ أن كان صبيّاً صغيراً، وعملت في البنك، لذلك يمكنك أن تشهدني. أنا على استعداد لأن أكون شاهدة».

«هذا لطف منك يا عزيزتي. المشكلة هي أن تعويضاتي عن الفصل من العمل تعتمد على التزامي بالصمت. كان عليّ أن أوقع على بند أتعهّد فيه بعدم التحدث إلى وسائل الإعلام أو المحامي الذي يدافع عن أنا».

صرخت: «هذا ابتزاز يا ليندا!»

«أدرك ذلك، ولكن من دون أن أبدو أناية، فإن تعويضات الفصل من العمل هذه، هي كلّ ما لديّ بانتظار معاشي التقاعدي في غضون سبع سنوات».

«ألا يمكنك الحصول على وظيفة أخرى؟ يبدو أنك كنت مساعدة شخصية رائعة».

«أوه سيسي، أنت لطيفة يا عزيزتي، لكنني في الثامنة والأربعين من العمر. يريد الرؤساء نساء شابات، لا نساء مثلي، في منتصف العمر».

«ألا يمكنك أن تبتزّي ديفيد مجدداً؟ أقصد، لقد عملت معه طوال هذه السنوات. لا بُدّ من أنك تملكين ضده بعض الأشياء».

«بالتأكيد. هناك أشياء كثيرة يمكنني أن أصرّح بها للصحف. في البداية علاقاته الغرامية التي لا تنتهي، فأنا التي كنت أعطي غيابه عندما تتصل زوجته بالمكتب، كذلك إسرافه المذهل. هل تعلمين أنه في اليوم الذي كان على وشك بيع بنكه الثمين مقابل جنيه إسترليني، أرسلني إلى هاتون غاردن لاستلام لؤلؤة كان يبحث عنها منذ سنوات. كان قد تعقّبها، وبعد أن وجدها أخيراً، شحنها إلى لندن بطائرة خاصة. حملت مليون جنيه إسترليني نقداً في سيارة أجرة سوداء لمقابلة الوسيط. كان ديفيد مثل طفل في يوم عيد الميلاد عندما عدت إلى مكتبه ومعني اللؤلؤة. شاهدته يفتح الصندوق ويخرج اللؤلؤة. رفعها إلى الضوء، وأعترف بأنها كانت ضخمة ذات لون وردي جميل، لكن ديفيد بدا وكأنه يحبها أكثر من أي إنسان على وجه الأرض».

بلعت ريقى بصعوبة، ثم حدّقت إلى ليندا وأنا مصدومة. لا. هل يمكن أن تكون اللؤلؤة التي أتخيلها...؟ «حسنًا، من أين أتت تلك اللؤلؤة؟ هل تعلمين؟»

«من أستراليا. من الواضح أنها كانت مفقودة منذ سنوات».

«هل... هل ذكر ديفيد اسمها؟».

«نعم، اللؤلؤة الوردية. لماذا؟».

تجد الأرواح الرجال الجشعين وتقتلهم...

«أوه، لا شيء».

شعرت برغبة شديدة في الضحك بشكل هستيري، لكن ليندا لن تفهم، لذا تمالكْتُ نفسي. «يجب أن أذهب الآن، ولكن لماذا لا تأخذي رقمي لكي نبقي على اتصال؟».

«نعم، أود ذلك».

تبادلنا الأرقام، ثم نهضتُ واتّجهتُ بسرعة إلى الباب الأمامي قبل أن ينفجر الغضب في داخلي.

قالت وهي تضع يدها على ذراعي: «لقد كان من الجيد التحدّث إلى شخص يفهم أنا، ويهتمّ به مثلي، شكرًا لمجيئك».

«من فضلك، ليندا، حتّى لو لم تتمكّني من الذهاب إلى المحكمة للدفاع عنه، فكّري في الذهاب لرؤيته في السجن. إنه يحتاج إليك. أنتِ... حسنًا، في الأساس، والدته».

«نعم، أنتِ على حق. سأفكر في الأمر يا عزيزتي. وداعًا».

في الخارج، مشيتُ حتّى وجدتُ مساحة خضراء. جلستُ على مقعد وأطلقتُ ضحكة غير لائقة، لكنني لم أقوَ على منع نفسي. إذا كانت اللؤلؤة الوردية الملعونة هي التي اشتراها والد إيس، فلم يكن من الممكن أن تذهب إلى منزل أكثر استحقالًا. ليس لأنني تمنيت أن يموت، بالطبع... حسنًا، ليس كثيرًا، على أيّ حال.

ارتجفتُ من البرد ومددتُ يدي إلى هاتفي لأتصل بسائق التاكسي. عندما

وصلت السيارة، صعدت إلى الداخل، واتّصلت بالسجن لكي أحجز موعدًا لزيارة أخرى.

عندما وصلتُ إلى المنزل، أدركتُ أنني شعرتُ براحة أكبر حيال الوضع الذي يمر به إيس. كان لديّ شعور أقوى بأن الأسلاف كانوا يسيطرون على كلّ شيء، وأن مصير ديثيد روتر قد حُدد وبات محتمًا.



ذهبتُ لاستقبال «ما» في مطار هيثرو، وانتظرتها حتى خرجت من صالة الوصول. بدت أنيقة على الرغم من رحلتها الطويلة. اندفعتُ وسط الحشد نحوها وعانقتها بقوة.

قالت وهي تقبّلني على وجنتيّ: «تبدّين رائعة يا حبيبتي!».

«شكرًا، أشعر بأنني بحالة جيّدة جدًّا».

شبكت ذراعي بذراعها. أخذنا سيارة أجرة إلى باترسي، وقدتها إلى شقّتي.

وقفت «ما» في وسط غرفة الجلوس ولوّحت بذراعيها للإشارة إلى المساحة الهائلة: «يا إلهي! مذهل حقًّا».

«إنها رائعة، أليس كذلك؟».

«نعم، لكن ستار أخبرني أنك ستبيعينها».

«لا، لم تعد للبيع. أخبرني وكيل العقارات أن أسعار الشقق قد انخفضت منذ أن اشتريتها، لذا سأؤجرها. لقد اتّصل بي اليوم وقال إنه وجد مستأجرين. هل يمكنني أن آخذ معطفك؟».

«شكرًا لك».

خلعته وأعطته لي، ثمّ جلست ومسدّت تنورتها التويد. بدت في غاية النظافة كما كانت دائمًا.

«هل يمكنني أن أحضر لك كوبًا من الشاي؟».

«بكل سرور. فأنا أرفض تناول أيّ شيء على متن الطائرة».

قلتُ وأنا أتجه لتشغيل الغلاية: «لا ألومكِ، على الرغم من أنني لا أحذو حذوكِ، وإلا كنتُ لأموت من الجوع قبل أن أصل إلى لندن».

«ما زلت لا أصدق أنكِ قمتِ بكل هذه الرحلات بمفردكِ. أعلم كم تكرهين الطيران. أنا فخورة بكِ يا حبيبتي».

«حسنًا، في الحياة ينبغي أن نواجه مخاوفنا، أليس كذلك؟».

«نعم، لقد أحرزتِ تقدّمًا مذهلاً».

«أحاول فحسب».

قدّمتُ لها كوبًا من شاي دارجيلنغ المفضّل لديها، وجلست بجانبها على الأريكة.

«من الرائع رؤيتكِ. شكرًا على مجيئكِ يا ما».

«حسنًا، حتّى لو لم أتلّق دعوة ستار إلى إنجلترا، لما كنتُ لأسمح لكِ بالذهاب إلى أستراليا من دون أن أزوركِ. أنا سعيدة جدًّا لأنني أتيت. ومن الجيد أن أكون بعيدة عن أتلانتس لبضعة أيام. لذا، أخبريني بكل شيء».

«هناك أشياء كثيرة لأخبركِ بها».

«لدينا الوقت. ابدأي وحسب».

أخبرتها، على الرغم من أنني شعرت بالحرَج في البداية، فقد أدركتُ أنني كنتُ وحدي مع ما، بلا ستار بجانبني. لكنها خطوة كان عليّ أن أتخذها بعد أن أصبحتُ شخصًا مستقلًّا. كانت ما أفضل مستمعة يمكنني أن أتمناها. كانت تأخذ يدي بيدها عند الأخبار العاطفية من القصة، وهو أمر جيد، فقد كانت كثيرة.

قالت ما: «يا إلهي، لقد كانت رحلة رائعة، يا حبيبتي. أود أن ألتقي جدّك».

«إنه مميّز، نعم».

توقّفت، لأنني كنت بحاجة إلى إيجاد الكلمات المناسبة وعدم الشعور بالحرَج

في استخدامها: «كما تعلمين، يا ما، لقد دفعتني كل هذه الأشياء - ما مررت به أنا وستار ومايا وآلي - إلى أن أفكر حقًا». «حقًا؟»

«نعم. أفكر في ما تمثله صلة القرابة بالفعل. ما أريد قوله، هل تبقى رابطة الدم هي الأهم والأقوى؟». «وما هو رأيك أنتِ، يا حبيبتي؟».

«كان رائعًا حقًا أن ألتقي جدي، لكنه وبكل بساطة فرد إضافي إلى عائلتي. لم أكن أحتاج أو أريد استبدال نسخة جديدة بكما، أنت ويا. مثل صديقي إيس الذي يقبع في السجن؛ كانت لديه أم في تايلاند يحبها حقًا، لكنها ماتت. ثم وجد أمًا أخرى، بالمصادفة، وهي التي رعته واعتنت به، كما تفعلين معنا جميعًا». «شكرًا لكِ، يا حبيبتي. أحاول أن أبذل قصارى جهدي».

هذه المرة، كنتُ أنا التي أمدّ يدي إليها: «ما... ألم يكن من الصعب عليك أن تري إحدانا تذهب إلى أقاصي الأرض لتجد عائلتها الأخرى؟ في النهاية، أنتِ التي ربّيتنا مُذْ كُنَّا أطفالًا».

«آه، سيسي، هل تعلمين أنكِ الوحيدة التي فُكِّرْتُ في أن تطرح عليّ هذا السؤال؟ أقدر ذلك، يا حبيبتي. ونعم، أنتِ على حق. لقد رأيتكُن تكبرن، وكان لي شرف الثقة التي منحني إياها يا. بالنسبة إلى أيّ والد، من الصعب أن يرى صغاره يطيرون من العش، ويجدون أو يؤسسون عائلات جديدة. لكن حقيقة أننا نجلس هنا معًا، وأنتِ أردتِ رؤيتي، تكفيني حقًا».

«سأرغب دائمًا في رؤيتكِ يا ما، أنتِ... رائعة!».

تبادلنا النظرات، غير متأكّدين إذا كان ينبغي أن نضحك أم نبكي، فقرّرنا أن نضحك. ثم عانقتهما وأرحتُ رأسي على كتفها كما كنتُ أفعل عندما كنتُ طفلة صغيرة.

نظرت إلى هاتفي ورأيت أن الساعة تجاوزت التاسعة مساءً، ولا بُد من أن تكون ما قد جاعت. اتّصلتُ لأطلب طعامًا جاهزًا، وتناولنا الكاري التايلاندي اللذيذ.

سألت ما: «إِذَا، ستسافرين إلى أستراليا يوم الأربعاء؟».

«نعم». ثم قلتُ فجأة: «هل يمكنني أن أسألك شيئاً؟».

«بالطبع يا حبيبتي».

«هل تعتقدين أن يا قد اختارنا لسبب خاص، أم كان اختياره لنا عشوائياً؟ أقصد، كما في حالتي، كيف حدث أن كان في بروم بعد فترة وجيزة من ولادتي وحاجتي إلى منزل؟».

وضعت ما ملعقتها وشوكتها. «اسمعي يا حبيبتي، لو كنتُ أستطيع الإجابة عن سؤالك لما ترددتُ. كما تعلمين، كان والدك يسافر كثيراً ولا أعرف إن كان لديه سبب محدد. كل طفلة جاءت إلى أتلانتس كانت مفاجأة بالنسبة إليّ، وخصوصاً أنتِ، فقد وصلت بعد ستار بستة أشهر فقط». أومأت برأسها، وأخذت رشفة من النيذ.

«هل كنتُ مفاجأتكِ الأكبر حقاً؟».

ابتسمت وقالت: «لقد كنتِ كذلك. وأعتقد أننا نحن البشر، نتمنى أن نعتقد بوجود سبب ما. وربما يكون هذا السبب موجوداً، لكنه ليس دائماً من صنع الإنسان».

«هل تقولين إنه القدر، أم إنها قوة عليا، هي التي توجّهنا وتقودنا إلى مصائرنا؟».

«بالضبط. أنا أؤمن بذلك. وعلى أيّ حال هذا ما حدث لي».

أخرجت منديلها ومسحت فمها، ثم عينيها خفية، وقبل أن تأخذ نفساً عميقاً، همست: «لطف الغرباء». هل تسمحين لي بالذهاب إلى الفراش؟ لقد أخبرتني ستار أن سهرتنا طويلة غداً».

«هل تقصدين الحفلة التي ستقام لأحد أقرباء ستار؟».

«نعم، وبالطبع حفلة وداعكِ».

«أوه، نعم». كنت منشغلة إلى الحدّ الذي أنساني أنني أغادر، وإلى الأبد، في غضون أربع وعشرين ساعة.

تابعت ما: «وسألتقي ماوس للمرة الأولى، هل التقيتَه من قبل؟».

«نعم، مرة واحدة. كان... لطيفًا. أنا حقًا سعيدة بسعادة ستار».

في غرفة النوم الاحتياطية التي لم ينم فيها أحد من قبل، شعرت بغربة شديدة عندما كنت أري ما مكان المناشف وكيفية عمل الدش، وكأنني الشخص البالغ وهي الطفلة.

«شكرًا لك يا سيسي. لقد كنتِ مضيضة رائعة، وآمل أن آتي ذات يوم لزيارتكِ في أستراليا».

«بالطبع، سأدعوكِ. تستطيعين المجيء متى تشائين يا ما».

«تصبحين على خير يا حبيبتي». قبلتني على وجنتي وقالت: «نامي جيدًا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

في اليوم التالي فاجأت ما باستيقاظي باكراً. تناولنا وجبة الفطور، ثم تركتها تحضر لحفلتها المسائية وركبت الحافلة إلى سجن وورمود سكرابز.

بدا إيس مستاءً وهو يتهالك على الكرسي البلاستيكي المقابل. قال بنبرة عدائية وهو يعقد ذراعيه على صدره: «أعتقد أنني طلبت منك أن تتركيني وشأني».

أجبت: «حسنًا، مرحبًا بك أيضًا. أراهن أنك لن تعرف بمن التقيت أمس».

«سيسي، لا تقولي إنك...».

«نعم، لقد وجدت ليندا، وتحذثنا، وهي تحبك كثيرًا. لقد أخبرتني بالحقيقة عن والدك، و... هل كان على علم بما كنت تفعل؟ لأنه إذا كان يعلم، فبالتالي...».

«كفى! أنت لا تعرفين عن أي شيء تتحدثين». رفع عينيه المحتقتنين بالغضب إلى السماء وأضاف: «الأمر أكثر تعقيدًا مما تتخيلين».

«أعرف. لقد أخبرتني ليندا أن ديفيد هو والدك، ولا أرى أي تعقيد في ذلك. وينبغي أن يكون بجانبك، بصفته والدك ورئيسك السابق، وأنا أعتقد أنه كان يعلم، وأنك تحميه، ولا أجد ذلك منصفًا!».

نظر إليّ إيس ومدّ لي منديلًا. لم أنتبه إلى أنني كنت أبكي. قال بنبرة رقيقة: «اسمعي يا سيسي، لقد فكرتُ طويلًا منذ وصولي إلى هنا، وعندما كنتُ معك في تايلاند. كنتُ أعلم أن عليّ أن أواجه عواقب أفعالي ذات يوم، عاجلاً أو آجلاً، وهذا هو ما أفعله الآن. وسواء كان ديفيد روتر يعلم أم لا، فأنا المسؤول. أنا الذي ضغطتُ على مفاتيح الكمبيوتر ومررتُ تلك الصفقات غير المشروعة. كما اكتشفتُ أن... ديفيد لم يحبني، أو يهتم بي يومًا. وللأمانة، وحده المال كان يهّمه».

قلتُ بحماسة: «أوافقك على ذلك».

«إِذَا، لقد جعلني هو، وما فعلته، أدرك بالضبط من أصبحتُ ومن لا أريد أن أكون. بمعنى آخر، لقد أنقذتني هذه التجربة. قال لي مستشاري إنني أستطيع متابعة دراستي وتحصيلي العلمي في السجن. أعتقد أنني سأتجه إلى الفلسفة واللاهوت. لم أتجاوز الثامنة والعشرين من العمر، ولديّ الوقت الكافي لأصنع حياة جديدة مختلفة عندما أخرج من هنا».

أعجبتُ بالطريق الذي قطعه فقلتُ: «إنه موقف إيجابي».

«في الحقيقة، أعرف أنك لم تشي بي يا سي سي. لقد تحقّقت من الصورة على الإنترنت، واكتشفت أن حقوق النشر والطباعة تعود إلى شخص يُدعى «جاي». كتبتُ على حق، وأرجو أن تسامحيني لأنني اعتقدتُ أنك أنتِ التي سربتِها للصحافة. احتفظ بكثير من ذكرياتنا الجميلة على شاطئ فرا نانغ، وأتمنى أن تبقى كذلك».

«أنا أيضًا. اسمع، غداً أسافر إلى أستراليا حيث سأستقر بشكل دائم. عندما تخرج من السجن، أتمنى أن تأتي لزيارتي. ربّما يمكنك أن تبدأ حياة جديدة هناك. إنها أرض الفرص، أتذكر؟».

«من يدري؟ سنظل على اتصال بالتأكيد. بالمناسبة، هل عرفتِ مزيداً عن كيتي ميرسر؟».

«بل أكثر. لقد وجدتُ عائلتي».

«إِذَا، أنا سعيد من أجلك يا سي سي. أنتِ تستحقّين». ولأول مرّة، أضاء وجهه بابتسامة كاملة.

«اسمع، يجب أن أغادر الآن، لكنني سأرسل لك عنواني الجديد بمجرد أن أستقر».

نهضتُ فأمسك بيدي: «وعد؟».

«وعد. أوه، وبالمناسبة، لا تقلق بشأن والدك. لديّ شعور بأنه سينال كلّ ما يستحقّه».



صرفتُ فترةً ما بعد الظهر في تعبئة أشياءي في أكياس القمامة، التي قالت ستار إنها ستخزنها في هاي ويلد. ثم خرجتُ لشراء الأشياء التي أعرف أنني لا أستطيع الحصول عليها في أليس سپرينغر، مثل فاصولياء هاينز، وشوكولا كادبوري بالفواكه والمكسّرات. كان من المقرّر أن تأتي ستار ووالدتها وماوس إلى الشقة في الساعة السادسة لوداعي وتناول كأس، قبل التوجّه إلى إيست إند. وكنتُ قد أنفقتُ مالاً كثيراً على ثلاث زجاجات من الشمبانيا والبيرة للاحتفال كما ينبغي.

عندما وصلتُ إلى المنزل، محمّلةً بأكياس التسوّق، رأيتُ أن ما قد حلّت محل ستار، وكانت ترتدي مئزرها الأبيض، مربوطاً بعناية حول خصرها. استقبلتني عند الباب بنظرة يائسة.

«يا إلهي! هل يوجد محل حلويات قريب؟ لقد فشلت في صنع المعجنات». وأشارت إلى بعض المعجنات الغريبة - الفنية في الواقع - التي بدت وكأن أحدهم داس عليها.

«لا بأس يا ما. لقد اشتريت رقائق تورتياس وصلصة من المتجر».

«أوه، سيسي. أنا محرّجة للغاية! لقد كشفتني». جلست إلى طاولة المطبخ ودفنت وجهها بين يديها.

«كشفتكِ؟».

«نعم! صحيح أنني فرنسية، ومع ذلك، فإن أيّ شيء أطبخه يتحوّل إلى كارثة! الحقيقة هي أنني كنت أختبئ خلف كلوديا طوال هذه السنوات. لو تركت لي مهمة إطعامكنّ، لمتنّ جوعاً، أو تسمّمتنّ!».

«بصراحة يا ما، لا يهمّ. نحن نحبك على أيّ حال، حتّى لو كنت طاهية فاشلة. كلُّ منّا لديها نقاط قوة ونقاط ضعف، هل تذكرين؟ هذا ما كنتِ تقولينه لنا دائماً». أفرغتُ رقائق التورتياس في وعاء ووضعت الشمبانيا والبيرة في الثلاجة.

«نعم. أنتِ محقّة يا حبيبتي، يجب أن أتقبّل عيوبِي».

رأيتُ أنها بحاجة إلى المواساة، فعانقتها. قالت وهي تمسّد شعري: «أوه، سيسي. من بين بناتي الست، أعتقد أنني أفخر بك أكثر منهنّ جميعاً».

«لماذا؟».

«لأنك تعرفين كيف تكونين نفسك. والآن، سأصعد إلى الطابق العلوي وأستعد للحفل».



وصل الجميع بعد الساعة السادسة بقليل، ورأيت أن والدتي ستار، سيلفيا، كانت نسخة أكبر من ستار سناً، بملابس أكثر كلفة. كانت لطيفة حقاً، وقبل أن تعانقني، قالت إنها سمعت كثيراً من الأشياء الجيدة عني.

همست لي: «شكراً لك على رعايتها عندما لم أكن قادرة على ذلك».

لقد أحببتها على الفور، وكنت سعيدة لأن ستار أصبح لديها من يحبها كما أحببتها أنا.

كان ماوس جافاً وقاسياً كعادته، وقررت أنه إذا كنت سأختار السيد دارسي في رواية جين أوستن التي كانت ستار تتحدث عنها طوال الوقت، فسأختاره بالتأكيد. أعترف أنه كان وسيماً، لكنه كان متعجباً قليلاً، على غرار معظم الأرستقراطيين الإنجليز الذين قابلتهم. ثم تذكرت أنني من الناحية التقنية كنتُ أنحدر من أرستقراطي إسكتلندي أيضاً، وشعرتُ معه بالراحة إلى حدٍّ ما.

راقبت ما بينما كانت سيلفيا تقترب منها، وتساءلت كيف كانت تشعر حيال ذلك. ثم أغمضت عيني وتخيلت قلباً بشرياً ينبض. رأيته يتوسع بحيث يحتضن كل الأشخاص الجدد الذين كنت أحبهم. وأدركت أن القلب لديه قدرة لا نهائية على التوسع. وكلما امتلأ، نبض في صدرك بصحة وفرح. والأفضل من ذلك كله، أنني شعرتُ بالحاجة إلى حكا أصابعي، وعرفت من فوري مصدر الإلهام للوحتي التالية. استعدتُ وعيي عندما ضغطت ما على كأس من الشمبانيا في يدي. لاحظتُ أن الجميع هداوا والتفوا حولي، وهم يتحدثون إليّ بترقب.

كنت لا أزال ذاهلة. وجاءت ما لتتقذني. بدأت القول: «أود فقط أن أقول إنني فخورة بك، يا سيسي، على الشوط الذي قطعته في رحلتك. حبيبتي، أنتِ

موهوبة وشجاعة، وصادقة القلب. آمل أن تمنحك أستراليا كل ما كنت تبحثين عنه. سنفتقدك جميعًا، لكننا ندرك أن حمامتنا الصغيرة يجب أن تطير. رحلة سعيدة!». ردّد الجميع «رحلة سعيدة» وارتفعت هتافاتهم وطقّت كؤوسهم. بقيت في الخلف أراقبهم؛ مجموعة منتقاة من الذين جمعهم الحب معًا. وسأظل دائمًا جزءًا من هذا النسيج البشري، حتّى لو كنتُ على وشك أن أطير إلى الجانب الآخر من العالم.

لكزنتي ستار: «هل أنت بخير؟».

«نعم، أنا بخير. بالمناسبة، عائلتك رائعة.

أمسكها ماوس من مرفقها وقال: «يجب أن نغادر الآن وإلا سنتأخّر. آسف، يا سيسي».

نظرت ستار إليّ بحزن وقالت: «حسنًا، سي، هل أنت متأكّدة من أنك لا تريدين حضور الحفلة معنا؟».

«لا تقلقي بشأنّي، حقًا. أحتاج إلى القيام ببعض الترتيبات النهائية والتوضيب. إنه مجرد توقيت سيئ».

عصّت ستار على شفيتها عندما أعطاهما ماوس معطفها. «يجب أن أبقى معكِ الليلة. أوه، سي. ليس لديّ أي فكرة متى سنلتقي ثانية. جاءت سيلفيا لتودّعني وتتمنّى لي حظًا طيبًا، ثم جاء دور ما. «وداعًا يا عزيزتي. عديني أن تعتني بنفسك جيّدًا، وأن تبقي على اتصال؟».

عانقتني ما، ورأيت كتفي ستار تهتزّان تحت معطفها، ثم همّت بالعودة نحوي. «سنتأخّر يا حبيبتني».

أمسك ماوس بذراعها وقادها بحزم نحو الباب. قال: «وداعًا، يا سيسي».

أشارت لي ستار من المدخل: «أحبكِ».

أشرتُ بدوري: «وأنا أحبكِ».

انصفق الباب خلفها، وبذلتُ قصارى جهدي لكي لا أصرخ. وكرهتُ ماوس لأنه لم يتح لنا وداعًا مناسبًا.

وضعتُ الأكواب والأطباق في الغسالة، وأنا مسرورة بإلهاء نفسي، ثم ذهبت إلى الاستوديو وفككت توليفتي. أخذتها قطعة قطعة ورميتها في حاوية القمامة خارج المبنى.

قلتُ للسيد غاي فوكس، «وداعاً» وأنا أحشره في الحاوية وأغلق الغطاء. في الطابق العلوي من الشقة، سقيتُ نباتات ستار للمرة الأخيرة. كانت قد أعادت لي مفتاحها في وقت سابق، وتوسلت إلي أن أتأكد من أن المستأجرين الجدد سيعتنون بـ «أطفالها»، كما كانت تسميها.

تممتُ وأنا أجول في الشقة: «هذه حقاً نهاية حقبة».

ذكّرني الصمت بالسبب الذي جعلني أذهب إلى أستراليا في المقام الأول. ارتديتُ كنزتي، وتحديتُ هواء الليل البارد في الشرفة. فكّرتُ في ليندا والحياة التي لم تعشها؛ وكيف قضت حياتها في حبّ شخص لم يحبها، ولن يحبها أبداً، وشعرتُ بقليل من التحسّن، لأنني على عكسها، كان لديّ مستقبل أسعى إليه مع أشخاص يحبّونني. كنت ما أزال غير متأكّدة ممّا يخبئه هذا المستقبل، لكنه كان هناك لأكتبه. أو بالأحرى، لأرسمه.

نظرتُ إلى السماء ورأيتُ مجموعة صغيرة من النجوم اللبّنية وفكّرتُ في مدى سطوع الشقيقات السبع فوق أليس. وطني الجديد.



عندما وصلت سيارة الأجرة في الخامسة من صباح اليوم التالي، كانت السماء ما تزال مظلمة بشكل كئيب. في النهاية، لم أزعج نفسي بالذهاب إلى الفراش، على أمل أن يساعدني ذلك على النوم في الطائرة لاحقاً. بينما كنّا نبتعد عن شقّتي، وصلت رسالة نصّية إلى هاتفي.

سيسي، هذه ليندا پوتر. فكّرت كثيراً، وقرّرت زيارة أناوند. لقد كنت محقّة،

فهو يحتاج إلى مساعدتي، وسأفعل ما في وسعي. باركك الله، ورحلة آمنة إلى أستراليا.

انتابني شعور بالارتياح والفخر، لأنني غيّرت رأي ليندا. أنا، بكلماتي الخرقاء... تمكّنتُ من إحداث فرق.

سجّلتُ حقائبي الثلاث في مطار هيثرو وتوجّهتُ إلى مدخل الأمن، متسائلة إن كنت سأتذكّر هذه اللحظة حتّى آخر يوم في حياتي، لأنها كانت بالغة الأهمية. ثمّ فكرتُ في أن اللحظات الكبرى لم تكن هي التي أتذكّرها؛ بل كانت الأشياء الصغيرة العشوائية التي تحدث بفعل كيمياء غريبة، هي التي تعلق في ذهني.

بحثتُ في جيب حقيبتي عن بطاقة الصعود إلى الطائرة. وبيدي، مسّدت على المغلف البني الفاتح الذي كان يحتوي ذات يوم على أدلة ماضي.

«يا إلهي!».

تنفست الصعداء وأنا أسلم الموظفة بطاقة صعودي إلى الطائرة. شعرتُ وكأنني أشاهد إعادة لما حدث قبل شهرين تقريباً.

أومأت المرأة إليّ برأسها وهي تأخذ البطاقة، وبدت نصف نائمة، إذ لم تبلغ الساعة السابعة صباحاً بعد. كنتُ على وشك المرور عندما سمعتُ صوتاً خلفي.

«سيسي! توقفي!». كنتُ متعبة جداً وظننتُ أنني أحلم.

«سيلينو دابلييز! توقفي! توقفي!». التفتتُ ورأيت ستار.

«يا إلهي، سي!». كانت ستار تلهث عندما وصلت إلى جانبي.

«ظننتُ أنني لن أجدك. لماذا لم تردّي على هاتفك؟».

قلتُ: «أغلقتُ الهاتف عندما نزلتُ من سيارة الأجرة، ماذا تفعلين هنا؟».

«لم أودّعكِ بشكل لائق الليلة الماضية. ولم أستطع أن أدعكِ ترحلين من دون أن أعانقكِ بحرارة وأخبركِ بمدى اشتياقي إليك، و...». مسحت ستار أنفها بكُمّها.

«وأقول لك شكراً على كلّ ما فعلته من أجلي».

ألقت بذراعيها حولي واحتضنتني بقوة أكثر من أيّ وقت مضى، وكأنها لا

تستطيع أن تتحمل فراقى. وقفنا هكذا لبعض الوقت، ثم ابتعدتُ، وأنا أعلم أنني لو لم أبتعد، لبقيت هناك مزروعة إلى الأبد.

تمتمتُ بصوت أجش مفعم بالعاطفة: «من الأفضل أن أذهب. شكرًا على مجيئك».

«سأكون دائمًا بجانبك، يا سي الحبيبة».

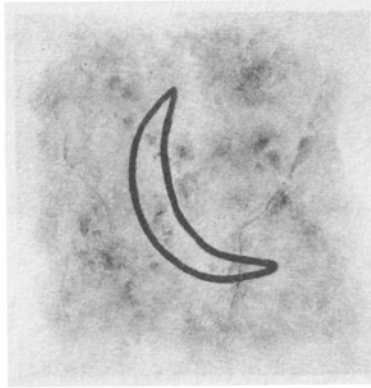
«وأنا أيضًا. وداعًا يا سيا».

«وداعًا. إبقى على تواصل، وعديني بالعودة إلى أتلانتس في شهر حزيران بمناسبة الذكرى السنوية الأولى ليا».

«بالطبع سأعود».

أعطيتها قبة أخيرة، ثم استدرتُ ومشيتُ إلى مستقبلي.

تيفيو
مرتفعات إسكتلندا
كانون الثاني 2008



رمز القمر في ثقافة السكان الأصليين

قال لي كال وهو يتأمل السماء الزرقاء اللطيفة من نافذة كوخنا، حيث كانت أشعة الشمس في منتصف النهار ترش طبقة لامعة من الثلج تغطي الأرض طوال فصل الشتاء: «هل أنت متأكدة من الخروج ثانية، يا تيغي؟ هناك عاصفة ثلجية قادمة». كان المنظر مثاليًا لبطاقات عيد الميلاد.

«نعم! لا يمكننا أن نخاطر، يا كال، أنت تعلم أننا لا نستطيع».

تمتم كال: «أشك في أن رجل الثلج البغيض نفسه قد يفكر في الخروج هذا المساء».

توسلت إليه: «لقد وعدتني بأننا سنراقب. انظر، سأخذ الراديو وأتصل بك إذا واجهت أي مشكلة».

هدر كال في وجهي، وكانت قسمات وجهه الحمر تظهر انزعاجه الشديد: «تيغي، هل تعتقدين حقًا أنني سأترك فتاة صغيرة مثلك تجلس بمفردها في عاصفة ثلجية بينما يجول صياد جائر غير مشروع ببندقية في العقار؟ لا تكوني حمقاء».

ثم أضاف بعد أن استسلم على مضض: «بضع ساعات فقط، أتفهمين. بعد ذلك، سأسحبك إلى المنزل من شعرك إذا اضطرني الأمر. لن أكون مسؤولاً عن إصابتك بانخفاض حرارة مرة أخرى. هل فهمت؟».

أجبت بارتياح: «شكرًا يا كال، أعرف أن بيغاسوس في خطر. أنا... أعرف ذلك».



كان الثلج قد تساقط بكثافة، وانحنى تحت ثقله سقف القماش المشمع الذي كنا

نحتمي تحته. تساءلتُ إن كان سينهار تمامًا وسُدفن أحياءٌ تحت طبقة هائلة من الثلج.

قال كال: «سنغادر الآن، يا تيغي، أنا خدر ومتجلّد حتّى أحشائي وسوف نعاني كثيرًا في طريق العودة بالسيارة. لقد هدأت العاصفة قليلًا، ويجب أن نعود إلى المنزل ما دمنا نستطيع».

أخذ كال رشفة أخيرة من القهوة الفاترة ثمّ عرضها عليّ. «اشربي الباقي. سأذهب لأزيل الثلج عن الزجاج الأمامي وأشغّل التدفئة». أدركتُ أن لا جدوى من الجدل. تنهّدت وقلتُ: «حسنًا».

بقينا جالسين في ملجئنا لأكثر من ساعتين، ولم نشاهد سوى الثلج وهو يتساقط على الأرض. غادر كال واتّجه نحو سيارة اللاند روفر، المركونة خلف نتوء حجري في الوادي خلفنا. نظرتُ من نافذة الملجأ الصغيرة بينما كنت أحتسي القهوة، ثمّ أطفأتُ المصباح وزحفتُ إلى الخارج. لم أكن بحاجة إلى مصباحي اليدوي لأن السماء كانت قد صفت وأصبحت متألّئة بآلاف النجوم، وكان درب التبانة مرئيًا بوضوح فوقيّ. أشرق القمر، الذي كان في طور الاكتمال، وأضاء غطاء الأرض الثلجي الأبيض.

كان الصمت المطبق الذي تلى تساقط الثلوج عميقًا مثل السجادة المتألّئة التي غاصت فيها قدمي ومعظم ساقي. بيغاسوس.

ناديته بصمت، وأنا أبحث عنه في كتلة أشجار البتولا التي تميّز المكان الذي نلتقي فيه عادة. كان وعلاً أبيض رائعًا، لاحظته للمرة الأولى عندما انضممت إلى كال في جولاته حيث كان يحصي غزلان المحمية. كان بيغاسوس يرقى مع مجموعة من الوعول الحمر، وظننتُ في البداية أنه لم ينفذ الثلج عن جسده بعد. كنتُ قد نبتّه كال وأشرتُ إلى المكان، ولكن بحلول الوقت الذي ركّز فيه المنظار، كان القطيع قد تحرّك إلى أعلى التل، واختفى المخلوق الغامض النادر جدًّا الذي كان يركض في مكان ما بين أفراد القطيع.

لم يصدّقني كال. قال: «الوعول البيض تشبه الصوف الذهبي، يا تيغ؛ الجميع يبحثون عنها. لكنني عشت في هذه المنطقة طيلة حياتي ولم أر جلد أحدها».

ضحك، وصعد إلى سيارة اللاند رووفر وانطلقنا.

لكنني كنتُ أعلم أنني رأيتُ الوعل، لذا عدتُ إلى الغابة مع كال في اليوم التالي، وكلما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً.

كوفئ صبري أخيراً عندما جلسْتُ القرفصاء خلف غابة من نبات الغرنوق ووجّهتُ منظاري نحو أشجار البتولا. ثم رأيتُه يقف بعيداً عن الآخرين على يساري مباشرة، ربما على بعد ثلاثة أمتار مني.

همست «بيغاسوس»، ووصل هذا الاسم إلى لساني وكأنه كان يلتصق به دائماً. ثم، كما لو كان يعرف أن هذا هو اسمه، رفع رأسه ونظر إليّ. حافظنا على تواصلنا البصري قرابة خمس ثوانٍ قبل أن يصل كال إلى جانبي ويجدّف بصوتٍ عالٍ وقد أدهشه أن «شطحات خيالي» كانت حقيقية بالفعل.

كانت تلك اللحظة بداية قصة حب؛ كيمياء قوية وغريبة ربطتنا. كنتُ أستيقظ عند الفجر، عندما أعلم أن القطعان ما تزال تحتمي من الرياح العاتية في قاع الوادي، وأقود سيارتي إلى مجموعة الأشجار التي توفر حماية ضئيلة من البرد القارس. في غضون بضع دقائق، كما لو كان يشعر بوجودي، كان بيغاسوس يأتي إليّ. في كلّ مرّة، كان يخطو أقرب، وكنتُ أحذو حذوه. كان قد بدأ يثق بي، وفي الليل كنتُ أحلم بأنني، ذات يوم، سألمس عنقه الرمادي المخمليّ، لكن...

في ملجأ الحيوانات القديم الذي كنتُ أعمل فيه سابقاً، كانت قدرتي الطبيعية على التواصل مع الغزلان الصغيرة اليتيمة، أو المصابة التي تأتينا لرعايتها إلى أن تستعيد صحتها، بمنزلة امتياز. هنا في كينارد، كانت الماشية برية، تعيش كما أرادتها الطبيعة وتجول في المحمية التي تبلغ مساحتها اثني عشر ألف هكتار خالية من البشر. ما عدا التحكّم في عدد القطعان بالإعدام الانتقائي المنظم لكلّ من الغزلان والأياثل.

خلال موسم الصيد، كان رجال الأعمال الأثرياء يأتون إلى المحمية، في رحلات

تنظّمها الشركات السياحية، ويدفعون أسعارًا خيالية لتفريغ عدوانيتهم في تجربتهم الأولى للقتل، ثم يعودون إلى منازلهم بجمجمة وعل يعلّقونها على الجدران كمكافأة لانتصاراتهم التافهة.

كان كال الحارس الرسمي للمحمية يخفي حبًا حقيقياً للبرية الطبيعية التي ناضل من أجل حمايتها. وعندما دخلت للمرة الأولى إلى مخزن المحمية لأجد أربعة أيائل ملطّخة بالدماء، مسلّخة ومعلّقة من حوافرها، بذل قصارى جهده ليواسيني. قال بأسلوبه الخشن ولهجته الإسكتلندية القوية: «لقد انقرضت الحيوانات المفترسة يا تيغ، يجب علينا نحن البشر أن نأخذ مكانها. إنه النظام الطبيعي للأشياء. أنتِ تعلمين أن أعداد الغزلان يجب أن تبقى تحت السيطرة».

بالطبع كنتُ أعرف، لكن ذلك لم يجعل الأمر أسهل، عندما كنت أرى حياة مهدورة، انتهت برصاصة من صنع الإنسان.

أضاف: «بيغاسوس شيء مختلف بالطبع، شيء نادر وجميل. لن يلمسه أحد ما دمتُ المسؤول هنا، أقسم لك».

لم أكن أعرف كيف تسرّب الخبر من المحمية إلى الصحافة بأن وعلاً أبيض شوهد في كينارد. بعد بضعة أيام، جاء صحفي محلي وطرق بابنا. كنت غاضبة جداً، وتوسّلت إلى كال أن ينكر وجود بيغاسوس - أو لنقل إنها كانت خدعة - مع العلم أن رأس الوعل الأبيض كان حلم كلّ صياد غير قانوني، إذ كان يستطيع بيعه بسعر باهظ جداً.

هذا هو السبب الذي جعلني أقف هنا الآن في الثانية صباحاً، في أرض العجائب المتجمّدة الغريبة هذه. كنتُ وكال قد بنينا ملجأً بدائياً بالقرب من غابة أشجار البتولا لنراقب المكان. كانت كلّ الأراضي في إسكتلندا مفتوحة للجمهور، ولم يكن لدينا أيّ فكرة عمن قد يجول في المحمية تحت جناح الظلام.

مشيتُ ببطء نحو الأشجار، متوسّلة إلى الوعل أن يظهر حتّى أتمكن من العودة إلى المنزل والنوم، وأنا أعلم أنه آمن لليلة إضافية.

ظهر وكأنه خارج من العدم، كان مشهداً غامضاً عندما رفع رأسه إلى القمر،

ثم استدار، وعيناه البنيتان العميقتان مثبتتان عليّ. راح يمشي نحوي متردّدًا، وأنا أمشي نحوه.

همستُ، «عزيزي بيغاسوس»، ثم رأيتُ ظلًّا يظهر على الثلج من مجموعة الأشجار. رفع الظلّ بندقيّة.

«لا!». صرختُ في الصمت. كان الظل خلف الوعل، وبندقيته موجّهة وجاهزة لإطلاق النار. «توقّف! اجر يا بيغاسوس!».

استدار الوعل ورأى الخطر، ولكن بدلًا من أن يهرب إلى مكان آمن، راح يجري نحوي. دوى طلق ناري، ثم ثانٍ وثالث، وشعرتُ فجأةً بألم حاد في الخاصرة. قفز قلبي من صدري وأخذ ينبض بقوة حتّى أصبتُ بالدوار. خانتني ركبتاي وهويتُ على البساط الثلجي.

من جديد، خيم الصمت. حاولتُ ألا أفقد الوعي، لكنني لم أكن أستطيع الكفاح ضد الظلام، ولا حتّى من أجله.

بعد وقت قصير، فتحت عينيّ ورأيت وجهًا حبيبًا مألوفًا ينحني عليّ. «تيغي، يا حبيبتي. ابقِ معي».

همستُ: «نعم، يا پا».

كان يداعب شعري، كما كان يفعل عندما أكون مريضة. ومن جديد، أغمضت عينيّ، وعرفت أنني كنتُ في مأمن بين ذراعيه.

عندما استعدتُ الوعي، شعرتُ بأحدهم يرفعني عن الأرض. بحثتُ بعينيّ عن پا، لكنني لم أرَ غير وجه كال المذعور، وهو يحاول جاهدًا أن يحملني. أدرتُ رأسي إلى الأكمة، ولمحتُ الجسد المسجّى لوعلٍ أبيض، وقطرات من الدم تتناثر على الثلج من حوله.

عرفتُ أنه رحل.

ملاحظة المؤلفة

تكمّن متعة كتابة سلسلة «الشقيقات السبع» في أن كلّ واحدة منهنّ تختلف اختلافًا كليًا عن الأخرى، وكذلك قصّتها. ولم يسبق لهذا الاختلاف أن كان جليًا مثلما كان لحظة انتهاء من قصة ستار، وبدأت أفكر في كتابة قصة سيّسي، فقد أدركت حينها، أنني كنت أشعر بالخوف من هذه التجربة، بقدر ما كانت سيّسي نفسها تخاف من الخوض فيها. كنت أيضًا مترددة في السفر إلى أستراليا التي لم أزرها من قبل، على الرغم من أنها إحدى المساحات الشاسعة القليلة في هذا العالم، ويرجع ذلك، في الغالب، إلى سمعتها المرتبطة بالعنكب الضخمة الخطيرة. غير أنني، على غرار سيّسي وشقيقاتها، اضطررت إلى مواجهة خوفي والتغلب عليه، لذلك سعدت على متن تلك الطائرة وطفّت في أرجاء أستراليا لأجمع التفاصيل التي أحتاجها لكتابة القصة.

في تلك الرحلة، وقعتُ في حبّ هذا البلد المذهل والمعقّد، وخاصةً منطقة «النقر نقر» - تلك المنطقة الشاسعة المحيطة بأليس سبرينغز، المعروفة شعبياً باسم «أليس» - والتي، لدهشتي وسعادتني، اكتشفت أنها المعبد الأعلى لأساطير الشقيقات السبع في كوكبة الثريا. ولعلّ تلك اللحظة التي تعرّفت فيها، ليس فقط على جمال نظام عقائدي ثقافي حافظ على حياة السكان الأصليين لأكثر من خمسين ألف عام وسط بيئة قاسية لا ترحم، بل على طابعه العملي البحت أيضاً، كانت أكثر اللحظات تواضعاً وتأثيراً في رحلتي البحثية العديدة حول العالم.

أنا روائية أكتب أدب الخيال، لكنني أخذ الأبحاث التي تشكّل خلفية رواياتي على قدرٍ عالٍ من الجدية كما يفعل أي مؤرّخ، لأن التاريخ - وتأثيره على حياة الشقيقات، بل وعلى حياتنا نحن أيضاً في الوقت الحاضر، هو شغفي الأصيل. إن

قَصَّتِي غرق السفينة كومبانا واللؤلؤة الوردية تستندان إلى روايات تاريخية حقيقية، على الرغم من أن آخر ظهور للؤلؤة، كان في الرحلة الأخيرة المشؤومة التي أبحرت فيها السفينة كومبانا متجهة إلى بروم، وقد أضفت لمسة خيالية مُحتملة لما حدث بعد ذلك.

لكن، وعلى الرغم من أن كلّ تفصيل يرد في الكتب، يتم تدقيقه والتحقّق منه مرات عدّة، إلا أنني أدركتُ أن كل رواية لحدث تاريخي تظل رواية ذاتية، لأن كل رأي مكتوب أو منطوق هو رأي بشري في نهاية المطاف. لذلك، فإن المسؤولية الكاملة عن أي أخطاء في تفسير الحقائق الواردة في رواية «الشقيقة اللؤلؤة»، تقع على عاتقي وحدي.

شكر

كُثر هم الأشخاص الذين أسهموا في دعم الأبحاث الضرورية التي أجريتها من أجل هذه الرواية، وأنا ممتنة لهم جميعًا، كل باسمه وصفته:

في أديليد، أشكر صديقي القديم الذي كان يقيم في منزلي بلندن، مارك أنغوس، الذي كان دليلي السياحي، وسائقي، ومصدرًا لا ينضب من المعرفة، لاسيما في ما يتصل بأفضل أنواع النبيذ الأسترالي! في بروم، أشكر جاي بيشارد من وكالة السياحة المحلية Pearl Luggers Tour، وموظفي جمعية بروم التاريخية، وجمعية ياورو. في أليس سبرينغز، أخص بالشكر الجزيل فيل كوك وآلي تيرنر، اللذين سافرا من بريسبن إلى أليس لمرافقتنا في جولتنا البحثية. كانت الرحلة إلى هيرمانسبورغ عبر «النقر نقر» من التجارب التي لن أنساها ما حييت. كما أتقدم بالشكر إلى آدم بالمر، وليهي أرشيبالد في محطة التلغراف، ورودني ماتوشكا في بعثة هيرمانسبورغ. ولا أنسى عددًا من الرجال والنساء من السكان الأصليين الأستراليين الذين التقينا بهم في رحلتنا، ولم يرغبوا في ذكر أسمائهم، لكنهم ساعدوني في تكوين صورة حيّة عن حياتهم وثقافتهم.

في تايلاند، شكرًا جزيلًا لناتي التي - عندما كنت أكتب عن ماضي كيتي، وارتفعت الحرارة إلى 45 درجة، ما أدّى إلى توقّف مكيف الهواء عن العمل، بذلت قصارى جهدها لإبقائي هادئة ومتزنة. وكذلك باتريك من منتجع Rayavadee Villas على شاطئ فرا نانغ، الذي أبعد القروء عني وحرص على تأمين راحتي وكل ما كنت أحتاجه من طعام وشراب.

شكرًا جزيلًا أيضًا لبن برينسدن، الذي أرشدني بصبر في كتابة نصوص سيسي، وساعدني في فهم التحديات التي تواجه المصابين بعسر القراءة.

أما أعظم الشكر فأتقدم به إلى أوليفيا رايلي، مساعدتي الشخصية الرائعة ورفيقة دربي، التي جابت أستراليا بصحبتني، وساعدتني على الصمود والاستمرار. لم يكن يصعب عليك شيء يا ليقي، ولولاك لما تمكنت من إنجاز هذا العمل.

أشكر جميع ناشريّ الرائعين حول العالم، الذين دعموني ودعموا سلسلة «الشقيقات السبع» منذ البداية، مع أن معظمهم اعترف لاحقًا بأنهم اعتبروني مجنونة لخوضي مشروعًا بهذه الضخامة. أذكر على سبيل المثال لا الحصر، جيز وكاثرين من دار نشر Pan Macmillan، المملكة المتحدة؛ كنوت، پيپ، وجوريد في دار نشر Cappelen Damm، النرويج؛ جورج، كلوديا، وفريق العمل في دار نشر Goldmann، ألمانيا؛ دوناتيل، أنطونيو، أناليزا، وأليساندرو في دار نشر Giunti، إيطاليا؛ ماريت وأونا في دار نشر Zvaigzne ABC، لاتفيا؛ جورجيتا في دار نشر Tyto Alba، ليتوانيا؛ فرناندو، نانا و«الإخوة» في دار نشر Arqueiro، البرازيل؛ ماري لويز، آن، وجاكوب في دار نشر Rosinante، الدنمارك. لقد أصبحت جميعًا أصدقاء أعزاء، وقد تشاركنا لحظات ضحك لا تُنسى في أثناء زياراتي. شكرًا، شكرًا، شكرًا، لقد كنتم كرماء وحكماء تجاه الشقيقات السبع، وتجاهي أيضًا.

كما إنني في غاية الامتنان لإيلا ميشلر، وسوزان موس، وجاكليين هيسلوف، ولسلي بيرنز، وبالطبع أوليفيا رايلي - المعروفات باسم «فريق لولو» - على ما قدّمه من أبحاث حيوية، ومساعدة تحريرية، ودعم منزليّ من وراء الكواليس، خلال عام حافلٍ بالفوضى. شكرًا لكنّ جميعًا على صبركن وقدرتكن على إنجاز مهام متعدّدة في وقت قصير، مع انشغالاتي المتزايدة أكثر من أي وقت مضى. أخيرًا، كل الامتنان لستيفن - زوجي، ووكيل أعمالي، ومستشاري، وصديقي المقرب - لم أكن لأتمكن من تحقيق ذلك من دونك.

هاري، وبيل، وليونورا، وكيث - أنا فخورة جدًا بكم. أنتم تُدخلون إلى حياتي الضحك والإحباط والسعادة، وتنجحون دائمًا في إعادتي إلى أرض الواقع. أحبك جميعًا.

أخيرًا، وكما هو الحال دائمًا، إلى قرائي حول العالم: لقد احتضنتم الشقيقات،
وضحكتم، وأحببتكم، وبكيتكم معهنّ كما فعلتُ وأنا أكتب قصصهنّ. ذلك لأننا ببساطة
- نحن وهنّ - بشر مثلكم. شكرًا لكم.

لوسيندا رايلي

نيسان 2017

مكتبة
t.me/soramnqraa

قائمة المراجع

«الشقيقة اللؤلؤة» هو عمل روائي خيالي يقوم على خلفية تاريخية وأسطورية. وفي ما يلي قائمة المصادر التي اعتمدتها، في بحوث عن تلك الفترة الزمنية وتفاصيل حياة الشخصيات التي ابتكرتها من نسج خيالي:

- Munya Andrews, The Seven Sisters of the Pleiades (Spinifex Press, 2004)
- John Bailey, The White Divers of Broome (Pan Macmillan Australia, 2002)
- Annie Boyd, Koombana Days (Fremantle Press, 2013) Diney Costeloe, The Throwaway Children (Head of Zeus, 2015)
- J. E. deB. Norman and G. V. Norman, A Pearling Master's Journey (BPA Print Group Pty Ltd, 2008)
- Susanna de Vries, Great Pioneer Women of the Outback (Harper Collins, 2005)
- Mark Dodd, The Last Pearling Lugger (Pan Macmillan Australia, 2011)
- Martin Edmond, Battarbee and Namatjira (Giramondo, 2014)
- Aji Ellies, The Pearls of Broome (CopyRight Publishing Company Pty Ltd, 2010)
- Barry Hill, Broken Song: TGH Strehlow and Aboriginal Possession (Vintage, 2002)
- Ion L. Idriess, Forty Fathoms Deep (Angus and Robertson Limited, 1945)
- John Lamb, Silent Pearls: Old Japanese Graves in Darwin and the History of Pearling (Bytes On Colours, 2015)
- Peter Latz, Blind Moses (IAD Press, 2014)
- Carl Strehlow, Die Aranda- und Loritja-Stämme in Zentral- Australien (Ed.

Städtisches Völkerkunde-Museum Frankfurt am Main and Moritz Freiherr v. Leonhardi, Vol. 1–5, Frankfurt 1907–1920)

TGH Strehlow, Journey to Horseshoe Bend (Giramondo, 2015)

John G. Withnell, The Customs and Traditions of the Aboriginal Natives of North Western Australia (Dodo Press, 1901)

مكتبة
t.me/soramnqraa

تستطيعون قراءة مزيدٍ عن تيغي وأخواتها في الكتاب الخامس في:

السُّقِيقَةُ الْقَمَرُ

يدفع اليأس سييسي دابلييز إلى الهروب من إنكلترا، وترك دراسة الفنون، بهدف اكتشاف ماضيها وعائلتها. دليلها صورة بالأبيض والأسود، واسم سيدة عاشت في أستراليا منذ مئة عام. وفي طريقها إلى أستراليا تعرّج سييسي على شواطئ كرابي المذهلة في تايلند بحثاً عن الصفاء والسكينة. لتعيش قصة حب عاصفة مع رجل غامض، حياته حافلة بالأسرار. تبدأ رحلة استكشاف الماضي عند وصولها إلى أستراليا، حيث تنكشف لها خيوط قصة قديمة عاشها أسلافها، ومن ضمنهم شقيقان توأمان متشابهان حد التطابق.

وتتراكب أحداث رواية «الشقيقة اللؤلؤة» وهي الرابعة من سلسلة «الشقيقات السبع» وتتقارب شخصياتها ويتجمّع شتاتها وتتصافر قصصها لتبني رواية شيقة تأسر القارئ، فيحسب أنه يعيش مع كل شخصية على حدة، في نجاحها وفشلها، حبها وخيبتها، أملها وألمها.

لوسيندا رايلي، وُلدت في إيرلندا في العام 1965 وكتبت روايتها الأولى في سنّ الرابعة والعشرين. تُرجمت رواياتها إلى 33 لغة وبيعت ملايين النسخ منها لتصل إلى رأس قائمة الكتب الأكثر مبيعاً على مستوى العالم. سلسلة من 7 قصص كتبها لوسيندا، وأكملها ابنها هاري بالكتاب الثامن. حازت الجائزة البلاطينية الهولندية للرواية الأكثر مبيعاً في عام واحد، وهي الجائزة نفسها التي مُنحت لسلسلة هاري پوتر. توفيت لوسيندا في العام 2021 بعد معاناة مع السرطان.



مكتبة
t.me/soramnqraa



www.all-prints.com

للاطلاع على منشوراتنا

